تيسير التفسير
(١)

تيسير
تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي
مع الاحتفاظ بكل محتوياته

١٠

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار
للنشر والتوزيع

تيسير التفسير

(١)

تيسير تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي مع الاحتفاظ بكل محتوياته

١٠

أ. د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى: ١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	٧
سورة النمل	٧
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٧
مقاطع السورة ونظمها:	٧
١. آيات القرآن هدىً وبشرى للمؤمنين:	٨
٢. تزيين أعمال الكافرين وسوء عذابهم:	٩
٣. تلقي القرآن من لدن حكيم عليم:	٩
٤. رؤية موسى النار وقصده لها:	١٠
٥. نداء الله من الشجرة المباركة وتسبيحه:	١٠
٦. آية العصا وتطييب خاطر موسى:	١٢
٧. آية اليد التي تخرج بيضاء من غير سوء:	١٤
٨. مجيء الآيات وجحدها من فرعون وقومه ظلماً وعلواً:	١٤
٩. إيتاء داود وسليمان العلم وحمدهما لله:	١٤
١٠. وراثة سليمان لداود وعلم منطق الطير:	١٥
١١. حشر جنود سليمان وقصة النملة ودعاء الشكر:	١٨
١٢. تفقد سليمان للطير ووعيده للهدهد:	٢١
١٣. خبر الهدهد عن سبأ وعرشها العظيم وسجودها للشمس:	٢٢
١٤. تعجب الهدهد من عدم سجود سبأ لله:	٢٣
١٥. كتاب سليمان إلى ملكة سبأ يدعوها للإسلام:	٢٤
١٦. استشارة ملكة سبأ للملأ:	٢٧
١٧. إرسال ملكة سبأ الهدية إلى سليمان:	٢٧
١٨. رد سليمان على الهدية وتهديده بالقوة:	٢٨
١٩. طلب عرش ملكة سبأ وإحضاره بفضل الله:	٣٠
٢٠. تنكير العرش واختبار ملكة سبأ:	٣٤
٢١. دخول ملكة سبأ الصرح وإسلامها مع سليمان:	٣٥
٢٢. إرسال صالح إلى ثمود واستعجالهم بالسيئة:	٣٦

٢٣. مكر الرهط المفسدين وتدميرهم وإنجاء المؤمنين: ٣٨
٢٤. قصة لوط وإنكار فاحشة قومه وإنجائه وإهلاكهم: ٣٩
٢٥. الحمد لله والسلام على عباده المصطفين: ٤١
٢٦. الله خالق السموات والأرض ومنزل الماء للحدائق: ٤٢
٢٧. الله جاعل الأرض قراراً والأنهار والرواسي والحواجز: ٤٣
٢٨. الله مجيب المضطر وكاشف السوء وجاعل الخلفاء: ٤٣
٢٩. الله الهادي في الظلمات والمرسل الرياح بشراً: ٤٨
٣٠. الله مبدئ الخلق ومعيده وهو الرزاق: ٤٨
٣١. لا يعلم الغيب إلا الله وجهل المشركين بالبعث: ٤٩
٣٢. إنكار الكفار للبعث واستهزاؤهم وسيرهم في الأرض: ٥٢
٣٣. استعجال الكفار للعذاب وقرب حلوله: ٥٣
٣٤. فضل الله على الناس وعدم شكر أكثرهم: ٥٤
٣٥. القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر ما وقع فيه اختلافهم: ٥٥
٣٦. قضاء الله بين بني إسرائيل بالحق: ٥٥
٣٧. النبي لا يُسمع الموتى ولا يهدي العمي: ٥٦
٣٨. خروج الدابة عند وقوع القول عليهم: ٥٦
٣٩. حشر فوج من كل أمة وتوبيخهم وتبرؤهم: ٥٩
٤٠. جعل الليل للسكون والنهار مبصراً: ٦٢
٤١. نفخ الصور وفزع من في السموات والأرض: ٦٢
٤٢. رؤية الجبال تمر مرّ السحاب وصنع الله المتقن: ٦٤
٤٣. جزاء الحسنة والسيئة يوم القيامة: ٦٦
٤٤. الأمر بعبادة رب البلد الحرام وتلاوة القرآن: ٦٧
٤٥. الحمد والآيات والمعرفة: ٦٩
سورة القصص ٧١
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٧١
مقاطع السورة ونظمها: ٧١
١. آيات الكتاب المبين ونبأ موسى وفرعون بالحق: ٧٤
٢. علو فرعون وسنة الله في نصر المستضعفين: ٧٥

٣. وحي الله لأم موسى وإلقاؤه في اليم وردّه إليها:	٧٨
٤. تحريم المراضع على موسى وردّه إلى أمه:	٨٢
٥. بلوغ موسى أشده وإيتاؤه الحكم والعلم:	٨٣
٦. دخول موسى المدينة ووكزه الرجل واستغفاره:	٨٥
٧. خوف موسى واستصراخ الرجل وتوبيخه له:	٨٨
٨. مجيء الرجل من أقصى المدينة ينبه موسى ويأمره بالخروج:	٨٩
٩. توجه موسى نحو مدين ودعاؤه بالهداية:	٩٠
١٠. وصول موسى إلى ماء مدين وسقيه للمرأتين:	٩٠
١١. مجيء إحدى المرأتين تدعوه إلى أبيها وقصصه عليه:	٩٣
١٢. استئجار موسى وزواجه بإحدى ابنتي الرجل الصالح:	٩٣
١٣. قضاء موسى الأجل ورؤيته النار ونداء ربه:	٩٦
١٤. رؤية موسى لآيات ربه:	٩٨
١٥. خوف موسى من فرعون واستعانته بهارون:	٩٩
١٦. مجيء موسى بالآيات واتهامهم له بالسحر:	١٠١
١٧. ادعاء فرعون الربوبية وأمره هامان ببناء الصرح:	١٠٢
١٨. استكبار فرعون وإغراقه وجعله إماماً يدعو للنار:	١٠٤
١٩. إيتاء موسى الكتاب بعد إهلاك القرون الأولى:	١٠٥
٢٠. إعلام الله لنبيه بالغيب:	١٠٦
٢١. الرسالة والحق والكفر والأهواء:	١٠٨
٢٢. التحدي بالإتيان بكتاب أهدى:	١٠٩
٢٣. الصادقون من الذي أوتوا الكتاب من قبل وإيمانهم:	١١١
٢٤. الهداية بيد الله لا بيد النبي:	١١٣
٢٥. خوف المشركين من اتباع الهدى وتطمين الله لهم:	١١٤
٢٦. إهلاك القرى المستكبرة وإرسال الرسل قبل العذاب:	١١٥
٢٧. متاع الدنيا زينة والآخرة خير وأبقى:	١١٧
٢٨. سؤال المشركين عن شركائهم وتبرؤهم منهم:	١١٨
٢٩. سؤال المشركين عن جوابهم للمرسلين:	١٢٠
٣٠. الخلق والاختيار لله وله الحكم والمرجع:	١٢١

٣١. الليل والنهار والضياء والسكن:	١٢٥
٣٢. سؤال المشركين عن شركائهم وضلال ما كانوا يفترون:	١٢٧
٣٣. قصة قارون وكنوزه وبغيه وموعظة قومه:	١٢٨
٣٤. خروج قارون في زينته وموعظة العلماء:	١٣٥
٣٥. خسف الله بقارون وداره وندم الحاسدين:	١٣٦
٣٦. دار الآخرة للذين لا يريدون علواً ولا فساداً:	١٣٧
٣٧. القرآن والمعاد والعلم:	١٣٩
٣٨. الكتاب رحمة من الله والنهي عن مناصرة الكافرين:	١٤٢
٣٩. النهي عن الصد عن آيات الله والدعوة إلى التوحيد:	١٤٣
٤٠. التوحيد الخالص وكل شيء هالك إلا وجه الله:	١٤٣
سورة العنكبوت	١٤٥
مقاصد السورة ومحتوياتها:	١٤٥
مقاطع السورة ونظمها:	١٤٦
١. الابتلاء يميز الصادق من الكاذب:	١٤٧
٢. السبق والحكم والسيئات:	١٥٠
٣. لقاء الله غاية المجاهدين:	١٥١
٤. بر الوالدين وطاعتهما في غير الشرك:	١٥٤
٥. إدخال المؤمنين الصالحين في زمرة الصالحين:	١٥٥
٦. معرفة الله للمؤمنين والمنافقين وما في الصدور:	١٥٥
٧. تحميل الكفار أوزار اتباعهم وافتراؤهم:	١٥٩
٨. دعوة نوح والطوفان آية للعالمين:	١٦٠
٩. عبادة الله وطلب الرزق منه والبلاغ المبين:	١٦١
١٠. قدرة الله على بدء الخلق وإعادته:	١٦٣
١١. العذاب والرحمة واليأس والإعجاز:	١٦٤
١٢. إنجاء الله لإبراهيم من النار آية للمؤمنين:	١٦٦
١٣. الأوثان سبب التفرق والعداوة يوم القيامة:	١٦٧
١٤. إبراهيم والهجرة وهبة الولد ومعهم النبوة والكتاب:	١٦٩
١٥. إنكار لوط على قومه واستعجالهم العذاب:	١٧٠

١٦. إهلاك قرية لوط وإنجاء من آمن إلا امرأته: ١٧١
١٧. دعوة شعيب قومه إلى الله وتكذيبهم له: ١٧٤
١٨. عقوبات متنوعة للأمم السابقة جزاء ظلمهم: ١٧٥
١٩. وهن من يتخذ أولياء من دون الله وتشبيههم ببيت العنكبوت: ١٧٦
٢٠. تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة والنهي عن الفحشاء والمنكر: ١٧٩
٢١. مجادلة أهل الكتاب بالحسنى: ١٨٤
٢٢. الكتاب والإيمان والجحود: ١٨٥
٢٣. نفي الريب عن القرآن: ١٨٥
٢٤. القرآن رحمة وذكرى للمؤمنين: ١٨٧
٢٥. استعجال العذاب وإحاطة جهنم بالكافرين: ١٨٨
٢٦. أرض الله واسعة والموت مصير كل نفس والجنة للمتقين: ١٨٩
٢٧. تكفل الله برزق كل دابة وهو السميع العليم: ١٩٢
٢٨. إقرار المشركين بالخالق وإفكهم وعدم عقلهم: ١٩٢
٢٩. الدنيا لهو ولعب والآخرة هي الحياة الحقيقية: ١٩٤
٣٠. إخلاص الدعاء عند الشدة والشرك عند النجاة: ١٩٥
٣١. حرم مكة آمن والكافرون مصيرهم جهنم: ١٩٥
٣٢. هداية الله للمجاهدين في سبيله وصحبته للمحسنين: ١٩٦
سورة الروم ١٩٨
مقاصد السورة ومحتوياتها: ١٩٨
مقاطع السورة ونظمها: ١٩٨
١. غلبة الروم ووعد الله بالنصر للمؤمنين: ١٩٩
٢. وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون: ٢٠٢
٣. التفكر في خلق السماوات والأرض والحق والأجل: ٢٠٣
٤. السير في الأرض والاعتبار بعاقبة المكذبين: ٢٠٥
٥. بدء الخلق وإعادته وجزاء المؤمنين والكافرين: ٢٠٦
٦. التسبيح والإحياء والإماتة: ٢٠٧
٧. آية خلق الإنسان من تراب ثم انتشاره: ٢٠٩
٨. خلق الأزواج وجعل المودة والرحمة: ٢١٠

٩. اختلاف الألسنة والألوان آية للعالمين:	٢١١
١٠. المنام والابتغاء من فضل الله آية للسامعين:	٢١٢
١١. إحياء الأرض بالمطر آية للعاقلين:	٢١٢
١٢. قيام السماوات والأرض بأمر الله والبَعْث:	٢١٣
١٣. ملك الله للسماء والأرض وقنوت كل شيء له:	٢١٥
١٤. بدء الخلق وإعادته والمثل الأعلى لله:	٢١٥
١٥. ضرب المثل من الأنفس لبيان بطلان الشرك:	٢١٩
١٦. إقامة الوجه للدين حنيفاً والفطرة:	٢٢١
١٧. الإنابة إلى الله والتقوى والنهي عن الشرك والفرقة:	٢٢٢
١٨. دعاء الله عند الضر ثم الشرك عند الرحمة:	٢٢٣
١٩. فرح الناس بالرحمة وقنوطهم عند السيئة:	٢٢٤
٢٠. إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل:	٢٢٦
٢١. الربا لا يربو عند الله والزكاة يضاعفها:	٢٢٦
٢٢. الخلق والرزق والإماتة والإحياء:	٢٢٧
٢٣. الفساد في البر والبحر بسبب أعمال الناس:	٢٢٨
٢٤. إقامة الوجه للدين القيم:	٢٣١
٢٥. إرسال الرياح مبشرات ورحمة وجريان الفلك:	٢٣٢
٢٦. إرسال الرسل بالبينات والانتقام من المجرمين ونصر المؤمنين:	٢٣٣
٢٧. إحياء الأرض بالمطر دليل على قدرة الله على البعث:	٢٣٤
٢٨. الموتى والصم والعمي والإسلام:	٢٣٦
٢٩. خلق الإنسان من ضعف ثم قوة ثم ضعف وشيبة:	٢٣٦
٣٠. قِصر زمن الدنيا بالنسبة للآخرة:	٢٣٧
٣١. إيمان أهل العلم بالبعث وعدم نفع المعذرة للظالمين:	٢٣٨
٣٢. ضرب الأمثال في القرآن وجحود الكافرين بها:	٢٣٩
٣٣. طبع الله على قلوب الجاهلين والصبر على وعد الله:	٢٣٩
سورة لقمان	٢٤٠
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٢٤٠
مقاطع السورة ونظمها:	٢٤٠

١. آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين: ٢٤٠
٢. شراء لهو الحديث لإضلال الناس: ٢٤١
٣. جنات النعيم للمؤمنين الصالحين: ٢٤٣
٤. خلق السموات والأرض وما فيها آية للمؤمنين: ٢٤٤
٥. إيتاء لقمان الحكمة وأمره بشكر الله: ٢٤٥
٦. تحذير لقمان لابنه من الشرك الأعظم: ٢٤٧
٧. الوصية بالوالدين وشكرهما مع عدم طاعتهما في الشرك: ٢٤٧
٨. علم الله بما في السماوات والأرض من خردلة فما فوقها: ٢٥٠
٩. من وصايا لقمان لابنه: الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر: ٢٥١
١٠. النهي عن التكبر والتجبر في المشي: ٢٥٢
١١. القصد في المشي وغض الصوت وكراهة رفع الصوت: ٢٥٢
١٢. تسخير ما في السموات والأرض وإسباغ النعم ظاهرة وباطنة: ٢٥٣
١٣. تقليد الآباء في الكفر: ٢٥٥
١٤. من يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى: ٢٥٦
١٥. النهي عن الحزن على كفر الكافرين: ٢٥٧
١٦. إقرار المشركين بأن الله خالق السموات والأرض: ٢٥٧
١٧. لله ملك السموات والأرض وهو الغني الحميد وكلماته لا تنفد: ٢٥٨
١٨. الخلق والبعث والسمع والبصر: ٢٥٩
١٩. إيلاج الليل في النهار وتسخير الشمس والقمر: ٢٦١
٢٠. الله هو الحق وما يدعون من دونه الباطل: ٢٦٢
٢١. جريان الفلك في البحر آية لكل صبار شكور: ٢٦٤
٢٢. إخلاص الدعاء لله عند الشدة: ٢٦٤
٢٣. تقوى الله والخوف من يوم القيامة: ٢٦٥
٢٤. ما استأثر الله بعلمه من الغيب: ٢٦٦
سورة السجدة ٢٦٨
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٢٦٨
مقاطع السورة ونظمها: ٢٦٨
١. تنزيل الكتاب من رب العالمين لا ريب فيه: ٢٦٨

٢. خلق السموات والأرض واستواء الله على العرش: ٢٦٩
٣. تدبير الأمر من السماء إلى الأرض في يوم مقداره ألف سنة: ٢٧٢
٤. الغيب والشهادة والخلق والروح: ٢٧٤
٥. تكذيب المشركين بالبعث وتذكيرهم بملك الموت: ٢٧٧
٦. ندم المجرمين يوم القيامة وتمنيهم الرجعة: ٢٧٩
٧. من صفات المؤمنين: السجود والتسبيح وقيام الليل والإنفاق: ٢٨١
٨. ما أخفي للمؤمنين من قرة أعين جزاء أعمالهم: ٢٨٣
٩. تفاوت المؤمن والفاسق في الجزاء يوم القيامة: ٢٨٤
١٠. العذاب الأدنى قبل الأكبر: ٢٨٦
١١. إيتاء موسى الكتاب وجعل الأئمة يهدون بأمر الله: ٢٨٧
١٢. السير في مساكن الأمم الماضية آية وعبرة لمن يسمع: ٢٨٩
١٣. إحياء الأرض بالماء وإخراج الزرع آية: ٢٨٩
١٤. يوم الفتح وعدم نفع الإيمان عنده للذين أنكروه: ٢٩٠
سورة الأحزاب ٢٩٢
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٢٩٢
مقاطع السورة ونظمها: ٢٩٢
١. أمر النبي بالتقوى واتباع الوحي والتوكل على الله: ٢٩٣
٢. نفي وجود قلبين للرجل ونفي كون الأدعياء أبناء: ٢٩٤
٣. دعوة الأدعياء لآبائهم: ٢٩٧
٤. النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم: ٢٩٨
٥. أخذ الميثاق من النبيين وسؤال الصادقين عن صدقهم: ٣٠٠
٦. ذكر نعمة الله على المؤمنين يوم الأحزاب: ٣٠٣
٧. بلاء المؤمنين وزلزلتهم الشديدة يوم الأحزاب: ٣٠٣
٨. النفاق والمرض والغرور: ٣٠٤
٩. تخاذل المنافقين وفرارهم من القتال: ٣٠٥
١٠. إحباط أعمال المنافقين وشحهم وبخلهم: ٣٠٦
١١. الأسوة الحسنة برسول الله لمن يرجو الله واليوم الآخر: ٣٠٧
١٢. إيمان المؤمنين عند رؤية الأحزاب وتسليمهم بأمر الله: ٣٠٨

١٣. صفات المؤمنين الثابتين الصادقين: ٣٠٩
١٤. جزاء الصادقين وعقوبة المنافقين: ٣١٠
١٥. رد الله الكافرين بغيظهم وكفاية المؤمنين القتال: ٣١٠
١٦. قذف الرعب في قلوب الخائنين: ٣١٨
١٧. تخيير النبي لأزواجه بين الدنيا والآخرة: ٣٢١
١٨. نساء النبي وجزاء الإحسان والإساءة: ٣٢٤
١٩. نهي نساء النبي عن الخضوع بالقول: ٣٢٥
٢٠. الأمر بالاستقرار في البيوت وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: ٣٢٦
٢١. إرادة الله إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم: ٣٢٧
٢٢. تذكير نساء النبي بما يتلى في بيوتهن من الآيات والحكمة: ٣٢٨
٢٣. صفات المسلمين الصادقين وجزاؤهم: ٣٢٨
٢٤. وجوب الامتثال لأمر الله ورسوله وعدم الخيرة: ٣٣٠
٢٥. قصة زيد وزوجته وإبطال التبني وإيجاب تنفيذ أمر الله: ٣٣١
٢٦. لا حرج على النبي فيما فرض الله له والأمر قدر مقدور: ٣٣٤
٢٧. محمد رسول الله وخاتم النبيين: ٣٣٥
٢٨. الأمر بذكر الله كثيراً وتسبيحه وتحية المؤمنين يوم القيامة: ٣٣٧
٢٩. إرسال النبي بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً: ٣٣٩
٣٠. حكم المطلقات قبل الدخول والمساس: ٣٤١
٣١. إحلال أزواج النبي وملك اليمين وبنات العم والخالات والهبة: ٣٤٢
٣٢. ترجية النبي من يشاء من النساء وإيوائهن: ٣٤٤
٣٣. تحريم النساء على النبي بعد ذلك وعدم تبديلهن: ٣٤٥
٣٤. آداب الدخول إلى بيوت النبي والطعام والحديث: ٣٤٦
٣٥. فرض الحجاب وكونه أطهر للقلوب: ٣٤٧
٣٦. النهي عن أذى رسول الله وعن نكاح أزواجه من بعده: ٣٤٧
٣٧. إباحة كشف الزينة للمحارم والنساء وما ملكت أيمانهن: ٣٤٨
٣٨. صلاة الله وملائكته على النبي وأمر المؤمنين بذلك: ٣٤٩
٣٩. لعنة الله على من يؤذي النبي والمؤمنين: ٣٥٠
٤٠. أمر النساء بالحجاب: ٣٥١

٤١. وعيد المنافقين والمرجفين بالقتل والإخراج:	٣٥٢
٤٢. علم الساعة عند الله ولعنة الكافرين وندمهم:	٣٥٣
٤٣. النهي عن التشبه بمن آذوا نبي الله موسى:	٣٥٤
٤٤. الأمر بالتقوى والقول السديد لإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب:	٣٥٥
٤٥. عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وحمل الإنسان لها:	٣٥٦
٤٦. عاقبة المنافقين والمشركين والمؤمنين:	٣٥٧
سورة سبأ	٣٥٨
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٣٥٨
مقاطع السورة ونظمها:	٣٥٨
١. الحمد لله مالك ما في السموات والأرض والحكيم الخبير:	٣٥٩
٢. إثبات الساعة وجزاء المؤمنين وعذاب الكافرين:	٣٦٠
٣. استهزاء الكافرين بالبعث ونسبة النبي إلى الجنون والكذب:	٣٦٢
٤. آية الخسف والكسف لمن أناب واتعظ:	٣٦٣
٥. نعمة الله على داود بتسخير الجبال والطير والحديد:	٣٦٣
٦. تسخير الريح والنحاس والجن لسليمان:	٣٦٥
٧. عمل الجن لسليمان وأمره بالشكر وقلة الشاكرين:	٣٦٥
٨. موت سليمان ودلالة دابة الأرض عليه وجهل الجن بالغيب:	٣٦٦
٩. إنعام الله على سبأ بالجنتين والبلدة الطيبة:	٣٦٧
١٠. عقوبة إعراض أهل سبأ:	٣٦٨
١١. جحود سبأ لنعمة القرى المتقاربة والأمن:	٣٦٨
١٢. تصديق إبليس ظنه واتباعه إلا فريقاً من المؤمنين:	٣٧٠
١٣. عجز الآلهة المزعومة عن وزن ذرة وعدم ملكهم شيئاً:	٣٧١
١٤. لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن وكان محقا:	٣٧٢
١٥. الرزق والهدى والضلال والفتح:	٣٧٦
١٦. الشركاء والتنزيه والعزة والحكمة:	٣٧٨
١٧. إرسال الرسول كافة للناس بشيراً ونذيراً:	٣٧٨
١٨. استعجال الوعد وعدم تأخره ساعة ولا تقدُّمه:	٣٨٠
١٩. حوار الضعفاء والمستكبرين وتبرؤهم من بعضهم يوم القيامة:	٣٨١

٢٠. المترفون يكذبون الرسل ويكفرون بما أرسلوا به: ٣٨٣
٢١. الافتخار بالأموال والأولاد وعدم التقرب بها دون الإيمان: ٣٨٣
٢٢. بسط الرزق وقبضه والإنفاق والخلف: ٣٨٥
٢٣. حشر المشركين وسؤال الملائكة وتبرؤهم منهم وعذابهم: ٣٨٦
٢٤. تكذيب الكفار للقرآن: ٣٨٨
٢٥. الكتب والنذير والتكذيب والنكير: ٣٨٨
٢٦. الموعظة بالقيام لله مثنى وفرادى ثم التفكر: ٣٨٩
٢٧. تعفف النبي عن طلب الأجر: ٣٩٠
٢٨. الحق والغيوب والباطل: ٣٩٠
٢٩. الضلال والهدى والوحي: ٣٩١
٣٠. فزع الكافرين يوم القيامة وندمهم وتمنيهم الإيمان: ٣٩١
٣١. الحيلولة بين الكافرين وبين ما يشتهون: ٣٩٤
سورة فاطر ٣٩٦
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣٩٦
مقاطع السورة ونظمها: ٣٩٦
١. الله فاطر السموات والأرض وجاعل الملائكة رسلاً: ٣٩٨
٢. الفتح والإمساك والعزة والحكمة: ٤٠١
٣. تذكير الناس بنعمة الله وإثبات أنه الخالق الرازق: ٤٠٢
٤. التحذير من غرور الدنيا وغرور الشيطان: ٤٠٤
٥. الشيطان والعداوة والسعير والمغفرة: ٤٠٥
٦. تزيين سوء العمل للكافرين وهداية الله لمن يشاء: ٤٠٥
٧. الرياح والسحاب والإحياء والنشور: ٤٠٧
٨. العزة والكلم الطيب والعمل الصالح: ٤٠٨
٩. خلق الإنسان من تراب ثم نطفة ثم جعله أزواجاً: ٤١١
١٠. البحران والطعام والحلية والفلك: ٤١٣
١١. إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر وعدم سماع الأصنام: ٤١٦
١٢. الناس فقراء إلى الله والله هو الغني الحميد: ٤١٧
١٣. لا تزر وازرة وزر أخرى: ٤١٩

١٤. إنذار من يخشى ربه بالغيب ويقيم الصلاة: ٤٢٠
١٥. التفاوت بين الأعمى والبصير والظلمات والنور والظل والحرور: ٤٢١
١٦. تكذيب الأمم السابقة للرسل وعاقبة نكير الله: ٤٢٤
١٧. اختلاف ألوان الثمار والجبال والناس والدواب وخشية العلماء: ٤٢٤
١٨. التلاوة والصلاة والإنفاق والتجارة: ٤٢٦
١٩. الوحي والكتاب حق مصدق لما بين يديه: ٤٢٧
٢٠. إرث الكتاب لمن اصطفى من العباد: ٤٢٨
٢١. الجنات والأساور والحرير والحمد: ٤٢٨
٢٢. نار جهنم للكافرين واصطراخهم وطلبهم الرجعة: ٤٣٠
٢٣. الله عالم غيب السموات والأرض وما في الصدور والخلافة: ٤٣١
٢٤. تحدّي المشركين بشركائهم وأنهم لا يملكون شيئاً: ٤٣٢
٢٥. الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا: ٤٣٤
٢٦. الأيمان والهداية والنفور: ٤٣٥
٢٧. الاستكبار والمكر السيء لا يحيق إلا بأهله: ٤٣٦
٢٨. السير في الأرض والنظر في عواقب الأمم: ٤٣٨
٢٩. المؤاخذة والأجل: ٤٣٨
سورة يس ٤٤١
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٤٤١
مقاطع السورة ونظمها: ٤٤١
١. القرآن الحكيم وإرسال الرسل وإنذار الغافلين: ٤٤٢
٢. الأغلال والسدود والإيمان: ٤٤٥
٣. إحياء الموتى وإحصاء الأعمال: ٤٤٨
٤. أهل القرية وتكذيبهم للمرسلين وعاقبة الإعراض: ٤٥٠
٥. دعوة الرجل المؤمن قومه إلى عبادة الخالق والإيمان بالرسل: ٤٥٥
٦. دخول المؤمن الجنة وتحسر قومه وصيحة العذاب: ٤٥٩
٧. حسرة العباد على استهزائهم بالرسل وإحضار الأمم للحساب: ٤٦١
٨. آية إحياء الأرض الميتة وإخراج الحب والثمرات: ٤٦٢
٩. تنزيه الخالق عن كل نقص وخلقه الأزواج في الكون: ٤٦٤

١٠. آيات الليل والنهار والشمس والقمر: ٤٦٥
١١. حمل ذرية آدم في الفلك ورحمة الله وإغراق الكافرين: ٤٧٠
١٢. الأمر بالتقوى وإعراض المكذبين عن آيات الله: ٤٧١
١٣. أمر المنفقين وردّ الكفار بالاستهزاء والضلال: ٤٧٢
١٤. استعجال الكفار بالعذاب: ٤٧٣
١٥. النفخ في الصور للبعث وعدل الله في الجزاء: ٤٧٤
١٦. من نعيم أهل الجنة: ٤٧٧
١٧. فصل المجرمين وتذكيرهم بعهد الله وعداوة إبليس: ٤٧٩
١٨. ختم الأفواه وشهادة الجوارح يوم القيامة: ٤٨٠
١٩. التعمير والتنكيس والعقل: ٤٨٢
٢٠. القرآن ذكر وهدى ومنذر لكل حي: ٤٨٣
٢١. تسخير الأنعام للناس: ٤٨٥
٢٢. عجز الآلهة المزعومة عن نصر عابديها: ٤٨٦
٢٣. خلق الإنسان من نطفة وإنكار البعث وإحياء العظام: ٤٨٧
٢٤. قدرة الخالق على الإعادة: ٤٨٩
سورة الصافات ٤٩٥
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٤٩٥
مقاطع السورة ونظمها: ٤٩٥
١. الصافات والتوحيد والمشارق: ٤٩٦
٢. الزينة والشهب والشيطان: ٤٩٩
٣. خلق الإنسان من طين وإنكار الكفار للبعث: ٥٠١
٤. البعث والزجرة ويوم الدين: ٥٠٣
٥. حشر الظالمين وأزواجهم ومعبوداتهم إلى الجحيم: ٥٠٣
٦. تحاور أهل النار واعتراف المتبعين والمتبوعين بالضلال: ٥٠٦
٧. استكبار المشركين عن التوحيد وجحودهم الحق: ٥٠٨
٨. نعيم المخلصين في جنات النعيم وما فيها من كرامة: ٥٠٩
٩. تحاور أهل الجنة ونجاة المؤمن من قرين السوء في الجحيم: ٥١٢
١٠. الزقوم والفتنة والحميم: ٥١٤

١١. اتباع الآباء في الضلال وإرسال المنذرين وعاقبة المكذبين: ٥١٦
١٢. استجابة الله لنوح وإنجائه وذريته والسلام عليه: ٥١٧
١٣. إبراهيم والقلب السليم وكيده للأصنام: ٥١٨
١٤. ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه والفداء بالذبح العظيم: ٥٢٣
١٥. منة الله على موسى وهارون وإنجاؤهما وإيتائهما الكتاب: ٥٢٧
١٦. إلياس يدعو قومه لترك عبادة بعل والإخلاص لله: ٥٢٨
١٧. إنجاء لوط وأهله وتدمير الآخرين: ٥٣٠
١٨. قصة يونس وتوبته وإيمان قومه: ٥٣١
١٩. استفهام المشركين عن نسبة البنات لله وادعاء ولد الله: ٥٣٤
٢٠. تنزيه الله عن الشركاء وإخلاص العبادة له: ٥٣٥
٢١. مقام الملائكة وتسبيحهم وصفوفهم: ٥٣٧
٢٢. الذكر والكفر والعلم: ٥٣٩
٢٣. وعد الله بنصر رسله وجنده وغلبتهم: ٥٣٩
٢٤. استعجال الكفار بالعذاب ونزوله بساحتهم: ٥٤١
٢٥. تسبيح الله والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين: ٥٤٢
سورة ص ٥٤٣
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٤٣
مقاطع السورة ونظمها: ٥٤٣
١. القرآن ذو الذكر والكافرون في عزّة وشقاق: ٥٤٤
٢. تعجب الكفار من نذير منهم واتهامه بالسحر: ٥٤٦
٣. كيد الملأ واستكبارهم على التوحيد واتهامهم بالاختلاق: ٥٤٧
٤. الخزائن والملك والجند المهزوم: ٥٤٩
٥. تكذيب الأمم السابقة للرسل واستحقاقهم العقاب: ٥٥٠
٦. انتظار الكفار صيحة واحدة وإنكارهم ليوم الحساب: ٥٥٠
٧. أمر النبي بالصبر وذكر داود وتسخير الجبال والطير معه: ٥٥١
٨. قصة الخصمين اللذين تسورا المحراب على داود: ٥٥٣
٩. استغفار داود وإنابته بعد الفتنة وغفران الله له: ٥٥٨
١٠. خلافة داود في الأرض والحكم بالحق: ٥٥٩

١١. خلق السماوات والأرض بالحق: ٥٦١
١٢. إنزال الكتاب المبارك للتدبر والتذكر: ٥٦٢
١٣. سليمان والخيل والذكر والمسح: ٥٦٣
١٤. ابتلاء سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه: ٥٦٧
١٥. تسخير الريح والشياطين لسليمان وعطاء الله الواسع: ٥٦٧
١٦. دعاء أيوب ربه عند الضر وإجابة الله وشفاؤه: ٥٦٨
١٧. أمر أيوب بضرب الضغث ووفاء النذر وصبره الجميل: ٥٧١
١٨. ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار: ٥٧٢
١٩. ذكر إسماعيل واليسع وذي الكفل: ٥٧٣
٢٠. جزاء المتقين في جنات عدن وما فيها من نعيم: ٥٧٤
٢١. عذاب الطاغين في جهنم: ٥٧٥
٢٢. تحاور أهل النار وتخاصمهم وتلاعنهم: ٥٧٦
٢٣. تحسر أهل النار على فقدان من كانوا يعدونهم أشراراً: ٥٧٧
٢٤. أمر النبي بالإنذار وتقرير التوحيد لله الواحد القهار: ٥٧٧
٢٥. النبأ العظيم وإعراض المشركين عنه ووحي النذارة: ٥٧٩
٢٦. خلق آدم من طين ونفخ الروح فيه وأمر الملائكة بالسجود: ٥٨٠
٢٧. سجود الملائكة واستكبار إبليس وطرده ولعنته: ٥٨٢
٢٨. إبليس وتهديده بإغواء بني آدم إلا المخلصين: ٥٨٤
٢٩. النبي لا يسأل أجراً والقرآن ذكر للعالمين: ٥٨٥
٣٠. العلم بنبأ القرآن بعد حين: ٥٨٦
سورة الزمر ٥٨٧
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٨٧
مقاطع السورة ونظمها: ٥٨٧
١. التنزيل والإخلاص والدين الخالص: ٥٨٩
٢. اتخاذ الأولياء لتقريبهم إلى الله وكذب المشركين: ٥٩٠
٣. نفي الولد عن الله وإثبات الوحدانية: ٥٩٢
٤. خلق الإنسان من نفس واحدة وخلق الأزواج والظلمات الثلاث: ٥٩٥
٥. غنى الله عن عباده وكراهيته للكفر ورضاه بالشكر: ٥٩٦

٦. دعاء الإنسان عند الضر ونسيانه النعمة وشركه بالله: ٥٩٨
٧. فضل القنوت في الليل وعدم استواء العالم والجاهل: ٦٠٠
٨. أمر المؤمنين بالتقوى وبشارة الصابرين بأجر بغير حساب: ٦٠١
٩. الأمر بعبادة الله مخلصاً والخوف من عذابه والخسران المبين: ٦٠٢
١٠. ظلل النار والخوف والتقوى: ٦٠٥
١١. اجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله وبشرى المستمعين للقول: ٦٠٥
١٢. استحقاق الكفار للعذاب وعلو منازل المتقين في الغرف: ٦٠٧
١٣. إنزال الماء وإخراج الزرع ثم يبسه عبرة لأولي الألباب: ٦٠٨
١٤. شرح الصدر للإسلام ونور الهداية: ٦٠٨
١٥. القرآن والجلود والقشعريرة والهداية: ٦١٠
١٦. يوم القيامة وعذاب الظالمين وذوقهم ما كسبوا: ٦١٢
١٧. تكذيب الأمم السابقة للرسل ونزول العذاب بهم: ٦١٣
١٨. مثل الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون والرجل السلم: ٦١٣
١٩. حتمية الموت والبعث والاختصام يوم القيامة: ٦١٤
٢٠. أشد الظلم الكذب على الله وتكذيب الصدق: ٦١٥
٢١. جزاء الصادقين والمتقين وتكفير السيئات وإحسان الجزاء: ٦١٦
٢٢. كفاية الله لعبده وهداية من يشاء وإضلال من يشاء: ٦١٨
٢٣. إقرار المشركين بأن الله خالق السماوات والأرض والتوكل عليه: ٦١٩
٢٤. العمل على المكانة والعذاب المخزي وإنزال الكتاب بالحق: ٦٢٠
٢٥. توفى الأنفس عند الموت والمنام: ٦٢١
٢٦. نفي الشفاعة عن غير الله وملكيته للشفاعة كلها: ٦٢٤
٢٧. اشمئزاز قلوب الكافرين عند ذكر الله واستبشارهم عند ذكر آلهتهم: ٦٢٥
٢٨. دعاء الله فاطر السماوات والأرض وعالم الغيب والشهادة: ٦٢٦
٢٩. افتداء الظالمين بجميع ما في الأرض يوم القيامة وبدو السيئات: ٦٢٦
٣٠. دعاء الإنسان عند الضر ونسيانه عند النعمة: ٦٢٨
٣١. دعوة المسرفين إلى التوبة والمغفرة ورحمة الله الواسعة: ٦٣١
٣٢. الأمر بالإنابة إلى الله والإسلام له قبل حلول العذاب: ٦٣٤
٣٣. اتباع أحسن ما أنزل قبل العذاب وتحسر النفس على التفريط: ٦٣٥

٣٤. سواد وجوه الكاذبين على الله ونجاة المتقين: ٦٣٧
٣٥. الله خالق كل شيء ومقاليد السماوات والأرض بيده: ٦٣٨
٣٦. النهي عن عبادة غير الله وتحذير المشركين من حبوط العمل: ٦٤٠
٣٧. عظمة الله وقبضته للأرض وطي السماوات: ٦٤٢
٣٨. النفخ في الصور وصعقة الموت والبعث والحساب بالحق: ٦٤٤
٣٩. سوق الكافرين إلى جهنم زمراً: ٦٤٩
٤٠. سوق المتقين إلى الجنة زمراً: ٦٥٠
٤١. الملائكة حافون حول العرش يسبحون بحمد ربهم: ٦٥١

سورة النمل

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤٥] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة ـ على ما تدل عليه آيات صدرها والآيات الخمس الخاتمة لها ـ التبشير والإنذار، وقد استشهد لذلك بطرف من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط عليه السلام، ثم عقبها ببيان نبذة من أصول المعارف كوحدانيته تعالى في الربوبية والمعاد وغير ذلك.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن كتاب مبين، وأنه يبشر المؤمنين، وتذكر أن الله هو المنزل له، وأنه رب السموات والأرض، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة في شك.

٢. الآيات [٧ ـ ١٤] أول القصص الخمس التي أشير إليها في السورة استشهاداً لما في صدرها من التبشير والإنذار والوعد والوعيد، وتغلب في الثلاث الأول منها ـ وهي قصص موسى وداود وسليمان ـ جهة الوعد على الوعيد، وفي الأخيرتين بالعكس.

٣. الآيات [١٥ ـ ٤٤] نبذة من قصص داود وسليمان عليه السلام، وفيها شيء من عجائب أخبار سليمان بما آتاه الله من الملك.

٤. الآيات [٤٥ ـ ٥٣] إجمال من قصة صالح النبي عليه السلام وقومه، وجانب الإنذار في الآيات يغلب على جانب التبشير، كما تقدمت الإشارة إليه.

٥. الآيات [٥٤ ـ ٥٨] إجمال قصة لوط عليه السلام، وهي كسابقتها في غلبة جانب الإنذار على جانب التبشير.

٦. الآيات [٥٩ ـ ٨١]:

أ. انتقال من القصص التي قصها سبحانه ـ وهي نماذج من سنته الجارية في النوع الإنساني من حيث هدايته وإراءته لهم طريق سعادتهم في الحياة، وإكرامه من اهتدى منهم إلى الصراط المستقيم بالاصطفاء وعظيم الآلاء، وأخذه من أشرك به وأعرض عن ذكره ومكر به بعذاب الاستئصال وأليم النكال ـ إلى حمده

والسلام على عباده المصطفين، وتقرير أنه هو المستحق للعبودية دون غيره مما يشركون.

ب. ثم سرد الحديث في التوحيد وإثبات المعاد، وما يناسب ذلك من متفرقات المعارف الحقة، فسياق آيات السورة شبيه بها في سورة مريم من السياق على ما مر.

٧. الآيات [٨٢ ـ ٩٣] هي من تمام الفصل السابق من الآيات، تشير إلى البعث وبعض ما يلحق به من الأمور الواقعة فيه، وبعض أشراطه، وتختم السورة بما يرجع إلى مفتتحها من الإنذار والتبشير.

١. آيات القرآن هدىً وبشرى للمؤمنين:

المقطع [١] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤٠»:

١. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾:

أ. الإشارة بتلك، كما مر في أول سورة الشعراء، إلى آيات السورة مما ستنزل بعد وما نزلت قبل، والتعبير باللفظ الخاص بالبعيد للدلالة على رفعة قدرها وبعد منالها.

ب. والقرآن اسم للكتاب باعتبار كونه مقروا، والمبين من الإبانة بمعنى الإظهار، وتنكير (الْقُرْآنِ) للتفخيم أي تلك الآيات الرفيعة القدر التي ننزلها آيات الكتاب وآيات كتاب مقرو عظيم الشأن مبين لمقاصده من غير إبهام ولا تعقيد.

ج. قال في مجمع البيان: (وصفه بالصفتين يعني الكتاب والقرآن ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعا، ووصفه بأنه مبين تشبيه له بالناطق بكذا)

٢. ﴿هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدران أعني ﴿هُدىً وَبُشْرى﴾ بمعنى اسم الفاعل أو المراد بهما المعنى المصدري للمبالغة.

٣. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾، المراد إتيان الأعمال الصالحة وإنما اقتصر على الصلاة والزكاة لكون كل منها ركنا في بابه فالصلاة فيما يرجع إلى الله تعالى والزكاة فيما يرجع إلى الناس وبنظر آخر الصلاة في الأعمال البدنية والزكاة في الأعمال المالية.

٤. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

أ. وصف آخر للمؤمنين معطوف على ما قبله جيء به للإشارة إلى أن هذه الأعمال الصالحة إنما تقع موقعها وتصيب غرضها مع الإيقان بالآخرة فإن العمل يحبط مع تكذيب الآخرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٧]

ب. وتكرار الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ﴾ للدلالة على أن هذا الإيقان من شأنهم وهم أهله المترقب منهم ذلك.

٢. تزيين أعمال الكافرين وسوء عذابهم:

المقطع [٢] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٤ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤٠»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ العمه التحير في الأمر ومعنى تزيين العمل جعله بحيث ينجذب إليه الإنسان والذين لا يؤمنون بالآخرة لما أنكروها وهي غاية مسيرهم بقوا في الدنيا وهي سبيل لا غاية فتعلقوا بأعمالهم فيها وكانوا متحيرين في الطريق لا غاية لهم يقصدونها.

٢. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ﴾ إيعاد بمطلق العذاب من دنيوي وأخروي بدليل ما في قوله: ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ ولعل وجه كونهم أخسر الناس أن سائر العصاة لهم صحائف أعمال مثبتة فيها سيئاتهم وحسناتهم يجازون بها وأما هؤلاء فسيئاتهم محفوظة عليهم يجازون بها وحسناتهم حابطة.

٣. تلقي القرآن من لدن حكيم عليم:

المقطع [٣] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤١»:

أ. التلقية قريبة المعنى من التلقين، وتنكير (حَكِيمٍ عَلِيمٍ) للتعظيم، والتصريح بكون هذا القرآن من عنده تعالى ليكون ذلك حجة على الرسالة وتأييدا لما تقدم من المعارف ولصحة ما سيذكره من قصص الأنبياء عليهمالسلام.

ب. وتخصيص الاسمين الكريمين للدلالة على نزوله من ينبوع الحكمة فلا ينقضه ناقض ولا

يوهنه موهن، ومنبع العلم فلا يكذب في خبره ولا يخطئ في قضائه.

٤. رؤية موسى النار وقصده لها:

المقطع [٤] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤١»:

أ. المراد بأهله امرأته وهي بنت شعيب على ما ذكره الله تعالى في سورة القصص قال في المجمع: (إن خطابها بقوله: ﴿آتِيكُمْ﴾ بصيغة الجمع لإقامتها مقام الجماعة في الأنس بها في الأمكنة الموحشة) ومن المحتمل أنه كان معها غيرها من خادم أو مكار أو غيرهما.

ب. وفي المجمع: (الإيناس الإبصار، وقيل: آنست أي أحسست بالشيء من جهة يؤنس بها وما آنست به فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه) والشهاب على ما في المجمع: (نور كالعمود من النار وكل نور يمتد كالعمود يسمى شهابا والمراد الشعلة من النار، وفي المفردات: (الشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو) وفي المفردات: (أيضا: القبس المتناول من الشعلة، والاصطلاء بالنار الاستدفاء بها)

ج. وسياق الآية يشهد ويؤيده ما وقع من القصة في سور أخرى أنه كان حينذاك يسير بأهله وقد ضل الطريق وأصابه وأهله البرد في ليلة داجية فأبصر نارا من بعيد فأراد أن يذهب إليها فإن وجد عندها إنسانا استخبره أو يأخذ قبسا يأتي به إلى أهله فيوقدوا نارا يصطلون بها، فقال لأهله امكثوا إني أحسست وأبصرت نارا فالزموا مكانكم سآتيكم منها أي من عندها بخبر نهتدي به أو آتيكم بشعلة متناولة من النار لعلكم توقدون بها نارا تصطلون وتستدفئون بها.

د. ويظهر من السياق أيضا أن النار إنما ظهرت له عليه السلام ولم يشاهدها غيره وإلا عبر عنها بالإشارة دون التنكير.

هـ. ولعل اختلاف الإتيان بالخبر والإتيان بالنار نوعا هو الموجب لتكرار لفظ الإتيان حيث قال: ﴿سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ﴾

٥. نداء الله من الشجرة المباركة وتسبيحه:

المقطع [٥] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤٣»:

١. ﴿فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. أي فلما أتى النار وحضر عندها نودي أن بورك.

ب. والمراد بالمباركة إعطاء الخير الكثير يقال: باركه وبارك عليه وبارك فيه أي ألبسه الخير الكثير وحباه به، وقد وقع في سورة طه في هذا الموضع من القصة قوله: ﴿فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى﴾ [طه: ١٣]، ويستأنس منه أن المراد بمن حول النار موسى أو هو ممن حول النار، ومباركته اختياره بعد تقديسه.

٢. وأما المراد بمن في النار:

أ. فقد قيل: إن معناه من ظهر سلطانه وقدرته في النار فإن التكليم كان من الشجرة، على ما في سورة القصص، وقد أحاطت بها النار، وعلى هذا فالمعنى: تبارك من تجلى لك بكلامه من النار وبارك فيك، ويكون قوله: ﴿وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ تنزيها له سبحانه من أن يكون جسما أو جسمانيا يحيط به المكان أو يجاوره الحدثان لا لتعجيب موسى كما قيل.

ب. وقيل: المراد بمن في النار الملائكة الحاضرون فيها كما أن المراد بمن حولها موسى عليه السلام

ج. وقيل: المراد به موسى عليه السلام وبمن حولها الملائكة.

د. وقيل: في الكلام تقدير والأصل بورك من في المكان الذي فيه النار، وهو البقعة المباركة التي كانت فيها الشجرة كما في سورة القصص، ومن فيها هو موسى وحولها هي الأرض المقدسة التي هي الشامات، ومن حولها هم الأنبياء القاطنون فيها من آل إبراهيم وبني إسرائيل.

هـ. وقيل: المراد بمن في النار نور الله تعالى وبمن حولها موسى.

و. وقيل: المراد بمن في النار الشجرة فإنها كانت محاطة بالنار بمن حولها الملائكة المسبحون.

ز. وأكثر هذه الوجوه لا يخلو من تحكم ظاهر.

٣. ﴿يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعرف منه تعالى لموسى عليه السلام ليعلم أن الذي

يشافهه بالكلام ربه تعالى فهذه الآية في هذه السورة تحاذي قوله من سورة طه ﴿نُودِيَ يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ﴾، فارجع إلى سورة طه وتدبر في الآيات.

٦. آية العصا وتطييب خاطر موسى:

المقطع [٦] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤٣»:

١. ﴿وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾:

أ. الاهتزاز التحرك الشديد، والجان الحية الصغيرة السريعة الحركة، والإدبار خلاف الإقبال، والتعقيب الكر بعد الفر من عقب المقاتل إذا كر بعد فراره.

ب. وفي الآية حذف وإيجاز تفصح عنه الفاء الفصيحة في قوله: ﴿فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ﴾ والتقدير وألق عصاك فلما ألقاها إذا هي ثعبان مبين يهتز كأنه جان ولما رآها تهتز إلخ.

ج. ولا منافاة بين صيرورة العصا ثعبانا مبينا كما وقع في قصته عليه السلام من سورتي الأعراف والشعراء والثعبان الحية العظيمة الجثة وبين تشبيهها في هذه السورة بالجان فإن التشبيه إنما وقع في الاهتزاز وسرعة الحركة والاضطراب حيث شاهد العصا وقد تبدلت ثعبانا عظيم الجثة هائل المنظر يهتز ويتحرك بسرعة اهتزاز الجان وتحركه بسرعة وليس تشبيها لنفس العصا أو الثعبان بنفس الجان.

د. وقيل: إن آية العصا كانت مختلفة الظهور فقد ظهرت العصا لأول مرة في صورة الجان كما وقع في سورة طه: ﴿فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى﴾ [آية: ٢٠] من السورة ثم ظهرت لما ألقاها عند فرعون في صورة ثعبان مبين كما في سورتي الأعراف والشعراء.

• وفيه أن هذا الوجه وإن كان لا يخلو بالنظر إلى سياق الآيات عن وجاهة لكنه لا يندفع به إشكال تشبيه الشيء بنفسه أو عدم تبدلها حية فالمعول في دفع الإشكال على ما تقدم.

٢. ﴿يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾:

أ. حكاية نفس الخطاب الصادر هناك وهو في معنى قال الله يا موسى لا تخف.

ب. ﴿لا تَخَفْ﴾ نهي مطلق يؤمنه عن كل ما يسوء مما يخاف منه ما دام في حضرة القرب والمشافهة

سواء كان المخوف منه عصا أو غيرها ولذا علل النهي بقوله: ﴿إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ فإن تقييد النفي بقوله: ﴿لَدَيَ﴾ يفيد أن مقام القرب والحضور يلازم الأمن ولا يجامع مكروها يخاف منه، ويؤيده تبديل هذه الجملة في القصة من سورة القصص من قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ فيتحصل المعنى: لا تخف من شيء إنك مرسل والمرسلون، وهم لدي في مقام القرب، في مقام الأمن ولا خوف مع الأمن.

ج. وأما فرار موسى عليه السلام من العصا وقد تصورت بتلك الصورة الهائلة وهي تهتز كأنها جان فقد كان جريا منه على ما جبل الله الطبيعة الإنسانية عليه إذا فاجأه من المخاطر ما لا سبيل له إلى دفعه عن نفسه إلا الفرار وقد كان أعزل لا سلاح معه إلا عصاه وهي التي يخافها على نفسه ولم يرد عليه من جانبه تعالى أمر سابق أن يلزم مكانه أو نهي عن الفرار مما يخافه على نفسه إلا قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصاكَ﴾ وقد امتثله، وليس الفرار من المخاطر العظيمة التي لا دافع لها إلا الفرار، من الجبن المذموم حتى يذم عليه.

د. وأما إن الأنبياء والمرسلين لا يخافون شيئا وهم عند ربهم، على ما يدل عليه قوله: ﴿إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ فهم لا يملكون هذه الكرامة من عند أنفسهم بل إنما ذلك بتعليم من الله وتأديب وإذ كان موقف ليلة الطور أول موقف من موسى قربه الله إليه فيه وخصه بالتكليم وحباه بالرسالة والكرامة فقوله: ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ تعليم وتأديب إلهي له عليه السلام.

هـ. فتبين بذلك أن قوله: ﴿لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ تأديب وتربية إلهية لموسى عليه السلام وليس من التوبيخ والتأنيب في شيء.

٣. ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. الذي ينبغي أن يقال، والله أعلم، أن الآية السابقة لما أخبرت عن أن المرسلين آمنون لا يخافون فهم منه أن غيرهم من أهل الظلم غير آمنين لهم أن يخافوا استدرك في هذه الآية حال أهل التوبة من جملة أهل الظلم فبين أنهم لتوبتهم وتبديلهم ظلمهم، وهو السوء، حسنا بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا يخافون أيضا.

ب. فالاستثناء من المرسلين وهو استثناء منقطع والمراد بالظلم مطلق المعصية وبالحسن بعد السوء التوبة بعد المعصية أو العمل الصالح بعد السيئ، والمعنى: لكن من ظلم باقتراف المعصية ثم بدل ذلك

حسنا بعد سوء وتوبة بعد معصية أو عملا صالحا بعد سيئ فإني غفور رحيم أغفر ظلمه وأرحمه فلا يخافن بعد ذلك شيئا.

٧. آية اليد التي تخرج بيضاء من غير سوء:

المقطع [٧] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤٥»:

١. ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فسر السوء بالبرص وقد تقدم.

٢. ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ يمكن أن يستظهر من السياق:

أ. أولا أن ﴿فِي تِسْعِ﴾ حال من الآيتين جميعا، والمعنى: آتيتك هاتين الآيتين، العصا واليد، حال كونهما في تسع آيات.

ب. وثانيا: أن الآيتين من جملة الآيات التسع، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، كلام في تفصيل الآيات التسع، والباقي ظاهر.

٨. مجيء الآيات وجحدها من فرعون وقومه ظلماً وعلواً:

المقطع [٨] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤٦»:

١. ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ المبصرة بمعنى الواضحة الجلية، وفي قولهم: ﴿هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ إزراء وإهانة بالآيات حيث أهملوا الدلالة على خصوصيات الآيات حتى العدد فلم يعبئوا بها إلا بمقدار أنها أمر ما.

٢. ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾، قال الراغب: (الجحد نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه)، والاستيقان والإيقان بمعنى.

٩. إيتاء داود وسليمان العلم وحمدهما لله:

المقطع [٩] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤٨»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً﴾، في تنكير العلم إشارة إلى تفخيم أمره، ومما أشير فيه إلى علم داود من كلامه تعالى قوله: ﴿وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ﴾ [ص: ٢٠]، ومما أشير فيه إلى علم سليمان قوله: ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وذيل الآية يشملهما جميعا.

٢. ﴿وَقالا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. المراد بالتفضيل إما التفضيل بالعلم على ما ربما يؤيده سياق الآية، وإما التفضيل بمطلق ما خصهما الله به من المواهب كتسخير الجبال والطير لداود وتليين الحديد له وإيتائه الملك، وتسخير الجن والوحش والطير وكذا الريح لسليمان وتعليمه منطق الطير وإيتائه الملك على ما يستدعيه إطلاق التفضيل.

ب. والآية أعني قوله: ﴿وَقالا الْحَمْدُ للهِ﴾، على أي حال بمنزلة حكاية اعترافهما على التفضيل الإلهي فيكون كالشاهد على المدعى الذي تشير إليه بشارة صدر السورة أن الله سبحانه سيخص المؤمنين بما تقر به عيونهم ومثلها ما سيأتي من اعترافات سليمان في مواضع من كلامه.

١٠. وراثة سليمان لداود وعلم منطق الطير:

المقطع [١٠] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُودَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٤٩»:

١. ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾، أي ورثه ماله وملكه، وأما قول بعضهم: المراد به وراثة النبوة والعلم ففيه أن النبوة لا تقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنه إنما يصح في العلم الفكري الاكتسابي والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل كرامة من الله لهم وهبي ليس مما يكتسب بالفكر فغير النبي يرث العلم من النبي لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا من غير نبي.

٢. ﴿وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه عليه السلام يباهي عن نفسه وأبيه وهو منه عليه السلام تحديث بنعمة الله كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وأما إصرار بعض المفسرين على أن الضمير في

قوله: ﴿عُلِّمْنا﴾ و﴿أُوتِينا﴾ لنفسه لا له ولأبيه على ما هو عادة الملوك والعظماء في الإخبار عن أنفسهم، فإنهم يخبرون عنهم وعن خدمهم وأعوانهم رعاية لسياسة الملك، فالسياق السابق لا يساعد عليه كل المساعدة.

ب. والمراد بالناس ظاهر معناه وهو عامة المجتمعين من غير تميز لبعضهم من بعض وقول بعضهم إن المراد بهم عظماء أهل مملكته أو علماؤهم غير سديد.

ج. والمنطق والنطق على ما نتعارفه هو الصوت أو الأصوات المؤلفة الدالة بالوضع على معان مقصودة للناطق المسماة كلاما ولا يكاد يقال، على ما ذكره الراغب، إلا للإنسان لكن القرآن الكريم يستعمله في معنى أوسع من ذلك وهو دلالة الشيء على معنى مقصود لنفسه، قال تعالى: ﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، وهو إما من باب تحليل المعنى كما يستعمله القرآن في أغلب المعاني والمفاهيم المقصورة في الاستعمالات على المصاديق الجسمانية المادية كالرؤية والنظر والسمع واللوح والقلم والعرش والكرسي وغيرها، وإما لأن للفظ معنى أعم واختصاصه بالإنسان من باب الانصراف لكثرة الاستعمال.

د. وكيف كان فمنطق الطير هو ما تدل به الطير بعضها على مقاصدها، والذي نجده عند التأمل في أحوالها الحيوية هو أن لكل صنف أو نوع منها أصواتا ساذجة خاصة في حالاتها الخاصة الاجتماعية حسب تنوع اجتماعاتها كحال الهياج للسفاد وحال المغالبة والغلبة وحال الوحشة والفزع وحال التضرع أو الاستغاثة إلى غير ذلك ونظير الطير في ذلك سائر الحيوان.

هـ. لكن لا ينبغي الارتياب في أن المراد بمنطق الطير في الآية معنى أدق وأوسع من ذلك:

• أما أولا: فلشهادة سياق الآية على أنه ﷺ يتحدث عن أمر اختصاصي ليس في وسع عامة الناس أن ينالوه وإنما ناله بعناية خاصة إلهية، وهذا المقدار المذكور من منطق الطير مما يسع لكل أحد أن يطلع عليه ويعرفه.

• وأما ثانيا: فلأن ما حكاه الله تعالى في الآيات التالية من محاورة سليمان والهدهد يتضمن معارف عالية متنوعة لا يسع لما نجده عند الهدهد من الأصوات المعدودة أن تدل عليها بتميز لبعضها من بعض ففي كلام الهدهد ذكر الله سبحانه ووحدانيته وقدرته وعلمه وربوبيته وعرشه العظيم وذكر الشيطان

وتزيينه الأعمال والهدى والضلال وغير ذلك، وفيه ذكر الملك والعرش والمرأة وقومها وسجدتهم للشمس، وفي كلام سليمان أمره بالذهاب بالكتاب وإلقائه إليهم ثم النظر فيما يرجعون، وهذه كما لا يخفى على الباحث في أمر المعاني المتعمق فيها معارف جمة لها أصول عريقة يتوقف الوقوف عليها على ألوف وألوف من المعلومات، وأنى تفي على إفادة تفصيلها أصوات ساذجة معدودة.

و. على أنه لا دليل على أن كل ما يأتي بها الحيوان في نطقه من الأصوات أو خصوصيات الصوت يفي حسنا بإدراكه أو تمييزه، ويؤيده ما نقل من قول النملة في الآيات التالية وهو من منطق الحيوان قطعا ولا صوت للنملة يناله سمعنا ويؤيده أيضا ما يراه علماء الطبيعة اليوم أن الذي يناله سمع الإنسان من الصوت عدد خاص من الارتعاش المادي وهو ما بين ستة عشر ألفا إلى اثنين وثلاثين ألفا في الثانية، وأن الخارج من ذلك في جانبي القلة والكثرة لا يقوى عليه سمع الإنسان وربما ناله سائر الحيوان أو بعضها.

ز. وقد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان من عجيب الفهم ولطيف الإدراك عند أنواع من الحيوان كالفرس والكلب والقرد والدب والزنبور والنملة وغيرها على أمور لا يكاد يعثر على نظائرها عند أكثر أفراد الإنسان.

ح. وقد تبين بما مر أن ظاهر السياق أن للطير منطقا علمه الله سليمان، وظهر به فساد قول من قال إن نطق الطير كان معجزة لسليمان وأما هي في نفسها فليس لها نطق هذا.

٣. ﴿وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي أعطينا من كل شيء و﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ وإن كان شاملا لجميع ما يفرض موجودا، لأن مفهوم شيء من أعم المفاهيم وقد دخل عليه كلمة الاستغراق، لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمة ولا كل نعمة بل النعم التي يمكن أن يؤتاها الإنسان فيتنعم بها تقيد به معنى كل شيء وكان معنى الجملة: وأعطانا الله من كل نعمة يمكن أن يعطاها الإنسان فيتنعم بها مقدارا معتدا به كالعلم والنبوة والملك والحكم وسائر النعم المعنوية والمادية.

٤. ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ شكر وتأكيد للتحديث بالنعمة من غير عجب ولا كبر واختيال لإسناده الجميع إلى الله بقوله: ﴿عُلِّمْنا﴾ و﴿أُوتِينا﴾، واحتمل بعضهم أن تكون الجملة من كلام الله سبحانه لا من كلام سليمان والسياق يأباه.

٥. وضع هنا مبحثا حول [قصة سليمان عليه السلام]، خلاصته:

أ. لم يرد من قصص سليمان عليه السلام في القرآن إلا نبذة يسيرة، لكن التدبر فيها يهدي إلى عامة قصصه ومظاهر شخصيته، مثل: وراثته لأبيه داود، وإيتاؤه الملك العظيم، وتسخير الجن والطير والريح له، وتعليمه منطق الطير، وقصة عرض الصافنات الجياد عليه، وتفهيمه الحكم في الغنم التي نفشت في الحرث، وحديث النملة، وقصة الهدهد مع ملكة سبإ، وكيفية موته.

ب. ورد اسم سليمان في القرآن في بضعة عشر موضعاً، وأكثر الثناء عليه، فسماه عبداً أواباً، ووصفه بالعلم والحكم، وعده من النبيين المهديين.

ج. العهد العتيق ﴿التَّوْرَاةَ﴾ أساء القول فيه، فذكر أنه انحرف في آخر عمره إلى عبادة الأصنام، وذكر قصة فاحشة عن داود وأمه، والقرآن ينزهه عن ذلك، ويصرح بأنه ما كفر، وفي دعائه دلالة على أن والدته كانت من الصالحين.

د. الأخبار المروية في قصصه (خاصة قصة الهدهد وملكة سبإ) تتضمن أموراً غريبة خرافية، كملكه جميع الأرض وسبعمائة سنة، ووجود ألوف من النبيين في مجلسه، وكون ملكة سبإ أمها من الجن، وأعداد الجنود الخيالية، وهذه من الإسرائيليات التي لا يعول عليها.

١١. حشر جنود سليمان وقصة النملة ودعاء الشكر:

المقطع [١١] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٧ـ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٥٢»:

١. ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾:

أ. الحشر هو جمع الناس وإخراجهم لأمر بإزعاج والوزع المنع وقيل الحبس، والمعنى كما قيل: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يمنعون من التفرق واختلاط كل جمع بآخر برد أولهم إلى آخرهم وحبس كل في مكانه.

ب. ويستفاد من الآية أنه كان له جنود من الجن والطير يسيرون معه كجنوده من الإنس.

ج. وكلمة الحشر ووصف المحشورين بأنهم جنود، وسياق الآيات التالية كل ذلك دليل على أن جنوده كانوا طوائف خاصة من الجن والإنس والطير سواء كانت ﴿مِنَ﴾ في الآية للتبعيض أو للبيان.

د. وقد أغرب في التفسير الكبير، فزعم أن الآية تدل على أن جميع الجن والإنس والطير كانوا جنوده وقد ملك الأرض كلها وأن الله تعالى جعل الطير في زمانه عقلاء مكلفين ثم عادت بعد زمانه على ما كانت عليه قبله وقال بمثله في النملة التي تكلمت، قال في تفسير الآية: (والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده، ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرف على مراده، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصح معه التكليف أو يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف، فلذلك قلنا: إن الله تعالى جعل الطير في أيامه مما له عقل وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة إليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره) ووجوه التحكم فيه غنية عن البيان.

هـ. وتقديم الجن في الذكر على الإنس والطير لكون تسخيرهم ودخولهم تحت الطاعة عجيبا، وذكر الإنس بعده دون الطير مع كون تسخيرها أيضا عجيبا رعاية لأمر المقابلة بين الجن والإنس.

٢. ﴿حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ﴾:

أ. ﴿حَتَّى﴾ غاية لما يفهم من الآية السابقة، وضمير الجمع لسليمان وجنوده، وتعدية الإتيان بعلى قيل: لكون الإتيان من فوق، ووادي النمل واد بالشام على ما قيل، وقيل في أرض الطائف، وقيل: في أقصى اليمن، والحطم الكسر.

ب. والمعنى: فلما سار سليمان وجنوده حتى أتوا على وادي النمل قالت نملة مخاطبة لسائر النمل: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسرنكم سليمان وجنوده أي لا يطأنكم بأقدامهم وهم لا يشعرون، وفيه دليل على أنهم كانوا يسيرون على الأرض.

٣. ﴿فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها﴾ إلى آخر الآية:

أ. قيل: التبسم دون الضحك، وعلى هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازا.

ب. ولا منافاة بين قوله عليه السلام: ﴿عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ وبين فهمه كلام النملة إذ لم ينف فهمه كلام سائر الحيوان أو كلام بعضها كالنملة.

ج. وقد تسلم جمع منهم دلالة قوله: ﴿عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ على نفي ما عداه فتكلفوا في توجيه

فهمه عليه السلام قول النملة تارة بأنه كانت قضية في واقعة، وأخرى بتقدير أنها كانت نملة ذات جناحين وهي من الطير، وثالثة بأن كلامها كان من معجزات سليمان عليه السلام ورابعة بأنه عليه السلام لم يسمع منها صوتا قط وإنما فهم ما في نفس النملة إلهاما من الله تعالى هذا.

د. وما تقدم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام، على أن سياق الآيات وحده كاف في دفعها.

٤. ﴿وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ﴾:

أ. الإيزاع الإلهام، تبسم عليه السلام مبتهجا مسرورا بما أنعم الله عليه حتى أوقفه هذا الموقف وهي النبوة والعلم بمنطق الحيوان والملك والجنود من الجن والإنس والطير فسأل الله أن يلهمه شكر نعمته وأن يعمل بما فيه رضاه سبحانه.

ب. وقد جعل الشكر للنعمة التي أنعم الله تعالى بها على نفسه مختصة به، وللنعمة التي أنعم بها على والديه فإن الإنعام على والديه إنعام عليه بوجه لكونه منهما وقد أنعم الله تعالى على أبيه داود بالنبوة والملك والحكمة وفصل الخطاب وغيرها وأنعم على أمه حيث زوجها من داود النبي ورزقها سليمان النبي وجعلها من أهل بيت النبوة.

ج. وفي كلامه هذا دليل على أن والدته من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم وهم إحدى الطوائف الأربع المذكورين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]

٥. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ ومسألته هذه: (أوزعني أن أعمل)، أمر أرفع قدرا وأعلى منزلة من سؤال التوفيق للعمل الصالح فإن التوفيق يعمل في الأسباب الخارجية بترتيبها بحيث توافق سعادة الإنسان والإيزاع الذي سأله دعوة باطنية في الإنسان إلى السعادة، وعلى هذا فليس من البعيد أن يكون المراد به الوحي الذي أكرم الله به إبراهيم وآله فيما يخبر عنه بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ﴾ الآية: [الأنبياء: ٧٣]، وهو التأييد بروح القدس على ما مر في تفسير الآية.

٦. ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾:

أ. أي اجعلني منهم، وهذا الصلاح لما لم يتقيد بالعمل كان هو صلاح الذات وهو صلاح النفس في جوهرها الذي يستعد به لقبول أي كرامة إلهية.

ب. ومن المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدرا من صلاح العمل ففي قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ تدرج في المسألة من الأدنى إلى الأعلى وقد كان صلاح العمل منسوبا إلى صنعه واختياره بوجه دون صلاح الذات ولذا سأل صلاح الذات من ربه ولم يسأل نفس صلاح العمل بل أن يوزعه أن يعمل.

ج. وفي تبديله سؤال صلاح الذات من سؤال أن يدخله في عباده الصالحين إيذان بسؤاله ما خصهم الله به من المواهب وأغزرها العبودية وقد وصفه الله بها في قوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]

١٢. تفقد سليمان للطير ووعيده للهدهد:

المقطع [١٢] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٢٠-٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٥٤»:

١. ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ﴾:

أ. قال الراغب: (التفقد التعهد لكن حقيقة التفقد تعرف فقدان الشيء والتعهد تعرف العهد المتقدم قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾)

ب. استفهم أولا متعجبا من حال نفسه إذ لا يرى الهدهد بين الطير كأنه لم يكن من المظنون في حقه أن يغيب عن موكبه ويستنكف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته.

ج. والمعنى: ما بالي لا أرى الهدهد بين الطيور الملازمة لموكبي بل أكان من الغائبين.

٢. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ اللامات للقسم والسلطان المبين البرهان الواضح، يقضي عليه السلام على الهدهد أحد ثلاث خصال: العذاب الشديد والذبح وفيهما شقاؤه، والإتيان بحجة واضحة وفيه خلاصه ونجاته.

١٣. خبر الهدهد عن سبأ وعرشها العظيم وسجودها للشمس:

المقطع [١٣] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٥٥»:

١. ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾:

أ. ضمير ﴿فَمَكَثَ﴾ لسليمان ويحتمل أن يكون للهدهد ويؤيد الأول سابق السياق والثاني لاحقه، والمراد بالإحاطة العلم الكامل، وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ﴾، بمنزلة عطف التفسير لقوله: ﴿أَحَطْتُ﴾، وسبأ بلدة باليمن كانت عاصمته يومئذ والنبأ الخبر الذي له أهمية، واليقين ما لا شك فيه.

ب. والمعنى: فمكث سليمان، أو فمكث الهدهد، زمانا غير بعيد، ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته وعاتبه، فقال أحطت من العلم بما لم تحط به وجئتك من سبإ بخبر مهم لا شك فيه.

ج. ومنه يظهر أن في الآية حذفا وإيجازا، وقد قيل: إن في قول الهدهد: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ كسرا لسورة سليمان عليه السلام فيما شدد عليه.

٢. ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ الضمير في ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ لأهل سبإ وما يتبعها وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وصف لسعة ملكها وعظمته وهو القرينة على أن المراد بكل شيء في الآية كل شيء هو من لوازم الملك العظيم من حزم وعزم وسطوة ومملكة عريضة وكنوز وجنود مجندة ورعية مطيعة، وخص بالذكر من بينها عرشها العظيم.

٣. ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، أي إنهم من عبدة الشمس من الوثنيين.

٤. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾:

أ. بمنزلة عطف التفسير لما سبقه وهو مع ذلك توطئة لقوله بعد: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ لأن تزيين الشيطان لهم أعمالهم التي هي سجدتهم وسائر تقرباتهم هو الذي صرفهم ومنعهم عن سبيل الله وهي عبادته وحده.

ب. وفي إطلاق السبيل من غير إضافتها إليه تعالى إشارة إلى أنها السبيل المتعينة للسبيلية بنفسها

للإنسان بالنظر إلى فطرته بل لكل شيء بالنظر إلى الخلقة العامة.

٥. ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ تفريع على صدهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصد عن السبيل فلا اهتداء، فافهمه.

١٤. تعجب الهدهد من عدم سجود سبأ لله:

المقطع [١٤] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٥٦»:

١. ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾:

أ. القراءة الدائرة ﴿أَلَّا﴾ بتشديد اللام، مؤلف من (أن ولا) وهو عطف بيان من ﴿أَعْمالَهُمْ﴾، والمعنى: زين لهم الشيطان أن لا يسجدوا لله، وقيل: بتقدير لام التعليل، والمعنى: زين لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله.

ب. والخبء على ما في مجمع البيان، المخبوء وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه وهو مصدر وصف به يقال: خبأته أخبئه خبأ وما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزلة) انتهى

ج. ففي قوله: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ استعارة كأن الأشياء مخبوءة مستورة تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى إلى الوجود واحدا بعد آخر فيكون تسمية الإيجاد بعد العدم إخراجا للخبء قريبا من تسميته بالفطر وتوصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض والفطر هو الشق كأنه يشق العدم فيخرج الأشياء.

د. ويمكن حمل الجملة على الحقيقة من غير استعارة لكنه مفتقر إلى بيان موضعه غير هذا الموضع، وقيل: المراد بالخبء الغيب وإخراجه العلم به وهو كما ترى.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ بالتاء على الخطاب أي يعلم سركم وعلانيتكم، وقرأ الأكثرون بالياء على الغيبة وهو أرجح.

٣. وملخص الحجة: أنهم إنما يسجدون للشمس دون الله تعظيما لها على ما أودع الله سبحانه في

طباعها من الآثار الحسنة والتدبير العام للعالم الأرضي وغيره، والله الذي أخرج جميع الأشياء من العدم إلى الوجود ومن الغيب إلى الشهادة فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله، ومن جملتها الشمس وتدبيرها، أولى بالتعظيم وأحق أن يسجد له، مع أنه لا معنى لعبادة ما لا شعور له بها ولا شعور للشمس بسجدتهم والله سبحانه يعلم ما يخفون وما يعلنون فالله سبحانه هو المتعين للسجدة والتعظيم لا غير، وبهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلوا ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾

٤. ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾:

أ. من تمام كلام الهدهد وهو بمنزلة التصريح بنتيجة البيان الضمني السابق وإظهار الحق قبال باطلهم ولذا أتى أولا بالتهليل الدال على توحيد العبادة ثم ضم إليه قوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الدال على انتهاء تدبير الأمر إليه فإن العرش الملكي هو المقام الذي تجتمع عنده أزمة الأمور وتصدر منه الأحكام الجارية في الملك.

ب. وفي قوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ مناسبة محاذاة أخرى مع قوله في وصف ملكة سبإ: ﴿وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ولعل قول الهدهد هذا هو الذي دعا، أو هو من جملة ما دعا، سليمان عليه السلام أن يأمر أن يأتوا بعرشها إليه ليخضع لعظمة ربه كل عظمة.

١٥. كتاب سليمان إلى ملكة سبأ يدعوها للإسلام:

المقطع [١٥] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٧-٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٥٧»:

١. ﴿قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ الضمير لسليمان عليه السلام، أحال القضاء في أمر الهدهد إلى المستقبل فلم يصدقه في قوله لعدم بينة عليه بعد ولم يكذبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده أن يجرب ويتأمل.

٢. ﴿اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ﴾ حكاية قول سليمان خطابا للهدهد كأنه قيل: فكتب سليمان كتابا ثم قال للهدهد: اذهب بكتابي هذا إليهم أي إلى ملكة سبإ وملئها

فألقه إليهم ثم تول عنهم أي تنح عنهم وقع في مكان تراهم فانظر ما ذا يرجعون أي ما ذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه.

٣. ﴿فَأَلْقِهْ﴾ بسكون الهاء وصلا ووقفا في جميع القراءات وهي هاء السكت، ومما قيل في الآية: إن قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ﴾، من قبيل التقديم والتأخير والأصل فانظر ما ذا يرجعون ثم تول عنهم: وهو كما ترى.

٤. ﴿قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾:

أ. في الكلام حذف وإيجاز والتقدير فأخذ الهدهد الكتاب وحمله إلى ملكة سبإ حتى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذته ولما قرأته قالت لملئها وأشراف قومها يا أيها الملأ.

ب. فقوله: ﴿قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ﴾ حكاية ذكرها لملئها أمر الكتاب وكيفية وصوله إليها ومضمونه، وقد عظمته إذ وصفته بالكرم.

٥. ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾:

أ. ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريما أي والسبب فيه أنه من سليمان ولم يكد يخفى عليها جبروت سليمان وما أوتيه من الملك العظيم والشوكة العجيبة كما اعترفت بذلك في قولها على ما حكاه الله بعد: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾

ب. ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ أي الكتاب باسمه تعالى فهو كريم لذلك والوثنيون جميعا قائلون بالله سبحانه يرونه رب الأرباب وإن لم يعبدوه، وعبدة الشمس منهم وهم من شعب الصابئين يعظمونه ويعظمون صفاته وإن كانوا يفسرون الصفات بنفي النقائص والأعدام فيفسرون العلم والقدرة والحياة والرحمة مثلا بانتفاء الجهل والعجز والموت والقسوة فكون الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم يستدعي كونه كريما، كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعي كونه كريما، وعلى هذا فالكتاب أي مضمونه هو قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وأن مفسرة.

ج. ومن العجيب ما عن جمع من المفسرين أن قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ﴾ استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل: ممن الكتاب وما ذا فيه فقالت: إنه من سليمان.، وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ﴾ بيانا للكتاب أي لمتنه وأن الكتاب هو ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾

د. ويتوجه عليهم:

• أولا: وقوع لفظة (أن) زائدة لا فائدة لها ولذا قال بعضهم: إنها مصدرية و(لا) نافية لا ناهية وهو وجه سخيف كما سيأتي.

• وثانيا: بيان الوجه في كون الكتاب كريما فقيل: وجه كرامته أنه كان مختوما ففي الحديث: إكرام الكتاب ختمه حتى ادعى بعضهم أن معنى كرامة الكتاب ختمه، يقال: أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته، وقيل: إنها سمته كريما لجودة خطه وحسن بيانه، وقيل: لوصوله إليها على منهاج غير عادي، وقيل: لظنها بسبب إلقاء الطير أنه كتاب سماوي إلى غير ذلك من الوجوه، وأنت خبير بأنها تحكمات غير مقنعة، والظاهر أن الذي أوقعهم فيما وقعوا حملهم قوله: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ على حكاية متن الكتاب وذلك ينافي حمل قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ﴾، على تعليل كرامة الكتاب ويدفعه أن ظاهر أن المفسرة في قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾، أنه نقل لمعنى الكتاب ومضمونه لا حكاية متنه فمحصل الآيتين أن الكتاب كان مبدوا ببسم الله الرحمن الرحيم وأن مضمونه النهي عن العلو عليه والأمر بأن يأتوه مسلمين فلا محذور أصلا.

٦. ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾:

أ. أن مفسرة تفسر مضمون كتاب سليمان كما تقدمت الإشارة إليه.

ب. وقول بعضهم: إنها مصدرية و(لا) نافية أي عدم علوكم علي، سخيف لاستلزامه أولا: تقدير مبتدإ أو خبر محذوف من غير موجب، وثانيا: عطف الإنشاء وهو قوله: ﴿وَأْتُونِي﴾ على الإخبار.

ج. والمراد بعلوهم عليه، استكبارهم عليه، وبقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ إسلامهم بمعنى الانقياد على ما يؤيده قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ دون الإسلام بالمعنى المصطلح وهو الإيمان بالله سبحانه وإن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد وسياق الآيات الآتية، ولو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال: أن لا تعلوا على الله.

د. وكون سليمان عليه السلام نبيا شأنه الدعوة إلى الإسلام لا ينافي ذلك فإنه كان ملكا رسولا وكانت دعوته إلى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم وقد انتهت إلى إسلامها لله كما حكى الله تعالى عنها ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

١٦. استشارة ملكة سبأ للملأ:

المقطع [١٦] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٢-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٥٩»:

١. ﴿قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾:

أ. الإفتاء إظهار الفتوى وهي الرأي، وقطع الأمر القضاء به والعزم عليه والشهادة الحضور وهذا استشارة منها لهم تقول: أشيروا علي في هذا الأمر الذي واجهته وهو الذي يشير إليه كتاب سليمان، وإنما أستشيركم فيه لأني لم أكن حتى اليوم أستبد برأيي في الأمور بل أقضي وأعزم عن إشارة وحضور منكم.

ب. فالآية تشير إلى فصل ثان من كلامها مع ملئها بعد الفصل الأول الذي أخبرتهم فيه بكتاب سليمان عليه السلام وكيفية وصوله وما فيه.

٢. ﴿قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ﴾:

أ. القوة ما يتقوى به على المطلوب وهي هاهنا الجند الذي يتقوى به على دفع العدو وقتاله، والبأس الشدة في العمل والمراد به النجدة والشجاعة.

ب. والآية تتضمن جواب الملإ لها يسمعونها أولا ما يطيب له نفسها ويسكن به قلقها ثم يرجعون إليها الأمر يقولون طيبي نفسا ولا تحزني فإن لنا من القوة والشدة ما لا نهاب به عدوا وإن كان هو سليمان ثم الأمر إليك مري بما شئت فنحن مطيعوك.

١٧. إرسال ملكة سبأ الهدية إلى سليمان:

المقطع [١٧] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٦٠»:

١. ﴿قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾:

أ. إفساد القرى تخريبها وإحراقها وهدم أبنيتها، وإذلال أعزة أهلها هو بالقتل والأسر والسبي والإجلاء والتحكم.

ب. كان رأيها على ما يستفاد من هاتين الآيتين، زيادة التبصر في أمر سليمان عليه السلام بأن ترسل إليه من يختبر حاله ويشاهد مظاهر نبوته وملكه فيخبر الملكة بما رأى حتى تصمم هي العزم على أحد الأمرين: الحرب أو السلم وكان الظاهر من كلام الملإ (حيث بدءوا في الكلام معها بقولهم نحن أولو قوة وأولو بأس شديد، أنهم يميلون إلى القتال لذلك أخذت أولا تذم الحرب ثم نصت على ما هو رأيها فقالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها﴾، أي إن الحرب لا تنتهي إلا إلى غلبة أحد المتحاربين وفيها فساد القرى وذلة أعزتها فليس من الحزم الإقدام عليها مع قوة العدو وشوكته مهما كانت إلى السلم والصلح سبيل إلا لضرورة ورأيي الذي أراه أن أرسل إليهم بهدية ثم أنظر بما ذا يرجع المرسلون من الخبر وعند ذلك أقطع بأحد الأمرين الحرب أو السلم.

ج. فقوله: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا﴾، توطئة لقوله بعد: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ﴾

٢. ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً﴾ أبلغ وآكد من قولنا مثلا: استذلوا أعزتها لأنه مع الدلالة على تحقق الذلة يدل على تلبسهم بصفة الذلة.

٣. ﴿وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مسوق للدلالة على الاستمرار بعد دلالة قوله: ﴿أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً﴾ على أصل الوقوع، وقيل: إن الجملة من كلام الله سبحانه لا من تمام كلام ملكة سبإ وليس بسديد إذ لا اقتضاء في المقام لمثل هذا التصديق.

٤. ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي مرسلة إلى سليمان وهذا نوع من التجبر والاعتزاز الملوكي تصون لسانها عن اسمه وتنسب الأمر إليه وإلى من معه جميعا وأيضا تشير به إلى أنه يفعل ما يفعل بأيدي أعضاده وجنوده وإمداد رعيته.

٥. ﴿فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي حتى أعمل عند ذلك بما تقتضيه الحال وهذا، كما تقدم، هو رأي ملكة سبإ ويعلم من قوله: ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ أن الحامل للهدية كان جمعا من قومها كما يستفاد من قول سليمان بعد: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أنه كان للقوم المرسلين رئيس يرأسهم.

١٨. رد سليمان على الهدية وتهديده بالقوة:

المقطع [١٨] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ

مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٦١»:

١. ﴿فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾:

أ. ضمير جاء للمال الذي أهدي إليه أو للرسول الذي جاء بالهدية.

ب. والاستفهام في قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ﴾ للتوبيخ والخطاب للرسول والمرسل بتغليب الحاضر على الغائب، وتوبيخ القوم من غير تعيين الملكة من بينهم نظير قولها فيما تقدم: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ كما أشرنا إليه.

ج. وجوز أن يكون الخطاب للمرسلين وكانوا جماعة وهو خطأ فإن الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممن أرسلهم فلا معنى لتوجيه التوبيخ إليهم خاصة، وتنكير المال للتحقير، والمراد بما آتاني الله الملك والنبوة.

د. والمعنى: أتمدونني بمال حقير لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله فما آتاني الله من النبوة والملك والثروة خير مما آتاكم.

٢. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾:

أ. إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم أي إن إمدادكم إياي بمال لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله قبيح وفرحكم بهديتكم لاستعظامكم لها وإعجابكم بها أقبح.

ب. وقيل: المراد بهديتكم الهدية التي تهدى إليكم، والمعنى: بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم من الهدية لحبكم زيادة المال وأما أنا فلا أعتد بمال الدنيا هذا، وبعده ظاهر.

٣. ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ﴾:

أ. الخطاب لرئيس المرسلين، وضمائر الجمع راجعة إلى ملكة سبإ وقومها، والقبل الطاقة، وضمير ﴿بِها﴾ لسبإ، وقوله: ﴿وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ تأكيد لما قبله، واللام في ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ و﴿لَنُخْرِجَنَّهُمْ﴾ للقسم.

ب. لما كان ظاهر تبديلهم امتثال أمره، وهو قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ من إرسال الهدية هو الاستنكاف عن الإسلام قدر بحسب المقام أنهم غير مسلمين له فهددهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها ولذلك فرع إتيانهم بالجنود على رجوع الرسول من غير أن يشترطه بعدم إتيانهم مسلمين فقال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾، ولم يقل: ارجع فإن لم يأتوني مسلمين فلنأتينهم إلخ، وإن كان مرجع المعنى إليه فإن

إرسال الجنود وإخراجهم من سبإ على حال الذلة كان مشروطا به على أي حال.

ج. والسياق يشهد أنه عليه السلام رد إليهم هديتهم ولم يقبلها منهم.

١٩. طلب عرش ملكة سبأ وإحضاره بفضل الله:

المقطع [١٩] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٦٢»:

١. ﴿قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ كلام تكلم به بعد رد الهدية وإرجاع الرسل، وفيه إخباره أنهم سيأتونه مسلمين وإنما أراد الإتيان بعرشها قبل حضورها وقومها عنده ليكون دلالة ظاهرة على بلوغ قدرته الموهوبة من ربه ومعجزة باهرة لنبوته حتى يسلموا لله كما يسلمون له ويستفاد ذلك من الآيات التالية.

٢. ﴿قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ العفريت، على ما قيل، المارد الخبيث، وقوله: ﴿آتِيكَ بِهِ﴾ اسم فاعل أو فعل مضارع من الإتيان، والأول أنسب للسياق لدلالته على التلبس بالفعل وكونه أنسب لعطف قوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾، وهو جملة اسمية عليه، كذا قيل.

٣. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ الضمير للإتيان أي أنا للإتيان بعرشها لقوي لا يثقل علي حمله ولا يجهدني نقله أمين لا أخونك في هذا الأمر.

٤. ﴿قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ﴾:

أ. مقابلته لمن قبله دليل على أنه كان من الإنس، وقد وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام أنه كان آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيه، وقيل: هو الخضر، وقيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب وقيل: جبرئيل، وقيل: هو سليمان نفسه، وهي وجوه لا دليل على شيء منها.

ب. وأيا ما كان وأي من كان ففصل الكلام مما قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذي أتى بعرشها إليه في أقل من طرفة العين، وقد اعتنى بشأن علمه أيضا إذ نكر فقيل: ﴿عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي علم لا يحتمل اللفظ وصفه.

ج. والمراد بالكتاب الذي هو مبدأ هذا العلم العجيب إما جنس الكتب السماوية أو اللوح المحفوظ، والعلم الذي أخذه هذا العالم منه كان علما يسهل له الوصول إلى هذه البغية وقد ذكر المفسرون أنه كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، وربما ذكر بعضهم أن ذلك الاسم هو الحي القيوم، وقيل: ذو الجلال والإكرام، وقيل: الله الرحمن، وقيل: هو بالعبرانية آهيا شراهيا، وقيل: إنه دعا بقوله: يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها، إلى غير ذلك مما قيل.

د. وقد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن من المحال أن يكون الاسم الأعظم الذي له التصرف في كل شيء من قبيل الألفاظ ولا المفاهيم التي تدل عليها وتكشف عنها الألفاظ بل إن كان هناك اسم له هذا الشأن أو بعض هذا الشأن فهو حقيقة الاسم الخارجية التي ينطبق عليها مفهوم اللفظ نوعا من الانطباق وهي الاسم حقيقة واللفظ الدال عليها اسم الاسم.

هـ. ولم يرد في لفظ الآية نبأ من هذا الاسم الذي ذكروه بل الذي تتضمنه الآية أنه كان عنده علم من الكتاب، وأنه قال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾، ومن المعلوم مع ذلك أن الفعل فعل الله حقيقة، وبذلك كله يتحصل أنه كان له من العلم بالله والارتباط به ما إذا سأل ربه شيئا بالتوجه إليه لم يتخلف عن الاستجابة وإن شئت فقل: إذا شاءه الله سبحانه.

و. ويتبين مما تقدم أيضا أن هذا العلم لم يكن من سنخ العلوم الفكرية التي تقبل الاكتساب والتعلم.

٥. ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾:

أ. الطرف، على ما قيل، اللحظ والنظر وارتداد الطرف وصول المنظور إليه إلى النفس وعلم الإنسان به، فالمراد أنا آتيك به في أقل من الفاصلة الزمانية بين النظر إلى الشيء والعلم به.

ب. وقيل: الطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر، وارتداده هو انضمامها ولكونه أمرا طبيعيا غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد فقيل: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ولم يقل: قبل أن يرد، هذا، وقد

أخطأ فالطرف كالتنفس من أفعال الإنسان الاختيارية غير أن الذي يبعث إليه هو الطبيعة كما في التنفس ولذلك لا يحتاج في صدوره إلى ترو سابق كما يحتاج إليه في أمثال الأكل والشرب، فالفعل الاختياري ما يرتبط إلى إرادة الإنسان وهو أعم مما يسبقه التروي، والذي أوقع هذا القائل فيما وقع ظنه التساوي بين الفعل الصادر عن اختيار والصادر عن ترو، ولعل النكتة في إيثار الارتداد على الرد هي أن الفعل لعدم توقفه على التروي كأنه يقع بنفسه لا عن مشية من اللاحظ.

ج. والخطاب في قوله: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ لسليمان عليه السلام فهو الذي يريد الإتيان به إليه وهو الذي يراد الإتيان به إليه، وقيل: الخطاب للعفريت القائل: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ والمراد بالذي عنده علم من الكتاب عند هذا القائل هو سليمان، وإنما قاله له إظهارا لفضل النبوة وأن الذي أقدره الله عليه بتعليمه علما من الكتاب أعظم مما يتبجح به العفريت من القدرة، فالمعنى: قال سليمان للعفريت لما قال ما قال: أنا آتيك بالعرش قبل ارتداد طرفك.

د. وقد أصر في التفسير الكبير، على هذا القول وأورد لتأييده وجوها وهي وجوه رديئة وأصل القول لا يلائم السياق كما أومأنا إليه.

٦. ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾:

أ. أي لما رأى سليمان العرش مستقرا عنده قال هذا، أي حضور العرش واستقراره عندي في أقل من طرفة العين من فضل ربي من غير استحقاق مني ليبلوني أي يمتحنني أأشكر نعمته أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه أي يعود نفعه إليه لا إلى ربي ومن كفر فلم يشكر فإن ربي غني كريم، وفي ذيل الكلام تأكيد لما في صدره من حديث الفضل..

ب. وقيل: المشار إليه بقوله: ﴿هذا﴾ هو التمكن من إحضاره بالواسطة أو بالذات، وفيه أن ظاهر قوله: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ﴾، إن هذا الثناء مرتبط بحال الرؤية والذي في حال الرؤية هو حضور العرش عنده دون التمكن من الإحضار الذي كان متحققا منذ زمان.

ج. وفي الكلام حذف وإيجاز، والتقدير فأذن له سليمان في الإتيان به كذلك فأتى به كما قال: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ وفي حذف ما حذف دلالة بالغة على سرعة العمل كأنه لم يكن بين دعواه الإتيان به كذلك وبين رؤيته مستقرا عنده فصل أصلا.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في البصائر، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن اسم الله الأعظم على ثلاث وسبعين حرفا، وإنما كان عند آصف منها حرف واحد، فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس، ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت، أسرع من طرفة عين، وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفا، وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

• أقول: وروي هذا المعنى أيضا عن أبي عبد الله عليه السلام، ورواه في الكافي، عن جابر عن أبي جعفر وعن النوفلي عن أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام.

• وقوله: (إن الاسم الأعظم كذا حرفا وكان عند آصف حرف تكلم به) لا ينافي ما قدمنا أن هذا الاسم ليس من قبيل الألفاظ فإن نفس هذا السياق يدل على أن المراد بالحرف غير الحرف اللفظي والتعبير به من جهة أن المعهود عند الناس من الاسم الاسم اللفظي المؤلف من الحروف الملفوظة.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ذكر في ذلك وجوه، إلى أن قال، والخامس أن الأرض طويت له: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: وما رواه من الطي لا يغاير ما تقدمت روايته من الخسف.

• والذي نقله من الوجوه الأخر خمسة أحدها: أن الملائكة حملته إليه، الثاني: أن الريح حملته، الثالث: أن الله خلق فيه حركات متوالية، الرابع: أنه انخرق مكانه حيث هو هناك ثم نبع بين يدي سليمان، الخامس: أن الله أعدمه في موضعه وأعاده في مجلس سليمان.

• وهناك وجه آخر ذكره بعضهم وهو أن الوجود بتجدد الأمثال بإيجاده وقد أفاض الله الوجود لعرشها في سبإ ثم في الآن التالي عند سليمان، وهذه الوجوه بين ممتنع كالخامس وبين ما لا دليل عليه كالباقي.

ج. وفيه، وروى العياشي في تفسيره، بالإسناد قال: التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى ويحيى بن أكثم، فسأله، قال: فدخلت على أخي علي بن محمد عليه السلام، إذ دار بيني وبينه من المواعظ، حتى انتهيت إلى طاعته فقلت له: جعلت فداك إن ابن أكثم سألني عن مسائل أفتيه فيها، فضحك ثم قال: هل

أفتيته فيها قلت: لا، قال: ولم؟ قلت: لم أعرفها، قال: ما هي؟ قلت: قال: أخبرني عن سليمان، أكان محتاجا إلى علم آصف بن برخيا؟ ثم ذكرت المسائل الأخر: قال: اكتب يا أخي بسم الله الرحمن الرحيم، سألت عن قول الله تعالى في كتابه: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فهو آصف بن برخيا، ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف، لكنه أحب أن تعرف أمته من الجن والإنس، أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله، ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته، كما فهم سليمان في حياة داود، ليعرف إمامته ونبوته من بعده، لتأكيد الحجة على الخلق.

• أقول: وأورد الرواية في روح المعاني، عن المجمع ثم قال: (وهو كما ترى) ولا ترى لاعتراضه هذا وجها غير أنه رأى حديث الإمامة فيها فلم يعجبه.

٢٠. تنكير العرش واختبار ملكة سبأ:

المقطع [٢٠] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤١-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٦٦»:

١. ﴿قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾:

أ. قال في المفردات: (تنكير الشيء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف، قال تعالى: ﴿قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها﴾ وتعريفه جعله بحيث يعرف)

ب. والسياق يدل على أن سليمان عليه السلام إنما قاله حينما قصدته ملكة سبإ وملؤها لما دخلوا عليه، وإنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آية باهرة من آيات نبوته لها، ولذا أمر بتنكير العرش ثم رتب عليه قوله: ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي﴾، والمعنى ظاهر.

٢. ﴿فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾:

أ. أي فلما جاءت الملكة سليمان عليه السلام قيل لها من جانب سليمان: ﴿أَهكَذا عَرْشُكِ﴾ وهو كلمة اختبار.

ب. ولم يقل: أهذا عرشك بل زيد في التنكير فقيل: ﴿أَهكَذا عَرْشُكِ﴾؟ فاستفهم عن مشابهة

عرشها لهذا العرش المشار إليه في هيئته وصفاته، وفي نفس هذه الجملة نوع من التنكير.

٣. ﴿قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ المراد به أنه هو وإنما عبرت بلفظ التشبيه تحرزا من الطيش والمبادرة إلى التصديق من غير تثبت، ويكنى عن الاعتقادات الابتدائية التي لم يتثبت عليها غالبا بالتشبيه.

٤. ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾:

أ. ضمير ﴿قَبْلِها﴾ لهذه الآية أي الإتيان بالعرش أو لهذه الحالة أي رؤيتها له بعد ما جاءت، وظاهر السياق أنها تتمة كلام الملكة فهي لما رأت العرش وسألت عن أمره أحست أن ذلك منهم تلويح إلى ما آتى الله سليمان من القدرة الخارقة للعادة فأجابت بقولها: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها﴾، أي لا حاجة إلى هذا التلويح والتذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآية أو هذه الحالة وكنا مسلمين لسليمان طائعين له.

ب. وقيل: قوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾، من كلام سليمان، وقيل: من كلام قوم سليمان، وقيل من كلام الملكة، لكن المعنى وأوتينا العلم بإتيان العرش قبل هذه الحال، وهي جميعا وجوه رديئة..

٥. ﴿وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ﴾:

أ. الصد: المنع والصرف، ومتعلق الصد الإسلام لله وهو الذي ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول: ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾، وأما قولها في الآية السابقة: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فهو إسلامها وانقيادها لسليمان عليه السلام.

ب. هذا ما يعطيه سياق الآيات وللقوم وجوه أخر في معنى الآية أضربنا عنها.

٦. ﴿إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ﴾ في مقام التعليل للصد، والمعنى: ومنعها عن الإسلام لله ما كانت تعبد من دون الله وهي الشمس على ما تقدم في نبإ الهدهد والسبب فيه أنها كانت من قوم كافرين فاتبعتهم في كفرهم.

٢١. دخول ملكة سبأ الصرح وإسلامها مع سليمان:

المقطع [٢١] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٦٦»:

١. ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾:

أ. الصرح هو القصر وكل بناء مشرف والصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف، واللجة المعظم من الماء والممرد اسم مفعول من التمريد وهو التمليس، والقوارير الزجاج.

ب. ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ كأن القائل بعض خدم سليمان مع حضور من سليمان ممن كان يهديها إلى الدخول عليه على ما هو الدأب في وفود الملوك والعظماء على أمثالهم.

٢. ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ أي لما رأت الصرح ظنت أنه لجة لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء وكشفت عن ساقيها بجمع ثيابها لئلا تبتل بالماء أذيالها.

٣. ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ القائل هو سليمان نبهها أنه ليس بلجة بل صرح مملس من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمة ملك سليمان وقد كانت رأت سابقا ما رأت من أمر الهدهد ورد الهدية والإتيان بعرشها لم تشك أن ذلك من آيات نبوته من غير أن يؤتى بحزم أو تدبير وقالت عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾

٤. ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

أ. استغاثت أولا بربها بالاعتراف بالظلم إذ لم تعبد الله من بدء أو من حين رأت هذه الآيات ثم شهدت بالإسلام لله مع سليمان.

ب. وفي قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ﴾ التفات بالنسبة إليه تعالى من الخطاب إلى الغيبة ووجهه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ إلى التوحيد الصريح فإنها تشهد أن إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام سليمان وهو التوحيد ثم تؤكد التصريح بتوصيفه تعالى برب العالمين فلا رب غيره تعالى لشيء من العالمين وهو توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد العبادة الذي لا يقول به مشرك.

٢٢. إرسال صالح إلى ثمود واستعجالهم بالسيئة:

المقطع [٢٢] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٧٢»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً﴾ إلى قوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾:

أ. الاختصام والتخاصم التنازع وتوصيف التثنية بالجمع أعني قوله: ﴿فَرِيقانِ﴾ بقوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ لكون المراد بالفريقين مجموع الأمة و﴿فَإِذا﴾ فجائية.

ب. والمعنى: وأقسم لقد أرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم ونسيبهم صالحا وكان المرجو أن يجتمعوا على الإيمان لكن فاجأهم أن تفرقوا فريقين مؤمن وكافر يختصمون ويتنازعون في الحق كل يقول: الحق معي، ولعل المراد باختصامهم ما حكاه الله عنهم في موضع آخر بقوله: ﴿قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]

ج. ومن هنا يظهر أن أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به والآخر المستكبرون وباقي المستضعفين ممن اتبعوا كبارهم.

٢. ﴿قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾:

أ. الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة المبادرة إلى سؤال العذاب قبل الرحمة التي سببها الإيمان والاستغفار.

ب. وبه يظهر أن صالحا عليه السلام إنما وبخهم بقوله هذا بعد ما عقروا الناقة وقالوا له: ﴿يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيكون قوله: ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تحضيضا إلى الإيمان والتوبة لعل الله يرحمهم فيرفع عنهم ما وعدهم من العذاب وعدا غير مكذوب.

٣. ﴿قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾:

أ. التطير هو التشؤم، وكانوا يتشأمون كثيرا بالطير ولذا سموا التشؤم تطيرا ونصيب الإنسان من الشر طائرا كما قيل.

ب. فقولهم خطابا لصالح: ﴿اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أي تشأمنا بك وبمن معك ممن آمن بك ولزمك لما أن قيامك بالدعوة وإيمانهم بك قارن ما ابتلينا به من المحن والبلايا فلسنا نؤمن بك.

ج. وقوله خطابا للقوم: ﴿طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ أي نصيبكم من الشر وهو الذي تستوجبه أعمالكم من العذاب عند الله سبحانه.

د. ولذا أضرب عن قوله: ﴿طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي تختبرون بالخير والشر ليمتاز مؤمنكم من كافركم ومطيعكم من عاصيكم.

هـ. ومعنى الآية: قال القوم: تطيرنا بك يا صالح وبمن معك فلن نؤمن ولن نستغفر قال صالح: طائركم الذي فيه نصيبكم من الشر عند الله وهو كتاب أعمالكم ولست أنا ومن معي ذوي أثر فيكم حتى نسوق إليكم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون وتمتحنون بهذه الأمور ليمتاز مؤمنكم من كافركم ومطيعكم من عاصيكم.

و. وربما قيل: إن الطائر هو السبب الذي منه يصيب الإنسان ما يصيبه من الخير والشر، فإنهم كما كانوا يتشأمون بالطير كانوا أيضا يتيمنون به والطائر عندهم الأمر الذي يستقبل الإنسان بالخير والشر كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً﴾ [الإسراء: ١٣]، وإذ كان ما يستقبل الإنسان من خير أو شر هو بقضاء من الله سبحانه مكتوب في كتاب فالطائر هو الكتاب المحفوظ فيه ما قدر للإنسان.

• وفيه أن ظاهر ذيل آية الإسراء أن المراد بالطائر هو كتاب الأعمال دون كتاب القضاء كما يدل عليه قوله: ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾

ز. وقيل: معنى ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي تعذبون، وما ذكرناه أولا أنسب.

٢٣. مكر الرهط المفسدين وتدميرهم وإنجاء المؤمنين:

المقطع [٢٣] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٨-٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٧٥»:

١. ﴿وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾:

أ. قال الراغب: (الرهط العصابة دون العشرة وقيل إلى الأربعين)، وقيل: (الفرق بين الرهط والنفر أن الرهط من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة)

ب. قيل: المراد بالرهط الأشخاص ولذا وقع تمييزا للتسعة لكونه في معنى الجمع فقد كان المتقاسمون تسعة رجال.

٢. ﴿قالُوا تَقاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾:

أ. التقاسم المشاركة في القسم، والتبييت القصد بالسوء ليلا، وأهل الرجل من يجمعه وإياهم بيت أو نسب أو دين، ولعل المراد بأهله زوجه وولده بقرينة قوله بعد: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿ما شَهِدْنا﴾ فيكون من مقول القول.

ب. والمعنى: قال الرهط المفسدون وقد تقاسموا بالله: لنقتلنه وأهله بالليل ثم نقول لوليه إذا عقبنا وطلب الثأر ما شهدنا هلاك أهله وإنا لصادقون في هذا القول، ونفي مشاهدة مهلك أهله نفي لمشاهدة مهلك نفسه بالملازمة أو الأولوية، على ما قيل.

ج. وربما قيل: إن قوله: ﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ حال من فاعل نقول أي نقول لوليه كذا والحال أنا صادقون في هذا القول لأنا شهدنا مهلكه وأهله جميعا لا مهلك أهله فقط.

- ولا يخفى ما فيه من التكلف وقد وجه بوجوه أخر أشد تكلفا منه ولا ملزم لأصل الحالية.

٣. ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أما مكرهم فهو التواطئ على تبييته وأهله والتقاسم بشهادة السياق السابق وأما مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعا بشهادة السياق اللاحق.

٤. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ التدمير الإهلاك، وضمائر الجمع للرهط، وكون عاقبة مكرهم هو إهلاكهم وقومهم من جهة أن مكرهم استدعى المكر الإلهي على سبيل المجازاة، واستوجب ذلك إهلاكهم وقومهم.

٥. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا﴾، الخاوية الخالية من الخواء بمعنى الخلاء، والباقي ظاهر.

٦. ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ فيه تبشير للمؤمنين بالإنجاء، وقد أردفه بقوله: ﴿وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ إذ التقوى كالمجن للإيمان وقد قال تعالى: ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال: ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ [طه: ١٣٢]

٢٤. قصة لوط وإنكار فاحشة قومه وإنجائه وإهلاكهم:

المقطع [٢٤] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ

الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٧٦»:

١. ﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ معطوف على موضع ﴿أَرْسَلْنا﴾ في القصة السابقة بفعل مضمر والتقدير ولقد أرسلنا لوطا، كذا قيل، ويمكن أن يكون معطوفا على أصل القصة بتقدير اذكر والفاحشة هي الخصلة البالغة في الشناعة والمراد بها اللواط.

٢. ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي وأنتم في حال يرى بعضكم بعضا وينظر بعضكم إلى بعض حين الفحشاء فهو على حد قوله في موضع آخر: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وقيل: المراد إبصار القلب ومحصله العلم بالشناعة وهو بعيد.

٣. ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، ودخول أداتي التأكيد، إن واللام، على الجملة الاستفهامية للدلالة على أن مضمون الجملة من الاستبعاد بحيث لا يصدقه أحد والجملة على أي حال في محل التفسير للفحشاء.

٤. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي مستمرون على الجهل لا فائدة في توبيخكم والإنكار عليكم فلستم بمرتدعين، ووضع ﴿تَجْهَلُونَ﴾ بصيغة الخطاب موضع (يجهلون) من وضع المسبب موضع السبب كأنه قيل: (بل أنتم قوم يجهلون فأنتم تجهلون)

٥. ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتنزهون عن هذا العمل وهو وارد مورد الاستهزاء.

٦. ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ﴾ المراد بأهله أهل بيته لقوله تعالى: ﴿فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]، وقوله: ﴿قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ﴾ أي جعلناها من الباقين في العذاب.

٧. ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المراد بالمطر الحجارة من سجيل لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، فقوله: ﴿مَطَراً﴾ يدل بتنكيره على النوعية أي أنزلنا

عليهم مطرا له نبأ عظيم.

٢٥. الحمد لله والسلام على عباده المصطفين:

المقطع [٢٥] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِّ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُّ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٧٨»:

١. ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِّ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

أ. لما قص من قصص الأنبياء وأممهم ما قص وفيها بيان سنته الجارية في الأمم الماضين وما فعل بالمؤمنين منهم من الاصطفاء ومزيد الإحسان كما في الأنبياء منهم وما فعل بالكافرين من العذاب والتدمير، ولم يفعل إلا الخير الجميل ولا جرت سنته إلا على الحكمة البالغة، انتقل منها إلى أمر نبيه بأن يحمده ويثني عليه وأن يسلم على المصطفين من عباده وقرر أنه تعالى هو المتعين للعبادة.

ب. فهو انتقال من القصص إلى التحميد والتسليم والتوحيد وليس باستنتاج وإن كان في حكمه وإلا قيل: فقل الحمد لله.، أو فالله خير.

ج. فقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِّ﴾ أمر بتحميده وفيه إرجاع كل حمد إليه تعالى لما تقرر بالآيات السابقة أن مرجع كل خلق وتدبير إليه وهو المفيض كل خير بحكمته والفاعل لكل جميل بقدرته.

٢. ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ معطوف على ما قبله من مقول القول وفي التسليم لأولئك العباد المصطفين نفي كل ما في نفس المسلم من جهات التمانع والتضاد لما عندهم من الهداية الإلهية وآثارها الجميلة، على ما يقتضيه معنى السلام، ففي الأمر بالسلام أمر ضمني بالتهيؤ لقبول ما عندهم من الهدى وآثاره فهو بوجه في معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فافهمه.

٣. ﴿آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من تمام الخطاب للنبي ﷺ والاستفهام للتقرير ومحصل المراد أنه إذا كان الثناء كله لله وهو المصطفى لعباده المصطفين فهو خير من آلهتهم الذين يعبدونهم ولا خلق ولا تدبير لهم يحمدون عليه ولا خير بأيديهم يفيضونه على عبادهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ قال: هم آل محمد عليه السلام.

• أقول: ورواه أيضا في جمع الجوامع، عنهم عليه السلام مرسلا مضمرا، وقد عرفت فيما تقدم من البيان في ذيل الآية أن الذي يعطيه السياق أن المراد بهم بحسب مورد الآية الأنبياء المنعمون بنعمة الاصطفاء وقد قص الله قصص جمع منهم فقوله عليه السلام، لو صحت الرواية، هم آل محمد عليه السلام من قبيل الجري والانطباق.

ب. ونظيرها ما رواه في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الكتب عن ابن عباس في الآية قال: هم أصحاب محمد فهو، لو صحت الرواية، إجراء منه وتطبيق.

ج. ومنه يظهر ما فيما رواه أيضا عن عبد بن حميد وابن جرير عن سفيان الثوري في الآية قال: نزلت في أصحاب محمد خاصة، فلا نزول ولا اختصاص.

٢٦. الله خالق السموات والأرض ومنزل الماء للحدائق:

المقطع [٢٦] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٧٩»:

١. ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾:

أ. الحدائق جمع حديقة وهي البستان المحدود المحوط بالحيطان وذات بهجة صفة حدائق، قال في مجمع البيان: (ذات بهجة أي ذات منظر حسن يبتهج به من رآه ولم يقل: ذوات بهجة لأنه أراد تأنيث الجماعة ولو أراد تأنيث الأعيان لقال: ذوات)

ب. و(أم) في الآية منقطعة تفيد معنى الإضراب، و(من) مبتدأ خبره محذوف وكذا الشق الآخر من الترديد والاستفهام للتقرير وحملهم على الإقرار بالحق والتقدير على ما يدل عليه السياق بل أمن خلق السماوات والأرض خير أم ما يشركون، والأمر على هذا القياس في الآيات الأربع التالية.

ج. ومعنى الآية: بل أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم أي لنفعكم من السماء وهي جهة العلو ماء وهو المطر فأنبتنا به أي بذلك الماء بساتين ذات بهجة ونضارة ما كان لكم أي لا تملكون وليس في قدرتكم أن تنبتوا شجرها أإله آخر مع الله سبحانه، وهو إنكار وتوبيخ.

د. وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب بالنسبة إلى المشركين والنكتة فيه تشديد التوبيخ بتبديل

الغيبة حضورا فإن مقام الآيات السابقة على هذه الآية مقام التكلم ممن يخاطب أحد خواصه بحضرة من عبيده المتمردين المعرضين عن عبوديته يبث إليه الشكوى وهو يسمعهم حتى إذا تمت الحجة وقامت البينة كما في قوله: ﴿آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هاج به الوجد والأسف فتوجه إليهم بعد الإعراض فأخذ في حملهم على الإقرار بالحق بذكر آية بعد آية وإنكار شركهم وتوبيخهم عليه بعدولهم عنه إلى غيره وعدم علم أكثرهم وقلة تذكرهم مع تعاليه عن شركهم وعدم برهان منهم على ما يدعون.

٢. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾:

أ. أي عن الحق إلى الباطل وعن الله سبحانه إلى غيره وقيل: أي يعدلون بالله غيره ويساوون بينهما.

ب. وفي الجملة التفات من الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إلى المشركين ورجوع إلى خطاب النبي ﷺ والإضراب فيه لبيان أن لا جدوى للسير في حملهم على الحق فإنهم عادلون عنه.

٢٧. الله جاعل الأرض قراراً والأنهار والرواسي والحواجز:

المقطع [٢٧] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٨٠»:

١. ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً﴾:

أ. القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أي القار المستقر، والخلال جمع خلل بفتحتين وهو الفرجة بين الشيئين، والرواسي جمع راسية وهي الثابتة والمراد بها الجبال الثابتات، والحاجز هو المانع المتخلل بين الشيئين.

ب. والمعنى: بل أمن جعل الأرض مستقرة لا تميد بكم، وجعل في فرجها التي في جوفها أنهارا وجعل لها جبالا ثابتة وجعل بين البحرين مانعا من اختلاطهما وامتزاجهما هو خير أم ما يشركون؟ والكلام في قوله: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ كالكلام في نظيره من الآية السابقة.

٢٨. الله مجيب المضطر وكاشف السوء وجاعل الخلفاء:

المقطع [٢٨] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِّ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ١٥/ ٣٨١»:

١. ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾:

أ. المراد بإجابة المضطر إذا دعاه استجابة دعاء الداعين وقضاء حوائجهم وإنما أخذ وصف الاضطرار ليتحقق بذلك من الداعي حقيقة الدعاء والمسألة إذ ما لم يقع الإنسان في مضيقة الاضطرار وكان في مندوحة من المطلوب لم يتمحض منه الطلب وهو ظاهر.

ب. ثم قيده بقوله: ﴿إِذا دَعاهُ﴾ للدلالة على أن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه وإنما يكون ذلك عند ما ينقطع الداعي عن عامة الأسباب الظاهرية ويتعلق قلبه بربه وحده وأما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهرية فقط أو بالمجموع من ربه ومنها فليس يدعو ربه وإنما يدعو غيره.

ج. فإذا صدق في الدعاء وكان مدعوه ربه وحده فإنه تعالى يجيبه ويكشف السوء الذي اضطره إلى المسألة كما قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فلم يشترط للاستجابة إلا أن يكون هناك دعاء حقيقة وأن يكون ذلك الدعاء متعلقا به وحده، وقال أيضا: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقد فصلنا القول في معنى الدعاء في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل الآية.

د. وبما مر من البيان يظهر فساد قول بعضهم إن اللام في ﴿الْمُضْطَرَّ﴾ للجنس دون الاستغراق فكم من مضطر يدعو فلا يجاب فالمراد إجابة دعاء المضطر في الجملة لا بالجملة:

• وجه الفساد أن مثل قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ﴾ يأبى تخلف الدعاء عن الاستجابة، وقوله: كم من مضطر يدعو فلا يجاب، غير مسلم إذا كان دعاء حقيقة لله سبحانه وحده كما تقدم بيانه.

• على أن هناك آيات كثيرة تدل على أن الإنسان يتوجه عند الاضطرار كركوب السفينة نحو ربه فيدعوه بالإخلاص فيستجاب له كقوله تعالى: ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً﴾ الآية، [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وكيف يتصور تعلق النفس بتوجهها الغريزي الفطري بأمر لا اطمئنان

لها به فما قضاء الفطرة في ذلك إلا كقضائها عند إدراك حاجتها الوجودية إلى من يوجدها ويدبر أمرها أن هناك أمرا يرفع حاجتها وهو الله سبحانه.

هـ. سؤال وإشكال: فإن قلت: نحن كثيرا ما نتوسل في حوائجنا من الأسباب الظاهرية بما لا نقطع بفعلية تأثيره في رفع حاجتنا وإنما نتعلق به رجاء أن ينفعنا إن نفع، والجواب: هذا توسل فكري مبدؤه الطمع والرجاء وهو غير التوسل الغريزي الفطري نعم في ضمنه نوع من التوجه الغريزي الفطري وهو التسبب بمطلق السبب ومطلق السبب لا يتخلف، فافهم.

و. وظهر أيضا فساد قول من قال: المراد بالمضطر إذا دعاه المذنب إذا استغفره فإن الله يغفر له وهو إجابته.

• وفيه أن إشكال الاستغراق بحاله فما كل استغفار يستتبع المغفرة ولا كل مستغفر يغفر له، على أنه لا دليل على تقييد إطلاق المضطر بالمذنب العاصي.

ز. وذكر بعضهم: أن الاستغراق بحاله لكن ينبغي تقييد الإجابة بالمشية كما وقع ذلك في قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]

• وفيه أن الآية واقعة في سياق لا تصلح معه لتقييد الإجابة في آية المضطر وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ﴾ فالساعة من القضاء المحتوم لا يتعلق بكشفها طلب حقيقي، وأما العذاب الإلهي فإن طلب كشفه بتوبة وإيمان حقيقي فإن الله يكشفه كما كشف عن قوم يونس وإن لم يكن كذلك بل احتيالا للنجاة منه فلا لعدم كونه طلبا حقيقيا بل مكرا في صورة الطلب كما حكاه الله عن فرعون لما أدركه الغرق ﴿قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، وحكى عن أقوام آخرين أخذهم بالعذاب: ﴿قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]

ح. وبالجملة فمورد قوله: ﴿فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ﴾ لما كان مما يمكن أن يكون الطلب فيه حقيقيا أو غير حقيقي كان من اللازم تقييد الكشف والإجابة فيه بالمشية فيكشف الله عنهم إن شاء وذلك في مورد حقيقة الطلب والإيمان ولا يكشف إن لم يشأ وهذا غير مورد آية المضطر وسائر آيات إجابة

الدعوة الذي يتضمن حقيقة الدعاء من الله سبحانه وحده.

٢. ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ﴾:

أ. الذي يعطيه السياق أن يكون المراد بالخلافة الخلافة الأرضية التي جعلها الله للإنسان يتصرف بها في الأرض وما فيها من الخليقة كيف يشاء كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]

ب. وذلك أن تصرفاته التي يتصرف بها في الأرض وما فيها بخلافته أمور مرتبطة بحياته متعلقة بمعاشه فالسوء الذي يوقعه موقع الاضطرار ويسأل الله كشفه لا محالة شيء من الأشياء التي تمنعه التصرف أو بعض التصرف فيها وتغلق عليه باب الحياة والبقاء وما يتعلق بذلك أو بعض أبوابها ففي كشف السوء عنه تتميم لخلافته.

ج. ويتضح هذا المعنى مزيد اتضاح لو حمل الدعاء والمسألة في قوله: ﴿إِذا دَعاهُ﴾ على الأعم من الدعاء اللساني كما هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله: ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩]، إذ يكون على هذا جميع ما أوتي الإنسان ورزقه من التصرفات من مصاديق كشف السوء عن المضطر المحتاج إثر دعائه فجعله خليفة يتبع إجابة دعائه وكشف السوء الذي اضطره عنه.

د. وقيل: المعنى ويجعلكم خلفاء من قبلكم من الأمم في الأرض تسكنون مساكنهم وتتصرفون فيها بعدهم هذا، وما قدمناه من المعنى أنسب منه للسياق.

هـ. وقيل: المعنى: ويجعلكم خلفاء من الكفار بنزول بلادهم وطاعة الله تعالى بعد شركهم وعنادهم، وفيه أن الخطاب في الآية كسائر الآيات الخمس التي قبلها للكفار لا للمؤمنين كما عليه بناء الوجه.

٣. ﴿قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ خطاب توبيخي للكفار وقرئ (يذكرون) بالياء للغيبة وهو أرجح لموافقته ما في ذيل سائر الآيات الخمس كقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وغيرهما، فإن الخطاب فيها جميعا للنبي ﷺ بطريق الالتفات كما مر بيانه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ﴾ الآية، حدثني أبي عن الحسن بن علي بن فضال عن صالح بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت في القائم من آل محمد عليه السلام، هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين، ودعا إلى الله عز وجل، فأجابه ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض.

• أقول: والرواية أيضا من الجري والآية عامة.

ب. أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال: قال رسول الله ﷺ: من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه، لأن الله تعالى يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ﴾ فالخلافة من الله عز وجل، فإن كان خيرا فهو يذهب به، وإن كان شرا فهو يؤخذ به، عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله به.

• أقول: الرواية لا تخلو من شيء فقد تقدم أن المراد بالخلافة في الآية، على ما يشهد به السياق، الخلافة الأرضية المقدرة لكل إنسان وهو السلطة على ما في الأرض بأنواع التصرف دون الخلافة بمعنى الحكومة على الأمة بإدارة رحى مجتمعهم.

• ومع الغض عن ذلك فمتن الرواية لا يخلو عن تدافع فإن كان المراد بكون الخلافة من الله تعالى أن سلطانه على الناس بتقدير من الله وبعبارة أخرى انتسابها التكويني إلى الله سبحانه كما ورد في ملك نمرود من قوله تعالى: ﴿أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله حكاية عن فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١]، فمن البين أن الخلافة بهذا المعنى لا تستتبع وجوب الطاعة وحرمة المخالفة وإلا كان نقضا لأصل الدعوة الدينية وإيجابا لطاعة أمثال نمرود وفرعون وكم لها من نظير، وإن كان المراد به الجعل الوضعي الديني وبعبارة أخرى انتسابها التشريعي إلى الله تعالى ثم وجبت طاعته فيما يأمر به وإن كان معصية كان ذلك نقضا صريحا للأحكام، وإن كان الواجب طاعته في غير معصية الله لقوله ﷺ: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) جازت مفارقة الجماعة في الجملة وهو يناقض صدر الرواية.

• ونظير الإشكال يجري في قوله ذيلا: (عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله به) فلو كان المراد مما أمر الله به طاعته مقام الخلافة وإن كان في معصية كان نقضا صريحا لتشريع الأحكام وإن كان المراد به طاعة الله وإن استلزم معصية مقام الخلافة كان ناقضا لصدر الرواية.

• وقد اتضح اليوم بالأبحاث الاجتماعية أن إمضاء حكومة من لا يحترم القوانين المقدسة الجارية لا يرضى به مجتمع عاقل رشيد فمن الواجب تنزيه ساحة مشرع الدين عن ذلك، والقول بأن مصلحة حفظ وحدة الكلمة واتفاق الأمة أهم من حفظ بعض الأحكام بالمفارقة معناه جواز هدم حقيقة الدين لحفظ اسمه.

٢٩. الله الهادي في الظلمات والمرسل الرياح بشراً:

المقطع [٢٩] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٨٤»:

١. ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، والمراد بظلمات البر والبحر ظلمات الليالي في البر والبحر ففيه مجاز عقلي، والمراد بإرسال الرياح بشرا إرسالها مبشرات بالمطر قبيل نزوله والرحمة المطر، والباقي ظاهر.

٣٠. الله مبدئ الخلق ومعيده وهو الرزاق:

المقطع [٣٠] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٨٤»:

١. ﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. بدء الخلق إيجاده ابتداء لأول مرة وإعادته إرجاعه إليه بالبعث وتبكيت المشركين بالبدء والإعادة مع إنكارهم البعث كما سيذكره بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، بناء على ثبوت المعاد بالأدلة القاطعة في كلامه فأخذ كالمسلم ثم استدرك إنكارهم له أو شكهم فيه في الآيات التالية.

ب. وقيل: المراد ببدء الخلق ثم إعادته إيجاد الواحد من نوعه ثم إهلاكه وإيجاد نظيره بعده وبالجملة إيجاد المثل بعد المثل فلا يرد أن المشركين منكرون للمعاد فكيف يحتج به عليهم، هذا وهو بعيد من ظاهر الآية.

ج. وما تتضمنه الآية من لطائف الحقائق القرآنية يفيد أن لا بطلان في الوجود مطلقا بل ما أوجده

الله تعالى بالبدء سيرجع إليه بالإعادة وما نشاهده من الهلاك فيها فقدان منا له بعد وجدانه.

د. وأما ما أجمع عليه المتكلمون من امتناع إعادة المعدوم في بعض الموجودات كالأعراض واختلفوا في جواز إعادة بعض آخر كالجواهر، لا ارتباط له بمسألة البعث على ما تقرره الآية، فإن البعث ليس من باب إعادة المعدوم حتى يمتنع بامتناع إعادته لو امتنعت بل البعث عود الخلق ورجوعه وهو خلق من غير بطلان إلى ربه المبدئ له.

٢. ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى ما وقع من تدبيره لأمرهم بين البدء والعود وهو رزقهم بأسباب سماوية كالأمطار وأسبابها والأرضية كعامة ما يتغذى به الإنسان من الأرضيات.

٣. ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾:

أ. لما ذكر سبحانه فصولا مشتملة على عامة الخلق والتدبير مع الإشارة إلى ارتباط التدبير بعضه ببعض وارتباط الجميع إلى الخلق وعاد الخلق والتدبير بذلك أمرا واحدا منتسبا إليه قائما به تعالى وأثبت بذلك أنه تعالى هو رب كل شيء وحده لا شريك له وكان لازم ذلك إبطال ألوهية الآلهة التي يدعونها من دون الله، وذلك أن الألوهية وهي استحقاق العبادة تتبع الربوبية التي هي تدبير عن ملك فالعبادة على ما يتداولونها إما لتكون شكرا للنعمة أو اتقاء للنقمة وعلى أي حال ترتبط بالتدبير الذي هو من شئون الربوبية، وكان إبطال ألوهية الآلهة من دون الله هو الغرض من الفصول الموردة في هذه الآيات كما يدل على ذلك قوله بعد إيراد كل واحد من الفصول: ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللهِ﴾

ب. أمر نبيه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾ أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه من ألوهية آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنهم مجازفون في دعواهم إذ لو استدلوا على ألوهيتها بشيء كان من الواجب أن ينسبوا إليها شيئا من تدبير العالم والحال أن جميع الخلق والتدبير له تعالى وحده.

٣١. لا يعلم الغيب إلا الله وجهل المشركين بالبعث:

المقطع [٣١] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٥-٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٨٥»:

١. ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾:

أ. لما أمره ﷺ بعد إبطال ألوهية آلهتهم بانتساب الخلق والتدبير إليه تعالى وحده أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه أمره ثانيا أن يواجههم ببرهان آخر على بطلان ألوهية آلهتهم وهو عدم علمهم بالغيب وعدم شعورهم بالساعة وأنهم أيان يبعثون مع أنه لا يعلم أحد ممن في السماوات والأرض، ومنهم آلهتهم الذين هم الملائكة والجن وقديسو البشر، الغيب وما يشعرون أيان يبعثون، ولو كانوا آلهة لهم تدبير أمر الخلق، ومن التدبير الجزاء يوم البعث، لعلموا بالساعة.

ب. وقد ظهر بهذا البيان أن قوله: ﴿لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ برهان مستقل على بطلان ألوهية آلهتهم واختصاص الألوهية به تعالى وحده وأن قوله: ﴿وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ من عطف أوضح أفراد الغيب عليه وأهمها علما بالنسبة إلى أمر التدبير.

ج. وظهر أيضا أن ضميري الجمع في ﴿وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لمن في السماوات لعدم تمام البيان بدونه، فقول بعضهم: إن الضمير للمشركين وإن كان عدم الشعور بما ذكر عاما لئلا يلزم التفكيك بينه وبين الضمائر الآتية الراجعة إليهم قطعا.

• فيه أنه ينافي ما سيقت له الآية الكريمة من البيان كما قدمنا الإشارة إليه والتفكيك بين الضمائر مع وجود القرينة لا بأس به.

٢. ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ﴾:

أ. ادارك في الأصل تدارك والتدارك تتابع أجزاء الشيء بعضها بعد بعض حتى تنقطع ولا يبقى منها شيء، ومعنى تدارك علمهم في الآخرة أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في غيرها حتى نفد علمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة على حد قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] و﴿عَمُونَ﴾ جمع عمي.

ب. لما انتهى احتجاجه تعالى إلى ذكر عدم شعور أحد غيره تعالى بوقت البعث وتبكيت المشركين بذلك رجع إلى نبيه ﷺ وذكره أنهم في معزل عن الخطاب بذلك إذ لا خبر لهم عن شيء عن أمور الآخرة فضلا عن وقت قيام الساعة وذلك أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في جهات الحياة الدنيا فهم في جهل مطلق بالنسبة إلى أمور الآخرة بل هم في شك من الآخرة يرتابون في أمرها كما يظهر من احتجاجاتهم على نفيها المبنية على الاستبعاد بل هم منها عمون والله أعمى قلوبهم عن التصديق بها والاعتقاد بوجودها.

ج. وقد ظهر بهذا البيان أن تكرر كلمة الإضراب لبيان مراتب الحرمان من العلم بالآخرة وأنهم في أعلاها، فقوله: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي لا علم لهم بها كأنها لم تقرع سمعهم، وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها﴾ أي أنه قرع سمعهم خبرها وورد قلوبهم لكنهم ارتابوا ولم يصدقوا بها، وقوله: ﴿بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ﴾ أي إنهم لم ينقطعوا عن الاعتقاد بها من عند أنفسهم وباختيار منهم بل الله سبحانه أعمى أبصار قلوبهم فصاروا عمين فهيهات أن يدركوا من أمرها شيئا.

د. وقيل: المراد بتدارك علمهم تكامله وبلوغه حد اليقين لتكامل الحجج الدالة على حقية البعث والجملة مسوقة للتهكم، وفيه أنه لا يلائم ما يتبعه من الإضراب بالشك والعمى.

٣. أخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن مسروق قال: كنت متكئا عند عائشة فقالت عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: وما هن؟ قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه، فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئا فجلست وقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي علي ألم يقل الله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل هذا رسول الله ﷺ، فقال: جبرئيل، لم أره على صورته التي خلق عليها، غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا، عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض، قالت: ألم تسمع الله عز وجل يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؟ أولم تسمع الله يقول: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ ومن زعم أن محمدا كتم شيئا من كتاب الله، فقد أعظم على الله الفرية والله جل ذكره يقول: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قالت: ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾

• أقول: وفي متن الرواية شيء أما آيات الرؤية فإنما تنفي رؤية الحس دون رؤية القلب وهي من الرؤية وراء الإيمان الذي هو الاعتقاد وقد أشبعنا الكلام فيها في الموارد المناسبة له.

• وأما قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ الآية فقد أوضحنا في تفسير الآية أنها خاصة غير عامة ولو فرضت عامة فإنما تدل على أن كل ما أنزل إليه مما فيه رسالة وجب عليه تبليغه ومن الجائز أن ينزل إليه

ما يختص علمه به ﷺ فيكتمه عن غيره.

• وأما قوله: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ فلا يدل إلا على اختصاص علم الغيب بالذات به تعالى كسائر آيات اختصاص الغيب به، ولا ينفي علم الغير به بتعليم منه تعالى كما يشير إليه قوله: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧]، وقد حكى الله سبحانه نحوا من هذا الإخبار عن المسيح عليه السلام إذ قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ومن المعلوم أن القائل إن النبي ﷺ كان يخبر الناس بما يكون في غد لا ينفي كون ذلك بتعليم من الله له.

• وقد تواترت الأخبار على تفرقها وتنوعها من طرق الفريقين على إخباره ﷺ بكثير من الحوادث المستقبلة.

٣٢. إنكار الكفار للبعث واستهزاؤهم وسيرهم في الأرض:

المقطع [٣٢] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٧-٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٨٧»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ حكاية حجة منهم لنفي البعث مبنية على الاستبعاد أي كيف يمكن أن نخرج من الأرض بشرا تامين كما نحن اليوم وقد متنا وكنا ترابا نحن وآباؤنا كذلك؟

٢. ﴿لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ﴾ حجة أخرى منهم مبنية على الاستبعاد أي لقد وعدنا هذا وهو البعث بعد الموت نحن وآباؤنا وعدوه قبل أن يعدنا هذا النبي والذين وعدوا قبلا هم الأنبياء الماضون فهو وعد قديم لم نزل نوعد به ولو كان خبرا صادقا ووعدا حقا لوقع إلى هذا اليوم وإذ لم يقع فهو من الخرافات التي اختلقها الأولون وكانوا مولعين باختلاق الأوهام والخرافات والإصغاء إليها.

٣. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾:

أ. إنذار وتخويف لهم على إنكارهم وعد الأنبياء بالبعث بأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا

كيف كان عاقبة المجرمين المكذبين للأنبياء المنذرين لهم بالبعث فإن في النظر إلى عاقبة أمرهم على ما تدل عليه مساكنهم الخربة وديارهم الخالية كفاية للمعتبرين من أولي الأبصار، وفي التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين في ترك الجرائم، كذا قيل.

ب. ويمكن أن تقرر الآية حجة تدل على المعاد وتقريبها أن انتهاء عاقبة أمر المجرمين إلى عذاب الاستئصال دليل على أن الاجرام والظلم من شأنه أن يؤاخذ عليه وأن العمل إحسانا كان أو إجراما محفوظ على عامله سيحاسب عليه وإذ لم تقع عامة هذا الحساب والجزاء، وخاصة على الأعمال الصالحة، في الدنيا فذلك لا محالة في نشأة أخرى وهي الدار الآخرة، فتكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ويؤيد هذا التقرير قوله: ﴿عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولو كان المراد تهديد مكذبي الرسل وتخويفهم كان الأنسب أن يقال: عاقبة المكذبين، كما تقدمت الإشارة إليه.

٤. ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾:

أ. أي لا يحزنك إصرارهم على الكفر والجحود ولا يضق صدرك من مكرهم لإبطال دعوتك وصدهم الناس عن سبيل الله فإنهم بعين الله وليسوا بمعجزيه وسيجزيهم بأعمالهم.

ب. فالآية مسوقة لتطييب نفس النبي ﷺ، وقوله: ﴿وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾، معطوف على ما قبله عطف التفسير.

٣٣. استعجال الكفار للعذاب وقرب حلوله:

المقطع [٣٣] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧١-٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٨٨»:

١. ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ الظاهر أن المراد بالوعد الوعد بعذاب المجازاة أعم من الدنيا والآخرة، والسياق يؤيد ذلك والباقي ظاهر.

٢. ﴿قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾:

أ. قالوا: إن اللام في ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ مزيدة للتأكيد، كالباء في قوله: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى

التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، والمعنى تبعكم ولحق بكم، وقيل: إن ردف مضمن معنى فعل يعدي باللام.

ب. والمراد ببعض الذي يستعجلونه هو عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة فإنهم كانوا يستعجلون إنجاز ما وعدهم الله من الحكم الفصل، وهو ملازم لعذابهم، وعذابهم في الدنيا بعض العذاب الذي يستعجلونه باستنجاز الوعد، ولعل مراد الآية به عذاب يوم بدر كما قيل.

ج. قالوا: إن (عسى ولعل) من الله تعالى واجب لأن حقيقة الترجي مبنية على الجهل ولا يجوز عليه تعالى ذلك فمعنى قوله: ﴿عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ سيردفكم ويأتيكم العذاب محققا.

• وفيه أن معنى الترجي والتمني ونحوهما كما جاز أن يقوم بنفس المتكلم يجوز أن يقوم بالمقام أو بالسامع أو غيرهما وهو في كلامه تعالى قائم بغير المتكلم من المقام وغيره وما في الآية من الجواب لما أرجع إلى النبي ﷺ كان الرجاء المدلول عليه بكلمة عسى قائما بنفسه الشريفة والمعنى: قل أرجو أن يكون ردف لكم العذاب.

• وفي تفسير أبي السعود: (وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها، وإنما يطلقونها إظهارا للوقار، وإشعارا بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك مجرى وعد الله تعالى ووعيده) وهو وجه وجيه.

د. ومعنى الآية: قل لهؤلاء السائلين عن وقت الوعد: أرجو أن يكون تبعكم بعض الوعد الذي تستعجلونه وهو عذاب الدنيا الذي يقربكم من عذاب الآخرة ويؤديكم إليه، وفي التعبير بقوله: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ إيماء إلى قربه.

٣٤. فضل الله على الناس وعدم شكر أكثرهم:

المقطع [٣٤] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٣-٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٨٩»:

١. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ معنى الآية في نفسها ظاهر ووقوعها في سياق التهديد والتخويف يفيد أن تأخيره تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك إنما هو فضل منه عليهم يجب عليهم شكره عليه لكنهم لا يشكرونه ويسألون تعجيله.

٢. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ﴾ أي إن تأخير العذاب ليس عن جهل منه تعالى بحالهم وما يستحقونه بالكفر والجحود فإنه يعلم ما تستره وتخفيه صدورهم وما يظهرونه.

٣. ثم أكد ذلك بأن كل غائبة، وهي ما من شأنه أن يغيب ويخفى في أي جهة من جهات العالم كان، مكتوب محفوظ عنده تعالى وهو قوله: ﴿وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾

٣٥. القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر ما وقع فيه اختلافهم:

المقطع [٣٥] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦-٧٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٨٩»:

١. ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. تطييب لنفس النبي ﷺ وتمهيد لما سيذكره من حقية دعوته وتقوية لإيمان المؤمنين به، وبهذا الوجه يتصل بقوله قبلا: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ المشعر بحقية دعوته.

ب. فقوله: ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يشير إلى ما يقصه القرآن من قصص الأنبياء ويبين الحق فيما اختلفوا فيه من أمرهم ومنه أمر المسيح عليه السلام ويبين الحق فيما اختلفوا فيه من المعارف والأحكام.

٢. ﴿وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى أنه يهدي المؤمنين بما قصه على بني إسرائيل إلى الحق وأنه رحمة لهم تطمئن به قلوبهم ويثبت الإيمان بذلك في نفوسهم.

٣٦. قضاء الله بين بني إسرائيل بالحق:

المقطع [٣٦] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٨-٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٩٠»:

١. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى أن القضاء بينهم إلى الله فهو ربه العزيز الذي لا يغلب في أمره العليم لا يجهل ولا يخطئ في حكمه فهو القاضي بينهم بحكمه فلترض نفس النبي ﷺ بربه العزيز العليم قاضيا حكما ولترجع الأمر إليه كما ينبغي أن تفعل مثل ذلك في حق المشركين

ولا تحزن عليهم ولا تكون في ضيق مما يمكرون.

٢. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ تفريع على مجموع ما أمر به قبال كفر المشركين واختلاف بني إسرائيل أي إن أمرهم جميعا إلى الله لا إليك فاتخذه وكيلا فهو كافيك ولا تخافن شيئا إنك في أمن من الحق.

٣٧. النبي لا يُسمع الموتى ولا يهدي العمي:

المقطع [٣٧] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠-٨١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٩٠»:

أ. ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تعليل للأمر بالتوكل أي إنما أمرناك بالتوكل على الله في أمر إيمانهم وكفرهم لأنهم موتى وليس في وسعك أن تسمع الموتى دعوتك وإنهم صم لا يسمعون وعمي ضالون لا تقدر على إسماع الصم إذا ولوا مدبرين، ولعله قيد عدم إسماع الصم بقوله: ﴿إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ لأنهم لو لم يكونوا مدبرين لأمكن تفهيمهم بنوع من الإشارة، ولا على هداية العمي عن ضلالتهم، وإنما الذي تقدر عليه هو أن تسمع من يؤمن بآياتنا الدالة علينا وتهديهم فإنهم لإذعانهم بتلك الحجج الحقة مسلمون لنا مصدقون بما تدل عليه.

ب. وقد تبين بهذا البيان:

- أولا أن المراد بالإسماع الهداية.
- وثانيا: أن المراد بالآيات الحجج الدالة على التوحيد وما يتبعه من المعارف الحقة.
- وثالثا: أن من تعقل الحجج الحقة من آيات الآفاق والأنفس بسلامة من العقل ثم استسلم لها بالإيمان والانقياد ليس هو من الموتى ولا ممن ختم الله على سمعه وبصره.

٣٨. خروج الدابة عند وقوع القول عليهم:

المقطع [٣٨] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٩٥»:

١. ﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾:

أ. مقتضى السياق، بما أن الآية متصلة بما قبلها من الآيات الباحثة عن أمر المشركين المعاصرين للنبي ﷺ أو خصوص أهل مكة من قريش وقد كانوا أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ودعوته، أن ضمائر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿لَهُمْ﴾ و﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ للمشركين المحدث عنهم لكن لا لخصوصهم بل بما أنهم ناس معنيون بالدعوة فالمراد بالحقيقة عامة الناس من هذه الأمة من حيث وحدتهم فيلحق بأولهم من الحكم ما يلحق بآخرهم وهذا النوع من العناية كثير الورود في كلامه تعالى.

ب. والمراد بوقوع القول عليهم تحقق مصداق القول فيهم وتعينهم لصدقه عليهم كما في الآية التالية: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا﴾ أي حق عليهم العذاب، فالجملة في معنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وقد كثر وروده في كلامه تعالى، والفرق بين التعبيرين أن العناية في ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ بتعينهم مصداقا للقول وفي ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ باستقرار القول وثبوته فيهم بحيث لا يزول.

ج. وأما ما هو هذا القول الواقع عليهم فالذي يصلح من كلامه تعالى لأن يفسر به قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فإن المراد بهذه الآيات التي سيريهم غير الآيات السماوية والأرضية التي هي بمرآهم ومسمعهم دائما قطعا بل بعض آيات خارقة للعادة تخضع لها وتضطر للإيمان بها أنفسهم في حين لا يوقنون بشيء من آيات السماء والأرض التي هي تجاه أعينهم وتحت مشاهدتهم.

د. وبهذا يظهر أن قوله: ﴿أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ تعليل لوقوع القول عليهم والتقدير لأن الناس، وقوله: ﴿كانُوا﴾ لإفادة استقرار عدم الإيقان فيهم والمراد بالآيات الآيات المشهودة من السماء والأرض غير الآيات الخارقة، وقرئ ﴿أَنَّ﴾ بكسر الهمزة وهي أرجح من قراءة الفتح فيؤيد ما ذكرناه وتكون الجملة بلفظها تعليلا من دون تقدير اللام.

٢. ﴿أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾:

أ. بيان لآية خارقة من الآيات الموعودة في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وفي كونه وصفا لأمر خارق للعادة دلالة على أن المراد بالإخراج من الأرض إما الإحياء

والبعث بعد الموت وإما أمر يقرب منه، وأما كونها دابة تكلمهم فالدابة ما يدب في الأرض من ذوات الحياة إنسانا كان أو حيوانا غيره فإن كان إنسانا كان تكليمه الناس على العادة وإن كان حيوانا أعجم كان تكليمه كخروجه من الأرض خرقا للعادة.

ب. ولا نجد في كلامه تعالى ما يصلح لتفسير هذه الآية وأن هذه الدابة التي سيخرجها لهم من الأرض فتكلمهم ما هي؟ وما صفتها؟ وكيف تخرج؟ وما ذا تتكلم به؟ بل سياق الآية نعم الدليل على أن القصد إلى الإبهام فهو كلام مرموز فيه.

ج. ومحصل المعنى: أنه إذا آل أمر الناس، وسوف يئول، إلى أن كانوا لا يوقنون بآياتنا المشهودة لهم وبطل استعدادهم للإيمان بنا بالتعقل والاعتبار آن وقت أن نريهم ما وعدنا إراءته لهم من الآيات الخارقة للعادة المبينة لهم الحق بحيث يضطرون إلى الاعتراف بالحق فأخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم.

د. هذا ما يعطيه السياق ويهدي إليه التدبر في الآية من معناها، وقد أغرب المفسرون حيث أمعنوا في الاختلاف في معاني مفردات الآية وجملها والمحصل منها وفي حقيقة هذه الدابة وصفتها ومعنى تكليمها وكيفية خروجها وزمان خروجها وعدد خروجها والمكان الذي تخرج منه في أقوال كثيرة لا معول فيها إلا على التحكم، ولذا أضربنا عن نقلها والبحث عنها، ومن أراد الوقوف عليها فعليه بالمطولات.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: انتهى رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وهو نائم في المسجد قد جمع رملا ووضع رأسه عليه، فحركه برجله ثم قال: قم يا دابة الأرض، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، أيسمي بعضنا بعضا بهذا الاسم؟ فقال: لا والله ما هو إلا له خاصة، وهو الدابة الذي ذكره الله في كتابه فقال: ﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ، تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ ثم قال: يا علي إذا كان آخر الزمان أخرجك الله، في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعداءك، فقال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: إن العامة يقولون: إن هذه الآية إنما (تكلمهم) فقال أبو عبد الله عليه السلام: كلمهم الله في نار جهنم إنما هو تكلمهم من الكلام.

• أقول: والروايات في هذا المعنى كثيرة من طرق الشيعة.

ب. وفي المجمع: وروى محمد بن كعب القرطي قال: سئل علي عن الدابة، فقال: أما والله ما لها ذنب وإن لها للحية.

• أقول: وهناك روايات كثيرة تصف خلقتها تتضمن عجائب وهي مع ذلك متعارضة من أرادها فليراجع جوامع الحديث كالدر المنثور أو مطولات التفاسير كروح المعاني.

٣٩. حشر فوج من كل أمة وتوبيخهم وتبرؤهم:

المقطع [٣٩] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٣-٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٩٦»:

١. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾:

أ. الفوج كما ذكره الراغب، الجماعة المارة المسرعة، والإيزاع إيقاف القوم وحبسهم بحيث يرد أولهم على آخرهم.

ب. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ منصوب على الظرفية لمقدر والتقدير واذكر يوم نحشر والمراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأن المحشورين فوج من كل أمة ولا اجتماع لجميع الأمم في زمان واحد وهم أحياء، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ للتبعيض، وفي قوله: ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ﴾ للتبيين أو للتبعيض.

ج. والمراد بالآيات في قوله: ﴿يُكَذِّبُ بِآيَاتِنا﴾ مطلق الآيات الدالة على المبدإ والمعاد ومنها الأنبياء والأئمة والكتب السماوية دون الساعة وما يقع فيها وعند قيامها ودون الآيات القرآنية فقط لأن الحشر ليس مقصورا على الأمة الإسلامية بل أفواج من أمم شتى.

د. ومن العجيب إصرار بعضهم على أن الكلام نص في أن المراد بالآيات هاهنا وفي الآية التالية هي الآيات القرآنية قال: (لأنها هي المنطوية على دلائل الصدق التي لم يحيطوا بها مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا مثل الساعة وما فيها)

• وفساده ظاهر لأن عدم كون أمثال الساعة وما فيها مرادة لا يستلزم إرادة الآيات القرآنية مع ظهور أن المحشورين أفواج من جميع الأمم وليس القرآن إلا كتابا لفوج واحد منهم.

هـ. وظاهر الآية أن هذا الحشر في غير يوم القيامة لأنه حشر للبعض من كل أمة لا لجميعهم وقد

قال الله تعالى في صفة الحشر يوم القيامة: ﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٧]

و. وقيل: المراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق فهو حشر بعد حشر.

• وفيه أنه لو كان المراد الحشر إلى العذاب لزم ذكر هذه الغاية دفعا للإبهام كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذا ما جاؤُها﴾ [فصلت: ٢٠] مع أنه لم يذكر في ما بعد هذه الآية إلا العتاب والحكم الفصل دون العذاب والآية كما ترى مطلقة لم يشر فيها إلى شيء يلوح إلى هذا الحشر الخاص المذكور ويزيدها إطلاقا قوله بعدها: ﴿حَتَّى إِذا جاؤُ﴾ فلم يقل: حتى إذا جاءوا العذاب أو النار أو غيرها.

ز. ويؤيد ذلك أيضا وقوع الآية والآيتين بعدها بعد نبإ دابة الأرض وهي من أشراط الساعة وقبل قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ إلى آخر الآيات الواصفة لوقائع يوم القيامة، ولا معنى لتقديم ذكر واقعة من وقائع يوم القيامة على ذكر شروعه ووقوع عامة ما يقع فيه فإن الترتيب الوقوعي يقتضي ذكر حشر فوج من كل أمة لو كان من وقائع يوم القيامة بعد ذكر نفخ الصور وإتيانهم إليه داخرين.

ح. وقد تنبه لهذا الإشكال بعض من حمل الآية على الحشر يوم القيامة فقال: لعل تقديم ذكر هذه الواقعة على نفخ الصور ووقوع الواقعة للإيذان بأن كلا مما تضمنه هذا وذاك من الأحوال طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم أن الكل داهية واحدة.

ط. وأنت خبير بأنه وجه مختلق غير مقنع، ولو كان كما ذكر لكان دفع توهم كون الحشر المذكور في الآية في غير يوم القيامة بوضع الآية بعد آية نفخ الصور مع ذكر ما يرتفع به الإبهام المذكور أولى بالرعاية من دفع هذا التوهم الذي توهمه.

ي. فقد بان أن الآية ظاهرة في كون هذا الحشر المذكور فيها قبل يوم القيامة وإن لم تكن نصا لا يقبل التأويل.

٢. ﴿حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. المراد بالمجيء، بإعانة من السياق، هو الحضور في موطن الخطاب المدلول عليه بقوله: ﴿قالَ أَكَذَّبْتُمْ﴾ والمراد بالآيات، كما تقدم في الآية السابقة، مطلق الآيات الدالة على الحق، وقوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا

بِها عِلْماً﴾ جملة حالية أي كذبتم بها حال كونكم لا علم لكم بها لإعراضكم عنها فكيف كذبتم بما لا تعلمون أي رميتموها بالكذب وعدم الدلالة من غير علم، وقوله: ﴿أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي غير التكذيب.

ب. والمعنى: حتى إذا حضروا في موطن الخطاب قال الله سبحانه لهم: أكذبتم بآياتي حال كونكم لم تحيطوا بها علما أم أي شيء كنتم تعملون غير التكذيب، وفي ذلك عتابهم بأنهم لم يشتغلوا بشيء غير تكذيبهم بآيات الله من غير أن يشغلهم عنه شاغل معذر.

٣. ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾:

أ. الباء في ﴿بِما ظَلَمُوا﴾ للسببية و(ما) مصدرية أي وقع القول عليهم بسبب كونهم ظالمين، وقوله: ﴿فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾ تفريع على وقوع القول عليهم.

ب. وبذلك يتأيد أن المراد بالقول الذي يقع عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، والمعنى: ولكونهم ظالمين في تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا إلى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لا ينطقون.

ج. وربما فسر وقوع القول عليهم بوجوب العذاب عليهم والأنسب على هذا أن يكون المراد بالقول الواقع عليهم قضاؤه تعالى بالعذاب في حق الظالمين في مثل قوله: ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥]، والمعنى: ولكونهم ظالمين قضي فيهم بالعذاب فلم يكن عندهم ما ينطقون به، والوجه السابق أوجه.

د. وأما تفسير وقوع القول بحلول العذاب ودخول النار فبعيد من السياق لعدم ملاءمته التفريع في قوله: ﴿فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما يقول الناس في هذه الآية ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً﴾؟ قلت: يقولون إنه في القيامة، قال: ليس كما يقولون إنها في الرجعة، أيحشر الله في القيامة من كل أمة فوجا ويدع الباقين؟ إنما آية القيامة ﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾

• أقول: وأخبار الرجعة من طرق الشيعة كثيرة جدا.

٤٠. جعل الليل للسكون والنهار مبصراً:

المقطع [٤٠] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٩٩»:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لما وصف في الآيات السابقة أن كثيرا من الناس في صمم وعمي من استماع كلمة الحق والنظر في آيات الله والاعتبار بهما، ثم ذكر دابة الأرض وأنه سيخرجها آية خارقة للعادة تكلمهم، ثم ذكر أنه سيحشر فوجا من كل أمة من المكذبين فيعاتبهم فتتم عليهم الحجة بقولهم بغير علم بالآيات لإعراضهم عنها وبخهم في هذه الآية ولامهم على تكذيبها بالآيات مع الجهل أنهم كانوا يرون الليل الذي يسكنون فيه بالطبع وأن هناك نهارا مبصرا يظهر لهم بها آيات السماء والأرض فلم لم يتبصروا؟

٢. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. أي في جعل الليل سكنا يسكنون فيه والنهار مبصرا يبصرون فيه آيات السماء والأرض آيات لقوم فيهم خاصة الإذعان والتصديق للحق اللائح لهم.

ب. والمراد بالآيات العلامات والجهات الدالة فيهما على التوحيد وما يتبعه من حقائق المعارف، ومن جملة ذلك دلالتها على أن الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه، وهو الليل الذي يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار، ويتحرك فيما من شأنه أن يتحرك فيه وهو النهار المبصر الذي يظهر به الأشياء التي تتضمن منافع الحياة للأبصار.

ج. فعلى الإنسان أن يسكت عما حجبته عنه ظلمة الجهل ولا يقول بغير علم ولا يكذب بما لا يحيط به علما وأن يقول ويؤمن بما تجليه له بينات الآيات التي هي كالنهر المبصرة.

٤١. نفخ الصور وفزع من في السموات والأرض:

المقطع [٤١] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٣٩٩»:

١. ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ

داخِرِينَ﴾:

أ. النفخ في الصور كناية عن إعلام الجماعة الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعا كالحضور والارتحال وغير ذلك، والفزع كما قال الراغب انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع، والدخور الذلة والصغار.

ب. قيل: المراد بهذا النفخ النفخة الثانية للصور التي بها تنفخ الحياة في الأجساد فيبعثون لفصل القضاء، ويؤيده قوله في ذيل الآية: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ﴾ والمراد به حضورهم عند الله سبحانه، ويؤيده أيضا استثناؤه ﴿مَنْ شاءَ اللهُ﴾ من حكم الفزع ثم قوله فيمن جاء بالحسنة: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ حيث يدل على أن الفزع المذكور هو الفزع في النفخة الثانية.

ج. وقيل: المراد به النفخة الأولى التي يموت بها الأحياء بدليل قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فإن الصعقة من الفزع وقد رتب على النفخة الأولى وعلى هذا يكون المراد بقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ﴾ رجوعهم إلى الله سبحانه بالموت.

د. ولا يبعد أن يكون المراد بالنفخ في الصور يومئذ مطلق النفخ أعم مما يميت أو يحيي فإن النفخ كيفما كان من مختصات الساعة، ويكون ما ذكر من فزع بعضهم وأمن بعضهم من الفزع وسير الجبال من خواص النفخة الأولى وما ذكر من إتيانهم داخرين من خواص النفخة الثانية ويندفع بذلك ما يورد على كل واحد من الوجهين السابقين.

هـ. وقد استثنى سبحانه جمعا من عباده من حكم الفزع العام الشامل لمن في السماوات والأرض، وسيجيء كلام في معنى هذا الاستثناء في الكلام على قوله الآتي: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾

و. والظاهر أن المراد بقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ﴾ رجوع جميع من في السماوات والأرض حتى المستثنين من حكم الفزع وحضورهم عنده تعالى، وأما قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٢٧]، فالظاهر أن المراد نفي إحضارهم في الجمع للحساب والسؤال لا نفي بعثهم ورجوعهم إلى الله وحضورهم عنده فآيات القيامة ناصة على عموم البعث لجميع الخلائق بحيث لا يشذ منهم شاذ.

ز. ونسبة الدخور والذلة إلى أوليائه تعالى لا تنافي ما لهم من العزة عند الله فإن عزة العبد عند الله ذلته عنده وغناه بالله فقره إليه نعم ذلة أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزة الكاذبة ذلة هوان.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ واختلف في معنى الصور، إلى أن قال، وقيل: هو قرن ينفخ فيه شبه البوق، وقد ورد ذلك في الحديث.

ب. وفيه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ قيل: يعني الشهداء فإنهم لا يفزعون في ذلك اليوم، وروي ذلك في خبر مرفوع.

٤٢. رؤية الجبال تمر مرّ السحاب وصنع الله المتقن:

المقطع [٤٢] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٠٠»:

١. ﴿وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ﴾:

أ. الآية بما أنها واقعة في سياق آيات القيامة محفوفة بها تصف بعض ما يقع يومئذ من الآيات وهو سير الجبال وقد قال تعالى في هذا المعنى أيضا: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً﴾ [النبأ: ٢٠]، إلى غير ذلك.

ب. فقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبالَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد به تمثيل الواقعة، كما في قوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكارى﴾ [الحج: ٢]، أي هذا حالها المشهودة في هذا اليوم تشاهدها لو كنت مشاهدا، وقوله: ﴿تَحْسَبُها جامِدَةً﴾ أي تظنها الآن ولم تقم القيامة بعد جامدة غير متحركة، والجملة معترضة أو حالية.

٢. ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ﴾ حال من الجبال وعاملها ﴿تَرَى﴾ أي تراها إذا نفخ في الصور حال كونها تسير سير السحاب في السماء.

٣. ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مفعول مطلق لمقدر أي صنعه صنعا وفي الجملة تلويح إلى أن هذا الصنع والفعل منه تعالى تخريب للدنيا وهدم للعالم، لكنه في الحقيقة تكميل لها وإتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شيء إلى غايته وإيصاله إلى وجهته التي هو موليها من سعادة أو شقاوة لأن ذلك صنع

الله الذي أتقن كل شيء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عما أتقنه ولا يسلط الفساد على ما أصلحه ففي تخريب الدنيا تعمير الآخرة.

٤. ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾:

أ. قيل: إنه تعليل لكون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده صنعا محكما له تعالى فإن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يستدعي إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب آثارها من الثواب والعقاب عليها بعد البعث والحشر وتسيير الجبال، وأنت ترى ما فيه من التكلف وأن السياق بعد ذلك كله لا يقبله.

ب. وقيل: إن قوله: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ استئناف في حكم الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا يكون بعد هذه القوارع فقيل إن الله خبير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصل بقوله: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها﴾ إلى آخر الآيتين.

ج. وهاهنا وجه آخر مستفاد من الإمعان في سياق الآيات السابقة:

• فإن الله سبحانه أمر فيها نبيه ﷺ أن يتوكل عليه ويرجع أمر المشركين وبني إسرائيل إليه فإنه إنما يستطيع هداية المؤمنين بآياته المستسلمين للحق وأما المشركون في جحودهم وبنو إسرائيل في اختلافهم فإنهم موتى لا يسمعون وصم عمي لا يسمعون ولا يهتدون إلى الحق بالنظر في آيات السماء والأرض والاعتبار بها باختيار منهم.

• ثم ذكر ما سيواجههم به، وحالهم هذه الحال لا يؤثر فيهم الآيات، وأنه سيخرج لهم دابة من الأرض تكلمهم وهي آية خارقة تضطرهم إلى قبول الحق وأنه يحشر من كل أمة فوجا من المكذبين فيتم عليهم الحجة، وبالآخرة هو خبير بأفعالهم سيجزي من جاء بحسنة أو سيئة بعمله يوم ينفخ في الصور ففزعوا وأتوه داخرين.

• وبالتأمل في هذا السياق يظهر أن الأنسب كون ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ ظرفا لقوله: (إنه خبير بما يفعلون) وقراءة (يفعلون) بياء الغيبة أرجح من القراءة المتداولة على الخطاب.

• والمعنى: وإنه تعالى خبير بما يفعله أهل السماوات والأرض يوم ينفخ في الصور ويأتونه داخرين يجزي من جاء بالحسنة بخير منها ومن جاء بالسيئة بكب وجوههم في النار كل مجزي بعمله، وعلى هذا

تكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١]، وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦]، ويكون قوله: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾، تفصيلا لقوله: (إنه خبير بما يفعلون) من حيث لازم الخبرة وهو الجزاء بما فعل وعمل كما أشار إليه ذيلا بقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾، لتشديد التقريع والتأنيب.

د. وفي الآية أعني قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ﴾، قولان آخران:

• أحدهما: حملها على الحركة الجوهرية وأن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها إلى غاية وجودها وهي حشرها ورجوعها إلى الله سبحانه، وهذا المعنى أنسب بالنظر إلى ما في قوله: ﴿تَحْسَبُها جامِدَةً﴾ من التلويح إلى أنها اليوم متحركة ولما تقم القيامة، وأما جعل يوم القيامة ظرفا لحسبان الجمود وللمرور كالسحاب جميعا فمما لا يلتفت إليه.

• وثانيهما: حملها على حركة الأرض الانتقالية وهو بالنظر إلى الآية في نفسها معنى جيد إلا أنه أولا: يوجب انقطاع الآية عما قبلها وما بعدها من آيات القيامة وثانيا: ينقطع بذلك اتصال قوله: (إنه خبير بما يفعلون) بما قبله.

٤٣. جزاء الحسنة والسيئة يوم القيامة:

المقطع [٤٣] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٩ـ٩٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٠٣»:

١. ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ هذه الآية وما بعدها، كما تقدمت الإشارة إليه، تفصيل لقوله: (إنه خبير بما يفعلون) من حيث أثره الذي هو الجزاء والمراد بقوله: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها﴾ أن له جزاء هو خير مما جاء به من الحسنة وذلك لأن العمل أيا ما كان مقدمة للجزاء مقصود لأجله والغرض والغاية على أي حال أفضل من المقدمة.

٢. ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ ظاهر السياق أن هذا الفزع هو الفزع بعد نفخ الصور الثاني دون الأول فيكون في معنى قوله: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ

تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]

٣. ﴿وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقال: كبه على وجهه فانكب أي ألقاه على وجهه فوقع عليه فنسبة الكب إلى وجوههم من المجاز العقلي والأصل فكبوا على وجوههم.

٤. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، والمعنى ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذي عملتموه ظهر لكم فلزمكم فلا ظلم في الجزاء ولا جور في الحكم.

٥. والآيتان في مقام بيان ما في طبع الحسنة والسيئة من الجزاء ففيهما حكم من جاء بالحسنة فقط ومن أحاطت به الخطيئة واستغرقته السيئة وأما من حمل حسنة وسيئة فيعلم بذلك حكمه إجمالا وأما التفصيل ففي غير هذا الموضع.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها، وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ قال: الحسنة والله ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، والسيئة والله عداوته.

• أقول: وهو من الجري وليس بتفسير وهناك روايات كثيرة في هذا المضمون ربما أمكن حملها على ما سيأتي.

ب. أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ: في قول الله: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها﴾ يعني بها شهادة أن لا إله إلا الله، ومن جاء بالسيئة يعني بها الشرك يقال: هذه تنجي وهذه تردي.

• أقول: وهذا المعنى مروي عنه ﷺ بألفاظ مختلفة من طرق شتى وينبغي تقييد تفسير الحسنة بلا إله إلا الله بسائر الأحكام الشرعية التي هي من لوازم التوحيد وإلا لغا تشريعها وهو ظاهر.

٤٤. الأمر بعبادة رب البلد الحرام وتلاوة القرآن:

المقطع [٤٤] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٠٣»:

١. ﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾:

أ. ختام السورة يبين فيها أن هذه الدعوة الحقة تبشير وإنذار فيه إتمام للحجة من غير أن يرجع إليه ﷺ من أمرهم شيء وإنما الأمر إلى الله وسيريهم آياته فيعرفونها ليس بغافل عن أعمالهم.

ب. وفي قوله: ﴿إِنَّما أُمِرْتُ﴾، تكلم عن لسان النبي ﷺ فهو في معنى: قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة، والمشار إليها بهذه الإشارة مكة المشرفة، وفي الكلام تشريفها من وجهين: إضافة الرب إليها، وتوصيفها بالحرمة حيث قال: رب هذه البلدة الذي حرمها، وفيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمة نعمة حرمة بلدتهم ولم يشكروا الله بعبادته بل عدلوا إلى عبادة الأصنام.

٢. ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى سعة ملكه تعالى دفعا لما يمكن أن يتوهم أنه إنما يملك مكة التي هو ربها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها على عقيدتهم جزء من أجزاء العالم كالسماء والأرض وبلدة كذا وقوم كذا وأسرة كذا، فيكون تعالى معبودا كأحد الآلهة واقعا في صفهم وفي عرضهم.

٣. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الذين أسلموا له فيما أراد ولا يريد إلا ما يهدي إليه الخلقة ويهتف به الفطرة وهو الدين الحنيف الفطري الذي هو ملة إبراهيم.

٤. ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ أي أمرت أن أقرأ القرآن والمراد تلاوته عليهم بدليل تفريع قوله: ﴿فَمَنِ اهْتَدى﴾، عليه.

٥. ﴿فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي فمن اهتدى بهذا القرآن فالذي ينتفع به هو نفسه ولا يعود نفعه إلي.

٦. ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾:

أ. أي ومن لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه وهو الضلال فعليه ضلاله ووبال كفره لا علي لأني لست إلا منذرا مأمورا بذلك ولست عليه وكيلا والله هو الوكيل عليه.

ب. فالعدول عن مثل قولنا: ومن ضل فإنما أنا من المنذرين وهو الذي كان يقتضيه الظاهر إلى قوله: ﴿فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ لتذكيره ﷺ بما تقدم من العهد إليه أنه ليس إلا منذرا وليس إليه من أمرهم شيء فعليه أن يتوكل على ربه ويرجع أمرهم إليه كما قال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ إِنَّكَ

لا تُسْمِعُ الْمَوْتى﴾، فكأنه قيل: ومن ضل فقل له قد سمعت أن ربي لم يجعل علي إلا الإنذار فلست بمسئول عن ضلال من ضل.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الخصال، عن يونس بن ظبيان قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه فرقا من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة، ولكني أعبده حبا له فتلك عبادة الكرام وهو الأمن لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ ولقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فمن أحب الله أحبه الله ومن أحبه الله كان من الآمنين.

• أقول: لازم ما فيه من الاستدلال تفسير الحسنة في الآية بالولاية التي هي عبادته تعالى من طريق المحبة الموجبة لفناء إرادة العبد في إرادته وتوليه تعالى بنفسه أمر عبده وتصرفه فيه وهذا أحد معنيي ولاية علي عليه السلام فهو عليه السلام صاحب الولاية وأول فاتح لهذا الباب من الأمة وبه يمكن أن يفسر أكثر الروايات الواردة في أن المراد بالحسنة في الآية ولاية علي عليه السلام.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها﴾ قال: مكة.

ج. وفيه، عن أبيه عن حماد بن عيسى عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة يوم افتتحها فتح باب الكعبة فأمر بصور في الكعبة فطمست فأخذ بعضادتي الباب فقال: ألا إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة لا ينفر صيدها ولا يعضد شجرها ولا يختلى خلالها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، فقال العباس: يارسول الله إلا الإذخر فإنه للقبر والبيوت فقال رسول الله إلا الإذخر.

• أقول: وهو مروي من طرق أهل السنة أيضا.

٤٥. الحمد والآيات والمعرفة:

المقطع [٤٥] من سورة النمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٥/ ٤٠٤»:

١. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ وفيه انعطاف إلى ما ذكره بعد أمر نبيه ﷺ بالتوكل عليه في أمرهم من أنه سيجعل للمشركين عاقبة سوء ويقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه ويريهم من آياته ما يضطرون إلى تصديقه ثم يجزيهم بأعمالهم.

ب. ومحصل المعنى: وقل الثناء الجميل لله تعالى فيما يجريه في ملكه حيث دعا الناس إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وهدى الذين آمنوا بآياته وأسلموا له وأما المكذبون فأمات قلوبهم وأصم آذانهم وأعمى أبصارهم فضلوا وكذبوا بآياته.

٢. ﴿سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ وما بعده، وظهور قوله: ﴿آياتِهِ﴾ في العموم دليل على شموله لجميع الآيات التي تضطرهم إلى قبول الحق مما يظهر لهم قبل قيام الساعة وبعده.

٣. ﴿وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

أ. الخطاب للنبي ﷺ وهو بمنزلة التعليل لما تقدمه أي إن أعمالكم معاشر العباد بعين ربك فلا يفوته شيء مما تقتضيه الحكمة قبال أعمالكم من الدعوة والهداية والإضلال وإراءة الآيات ثم جزاء المحسنين منكم والمسيئين يوم القيامة.

ب. وقرئ (عما يعملون) بياء الغيبة ولعلها أرجح ومفادها تهديد المكذبين وفي قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ بإضافة الرب إلى الكاف تطييب لنفس النبي ﷺ وتقوية لجانبه.

سورة القصص

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤٠] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين وهم بمكة قبل الهجرة شرذمة قليلون، يستضعفهم فراعنة قريش وطغاتها، واليوم يوم شدة وعسرة وفتنة، بأن الله سيمن عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكن لهم ويرى طغاة قومهم منهم ما كانوا يحذرون.

ب. يقص تعالى للمؤمنين من قصة موسى وفرعون: أنه خلق موسى في حين كان فرعون في أوج قدرته يستضعف بني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فرباه في حجر عدو، حتى إذا استوى وبلغ أشده نجاه وأخرجه من بينهم إلى مدين، ثم رده إليهم رسولاً منه بسلطان مبين، حتى إذا أغرق فرعون وجنوده أجمعين وجعل بني إسرائيل هم الوارثين، وأنزل التوراة على موسى هدى وبصائر للمؤمنين.

ج. وعلى هذا المجرى يجري حال المؤمنين، وفيه وعد لهم بالملك والعزة والسلطان، ووعد للنبي ﷺ برده إلى معاد.

د. وانتقل من القصة إلى بيان أن من الواجب في حكمة الله أن ينزل كتاباً من عنده للدعوة الحقة، ثم ذكر طعنهم في دعوة القرآن بقولهم: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى، والجواب عنه، وتعللهم عن الإيمان بقولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، والجواب عنه، وفيه التمثل بقصة قارون وخسفه.

هـ. والسورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها، وما أوردناه من الآيات فصل من قصة موسى وفرعون من يوم ولد موسى إلى بلوغه أشده.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قصة موسى عليه السلام، وإلقائه في اليم، ورفضه المراضع، وردّه إلى أمه، وتربيته في آل فرعون، وبلوغه أشده، وإيتائه الحكمة والعلم.

٢. الآيات [١٥ ـ ٢١] فصل ثان من قصة موسى عليه السلام، فيه ذكر بعض ما وقع بعد بلوغه أشده، فأدى إلى خروجه من مصر وقصده مدين.

٣. الآيات [٢٢ ـ ٢٨] فصل ثالث من قصته عليه السلام، يذكر فيه خروجه من مصر إلى مدين عقيب قتله القبطي خوفاً من فرعون، وتزوجه هناك بابنة شيخ كبير لم يسم في القرآن، لكن تذكر روايات أئمة أهل البيت عليه السلام وبعض روايات أهل السنة أنه هو شعيب النبي المبعوث إلى مدين.

٤. الآيات [٢٩ ـ ٤٢] فصل آخر من قصة موسى عليه السلام، وقد أودع فيه إجمال قصته من حين سار بأهله من مدين قاصداً مصر، وبعثته بالرسالة إلى فرعون وملئه لإنجاء بني إسرائيل، وتكذيبهم له إلى أن أغرقهم الله في اليم، وتنتهي القصة إلى إيتائه الكتاب، وكأنه هو العمدة في سرد القصة.

٥. الآيات [٤٣ ـ ٥٦] سياق الآيات:

أ. يشهد أن المشركين من قوم النبي ﷺ راجعوا بعض أهل الكتاب واستفتوهم في أمره ﷺ، وعرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه وهو مصدق للتوراة، فأجابوا بتصديقه والإيمان بما يتضمنه القرآن من المعارف الحقة، وأنهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يبعث، كما قال تعالى: ﴿وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾

ب. فساء المشركين ذلك وشاجروهم وأغلظوا عليهم في القول، وقالوا: إن القرآن سحر والتوراة سحر مثله ﴿سِحْرانِ تَظاهَرا﴾ و﴿إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ﴾، فأعرض الكتابيون عنهم وقالوا: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾

ج. هذا ما يلوح إليه الآيات الكريمة بسياقها، وهو سبحانه لما ساق قصة موسى عليه السلام وأنبأ أنه كيف أظهر قوماً مستضعفين معبدين معذبين يذبح أبناؤهم وتستحيي نساؤهم، على قوم عالين مستكبرين طغاة مفسدين بوليد منهم رباه في حجر عدوه الذي يذبح بأمره الألوف من أبنائهم، ثم أخرجه لما نشأ من بينهم، ثم بعثه ورده إليهم وأظهره عليهم حتى أغرقهم أجمعين، وأنجى شعب إسرائيل فكانوا هم الوارثين.

د. عطف القول على الكتاب السماوي الذي هو المتضمن للدعوة وبه تتم الحجة وهو الحامل للتذكرة، فذكر أنه أنزل التوراة على موسى عليه السلام فيه بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون فينتهون عن معصية الله بعد ما أهلك القرون الأولى بمعاصيهم.

هـ. وكذا أنزل على النبي ﷺ القرآن وقص عليه قصص موسى عليه السلام، ولم يكن هو شاهداً

لنزول التوراة عليه ولا حاضراً في الطور لما ناداه وكلمه، وقص عليه ما جرى بين موسى وشعيب عليه السلام ولم يكن هو ثاوياً في مدين يتلو عليهم آياته، ولكن أنزله وقص عليه ما قصه رحمة منه لينذر به قوماً ما أتاهم من نذير من قبله، لأنهم بسبب كفرهم وفسوقهم في معرض نزول العذاب وأصابه المصيبة، فلو لم ينزل الكتاب ولم يبلغ الدعوة لقالوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك، وكانت الحجة لهم على الله سبحانه.

و. فلما جاءهم الحق من عنده ببعثة النبي ﷺ ونزول القرآن قالوا: ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ﴾ حين راجعوا أهل الكتاب في أمره فصدقوه، فقال المشركون: ﴿سِحْرانِ تَظاهَرا﴾ يعنون التوراة والقرآن، وقالوا ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ﴾

ز. ثم لقن سبحانه نبيه ﷺ الحجة عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾، أي إن من الواجب في حكمة الله أن يكون هناك كتاب نازل من عند الله يهدي إلى الحق وتتم به الحجة على الناس وهم يعرفون، فإن لم تكن التوراة والقرآن كتابي هدى وكافيين لهداية الناس، فهناك كتاب هو أهدى منهما، وليس كذلك، إذ ما في الكتابين من المعارف الحقة مؤيدة بالإعجاز وبدلالة البراهين العقلية، على أنه ليس هناك كتاب سماوي هو أهدى منهما، فالكتابان كتابا هدى، والقوم في الإعراض عنهما متبعون للهوى ضالون عن الصراط المستقيم، وهو قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ﴾

ح. ثم مدح سبحانه قوماً من أهل الكتاب راجعهم المشركون في أمر النبي ﷺ والقرآن، فأظهروا لهم الإيمان والتصديق وأعرضوا عن لغو القول الذي جبهوهم به.

٦. الآيات [٥٨ ـ ٧٥]:

أ. تذكر الآيات عذراً آخر مما اعتذر به مشركو مكة عن الإيمان بكتاب الله، بعد ما ذكرت عذرهم السابق: ﴿لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى﴾ وردته، وهو قولهم: إن آمنا بما جاء به كتابك من الهدى وهو دين التوحيد، تخطفنا مشركو العرب من أرضنا بالقتل والسبي والنهب، وسلب الأمن والسلام.

ب. فرده تعالى بأنا جعلنا لهم حرماً آمناً يحترمه العرب ويجبى إليه ثمرات كل شيء، فلا موجب لخوفهم من تخطفهم.

ج. على أن تنعمهم بالأموال والأولاد وبطر معيشتهم لا يضمن لهم الأمن من الهلاك حتى يرجحوه على اتباع الهدى، فكم من قرية بطرت معيشتها أهلكها الله واستأصلها وورثها، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً.

د. على أن الذي يؤثرونه على اتباع الهدى إنما هو متاع الحياة الدنيا العاجلة، ولا يختاره عاقل على الحياة الآخرة الخالدة التي عند الله سبحانه.

هـ. على أن الخلق والأمر لله، فإذا اختار شيئاً وأمر به، فليس لأحد أن يخالفه إلى ما يشتهيه لنفسه فيختار ما يميل إليه طبعه، ثم استشهد تعالى بقصة قارون وخسفه به وبداره الأرض.

٧. الآيات [٧٦ ـ ٨٤] قصة قارون من بني إسرائيل، ذكرها الله سبحانه بعد ما حكى قول المشركين: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾، وأجاب عنه بما مر من الأجوبة ليعتبروا بها، فقد كانت حاله تمثل حالهم، ثم أداه الكفر بالله إلى ما أدى من سوء العاقبة، فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابه، فقد آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، فظن أنه هو الذي جمعه بعلمه وجودة فكره وحسن تدبيره، فآمن العذاب الإلهي وآثر الحياة الدنيا على الآخرة، وبغى الفساد في الأرض، فخسف الله به وبداره الأرض، فلم يكن له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين.

٨. الآيات [٨٥ ـ ٨٨]:

أ. الآيات خاتمة السورة، وفيها وعد جميل للنبي ﷺ أن الله سبحانه سيمن عليه برفع قدره ونفوذ كلمته وتقدم دينه وانبساط الأمن والسلام عليه وعلى المؤمنين به، كما فعل ذلك بموسى وبني إسرائيل.

ب. وقد كانت قصة موسى وبني إسرائيل مسوقة في السورة لبيان ذلك.

١. آيات الكتاب المبين ونبأ موسى وفرعون بالحق:

المقطع [١] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿طسم تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٧»:

١. ﴿طسم تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ تقدم الكلام فيه في نظائره.

٢. ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. ﴿مِنْ﴾ للتبعيض و﴿بِالْحَقِ﴾ متعلق بقوله: ﴿نَتْلُوا﴾ أي نتلو تلاوة متلبسة بالحق فهو من عندنا وبوحي منا من غير أن يداخل في إلقائه الشياطين، ويمكن أن يكون متعلقا بنبإ أي حال كون النبإ الذي نتلوه عليك متلبسا بالحق لا مرية فيه.

ب. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ اللام فيه للتعليل وهو متعلق بقوله: ﴿نَتْلُوا﴾ أي نتلو عليك من نبإهما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا.

٣. ومحصل المعنى:

أ. نتلو عليك بعض نبإ موسى وفرعون تلاوة بالحق لأجل أن يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوك وهم طائفة أذلاء مستضعفون في أيدي فراعنة قريش وطغاة قومهم فيتحققوا أن الله الذي آمنوا به وبرسوله وتحملوا كل أذى في سبيله هو الله الذي أنشأ موسى عليه السلام لإحياء الحق وإنجاء بني إسرائيل وإعزازهم بعد ذلتهم هاتيك الذلة يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم وقد علا فرعون وأنشب فيهم مخالب قهره وأحاط بهم بجوره.

ب. أنشأه والجو ذلك الجو المظلم الذي لا مطمع فيه فرباه في حجر عدوه ثم أخرجه من مصر ثم أعاده إليهم بسلطان فأنجى به بني إسرائيل وأفنى بيده فرعون وجنوده وجعلهم أحاديث وأحلاما.

ج. فهو الله جل شأنه يقص على نبيه قصتهم ويرمز له ولهم بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنه سيفعل بهؤلاء مثل ما فعل بأولئك ويمن على هؤلاء المستضعفين ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين حذو ما صنع ببني إسرائيل.

٢. علو فرعون وسنة الله في نصر المستضعفين:

المقطع [٢] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٤-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٧»:

١. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ﴾:

أ. العلو في الأرض كناية عن التجبر والاستكبار، والشيع جمع شيعة وهي الفرقة، قال في المجمع:

(الشيع: الفرق وكل فرقة شيعة وسموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضا)، وكان المراد بجعل أهل الأرض، وكأنهم أهل مصر واللام للعهد، فرقا إلقاء الاختلاف بينهم لئلا يتفق كلمتهم فيثوروا عليه ويقلبوا عليه الأمور على ما هو من دأب الملوك في بسط القدرة وتقوية السلطة، واستحياء النساء إبقاء حياتهن.

ب. ومحصل المعنى: أن فرعون علا في الأرض وتفوق فيها ببسط السلطة على الناس وإنفاذ القدرة فيهم وجعل أهلها شيعا وفرقا مختلفة لا تجتمع كلمتهم على شيء وبذلك ضعف عامة قوتهم على المقاومة دون قوته والامتناع من نفوذ إرادته.

ج. وهو يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل وهم أولاد يعقوب عليه السلام وقد قطنوا بمصر منذ أحضر يوسف عليه السلام أباه وإخوته وأشخصهم هناك فسكنوها وتناسلوا بها حتى بلغوا الألوف.

د. وكان فرعون هذا وهو ملك مصر المعاصر لموسى عليه السلام يعاملهم معاملة الأسراء الأرقاء ويزيد في تضعيفهم حتى بلغ من استضعافه لهم أن أمر بتذبيح أبنائهم واستبقاء نسائهم وكان فيه إفناء رجالهم بقتل الأبناء الذكور وفيه فناء القوم.

هـ. والسبب في ذلك أنه كان من المفسدين في الأرض فإن الخلقة العامة التي أوجدت الإنسان لم يفرق في بسط الوجود بين شعب وشعب من الشعوب الإنسانية ثم جهز الكل بما يهديهم إلى حياة اجتماعية بالتمتع من أمتعة الحياة الأرضية ولكل ما يعادل قيمته في المجتمع وما يساوي زنته في التعاون.

و. هذا هو الإصلاح الذي يهتف به الصنع والإيجاد، والتعدي عن ذلك بتحرير قوم وتعبيد آخرين وتمتيع شعب بما لا يستحقونه وتحريم غيرهم ما يصلحون له هو الإفساد الذي يسوق الإنسانية إلى البيد والهلاك.

ز. وفي الآية تصوير الظرف الذي ولد فيه موسى عليه السلام وقد أحدقت الأسباب المبيدة لبني إسرائيل على إفنائه.

٢. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. الأصل في معنى المن، على ما يستفاد من كلام الراغب، (الثقل ومنه تسمية ما يوزن به منا، والمنة النعمة الثقيلة ومن عليه منا أي أثقله بالنعمة، قال: ويقال ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله: ﴿وَنُرِيدُ

أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ أي نعطيهم من النعمة ما يثقلهم والثاني بالقول كقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ وهو مستقبح إلا عند كفران النعمة)

ب. وتمكينهم في الأرض إعطاؤهم فيها مكانا يملكونه ويستقرون فيه، وعن الخليل أن (المكان مفعل من الكون ولكثرته في الكلام أجري مجرى فعال، فقيل: تمكن وتمسكن نحو تمنزل)

ج. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾ الأنسب أن يكون حالا من ﴿طائِفَةً﴾ والتقدير يستضعف طائفة منهم ونحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا.، وقيل: معطوف على قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ﴾ والأول أظهر، و﴿نُرِيدُ﴾ على أي حال لحكاية الحال الماضية.

٣. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾:

أ. عطف تفسير على قوله: ﴿نَمُنَّ﴾ وكذا ما بعده من الجمل المتعاقبة.

ب. والمعنى: أن الظرف كان ظرف علو فرعون، وتفريقه بين الناس واستضعافه لبني إسرائيل استضعافا يبيدهم ويفنيهم والحال أنا نريد أن ننعم على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة تثقلهم وذلك بأن نجعلهم أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين، ونجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم ونمكن لهم في الأرض بأن نجعل لهم مكانا يستقرون فيه ويملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلا ما أراد غيرهم أن يبوئهم فيه ويقرهم عليه، ونري فرعون وهو ملك مصر وهامان وهو وزيره وجنودهما منهم أي من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحذرون وهو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم وما لهم وسنتهم كما قالوا في موسى وأخيه لما أرسلا إليهم: ﴿يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى﴾ [طه: ٦٣]

ج. والآية تصور ما في باطن هذا الظرف الهائل الذي قضى على بني إسرائيل أن لا يعيش منهم متنفس ولا يبقى منهم نافخ نار وقد أحاطت بهم قدرة فرعون الطاغية وملأ أقطار وجودهم رعبه وهو يستضعفهم حتى يقضي عليهم بالبيد هذا ظاهر الأمر وفي باطنه الإرادة الإلهية تعلقت بأن تنجيهم منهم وتحول ثقل النعمة من آل فرعون الأقوياء العالين إلى بني إسرائيل الأذلاء المستضعفين وتبدل من الأسباب ما كان على بني إسرائيل لهم وما كان لآل فرعون عليهم والله يحكم لا معقب لحكمه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رض: في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يوسف وولده.

• أقول: لعل المراد بنو إسرائيل، وإلا فظهور الآية في خلافه غير خفي.

ب. وفي معاني الأخبار، بإسناده عن محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله ﷺ، نظر إلى علي والحسن والحسين عليه السلام فبكى، وقال: أنتم المستضعفون بعدي، قال المفضل: فقلت له: ما معنى ذلك؟ قال: معناه أنكم الأئمة بعدي، إن الله عز وجل يقول: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾ فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة.

• أقول: والروايات من طرق الشيعة في كون الآية في أئمة أهل البيت عليه السلام كثيرة وبهذه الرواية يظهر أنها جميعا من قبيل الجري والانطباق.

ج. وفي نهج البلاغة: لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها وتلا عقيب ذلك ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾

٣. وحي الله لأم موسى وإلقاؤه في اليم وردّه إليها:

المقطع [٣] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٧-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٠»:

١. ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَم﴾:

أ. الإيحاء هو التكليم الخفي ويستعمل في القرآن في تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾ [الزلزال: ٥] وقوله: ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقوله في أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى﴾ الآية أو بنحو آخر كما في الأنبياء والرسل، وفي غيره

تعالى كما في قوله: ﴿إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، والإلقاء الطرح، واليم البحر والنهر الكبير.

ب. ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى﴾ في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير وحبلت أم موسى به، والحال هذه الحال من الشدة والحدة، ووضعته وأوحينا إليها.

ج. والمعنى: وقلنا بنوع من الإلهام لأم موسى لما وضعته: أرضعيه ما دمت لا تخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه، أن يطلع عليه آل فرعون فيأخذوه ويقتلوه، فألقيه في البحر وهو النيل على ما وردت به الرواية ولا تخافي عليه القتل ولا تحزني لفقده ومفارقته إياك إنا رادوه إليك بعد ذلك وجاعلوه من المرسلين فيكون رسولا إلى آل فرعون وبني إسرائيل.

د. فقوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ تعليل للنهي في قوله: ﴿وَلا تَحْزَنِي﴾ كما يشهد به أيضا قوله بعد: ﴿فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ﴾ والفرق بين الخوف والحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون في مكروه محتمل الوقوع والحزن في مكروه قطعي الوقوف.

٢. ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ﴾:

أ. الالتقاط أصابه الشيء وأخذه من غير طلب، ومنه اللقطة واللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ للعاقبة، على ما قيل، والحزن بفتحتين والحزن بالضم فالسكون بمعنى واحد كالسقم والسقم، والمراد بالحزن سبب الحزن فإطلاق الحزن عليه مبالغة في سببيته لحزنهم.

ب. والخاطئين اسم فاعل من خطئ يخطأ خطأ كعلم يعلم علما كما أن المخطئ اسم فاعل من أخطأ يخطئ إخطاء، والفرق بين الخاطئ والمخطئ على ما ذكره الراغب أن الخاطئ يطلق على من أراد فعلا لا يحسنه ففعله قال تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً﴾، وقال: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ﴾، والمخطئ يستعمل فيمن أراد فعلا يحسنه فوقع منه غيره واسم مصدره الخطأ بفتحتين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢] والمعنى الجامع هو العدول عن الجهة)

ج. فقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ﴾ أي فيما كانوا يفعلونه في أبناء بني إسرائيل وموسى تحذرا من انهدام ملكهم وذهاب سلطانهم بيدهم إرادة لتغيير المقادير عن مجاريها فقتلوا الجم الغفير من الأبناء ولا شأن لهم في ذلك وتركوا موسى حيث التقطوه وربوه في حجورهم وكان هو

الذي بيده انقراض دولتهم وزوال ملكهم.

د. والمعنى: فأصابه آل فرعون وأخذوه من اليم وكان غاية ذلك أن يكون لهم عدوا وسبب حزن إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين في قتل الأبناء وترك موسى: أرادوا أن يقضوا على من سيقضي عليهم فعادوا يجتهدون في حفظه ويجدون في تربيته.

هـ. وبذلك يظهر أن تفسير بعضهم كونهم خاطئين بأنهم كانوا مذنبين فعاقبهم الله أن ربي عدوهم على أيديهم ليس بسديد.

٣. ﴿وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾:

أ. شفاعة من امرأة فرعون وقد كانت عنده حينما جاءوا إليه بموسى، وهو طفل ملتقط من اليم، تخاطب فرعون بقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ أي هو قرة عين لنا ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ وإنما خاطب بالجمع لأن شركاء القتل كانوا كثيرين من سبب ومباشر وآمر ومأمور.

ب. وإنما قالت ما قالت لأن الله سبحانه ألقى محبة منه في قلبها فعادت لا تملك نفسها دون أن تدفع عنه القتل وتضمه إليها، قال تعالى فيما يمن به على موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]

٤. ﴿عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ قالته لما رأت في وجهه من آثار الجلال وسيماء الجذبة الإلهية، وفي قولها: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ دلالة على أنهما كانا فاقدين للابن.

٥. ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ جملة حالية أي قالت ما قالت وشفعت له وصرفت عنه القتل والقوم لا يشعرون ما ذا يفعلون وما هي حقيقة الحال وما عاقبته؟

٦. ﴿وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لولا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. الإبداء بالشيء إظهاره، والربط على الشيء شدة وهو كناية عن التثبيت.

ب. والمراد بفراغ فؤاد أم موسى فراغه وخلوة من الخوف والحزن وكان لازم ذلك أن لا يتوارد عليه خواطر مشوشة وأوهام متضاربة يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدي ما كان عليها أن تخفيه

من أمر ولدها.

ج. وذلك أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها وسبب فراغ قلبها الربط على قلبها وسبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى إليها: ﴿لا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ إلخ.

٧. ﴿إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا﴾:

أ. ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة أي إنها قربت من أن تظهر الأمر وتفشي السر لولا أن ثبتنا قلبها بالربط عليه، وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الواثقين بالله في حفظه فتصبر ولا تجزع عليه فلا يبدو أمره.

ب. والمجموع أعني قوله: ﴿إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ في مقام البيان لقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً﴾ ومحصل معنى الآية وصار قلب أم موسى بسبب وحينا خاليا من الخوف والحزن المؤديين إلى إظهار الأمر، لولا أن ثبتنا قلبها بسبب الوحي لتكون واثقة بحفظ الله له لقربت من أن تظهر أمره لهم بالجزع عليه.

ج. وبما تقدم يظهر ضعف بعض ما قيل في تفسير جمل الآية كقول بعضهم في ﴿وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً﴾ أي صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوع الطفل في يد فرعون، وقول آخرين: أي فارغا من الوحي الذي أوحي إليها بالنسيان، وما قيل: أي فارغا من كل شيء إلا ذكر موسى أي صار فارغا له، فإنها جميعا وجوه لا يحتمل شيئا منها السياق.

د. ونظير ذلك في الضعف قولهم: إن جواب لولا محذوف والتقدير لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته وأظهرته، والوجه في تقديرهم ذلك ما قيل: إن لولا شبيهه بأدوات الشرط فلها الصدر ولا يتقدم جوابها عليها، وقد تقدمت المناقشة فيه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لولا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]

٨. ﴿وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (القص اتباع الأثر ومنه القصص في الحديث لأنه يتبع فيه الثاني الأول)، وقال: (ومعنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنابة أي عن بعد)

ب. والمعنى: وقالت أم موسى لأخته اتبعي أثر موسى حتى ترين إلام يئول أمره فرأته عن بعد وقد أخذه خدم فرعون وهم لا يشعرون بأنها تقصه وتراقبه.

٩. وضع هنا مبحثا حول [قصة موسى وهارون عليهما السلام]، خلاصته:

أ. موسى عليه السلام أحد الخمسة أولي العزم، له كتاب وشريعة، وقد امتن الله عليه وعلى أخيه هارون، وأثنى على موسى بأجمل الثناء: وصفه بالإخلاص والرسالة والنبوة، وقربه نجياً، وكلّمه تكليماً، وجعله وجيهاً عنده، ومن المحسنين الصالحين، والمفضلين المجتبين المهديين، والتوراة التي أنزلت عليه وصفت بأنها إمام ورحمة وفرقان وضياء وهدى ونور، لكنها حرفت واختلف فيها.

ب. موسى أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن (في ١٦٦ موضعاً، وفي ٣٤ سورة)، واختُص بكثرة المعجزات (العصا، اليد البيضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، فلق البحر، المن والسلوى، انبجاس العيون، إحياء الموتى، رفع الطور)، وقصته وردت في فصول: ولادته وإلقاؤه في البحر، وقتله القبطي وهربه إلى مدين، وزواجه من ابنة شعيب، وتكليمه عند الطور، ورسالته إلى فرعون، وإغراق فرعون، ونزول التوراة، وقصة العجل، والتيه.

ج. هارون عليه السلام أشركه الله مع موسى في المن والإيتاء والهداية والتسليم والإحسان والصلاح والفضل والاجتباء، وكان وزيراً لأخيه وملازماً له، ولم يرد من قصصه إلا خلافته لأخيه حين غاب للميقات، وقصة العجل التي تبرئه من صنعه.

د. التوراة الحاضرة تختلف مع القرآن في أمور غير يسيرة: تذكر أن تكليم موسى كان في أرض مدين قبل أن يسير بأهله، وأن فرعون الذي أرسل إليه غير فرعون الذي رباه، ولم تذكر إيمان السحرة، وتنسب صنع العجل إلى هارون (والقرآن يبرئه)، وتذكر أن الذي ألقى العصا هو هارون، ولا تذكر قصة السبعين والصاعقة، وتذكر أن الألواح كانت لوحين من حجر.

٤. تحريم المراضع على موسى وردّه إلى أمه:

المقطع [٤] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٣»:

١. ﴿وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ

ناصِحُونَ﴾ التحريم في الآية تكويني لا تشريعي ومعناه جعله بحيث لا يقبل ثدي مرضع ويمتنع من ارتضاعها.

٢. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل حضورها هناك ومجيئها إليهم والمراضع جمع مرضعة كما قيل.

٣. ﴿فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ﴾ تفريع على ما تقدمه غير أن السياق يدل على أن هناك حذفا كأنه قيل: وحرمنا عليه المراضع غير أمه من قبل أن تجيء أخته فكلما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها فلما جاءت أخته ورأت الحال قالت عند ذلك لآل فرعون: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لنفعكم وهم له ناصحون؟

٤. ﴿فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ تفريع على ما تقدمه مع تقدير ما يدل عليه السياق، والمحصل أنها قالت: هل أدلكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلتهم على أمه فسلموه إليها فرددناه إلى أمه بنظم هذه الأسباب.

٥. ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ﴾:

أ. تعليل للرد والمراد بالعلم هو اليقين بالمشاهدة فإنها كانت تعلم من قبل أن وعد الله حق وكانت مؤمنة وإنما أريد بالرد أن توقن بالمشاهدة أن وعد الله حق.

ب. والمراد بوعد الله مطلق الوعد الإلهي بدليل قوله: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يوقنون بذلك ويرتابون في مواعده تعالى ولا تطمئن إليها نفوسهم، ومحصله أن توقع بمشاهدة حقية هذا الذي وعدها الله به أن مطلق وعده تعالى حق.

ج. وربما يقال: إن المراد بوعد الله خصوص الوعد المذكور في الآية السابقة: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولا يلائمه قوله بعد: ﴿وَلكِنَّ﴾ على ما تقدم.

٥. بلوغ موسى أشده وإيتاؤه الحكم والعلم:

المقطع [٥] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٤»:

١. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشتد عند ذلك قواه ويكون في الغالب في الثمان عشرة، والاستواء الاعتدال والاستقرار

فالاستواء في الحياة استقرار الإنسان في أمر حياته ويختلف في الأفراد وهو على الأغلب بعد بلوغ الأشد، وقد تقدم الكلام في معنى الحكم والعلم وإيتائهما ومعنى الإحسان في مواضع من الكتاب.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، قال: فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة، حتى بلغ مبلغ الرجال، وكان ينكر عليه ما يتكلم به موسى عليه السلام من التوحيد، حتى هم به فخرج موسى من عنده ودخل المدينة، فإذا رجلان يقتتلان، أحدهما يقول بقول موسى والآخر يقول بقول فرعون، فاستغاثه الذي من شيعته فجاء موسى، فوكز صاحب فرعون فقضى عليه وتوارى في المدينة، فلما كان الغد جاء آخر، فتشبث بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى، فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له،﴿أَ﴾ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ؟ فخلى عن صاحبه وهرب.

ب. وفي العيون، بإسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله، أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فأخبرني عن قول الله: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ قال الرضا عليه السلام: إن موسى عليه السلام دخل مدينة من مدائن فرعون، على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء، فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته وهذا من عدوه، فقضى على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكزه فمات، قال: هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ يعني الاقتتال الذي وقع بين الرجلين، لا ما فعله موسى عليه السلام من قتله ﴿إِنَّهُ﴾ يعني الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ قال المأمون: فما معنى قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾؟ قال: يقول: وضعت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة، فاغفر لي أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني، فغفر له إنه هو الغفور الرحيم، قال موسى: رب بما أنعمت علي من القوة، حتى قتلت رجلا بوكزة فلن أكون ظهيرا للمجرمين، بل أجاهدهم بهذه القوة حتى ترضى، فأصبح موسى عليه السلام في المدينة خائفا يترقب، فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه على آخر، قال له موسى إنك لغوي مبين، قاتلت رجلا بالأمس وتقاتل هذا اليوم، لأؤدبنك وأراد أن يبطش به، فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما وهو من شيعته ﴿قالَ: يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ؟ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ، وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾، قال المأمون: جزاك الله عن أنبيائه خيرا يا

أبا الحسن.

٦. دخول موسى المدينة ووكزه الرجل واستغفاره:

المقطع [٦] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٥ـ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٧»:

١. ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾:

أ. لا ريب أن المدينة التي دخلها على حين غفلة من أهلها هي مصر، وأنه كان يعيش عند فرعون، ويستفاد من ذلك أن القصر الملكي الذي كان يسكنه فرعون كان خارج المدينة وأنه خرج منه ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، ويؤيد ما ذكرنا ما سيأتي من قوله: ﴿وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى﴾ على ما سيجيء من الاستظهار.

ب. وحين الغفلة من أهل المدينة هو حين يدخل الناس بيوتهم فتتعطل الأسواق وتخلو الشوارع والأزقة من المارة كالظهيرة وأواسط الليل.

٢. ﴿فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾ أي يتنازعان ويتضاربان، وقوله: ﴿هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ حكاية حال تمثل به الواقعة، ومعناه: أن أحدهما كان إسرائيليا من متبعيه في دينه، فإن بني إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ إلى آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام في دينهم وإن كان لم يبق لهم منه إلا الاسم وكانوا يتظاهرون بعبادة فرعون، والآخر قبطيا عدوا له لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل، ومن الشاهد أيضا على كون هذا الرجل قبطيا قوله في موضع آخر يخاطب ربه: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]

٣. ﴿فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ الاستغاثة: الاستنصار من الغوث بمعنى النصرة أي طلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره على عدوه القبطي.

٤. ﴿فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ﴾ ضميرا ﴿فَوَكَزَهُ﴾ و﴿عَلَيْهِ﴾ للذي من عدوه والوكز، على ما

ذكره الراغب وغيره، الطعن والدفع والضرب بجمع الكف، والقضاء هو الحكم والقضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته، والمعنى: فدفعه أو ضربه موسى بالوكز فمات، وكان قتل خطإ ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يعبر بالقتل.

٥. ﴿قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾:

أ. الإشارة بهذا إلى ما وقع بينهما من الاقتتال حتى أدى إلى موت القبطي وقد نسبه نوع نسبة إلى عمل الشيطان إذ قال: ﴿هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ و﴿مِنْ﴾ ابتدائية تفيد معنى الجنس أو نشوئية، والمعنى: هذا الذي وقع من المعاداة والاقتتال من جنس العمل المنسوب إلى الشيطان أو ناش من عمل الشيطان فإنه هو الذي أوقع العداوة والبغضاء بينهما وأغرى على الاقتتال حتى أدى ذلك إلى مداخلة موسى وقتل القبطي بيده فأوقعه ذلك في خطر عظيم وقد كان يعلم أن الواقعة لا تبقى خفية مكتومة وأن القبط سيثورون عليه وأشرافهم وملؤهم وعلى رأسهم فرعون سينتقمون منه ومن كل من تسبب إلى ذلك أشد الانتقام.

ب. فعند ذلك تنبه عليه السلام أنه أخطأ فيما فعله من الوكز الذي أورده مورد الهلكة ولا ينسب الوقوع في الخطإ إلى الله سبحانه لأنه لا يهدي إلا إلى الحق والصواب فقضي أن ذلك منسوب إلى الشيطان.

ج. وفعله ذاك وإن لم يكن معصية منه لوقوعه خطأ وكون دفاعه عن الإسرائيلي دفعا لكافر ظالم، لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان في الإثم والمعصية كذلك يوقعه في أي مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة والمشقة كما أوقع آدم وزوجه فيما أوقع من أكل الشجرة المنهية فأدى ذلك إلى خروجهما من الجنة.

د. فقوله: ﴿هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ انزجار منه عما وقع من الاقتتال المؤدي إلى قتل القبطي ووقوعه في عظيم الخطر وندم منه على ذلك، وقوله: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ إشارة منه إلى أن فعله كان من الضلال المنسوب إلى الشيطان وإن لم يكن من المعصية التي فيها إثم ومؤاخذة بل خطأ محضا لا ينسب إلى الله بل إلى الشيطان الذي هو عدو مضل مبين، فكان ذلك منه نوعا من سوء التدبير وضلال السعي يسوقه إلى عاقبة وخيمة ولذا لما اعترض عليه فرعون بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ أجابه بقوله: ﴿فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]

٦. ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾:

أ. اعتراف منه عند ربه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر وألقاها في التهلكة، ومنه يظهر أن المراد بالمغفرة المسئولة في قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ هو إلغاء تبعة فعله وإنجاؤه من الغم وتخليصه من شر فرعون وملئه، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠]

ب. وهذا الاعتراف بالظلم وسؤال المغفرة نظير ما وقع من آدم وزوجه المحكي في قوله تعالى: ﴿قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

٧. ﴿قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾:

أ. قيل: الباء في قوله: ﴿بِما أَنْعَمْتَ﴾ للسببية والمعنى رب بسبب ما أنعمت علي، لك علي أن لا أكون معينا للمجرمين فيكون عهدا منه لله تعالى وقيل: الباء للقسم والجواب محذوف والمعنى: أقسم بما أنعمت علي لأتوبن أو لأمتنعن فلن أكون ظهيرا للمجرمين، وقيل: القسم استعطافي وهو القسم الواقع في الإنشاء كقولك بالله زرني، والمعنى أقسمك أن تعطف علي وتعصمني فلن أكون ظهيرا للمجرمين.

ب. والوجه الأول هو الأوجه لأن المراد بقوله: ﴿بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ على ما ذكروه، أما إنعامه تعالى عليه إذ حفظه وخلصه من قتل فرعون ورده إلى أمه، وأما إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطي وغفر له بناء على أنه علم مغفرته تعالى بإلهام أو رؤيا أو نحوهما وكيف كان فهو إقسام بغيره تعالى، والمعنى أقسم بحفظك إياي أو أقسم بمغفرتك لي، ولم يعهد في كلامه تعالى حكاية قسم من غيره بغيره بهذا النحو.

٨. ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾:

أ. قيل: المراد بالمجرم من أوقع غيره في الجرم أو من أدت إعانته إلى جرم كالإسرائيلي الذي خاصمه القبطي فأوقعت إعانته موسى في جرم القتل فيكون في لفظ المجرمين مجاز في النسبة من حيث تسمية السبب الموقع في الجرم مجرما.

ب. وقيل: المراد بالمجرمين فرعون وقومه والمعنى: أقسم بإنعامك علي لأتوبن فلن أكون معينا لفرعون وقومه بصحبتهم وملازمتهم وتكثير سوادهم كما كنت أفعله إلى هذا اليوم، ورد هذا الوجه الثاني بأنه لا يناسب المقام.

ج. والحق أن قوله: ﴿رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ عهد من موسى عليه السلام أن لا يعين مجرما على إجرامه شكرا لله تعالى على ما أنعم عليه، والمراد بالنعمة وقد أطلقت إطلاقا

الولاية الإلهية على ما يشهد به قوله تعالى: ﴿فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]

د. وهؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال والغضب لقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وترتب الامتناع عن إعانة المجرمين على الإنعام بهذا المعنى ظاهر لا سترة عليه.

هـ. ومن هنا يظهر أن المراد بالمجرمين أمثال فرعون وقومه دون أمثال الإسرائيلي الذي أعانه فلم يكن في إعانته جرم ولا كان وكز القبطي جرما حتى يتوب عليه السلام منه كيف؟ وهو عليه السلام من أهل الصراط المستقيم الذين لا يضلون بمعصيته، وقد نص تعالى على كونه من المخلصين الذين لا سبيل للشيطان إليهم بالإغواء حيث قال: ﴿إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]

و. وقد نص تعالى أيضا آنفا بأنه آتاه حكما وعلما وأنه من المحسنين ومن المتقين من أمره أن لا تستخفه عصبية قومية أو غضب في غير ما ينبغي أو إعانة ونصرة لمجرم في إجرامه.

ز. وقد كرر ﴿قالَ﴾ ثلاثا حيث قيل: ﴿قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ ﴿قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ وذلك لاختلاف السياق في الجمل الثلاث فالجملة الأولى قضاء منه وحكم، والجملة الثانية استغفار ودعاء، والجملة الثالثة عهد والتزام.

٧. خوف موسى واستصراخ الرجل وتوبيخه له:

المقطع [٧] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٨-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١»:

١. ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾:

أ. تقييد ﴿فَأَصْبَحَ﴾ بقوله: ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ دليل على أنه بقي في المدينة ولم يرجع إلى قصر فرعون، والاستصراخ الاستغاثة برفع الصوت من الصراخ بمعنى الصياح، والغواية إخطاء الصواب خلاف

الرشد.

ب. والمعنى: فأصبح موسى في المدينة، ولم يرجع إلى بلاط فرعون، والحال أنه خائف من فرعون ينتظر الشر ففاجأه أن الإسرائيلي الذي استنصره على القبطي بالأمس يستغيث به رافعا صوته على قبطي آخر قال موسى للإسرائيلي توبيخا وتأنيبا: إنك لغوي مبين لا تسلك سبيل الرشد والصواب لأنه كان يخاصم ويقتتل قوما ليس في مخاصمتهم والمقاومة عليهم إلا الشر كل الشر.

٢. ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ﴾:

أ. ذكر جل المفسرين أن ضمير ﴿قالَ﴾ للإسرائيلي الذي كان يستصرخه وذلك أنه ظن أن موسى إنما يريد أن يبطش به لما سمعه يعاتبه قبل بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ فهاله ما رأى من إرادته البطش فقال: ﴿يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ﴾، فعلم القبطي عند ذلك أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس فرجع إلى فرعون فأخبره الخبر فائتمروا بموسى وعزموا على قتله.

ب. وما ذكروه في محله لشهادة السياق بذلك فلا يعبأ بما قيل: إن القائل هو القبطي دون الإسرائيلي، هذا ومعنى باقي الآية ظاهر، وفي قوله: ﴿أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما﴾ تعريض للتوراة الحاضرة حيث تذكر أن المتقاتلين هذين كانا جميعا إسرائيليين، وفيه أيضا تأييد أن القائل: ﴿يا مُوسى أَتُرِيدُ﴾، الإسرائيلي دون القبطي لأن سياقه سياق اللوم والشكوى.

٨. مجيء الرجل من أقصى المدينة ينبه موسى ويأمره بالخروج:

المقطع [٨] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١»:

١. ﴿وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾:

أ. الائتمار المشاورة، والنصيحة خلاف الخيانة.

ب. والظاهر كون قوله: ﴿مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ قيدا لقوله: ﴿جاءَ﴾ فسياق القصة يعطي أن الائتمار كان عند فرعون وبأمر منه، وأن هذا الرجل جاء من هناك وقد كان قصر فرعون في أقصى المدينة وخارجها

فأخبر موسى بما قصدوه من قتله وأشار عليه بالخروج من المدينة.

ج. وهذا الاستئناس من الكلام يؤيد ما تقدم أن قصر فرعون الذي كان يسكنه كان خارج المدينة، ومعنى الآية ظاهر.

٢. ﴿فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فيه تأييد أنه ما كان يرى قتله القبطي خطأ جرما لنفسه.

٩. توجه موسى نحو مدين ودعاؤه بالهداية:

المقطع [٩] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٤»:

١. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ﴾:

أ. قال في المجمع: (تلقاء الشيء حذاؤه، ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من حذاء داعي نفسه، وقال: سواء السبيل وسط الطريق)

ب. ومدين، على ما في مراصد الاطلاع، (مدينة قوم شعيب وهي تجاه تبوك على بحر القلزم بينهما ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب عليه السلام)، ويقال: إنه كان بينهما وبين مصر مسيرة ثمان وكانت خارجة من سلطان فرعون ولذا توجه إليها.

ج. والمعنى: ولما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال: أرجو من ربي أن يهديني وسط الطريق فلا أضل بالعدول عنه والخروج منه إلى غيره.

د. والسياق، كما ترى، يعطي أنه عليه السلام كان قاصدا لمدين وهو لا يعرف الطريق الموصلة إليها فترجى أن يهديه ربه.

١٠. وصول موسى إلى ماء مدين وسقيه للمرأتين:

المقطع [١٠] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣ـ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٤»:

١. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾:

أ. الذود الحبس والمنع، والمراد بقوله: ﴿تَذُودانِ﴾ أنهما يحبسان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط بأغنام القوم كما أن المراد بقوله: ﴿يَسْقُونَ﴾ سقيهم أغنامهم ومواشيهم، والرعاء جمع الراعي وهو الذي يرعى الغنم.

ب. والمعنى: ولما ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أغنامهم ووجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحبسان أغنامهما وتمنعانها أن ترد المورد قال موسى مستفسرا عنهما، حيث وجدهما تذودان الغنم وليس على غنمهما رجل ـ: ما شأنكما؟ قالتا لا نسقي غنمنا أي عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون ويخرجوا أغنامهم وأبونا شيخ كبير، لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقي ولذا تصدينا الأمر.

٢. ﴿فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾:

أ. فهم عليه السلام من كلامهما أن تأخرهما في السقي نوع تعفف وتحجب منهما وتعد من الناس عليهما فبادر إلى ذلك وسقى لهما.

ب. ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي انصرف إلى الظل ليستريح فيه والحر شديد وقال ما قال، وقد حمل الأكثرون قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ﴾ على سؤال طعام يسد به الجوع، وعليه فالأولى أن يكون المراد بقوله: ﴿لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ﴾ القوة البدنية التي كان يعمل بها الأعمال الصالحة التي فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيلي والهرب من فرعون بقصد مدين وسقي غنم شعيب واللام في ﴿لِما أَنْزَلْتَ﴾ بمعنى إلى وإظهار الفقر إلى هذه القوة التي أنزلها الله إليه من عنده بالإفاضة كناية عن إظهار الفقر إلى شيء من الطعام تستبقى به هذه القوة النازلة الموهوبة.

ج. ويظهر منه أنه عليه السلام كان ذا مراقبة شديدة في أعماله فلا يأتي بعمل ولا يريده وإن كان مما يقتضيه طبعه البشري إلا ابتغاء مرضاة ربه وجهادا فيه، وهذا ظاهر بالتدبر في القصة فهو القائل لما وكز القبطي: ﴿رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ثم القائل لما خرج من مصر خائفا يترقب: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ثم القائل لما أخذ في السلوك: ﴿عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ﴾ ثم القائل لما سقى وتولى إلى الظل: ﴿رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ثم القائل لما آجر نفسه شعيبا وعقد

على بنته: ﴿وَاللهُ عَلَى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

د. وما نقل عن بعضهم أن اللام في ﴿لِما أَنْزَلْتَ﴾ للتعليل وكذا قول بعضهم إن المراد بالخير خير الدين وهو النجاة من الظالمين بعيد مما يعطيه السياق.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في كتاب كمال الدين، بإسناده إلى سدير الصيرفي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل: ﴿وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى، قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ، فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ من مصر بغير ظهر ولا دابة ولا خادم تخفضه أرض، وترفعه أخرى حتى انتهى إلى أرض مدين، فانتهى إلى أصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر، وإذا عندها أمة من الناس يسقون، وإذا جاريتان ضعيفتان وإذا معهما غنيمة لهما، قال ما خطبكما قالتا أبونا شيخ كبير، ونحن جاريتان ضعيفتان لا نقدر أن نزاحم الرجال، فإذا سقى الناس سقينا فرحمهما فأخذ دلوهما فقال لهما: قدما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس، ثم تولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فروي أنه قال ذلك وهو محتاج إلى شق تمرة، فلما رجعتا إلى أبيهما، قال: ما أعجلكما في هذه الساعة، قالتا: وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما اذهبي، فادعيه لي فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا﴾ فروي أن موسى عليه السلام قال لها: وجهني إلى الطريق وامشي خلفي، فإنا بني يعقوب لا نظر في أعجاز النساء، فلما جاءه وقص عليه القصص، قال: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ، عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ فروي أنه قضى أتمهما، لأن الأنبياء عليهمالسلام لا تأخذ إلا بالفضل والتمام.

• أقول: وروى ما في معناه القمي في تفسيره.

ب. وفي الكافي، عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال: سأل الطعام.

• أقول: وروى العياشي عن حفص عنه عليه السلام: مثله، ولفظه إنما عنى الطعام.

ج. وأيضا عن ليث عن أبي جعفر عليه السلام مثله، وفي نهج البلاغة مثله ولفظه والله ما سأله إلا خبزا يأكله.

د. أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: لما سقى موسى للجاريتين ثم تولى إلى الظل، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال: إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر.

١١. مجيء إحدى المرأتين تدعوه إلى أبيها وقصصه عليه:

المقطع [١١] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦»:

١. ﴿فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ﴾:

أ. ضمير إحداهما للمرأتين، وتنكير الاستحياء للتفخيم والمراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفف من مشيتها، وقوله: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا﴾ ما مصدرية أي ليعطيك جزاء سقيك لنا، وقوله: ﴿فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ﴾ يلوح إلى أن شعيبا استفسره حاله فقص عليه قصته فطيب نفسه بأنه نجا منهم إذ لا سلطان لهم على مدين.

ب. وعند ذلك تمت استجابته تعالى لموسى عليه السلام أدعيته الثلاثة فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجيه من القوم الظالمين فأخبره شعيب عليه السلام بالنجاة وترجى أن يهديه سواء السبيل وهو في معنى الدعاء فورد مدين، وسأله الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجر ما سقى وزاد تعالى فكفاه رزق عشر سنين ووهب له زوجا يسكن إليها.

١٢. استئجار موسى وزواجه بإحدى ابنتي الرجل الصالح:

المقطع [١٢] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٦-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦»:

١. ﴿قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾:

أ. إطلاق الاستيجار يفيد أن المراد استخدامه لمطلق حوائجه التي تستدعي من يقوم مقامه وإن كانت العهدة باقتضاء المقام رعي الغنم.

ب. ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ﴾، في مقام التعليل لقوله: ﴿اسْتَأْجِرْهُ﴾ وهو من وضع السبب موضع المسبب والتقدير استأجره لأنه قوي أمين وخير من استأجرت هو القوي الأمين.

ج. وفي حكمها بأنه قوي أمين دلالة على أنها شاهدت من نحو عمله في سقي الأغنام ما استدلت به على قوته وكذا من ظهور عفته في تكليمهما وسقي أغنامهما ثم في صحبته لها عند ما انطلق إلى شعيب حتى أتاه ما استدلت به على أمانته.

د. ومن هنا يظهر أن هذه القائلة: ﴿يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾، هي التي جاءته وأخبرته بدعوة أبيها له كما وردت به روايات أئمة أهل البيت عليه السلام وذهب إليه جمع من المفسرين.

٢. ﴿قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ﴾:

أ. عرض من شعيب لموسى عليه السلام أن يأجره نفسه ثماني سنين أو عشرا قبال تزويجه إحدى ابنتيه وليس بعقد قاطع ومن الدليل عدم تعين المعقودة في كلامه عليه السلام.

ب. فقوله: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ﴾ دليل على حضورهما إذ ذاك، وقوله: ﴿عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ﴾ أي على أن تأجرني نفسك أي تكون أجيرا لي ثماني حجج، والحجج جمع حجة والمراد بها السنة بعناية أن كل سنة فيها حجة للبيت الحرام، وبه يظهر أن حج البيت، وهو من شريعة إبراهيم عليه السلام، كان معمولا به عندهم.

٣. ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي فإن أتممته عشر سنين فهو من عندك وباختيار منك من غير أن تكون ملزما من عندي.

٤. ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ إخبار عن نحو ما يريده منه من الخدمة وأنه عمل غير موصوف بالمشقة وأنه مخدوم صالح.

٥. ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي إني من الصالحين وستجدني منهم إن شاء الله فالاستثناء متعلق بوجدان موسى إياه منهم لا بكونه في نفسه منهم.

٦. ﴿قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾:

أ. الضمير لموسى عليه السلام.

ب. ﴿ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي ذلك الذي ذكرته وقررته من المشارطة والمعاهدة وعرضته علي ثابت بيننا ليس لي ولا لك أن نخالف ما شارطناه، وقوله: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ﴾ بيان للأجل المردد المضروب في كلام شعيب عليه السلام وهو قوله: ﴿ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي لي أن أختار أي الأجلين شئت فإن اخترت الثماني سنين فليس لك أن تعدو علي وتلزمني بالزيادة وإن اخترت الزيادة وخدمتك عشرا فليس لك أن تعدو علي بالمنع من الزيادة.

٧. ﴿وَاللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ توكيل له تعالى فيما يشارطان يتضمن إشهاده تعالى على ما يقولان وإرجاع الحكم والقضاء بينهما إليه لو اختلفا، ولذا اختار التوكيل على الإشهاد لأن الشهادة والقضاء كليهما إليه تعالى، وهذا كقول يعقوب عليه السلام حين أخذ الموثق من بنيه أن يردوا إليه ابنه فيما يحكيه الله: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، قال: قالت إحدى بنات شعيب: ﴿يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، فقال لها شعيب عليه السلام: أما قوته فقد عرفتنيه أنه يستقي الدلو وحده، فبم عرفت أمانته؟ فقالت: إنه لما قال لي: تأخري عني ودليني على الطريق، فإنا من قوم لا ينظرون في أدبار النساء، عرفت أنه ليس من الذين ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانته:

• أقول: وروي مثله في المجمع: (عن علي عليه السلام.

ب. وفي المجمع: وروى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رسائل أيتهما التي قالت: إن أبي يدعوك؟ قال: التي تزوج بها، قيل: فأي الأجلين قضى؟ قال: أوفاهما وأبعدهما عشر سنين، قيل: فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه؟ قال: قبل أن ينقضي، قيل له: فالرجل يتزوج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك؟ قال: إن موسى علم أنه سيتم له شرطه، قيل: كيف؟ قال: علم أنه سيبقى حتى يفي.

• أقول: وروى قضاء عشر سنين في الدر المنثور، عن النبي ﷺ بعدة طرق.

ج. وفي تفسير العياشي، وقال الحلبي: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن البيت، أكان يحج قبل أن يبعث النبي ﷺ؟ قال: نعم، وتصديقه في القرآن قول شعيب، حين قال لموسى عليه السلام حيث تزوج: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ ولم يقل ثماني سنين.

١٣. قضاء موسى الأجل ورؤيته النار ونداء ربه:

المقطع [١٣] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٢٩ـ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣١»:

١. ﴿فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً﴾:

أ. المراد بقضائه الأجل إتمامه مدة خدمته لشعيب عليه السلام والمروي أنه قضى أطول الأجلين، والإيناس الإبصار والرؤية، والجذوة من النار القطعة منها، والاصطلاء الاستدفاء.

ب. والسياق يشهد أن الأمر كان بالليل وكانت ليلة شديدة البرد وقد ضلوا الطريق فرأى من جانب الطور وقد أشرفوا عليه نارا فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب إلى ما آنسه لعله يجد هناك من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعة من النار فيصطلوا بها، وقد وقع في القصة من سورة طه موضع قوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ﴾ قوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾ [طه: ١٠]، وهو أدل على كونهم ضلوا الطريق.

ج. وكذا في قوله خطابا لأهله: ﴿امْكُثُوا﴾، شهادة على أنه كان معها من يصح معه خطاب الجمع.

٢. ﴿فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾:

أ. قال في المفردات: (شاطئ الوادي جانبه، وقال: أصل الوادي الموضع الذي يسيل منه الماء ومنه سمي المنفرج بين الجبلين واديا وجمعه أودية) والبقعة القطعة من الأرض على غير هيئة التي إلى جنبها.

ب. والمراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابل الأيسر وهو صفة الشاطئ ولا يعبأ بما قاله بعضهم: إن الأيمن من اليمين مقابل الأشأم من الشؤم.

ج. والبقعة المباركة قطعة خاصة من الشاطئ الأيمن في الوادي كانت فيه الشجرة التي نودي منها،

ومباركتها لتشرفها بالتقريب والتكليم الإلهي وقد أمر بخلع نعليه فيها لتقدسها كما قال تعالى في القصة من سورة طه: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ [طه: ١٢]

د. ولا ريب في دلالة الآية على أن الشجرة كانت مبدءا للنداء والتكليم بوجه غير أن الكلام وهو كلام الله سبحانه لم يكن قائما بها كقيام الكلام بالمتكلم منا فلم تكن إلا حجابا احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه من معنى الاحتجاب وهو على كل شيء محيط، قال تعالى: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾ [الشورى: ٥١]

هـ. ومن هنا يظهر ضعف ما قيل: إن الشجرة كانت محل الكلام لأن الكلام عرض يحتاج إلى محل يقوم به.

و. وكذا ما قيل: إن هذا التكليم أعلى منازل الأنبياء عليهم‌السلام أن يسمعوا كلام الله سبحانه من غير واسطة ومبلغ، وذلك أنه كان كلاما من وراء حجاب والحجاب واسطة وظاهر آية الشورى المذكورة آنفا أن أعلى التكليم هو الوحي من غير واسطة حجاب أو رسول مبلغ.

٣. ﴿أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. أن فيه تفسيرية، وفيه إنباء عن الذات المتعالية المسماة باسم الجلالة الموصوفة بوحدانية الربوبية النافية لمطلق الشرك إذ كونه ربا للعالمين جميعا، والرب هو المالك المدبر لملكه الذي يستحق العبادة من مملوكيه، لا يدع شيئا من العالمين يكون مربوبا لغيره حتى يكون هناك رب غيره وإله معبود سواه.

ب. ففي الآية إجمال ما فصله في سورة طه في هذا الفصل من النداء من الإشارة إلى الأصول الثلاثة أعني التوحيد والنبوة والمعاد إذ قال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ الآيات: [طه: ١٤]

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: روى الواحدي بالإسناد عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأبطأهما.

• أقول: وروي ما في معناه بالإسناد عن أبي ذر عنه ﷺ.

ب. أخرج ابن مردويه عن مقسم قال: لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب رض، فقلت له: أي

الأجلين قضى موسى؟ الأول أو الآخر؟ قال: الآخر.

ج. وفي المجمع: روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما قضى موسى الأجل وسار بأهله نحو البيت أخطأ الطريق فرأى نارا ﴿قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً﴾

١٤. رؤية موسى لآيات ربه:

المقطع [١٤] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣١-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣»:

١. ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ وَلَّى: مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ تقدم تفسيره في سورة النمل.

٢. ﴿يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ بتقدير القول أي قيل له: أقبل ولا تخف إنك من الآمنين، وفي هذا الخطاب تأمين له، وبه يظهر معنى قوله في هذا الموضع من القصة في سورة النمل: ﴿يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠] وأنه تأمين معناه أنك مرسل والمرسلون آمنون لدي وليس من العتاب والتوبيخ في شيء.

٣. ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾:

أ. المراد بسلوك يده في جيبه إدخاله فيه، والمراد بالسوء، على ما قيل، البرص.

ب. والظاهر أن في هذا التقييد تعريضا لما في التوراة الحاضرة في هذا الموضع من القصة: ثم قال له الرب أيضا: أدخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج.

٤. ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾:

أ. الرهب بالفتح فالسكون وبفتحتين وبالضم فالسكون الخوف، والجناح قيل: المراد به اليد وقيل: العضد.

ب. قيل: المراد بضم الجناح إليه من الرهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدة انقلاب العصا حية ليذهب ما في قلبه من الخوف.

ج. وقيل: إنه لما ألقى العصا وصارت حية بسط يديه كالمتقي وهما جناحاه فقيل له: اضمم إليك

جناحك أي لا تبسط يديك خوف الحية فإنك آمن من ضررها.

د. والوجهان، كما ترى، مبنيان على كون الجملة أعني قوله: ﴿وَاضْمُمْ﴾، من تتمة قوله: ﴿أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ وهذا لا يلائم تخلل قوله: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾، بين الجملتين بالفصل من غير عطف.

هـ. وقيل: الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أراده الله سبحانه منه والحث على الجد في أمر الرسالة لئلا يمنعه ما يغشاه من الخوف في بعض الأحوال.

و. ولا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإن من دأب المتكبر المعجب بنفسه أن يفرج بين عضديه وجنبيه كالمتمطي في مشيته فيكون في معنى ما أمر الله به النبي ﷺ من التواضع للمؤمنين بقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] على بعض المعاني.

١٥. خوف موسى من فرعون واستعانته بهارون:

المقطع [١٥] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٣-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٤»:

١. ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ إشارة إلى قتله القبطي بالوكز وكان يخاف أن يقتلوه قصاصا.

٢. ﴿وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾:

أ. قال في المجمع: (يقال: فلان ردء لفلان إذا كان ينصره ويشد ظهره)

ب. ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ تعليل لسؤاله إرسال هارون معه، والسياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبوه فيغضب ولا يستطيع بيان حجته للكنة كانت في لسانه لا أنه سأل إرساله لئلا يكذبوه فإن من يكذبه لا يبالي أن يكذب هارون معه ومن الدليل على ذلك ما وقع في سورة الشعراء في هذا الموضع من القصة من قوله: ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ﴾ [الشعراء: ١٣]

ج. فمحصل المعنى: أن أخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معينا لي يبين صدقي في دعواي إذا خاصموني إني أخاف أن يكذبون فلا أستطيع بيان صدق دعواي.

٣. ﴿قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ﴾:

أ. شد عضده بأخيه كناية عن تقويته به، وعدم الوصول إليهما كناية عن عدم التسلط عليهما بالقتل ونحوه كأن الطائفتين يتسابقان وإحداهما متقدمة دائما والأخرى لا تدركهم بالوصول إليهم فضلا أن يسبقوهم.

ب. والمعنى: قال سنقويك ونعينك بأخيك هارون ونجعل لكما سلطة وغلبة عليهم فلا يتسلطون عليكما بسبب آياتنا التي نظهركما بها، ثم قال: ﴿أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ﴾ وهو بيان لقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً﴾، يوضح أن هذا السلطان يشملهما ومن اتبعهما من الناس.

ج. وقد ظهر بذلك أن السلطان بمعنى القهر والغلبة وقيل: هو بمعنى الحجة والأولى حينئذ أن يكون قوله: ﴿بِآياتِنا﴾ متعلقا بقوله: ﴿الْغالِبُونَ﴾ لا بقوله: ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما﴾ وقد ذكروا في الآية وجوها أخر لا جدوى في التعرض لها.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً، فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾ قال الراوي: فقلت لأبي جعفر عليه السلام: فكم مكث موسى عليه السلام غائبا عن أمه، حتى رده الله عز وجل عليها؟ قال: ثلاثة أيام، قال: فقلت: فكان هارون أخا موسى عليه السلام لأبيه وأمه؟ قال: نعم أما تسمع الله عز وجل يقول: ﴿يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾؟ فقلت: فأيهما كان أكثر سنا؟ قال: هارون، قلت: فكان الوحي ينزل عليهما جميعا؟ قال: كان الوحي ينزل على موسى وموسى يوحيه إلى هارون ـ، فقلت له: أخبرني عن الأحكام والقضاء والأمر والنهي، كان ذلك إليهما؟ قال: كان موسى الذي يناجي ربه ويكتب العلم، ويقضي بين بني إسرائيل، وهارون يخلفه إذا غاب من قومه للمناجاة، قلت: فأيهما مات قبل صاحبه؟ قال: مات هارون قبل موسى وماتا جميعا في التيه، قلت: فكان لموسى ولد؟ قال: لا كان الولد لهارون والذرية له.

• أقول: وآخر الرواية لا يوافق روايات أخر تدل على أنه كان له ولد، وفي التوراة الحاضرة أيضا

دلالة على ذلك.

١٦ . مجيء موسى بالآيات واتهامهم له بالسحر:

المقطع [١٦] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٦-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٥»:

١ . ﴿فَلَمّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾:

أ. أي سحر موصوف بأنه مفترى والمفترى اسم مفعول بمعنى المختلق أو مصدر ميمي وصف به السحر مبالغة.

ب. والإشارة في قوله: ﴿ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ إلى ما جاء به من الآيات أي ليس ما جاء به من الخوارق إلا سحرا مختلقا افتعله فنسبه إلى الله كذبا.

ج. والإشارة في قوله: ﴿وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ إلى ما جاء به من الدعوة وأقام عليها حجة الآيات، وأما احتمال أن يراد بها الإشارة إلى الآيات فلا يلائمه تكرار اسم الإشارة على أنهم كانوا يدعون أنهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في قوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ [طه: ٥٨] على أن عدم معهودية السحر وعدم مسبوقيته بالمثل لا ينفعهم شيئا حتى يدعوه.

د. فالمعنى: أن ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن آبائنا الأولين أنهم اتخذوه في وقت من الأوقات، ويناسبه ما حكي في الآية التالية من قول موسى: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى﴾

٢ . ﴿وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ﴾:

أ. مقتضى السياق كونه جوابا من موسى عن قولهم: ﴿وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ في رد دعوى موسى، وهو جواب مبني على التحدي كأنه يقول: إن ربي، وهو رب العالمين له الخلق والأمر، هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار وهو الذي أرسلني رسولا جائيا بالهدى، وهو دين التوحيد، ووعدني أن من أخذ بديني فله عاقبة الدار، والحجة على ذلك الآيات البينات التي آتانيها من عنده.

ب. فقوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ﴾ يريد به نفسه والمراد بالهدى الدعوة الدينية التي جاء بها.

٣. ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ﴾ المراد بعاقبة الدار إما الجنة التي هي الدار الآخرة التي يسكنها السعداء كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ﴾ [الزمر: ٧٤] وإما عاقبة الدار الدنيا كما في قوله: ﴿قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وإما الأعم الشامل للدنيا والآخرة، والثالث أحسن الوجوه ثم الثاني كما يؤيده تعليله بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

٤. وفي قوله: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تعريض لفرعون وقومه وفيه نفي أن تكون لهم عاقبة الدار فإنهم بنوا سنة الحياة على الظلم وفيه انحراف عن العدالة الاجتماعية التي تهدي إليها فطرة الإنسان الموافقة للنظام الكوني.

٥. قال بعض المفسرين: والوجه في عطف قوله: ﴿وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ﴾، على قولهم: ﴿ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ حكاية القولين ليوازن السامع بينهما ليميز صحيحهما من الفاسد) انتهى، وما قدمناه من كون قول موسى عليه السلام مسوقا لرد قولهم أوفق للسياق.

١٧. ادعاء فرعون الربوبية وأمره هامان ببناء الصرح:

المقطع [١٧] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦»:

١. ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾:

أ. فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوة الحقة المؤيدة بالآيات المعجزة يريد أنه لم يتبين له حقية ما يدعو إليه موسى ولا كون ما أتى به من الخوارق آيات معجزة من عند الله وأنه ما علم لهم من إله غيره.

ب. فقوله: ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ سوق للكلام في صورة الإنصاف ليقع في قلوب الملأ موقع القبول كما هو ظاهر قوله المحكي في موضع آخر: ﴿ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ [غافر: ٢٩]

ج. فمحصل المعنى: أنه ظهر للملإ أنه لم يتضح له من دعوة موسى وآياته أن هناك إلها هو رب العالمين ولا حصل له علم بأن هناك إلها غيره ثم أمر هامان أن يبني له صرحا لعله يطلع إلى إله موسى.

د. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ من قبيل قصر القلب فقد كان موسى عليه السلام يثبت الألوهية لله سبحانه وينفيها عن غيره وهو ينفيها عنه تعالى ويثبتها لنفسه، وأما سائر الآلهة التي كان يعبدها هو وقومه فلا تعرض لها.

٢. ﴿فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً﴾ المراد بالإيقاد على الطين تأجيج النار عليه لصنعة الأجر المستعمل في الأبنية، والصرح البناء العالي المكشوف من صرح الشيء إذا ظهر ففي الجملة أمر باتخاذ الأجر وبناء قصر عال منه.

٣. ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى﴾:

أ. نسب الإله إلى موسى بعناية أنه هو الذي يدعو إليه، والكلام من وضع النتيجة موضع المقدمة والتقدير: اجعل لي صرحا أصعد إلى أعلى درجاته فأنظر إلى السماء لعلي أطلع إلى إله موسى كأنه كان يرى أنه تعالى جسم ساكن في بعض طبقات الجو أو الأفلاك فكان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطلع إليه أو كان هذا القول من قبيل التعمية على الناس وإضلالهم.

ب. ويمكن أن يكون المراد أن يبني له رصدا يترصد الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول أو حقية ما يصفه موسى عليه السلام، ويؤيد هذا قوله على ما حكى في موضع آخر: ﴿يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً﴾ [غافر: ٣٧]

٤. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾:

أ. ترق منه من الجهل الذي يدل عليه قوله: ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ إلى الظن بعدم الوجود وقد كان كاذبا في قوله هذا ولا يقوله إلا تمويها وتعمية على الناس وقد خاطبه موسى بقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]

ب. وذكر بعضهم أن قوله: ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ من قبيل نفي المعلوم بنفي العلم فيما لو كان لبان فيكون نظير قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] وأنت خبير بأنه لا يلائم ذيل الآية.

١٨. استكبار فرعون وإغراقه وجعله إماماً يدعو للنار:

المقطع [١٨] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٩-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨»:

١. ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي كانت حالهم حال من يترجح عنده عدم الرجوع وذلك أنهم كانوا موقنين في أنفسهم كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾

٢. ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ النبذ الطرح، واليم البحر والباقي ظاهر، وفي الآية من الاستهانة بأمرهم وتهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى.

٣. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾:

أ. الدعوة إلى النار هي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي لكونها هي التي تتصور لهم يوم القيامة نارا يعذبون فيها أو المراد بالنار ما يستوجبها مجازا من باب إطلاق المسبب وإرادة سببه.

ب. ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار، تصييرهم سابقين في الضلال يقتدي بهم اللاحقون ولا ضير فيه لكونه بعنوان المجازاة على سبقهم في الكفر والجحود وليس من الإضلال الابتدائي في شيء.

ج. وقيل: المراد بجعلهم أئمة يدعون إلى النار تسميتهم بذلك على حد قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ [الزخرف: ١٩]

• وفيه أن الآية التالية على ما سيجيء من معناها لا تلائمه، على أن كون الجعل في الآية المستشهد بها بمعنى التسمية غير مسلم.

٤. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أي لا تنالهم شفاعة من ناصر.

٥. ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾:

أ. بيان للازم ما وصفهم به في الآية السابقة فهم لكونهم أئمة يقتدي بهم من خلفهم في الكفر والمعاصي لا يزال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصي من مقتديهم ومتبعيهم وعليهم من الأوزار مثل ما

للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر والمعاصي بعدهم.

ب. فالآية في معنى قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ [يس: ١٢] وتنكير اللعنة للدلالة على تفخيمها واستمرارها.

ج. وكذا لما لم ينلهم يوم القيامة نصر ناصر كانوا بحيث يتنفر ويشمئز عنهم النفوس ويفر منهم الناس ولا يدنو منهم أحد وهو معنى القبح وقد وصف الله تعالى من قبح منظرهم شيئا كثيرا في كلامه.

١٩. إيتاء موسى الكتاب بعد إهلاك القرون الأولى:

المقطع [١٩] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٤٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ﴾ اللام للقسم أي أقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة بوحيه إليه.

٢. ﴿مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى﴾ أي الأجيال السابقة على نزول التوراة كقوم نوح ومن بعدهم من الأمم الهالكة ولعل منهم قوم فرعون، وفي هذا التقييد إشارة إلى مسيس الحاجة حينئذ إلى نزول الكتاب لاندراس معالم الدين الإلهي بمضي الماضين وليشار في الكتاب الإلهي إلى قصصهم وحلول العذاب الإلهي بهم بسبب تكذيبهم لآيات الله ليعتبر به المعتبرون ويتذكر به المتذكرون.

٣. ﴿بَصائِرَ لِلنَّاسِ﴾ جمع بصيرة بمعنى ما يبصره به وكان المراد بها الحجج البينة التي يبصر بها الحق ويميز بها بينه وبين الباطل، وهي حال من الكتاب وقيل: مفعول له.

٤. ﴿وَهُدىً﴾ بمعنى الهادي أو ما يهتدى به وكذا قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ بمعنى ما يرحم به وهما حالان من الكتاب كبصائر، وقيل: كل منهما مفعول له، والمعنى: وأقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة من بعد ما أهلكنا الأجيال الأولى فاقتضت الحكمة تجديد الدعوة والإنذار حال كون الكتاب حججا بينة يبصر بها الناس المعارف الحقة وهدى يهتدون به إليها ورحمة يرحمون بسبب العمل بشرائعه وأحكامه لعلهم يتذكرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد والعمل.

٥. أحاديث وآثار: أخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري

قال: قال رسول الله ﷺ: ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية، بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسخت قردة، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ، مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى﴾؟

• أقول: وفي دلالة الآية على الإهلاك بخصوص العذاب السماوي ثم انقطاعه بنزول التوراة خفاء.

٢٠. إعلام الله لنبيه بالغيب:

المقطع [٢٠] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٥٠»:

١. ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والغربي صفة محذوفة الموصوف والمراد جانب الوادي الغربي أو جانب الجبل الغربي.

٢. ﴿إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ كان القضاء مضمن معنى العهد، والمراد بعهد الأمر إليه، على ما قيل، أحكام أمر نبوته بإنزال التوراة إليه وأما العهد إليه بأصل الرسالة فيدل عليه قوله بعد: ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا﴾ وقوله: ﴿وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ تأكيد لسابقه.

والمعنى: وما كنت حاضرا وشاهدا حين أنزلنا التوراة على موسى في الجانب الغربي من الوادي أو الجبل.

٣. ﴿وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ تطاول العمر تمادي الأمد والجملة استدراك عن النفي في قوله: ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾، والمعنى: ما كنت حاضرا هناك شاهدا لما جرى فيه ولكنا أوجدنا أجيالا بعده فتمادى بهم الأمد ثم أنزلنا عليك قصته وخبر نزول الكتاب عليه ففي الكلام إيجاز بالحذف لدلالة المقام عليه.

٤. ﴿وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الثاوي المقيم يقال: ثوى في المكان إذا أقام فيه، والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لمشركي مكة الذين كان النبي ﷺ يتلو عليهم آيات الله التي

تقص ما جرى على موسى عليه السلام في مدين زمن كونه فيه.

٥. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ استدراك من النفي في صدر الآية، والمعنى: وما كنت مقيما في أهل مدين، وهم شعيب وقومه، مشاهدا لما جرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصة لخبره هناك ولكنا كنا مرسلين لك إلى قومك موحين بهذه الآيات إليك لتتلوها عليهم.

٦. ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ الظاهر من مقابلة الآية لقوله السابق: ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا﴾، إن المراد بهذا النداء ما كان من الشجرة في الليلة التي آنس فيها من جانب الطور نارا.

٧. ﴿وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، استدراك عن النفي السابق، والظاهر أن ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول له، والالتفات عن التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ للدلالة على كمال عنايته تعالى به ﷺ.

٨. ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوة النبوية أو هم ومن يقارنهم من آبائهم فإن العرب خلت فيهم رسل منهم كهود وصالح وشعيب وإسماعيل عليه السلام.

ب. والمعنى: وما كنت حاضرا في جانب الطور إذ نادينا موسى وكلمناه واخترناه للرسالة حتى تخبر عن هذه القصة إخبار الحاضر المشاهد ولكن لرحمة منا أخبرناك بها لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون.

٩. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: لما قرب الله موسى إلى طور سيناء نجيا، قال: أي رب هل أحد أكرم عليك مني؟ قربتني نجيا وكلمتني تكليما، قال: نعم، محمد أكرم علي منك، قال: فإن كان محمد أكرم عليك مني، فهل أمة محمد أكرم من بني إسرائيل؟ فلقت لهم البحر، وأنجيتهم من فرعون وعمله وأطعمتهم المن والسلوى، قال: نعم، أمة محمد أكرم علي من بني إسرائيل، قال: إلهي أرنيهم، قال: إنك لن تراهم وإن شئت أسمعتك صوتهم، قال: نعم إلهي، فنادى ربنا أمة محمد: أجيبوا ربكم، فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة، فقالوا: لبيك أنت ربنا حقا ونحن عبيدك حقا، قال: صدقتم وأنا ربك وأنتم عبيدي حقا، قد غفرت لكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني، فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة، قال ابن عباس: فلما بعث الله محمدا

ﷺ، أراد أن يمن عليه بما أعطاه وبما أعطى أمته، فقال: يا محمد ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا﴾

• أقول: ورواه فيه أيضا بطرق أخرى عن غيره، وروى هذا المعنى أيضا الصدوق في العيون، عن الرضا عليه السلام لكن حمل الآية على هذا المعنى يوجب اختلال السياق وفساد ارتباط الجمل المتقدمة والمتأخرة بعضها ببعض.

٢١. الرسالة والحق والكفر والأهواء:

المقطع [٢١] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٧ـ٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٥١»:

١. ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا﴾، المراد بما قدمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد والعمل بدليل ذيل الآية، والمراد بالمصيبة التي تصيبهم أعم من مصيبة الدنيا والآخرة فإن الإعراض عن الحق بالكفر والفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهية في الدنيا كما يستتبعها في الآخرة، وقد تقدم بعض الكلام فيه في ذيل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وغيره.

٢. ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنا لولا أَرْسَلْتَ﴾:

أ. متفرع على ما تقدمه على تقديم عدم إرسال الرسول وجواب لولا محذوف لظهوره والتقدير: لما أرسلنا رسولا.

ب. ومحصل المعنى: أنه لولا أنه تكون لهم الحجة علينا على تقدير عدم إرسال الرسول وأخذهم بالعذاب بما قدمت أيديهم من الكفر والفسوق لما أرسلنا إليهم رسولا لكنهم يقولون ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك التي يتلوها علينا ونكون من المؤمنين.

٣. ﴿فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لولا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى﴾:

أ. أي فأرسلنا إليهم الرسول بالحق وأنزلنا الكتاب فلما جاءهم الحق من عندنا والظاهر أنه الكتاب النازل على الرسول وهو القرآن النازل على النبي ﷺ.

ب. والمراد بقولهم: ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى﴾ أي لولا أوتي النبي ﷺ مثل التوراة التي أوتيها موسى عليه السلام، وكأنهم يريدون به أن ينزل القرآن جملة واحدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]

٤. وقد أجاب الله عن قولهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا﴾ يعنون القرآن والتوراة ﴿وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ﴾، والفرق بين القولين أن الأول كفر بالكتابين والثاني كفر بأصل النبوة ولعله الوجه لتكرار ﴿قالُوا﴾ في الكلام.

٢٢. التحدي بالإتيان بكتاب أهدى:

المقطع [٢٢] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٩-٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٥٢»:

١. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾:

أ. تفريع على كون القرآن والتوراة سحرين تظاهرا، ولا يصح هذا التفريع إلا إذا كان من الواجب أن يكون بين الناس كتاب من عند الله سبحانه يهديهم ويجب عليهم اتباعه فإذا كانا سحرين باطلين كان الحق غيرهما، وهو كذلك على ما تبين بقوله: ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾، إن للناس على الله أن ينزل عليهم الكتاب ويرسل إليهم الرسول، ولذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن يطالبهم بكتاب غيرهما هو أهدى منهما ليتبعه.

ب. ثم الكتابان لو كانا سحرين تظاهرا كانا باطلين مضلين لا هدى فيهما حتى يكون غيرهما من الكتاب الذي يأتون به أهدى منهما، لاستلزام صيغة التفضيل اشتراك المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف، لكن المقام لما كان مقام المحاجة ادعى أن الكتابين هاديان لا مزيد عليهما في الهداية فإن لم يقبل الخصم ذلك فليأت بكتاب يزيد عليهما في معنى ما يشتملان عليه من بيان الواقع فيكون أهدى منهما.

ج. والقرآن الكريم وإن كان يصرح بتسرب التحريف والخلل في التوراة الحاضرة وذلك لا يلائم عدها كتاب هدى بقول مطلق لكن الكلام في التوراة الواقعية النازلة على موسى عليه السلام وهي التي

يصدقها القرآن.

د. على أن موضوع الكلام هما معا والقرآن يقوم التوراة الحاضرة ببيان ما فيها من الخلل فهما معا هدى لا كتاب أهدى منهما.

٢. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي في دعوى أنهما سحران تظاهرا.

٣. ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ﴾:

أ. الاستجابة والإجابة بمعنى واحد، قال في الكشاف: (هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام، ويحذف الدعاء إذا عدي إلى الداعي في الغالب فيقال: استجاب الله دعاءه أو استجاب له، ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه)

ب. فقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ تفريع على قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ﴾ أي فإن قلت لهم كذا وكلفتهم بذلك فلم يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن والتوراة وتعين أن لا هدى أتم وأكمل من هداهما وهم مع ذلك يرمونها بالسحر ويعرضون عنهما فاعلم أنهم ليسوا في طلب الحق ولا بصدد اتباع ما هو صريح حجة العقل وإنما يتبعون أهواءهم ويدافعون عن مشتهيات طباعهم بمثل هذه الأباطيل: ﴿سِحْرانِ تَظاهَرا﴾ ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ﴾

ج. ويمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ﴾ إنهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما وهم غير مؤمنين بهما فاعلم أنهم إنما يبنون سنة الحياة على اتباع الأهواء ولا يعتقدون بأصل النبوة وأن لله دينا سماويا نازلا عليهم من طريق الوحي وعليهم أن يتبعوه ويسلكوا مسلك الحياة بهدى ربهم، وربما أيد هذا المعنى قوله بعد: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ﴾

٤. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ﴾:

أ. استفهام إنكاري والمراد به استنتاج أنهم ضالون، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تعليل لكونهم ضالين باتباع الهوى فإن اتباع الهوى إعراض عن الحق وانحراف عن صراط الرشد وذلك ظلم والله لا يهدي القوم الظالمين وغير المهتدي هو الضال.

ب. ومحصل الحجة أنهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما وليسوا مؤمنين بهما فهم متبعون للهوى، ومتبع الهوى ظالم والظالم غير مهتد وغير المهتدي ضال فهم ضالون.

٥. وفي البصائر، بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾ يعني من اتخذ دينه هواه بغير هدى من أئمة الهدى.

• أقول: وروي مثله بإسناده عن المعلى عن أبي عبد الله عليه السلام وهو من الجري أو من البطن.

٢٣. الصادقون من الذي أوتوا الكتاب من قبل وإيمانهم:

المقطع [٢٣] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥١ـ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٥٣»:

١. ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ التوصيل تفعيل من الوصل يفيد التكثير كالقطع والتقطيع والقتل والتقتيل، والضمير لمشركي مكة والمعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولا بعضه ببعض: الآية بعد الآية، والسورة إثر السورة من وعد ووعيد ومعارف وأحكام وقصص وعبر وحكم ومواعظ لعلهم يتذكرون.

٢. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. الضميران للقرآن وقيل: للنبي ﷺ، والأول أوفق للسياق، وفي الآية وما بعدها مدح طائفة من مؤمني أهل الكتاب بعد ما تقدم في الآيات السابقة من ذم المشركين من أهل مكة.

ب. وسياق ذيل الآيات يشهد على أن هؤلاء الممدوحين طائفة خاصة من أهل الكتاب آمنوا به فلا يعبأ بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم.

٣. ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾، ضمائر الإفراد للقرآن، واللام في ﴿الْحَقُّ﴾ للعهد والمعنى وإذا يقرأ القرآن عليهم قالوا: آمنا به إنه الحق الذي نعهده من ربنا فإنه عرفناه من قبل.

٤. ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾:

أ. تعليل لكونه حقا معهودا عندهم أي إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذي يدعو إليه ويسميه إسلاما.

ب. وقيل: الضميران للنبي ﷺ وما تقدم أوفق للسياق، وكيف كان فهم يعنون بذلك ما قرءوه في كتبهم من أوصاف النبي ﷺ والكتاب النازل عليه كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]

٥. ﴿أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾:

أ. في الآية وعد جميل لهم على ما فعلوا ومدح لهم على حسن سلوكهم ومداراتهم مع جهلة المشركين ولذا كان الأقرب إلى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابهم وأجر الإيمان بالقرآن وصبرهم على الإيمان بعد الإيمان بما فيهما من كلفة مخالفة الهوى.

ب. وقيل: المراد إيتاؤهم الأجر بما صبروا على دينهم وعلى أذى الكفار وتحمل المشاق وقد عرفت ما يؤيده السياق.

٦. ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ الدرء الدفع، والمراد بالحسنة والسيئة قيل: الكلام الحسن والكلام القبيح، وقيل: العمل الحسن والسيئ وهما المعروف والمنكر، وقيل: الخلق الحسن والسيئ وهما الحلم والجهل، وسياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى إلى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمدارأة، والباقي ظاهر.

٧. ﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾، المراد باللغو لغو الكلام بدليل تعلقه بالسمع، والمراد سقط القول الذي لا ينبغي الاشتغال به من هذر أو سب وكل ما فيه خشونة، ولذا لما سمعوه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله وقالوا: ﴿لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ وهو متاركة، وقوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي أمان منا لكم، وهو أيضا متاركة وتوديع تكرما كما قال تعالى: ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً﴾

٨. ﴿لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾ أي لا نطلبهم بمعاشرة ومجالسة، وفيه تأكيد لما تقدمه، وهو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابلة السيئ بالسيئ.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ﴾ الآيات، نزل قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ

الْكِتابَ﴾ وما بعده، في عبد الله بن سلام وتميم الداري، والجارود والعبدي وسلمان الفارسي، فإنهم لما أسلموا نزلت فيهم الآيات، عن قتادة، وقيل: نزلت في أربعين رجلا من أهل الإنجيل، كانوا مسلمين بالنبي ﷺ قبل مبعثه، اثنان وثلاثون من الحبشة، أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه، وثمانية قدموا من الشام منهم بحيراء وأبرهة والأشرف وأيمن وإدريس ونافع وتميم.

• أقول: وروي غير ذلك.

ب. وفيه في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ وقيل: يدفعون بالحلم جهل الجاهل، عن يحيى بن سلام، ومعناه يدفعون بالمدارأة مع الناس أذاهم عن أنفسهم: وروي مثل ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

٢٤. الهداية بيد الله لا بيد النبي:

المقطع [٢٤] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٥٥»:

١. ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ المراد بالهداية الإيصال إلى المطلوب ومرجعه إلى إفاضة الإيمان على القلب ومعلوم أنه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد، وليس المراد بها إراءة الطريق فإنه من وظيفة الرسول لا معنى لنفيه عنه، والمراد بالاهتداء قبول الهداية.

٢. لما بين في الآيات السابقة حرمان المشركين وهم قوم النبي ﷺ من نعمة الهداية وضلالهم باتباع الهوى واستكبارهم عن الحق النازل عليهم وإيمان أهل الكتاب به واعترافهم بالحق ختم القول في هذا الفصل من الكلام بأن أمر الهداية إلى الله لا إليك يهدي هؤلاء وهم من غير قومك الذين تدعوهم ولا يهدي هؤلاء وهم قومك الذين تحب اهتداءهم وهو أعلم بالمهتدين.

٣. أحاديث وآثار: أخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي ﷺ، فقال: يا عماه قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله يوم القيامة، فقال: لولا أن يعيرني قريش، يقولون ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عليك، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

• أقول: وروي ما في معناه عن ابن عمر وابن المسيب وغيرهما، وروايات أئمة أهل البيت عليه السلام مستفيضة على إيمانه والمنقول من أشعار مشحون بالإقرار على صدق النبي ﷺ وحقية دينه، وهو الذي آوى النبي ﷺ صغيرا وحماه بعد البعثة وقبل الهجرة فقد كان أثر مجاهدته وحده في حفظ نفسه الشريفة في العشر سنين قبل الهجرة يعدل أثر مجاهدة المهاجرين والأنصار بأجمعهم في العشر سنين بعد الهجرة.

٢٥. خوف المشركين من اتباع الهدى وتطمين الله لهم:

المقطع [٢٥] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٥٩»:

١. ﴿وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾:

أ. التخطف الاختلاس بسرعة، وقيل الخطف والتخطف الاستلاب من كل وجه، وكان تخطفهم من أرضهم استعارة أريد به القتل والسبي ونهب الأموال كأنهم وما يتعلق بهم من أهل ومال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم، والمراد بالأرض أرض مكة والحرم بدليل قوله بعد: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ والقائل بعض مشركي مكة.

ب. والجملة مسوقة للاعتذار عن الإيمان بأنهم إن آمنوا تخطفتهم العرب من أرضهم أرض مكة لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم ورفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقية أصل الدعوة وأن الكتاب بما يشتمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله والإيمان به، ولهذا عبر بقوله: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ﴾ ولم يقل: إن نتبع كتابك أو دينك أو ما يقرب من ذلك.

٢. ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾:

أ. قيل: التمكين مضمن معنى الجعل والمعنى أولم نجعل لهم حرما آمنا ممكنين إياهم، وقيل: حرما منصوبا على الظرفية والمعنى: أولم نمكن لهم في حرم، و﴿آمِناً﴾ صفة ﴿حَرَماً﴾ أي حرما ذا أمن، وعد الحرم ذا أمن، والمتلبس بالأمن أهله، من المجاز في النسبة، والجملة معطوفة على محذوف والتقدير أولم نعصمهم ونجعل لهم حرما آمنا ممكنين إياهم.

ب. وهذا جواب أول منه تعالى لقولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾ ومحصله: أنا

مكناهم في أرض جعلناها حرما ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم أن يتخطفوا منها أن آمنوا.

٣. ﴿يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الجباية الجمع، والكل للتكثير لا للعموم لعدم إرادة العموم قطعا، والمعنى: يجمع إلى الحرم ثمرات كثير من الأشياء، والجملة صفة لحرما جيء بها لما عسى أن يتوهم أنهم يتضررون إن آمنوا بانقطاع الميرة.

٤. ﴿رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا﴾ مفعول مطلق أو حال من ثمرات، وقوله: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك عن جميع ما تقدم أي إنا نحن حفظناهم في أمن ورزقناهم من كل الثمرات لكن أكثرهم جاهلون بذلك فيحسبون أن الذي يحفظهم من تخطف العرب هو شركهم وعبادتهم الأصنام.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾ الآية، قال: نزلت في قريش، حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام والهجرة، وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، فقال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً، يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى في كشف المحجة، وروضة الواعظين، للمفيد ورواه في الدر المنثور، عن ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

ب. أخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عباس: أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾

٢٦. إهلاك القرى المستكبرة وإرسال الرسل قبل العذاب:

المقطع [٢٦] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٨ـ٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٦١»:

١. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها﴾ البطر الطغيان عند النعمة، و﴿مَعِيشَتَها﴾ منصوب بنزع الخافض أي وكم أهلكنا من قرية طغت في معيشتها.

٢. ﴿فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾:

أ. أي إن مساكنهم الخربة الخاوية على عروشها مشهودة لكم نصب أعينكم باقية على خرابها لم تعمر ولم تسكن بعد هلاكهم إلا قليلا منها.

ب. وبذلك يظهر أن الأنسب كون ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ استثناء من ﴿مَساكِنُهُمْ﴾ لا من قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم في الأسفار.

٣. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ﴾:

أ. حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم، وفي الجملة أعني قوله: ﴿كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ﴾ عناية لطيفة فإنه تعالى هو المالك لكل شيء ملكا حقيقيا مطلقا فهو المالك لمساكنهم وقد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم بإهلاكهم وبقيت بعدهم لا مالك لها إلا هو فسمى نفسه وارثا لهم بعناية أنه الباقي بعدهم وهو المالك لما كان بأيديهم كان ملكهم الاعتباري انتقل إليه ولا انتقال هناك بالحقيقة وإنما ظهر ملكه الحقيقي بزوال ملكهم الاعتباري.

ب. والآية جواب ثان منه تعالى لقولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾ ومحصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا يضمن لكم البقاء ولا يحفظ لكم أرضكم والتنعم فيها كما تشاءون فكم من قرية بالغة في التنعم ذات أشر وبطر أهلكنا أهلها وبقيت مساكنهم خالية غير مسكونة لا وارث لها إلا الله.

٤. ﴿وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً﴾:

أ. أم القرى هي أصلها وكبيرتها التي ترجع إليها وفي الآية بيان السنة الإلهية في عذاب القرى بالاستئصال وهو أن عذاب الاستئصال لا يقع منه تعالى إلا بعد إتمام الحجة عليهم بإرسال رسول يتلو عليهم آيات الله، وإلا بعد كون المعذبين ظالمين بالكفر بآيات الله وتكذيب رسوله.

ب. وفي تعقيب الآية السابقة بهذه الآية الشارحة لسنته تعالى في إهلاك القرى تخويف لأهل مكة المشركين بالإيماء إلى أنهم لو أصروا على كفرهم كانوا في معرض نزول العذاب لأن الله قد بعث في أم قراهم وهي مكة رسولا يتلو عليهم آياته وهم مع ذلك ظالمون بتكذيب رسولهم.

ج. وبذلك يظهر النكتة في الالتفات من التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى﴾ فإن في الإيماء إلى حصول شرائط العذاب فيهم لو كذبوا النبي ﷺ تقوية لنفسه وتأكيدا لحجته، وأما العدول بعده إلى سياق التكلم بالغير في قوله: ﴿وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى﴾ فهو رجوع إلى السياق السابق بعد قضاء الوطر.

٢٧. متاع الدنيا زينة والآخرة خير وأبقى:

المقطع [٢٧] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠-٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٦٣»:

١. ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾:

أ. الإيتاء: الإعطاء و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لما لإفادة العموم أي كل شيء أوتيتموه، والمتاع ما يتمتع به والزينة ما ينضم إلى الشيء ليفيده جمالا وحسنا، والحياة الدنيا الحياة المؤجلة المقطوعة التي هي أقرب الحياتين منا وتقابلها الحياة الآخرة التي هي خالدة مؤبدة، والمراد بما عند الله الحياة الآخرة السعيدة التي عند الله وجواره ولذا عد خيرا وأبقى.

ب. والمعنى: أن جميع النعم الدنيوية التي أعطاكم الله إياها متاع وزينة زينت بها هذه الحياة الدنيا التي هي أقرب الحياتين منكم وهي بائدة فانية وما عند الله من ثوابه في الدار الآخرة المترتب على اتباع الهدى والإيمان بآيات الله خير وأبقى فينبغي أن تؤثروه على متاع الدنيا وزينتها أفلا تعقلون.

ج. والآية جواب ثالث عن قولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾ محصله لنسلم أنكم إن اتبعتم الهدى تخطفكم العرب من أرضكم لكن الذي تفقدونه هو متاع الحياة الدنيا وزينتها الفانية فما بالكم تؤثرونه على ما عند الله من ثواب اتباع الهدى وسعادة الحياة الآخرة وهي خير وأبقى.

٢. ﴿أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾:

أ. الآية إلى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآية السابقة، وهو أن إيثار اتباع الهدى أولى من تركه

والتمتع بمتاع الحياة الدنيا، ببيان آخر فيه مقايسة حال من اتبع الهدى وما يلقاه من الوعد الحسن الذي وعده الله، من حال من لم يتبعه واقتصر على التمتع من متاع الحياة الدنيا وسيستقبله يوم القيامة الإحضار وتبري آلهته منه وعدم استجابتهم لدعوته ومشاهدة العذاب والسؤال عن إجابتهم الرسل.

ب. فقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ﴾ الاستفهام إنكاري، والوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفرة والجنة كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩]، ولا يكذب وعده تعالى قال: ﴿أَلا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥]

٣. ﴿كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ أي وهو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتع بمتاعها، والدليل على هذا التقييد المقابلة بين الوعد والتمتيع.

٤. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي للعذاب، أو للسؤال والمؤاخذة و﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الكلامي وإتيان الجملة اسمية كما فيما يقابلها من قوله: ﴿فَهُوَ لاقِيهِ﴾ للدلالة على التحقق.

٢٨. سؤال المشركين عن شركائهم وتبرؤهم منهم:

المقطع [٢٨] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٢-٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٦٣»:

١. ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ الشركاء هم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا وكونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون إليهم بعض ما هو من شئونه تعالى كالعبادة والتدبير، وفي قوله: ﴿يُنادِيهِمْ﴾ إشارة إلى بعدهم وخذلانهم يومئذ.

٢. ﴿قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا﴾:

أ. آلهتهم الذين يرونهم شركاء لله سبحانه صنفان صنف منهم عباد لله مكرمون كالملائكة المقربين وعيسى بن مريم عليه السلام، وصنف منهم كعتاة الجن ومدعي الألوهية من الإنس كفرعون ونمرود وغيرهما وقد ألحق الله سبحانه بهم كل مطاع في باطل كإبليس وقرناء الشياطين وأئمة الضلال كما قال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً﴾ [يس:

٦٢]، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣١]

ب. والذين يشير إليهم قوله: ﴿قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ هم من الصنف الثاني بدليل ذكرهم إغواءهم وتبريهم من عبادتهم وهؤلاء المشركون وإن كانوا أنفسهم أيضا ممن حق عليهم القول كما يشير إليه قوله: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ولكن المراد بهم في الآية المبحوث عنها المتبوعون منهم الذين ينتهي إليهم الشرك والضلال.

ج. وإيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسئولين أشاروا إليهم لعله للإشارة إلى أنهم ضلوا عنهم في هذا الموقف كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [فصلت: ٤٨]

٣. ﴿رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا﴾ أي هؤلاء، يشيرون إلى المشركين، هم الذين أغويناهم والجملة توطئة للجملة التالية.

٤. ﴿أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا﴾:

أ. أي كانت غوايتهم بإغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنا غوينا باختيارنا من غير إلجاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير إلجاء، والدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن إبليس يومئذ إذ قال: ﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال حاكيا لتساؤل الظالمين وقرنائهم: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ﴾ [الصافات: ٣٢] أي ما كان ليصل إليكم منا ونحن غاوون غير الغواية.

ب. ومن هنا يظهر أن لقولهم: ﴿أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا﴾ معنى آخر، وهو أنهم اكتسبوا نظير الوصف الذي كان فينا غير أنا نتبرأ منهم حيث لم نلجئهم إلى الغواية ما كانوا يعبدوننا بإلجاء.

٥. ﴿تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ﴾:

أ. تبر منهم مطلقا حيث لم يكن لهم أن يلجئوهم ويسلبوا منهم الاختيار، وقوله: ﴿ما كانُوا إِيَّانا

﴿يَعْبُدُونَ﴾ أي بإلجاء منا، أو لتبرينا من أعمالهم فإن من تبرأ من عمل لم ينتسب إليه وإلى هذا المعنى يئول قوله تعالى في مواضع من كلامه في وصف هذا الموقف: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [فصلت: ٤٨] ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] إلى غير ذلك من الآيات فافهم.

ب. وقيل: المعنى تبرأنا إليك من أعمالهم ما كانوا إيانا يعبدون بل كانوا يعبدون أهواءهم أو كانوا يعبدون الشياطين، ولا يخلو من سخافة.

ج. ولكون كل من قوليه: ﴿تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ﴾ ﴿ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ﴾ في معنى قوله: ﴿أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا﴾ جيء بالفصل من غير عطف.

٦. ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ﴾ المراد بشركائهم الآلهة التي كانوا شركاء لله بزعمهم ولذا أضافهم إليهم، والمراد بدعوتهم دعوتهم إياهم لينصروهم ويدفعوا عنهم العذاب ولذا قال: ﴿وَرَأَوُا الْعَذابَ﴾ بعد قوله: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾

٧. ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ﴾ قيل: جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أي اعتقدوا أن العذاب حق، ويمكن أن يكون لو للتمني أي ليتهم كانوا يهتدون.

٢٩. سؤال المشركين عن جوابهم للمرسلين:

المقطع [٢٩] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ماذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٥-٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٦٥»:

١. ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾:

أ. معطوف على قوله السابق: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ﴾، سئلوا أولا: عن شركائهم وأمروا أن يستنصروهم، وثانيا: عن جوابهم للمرسلين إليهم من عند الله.

ب. والمعنى: ما ذا قلتم في جواب من أرسل إليكم من رسل الله فدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح؟

٢. ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ﴾ العمى استعارة عن جعل الإنسان بحيث لا يهتدي إلى خبر، وكان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى إليهم لا إلى الأنباء لكن عكس الأمر فقيل: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ للدلالة على أخذهم من كل جانب وسد جميع الطرق وتقطع الأسباب بهم كما قال: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] فلسقوط الأسباب عن التأثير يومئذ لا تهتدي إليهم الأخبار ولا يجدون شيئا يعتذرون به للتخلص من العذاب.

٣. ﴿فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ﴾:

أ. تفريع على عمى الأنباء من قبيل تفرع بعض أفراد العام عليه أي لا يسأل بعضهم بعضا ليعدوا به عذرا يعتذرون به عن تكذيبهم الرسل وردهم الدعوة.

ب. وقد فسر صدر الآية وذيلها بتفاسير كثيرة مختلفة لا جدوى في التعرض لها فرأينا الصفح عنها أولى.

٤. ﴿فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي هذه حال من كفر ولم يرجع إلى الله سبحانه فأما من رجع وآمن وعمل صالحا فمن المرجو أن يكون من المفلحين، وعسى، كما قيل، للتحقيق على عادة الكرام أو للترجي من قبل التائب، والمعنى: فليتوقع الفلاح.

٣٠. الخلق والاختيار لله وله الحكم والمرجع:

المقطع [٣٠] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٦٨-٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٦٦»:

١. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

أ. الخيرة بمعنى التخير كالطيرة بمعنى التطير.

ب. والآية جواب رابع عن قولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا﴾ والذي يتضمنه حجة قاطعة.

ج. بيان ذلك: أن الخلق وهو الصنع والإيجاد ينتهي إليه تعالى كما قال: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾

[الزمر: ٦٢] فلا مؤثر في الوجود بحقيقة معنى التأثير غيره تعالى فلا شيء هناك يلجئه تعالى على فعل من الأفعال فإن هذا الشيء المفروض إما مخلوق له منته في وجوده إليه فوجوده وآثار وجوده ينتهي إليه تعالى ولا معنى لتأثير الشيء ولا لتأثير أثره في نفسه وإما غير مخلوق له ولا منته في وجوده إليه يؤثر فيه بالإلجاء والقهر ولا مؤثر في الوجود غيره ولا أن هناك شيئا لا ينتهي في وجوده إليه تعالى فلا يعطيه شيء أثرا ولا يمنعه شيء من أثر كما قال: ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١] وقال: ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]

د. وإذ لا قاهر يقهره على فعل ولا مانع يمنعه عن فعل فهو مختار بحقيقة معنى الاختيار هذا بحسب التكوين والتشريع يتبعه فإن حقيقة التشريع هي أنه فطر الناس على فطرة لا تستقيم إلا بإتيان أمور هي الواجبات وما في حكمها وترك أمور هي المحرمات وما في حكمها فما ينتفع به الإنسان في كماله وسعادته هو الذي أمر به وندب إليه وما يتضرر به هو الذي نهى عنه وحذر منه.

هـ. فله تعالى أن يختار في مرحلة التشريع من الأحكام والقوانين ما يشاء كما أن له أن يختار في مرحلة التكوين من الخلق والتدبير ما يشاء، وهذا معنى قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ﴾ وقد أطلق إطلاقا.

و. والظاهر أن قوله: ﴿يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ إشارة إلى اختياره التكويني فإن معنى إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شيء ولا يمنعه شيء عما يشاؤه وبعبارة أخرى لا يمتنع عن مشيته شيء لا بنفسه ولا بمانع يمنع وهذا هو الاختيار بحقيقة معناه، وقوله: ﴿وَيَخْتارُ﴾ إشارة إلى اختياره التشريعي الاعتباري ويكون عطفه على قوله: ﴿يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ من عطف المسبب على سببه لكون التشريع والاعتبار متفرعا على التكوين والحقيقة.

ز. ويمكن حمل قوله: ﴿يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ على الاختيار التكويني وقوله: ﴿وَيَخْتارُ﴾ على الأعم من الحقيقة والاعتبار لكن الوجه السابق أوجه، ومن الدليل عليه كون المنفي في قوله الآتي: ﴿ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ هو الاختيار التشريعي الاعتباري، والاختيار المثبت في قوله: ﴿وَيَخْتارُ﴾ يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعي الاعتباري.

ح. ثم لا ريب في أن الإنسان له اختيار تكويني بالنسبة إلى الأفعال الصادرة عنه بالعلم والإرادة وإن لم يكن اختيارا مطلقا فإن للأسباب والعلل الخارجية دخلا في أفعاله إذ أكله لقمة من الطعام مثلا

متوقف على تحقق مادة الطعام خارجا وقابليته وملائمته وقربه منه ومساعدة أدوات الأخذ والقبض والالتقام والمضغ والبلع وغير ذلك مما لا يحصى، فصدور الفعل الاختياري عنه مشروط بموافقة الأسباب الخارجية الداخلية في تحقق فعله، والله سبحانه في رأس تلك الأسباب جميعا وإليه ينتهي الكل وهو الذي خلق الإنسان منعوتا بنعت الاختيار وأعطاه خيرته كما أعطاه خلقه.

ط. ثم إن الإنسان يرى بالطبع لنفسه اختيارا تشريعيا اعتباريا فيما يشاؤه من فعل أو ترك بحذاء اختياره التكويني فله أن يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء من غير أن يكون لأحد من بني نوعه أن يحمله على شيء أو يمنعه عن شيء لكونهم أمثالا له لا يزيدون عليه بشيء في معنى الإنسانية ولا يملكون منه شيئا، وهذا هو المراد بكون الإنسان حرا بالطبع.

ي. فالإنسان مختار في نفسه حر بالطبع إلا أن يملك غيره من نفسه شيئا فيسلب بنفسه عن نفسه الحرية كما أن الإنسان الاجتماعي يسلب عن نفسه الحرية بالنسبة إلى موارد السنن والقوانين الجارية في مجتمعة بدخوله في المجتمع وإمضائه ما يجري فيه من سنن وقوانين سواء كانت دينية أو اجتماعية، وكما أن المتقاتلين يملك كل منهما الآخر من نفسه ما يغلب عليه فللغالب منهما أن يفعل بأسيره ما يشاء، وكما أن الأجير إذا ابتاع عمله وآجر نفسه فليس بحر في عمله إذ المملوكية لا تجامع الحرية.

ك. فالإنسان بالنسبة إلى سائر بني نوعه حر في عمله مختار في فعله إلا أن يسلب باختيار منه شيئا من اختياره فيملك غيره، والله سبحانه يملك الإنسان في نفسه وفي فعله الصادر منه ملكا مطلقا بالملك التكويني وبالملك الوضعي الاعتباري فلا خيرة له ولا حرية بالنسبة إلى ما يريده منه تشريعا بأمر أو نهي تشريعيين كما لا خيرة ولا حرية له بالنسبة إلى ما يشاؤه بمشيته التكوينية.

ل. وهذا هو المراد بقوله: ﴿ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي لا اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئا من فعل أو ترك حتى يختاروا لأنفسهم ما يشاءون وإن خالف ما اختاره الله والآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وللقوم في تفسير الآية أقاويل مختلفة غير مجدية أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع إلى المطولات.

٢. ﴿سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

أ. أي عن شركهم باختيارهم أصناما آلهة يعبدونها من دون الله.

ب. وهاهنا معنى آخر أدق أي تنزه وتعالى عن شركهم بادعاء أن لهم خيرة بالنسبة إلى ما يختاره تعالى بقبوله أو رده فإن الخيرة بهذا المعنى لا تتم إلا بدعوى الاستقلال في الوجود والاستغناء عنه تعالى ولا تتم إلا مع الاشتراك معه تعالى في صفة الألوهية.

ج. وفي قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ﴾ التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة والنكتة فيه تأييد النبي ﷺ وتقويته وتطييب نفسه بإضافة صفة الرب إليه فإن معناه أن ما أرسله به من الحكم ماض غير مردود فلا خيرة لهم في قبوله ورده، ولأنهم لا يقبلون ربوبيته.

د. وفي قوله: ﴿سُبْحانَ اللهِ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر والنكتة فيه إرجاع الأمر إلى الذات المتعالية التي هي المبدأ للتنزه والتعالي عن كل ما لا يليق بساحة قدسه فإنه تعالى يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقص لأنه هو الله عز اسمه.

٣. ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ﴾:

أ. الإكنان الإخفاء والإعلان الإظهار، ولكون الصدر يعد مخزنا للأسرار نسب الإكنان إلى الصدور والإعلان إليهم أنفسهم.

ب. ولعل تعقيب الآية السابقة بهذه الآية للإشارة إلى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لعلمه بما في ظاهرهم وباطنهم من أوساخ الشرك والمعصية فطهرهم بذلك بحكمته.

٤. ﴿وَهُوَ اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن الضمير في صدر الآية راجع إلى ﴿رَبُّكَ﴾ في الآية السابقة، والظاهر على هذا أن اللام في اسم الجلالة للتلميح إلى معنى الوصف، وقوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد للحصر المستفاد من قوله: ﴿هُوَ اللهُ﴾ كأنه قيل: وهو الإله، المتصف وحده بالألوهية، لا إله إلا هو.

ب. وعلى ذلك فالآية كالمتمم لبيان الآية السابقة كأنه قيل: هو سبحانه مختار له أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده، وهو يعلم ظاهرهم وباطنهم فله أن يقضي عليهم أن يعبدوه وحده وهو الإله المستحق للعبادة وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده، ويكون ما في ذيل الآية من قوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾، وجوها ثلاثة توجه كونه تعالى معبودا مستحقا للعبادة وحده:

• أما قوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ﴾ فلأن كل كمال موجود في الدنيا والآخرة نعمة نازلة منه تعالى يستحق بها جميل الثناء، وكل جميل من هذه النعم الموهوبة مترشحة من كمال ذاتي من صفاته الذاتية يستحق بها الثناء فله كل الثناء ولا يستقل شيء غيره بشيء من الثناء يثنى عليه به إلا وينتهي إليه والعبادة ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعبادة وحده.

• وأما قوله: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ فلأنه سبحانه هو المالك على الإطلاق لا يملك غيره إلا ما ملكه إياه وهو المالك لما ملكه وهو سبحانه مالك في مرحلة التشريع والاعتبار كما أنه مالك في مرحلة التكوين والحقيقة، ومن آثار ملكه أن يقضي على عبيده ومملوكيه أن لا يعبدوا إلا إياه.

• وأما قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فلأن الرجوع للحساب والجزاء وإذ كان هو المرجع فهو المحاسب المجازي وإذ كان هو المحاسب المجازي وحده فهو الذي يجب أن يعبد وحده وله دين يجب أن يتعبد به وحده.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ الآية، قال: يختار الله عز وجل الإمام وليس لهم أن يختاروا.

• أقول: وهو من الجري مبنيا على وجوب نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالى كالنبي، وقد مر تفصيل الكلام فيه.

٣١. الليل والنهار والضياء والسكن:

المقطع [٣١] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٧٠»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ السرمد على فعلل بمعنى الدائم، وقيل: هو من السرد والميم زائدة ومعناه المتتابع المطرد، وتقييده بيوم القيامة إذ لا ليل بعد يوم القيامة.

٢. ﴿مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ﴾:

أ. أي من الإله الذي ينقض حكمه تعالى ويأتيكم بضياء تستضيئون به وتسعون في طلب المعاش، هذا ما يشهد به السياق، ويجري نظيره في قوله الآتي: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ﴾

ب. وبذلك يندفع ما استشكل على الآيتين من أنه لو فرض تحقق جعل الليل سرمدا إلى يوم القيامة لم يتصور معه الإتيان بضياء أصلا لأن الذي يأتي به إما هو الله تعالى وإما هو غيره أما غيره فعجزه عن ذلك ظاهر، وأما الله تعالى فإتيانه به يستلزم اجتماع الليل والنهار وهو محال والمحال لا يتعلق به القدرة ولا الإرادة، وكذا الكلام في جانب النهار، وربما أجيب عنه بأن المراد بقوله: ﴿إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ﴾ إن أراد الله أن يجعل عليكم، وهو كما ترى.

ج. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: من إله غير الله يأتيكم بنهار، على ما يقتضيه سياق المقابلة بين الليل والنهار في الكلام لكن العدول إلى ذكر الضياء بدل النهار من قبيل الإلزام في الحجة بأهون ما يفرض وأيسره ليظهر بطلان مدعى الخصم أتم الظهور كأنه قيل: لو كان غيره تعالى إله يدبر أمر العالم فإن جعل الله الليل سرمدا فليقدر أن يأتي بالنهار، تنزلنا عن ذلك فليقدر أن يأتي بضياء ما تستضيئون به لكن لا قدرة لشيء على ذلك إن القدرة كلها لله سبحانه.

د. ولا يجري نظير هذا الوجه في الآية التالية في الليل حتى يصح أن يقال مثلا: من إله غير الله يأتيكم بظلمة لأن المأتي به إن كان ظلمة ما لم تكف للسكن وإن كان ظلمة ممتدة كانت هي الليل.

هـ. وتنكير ﴿بِضِياءٍ﴾ يؤيد ما ذكر من الوجه، وقد أوردوا وجوها أخرى في ذلك لا تخلو من تعسف.

٣. ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ أي سمع تفهم وتفكر حتى تتفكروا فتفهموا أن لا إله غيره تعالى.

٤. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعي للمعاش.

٥. ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ أي إبصار تفهم وتذكر وإذ لم يبصروا ولم يسمعوا فهم عمي صم، ومن اللطيف تذييل الآيتين بقوله: ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ ولعل آية النهار خص بالإبصار لمناسبة ضوء النهار الإبصار وبقي السمع لآية الليل وهو لا يخلو من مناسبة معه.

٦. ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الآية

بمنزلة نتيجة الحجة المذكورة في الآيتين السابقتين سيقت بعد إبطال دعوى الخصم في صورة الإخبار الابتدائي لثبوته من غير معارض.

٧. ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ اللام للتعليل والضمير لليل، أي جعل لكم الليل لتستريحوا فيه، وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي وجعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذي هو عطيته فرجوع ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ و﴿لِتَبْتَغُوا﴾ إلى الليل والنهار بطريق اللف والنشر المرتب، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ راجع إليهما جميعا.

٨. ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ﴾ في معنى قولنا: جعل لكم وذلك رحمة منه وفيه إشارة إلى أن التكوين كالسكون والابتغاء والتشريع وهو هدايتهم إلى الشكر من آثار صفة رحمته تعالى فافهم ذلك.

٣٢. سؤال المشركين عن شركائهم وضلال ما كانوا يفترون:

المقطع [٣٢] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤ـ٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٧٢»:

١. ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقدم تفسيره وقد كررت الآية لحاجة مضمون الآية التالية إليها.

٢. ﴿وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾:

أ. إشارة إلى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة، والمراد بالشهيد شهيد الأعمال، كما تقدمت الإشارة إليه مرارا، ولا ظهور للآية في كونه هو النبي المبعوث إلى الأمة نظرا إلى إفراد الشهيد وذكر الأمة إذ الأمة هي الجماعة من الناس ولا ظهور ولا نصوصية له في الجماعة الذين أرسل إليهم نبي وإن كانت من مصاديقها.

ب. ﴿فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾ أي طالبناهم بالحجة القاطعة على ما زعموا أن لله شركاء.

٣. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾:

أ. أي غاب عنهم زعمهم الباطل أن لله سبحانه شركاء فعلموا عند ذلك أن الحق في الألوهية لله وحده فالمراد بالضلال الغيبة على طريق الاستعارة، كذا فسروه، ففي الكلام تقديم وتأخير والأصل فضل

عنهم ما كانوا يفترون فعلموا أن الحق لله.

ب. وعلى هذا فقوله: ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ نظير ما يقال في القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا في حق يدعيه كل لنفسه: أن الحق لفلان لا لفلان كأنه تعالى يخاصم المشركين حيث يدعون أن الألوهية بمعنى المعبودية حق لشركائهم فيدعي تعالى أنه حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضل عنهم البرهان فيعلمون عندئذ أن هذا الحق لله فالألوهية حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقا لغيره تعالى فهو حق له.

ج. وهذا وجه بظاهره وجيه لا بأس به لكن الحقيقة التي يعطيها كلامه تعالى أن من خاصة يوم القيامة أن الحق يتمحض فيه للظهور ظهورا مشهودا لا ستر عليه فليرتفع به كل باطل يلتبس به الأمر ويتشبه بالحق، ولازمه أن يظهر أمر الألوهية ظهورا لا ستر عليه فيرتفع به افتراء الشركاء ارتفاعا مترتبا عليه لا أن يفتقد الدليل على الشركاء فيستنتج منه توحده تعالى بالألوهية على سبيل الاحتجاجات الفكرية فافهم ذلك.

د. وبذلك يندفع أولا ما يرد على الوجه السابق أن المستفاد من كلامه تعالى أنهم لا حجة عقلية لهم على مدعاهم ولا موجب على هذا لتأخر علمهم أن الحق لله إلى يوم القيامة، ويرتفع ثانيا حديث التقديم والتأخير المذكور الذي لا نكتة له ظاهرا إلا رعاية السجع.

هـ. ومن الممكن أن يكون ﴿الْحَقَ﴾ في قوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ مصدرا فيرجع معنى الجملة إلى معنى قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] فكون الحق لله هو كونه تعالى حقا إن أريد به الحق في ذاته أو كونه منتهيا إليه قائما به إن أريد به غيره، كما قال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٦٠] ولم يقل: الحق مع ربك.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ يقول: من هذه الأمة إمامها.

- أقول: وهو من الجري.

٣٣. قصة قارون وكنوزه وبغيه وموعظة قومه:

المقطع [٣٣] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ

الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦ـ٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٧٥»:

١. ﴿إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾:

أ. قال في المجمع: (البغي طلب العتو بغير حق، قال: والمفاتح جمع مفتح والمفاتيح جمع مفتاح ومعناهما واحد وهو عبارة عما يفتح به الأغلاق، قال: وناء بحمله ينوء نوءا إذا نهض به مع ثقله عليه)، وقال غيره: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله وهو الأوفق للآية.

ب. وقال في المجمع: (أيضا: العصبة الجماعة الملتف بعضها ببعض، وقال: واختلف في معنى العصبة فقيل: ما بين عشرة إلى خمسة عشر عن مجاهد، وقيل: ما بين عشرة إلى أربعين عن قتادة، وقيل أربعون رجلا عن أبي صالح، وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة عن ابن عباس، وقيل: إنهم الجماعة يتعصب بعضهم لبعض)، ويزيف غير القولين الأخيرين قول إخوة يوسف: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] وهم تسعة نفر.

ج. والمعنى: أن قارون كان من بني إسرائيل فطلب العتو عليهم بغير حق وأعطيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتثقل الجماعة ذوي القوة، وذكر جمع من المفسرين أن المراد بالمفاتح الخزائن، وليس بذاك.

٢. ﴿إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ فسر الفرح بالبطر وهو لازم الفرح والسرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلو من تعلق شديد بالدنيا ينسي الآخرة ويورث البطر والأشر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، ولذا أيضا علل النهي بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

٣. ﴿وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي واطلب فيما أعطاك الله من مال الدنيا تعمير الدار الآخرة بإنفاقه في سبيل الله ووضعه فيما فيه مرضاته تعالى.

٤. ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾:

أ. أي لا تترك ما قسم الله لك ورزقك من الدنيا ترك المنسي واعمل فيه لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الذي يبقى له.

ب. وقيل: معناه لا تنس أن نصيبك من الدنيا، وقد أقبلت عليك، شيء قليل مما أوتيت وهو ما تأكله وتشربه وتلبسه مثلا والباقي فضل ستتركه لغيرك فخذ منها ما يكفيك وأحسن بالفضل وهذا وجه جيد، وهناك وجوه أخر غير ملائمة للسياق.

٥. ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أي أنفقه لغيرك إحسانا كما آتاكه الله إحسانا من غير أن تستحقه وتستوجبه، وهذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله: ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ على أول الوجهين السابقين ومتممة له على الوجه الثاني.

٦. ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا تطلب الفساد في الأرض بالاستعانة بما آتاك الله من مال وما اكتسبت به من جاه وحشمة إن الله لا يحب المفسدين لبناء الخلقة على الصلاح والإصلاح.

٧. ﴿قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾:

أ. لا شك أن قوله: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه ونصحوه به وكان كلامهم مبنيا على أن ما له من الثروة إنما آتاه الله إحسانا إليه وفضلا منه من غير استيجاب واستحقاق فيجب عليه أن يبتغي فيه الدار الآخرة ويحسن به إلى الناس ولا يفسد في الأرض بالاستعلاء والاستكبار والبطر.

ب. فأجاب بنفي كونه إنما أوتيه إحسانا من غير استحقاق ودعوى أنه إنما أوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال وتدبيره وليس عند غيره ذلك، وإذا كان ذلك باستحقاق فقد استقل بملكه وله أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء ويستدره في أنواع التنعم وبسط السلطة والعلو والبلوغ إلى الآمال والأماني.

ج. وهذه المزعمة التي ابتلي بها قارون فأهلكته، أعني زعمه أن الذي حصل له الكنوز وساق إليه القوة والجمع هو نبوغه العلمي في اكتساب العزة وقدرته النفسانية لا غير، مزعمة عامة بين أبناء الدنيا لا يرى الواحد منهم فيما ساقه إليه التقدير ووافقته الأسباب الظاهرة من عزة عاجلة وقوة مستعارة إلا أن

نفسه هي الفاعلة له وعلمه هو السائق له إليه وخبرته هي الماسكة له لأجله.

د. وإلى عموم هذه المزعمة وركون الإنسان إليها بالطبع يشير قوله تعالى: ﴿فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ [غافر: ٨٣] وعرض الآيات على قصة قارون لا يبقي شكا في أن المراد بالعلم في كلام ما قدمناه.

هـ. وفي قوله: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ﴾ من غير إسناد الإيتاء إلى الله سبحانه كما في قول الناصحين له: ﴿فِيما آتاكَ اللهُ﴾ نوع إعراض عن ذكره تعالى وإزراء بساحة كبريائه.

٨. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ استفهام توبيخي وجواب عن قوله: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ بأيسر ما يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذي اقتنى به المال وهو يبقيه له ويمتعه منه هو علمه الذي عنده وهو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا، وكان ما له من القوة والجمع عن علم عنده على زعمه، وقد أهلكه الله بجرمه، فلو كان العلم الذي يغتر ويتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتع منه ولم يكن بإيتاء الله فضلا وإحسانا لنجاهم من الهلاك ومتعهم من أموالهم ودافعوا بقوتهم وانتصروا بجمعهم.

٩. ﴿وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن المراد به بيان السنة الإلهية في تعذيب المجرمين وإهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إمهالهم والإصغاء إلى ما لفقوه من المعاذير أو هيئوه من التذلل والإنابة ليرجو بذلك النجاة كما أن أولي الطول والقوة من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثم العذاب، وربما صرف المجرم بما لفقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكن الله سبحانه لعلمه بحقيقة الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم وإنما يقضي عليهم قضاء فيأتيهم عذاب غير مردود.

ب. والظاهر على هذا أن تكون الجملة من تتمة التوبيخ السابق ويكون جوابا عن إسناده ثروته إلى علمه، ومحصله أن المؤاخذة الإلهية ليست كمؤاخذة الناس حتى إذا لاموه أو نصحوه صرف عن نفسه ذلك بما لفقه من الجواب حتى ينتفع في ذلك بعلمه، بل هو سبحانه عليم شهيد لا يسأل المجرم عن ذنبه وإنما يؤاخذه بذنبه، وأيضا يؤاخذه بغتة وهو لا يشعر.

ج. هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية ولهم فيها أقاويل أخرى:

• فقيل: المراد بالعلم في قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ علم التوراة فإنه كان أعلم بني إسرائيل بها.

• وقيل: المراد علم الكيمياء وكان قد تعلمه من موسى ويوشع بن نون وكالب بن يوقنا والمراد بكون العلم عنده اختصاصه به دون سائر الناس وقد صنع به مقدارا كثيرا من الذهب.

• وقيل: المراد بالعلم علم استخراج الكنوز والدفائن وقد استخرج به كنوزا ودفائن كثيرة.

• وقيل: المراد بالعلم علم الله تعالى والمعنى: أوتيته على علم من الله وتخصيص منه قصدني به، ومعنى قوله: ﴿عِنْدِي﴾ هو كذلك في ظني ورأيي.

• وقيل: العلم علم الله لكنه بمعنى المعلوم، والمعنى أوتيته على خير علمه الله تعالى عندي، و﴿عَلَى﴾ على جميع هذه الأقوال للاستعلاء وجوز أن تكون للتعليل.

• وقيل: المراد بالسؤال في قوله: ﴿وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ سؤال يوم القيامة والمنفي سؤال الاستعلام لأن الله أعلم بذنوبهم لا حاجة له إلى السؤال والملائكة يعلمونها من صحائف أعمالهم ويعرفونهم بسيماهم وأما قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] فهو سؤال تقريع وتوبيخ لا سؤال استعلام، ويمكن أن يكون السؤال في الآيتين بمعنى واحد والنفي والإثبات باعتبار اختلاف المواقف يوم القيامة فيسألون في موقف ولا يسألون في آخر فلا تناقض بين الآيتين.

• وقيل: الضمير في قوله: ﴿عَنْ ذُنُوبِهِمُ﴾ لمن هو أشد والمراد بالمجرمين غيرهم والمعنى: لا يسأل عن ذنوب من أهلكه الله من أهل القرون السابقة غيرهم من المجرمين.

د. وهذه كلها وجوه من التفسير لا يلائمها السياق.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس: أن قارون كان من قوم موسى، قال: كان ابن عمه وكان يبتغي العلم حتى جمع علما، فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده، فقال له موسى عليه السلام: إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى، فقال: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم، جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء، فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها، فقالوا لها: نعطيك حكمك، على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك، قالت نعم ـ فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا، وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم، قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم، قالوا: فإنك قد زنيت، قال: أنا؟، فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام: أنشدتك بالله إلا ما صدقت، قالت: أما إذا نشدتني فإنهم دعوني، وجعلوا لي جعلا على أن أقذفك بنفسي، وأنا أشهد أنك بريء وأنك رسول الله ـ، فخر موسى عليه السلام ساجدا يبكي، فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذيهم فغيبتهم فأوحى الله: يا موسى، سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم، فوعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم، قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ خسف به إلى الأرض السفلى.

• أقول: وروي فيه، أيضا عن عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن نوفل الهاشمي القصة: لكن فيها أن المرأة أحضرت إلى مجلس قارون، لتشهد عند الملإ من بني إسرائيل على موسى عليه السلام بالفجور، وتشكوه إلى قارون فجاءت إليه واعترفت عند الملإ بالحق فبلغ ذلك موسى عليه السلام فشكاه إلى ربه فسلطه الله عليه.

• وروى القمي في تفسيره في القصة أن موسى عليه السلام جاء إلى قارون، وبلغه حكم الزكاة، فاستهزأ به وأخرجه من داره فشكاه إلى ربه، فسلطه الله عليه فخسف به وبداره الأرض، والرواية موقوفة

مشتملة على أمور منكرة ولذلك تركنا نقلها كما أن روايتي ابن عباس وابن نوفل أيضا موقوفتان.

• على أن رواية ابن عباس تقصص بغيه على موسى عليه السلام والذي تقصه الآيات بغيه على بني إسرائيل، وتشير إلى أن العلم الذي عنده هو ما حصله بالتعلم وظاهر الآية كما مر أنه العلم بطرق تحصيل الثروة ونحوها.

• وقد سيقت القصة في التوراة الحاضرة على نحو آخر:

● ففي الإصحاح السادس عشر من سفر العدد: وأخذ قورح بن بصهار بن نهات بن لاوي، وداثان وأبيرام ابنا ألياب وأون بن فالت بنو رأوبين، يقاومون موسى مع أناس من بني إسرائيل، مائتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوي اسم، فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما، إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب؟ فلما سمع موسى سقط على وجهه، ثم كلم قورح وجميع قومه قائلا: غدا يعلن الرب من هو له؟ ومن المقدس؟ حتى يقربه إليه فالذي يختاره يقربه إليه، افعلوا هذا: خذوا لكم مجابر قورح وكل جماعته، واجعلوا فيها نارا وضعوا عليها بخورا أمام الرب غدا، فالرجل الذي يختاره الرب هو المقدس، كفاكم يا بني لاوي.

● ثم سيقت القصة وذكر فيها حضورهم غدا، ومجيؤهم بالمجامر وفيها النار والبخور واجتماعهم على باب خيمة الاجتماع، ثم قيل: انشقت الأرض التي تحتهم، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم، وكل من كان لقورح مع كل الأموال، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية، فانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة، وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم، لأنهم قالوا: لعل الأرض تبتلعنا، وخرجت نار من عند الرب، وأكلت المائتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى﴾ وهو ابن خالته: عن عطاء عن ابن عباس وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ﴾ الآية، قال: كان يحمل مفاتيح خزائنه العصبة أولوا القوة.

د. وفي المعاني، بإسناده عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عن جده عن آبائه عن علي عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ قال: لا تنس صحتك

وقوتك وفراغك، وشبابك ونشاطك أن تطلب بها الآخرة.

٣٤. خروج قارون في زينته وموعظة العلماء:

المقطع [٣٤] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩ـ٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٧٩»:

١. ﴿فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الحظ هو النصيب من السعادة والبخت.

٢. ﴿يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ أي يجعلونها الغاية المطلوبة في مساعيهم ليس لهم وراءها غاية فهم على جهل من الآخرة وما أعد الله لعباده فيها من الثواب قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] ولذلك عدوا ما أوتيه قارون من المال سعادة عظيمة له من دون قيد وشرط.

٣. ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾:

أ. الويل الهلاك ويستعمل للدعاء بالهلاك وزجرا عما لا يرتضي، وهو في المقام زجرا عن التمني.

ب. والقائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجهلة الذين تمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتي قارون وعدوه سعادة عظيمة على الإطلاق، ومرادهم أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا مما أوتي قارون فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنوه.

٤. ﴿وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾:

أ. التلقية التفهيم والتلقي التفهم والأخذ، والضمير، على ما قالوا، للكلمة المفهومة من السياق، والمعنى: وما يفهم هذه الكلمة، وهي قولهم: ﴿ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ إلا الصابرون.

ب. وقيل: الضمير للسيرة أو الطريقة ومعنى تلقيها فهمها أو التوفيق للعمل بها.

ج. والصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد وعلى الطاعات وعن المعاصي، ووجه كونهم هم المتلقين لهذه الكلمة أو السيرة أو الطريقة أن التصديق بكون ثواب الآخرة خيرا من الحظ الدنيوي،

وهو لا ينفك عن الإيمان والعمل الصالح الملازمين لترك كثير من الأهواء والحرمان عن كثير من المشتهيات، لا يتحقق إلا ممن له صفة الصبر على مرارة مخالفة الطبع وعصيان النفس الأمارة.

٣٥. خسف الله بقارون وداره وندم الحاسدين:

المقطع [٣٥] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨١-٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٨٠»:

١. ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ﴾ الضميران لقارون والجملة متفرعة على بغيه.

٢. ﴿فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾:

أ. الفئة الجماعة يميل بعضهم إلى بعض، وفي النصر والانتصار معنى المنع والامتناع، ومحصل المعنى: فما كان له جماعة يمنعونه العذاب وما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظن أن الذي يجلب إليه الخير ويدفع عنه الشر هو قوته وجمعه اللذان اكتسبهما بعلمه فلم يقه جمعه ولم تفده قوته من دون الله وبان أن الله سبحانه هو الذي آتاه ما آتاه.

ب. فالفاء في قوله: ﴿فَما كانَ﴾ لتفريع الجملة على قوله: ﴿فَخَسَفْنا بِهِ﴾، أي فظهر بخسفنا به وبداره الأرض بطلان ما كان يدعيه لنفسه من الاستحقاق والاستغناء عن الله سبحانه وأن الذي يجلب إليه الخير ويدفع عنه الشر هو قوته وجمعه وقد اكتسبهما بنبوغه العلمي.

٣. ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ﴾:

أ. ذكروا أن كلمة ﴿وَيْ﴾ تندم وربما تستعمل للتعجب وكلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد وإن كان التندم أسبق إلى الذهن.

ب. ﴿وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ اعتراف منهم ببطلان ما كان يزعمه قارون وهم يصدقونه أن القوة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان في علمه وجودة تدبيره لا بفضل من الله سبحانه بل سعة الرزق وضيقه بمشية من الله.

ج. والمقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشك والتردد لكنهم إنما استعملوا في كلامهم ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ للدلالة على ابتداء ترددهم في قول قارون وقد قبلوه وصدقوه من قبل وهذه صنعة شائعة في الاستعمال.

د. والدليل على ذلك قولهم بعده: ﴿لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا﴾ على طريق الجزم والتحقيق.

٤. ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾ تندم منهم ثانيا وانتزاع مما كان لازم تمنيتهم مكان قارون.

٣٦. دار الآخرة للذين لا يريدون علواً ولا فساداً:

المقطع [٣٦] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٣ـ٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٨١»:

١. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الآية وما بعدها بمنزلة النتيجة المستخرجة من القصة.

٢. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الإشارة إليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها وبهائها وعلو مكانتها وهو الشاهد على أن المراد بها الدار الآخرة السعيدة ولذا فسروها بالجنة.

٣. ﴿نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً﴾:

أ. أي نختصها بهم وإرادة العلو هو الاستعلاء والاستكبار على عباد الله وإرادة الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى فإن الله بنى شرائعه التي هي تكاليف للإنسان على مقتضيات فطرته وخلقته ولا تقتضي فطرته إلا ما يوافق النظام الأحسن الجاري في الحياة الإنسانية الأرضية فكل معصية تقضي إلى فساد في الأرض بلا واسطة أو بواسطة، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]

ب. ومن هنا ظهر أن إرادة العلو من مصاديق إرادة الفساد وإنما أفردت وخصت بالذكر اعتناء بأمرها، ومحصل المعنى: تلك الدار الآخرة السعيدة تخصها بالذين لا يريدون فسادا في الأرض بالعلو على عباد الله ولا بأي معصية أخرى.

ج. والآية عامة يخصصها قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١]

٤. ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العاقبة المحمودة الجميلة وهي الدار الآخرة السعيدة أو العاقبة السعيدة في الدنيا والآخرة لكن سياق الآيتين يؤيد الأول.

٥. ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها﴾ أي لأنها تتضاعف له بفضل من الله، قال تعالى: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ [الأنعام: ١٦٠]

٦. ﴿وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. أي لا يزيدون على ما عملوا شيئا وفيه كمال العدل، كما أن في جزاء الحسنة بخير منها كمال الفضل.

ب. وكان مقتضى الظاهر في قوله: ﴿فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا﴾، الإضمار ولعل في وضع الموصول موضع الضمير إشارة إلى أن هذا الجزاء إنما هو لمن أكثر من اقتراف المعصية وأحاطت به الخطيئة كما يفيده جمع السيئات، وقوله: ﴿كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الدال على الإصرار والاستمرار، وأما من جاء بالسيئة والحسنة فمن المرجو أن يغفر الله له كما قال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]

ج. وليعلم أن الملاك في الحسنة والسيئة على الأثر الحاصل منها عند الإنسان وبها تسمى الأعمال حسنة أو سيئة وعليها، لا على متن العمل الخارجي الذي هو نوع من الحركة، يثاب الإنسان أو يعاقب، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]

د. وبه يظهر الجواب عما استشكل على إطلاق الآية بأن التوحيد حسنة ولا يعقل خير منه وأفضل، فالآية إما خاصة بغير الاعتقادات الحقة أو مخصصة بالتوحيد، وذلك أن الأثر الحاصل من التوحيد يمكن أن يفرض ما هو خير منه وإن لم يقبله التوحيد بحسب الاعتبار، على أن التوحيد أيا ما فرض يقبل الشدة والضعف والزيادة والنقيصة وإذا ضوعف عند الجزاء كما تقدم كان مضاعفه خيرا من غيره.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: وروى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه كان يمشي في الأسواق وهو وال

يرشد الضال، ويعين الضعيف ويمر بالبياع والبقال، فيفتح عليه القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ، نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً﴾ ويقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع، من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس.

ب. وفيه، روى سلام الأعرج عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية.

• أقول: وعن السيد ابن طاووس في سعد السعود، أنه رواه عن الطبرسي هكذا: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود، من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها.

٣٧. القرآن والمعاد والعلم:

المقطع [٣٧] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٨٦»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾:

أ. الفرض، على ما ذكره، بمعنى الإيجاب فمعنى ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي أوجب عليك العمل به أي بما فيه من الأحكام ففيه مجاز في النسبة.

ب. وأحسن منه قول بعضهم: إن المعنى أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به وذلك لكونه أوفق لقوله: ﴿لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾ بما سيجيء من معناه.

٢. ﴿لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾:

أ. المعاد اسم مكان أو زمان من العود وقد اختلفت كلماتهم في تفسير هذا المعاد فقيل: هو مكة فالآية وعد له أن الله سيرده بعد هجرته إلى مكة ثانيا، وقيل: هو الموت، وقيل: هو القيامة، وقيل: هو المحشر، وقيل هو المقام المحمود وهو موقف الشفاعة الكبرى، وقيل: هو الجنة، وقيل: هو بيت المقدس، وهو في الحقيقة وعد بمعراج ثان يعود فيه إلى بيت المقدس بعد ما كان دخله في المعراج الأول: وقيل: هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جل الأقوال السابقة أو كلها.

ب. والذي يعطيه التدبر في سياق آيات السورة هو أن تكون الآية تصريحا بما كانت القصة المسرودة

في أول السورة تلوح إليه ثم الآيات التالية لها تؤيده.

ج. فإنه تعالى أورد قصة بني إسرائيل وموسى عليه السلام في أول السورة ففصل القول في أنه كيف من عليهم بالأمن والسلام والعزة والتمكن بعد ما كانوا أذلاء مستضعفين بأيدي آل فرعون يذبحون أبناءهم يستحيون نساءهم، وقد كانت القصة تدل بالالتزام، ومطلع السورة يؤيده، على وعد جميل للمؤمنين أن الله سبحانه سينجيهم مما هم عليه من الفتنة والشدة والعسرة ويظهر دينهم على الدين كله ويمكنهم في الأرض بعد ما كانوا لا سماء تظلهم ولا أرض تقلهم.

د. ثم ذكر بعد الفراغ من القصة أن من الواجب في الحكمة أن ينزل كتابا يهدي الناس إلى الحق تذكرة وإتماما للحجة ليتقوا بذلك من عذاب الله كما نزله على موسى بعد ما أهلك القرون الأولى وكما نزل على النبي ﷺ وإن كذبوا به عنادا للحق وإيثارا للدنيا على الآخرة.

هـ. وهذا السياق يرجي السامع أنه تعالى سيتعرض صريحا لما أشار إليه في سرد القصة تلويحا فإذا سمع قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾ لم يلبث دون أن يفهم أنه هو الوعد الجميل الذي كان يترقبه وخاصة مع الابتداء بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ وقد قدم تنظير التوراة بالقرآن وقد كان ما قصه في إنجاء بني إسرائيل مقدمة لنزول التوراة حتى يكونوا بالأخذ بها والعمل بها أئمة ويكونوا هم الوارثين.

و. فمعنى الآية: إن الذي فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس وتبلغه وتعملوا به سيردك ويصيرك إلى محل تكون هذه الصيرورة منك إليه عودا ويكون هو معادا لك كما فرض التوراة على موسى ورفع به قدره وقدر قومه، ومن المعلوم أنه ﷺ كان بمكة على ما فيها من الشدة والفتنة ثم هاجر منها ثم عاد إليها فاتحا مظفرا وثبتت قواعد دينه واستحكمت أركان ملته وكسرت الأصنام وانهدم بنيان الشرك والمؤمنون هم الوارثون للأرض بعد ما كانوا أذلاء معذبين.

ز. وفي تنكير قوله: ﴿مَعادٍ﴾ إشارة إلى عظمة قدر هذا العود وأنه لا يقاس إلى ما قبله من القطون بها والتاريخ يصدقه.

٣. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾:

أ. يؤيد ما قدمنا من المعنى فإنه يحاذي قول موسى عليه السلام، لما كذبوه ورموا آياته البينات بأنها

سحر مفترى ـ: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فأمر النبي ﷺ أن يقول للفراعنة من مشركي قومه لما كذبوه ورموه بالسحر ما قال موسى لآل فرعون لما كذبوه ورموه بالسحر للتشابه التام بين مبعثيهما وسير دعوتهما كما يظهر من القصة ويظهر ذلك تمام الظهور بالتأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ [المزمل: ١٥]

ب. ولعل الاكتفاء بالشطر الأول من قول موسى عليه السلام والسكوت عن الشطر الثاني أعني قوله: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ﴾ لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدى حد الإشارة والإيماء كما يستشم من سياق قوله: ﴿لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾ أيضا حيث خص الخطاب بالنبي ﷺ ونكر معادا.

ج. وكيف كان فالمراد بقوله: ﴿مَنْ جاءَ بِالْهُدى﴾ النبي ﷺ نفسه وبقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ المشركون من قومه، واختلاف سياق الجملتين، حيث قيل في جانبه ﷺ: ﴿مَنْ جاءَ بِالْهُدى﴾ وفي جانبهم: ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ فقوبل بين ضلالهم وبين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم واهتدائه، لكون تكذيبهم متوجها بالطبع إلى ما جاء به لا إلى نفسه.

د. وقد ذكروا في قوله: ﴿أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى﴾ أن ﴿مَنْ﴾ منصوب بفعل مقدر يدل عليه ﴿أَعْلَمُ﴾ والتقدير يعلم من جاء به بناء على ما هو المشهور أن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به، وذكر بعضهم أنه منصوب بأعلم وهو بمعنى عالم ولا دليل عليه، وما أذكر قائلا بأنه منصوب بنزع الخافض وإن لم يظهر فيه النصب لبنائه والتقدير ربي أعلم بمن جاء بالهدى، ولا دليل على منعه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾ قال: إلى مكة، زاد ابن مردويه كما أخرجك منها.

• أقول: وروي عنه وعن أبي سعيد الخدري: أن المراد به الموت، وأيضا عن علي عن النبي ﷺ: أن المراد به الجنة وانطباقهما على الآية لا يخلو من خفاء.

ب. وروى القمي في تفسيره، عن حريز عن أبي جعفر عليه السلام وعن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليه السلام: أن المراد به الرجعة ولعله من البطن دون التفسير.

٣٨. الكتاب رحمة من الله والنهي عن مناصرة الكافرين:

المقطع [٣٨] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٨٩»:

١. ﴿وما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ﴾:

أ. صدر الآية تقرير للوعد الذي في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾ أي أنه سيردك إلى معاد، وما كنت ترجوه كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه..

ب. وقيل: تذكرة استينافية لنعمته تعالى عليه ﷺ وهذا وجه وجيه وتقريره أنه تعالى لما وعده بالرد إلى معاد وفيه ارتفاع ذكره وتقدم دعوته وانبساط دينه خط له السبيل التي يجب عليه سلوكها بجهد ومراقبة فبين له أن إلقاء الكتاب إليه لم يكن على نهج الحوادث العادية التي من شأنها أن ترتجى وتترقب بل كانت رحمة خاصة من ربه وقد وعده في فرضه عليه ما وعده فمن الواجب عليه قبال هذه النعمة وفي تقدم دعوته وبلوغها الغاية التي وعدها أن لا ينصر الكافرين ولا يطيعهم ويدعو إلى ربه ولا يكون من المشركين ولا يدعو معه إلها آخر.

٢. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ استثناء منقطع أي لكنه ألقى إليك رحمة من ربك وليس بإلقاء عادي يرجى مثله.

٣. ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي فإذا كان إلقاؤه إليك رحمة من ربك خصك بها وهو فوق رجائك فتبرء من الكافرين ولا تكن معينا وناصرا لهم.

ب. ومن المحتمل قريبا أن يكون في الجملة نوع محاذاة لقول موسى عليه السلام، لما قتل القبطي: ﴿رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وعلى هذا يكون في النهي عن إعانتهم إشارة إلى أن إلقاء الكتاب إليه ﷺ نعمة أنعمها الله عليه يهدي به إلى الحق ويدعو إلى التوحيد فعليه أن لا يعين الكافرين على كفرهم ولا يميل إلى صدهم إياه عن آيات الله بعد نزولها عليه كما عاهد موسى عليه السلام ربه بما أنعم عليه من الحكم والعلم أن لا يكون ظهيرا للمجرمين أبدا، وسيأتي أن قوله: ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ﴾، بمنزلة

الشارح لهذه الجملة.

٣٩. النهي عن الصد عن آيات الله والدعوة إلى التوحيد:

المقطع [٣٩] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٩٠»:

أ. نهي له ﷺ على الانصراف عن آيات الله بلسان نهي الكفار عن الصد والصرف ووجهه كون انصرافه مسببا لصدهم وهو كقوله لآدم وزوجه: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي لا تخرجا منها بإخراجه لكما بالوسوسة.

ب. والظاهر أن الآية وما بعدها في مقام الشرح لقوله: ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ﴾ وفائدته تأكيد النهي بعد موارده واحدا بعد واحد فنهاه أولا عن الانصراف عن القرآن النازل عليه برميهم كتاب الله بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين اكتتبها، وأمره ثانيا أن يدعو إلى ربه، ونهاه ثالثا أن يكون من المشركين وفسره بأن يدعو مع الله إلها آخر.

ج. وقد كرر صفة الرب مضافا إليه ﷺ للدلالة على اختصاصه بالرحمة والنعمة وأنه ﷺ متفرد في عبادته لا يشاركه المشركون فيها.

٤٠. التوحيد الخالص وكل شيء هالك إلا وجه الله:

المقطع [٤٠] من سورة القصص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٩٠»:

١. ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ قد تقدم أنه كالتفسير لقوله: ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

٢. ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كلمة الإخلاص في مقام التعليل لقوله قبله: ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ أي لأنه لا إله غيره وما بعدها في مقام التعليل بالنسبة إليها كما سيتضح.

٣. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من

المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وبيان المراد بالوجه]، خلاصته:

أ. بيان أن (الشيء) في الآية يساوي الموجود، والهلاك هو البطلان والانعدام، وأن المراد بـ (الوجه) هو ما يستقبل به الله خلقه من صفاته وأفعاله وآياته.

ب. إثبات أن الحقيقة الثابتة غير الهالكة من الأشياء هي صفات الله الكريمة وآياته الدالة عليها، والجميع ثابت بثبات الذات المقدسة.

ج. توضيح أن الهلاك في الآية قد يراد به الهلاك بالفعل، وقد يراد به استقبال الهلاك والفناء، وعلى كل تقدير فإن وجه الله هو الباقي الثابت.

د. بيان أن المراد بـ (الوجه) قد يكون الذات المقدسة لله، وقد يكون صفاته الكريمة، وقد يكون الدين الحق أو الأعمال الصالحة التي يتوجه بها إلى الله.

هـ. الرد على الاعتراضات الواردة على عموم الآية بمثل الجنة والنار والعرش، وبيان أن الهلاك المراد هو تبدل النشأة والرجوع إلى الله، لا البطلان المطلق.

و. عرض الروايات الواردة في تفسير الآية، وبيان أن المراد بـ (الوجه) هو ما يؤتى منه، أي الدين الحق والطريق الموصل إلى الله.

٤. ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. الحكم هو قضاؤه النافذ في الأشياء وعليه يدور التدبير في نظام الكون، وأما كونه بمعنى فصل القضاء يوم القيامة فيبعده تقديم الحكم في الذكر على الرجوع إليه الذي هو يوم القيامة فإن فصل القضاء متفرع عليه.

ب. وكلتا الجملتين مسوقتان للتعليل وكل واحدة منهما وحدها حجة تامة على توحده، تعالى بالألوهية صالحة للتعليل كلمة الإخلاص، وقد تقدم إمكان أخذ الحكم على بعض الوجوه بمعنى الحكم التشريعي.

سورة العنكبوت

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. يلوح من سياق آيات السورة وخاصة ما في صدرها من الآيات أن بعضاً ممن آمن بالنبي ﷺ بمكة قبل الهجرة رجع عنه خوفاً من فتنة كانت تهدده من قبل المشركين، فإن المشركين كانوا يدعونهم إلى العود إلى ملتهم ويضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم، فإن أبوا فتنوهم وعذبوهم ليعيدوهم إلى ملتهم، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ﴾ الآية.

ب. وكان في هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهدة من والديه على أن يرجع، وإلحاح منهما عليه في الارتداد، كبعض أبناء المشركين على ما يستشم من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ الآية، وقد نزلت السورة في شأن هؤلاء.

ج. فغرض السورة على ما يستفاد من بدئها وختامها والسياق الجاري فيها، أن الذي يريده الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾، بل هو حقيقة الإيمان التي لا تحركها عواصف الفتن ولا تغيرها غير الزمن، وهي إنما تتثبت وتستقر بتوارد الفتن وتراكم المحن، فالناس غير متروكين بمجرد أن يقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ دون أن يفتنوا ويمتحنوا فيظهر ما في نفوسهم من حقيقة الإيمان أو وصمة الكفر، فليعلمن الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

د. فالفتنة والمحنة سنة إلهية لا معدل عنها، تجري في الناس الحاضرين كما جرت في الأمم الماضين كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم ولوط وشعيب وموسى، فاستقام منهم من استقام، وهلك منهم من هلك، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

هـ. فعلى من يقول: آمنت بالله، أن يصبر على إيمانه ويعبد الله وحده، فإن تعذر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر إلى أرض يستطيع فيها ذلك، فأرض الله واسعة، ولا يخف عسر المعاش فإن الرزق على الله،

وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياه.

و. وأما المشركون الذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلا أن يقولوا ربنا الله، فلا يحسبوا أنهم يعجزون الله ويسبقونه، فأما فتنتهم للمؤمنين وإيذاؤهم وتعذيبهم فإنما هي فتنة لهم وللمؤمنين، غير خارجة عن علم الله وتقديره، فهي فتنة وهي محفوظة عليهم، إن شاء أخذهم بوبالها في الدنيا، وإن شاء أخرهم إلى يوم يرجعون فيه إليه وما لهم من محيص.

ز. وأما ما لفقوه من الحجة وركنوا إليه من باطل القول فهو داحض مردود إليهم، والحجة قائمة تامة عليهم.

ح. فهذا محصل غرض السورة، ومقتضى ذلك كون السورة كلها مكية، وقول القائل: إنها مدنية كلها أو معظمها أو بعضها ـ وسيجيء في البحث الروائي التالي ـ غير سديد، فمضامين آيات السورة لا تلائم إلا زمن العسرة والشدة قبل الهجرة.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وفيها تقرير سنة الله في ابتلاء المؤمنين وامتحانهم ليعلم الله الذين صبروا والذين يجادلون عن الحق، وبيان أن الابتلاء من سنن الله الماضية مع كل من آمن، وأن الله لا يترك عباده المؤمنين بمجرد أن يقولوا آمنا حتى يمتحنهم ليتبين الصادق من الكاذب.

٢. الآيات [١٤ ـ ٤٠]:

أ. لما ذكر سبحانه في صدر السورة أن الفتنة سنة إلهية لا معدل عنها، وقد جرت في الأمم السابقة، عقب ذلك بالإشارة إلى قصص سبعة من الأنبياء الماضين وأممهم وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وهود، وصالح، وموسى عليه السلام، فتنهم الله وامتحنهم، فنجا منهم من نجا وهلك منهم من هلك.

ب. وقد ذكر سبحانه في الثلاثة الأول النجاة والهلاك معاً، وفي الأربعة الأخيرة الهلاك فحسب.

٣. الآيات [٤١ ـ ٥٥]:

أ. تتضمن الآيات تذييلاً لقصص أولئك الأمم الماضية الهالكة بمثل ضربه الله سبحانه لاتخاذهم أولياء من دون الله، فبين فيه أن بناءهم ذلك أوهن البناء، ينادي ببطلانه وفساده خلق السماوات والأرض، وأنهم ليس لهم من دونه من ولي كما يذكره هذا الكتاب.

ب. ومن هنا ينتقل إلى أمر النبي ﷺ بتلاوة هذا الكتاب الذي أوحي إليه، وإقامة الصلاة، ودعوة أهل الكتاب بقول لين ومجادلة حسناء، ويجيب عن اقتراح المشركين على النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات غير القرآن وأن يعجلهم بالعذاب الذي ينذرهم به.

٤. الآيات [٥٦ ـ ٦٠]:

أ. لما استفرغ الكلام في توبيخ من ارتد عن دينه من المؤمنين خوف الفتنة، عطف الكلام على بقية المؤمنين ممن استضعفه المشركون بمكة وكانوا يهددونهم بالفتنة والعذاب.

ب. فأمرهم أن يصبروا ويتوكلوا على ربهم، وأن يهاجروا منها إن أشكل عليهم أمر الدين وإقامة فرائضه، وأن لا يخافوا أمر الرزق، فإن الرزق على الله سبحانه وهو يرزقهم إن ارتحلوا وهاجروا كما كان يرزقهم في مقامهم.

٥. الآيات [٦١ ـ ٦٩]:

أ. الآيات تصرف الخطاب عن المؤمنين إلى النبي ﷺ، وهو في المعنى خطاب عام يشمل الجميع وإن كان في اللفظ خاصاً به ﷺ، لأن الحجج المذكورة فيها مما يناله الجميع.

ب. والآيات تذكر مناقضات في آراء المشركين فيما ألقي في الفصل السابق على المؤمنين فآمنوا به، فإنهم يعترفون أن خالق السماوات والأرض ومدبر الشمس والقمر ـ وعليهما مدار الأرزاق ـ هو الله، وأن منزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها هو الله سبحانه، ثم يدعون غيره ليرزقهم، وهم يعبدونه تعالى إذا ركبوا البحر، ثم إذا أنجاهم عبدوا غيره، ويقيمون في حرم آمن وهو نعمة لهم، فيؤمنون بالباطل ويجحدون الحق ويكفرون بنعمة الله.

ج. وما ختمت به السورة من قوله: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ يلائم ما في مفتتح السورة: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾، إلى أن قال: ﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ إلخ.

١. الابتلاء يميز الصادق من الكاذب:

المقطع [١] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

[العنكبوت: ٢-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٩٩»:

١. ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾:

أ. الحسبان هو الظن، وجملة ﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾ قائمة مقام مفعوليه، وقوله: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ بتقدير باء السببية، والفتنة الامتحان وربما تطلق على المصيبة والعذاب، والأوفق للسياق هو المعنى الأول، والاستفهام للإنكار.

ب. والمعنى: أظن الناس أن يتركوا فلا يتعرض لحالهم ولا يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم في دعوى الإيمان بمجرد قولهم: آمنا؟

ج. وقيل: المعنى: أظن الناس أن يتركوا فلا يبتلوا ببلية ولا تصيبهم مصيبة لقولهم: آمنا بأن تكون لهم على الله كرامة بسبب الإيمان يسلموا بها من كل مكروه يصيب الإنسان مدى حياته؟ ولا يخلو من بعد بالنظر إلى سياق الآيات.

٢. ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ﴾:

أ. اللامان للقسم، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ حال من الناس في قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ أو من ضمير الجمع في قوله: ﴿لا يُفْتَنُونَ﴾ وعلى الأول فالإنكار والتوبيخ متوجه إلى ظنهم أنهم لا يفتنون مع جريان السنة الإلهية على الفتنة والامتحان وعلى الثاني إلى ظنهم الاختلاف في فعله تعالى حيث يفتن قوما ولا يفتن آخرين، ولعل الوجه الأول أوفق للسياق.

ب. فالظاهر أن المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أن الفتنة والامتحان سنة جارية لنا وقد جرت في الذين من قبلهم وهي جارية فيهم ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٣. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾:

أ. تعليل لما قبله، والمراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا بالكاذبين ظهور آثار صدقهم وكذبهم في مقام العمل بسبب الفتنة والامتحان الملازم لثبوت الإيمان في قلوبهم حقيقة وعدم ثبوته فيها حقيقة فإن السعادة التي تترتب على الإيمان المدعو إليه وكذا الثواب إنما تترتب على حقيقة الإيمان الذي له آثار ظاهرة من الصبر عند المكاره والصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله لا على دعوى الإيمان المجردة.

ب. ويمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعلي الذي هو نفس الأمر الخارجي فإن الأمور

الخارجية بنفسها من مراتب علمه تعالى، وأما علمه تعالى الذاتي فلا يتوقف على الامتحان البتة.

ج. والمعنى: أحسبوا أن يتركوا ولا يفتنوا بمجرد دعوى الإيمان وإظهاره والحال أن الفتنة سنتنا وقد جرت في الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء وآثار كذب أولئك الملازم لاستقرار الإيمان في قلوب هؤلاء وزوال صورته الكاذبة عن قلوب أولئك.

د. والالتفات في قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ﴾ إلى اسم الجلالة قيل: للتهويل وتربية المهابة والظاهر أنه في أمثال المقام لإفادة نوع من التعليل وذلك أن الدعوة إلى الإيمان والهداية إليه والثواب عليه لما كانت راجعة إلى المسمى بالله الذي منه يبدأ كل شيء وبه يقوم كل شيء وإليه ينتهي كل شيء بحقيقته فمن الواجب أن يتميز عنده حقيقة الإيمان من دعواه الخالية ويخرج عن حال الإبهام إلى حال الصراحة ولذلك عدل عن مثل قولنا: فلنعلمن إلى قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس وأيضا ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قالا: نزلت سورة العنكبوت بمكة.

• أقول: وقد نقل في روح المعاني، عن البحر عن ابن عباس أن السورة مدنية.

ب. وفي المجمع قيل: نزلت الآية يعني قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ في عمار بن ياسر، وكان يعذب في الله، عن ابن جريج.

ج. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي: في قوله: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ الآية، قال: أنزلت في أناس بمكة قد أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة، لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا، قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون، فردوهم فنزلت فيهم هذه الآية، فكتبوا إليهم أنه نزل فيكم آية كذا وكذا، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فأتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

د. وفي الكافي، عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال: سمعت أبا الحسن

عليه السلام يقول: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا، وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ ثم قال لي: ما الفتنة؟ قلت: جعلت فداك الفتنة في الدين، فقال: (يفتنون كما يفتن الذهب، ثم قال: يخلصون كما يخلص الذهب.

هـ. وفي المجمع قيل: إن معنى يفتنون يبتلون في أنفسهم وأموالهم: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

و. وفيه في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ وفي تفسير الكلبي أنه لما نزلت هذه الآية، قام النبي ﷺ فتوضأ وأسبغ وضوءه، ثم قام وصلى فأحسن صلاته، ثم سأل الله سبحانه أن لا يبعث عذابا من فوقهم، أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيعا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فنزل جبرئيل ولم يجرهم من الخصلتين الأخيرتين، فقال ﷺ: يا جبرئيل ما بقاء أمتي مع قتل بعضهم بعضا؟ فقام وعاد إلى الدعاء فنزل: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ الآيتان، فقال: لا بد من فتنة يبتلى بها الأمة، بعد نبيها ليتعين الصادق من الكاذب، لأن الوحي انقطع وبقي السيف، وافتراق الكلمة إلى يوم القيامة.

ز. وفي نهج البلاغة: وقام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله ﷺ عنها؟ فقال عليه السلام: لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فقلت: يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها؟ فقال: يا علي إن أمتي سيفتنون من بعدي.

٢. السبق والحكم والسيئات:

المقطع [٢] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٠١»:

١. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾:

أ. أم منقطعة، والمراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ المشركون الذين كانوا يفتنون المؤمنين ويصدونهم عن سبيل الله كما أن المراد بالناس في قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ هم الذين قالوا: آمنا وهم في معرض الرجوع عن الإيمان خوفا من الفتنة والتعذيب.

ب. والمراد بقوله: ﴿أَنْ يَسْبِقُونا﴾ الغلبة والتعجيز بسبب فتنة المؤمنين وصدهم عن سبيل الله، على ما يعطيه السياق.

٢. ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾:

أ. تخطئة لظنهم أنهم يسبقون الله بما يمكرون من فتنة وصد فإن ذلك بعينه فتنة من الله لهم أنفسهم وصد لهم عن سبيل السعادة ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

ب. وقيل: مفاد الآية توبيخ العصاة من المؤمنين وهم المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾ والمراد بالسيئات المعاصي التي يقترفونها غير الشرك، وأنت خبير بأن السياق لا يساعد عليه.

ج. وقيل: المراد بعمل السيئات أعم من الشرك واقتراف سائر المعاصي فالآية عامة لا موجب لتخصيصها بخصوص الشرك أو بخصوص سائر المعاصي دون الشرك.

• وفيه أن اعتبار الآية من حيث وقوعها في سياق خاص من السياقات أمر واعتبارها مستقلة في نفسها أمر آخر والذي يقتضيه الاعتبار الأول وهو العمدة بالنظر إلى غرض السورة هو ما قدمناه من المعنى، وأما الاعتبار الثاني: فمقتضاه العموم ولا ضير فيه على ذلك التقدير.

٣. لقاء الله غاية المجاهدين:

المقطع [٣] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٠٢»:

١. ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إلى تمام ثلاث آيات:

أ. لما وبخ سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الإيمان ورجوعهم عنه بأي فتنة وإيذاء من المشركين ووبخ المشركين على فتنتهم وإيذائهم المؤمنين وصدهم عن سبيل الله إرادة لإطفاء نور الله وتعجيزا له فيما شاء وخطأ الفريقين فيما ظنوا، رجع إلى بيان الحق الذي لا معدل عنه والواجب الذي لا مخلص منه، فبين في هذه الآيات الثلاث أن من يؤمن بالله لتوقع الرجوع إليه ولقائه فليعلم أنه آت لا محالة وأن الله سميع لأقواله عليم بأحواله وأعماله فليأخذ حذره وليؤمن حق الإيمان الذي لا يصرفه عنه فتنة ولا إيذاء وليجاهد في الله حق جهاده، وليعلم أن الذي ينتفع بجهاده هو نفسه ولا حاجة لله سبحانه إلى إيمانه ولا إلى غيره من العالمين وليعلم أنه إن آمن وعمل صالحا فإن الله سيكفر عنه سيئاته ويجزيه بأحسن أعماله،

والعلمان الأخيران يؤكدان العلم الأول ويستوجبان لزومه الإيمان وصبره على الفتن والمحن في جنب الله.

ب. فقوله: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ﴾ رجوع إلى بيان حال من يقول: آمنت فإنه إنما يؤمن لو صدق بعض الصدق لتوقعه الرجوع إلى الله سبحانه يوم القيامة إذ لولا المعاد لغا الدين من أصله، فالمراد بقوله: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ﴾ من كان يؤمن بالله أو من كان يقول: آمنت بالله، فالجملة من قبيل وضع السبب موضع المسبب.

ج. والمراد بلقاء الله وقوف العبد موقفا لا حجاب بينه وبين ربه كما هو الشأن يوم القيامة الذي هو ظرف ظهور الحقائق، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾

د. وقيل: المراد بلقاء الله هو البعث، وقيل: الوصول إلى العاقبة من لقاء ملك الموت والحساب والجزاء، وقيل: المراد ملاقاة جزاء الله من ثواب أو عقاب وقيل: ملاقاة حكمه يوم القيامة، والرجاء على بعض هذه الوجوه بمعنى الخوف، وهذه وجوه مجازية بعيدة لا موجب لها إلا أن يكون من التفسير بلازم المعنى.

٢. ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾:

أ. الأجل هو الغاية التي ينتهي إليها زمان الدين ونحوه وقد يطلق على مجموع ذلك الزمان والغالب في استعماله هو المعنى الأول.

ب. و﴿أَجَلَ اللهِ﴾ هو الغاية التي عينها الله تعالى للقائه، وهو آت لا ريب فيه وقد أكد القول تأكيدا بالغا، ولازم تحتم إتيان هذا الأجل وهو يوم القيامة أن لا يسامح في أمره ولا يستهان بأمر الإيمان بالله حق الإيمان والصبر عليه عند الفتن والمحن من غير رجوع وارتداد، وقد زاد في تأكيد القول بتذييله بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إذ هو تعالى لما كان سميعا لأقوالهم عليما بأحوالهم فلا ينبغي أن يقول القائل: آمنت بالله إلا عن ظهر القلب ومع الصبر على كل فتنة ومحنة.

ج. ومن هنا يظهر أن ذيل الآية: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾، من قبيل وضع السبب موضع المسبب كما كان صدرها: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ﴾ أيضا كذلك، والأصل من قال: آمنت بالله، فليقله مستقيما صابرا عليه مجاهدا في ربه.

٣. ﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾:

أ. المجاهدة والجهاد مبالغة من الجهد بمعنى بذل الطاقة، وفيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم في الله بلزوم الإيمان والصبر على المكاره دونه ليست مما يعود نفعه إلى الله سبحانه حتى لا يهمهم ويلغو بالنسبة إليهم أنفسهم بل إنما يعود نفعه إليهم أنفسهم لغناه تعالى عن العالمين فعليهم أن يلزموا الإيمان ويصبروا على المكاره دونه.

ب. فقوله: ﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ تأكيد لحجة الآية السابقة، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ تعليل لما قبله.

ج. والالتفات من سياق التكلم بالغير إلى اسم الجلالة في الآيتين نظير ما مر من الالتفات في قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ الآية.

٤. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. بيان لعاقبة إيمانهم حق الإيمان المقارن للجهاد ويتبين به أن نفع إيمانهم يعود إليهم لا إلى الله سبحانه وأنه عطية من الله وفضل.

ب. وعلى هذا فالآية لا تخلو من دلالة ما على أن الجهاد في الله هو الإيمان والعمل الصالح فإنها في معنى تبديل قوله في الآية السابقة: ﴿وَمَنْ جاهَدَ﴾ من قوله في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾

ج. وتكفير السيئات هو العفو عنها والأصل في معنى الكفر هو الستر، وقيل: تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيمانا ومعاصيهم السابقة طاعات، وليس بذاك.

د. وجزاؤهم بأحسن الذي كانوا يعملون هو رفع درجتهم إلى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشة في أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءة وخسة فيعاملون في كل واحد من أعمالهم معاملة من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحتسب صلاتهم أحسن الصلاة وإن اشتملت على بعض جهات الرداءة وهكذا.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، عن علي عليه السلام، في حديث طويل: وقد سأله رجل عن آيات من القرآن،

وقوله: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ يعني بقوله: من كان يؤمن بأنه مبعوث، فإن وعد الله لآت من الثواب والعقاب، فاللقاء هاهنا ليس بالرؤية واللقاء هو البعث، فافهم جميع ما في كتاب الله من لقائه فإنه يعني بذلك البعث.

• أقول: مراده عليه السلام نفي الرؤية الحسية والتفسير بلازم المعنى.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ﴾ الآية قال: من أحب لقاء الله جاءه الأجل ﴿وَمَنْ جاهَدَ﴾ نفسه عن اللذات والشهوات والمعاصي ﴿فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً﴾ قال: هما اللذان ولداه.

٤. بر الوالدين وطاعتهما في غير الشرك:

المقطع [٤] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٠٣»:

١. ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ التوصية العهد وهو هاهنا الأمر، وقوله: ﴿حُسْناً﴾ مصدر في معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف والتقدير: ووصينا الإنسان بوالديه توصية حسنة أو ذات حسن أي أمرناه أن يحسن إليهما وهذا مثل قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ أي قولا حسنا أو ذا حسن، ويمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة نحو زيد عدل، وربما وجه بتوجيهات أخر.

٢. ﴿وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾:

أ. تتميم للتوصية بخطاب شفاهي للإنسان بنهيه عن إطاعة والديه إن دعواه إلى الشرك والوجه في ذلك أن التوصية في معنى الأمر فكأنه قيل: وقلنا للإنسان أحسن إلى والديك وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما.

ب. ولم يقل: وأن لا يطيعهما إن جاهداه على أن يشرك إلخ، لما في الخطاب من الصراحة وارتفاع الإبهام ولذلك قال أيضا: ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ بضمير المتكلم وحده فافهمه ويئول معنى الجملة إلى أنا نهيناه عن الشرك طاعة لهما ورفعنا عنه كل إبهام.

ج. وفي قوله: ﴿ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ إشارة إلى علة النهي عن الطاعة فإن دعوتهما إلى الشرك بعبادة إله من دون الله دعوة إلى الجهل وعبادة ما ليس له به علم افتراء على الله وقد نهى الله عن اتباع غير العلم قال: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٨] وبهذه المناسبة ذيلها بقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي سأعلمكم ما معنى أعمالكم ومنها عبادتكم الأصنام وشرككم بالله سبحانه.

د. ومعنى الآية: وعهدنا إلى الإنسان في والديه عهدا حسنا، وأمرناه أن أحسن إلى والديك، وإن بذلا جهدهما أن تشرك بي فلا تطعهما لأنه اتباع ما ليس لك به علم.

هـ. وفي الآية، كما تقدمت الإشارة إليه، توبيخ تعريضي لبعض من كان قد آمن ثم رجع عن إيمانه بمجاهدة من والديه.

٥. إدخال المؤمنين الصالحين في زمرة الصالحين:

المقطع [٥] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٠٤»:

١. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾:

أ. معنى الآية ظاهر، وفي وقوعها بعد الآية السابقة وفي سياقها، دلالة على وعد جميل منه تعالى وتطييب نفس لمن ابتلي من المؤمنين بوالدين مشركين يجاهدانه على الشرك فعصاهما وفارقهما، يقول سبحانه: إن جاهداه على الشرك فعصاهما وهجرهما ففاتاه لم يكن بذلك بأس فإنا سنرزقه خيرا منهما وندخله بإيمانه وعمله الصالح في الصالحين وهم العباد المنعمون في الجنة، قال تعالى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٣٠]

ب. وأما إرادة المجتمع الصالح في الدنيا فبعيد من السياق.

٦. معرفة الله للمؤمنين والمنافقين وما في الصدور:

المقطع [٦] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٠٥»:

١. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ﴾ لما كان إيمان هؤلاء مقيدا بالعافية والسلامة مغيى بالإيذاء والابتلاء لم يعده إيمانا بقول مطلق ولم يقل: ومن الناس من يؤمن بالله بل قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ فالآية بوجه نظيرة قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١]

٢. ﴿فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ﴾:

أ. أي أوذي لأجل الإيمان بالله بناء على أن في للسببية كما قيل وفيه عناية كلامية لطيفة بجعله تعالى، أي جعل الإيمان بالله، ظرفا للإيذاء ولمن يقع عليه الإيذاء ليفيد أن الإيذاء منتسب إليه تعالى انتساب المظروف إلى ظرفه وينطبق على معنى السببية والغرضية ونظيره قوله: ﴿يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا﴾ [العنكبوت: ٦٩]

ب. وقيل: معنى الإيذاء في الله هو الإيذاء في سبيل الله وكأنه مبني على تقدير مضاف محذوف.

• وفيه أن العناية الكلامية مختلفة فالإيذاء في الله ما كان السبب فيه محض الإيمان بالله وهو قولهم: ربنا الله، والإيذاء في سبيل الله ما كان سببه سلوك السبيل التي هي الدين قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ [آل عمران: ١٩٥] ومن الشاهد على تغاير الاعتبارين قوله في آخر السورة: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ حيث جعل الجهاد في الله طريقا إلى الاهتداء إلى سبله ولو كانا بمعنى واحد لم يصح ذلك.

٣. ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ﴾ أي نزل العذاب والإيذاء الذي يصيبه من الناس في وجوب التحرز منه منزلة عذاب الله الذي يجب أن يتحرز منه فرجع عن الإيمان إلى الشرك خوفا وجزعا من فتنتهم مع أن عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاة أو موت ولا يقاس ذلك بعذاب الله العظيم المؤبد الذي يستتبع الهلاك الدائم.

٤. ﴿وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾:

أ. أي لئن أتاكم من قبله تعالى ما فيه فرج ويسر لكم من بعد ما أنتم فيه من الشدة والعسرة من قبل أعداء الله ليقولن هؤلاء إنا كنا معكم فلنا منه نصيب.

ب. و﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضم اللام صيغة جمع، والضمير راجع إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار المعنى كما أن ضمائر

الإفراد الأخر راجعة إليها باعتبار اللفظ.

٥. ﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ﴾:

أ. استفهام إنكاري فيه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن الله أعلم بما في الصدور ولا تنطوي قلوب هؤلاء على إيمان.

ب. والمراد بالعالمين الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفة من أولي العقل إنسانا كان أو غيره كالجن والملك، ولو كان المراد به جميع المخلوقات من ذوي الشعور وغيرهم كان المراد بالصدور البواطن وهو بعيد.

٦. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ﴾:

أ. من تتمة الكلام في الآية السابقة والمحصل أن الله مع ذلك يميز بين المؤمنين والمنافقين بالفتنة والامتحان.

ب. وفي الآية إشارة إلى كون هؤلاء منافقين وذلك لكون إيمانهم مقيدا بعدم الفتنة وهم يظهرونه مطلقا غير مقيد والفتنة سنة إلهية جارية لا معدل عنها.

ج. وقد استدل بالآيتين على أن السورة أو خصوص هذه الآيات مدنية وذلك أن الآية تحدث عن النفاق والنفاق إنما ظهر بالمدينة بعد الهجرة وأما مكة قبل الهجرة فلم يكن للإسلام فيها شوكة ولا للمسلمين فيها إلا الذلة والإهانة والشدة والفتنة ولا للنبي ﷺ في المجتمع العربي يومئذ وخاصة عند قريش عزة ولا منزلة فلم يكن لأحد منهم داع يدعوه إلى أن يتظاهر بالإيمان وهو ينوي الكفر، على أن قوله في الآية: ﴿وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ يخبر عن النصر وهو الفتح والغنيمة وقد كان ذلك بالمدينة دون مكة، ونظير الآيتين قوله السابق: ﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ ضرورة إن الجهاد والقتال إنما كان بالمدينة بعد الهجرة.

- وهو سخيف:

- أما حديث النفاق فالذي جعل في الآية ملاكا للنفاق وهو قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ حتى إذا أوذوا في الله راجعوا عن قولهم كان جائز التحقق في مكة كما في غيرها وهو ظاهر بل الذي ذكر من الإيذاء والفتنة إنما كان بمكة فلم تكن في المدينة بعد الهجرة فتنة.

● وأما حديث النصر فالنصر غير منحصر في الفتح والغنيمة فله مصاديق أخر يفرج الله بها عن عباده، على أن الآية لا تخبر عنه بما يدل على التحقق فقوله: ﴿فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ يدل على تحقق الإيذاء والفتنة حيث عبر بإذا الدالة على تحقق الوقوع بخلاف مجيء النصر حيث عبر عنه بأن الشرطية الدالة على إمكان الوقوع دون تحققه.

● وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جاهَدَ﴾ فقد اتضح مما تقدم أن المراد به جهاد النفس دون مقاتلة الكفار فالحق أن لا دلالة في شيء من الآيات على كون السورة أو بعضها مدنية.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن قتادة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ﴾ قال هذه الآيات نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة، وهذه الآيات العشر مدنية.

ب. أخرج ابن جرير عن الضحاك: في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ قال: ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أوذوا وأصابهم بلاء من المشركين، رجعوا إلى الكفر والشرك مخافة من يؤذيهم، وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله.

ج. وفي المجمع: قال الكلبي: نزل قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ الآية، في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنه أسلم فخاف أهل بيته، فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ، فحلفت أمه أسماء بنت مخرمة بن أبي جندل التميمي، أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها، ولا تدخل كنا حتى يرجع إليها، فلما رأى ابناها أبو جهل والحارث ابنا هشام، وهما أخوا عياش لأمه، جزعها ركبا في طلبه، حتى أتيا المدينة فلقياه وذكرا له القصة، فلم يزالا به حتى أخذ عليهما المواثيق، أن لا يصرفاه عن دينه وتبعهما، وقد كانت أمه صبرت ثلاثة أيام ثم أكلت وشربت ـ فلما خرجوا من المدينة أخذاه وأوثقاه كتافا، وجلده كل واحد منهما مائة جلدة، حتى برىء من دين محمد جزعا من الضرب، وقال ما لا ينبغي فنزلت الآية، وكان الحارث أشدهما عليه، فحلف عياش لئن قدر عليه خارجا من الحرم ليضربن عنقه ـ. فلما رجعوا إلى مكة مكثوا حينا، ثم هاجر النبي ﷺ والمؤمنون إلى المدينة، وهاجر عياش وحسن إسلامه، وأسلم الحارث بن هشام وهاجر إلى المدينة، وبايع النبي ﷺ على الإسلام ولم يحضر عياش، فلقيه عياش يوما بظهر قبا ولم يشعر بإسلامه، فضرب عنقه فقيل له: إن الرجل قد أسلم فاسترجع عياش وبكى، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بذلك

فنزل: ﴿وما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾ الآية.

• أقول: وأنت ترى اختلاف الروايات في سبب نزول الآيات وقد تقدم أن الذي يعطيه سياق آيات السورة أنها مكية محضة.

٧. تحميل الكفار أوزار اتباعهم وافتراؤهم:

المقطع [٧] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٠٧»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾:

أ. المراد بالذين كفروا مشركو مكة الذين أبدوا الكفر أول مرة بالدعوة الحقة، وبالذين آمنوا المؤمنون بها أول مرة وقولهم لهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾ نوع استمالة لهم وتطييب لنفوسهم أن لو رجعوا إلى الشرك واتبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعة على أي حال: إذ لو لم تكن في ذلك خطيئة فهو، وإن كانت فهم حاملون لها عنهم، ولذلك لم يقولوا: ولنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد.

ب. فكأنهم قالوا: لنفرض أن اتباعكم لسبيلنا خطيئة فإنا نحملها عنكم ونحمل كل ما يتفرع عليه من الخطايا أو أنا نحمل عنكم خطاياكم عامة ومن جملتها هذه الخطيئة.

٢. ﴿وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ رد لقولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾ وهو رد محفوف بحجة إذ لو كان اتباعهم لسبيلهم ورجوعهم عن الإيمان بالله خطيئة كان خطيئة عند الله لاحقة بالراجعين وانتقالها عن عهدتهم إلى غيرهم يحتاج إلى إذن من الله ورضى فهو الذي يؤاخذهم به ويجازيهم وهو سبحانه يصرح ويقول: ﴿ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقد عمم النفي لكل شيء من خطاياهم.

٣. ﴿إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ تكذيب لهم لما أن قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾ يشتمل على دعوى ضمني أن خطاياهم تنتقل إليهم لو احتملوها وأن الله يجيز لهم ذلك.

٤. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾:

أ. من تمام القول السابق في ردهم وهو في محل الاستدراك أي إنهم لا يحملون خطاياهم بعينها فهي لازمة لفاعليها لكنهم حاملون أثقالا وأحمالا من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافا إلى أثقال أنفسهم وأحمالها لما أنهم ضالون مضلون.

ب. فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]

٥. ﴿وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فشركهم افتراء على الله سبحانه وكذا دعواهم القدرة على إنجاز ما وعدوه وأن الله يجيز لهم ذلك.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا، اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾ قال: كان الكفار يقولون للمؤمنين: كونوا معنا، فإن الذي تخافون أنتم ليس بشيء، فإن كان حقا نتحمل عنكم ذنوبكم، فيعذبهم الله عز وجل مرتين: مرة بذنوبهم ومرة بذنوب غيرهم.

ب. أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن ابن الحنفية قال: كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس، إذا جاءوا إلى النبي ﷺ يسلمون يقولون: إنه يحرم الخمر ويحرم الزنا ويحرم ما كانت تصنع العرب، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ أخرج أحمد عن حذيفة قال: سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم، ثم إن رجلا أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي ﷺ: من سن خيرا فاستن به، كان له أجره ومن أجور من تبعه، غير منتقص من أجورهم شيئا، ومن سن شرا فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه، غير منتقص من أوزارهم شيئا.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر وفي بعضها تفسير قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ بذلك.

٨. دعوة نوح والطوفان آية للعالمين:

المقطع [٨] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها

آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤ـ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١١٤»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ﴾:

أ. في المجمع: (الطوفان الماء الكثير الغامر لأنه يطوف بكثرته في نواحي الأرض)، وقيل: هو كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام والغالب استعماله في طوفان الماء.

ب. والتعبير بألف سنة إلا خمسين عاما دون أن يقال: تسعمائة وخمسين سنة للتكثير والآية ظاهرة في أن الألف إلا خمسين مدة دعوة نوح عليه السلام ما بين بعثته إلى أخذ الطوفان فيغاير ما في التوراة الحاضرة أنها مدة عمره عليه السلام وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في قصصه عليه السلام في تفسير سورة هود، والباقي ظاهر.

٢. ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ أي فأنجينا نوحا وأصحاب السفينة الراكبين معه فيها وهم أهله وعدة قليلة من المؤمنين به ولم يكونوا ظالمين.

٣. ﴿وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ الظاهر أن الضمير للواقعة أو للنجاة وأما رجوعه إلى السفينة فلا يخلو من بعد، والعالمين الجماعات الكثيرة المختلفة من الأجيال اللاحقة بهم.

٩. عبادة الله وطلب الرزق منه والبلاغ المبين:

المقطع [٩] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهَّ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٦ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١١٥»:

١. ﴿وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿نُوحاً﴾ أي وأرسلنا إبراهيم إلى قومه.

ب. وقوله لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾ دعوة إلى التوحيد وإنذار بقرينة الآيات التالية فتفيد الجملة فائدة الحصر.

ج. على أن الوثنية لا يعبدون الله سبحانه وإنما يعبدون غيره زعما منهم أنه تعالى لا يمكن أن يعبد إلا من طريق الأسباب الفعالة في العالم المقربة عنده كالملائكة والجن ولو عبد لكان معبودا وحده من غير شريك فدعوتهم إلى عبادة الله بقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تفيد الدعوة إليه وحده وإن لم تقيد بأداة الحصر.

٢. ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾:

أ. الأوثان جمع وثن بفتحتين وهو الصنم، والإفك الأمر المصروف عن وجهه قولا أو فعلا.

ب. ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً﴾ بيان لبطلان عبادة الأوثان ويظهر به كون عبادة الله هي العبادة الحقة وبالجملة انحصار العبادة الحقة فيه تعالى ﴿أَوْثَاناً﴾ منكر للدلالة على وهن أمرها وكون ألوهيتها دعوى مجردة لا حقيقة وراءها، أي لا تعبدون من دون الله إلا أوثانا من أمرها كذا وكذا.

ج. ولذا عقب الجملة بقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ أي وتفتعلون كذبا بتسميتها آلهة وعبادتها بعد ذلك فهناك إله تجب عبادته لكنه هو الله الواحد دون الأوثان.

٣. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾:

أ. تعليل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسمية الأوثان آلهة وعبادتها ومحصله أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله وهم الأوثان بما هم تماثيل المقربين من الملائكة والجن إنما تعبدونهم لجلب النفع وهو أن يرضوا عنكم فيرزقوكم ويدروا عليكم الرزق لكنهم ليسوا يملكون لكم رزقا فإن الله هو الذي يملك رزقكم الذي هو السبب الممد لبقائكم لأنه الذي خلقكم وخلق رزقكم فجعله ممدا لبقائكم والملك تابع للخلق والإيجاد.

ب. ولذلك عقبه بقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي فاطلبوا الرزق من عند الله لأنه هو الذي يملكه فلا تعبدوهم بل اعبدوا الله واشكروا له على ما رزقكم وأنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم.

٤. ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ ولذا جيء بالفصل من غير عطف، وفي هذا التعليل صرفهم عن عبادة الإله ابتغاء للرزق إلى عبادته للرجوع والحساب إذ لولا المعاد لم يكن لعبادة الإله سبب محصل لأن الرزق وما يجري مجراه له أسباب خاصة كونية غير العبادات والقربات ولا يزيد ولا ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادة يوم الحساب تختلف بالإيمان والكفر والعبادة والشكر

وخلافهما فليكن الرجوع إلى الله هو الباعث إلى العبادة والشكر دون ابتغاء الرزق.

٥. ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾:

أ. الظاهر أنه من تمام كلام إبراهيم عليه السلام، وذكر بعضهم أنه خطاب منه تعالى لمشركي قريش ولا يخلو من بعد.

ب. ومعنى الشرط والجزاء في صدر الآية أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنه كالسنة الجارية في الأمم المشركة وقد كذب من قبلكم وأنتم منهم وفي آخرهم وليس علي بها أنا رسول إلا البلاغ المبين.

ج. ويمكن أن يكون المراد أن حالكم في تكذيبكم كحال الأمم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيئا حل بهم عذاب الله ولم يكونوا بمعجزين في الأرض ولا في السماء ولم يكن لهم من دون الله من ولي ولا نصير، فكذلكم أنتم، وقوله: ﴿وَما عَلَى الرَّسُولِ﴾ يناسب الوجهين جميعا.

١٠. قدرة الله على بدء الخلق وإعادته:

المقطع [١٠] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩ـ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١١٦»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾:

أ. هذه الآية إلى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعة في خلال القصة تقيم الحجة على المعاد وترفع استبعادهم له متعلقه بما تقدم من حيث إن العمدة في تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير إليه قول إبراهيم: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾

ب. فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الضمير فيه للمكذبين من جميع الأمم من سابق ولاحق والمراد بالرؤية النظر العلمي دون الرؤية البصرية، وقوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ في موضع المفعول لقوله: ﴿يَرَوْا﴾ بعطف ﴿يُعِيدُهُ﴾ على موضع ﴿يُبْدِئُ﴾ خلافا لمن يرى عطفه على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ والاستفهام للتوبيخ.

ج. والمعنى: أولم يعلموا كيفية الإبداء ثم الإعادة أي إنهما من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن، وقوله: ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ الإشارة فيه إلى الإعادة بعد الإبداء وفيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد

إنشاء وإذ كانت القدرة المطلقة تتعلق بالإيجاد فهي جائزة التعلق بالإنشاء بعد الإنشاء وهي في الحقيقة نقل للخلق من دار إلى دار وإنزال للسائرين إليه في دار القرار.

د. وقول بعضهم: إن المراد بالإبداء ثم الإعادة إنشاء الخلق ثم إعادة أمثالهم بعد إفنائهم غير سديد لعدم ملائمة الاحتجاج على المعاد الذي هو إعادة عين ما فنى دون مثله.

٢. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية إلى تمام ثلاث آيات أمر للنبي ﷺ أن يخاطبهم بما يتم به الحجة عليهم فيرشدهم إلى السير في الأرض لينظروا إلى كيفية بدء الخلق وإنشائهم على اختلاف طبائعهم وتفاوت ألوانهم وأشكالهم من غير مثال سابق وحصر أو تحديد في عدتهم وعدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد في القدرة الإلهية فهو ينشئ النشأة الآخرة كما أنشأ النشأة الأولى فالآية في معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]

١١. العذاب والرحمة واليأس والإعجاز:

المقطع [١١] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢١-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١١٨»:

١. ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾:

أ. من مقول القول، والظاهر أنه بيان لقوله: ﴿يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ وقلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه وجعل باطنه ظاهره وهذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]

ب. وفسروا القلب بالرد قال في المجمع: (والقلب هو الرجوع والرد فمعناه أنكم تردون إلى حال الحياة في الآخرة حيث لا يملك فيه النفع والضر إلا الله) وهذا معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع إلى الله والرد إليه وهو وقوفهم موقفا تنقطع فيه عنهم الأسباب ولا يحكم فيه إلا الله سبحانه فالآية في معنى قوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]

ج. ومحصل المعنى: أن النشأة الآخرة هي نشأة يعذب الله فيها من يشاء وهم المجرمون ويرحم من يشاء وهم غيرهم وإليه تردون فلا يحكم فيكم غيره.

٢. ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾:

أ. من مقول القول وتوصيف لشأنهم يوم القيامة كما أن الآية السابقة توصيف لشأنه تعالى يومئذ.

ب. فقوله: ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ أي أنكم لا تقدرون أن تعجزوه تعالى يومئذ بالفوت منه والخروج من حكمه وسلطانه بالفرار والخروج من ملكه والنفوذ من أقطار الأرض والسماء، فالآية تجري مجرى قوله: ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣]

ج. وقيل: الكلام في معنى (من في السماء) فحذف من لدلالة الكلام عليه والتقدير وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا من في السماء بمعجزين في السماء.

• وهو بعيد ودلالة الكلام عليه غير مسلمة ولو بني عليه لكفى فيه أن الخطاب للأعم من البشر بتغليب جانب البشر المخاطبين على غيرهم من الجن والملك والمعنى: وما أنتم معاشر الخلق بمعجزين في الأرض ولا في السماء.

٣. ﴿وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾:

أ. أي ليس لكم اليوم ولي من دون الله يتولى أمركم فيغنيكم من الله ولا نصير ينصركم فيقوي جانبكم ويتمم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه.

ب. فالآية، كما ترى، تنفي ظهورهم على الله وتعجيزهم له بالخروج والامتناع عن حكمه بأقسامه فلا هم يستقلون بذلك وهو قوله: ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ولا غيرهم يستقل بذلك وهو قوله: ﴿وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍ﴾ ولا المجموع منهم ومن غيرهم يعجزه تعالى وهو قوله: ﴿وَلا نَصِيرٍ﴾

٤. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. خطاب مصروف إلى النبي ﷺ خارج من مقول القول السابق ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ والمطلوب فيه أن ينبئه ﷺ صريح الحق فيمن يشقى ويهلك يوم القيامة فإنه أبهم ذلك في قوله أولا: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ﴾

ب. ومن الدليل عليه الخطاب في ﴿أُولئِكَ﴾ مرتين ولو كان من كلام النبي ﷺ لقيل: (أولئكم)

ج. ويؤيد ذلك أيضا قوله: ﴿مِنْ رَحْمَتِي﴾ فإن الانتقال من مثل قولنا: أولئك يئسوا من رحمة الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام إلى قوله: ﴿أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ يفيد التصديق والاعتراف مضافا إلى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب، ويؤيد ذلك أيضا تكرار الإشارة وما في السياق من التأكيد.

د. وكان في تخصيص النبي ﷺ بهذا الإخبار تقوية لنفسه الشريفة وعزلا لهم عن صلاحية السمع لمثله وهم لا يؤمنون.

هـ. والمراد بآيات الله، على ما يفيده إطلاق اللفظ، جميع الأدلة الدالة على الوحدانية والنبوة والمعاد من الآيات الكونية والمعجزات النبوية ومنها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء وهو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام والوجه فيه الإشارة إلى أهمية الإيمان بالمعاد إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله وهو ظاهر.

و. والمراد بالرحمة ما يقابل العذاب ويلازم الجنة وقد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الرحمة عليها بالملازمة كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الجاثية: ٣٠] وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ [الإنسان: ٣١]

ز. والمراد بإسناد اليأس إليهم إما تلبسهم به حقيقة فإنهم لجحدهم الحياة الآخرة آيسون من السعادة المؤبدة والجنة الخالدة وإما أنه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أن الجنة لا يدخلها كافر.

ح. والمعنى: والذين جحدوا آيات الله الدالة على الدين الحق وخاصة المعاد أولئك يئسوا من الرحمة والجنة وأولئك لهم عذاب أليم.

١٢. إنجاء الله لإبراهيم من النار آية للمؤمنين:

المقطع [١٢] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٢٠»:

١. ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾:

أ. تفريع على قوله في صدر القصة: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾

ب. وظاهر قوله: ﴿قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أن كلا من طرفي الترديد قول طائفة منهم والمراد بالقتل القتل بالسيف ونحوه فهو قولهم أول ما ائتمروا ليجازوه وإن اتفقوا بعد ذلك على إحراقه كما قال ﴿قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨] ويمكن أن يكون الترديد من الجميع لترددهم في أمره أولا ثم اتفاقهم على إحراقه.

٢. ﴿فَأَنْجاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾ فيه حذف وإيجاز وتقديره ثم اتفقوا على إحراقه فأضرموا نارا فألقوه فيها فأنجاه الله منها، وقد فصلت القصة في مواضع من كلامه تعالى.

١٣. الأوثان سبب التفرق والعداوة يوم القيامة:

المقطع [١٣] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٢٠»:

١. ﴿وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾:

أ. إذ كان لا حجة عقلية لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم مما يستنون به إلا الاستنان بسنة من يعظمونه ويحترمون جانبه كالآباء للأبناء والرؤساء المعظمين لأتباعهم والأصدقاء لأصدقائهم وبالأخرة الأمة لأفرادها فهذا السبب الرابط هو عمدة ما يحفظ السنن القومية معمولا بها قائمة على ساقها.

ب. فالاستنان بسنة الوثنية بالحقيقة من آثار الموت الاجتماعية يرى العامة ذلك بعضهم من بعض فتبعثه المودة القومية على تقليده والاستنان به مثله ثم هذا الاستنان نفسه يحفظ المودة القومية ويقيم الاتحاد والاتفاق على ساقه.

ج. هذه حال العامة منهم وأما الخاصة فربما ركنوا في ذلك إلى ما يحسبونه حجة وما هو بحجة كقولهم إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا يتعلق به توجهنا العبادي فمن الواجب أن نتقرب إلى بعض من له به عناية كالملائكة والجن ليقربونا إليه زلفى ويشفعوا لنا عنده.

د. فقوله: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ خطاب منه عليه السلام لعامة قومه في أمر اتخاذهم الأوثان للمودة القومية ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعية، وقد أجابوه

بذلك حيث سألهم عن شأنهم ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ، قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] ﴿قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]

هـ. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ صالح لأن يكون منصوبا بنزع الخافض بتقدير لام التعليل والمودة على هذا سبب مؤد إلى اتخاذ الأوثان، وأن يكون مفعولا له، والمودة غاية مقصودة من اتخاذ الأوثان، لكن ذيل الآية إنما تلائم الوجه الثاني على ما سيظهر.

و. ثم عقب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ﴾، بقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ يبين لهم عاقبة اتخاذهم الأوثان للمودة وهو باطن هذه المودة المقصودة الذي سيظهر يوم تبلى السرائر فإنهم توسلوا إلى هذا المتاع القليل بالشرك الذي هو أعظم الظلم وأكبر الكبائر الموبقة واجتمعوا عليه وتوافقوا لكنهم سيبدو لهم حقيقة عملهم ويلحق بهم وباله فيتبرأ بعضهم من بعض وينكره بعضهم على بعض.

ز. والمراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم وتبريهم منهم، كما قال تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] وقال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وفي معناه: تبري المتبوعين من تابعيهم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] والمراد بلعن بعضهم بعضا لعن كل بعض صاحبه، قال تعالى: ﴿كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها﴾ [الأعراف: ٣٨]

ح. ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ إشارة إلى لحوق الوبال ووقوع الجزاء وهو النار التي فيها الهلاك المؤبد ولا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم العذاب فهم إنما توسلوا إلى المودة ليتناصروا ويتعاونوا ويتعاضدوا في الحياة لكنها عادت يوم القيامة معاداة ومضادة وأورثت تبريا وخذلانا.

٢. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام: في حديث يذكر فيه معاني الكفر قال: والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة قال تعالى: ﴿وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً، مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ، يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ يعني يتبرأ بعضكم من بعض الحديث.

• أقول: ورووي هذا المعنى في التوحيد، عن علي عليه السلام: في حديث طويل يجيب فيه عما سئل عنه، من تهافت الآيات وفيه: والكفر في هذه الآية البراءة، يقول: يتبرأ بعضهم من بعض، ونظيرها في سورة إبراهيم قول الشيطان: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ وقول إبراهيم خليل الرحمن: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي تبرأنا)

١٤. إبراهيم والهجرة وهبة الولد ومعهم النبوة والكتاب:

المقطع [١٤] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٢١»:

١. ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي آمن به لوط والإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء والمعنى واحد.

٢. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾:

أ. قيل الضمير راجع إلى لوط، وقيل: راجع إلى إبراهيم ويؤيده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]

ب. وكأن المراد بالمهاجرة إلى الله هجره وطنه وخروجه من بين قومه المشركين إلى أرض لا يعترضه فيها المشركون ولا يمنعونه من عبادة ربه فعد المهاجرة مهاجرة إلى الله من المجاز العقلي.

٣. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي عزيز لا يذل من نصره حكيم لا يضيع من حفظه.

٤. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ معناه ظاهر.

٥. ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

أ. الأجر هو الجزاء الذي يقابل العمل ويعود إلى عامله والفرق بينه وبين الأجرة أن الأجرة تختص بالجزاء الدنيوي والأجر يعم الدنيا والآخرة، والفرق بينه وبين الجزاء أن الأجر لا يقال إلا في الخير والنافع، والجزاء يعم الخير والشر والنافع والضار.

ب. والغالب في كلامه تعالى استعمال لفظ الأجر في جزاء العمل العبودي الذي أعده الله سبحانه لعباده المؤمنين في الآخرة من مقامات القرب ودرجات الولاية ومنها الجنة، نعم وقع في قوله تعالى حكاية

عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقوله: ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦] إطلاق الأجر على الجزاء الدنيوي الحسن.

ج. فقوله: ﴿وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا﴾ يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجر الدنيوي الحسن والأنسب على هذا أن يكون ﴿فِي الدُّنْيا﴾ متعلقا بالأجر لا بالإيتاء وربما تأيد هذا المعنى بقوله تعالى فيه عليه السلام في موضع آخر: ﴿وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢] فإن الظاهر أن المراد بالحسنة الحياة الحسنة أو العيشة الحسنة وإيتاؤها فعلية إعطائها دون تقديرها وكتابتها.

د. ويمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعد لعامة المؤمنين في الآخرة من مقامات القرب في حقه عليه السلام وإيتاؤه ذلك في الدنيا وقد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم من مقاماته عليه السلام في قصصه من تفسير سورة الأنعام.

٦. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]

١٥. إنكار لوط على قومه واستعجالهم العذاب:

المقطع [١٥] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٢٣»:

١. ﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ﴾ أي وأرسلنا لوطا أو واذكر لوطا إذ قال لقومه، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ﴾ إخبار بداعي الاستعجاب والإنكار، والمراد بالفاحشة إتيان الذكران.

٢. ﴿ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ﴾ استئناف يوضح معنى الفاحشة ويؤكده، وكأن المراد أن هذا العمل لم يشع في قوم قبلهم هذا الشيوع أو الجملة حال من فاعل ﴿لَتَأْتُونَ﴾

٣. ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾:

أ. استفهام من أمر من الحري أن لا يصدقه سامع ولا يقبله ذو لب ولذا أكد بالنون واللام، وهذا السياق يشهد أن المراد بإتيان الرجل اللواط وبقطع السبيل إهمال طريق التناسل وإلغاؤها وهي إتيان النساء، فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء وترك نكاحهن، وبإتيانهم المنكر في ناديهم، والنادي هو المجلس الذي يجتمعون فيه ولا يسمى نادية إلا إذا كان فيه أهله، الإتيان بالفحشاء أو بمقدماتها الشنيعة بمرأى من الجماعة.

ب. وقيل: المراد بقطع السبيل قطع سبيل المارة بديارهم فإنهم كانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالخذف فأيهم أصابه كان أولى به فيأخذون ماله وينكحونه ويغرمونه ثلاثة دراهم وكان لهم قاض يقضي بذلك وقيل: بل كانوا يقطعون الطرق، وقد عرفت أن السياق يقضي بخلاف ذلك.

ج. وقيل: المراد بإتيان المنكر في النادي أن مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المنكرات والقبائح مثل الشتم والسخف والقمار وخذف الأحجار على من مر بهم وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط ونحو ذلك وقد عرفت ما يقتضيه السياق.

٤. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استهزاء وسخرية منهم، ويظهر من جوابهم أنه كان ينذرهم بعذاب الله وقد قال الله في قصته في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]

٥. ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ سؤال للفتح ودعاء منه عليهم، وقد عدهم مفسدين لعملهم الذي يفسد الأرض ويقطع النسل ويهدد الإنسانية بالفناء.

٦. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه عن جابر: أن النبي ﷺ نهى عن الخذف وهو قول الله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى أيضا عن عدة من أصحاب الجوامع عن أم هاني بنت أبي طالب ولفظ الحديث: قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال: كانوا يجلسون بالطريق، فيخذفون ابن السبيل ويسخرون منهم.

١٦. إهلاك قرية لوط وإنجاء من آمن إلا امرأته:

المقطع [١٦] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٢٤»:

١. ﴿وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ﴾ إجمال قصة هلاك قوم لوط، وقد كان ذلك برسل من الملائكة أرسلهم الله أولا إلى إبراهيم عليه السلام فبشروه وبشروا امرأته بإسحاق ويعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط، والقصة مفصلة في سورة هود وغيرها.

٢. ﴿قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي قالوا لإبراهيم، وفي الإتيان بلفظ الإشارة القريبة، هذه القرية، دلالة على قربها من الأرض التي كان إبراهيم عليه السلام نازلا بها، وهي الأرض المقدسة.

٣. ﴿إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم بأنهم ظالمون قد استقرت فيهم رذيلة الظلم، وقد كان مقتضى الظاهر أن يقال: إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمر للإشارة إلى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاك وليس من مطلق الظلم الذي كان الناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل: إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون.

٤. ﴿قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه عليه السلام كان يريد بقوله: ﴿إِنَّ فِيها لُوطاً﴾ أن يصرف العذاب بأن فيها لوطا وإهلاك أهلها يشمله فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشمله العذاب وهم أهله إلا امرأته.

ب. لكنه عليه السلام لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطا وهو نبي مرسل، وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته ولا أنه يخوفه ويزعره ويفزعه بقهره عليهم بل كان عليه السلام يريد بقوله: ﴿إِنَّ فِيها لُوطاً﴾ أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط، فأجيب

بأنهم مأمورون بإنجائه وإخراجه من بين أهل القرية ومعه أهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

ج. والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصة: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ، يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦] فالآيات أظهر ما يكون في أن إبراهيم عليه السلام كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه.

د. فظاهر كلامه عليه السلام في الآية التي نحن فيها الدفاع عن لوط وعلى ذلك جاراه الرسل فأبقوا كلامه على ظاهره وأجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم بمن فيها وعالمون بأن فيها لوطا ومعه أهله ممن لا ينبغي أن يعذب لكنهم سينجونه وأهله إلا امرأته، لكن الذي أراده إبراهيم عليه السلام بكلامه دفع العذاب عن أهل القرية فأجيب بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير إليه آيات سورة هود.

هـ. وللقوم في قوله: ﴿إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ﴾، وقوله: ﴿قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً﴾ مشاجرات طويلة أعرضنا عن التعرض لها لعدم الجدوى، من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

٥. ﴿وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ﴾ ضميرا الجمع في ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ﴾ للرسل والباء للسببية أي أخذته المساءة وهي سوء الحال بسببهم وضاقت طاقته بسببهم لكونهم في صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إياهم بالسوء وضعف لوط من أن يدفعهم عنهم وهم ضيف له نازلون بداره.

٦. ﴿وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ﴾ أي لا خطر محتملا يهددك ولا مقطوعا يقع عليك فإن الخوف إنما هو في المكروه الممكن والحزن في المكروه الواقع.

٧. ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾ أي الباقين في العذاب تعليل لنفي الخوف والحزن.

٨. ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بيان لما يشير إليه قوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ من العذاب، والرجز العذاب.

٩. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

أ. ضمير التأنيث للقرية والترك الإبقاء أي أبقينا من القرية علامة واضحة لقوم يعقلون ليعتبروا

بها فيتقوا الله وهي الآثار الباقية منها بعد خرابها بنزول العذاب.

ب. وهي اليوم مجهولة المحل لا أثر منها وربما يقال: إن الماء غمرها بعد وهي بحر لوط، لكن الآية ظاهرة، كما ترى، أنها كانت ظاهرة معروفة في زمن نزول القرآن وأوضح منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦] وقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٨]

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله عليه السلام: في حديث نزول الملائكة على إبراهيم بالبشرى قال: فقال لهم إبراهيم: لما ذا جئتم؟ قالوا: في إهلاك قوم لوط، فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟ فقال جبرئيل: لا، قال: فإن كان فيها خمسون؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها ثلاثون؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها عشرون؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها عشرة؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها خمسة؟ قال: لا، قال: فإن كان فيها واحد؟ قال: لا، قال: فإن فيها لوطا؟ قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله، إلا امرأته كانت من الغابرين.

ب. قال الحسن بن علي عليه السلام: لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم، وهو قول الله عز وجل: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾

١٧. دعوة شعيب قومه إلى الله وتكذيبهم له:

المقطع [١٧] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٢٦»:

١. ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وهو التوحيد وإلى رجاء اليوم الآخر وهو الاعتقاد بالمعاد وأن لا يفسدوا في الأرض وكانت عمدة إفسادهم فيها، على ما ذكر في قصتهم في مواضع أخر، نقص الميزان والمكيال.

٢. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾:

أ. الرجفة الاضطراب الشديد على ما ذكره الراغب، والجثم والجثوم في المكان القعود فيه أو البروك على الأرض وهو كناية عن الموت والمعنى: فكذبوا شعيبا فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة

فأصبحوا في دارهم ميتين لا حراك بهم.

ب. وقال في قصتهم في موضع آخر: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤] ويستظهر من ذلك أنهم أهلكوا بالصيحة والرجفة.

١٨. عقوبات متنوعة للأمم السابقة جزاء ظلمهم:

المقطع [١٨] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٢٧»:

١. ﴿وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ﴾ غير السياق تفننا فبدأ بذكر عاد وثمود وكذا في الآية التالية بدأ بذكر قارون وفرعون وهامان بخلاف قصص الأمم المذكورين سابقا حيث بدأ بذكر أنبيائهم كنوح وإبراهيم ولوط وشعيب، وقوله: ﴿وَعاداً وَثَمُودَ﴾ منصوبان بفعل مقدر تقديره واذكر عادا وثمود.

٢. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾:

أ. تزيين الشيطان لهم أعمالهم كناية استعارية عن تحبيب أعمالهم السيئة إليهم وتأكيد تعلقهم بها وصده إياهم عن السبيل صرفهم عن سبيل الله التي هي سبيل الفطرة، ولذا قال بعضهم: إن المراد بكونهم مستبصرين أنهم كانوا قبل ذلك على الفطرة الساذجة.

ب. لكن الظاهر كما تقدم في تفسير قوله: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] أن عهد الفطرة الساذجة كان قبل بعثة نوح عليه السلام وعاد وثمود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل هو كونهم يعيشون على عبادة الله ودين التوحيد وهو دين الفطرة.

٣. ﴿وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ﴾ السبق استعارة كنائية من الغلبة، والباقي ظاهر.

٤. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ﴾ أي كل واحدة من الأمم المذكورين أخذناها بذنبها ثم أخذ في التفصيل

فقال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً﴾ والحاصب الحجارة وقيل: الريح التي ترمي بالحصى وعلى الأول فهم قوم لوط، وعلى الثاني قوم عاد ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم قوم ثمود وقوم شعيب ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وهو قارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا﴾ وهم قوم نوح وفرعون وهامان وقومهما.

٥. ثم عاد سبحانه إلى كافة القصص المذكورة وما انتهى إليه أمر تلك الأمم من الأخذ والعذاب فبين ببيان عام أن الذي أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي فيجازيهم الله على ظلمهم لأن الدار دار الفتنة والامتحان وهي السنة الإلهية التي لا معدل عنها فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فعليها.

١٩. وهن من يتخذ أولياء من دون الله وتشبيههم ببيت العنكبوت:

المقطع [١٩] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٣٠»:

١. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾:

أ. العنكبوت معروف ويطلق على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث.

ب. العناية في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، باتخاذ الأولياء من دون الله ولذا جيء بالموصول والصلة كما أن العناية في قوله: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ إلى اتخاذها البيت فيئول المعنى إلى أن صفة المشركين في اتخاذهم من دون الله أولياء كصفة العنكبوت في اتخاذها بيتا له نبأ، وهو الوصف الذي يدل عليه تنكير ﴿بَيْتاً﴾

ج. ويكون قوله: ﴿إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ بيانا لصفة البيت الذي أخذته العنكبوت ولم يقل: إن أوهن البيوت لبيتها كما هو مقتضى الظاهر أخذا للجملة بمنزلة المثل السائر الذي لا يتغير.

د. والمعنى: أن اتخاذهم من دون الله أولياء وهم آلهتهم الذين يتولونهم ويركنون إليهم كاتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلا اسمه لا يدفع حرا ولا بردا ولا يكن شخصا

ولا يقي من مكروه كذلك ليس لولاية أوليائهم إلا الاسم فقط لا ينفعون ولا يضرون ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا.

هـ. ومورد المثل هو اتخاذ المشركين آلهة من دون الله، فتبديل الآلهة من الأولياء لكون السبب الداعي لهم إلى اتخاذ الآلهة زعمهم أن لهم ولاية لأمرهم وتدبيرا لشأنهم من جلب الخير إليهم ودفع الشر عنهم والشفاعة في حقهم.

و. والآية، مضافا إلى إيفاء هذه النكتة، تشمل بإطلاقها كل من اتخذ في أمر من الأمور وشأن من الشئون وليا من دون الله يركن إليه ويراه مستقلا في أثره الذي يرجوه منه وإن لم يعد من الأصنام إلا أن يرجع ولايته إلى ولاية الله كولاية الرسول والأئمة والمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]

٢. ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت ما اتخذوهم أولياء، كذا قيل.

٣. ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. يمكن أن يكون ﴿ما﴾ في ﴿ما يَدْعُونَ﴾ موصولة أو نافية أو استفهامية أو مصدرية و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ على الاحتمال الثاني زائدة للتأكيد وعلى الباقي للتبيين وأرجح الاحتمالات الأولان وأرجحهما أولهما.

ب. والمعنى: على الثاني أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئا أي إن الذي يعبدونه من الآلهة لا حقيقة له فيكون كما قال صاحب الكشاف توكيدا للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئا.

ج. والمعنى: على الأول أن الله يعلم الشيء الذي يدعون من دونه ولا يجهل ذلك فيكون كناية عن أن المثل الذي ضربه في محله، وليس لأوليائهم من الولاية إلا اسمها.

د. ويؤكد هذا المعنى الاسمان الكريمان: العزيز الحكيم في آخر الآية فهو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء فلا يشاركه في تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه في الخلق والإيجاد أحد، الحكيم الذي يأتي بالمتقن من الفعل والتدبير فلا يفوض تدبير خلقه إلى أحد، وهذا كالتمهيد لما سيبين في قوله: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾

٤. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾:

أ. يشير إلى أن الأمثال المضروبة في القرآن على أنها عامة تقرع أسماع عامة الناس، لكن الإشراف على حقيقة معانيها ولب مقاصدها خاصة لأهل العلم ممن يعقل حقائق الأمور ولا ينجمد على ظواهرها.

ب. والدليل على هذا المعنى قوله: ﴿وَما يَعْقِلُها﴾ دون أن يقول: وما يؤمن بها أو ما في معناه.

ج. فالأمثال المضروبة في كلامه تعالى يختلف الناس في تلقيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظ له منها إلا تلقي ألفاظها وتصور مفاهيمها الساذجة من غير تعمق فيها وسبر لأغوارها، ومن سامع يتلقى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يغور في مقاصدها العميقة ويعقل حقائقها الأنيقة.

د. وفيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون الله باتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت ليس مجرد تمثيل شعري ودعوى خالية من البينة بل متك على حجة برهانية وحقيقة حقة ثابتة وهي التي تشير إليه الآية التالية.

٥. ﴿خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. المراد بكون خلق السماوات والأرض بالحق نفي اللعب في خلقها، كما قال تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٩]

ب. فخلق السماوات والأرض على نظام ثابت لا يتغير وسنة إلهية جارية لا تختلف ولا تتخلف، والخلق والتدبير لا يختلفان حقيقة ولا ينفك أحدهما عن الآخر، وإذ كان الخلق والصنع ينتهي إليه تعالى انتهاء ضروريا ولا محيص فالتدبير أيضا له ولا محيص وما من شيء غيره تعالى إلا وهو مخلوقة القائم به المملوك له لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ومن المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنيا في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لا لعب فيه والجد الذي لا هزل فيه، فلما تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولاية حق لكونه لا يملك شيئا بحقيقة معنى الملك بل كان ذلك منه جاريا على اللعب وتفويضه تعالى أمر التدبير إليه لعبا منه تعالى وتقدس إذ ليس إلا فرضا لا حقيقة له ووهما لا واقع له وهو معنى اللعب.

ج. ومنه يظهر أن ولاية من يدعون ولايته ليس لها إلا اسم الولاية من غير مسمى كما أن بيت

العنكبوت كذلك.

٦. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية لهم ولغيرهم لكون المتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم.

٢٠. تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة والنهي عن الفحشاء والمنكر:

المقطع [٢٠] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٣٣»:

١. ﴿اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾:

أ. لما ذكر إجمال قصص الأمم وما انتهى إليه شركهم وارتكابهم الفحشاء والمنكر من الشقاء اللازم والخسران الدائم انتقل من ذلك، مستأنفا للكلام، إلى أمره ﷺ بتلاوة ما أوحي إليه من الكتاب لكونه خير رادع عن الشرك وارتكاب الفحشاء والمنكر بما فيه من الآيات البينات التي تتضمن حججا نيرة على الحق وتشتمل على القصص والعبر والمواعظ والتبشير والإنذار والوعد والوعيد يرتدع بتلاوة آياته تاليه ومن سمعه.

ب. وشفعه بالأمر بإقامة الصلاة التي هي خير العمل وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ والسياق يشهد أن المراد بهذا النهي ردع طبيعة العمل عن الفحشاء والمنكر بنحو الاقتضاء دون العلية التامة.

ج. فلطبيعة هذا التوجه العبادي، إذ أتى به العبد وهو يكرره كل يوم خمس مرات ويداوم عليه وخاصة إذا زاول عليه في مجتمع صالح يؤتى فيه بمثل ما أتى به ويهتم فيه بما اهتم، به أن يردعه عن كل معصية كبيرة يستشنعه الذوق الديني كقتل النفس عدوانا وأكل مال اليتيم ظلما والزنا واللواط، وعن كل ما ينكره الطبع السليم والفطرة المستقيمة ردعا جامعا بين التلقين والعمل.

د. وذلك أنه يلقنه:

• أولا بما فيه من الذكر الإيمان بوحدانيته تعالى والرسالة وجزاء يوم الجزاء وأن يخاطب ربه

بإخلاص العبادة والاستعانة به وسؤال الهداية إلى صراطه المستقيم متعوذا من غضبه ومن الضلال.

• ويحمله ثانيا على أن يتوجه بروحه وبدنه إلى ساحة العظمة والكبرياء ويذكر ربه بحمده والثناء عليه وتسبيحه وتكبيره ثم السلام على نفسه وأترابه وجميع الصالحين من عباد الله.

• مضافا إلى حمله إياه على التطهر من الحدث والخبث في بدنه والطهارة في لباسه والتحرز عن الغصب في لباسه ومكانه واستقبال بيت ربه فالإنسان لو داوم على صلاته مدة يسيرة واستعمل في إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك في نفسه ملكة الارتداع عن الفحشاء والمنكر البتة، ولو أنك وكلت على نفسك من يربيها تربية صالحة تصلح بها لهذا الشأن وتتحلى بأدب العبودية لم يأمرك بأزيد مما تأمرك به الصلاة ولا روضك بأزيد مما تروضك به.

٢. سؤال وإشكال: وقد استشكل على الآية بأنا كثيرا ما نجد من المصلين من لا يبالي ارتكاب الكبائر ولا يرتدع عن المنكرات فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، والجواب:

أ. ولذلك ذكر بعضهم أن الصلاة في الآية بمعنى الدعاء والمراد الدعوة إلى أمر الله والمعنى: أقم الدعوة إلى أمر الله فإن ذلك يردع الناس عن الفحشاء والمنكر، وفيه أنه صرف الكلام عن ظاهره.

ب. وذكر آخرون أن الصلاة في الآية في معنى النكرة والمعنى أن بعض أنواع الصلاة أو أفرادها يوجب الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وهو كذلك وليس المراد الاستغراق حتى يرد الإشكال.

ج. وذكر قوم أن المراد نهيها عن الفحشاء والمنكر ما دامت قائمة والمصلي في صلاته كأنه قيل: إن المصلي ما دام مصليا في شغل من معصية الله بإتيان الفحشاء والمنكر.

د. وقال بعضهم: إن الآية على ظاهرها والصلاة بمنزلة من ينهى ويقول: لا تفعل كذا ولا تقترف كذا لكن النهي لا يستوجب الانتهاء فليس نهي الصلاة بأعظم من نهيه تعالى كما في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النحل: ٩٠] ونهيه تعالى لا يستوجب الانتهاء وليس الإشكال إلا مبنيا على توهم استلزام النهي للانتهاء وهو توهم باطل.

هـ. وعن بعضهم في دفع الإشكال أن الصلاة تقام لذكر الله كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ ومن كان ذاكرا لله تعالى منعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه وكل من تراه يصلي ويأتي بالفحشاء والمنكر فهو بحيث لو لم يصل لكان أشد إتيانا فقد أثرت الصلاة في تقليل فحشائه ومنكره.

و. وأنت خبير بأن شيئا من هذه الأجوبة لا يلائم سياق الحكم والتعليل في الآية:

• فإن الذي يعطيه السياق أن الأمر بإقامة الصلاة إنما علل بقوله: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ ليفيد أن الصلاة عمل عبادي يورث إقامته صفة روحية في الإنسان تكون رادعة له عن الفحشاء والمنكر فتتنزه النفس عن الفحشاء والمنكر وتتطهر عن قذارة الذنوب والآثام.

• فالمراد به التوسل إلى ملكة الارتداع التي هي من آثار طبيعة الصلاة بنحو الاقتضاء لا أنها أثر بعض أفراد طبيعة الصلاة كما في الجواب الثاني، ولا أنها أثر الاشتغال بالصلاة ما دام مشتغلا بها كما في الجواب الثالث، ولا أن المراد هو التوسل إلى تلقي نهي الصلاة فحسب من غير نظر إلى الانتهاء عن نهيها كأنه قيل أقم الصلاة لتسمع نهيها كما في الجواب الرابع، ولا أن المراد أقم الصلاة لينهاك الذكر الذي تشتمل عليه عن الفحشاء والمنكر كما في الجواب الخامس.

• فالحق في الجواب أن الردع أثر طبيعة الصلاة التي هي توجه خاص عبادي إلى الله سبحانه وهو بنحو الاقتضاء دون الاستيجاب والعلية التامة فربما تخلف عن أثرها لمقارنة بعض الموانع التي تضعف الذكر وتقربه من الغفلة والانصراف عن حاق الذكر فكلما قوي الذكر وكمل الحضور والخشوع وتمحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء والمنكر وكلما ضعف ضعف الأثر.

• وأنت إذا تأملت حال بعض من تسمى بالإسلام من الناس وهو تارك الصلاة وجدته يضيع بإضاعة الصلاة فريضة الصوم والحج والزكاة والخمس وعامة الواجبات الدينية ولا يفرق بين طاهر ونجس وحلال وحرام فيذهب لوجهه لا يلوي على شيء ثم إذا قست إليه حال من يأتي بأدنى مراتب الصلاة مما يسقط به التكليف، وجدته مرتدعا عن كثير مما يقترفه تارك الصلاة غير مكترث به ثم إذا قست إليه من هو فوقه في الاهتمام بأمر الصلاة وجدته أكثر ارتداعا منه وعلى هذا القياس.

٣. ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه والذكر يقال اعتبارا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ولذلك قيل: الذكر ذكران ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ، وكل قول يقال له ذكر)

ب. والظاهر أن الأصل في معناه هو المعنى الأول وتسمية اللفظ ذكرا إنما هو لاشتماله على المعنى القلبي والذكر القلبي بالنسبة إلى اللفظي كالأثر المترتب على سببه والغاية المقصودة من الفعل.

ج. والصلاة تسمى ذكرا لاشتمالها على الأذكار القولية من تهليل وتحميد وتنزيه وهي باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنها بمجموعها ممثل لعبودية العبد لله سبحانه كما قال: ﴿إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الجمعة: ٩] وهي باعتبار آخر أمر يترتب عليه الذكر ترتب الغاية على ذي الغاية يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]

د. والذكر الذي هو غاية مترتبة على الصلاة أعني الذكر القلبي بمعنى استحضار المذكور في ظرف الإدراك بعد غيبته نسيانا أو إدامة استحضاره، أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان وأعلاه كعبا وأعظمه قدرا وأثرا فإنه السعادة الأخيرة التي هيئت للإنسان ومفتاح كل خير.

هـ. ثم إن الظاهر من سياق قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ إن قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ متصل به مبين لأثر آخر للصلاة وهو أكبر مما بين قبله، فيقع قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ موقع الإضراب والترقي ويكون المراد الذكر القلبي الذي يترتب على الصلاة ترتب الغاية على ذي الغاية فكأنه قيل: أقم الصلاة لتردعك عن الفحشاء والمنكر بل الذي تفيده من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك أي من النهي عن الفحشاء والمنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير وهو مفتاح كل خير والنهي عن الفحشاء والمنكر بعض الخير.

و. ومن المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاة من الذكر أو نفس الصلاة والجملة أيضا واقعة موقع الإضراب، والمعنى: بل الذي تشتمل عليه الصلاة من ذكر الله أو نفس الصلاة التي هي ذكر الله أكبر من هذا الأثر الذي هو النهي عن الفحشاء والمنكر لأن النهي أثر من آثارها الحسنة و﴿لَذِكْرُ اللهِ﴾ على الاحتمالين جميعا من المصدر المضاف إلى مفعوله والمفضل عليه لقوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ هو النهي عن الفحشاء والمنكر.

ز. ولهم في معنى الذكر وكون المضاف إليه فاعلا أو مفعولا للمصدر وكون المفضل عليه خاصا أو عاما أقوال أخر:

• فقيل: معنى الآية: ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله تعالى وذلك أن الله تعالى يذكر من ذكره

لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقيل: المعنى: ذكر الله تعالى العبد أكبر من الصلاة، وقيل: المعنى: لذكر الله العبد أكبر من كل شيء.

• وقيل: المعنى: لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة، وقيل: المعنى: لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من ذكره خارج الصلاة، وقيل: المعنى: لذكر العبد لله أكبر من سائر أعماله، وقيل: المعنى: للصلاة أكبر من سائر الطاعات وقيل: المعنى: لذكر العبد لله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما أكبر من زجر الصلاة وردعها، وقيل: إن قوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ معرى من معنى التفضيل لا يحتاج إلى مفضل عليه كقوله: ﴿ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ﴾

ح. فهذه أقوال لهم متفرقة أغمضنا عن البحث عما فيها إيثارا للاختصار، والتدبر في الآية يكفي مئونة البحث على أن التحكم في بعضها ظاهر لا يخفى.

٤. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ﴾ أي ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه ولا تغفلوا عنه ففيه حث وتحريض على المراقبة وخاصة على القول الأول.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عمران بن الحصين وابن مسعود وابن عباس وابن عمر عنه ﷺ ورواه القمي في تفسيره مضمرا مرسلا.

ب. وفيه، وأيضا عن النبي ﷺ: لا صلاة لمن لم تطع الصلاة وطاعة الصلاة أن تنتهي عن الفحشاء والمنكر.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن مسعود وغيره.

ج. وفيه، وروى أنس: أن فتى من الأنصار كان يصلي الصلوات مع رسول الله ﷺ، ويرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: إن صلاته تنهاه يوما ما.

د. وفيه، روى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أحب أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر، فبقدر ما منعته قبلت صلاته.

هـ. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ يقول: ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إياه، ألا ترى أنه يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

• أقول: وهذا أحد المعاني التي تقدم نقلها.

و. وفي نور الثقلين، عن مجمع البيان، وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكر الله عند ما أحل وحرم.

ز. وفيه، عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل.

ح. وفيه، وقال ﷺ: يا معاذ إن السابقين الذين يسهرون بذكر الله عز وجل، ومن أحب أن يرتع في رياض الجنة، فليكثر من ذكر الله عز وجل.

٢١. مجادلة أهل الكتاب بالحسنى:

المقطع [٢١] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٣٧»:

١. ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾:

أ. لما أمر في قوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، بالتبليغ والدعوة من طريق تلاوة الكتاب عقبه ببيان كيفية الدعوة فنهى عن مجادلة أهل الكتاب وهم على ما يقتضيه الإطلاق اليهود والنصارى ويلحق بهم المجوس والصابئون، إلا بالمجادلة، التي هي أحسن المجادلة.

ب. والمجادلة إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظا وطعنا وإهانة، فمن حسنها أن تقارن رفقا ولينا في القول لا يتأذى به الخصم وأن يقترب المجادل من خصمه ويدنو منه حتى يتفقا ويتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج وعناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام والاقتراب بوجه زادت حسنا على حسن فكانت أحسن.

ج. ولهذا لما نهى عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم، فإن المراد بالظلم بقرينة السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق واللين والاقتراب في المطلوب بل يتلقى حسن الجدال

نوع مذلة وهوان للمجادل ويعتبره تمويها واحتيالا لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجح معهم المجادلة بالأحسن.

د. ولهذا أيضا عقب الكلام ببيان كيفية الاقتراب معهم وبناء المجادلة على كلمة يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه ويتعاضدان على ظهور الحق فقال: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ والمعنى ظاهر.

٢٢. الكتاب والإيمان والجحود:

المقطع [٢٢] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٣٨»:

١. ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ﴾:

أ. أي على تلك الصفة وهي الإسلام لله وتصديق كتبه ورسله أنزلنا إليك القرآن.

ب. وقيل: المعنى: مثل ما أنزلنا إلى موسى وعيسى الكتاب أنزلنا إليك الكتاب وهو القرآن.

ج. فقوله: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ﴾، تفريع على نحو نزول الكتاب أي لما كان القرآن نازلا في الإسلام لله وتصديق كتبه ورسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله وتصديق كتبه ورسله، ومن هؤلاء وهم المشركون من عبدة الأوثان من يؤمن به وما يجحد بآياتنا ولا ينكرها من أهل الكتاب وهؤلاء المشركين إلا الكافرون وهم الساترون للحق بالباطل.

د. وقد احتمل أن يكون المراد بالذين آتيناهم الكتاب المسلمين والمشار إليه بهؤلاء أهل الكتاب وهو بعيد، ومثله في البعد إرجاع الضمير في (يؤمن به) إلى النبي ﷺ.

هـ. وفي قوله: ﴿وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ نوع استقلال لمن آمن به من المشركين.

٢٣. نفي الريب عن القرآن:

المقطع [٢٣] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ

بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨ـ٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٣٨»:

١. ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾:

أ. التلاوة هي القراءة سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط والمراد به في الآية الثاني بقرينة المقام، والخط الكتابة، والمبطلون جمع مبطل وهو الذي يأتي بالباطل من القول، ويقال أيضا للذي يبطل الحق أي يدعي بطلانه، والأنسب في الآية المعنى الثاني وإن جاز أن يراد المعنى الأول.

ب. وظاهر التعبير في قوله: ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا﴾، نفي العادة أي لم يكن من عادتك أن تتلو وتخط كما يدل عليه قوله في موضع آخر: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ [يونس: ١٦]

ج. وقيل المراد به نفي القدرة أي ما كنت تقدر أن تتلو وتخط من قبله والوجه الأول أنسب بالنسبة إلى سياق الحجة وقد أقامها لتثبيت حقية القرآن ونزوله من عنده.

د. وتقييد قوله: ﴿وَلا تَخُطُّهُ﴾ بقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل: رأيته بعيني وسمعته بأذني.

هـ. والمعنى: وما كان من عادتك قبل نزول القرآن أن تقرأ كتابا ولا كان من عادتك أن تخط كتابا وتكتبه، أي ما كنت تحسن القراءة والكتابة لكونك أميا، ولو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يبطلون الحق بدعوى أنه باطل لكن لما لم تحسن القراءة والكتابة واستمرت على ذلك وعرفوك على هذه الحال لمخالطتك لهم ومعاشرتك معهم لم يبق محل ريب لهم في أمر القرآن النازل إليك أنه كلام الله تعالى وليس تلفيقا لفقته من كتب السابقين ونقلته من أقاصيصهم وغيرهم حتى يرتاب المبطلون ويعتذروا به.

٢. ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ إضراب عن مقدر يستفاد من الآية السابقة كأنه لما نفى عنه ﷺ التلاوة والخط معا تحصل من ذلك أن القرآن ليس بكتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدر بقوله: ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾

٣. ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ المراد بالظلم بقرينة المقام الظلم لآيات الله بتكذيبها والاستكبار عن قبولها عنادا وتعنتا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن العبدي عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال: هم الأئمة.

• أقول: وهذا المعنى مروي في الكافي، وفي بصائر الدرجات، بعدة طرق: وهو من الجري بمعنى انطباق الآية على أكمل المصاديق بدليل الرواية الآتية.

ب. وفي البصائر، بإسناده عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ فقال: أنتم هم من عسى أن يكونوا؟

٢٤. القرآن رحمة وذكرى للمؤمنين:

المقطع [٢٤] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٣٩»:

١. ﴿وَقالُوا لولا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّما الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾:

أ. لما ذكر الكتاب وأمر النبي ﷺ أن يتلوه ويدعوهم إليه به وأن منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وهم الكافرون الظالمون أشار في هذه الآية والآيتين بعدها إلى عدم اعتنائهم بالقرآن الذي هو آية النبوة واقتراحهم على النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات غيره والجواب عنه.

ب. فقوله: ﴿وَقالُوا لولا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضا منهم أنه ليس بآية وزعما منهم أن النبي يجب أن يكون ذا قوة إلهية غيبية يقوى على كل ما يريد، وفي قولهم: لولا أنزل عليه، دون أن يقولوا: لولا يأتينا بآيات نوع سخرية كقولهم: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧]

٢. ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ﴾ جواب عن زعمهم أن من يدعي الرسالة يدعي قوة غيبية يقدر بها على كل ما أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد وكيفما شاء لا يشاركه في القدرة عليها غيره فليس إلى النبي شيء إلا أن يشاء الله ثم زاده بيانا بقصر شأن النبي ﷺ في الإنذار فحسب بقوله: ﴿إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

٣. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾ توطئة وتمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنه ليس بآية، والاستفهام للإنكار والخطاب للنبي ﷺ أي يكفيهم آية هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك وهو يتلى عليهم فيسمعونه ويعرفون مكانته من الإعجاز وهو مملو رحمة وتذكرة للمؤمنين.

٤. ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾:

أ. إلقاء جواب إلى النبي ﷺ ليجيبهم به وهو أن الله سبحانه شهيد بيني وبينكم فيما نتخاصم فيه وهو أمر الرسالة فإنه سبحانه يشهد في كلامه الذي أنزله علي برسالتي وهو تعالى يعلم ما في السماوات والأرض من غير أن يجهل شيئا وكفى بشهادته لي دليلا على دعواي.

ب. وليس لهم أن يقولوا إنه ليس بكلام الله لمكان تحديه مرة بعد مرة في خلال الآيات ومنه يعلم أن قوله: ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ ليس دعوى مجردة أو كلاما خطابيا بل هو بيان استدلالي وحجة قاطعة على ما عرفت.

٥. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الذي فيه شهادته على الرسالة وهم بكفرهم بالله الحق يؤمنون بالباطل ولذلك خسروا في إيمانهم.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الإسماعيلي في معجمه وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة قال: كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يكتبون من التوراة فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: إن أحمق الحمق وأضل الضلالة قوم رغبوا، عما جاء به نبيهم إلى نبي غير نبيهم، وإلى أمة غير أمتهم ثم أنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

ب. أخرج ابن عساكر عن ابن أبي مليكة قال: أهدى عبد الله بن عامر بن كريز إلى عائشة هدية، فظنت أنه عبد الله بن عمر فردتها، وقالت: يتتبع الكتب وقد قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾ فقيل لها: إنه عبد الله بن عامر فقبلها.

• أقول: ظاهر الروايتين وخاصة الأولى الآية في بعض الصحابة وسياق الآيات يأبى ذلك.

٢٥. استعجال العذاب وإحاطة جهنم بالكافرين:

المقطع [٢٥] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٤١»:

١. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ولولا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾:

أ. إشارة إلى قولهم كقول متقدميهم: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، وقد حكى الله عنهم استعجالهم في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ﴾ [هود: ٨]

ب. والمراد بالأجل المسمى هو الذي قضاه لبني آدم حين أهبط آدم إلى الأرض فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]

ج. وهذا العذاب الذي يحول بينه وبينهم الأجل المسمى هو الذي يستحقونه لمطلق أعمالهم السيئة كما قال عز من قائل: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف: ٥٨] ولا ينافي ذلك تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحة على الرسول من غير إمهال وإنظار، قال تعالى: ﴿وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]

٢. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ، يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ﴾:

أ. تكرار ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ للدلالة على كمال جهلهم وفساد فهمهم وأن استعجالهم استعجال لأمر مؤجل لا معجل أولا واستعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم لأنهم مجزيون بأعمالهم التي لا تفارقهم ثانيا.

ب. والغشاوة والغشاية التغطية بنحو الإحاطة، وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشاهُمُ﴾ ظرف لقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾ والباقي ظاهر.

٢٦. أرض الله واسعة والموت مصير كل نفس والجنة للمتقين:

المقطع [٢٦] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦-٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٤٤»:

١. ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ توجيه للخطاب إلى المؤمنين الذين وقعوا في أرض الكفر لا يقدرون على التظاهر بالدين الحق والاستنان بسنته ويدل على ذلك ذيل الآية.

٢. ﴿إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ﴾ الذي يظهر من السياق أن المراد بالأرض هذه الأرض التي نعيش عليها وإضافتها إلى ضمير التكلم للإشارة إلى أن جميع الأرض لا فرق عنده في أن يعبد في أي قطعة منها كانت، ووسعة الأرض كناية عن أنه إن امتنع في ناحية من نواحيها أخذ الدين الحق والعمل به فهناك نواح غيرها لا يمتنع فيها ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعة على أي حال.

٣. ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾:

أ. الفاء الأولى للتفريع على سعة الأرض أي إذا كان كذلك فاعبدوني وحدي والفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام والظاهر أن تقديم (إياي) لإفادة الحصر فيكون قصر قلب والمعنى: لا تعبدوا غيري بل اعبدوني، وقوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ قائم مقام الجزاء.

ب. ومحصل المعنى: أن أرضي واسعة إن امتنع عليكم عبادتي في ناحية منها تسعكم لعبادتي أخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدوني وحدي ولا تعبدوا غيري فإن لم يمكنكم عبادتي في قطعة منها فهاجروا إلى غيرها واعبدوني وحدي فيها.

٤. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾:

أ. الآية تأكيد للأمر السابق في قوله: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ وكالتوطئة لقوله الآتي: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾

ب. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ من الاستعارة بالكناية والمراد أن كل نفس ستموت لا محالة، والالتفات في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ من سياق التكلم وحده إلى سياق التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

ج. ومحصل المعنى: أن الحياة الدنيا ليست إلا أياما قلائل والموت وراءه ثم الرجوع إلينا للحساب

فلا يصدنكم زينة الحياة الدنيا، وهي زينة فانية، عن التهيؤ للقاء الله بالإيمان والعمل ففيه السعادة الباقية وفي الحرمان منه هلاك مؤبد مخلد.

٥. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾:

أ. بيان لأجر الإيمان والعمل الصالح بعد الموت والرجوع إلى الله وفيه حث وترغيب للمؤمنين على الصبر في الله والتوكل على الله، والتبوئة الإنزال على وجه الإقامة، والغرف جمع غرفة وهي في الدار، العلية العالية.

ب. وقد بين تعالى أولا ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم سماهم عاملين إذ قال: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ ثم فسر العاملين بقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فعاد بذلك الصبر والتوكل سمة خاصة للمؤمنين فدل بذلك كله أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر في الله وتوكل عليه، فعلى المؤمن أن يصبر في الله على كل أذى وجفوة ما يجد إلى العيشة الدينية سبيلا فإذا تعذرت عليه إقامة مراسم الدين في أرضه فليخرج وليهاجر إلى أرض غيرها وليصبر على ما يصيبه من التعب والعناء في الله.

٦. ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وصف للعالمين، والصبر أعم من الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر على المعصية، وإن كان المورد مورد الصبر عند المصيبة فهو المناسب لحال المؤمنين بمكة المأمورين بالهجرة.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ﴾ يقول: لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتموهم أن يفتنوكم عن دينكم فإن أرضي واسعة، وهو يقول: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها﴾

ب. وفي المجمع: وقال أبو عبد الله عليه السلام: معناه إذا عصي الله في أرض أنت بها فاخرج منها إلى غيرها.

ج. وفي العيون، بإسناده إلى الرضا عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: لما نزلت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ قلت: يا رب أيموت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء؟ فنزلت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

• أقول: ورواه أيضا في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن علي، ولا يخلو متنه عن شيء فإن قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ يخبر عن موته ﷺ وموت سائر الناس، وكان ﷺ يعلم أن الأنبياء المتقدمين عليه ماتوا فلا معنى لقوله: أيموت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء.

٢٧. تكفل الله برزق كل دابة وهو السميع العليم:

المقطع [٢٧] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٤٥»:

١. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. كأين للتكثير، وحمل الرزق هو ادخاره كما يفعله الإنسان والنمل والفأر والنحل من سائر الحيوان.

ب. وفي الآية تطييب لنفس المؤمنين وتقوية لقلوبهم أنهم لو هاجروا في الله أتاهم رزقهم أينما كانوا ولا يموتون جوعا فرازقهم ربهم دون أوطانهم، يقول: وكثير من الدواب لا رزق مدخر لها يرزقها الله ويرزقكم معاشر الآدميين الذين يدخرون الأرزاق وهو السميع العليم.

ج. وفي تذييل الآية بالاسمين الكريمين السميع العليم إشارة إلى الحجة على مضمونها وهو أن الإنسان وسائر الدواب محتاجون إلى الرزق يسألون الله ذلك بلسان حاجتهم إليه والله سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه ومقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم.

٢. في المجمع: عن عطاء عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخلنا بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي: يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟ فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: أنا أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت مع قوم يخبئون رزق سنتهم لضعف اليقين، فوالله ما برحنا حتى نزلت ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

• أقول: وقد روى الرواية في الدر المنثور، وضعف سندها وهي مع ذلك لا تلائم وقوع الآية في سياق ما تقدمها.

٢٨. إقرار المشركين بالخالق وإفكهم وعدم عقلهم:

المقطع [٢٨] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١-٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٤٨»:

١. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾:

أ. خلق السماوات والأرض من الإيجاد وتسخير الشمس والقمر، وذلك بتحويل حالاتهما بالطلوع والغروب والقرب والبعد من الأرض، من التدبير الذي يتفرع عليه كينونة أرزاق الإنسان وسائر الحيوان وهذا الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر.

ب. وإذا كان الله هو الخالق وبيده تدبير السماوات ويتبعه تدبير الأرض وكينونة الأرزاق كان هو الذي يجب أن يدعى للرزق وسائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان إلى غيره ممن لا يملك شيئا وهو قوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي فإذا كان الخلق وتدبير الشمس والقمر إليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء إلى دعوة غيره من الأصنام وعبادته.

٢. ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أ. في الآية تصريح بما تلوح إليه الآية السابقة، والقدر التضييق ويقابله البسط والمراد به لازم معناه وهو التوسعة، ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ للدلالة على تعليل الحكم، والمعنى: وهو بكل شيء عليم لأنه الله.

ب. والمعنى: الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء، ولا يشاء إلا على طبق المصلحة، لأنه بكل شيء عليم لأنه الله الذي هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال.

٣. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها﴾ إلى قوله: ﴿لا يَعْقِلُونَ﴾ المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات في الربيع.

٤. ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ أي احمد الله على تمام الحجة عليهم باعترافهم بأن الله هو المدبر لأمر خلقه فلزمهم أن يعبدوه دون غيره من الأصنام وأرباب الأصنام.

٥. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يتدبرون الآيات ولا يحكمون العقول حتى يعرفوا الله ويميزوا الحق من الباطل فهم لا يعقلون حق التعقل.

٢٩. الدنيا لهو ولعب والآخرة هي الحياة الحقيقية:

المقطع [٢٩] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٤٩»:

١. ﴿وما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. اللهو ما يلهيك ويشغلك عما يهمك فالحياة الدنيا من اللهو لأنها تلهي الإنسان وتشغله بزينتها المزوقة الفانية عن الحياة الخالدة الباقية.

ب. واللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظاما خياليا لغاية خيالية كملاعب الصبيان والحياة الدنيا لعب لأنها فانية سريعة البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه ويتولعون به ساعة ثم يتفرقون وسرعان ما يتفرقون.

ج. على أن عامة المقاصد التي يتنافس فيها المتنافسون ويتكالب عليه الظالمون أمور وهمية سرابية كالأموال والأزواج والبنين وأنواع التقدم والتصدر والرئاسة والمولوية والخدم والأنصار وغيرها فالإنسان لا يملك شيئا منها إلا في ظرف الوهم والخيال.

د. وأما الحياة الآخرة التي يعيش فيها الإنسان بكماله الواقعي الذي اكتسبه بإيمانه وعمله الصالح فهي المهمة التي لا لهو في الاشتغال بها والجد الذي لا لعب فيها ولا لغو ولا تأثيم، والبقاء الذي لا فناء معه، واللذة التي لا ألم، عندها والسعادة التي لا شقاء دونها، فهي الحياة بحقيقة معنى الكلمة، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ﴾

هـ. وفي الآية، كما ترى، قصر الحياة الدنيا في اللهو واللعب والإشارة إليها بهذه المفيدة للتحقير وقصر الحياة الآخرة في الحيوان وهو الحياة وتأكيده بأدوات التأكيد كان واللام وضمير الفصل والجملة الاسمية.

٢. ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون لعلموا أن الأمر كما وصفنا.

٣٠. إخلاص الدعاء عند الشدة والشرك عند النجاة:

المقطع [٣٠] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥ـ٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٥٠»:

١. ﴿فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾:

أ. تفريع على ما تحصل من الآيات السابقة من شأنهم وهو أنهم يؤفكون وأن كثيرا منهم لا يعقلون أي لما كانوا يؤفكون ويصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأكثرهم لا يعقلون ويناقضون أنفسهم بالاعتراف والجحد ﴿فَإِذا رَكِبُوا﴾

ب. والركوب الاستعلاء بالجلوس على الشيء المتحرك وهو متعد بنفسه وتعديته في الآية بفي لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه، والمعنى: فإذا ركبوا مستقرين في الفلك أو استقروا في الفلك راكبين، ومعنى الآية ظاهر وهي تحكي عنهم تناقضا آخر وكفرانا للنعمة.

٢. ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾:

أ. اللام في ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ و﴿لِيَتَمَتَّعُوا﴾ لام الأمر وأمر الآمر بما لا يرتضيه تهديد وإنذار كقولك لمن تهدده: (افعل ما شئت)، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]

ب. واحتمل كون اللام للغاية، والمعنى: أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهي بهم إلى كفران النعمة التي آتيناهم وإلى التمتع، وأول الوجهين أوفق لقوله في ذيل الآية: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ويؤيده قوله في موضع آخر: ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٤] ولذا قرأه من قرأ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر.

٣١. حرم مكة آمن والكافرون مصيرهم جهنم:

المقطع [٣١] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٧ـ٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٥٠»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾:

أ. الحرم الأمن هو مكة وما حولها وقد جعله الله مأمنا بدعاء إبراهيم عليه السلام والتخطف كالخطف استلاب الشيء بسرعة واختلاسه وقد كانت العرب يومئذ تعيش في التغاور والتناهب ولا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل والسبي والنهب لكنهم يحترمون الحرم ولا يتعرضون لمن أقام بها فيها.

ب. والمعنى: أولم ينظروا أنا جعلنا حرما آمنا لا يتعرض لمن فيه بقتل أو سبي أو نهب والحال أن الناس يختلسون من حولهم خارج الحرم.

٢. ﴿أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة وهي نعمة عظيمة بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام وهي باطلة ليس لها إلا الاسم.

٣. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾ تهديد لهم بالنار بتوسيمهم بأشد الظلم وأعظمه وهو افتراء الكذب على الله بالقول بالآلهة وأن الله اتخذهم شركاء لنفسه، وتكذيب الإنسان بالحق لما جاءه والوصفان جميعا موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام وكذبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كافرون ومثوى الكافرين ومحل إقامتهم في الآخرة جهنم.

٣٢. هداية الله للمجاهدين في سبيله وصحبته للمحسنين:

المقطع [٣٢] من سورة العنكبوت، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٥١»:

١. ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. الجهد الوسع والطاقة والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس كذا ذكره الراغب.

ب. ﴿جاهَدُوا فِينا﴾ أي استقر جهادهم فينا وهو استعارة كنائية عن كون جهده مبذولا فيما يتعلق به تعالى من اعتقاد عمل، فلا ينصرف عن الإيمان به والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه بصارف يصرفه.

٢. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾:

أ. أثبت لنفسه سبلا وهي أيا ما كانت تنتهي إليه تعالى فإنما السبيل سبيل لتأديته إلى ذي السبيل

وهو غايتها فسبله هي الطرق المقربة منه والهادية إليه تعالى، وإذ كانت نفس المجاهدة من الهداية كانت الهداية إلى السبل هداية على هداية فتنطبق على مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً﴾ [محمد: ١٧]

ب. ومما تقدم يظهر أن لا حاجة في قوله: ﴿فِينا﴾ إلى تقدير مضاف كشأن والتقدير في شأننا.

٣. ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قيل: (أي معية النصرة والمعونة وتقدم الجهاد المحتاج إليهما قرينة قوية على إرادة ذلك)، وهو وجه حسن وأحسن منه أن يفسر بمعية الرحمة والعناية فيشمل معية النصرة والمعونة وغيرهما من أقسام العنايات التي له سبحانه بالمحسنين من عباده لكمال عنايته بهم وشمول رحمته لهم، وهذه المعية أخص من معية الوجود الذي ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]

٤. وقد تقدمت الإشارة إلى أن الآية خاتمة للسورة منعطفة على فاتحتها.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا، لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: هذه الآية لآل محمد عليه السلام ولأشياعهم.

سورة الروم

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣٣] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تفتتح السورة بوعد من الله وهو أن الروم ستغلب الفرس في بضع سنين بعد انهزامهم أيام نزول السورة عن الفرس، ثم تنتقل منه إلى ذكر ميعاد أكبر وهو الوعد بيوم يرجع الكل فيه إلى الله، وتقيم الحجة على المعاد.

ب. ثم تنعطف إلى ذكر آيات الربوبية وتصف صفاته تعالى الخاصة به، ثم تختتم السورة بوعد النصر للنبي ﷺ وتؤكد القول فيه إذ تقول: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾، وقد قيل قبيل ذلك: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ج. فغرض السورة هو الوعد القطعي منه تعالى بنصرة دينه، وقد قدم عليه نصر الروم على الفرس في بضع سنين من حين النزول ليستدل بإنجاز هذا الوعد على إنجاز ذلك الوعد، وكذا يحتج به ومن طريق العقل على أنه سينجز وعده بيوم القيامة لا ريب فيه.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر غلبة الروم بعد هزيمتهم، وتعدهم بالنصر في بضع سنين، وتذكر أن العاقبة للمؤمنين، وتعدد آيات الله في خلقه وبعثه، وتذكر أن الكافرين غافلون عن الآخرة.

٢. الآيات [٢٠ ـ ٢٦] يذكر في هذا الفصل عدة من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية والألوهية، ويشار فيها إلى امتزاج الخلق والتدبير وتداخلهما، ليتضح بذلك أن الربوبية بمعنى ملك التدبير والألوهية بمعنى المعبودية بالحق لا يستحقهما إلا الله الذي خلق الأشياء وأوجدها، لا كما يزعم الوثني أن الخلق لله وحده والتدبير والعبادة لأرباب الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله، وليس له سبحانه إلا أنه رب الأرباب وإله الآلهة.

٣. الآيات [٢٧ ـ ٣٩]:

أ. لما انساق الاحتجاج على الوحدانية والمعاد من طريق عد الآيات الدالة على ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، وهو من صفات الفعل، غير سياق الاحتجاج بالآيات إلى سياق الاحتجاج بصفاته الفعلية، وأوردها إلى آخر السورة في أربعة فصول، يورد في كل فصل شيئاً من صفات الفعل المستوجبة للوحدانية والمعاد.

ب. وهي قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾، وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ﴾، وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾

ج. وإنما لم يبدأ الفصل الأول باسم الجلالة كما بدأ به في الفصول الأخر، لسبق ذكره في الآية السابقة عليه المتصلة به، أعني قوله: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾ الذي هو كالبرزخ المتوسط بين السياقين، فقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فصل في صورة الوصل.

٤. الآيات [٤٠ ـ ٤٧] هذا هو الفصل الثاني من الفصول الأربعة التي يحتج فيها بالأفعال الخاصة به، وإن شئت فقل: بأسماء الأفعال، على إبطال الشركاء ونفي ربوبيتهم وألوهيتهم، وعلى إثبات المعاد.

٥. الآيات [٤٨ ـ ٥٣]:

أ. هذا هو الفصل الثالث من الآيات المحتجة من طريق أفعاله تعالى، وإن شئت فقل: أسماء أفعاله، وعمدة غرضها الاحتجاج على المعاد.

ب. ولما كان عمدة إنكارهم وجحودهم متوجهاً إلى المعاد، وبإنكاره يلغو الأحكام والشرائع فيلغو التوحيد، عقب الاحتجاج بإيئاس النبي ﷺ وأمره بأن يشتغل بدعوة في نفسه استعداد الإيمان وصلاحية الإسلام والتسليم للحق.

٦. الآيات [٥٤ ـ ٦٠] هذا هو الفصل الرابع من الآيات، وهو كسابقه، وفيها ختام السورة.

١. غلبة الروم ووعد الله بالنصر للمؤمنين:

المقطع [١] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٢ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٥٥»:

١. ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ الروم جيل من الناس على ساحل البحر الأبيض بالمغرب

كانت لهم إمبراطورية وسيعة منبسطة إلى الشامات وقعت بينهم وبين الفرس حرب عوان في بعض نواحي الشام قريبا من الحجاز فغلبت الفرس وانهزمت الروم، والظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز واللام للعهد.

٢. ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ ضمير الجمع الأول للروم وكذا الثالث وأما الثاني فقد قيل إنه للفرس والمعنى: والروم من بعد غلبة الفرس سيغلبون، ويمكن أن يكون الغلب من المصدر المبني للمفعول والضمير للروم كالضميرين قبلها وبعدها فلا تختلف الضمائر والمعنى: والروم من بعد مغلوبيتهم سيغلبون، والبضع من العدد من ثلاثة إلى تسعة.

٣. ﴿للهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾:

أ. قبل وبعد مبنيان على الضم فهناك مضاف إليه مقدر والتقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم ومن بعد أن غلبت يأمر بما يشاء فينصر من يشاء ويخذل من يشاء.

ب. وقيل: المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي وقت كونهم مغلوبين ووقت كونهم غالبين والمعنى الأول أرجح إن لم يكن راجحا متعينا.

٤. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الظرف متعلق بيفرح وكذا قوله: ﴿يَنْصُرُ﴾ والمعنى: ويوم إذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم، ثم استأنف وقال: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تقريرا لقوله: ﴿للهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾

٥. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي عزيز يعز بنصره من يشاء رحيم يخص برحمته من يشاء.

٦. وفي الآية وجوه أخر ضعيفة ذكروها:

أ. منها: أن قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ عطف على قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ والمراد به شمول سلطنته تعالى لجميع الأزمنة الثلاثة: الماضي والمستقبل والحال كأنه قيل: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ ثم ابتداء وقيل: يفرح المؤمنون بنصر الله، وفيه أنه يبطل انسجام الآية وينقطع به آخرها عن أولها.

ب. ومنها: أن قوله: ﴿بِنَصْرِ﴾ متعلق بقوله: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ دون ﴿يَفْرَحُ﴾ ويدل بالملازمة المقامية أن غلبة الروم بنصر من الله، وفيه أن لازمه أن يفرح المؤمنون يوم غلبة الفرس ويوم غلبة الروم جميعا فإن

في الغلبة نصرا وكل نصر من الله قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فقصر فرح المؤمنين بالنصر بيوم غلبة الروم ترجيح بلا مرجح فافهمه.

ج. ومنها: أن المراد بنصر الله نصر المؤمنين على المشركين يوم بدر دون نصر الروم على الفرس وإن توافق النصران زمانا فكأنه قيل: إن الروم سيغلبون في بضع سنين ويوم يغلبون يغلب المؤمنون المشركين فيفرحون بنصر الله إياهم، وفيه أن هذا المعنى لا يلائم قوله بعد: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ﴾

د. ومنها: أن المراد بالنصر نصر المؤمنين بصدق إخبارهم بغلبة الروم، وقيل: النصر هو استيلاء بعض الكفار على بعض وتفرق كلمتهم وانكسار شوكتهم، وهذان وما يشبههما وجوه لا يعبأ بها.

٧. أحاديث وآثار: أخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء عن ابن عباس: في قوله: ﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ قال: غلبت وغلبت، قال: كان المشركون يحبون أن يظهر فارس على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس، لأنهم أصحاب كتاب، فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أما إنهم سيغلبون فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل لهم خمس سنين فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال: ألا جعلته، أراه، قال: دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك، فذلك قوله: ﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ فغلبت ثم غلبت بعد، يقول الله: ﴿لِلهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾ قال سفيان: سمعت أنهم قد ظهروا يوم بدر.

- أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر مختلفة المضامين في الجملة ففي بعضها أن المقامرة كانت بين أبي بكر وأبي بن خلف وفي بعضها أنها كانت بين المسلمين والمشركين وكان أبو بكر من قبل المسلمين وأبي من قبل المشركين، وفي بعضها أنها كانت بين الطائفتين، وفي بعضها بين أبي بكر وبين المشركين كما في هذه الرواية.

- ثم الأجل المضروب في بعضها ثلاث سنين، وفي بعضها خمس، وفي بعضها ست، وفي بعضها سبع سنين.

- وفي بعضها أن الأجل المضروب أولا انقضى بمكة وهو سبع سنين فمادهم أبو بكر سنتين بأمر

من النبي ﷺ فغلبت الروم، وفي بعضها خلافه.

- ثم في بعضها أن الأجل الثاني انقضى بمكة وفي بعضها أنه انقضى بعد الهجرة وكانت غلبة الروم يوم بدر، وفي بعضها يوم الحديبية.
- وفي بعضها أن أبا بكر لما قمرهم بغلبة الروم أخذ منهم الخطر وهو مائة قلوص وجاء به إلى النبي ﷺ فقال: إنه سحت تصدق به.
- والذي تتفق فيه الروايات أنه قامرهم فقمرهم وكان القمار بإشارة من النبي ﷺ ووجه ذلك بأنه كان قبل تحريم القمار فإنه حرم مع الخمر في سورة المائدة وقد نزلت في آخر عهد النبي ﷺ، وقد تحقق بما قدمناه في تفسير آية الخمر والميسر أن الخمر كانت محرمة من أول البعثة وكان من المعروف من الدين أنه يحرم الخمر والزنا.
- على أن الخمر والميسر من الإثم بنص آية البقرة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، الآية: [البقرة: ٢١٩] والإثم محرم بنص آية الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾، الآية: [الأعراف: ٣٣] والأعراف من العتائق النازلة بمكة فمن الممتنع أن يشير النبي ﷺ بالمقامرة.
- وعلى تقدير تأخر الحرمة إلى آخر عهد النبي ﷺ يشكل قوله ﷺ لأبي بكر لما أتى بالخطر إليه أنه سحت ثم قوله: تصدق به، فلا سبيل إلى تصحيح شيء من ذلك بالموازين الفقهية وقد تكلفوا في توجيه ذلك بما لا يزيد إلا إشكالا.
- ثم إن ما في الرواية أن الفرس كانوا عبدة الأوثان لا يوافق ما كان عليه القوم فإنهم وإن كانوا مشركين لكنهم كانوا لا يتخذون أوثانا.

٢. وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون:

المقطع [٢] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٥٦»:

١. ﴿وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ مفعول مطلق محذوف العامل والتقدير وعد الله وعدا وإخلاف الوعد خلاف إنجازه وقوله: ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ تأكيد وتقرير للوعد السابق في قوله: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ و﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كما أن قوله: ﴿لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ تأكيد وتقرير لقوله: ﴿وَعْدَ اللهِ﴾

ب. ﴿لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ [الرعد: ٣١] وخلف الوعد وإن لم يكن قبيحا بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضرورة فلا يحسن منه خلف الوعد في حال، على أن خلف الوعد يلازم النقص دائما ويستحيل النقص عليه تعالى، على أنه تعالى أخبر في كلامه بأنه لا يخلف الميعاد وهو أصدق الصادقين وهو القائل عز من قائل: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]

٢. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي هم جهلاء بشئونه تعالى لا يثقون بوعده ويقيسونه إلى أمثالهم ممن يصدق ويكذب وينجز ويخلف.

٣. ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾:

أ. جملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ على ما ذكره في الكشاف: (بدل من قوله: ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا، وقيل: الجملة استثنائية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله حق وأن لله الأمر من قبل ومن بعد وأنه ينصر المؤمنين على الكافرين) وهذا أظهر.

ب. وتنكير ﴿ظاهِراً﴾ للتحقير وظاهر الحياة الدنيا ما يقابل باطنها وهو الذي يناله حواسهم الظاهرة من زينة الحياة فيرشدهم إلى اقتنائها والعكوف عليها والإخلاد إليها ونسيان ما وراءها من الحياة الآخرة والمعارف المتعلقة بها والغفلة عما فيه خيرهم ونفعهم بحقيقة معنى الكلمة.

ج. وقيل: الظهور في الآية بمعنى الزوال واستشهد بقوله:

وعيرها الواشون أني أحبها...وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

والمعنى: يعلمون أمرا زائلا لا بقاء له لكنه معنى شاذ الاستعمال.

٣. التفكر في خلق السماوات والأرض والحق والأجل:

المقطع [٣] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم:

٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٥٧»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾:

أ. المراد من خلق السماوات والأرض وما بينهما، وذلك جملة العالم المشهود، بالحق أنها لم تخلق عبثا لا غاية لها وراءها بأن يوجد ويعدم ثم يوجد ثم يعدم من غير غرض وغاية فهو تعالى إنما خلقها لغاية تترتب عليها.

ب. ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لاحق غاية للجزء السابق وكل آت خلفا لماضيه بل هو بأجزائه فان بائد فهناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم وهذا المعنى هو المراد بتقييد قوله: ﴿ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما﴾ بقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ بعد تقييده بقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾

ج. فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الاستفهام للتعجيب، وكونهم في أنفسهم استعارة كنائية عن فراغ البال وحضور الذهن كأنهم عند اشتغالهم بأمور الدنيا وسعيهم للمعيشة وتشوش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرين في أنفسهم فيكون تفكرهم حينئذ مجتمعا غير متفرق فيهديهم إلى الحق ويرشدهم إلى الواقع.

د. وقيل: المراد بتفكرهم في أنفسهم أن يتفكروا في خلق أنفسهم وأن الواحد منهم محدث والمحدث، بالفتح، يحتاج إلى محدث، بالكسر، قديم حي قادر عليم حكيم فلا يخلق ما يخلق عبثا بل لغاية مطلوبة وليست تعود إليه نفسه لغناء المطلق بل إلى الخلق وهو الثواب ولا يكون إلا لصالح العمل فلا بد من دين مشرع يميز العمل الصالح من السيئ فلا بد من دار يمتحنون فيها وهي الدنيا ودار يثابون فيها وهي الآخرة.

• وفيه أن الجملة أعني قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ صالح في نفسه لأن يراد منها هذا المعنى لكن اتصال قوله: ﴿ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ﴾، بها يأباه لاستلزامه بطلان الاتصال لعدم الارتباط بين صدر الآية وذيلها على هذا التقدير.

٢. ﴿ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو الفكر الذي يجب عليهم أن يمعنوا فيه النظر في أنفسهم وتقريره على ما تقدم أن الله سبحانه ما خلق هذا العالم كلا ولا بعضا

إلا خلقا ملابسا للحق أو مصاحبا للحق أي لغاية حقيقية لا عبثا لا غاية له ولا إلى أجل معين فلا يبقى شيء منها إلى ما لا نهاية له بل يفنى وينقطع وإذا كان كل من أجزائه والمجموع مخلوقا ذا غاية تترتب عليها وليس شيء منها دائم الوجود كانت غايته مترتبة عليه بعد انقطاع وجوده وفنائه، وهذا هو الآخرة التي ستظهر بعد انقضاء الدنيا وفنائها.

٣. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ﴾ مسوق سوق التعجيب كما بدأت الآية باستفهام التعجيب، والمراد بلقاء الله هو الرجوع إليه في المعاد، وقد عبر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجبا فكيف يمكن أن يبتدءوا منه ثم لا ينتهوا إليه، ولذلك أكده بإن إشارة إلى أن الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدق به.

٤. السير في الأرض والاعتبار بعاقبة المكذبين:

المقطع [٤] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ٩-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٥٨»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لما ذكر كفر كثير من الناس بالمعاد وذلك أمر يلغو معه الدين الحق ذكرهم حال الأمم الكافرة وما انتهت إليه من سوء العذاب لعلهم يعتبرون بها فيرجعوا عما هم عليه من الكفر، وإثارة الأرض قلبها ظهر البطن للحرث والتعمير ونحو ذلك.

٢. ﴿وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي بالكفر والمعاصي.

٣. ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ﴾:

أ. بيان لما انتهى إليه أمر أولئك الظالمين ولذا عبر بثم، و﴿عاقِبَةَ﴾ بالنصب خبر كان واسمه ﴿السُّواى﴾ قدم الخبر عليه لإفادة الحصر و﴿أَساؤُا﴾ مقطوع عن المتعلق بمعنى عملوا السوء، والسوآى الخلة التي يسوء صاحبها والمراد بها سوء العذاب و﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ﴾ بحذف لام التعليل والتقدير لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

ب. والمعنى: ثم كان سوء العذاب هو الذي انتهى إليه أمر أولئك الذين عملوا السوء لم تكن لهم عاقبة غيرها لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

ج. وقيل: إن ﴿السُّواى﴾ مفعول لقوله: ﴿أَساؤُا﴾ وخبر كان هو قوله: ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾، والمراد أن المعاصي ساقتهم إلى الكفر بتكذيب آيات الله والاستهزاء بها.

• وفيه: أنه في نفسه معنى صحيح لكن المناسب للمقام هو المعنى الأول لأن المقام مقام الاعتبار والإنذار والمناسب له بيان انتهاء معاصيهم إلى سوء العذاب لا انتهاء معاصيهم المتفرقة إلى التكذيب والاستهزاء الذي هو أعظمها.

٥. بدء الخلق وإعادته وجزاء المؤمنين والكافرين:

المقطع [٥] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١١-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٥٩»:

١. ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد ما ذكر الحجة وتكذيب كثير من الناس لخص القول في نتيجتها وهو أن البدء والعود بيده سبحانه وسيرجع إليه الجميع، والمراد بالخلق المخلوقون، ولذا أرجع إليه ضمير الجمع في ترجعون.

٢. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعة وهي ساعة الرجوع إليه تعالى للحساب والجزاء، والإبلاس اليأس من الله وفيه كل الشقاء.

٣. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ﴾ يريد أنهم على يأسهم من الرحمة من ناحية أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء لله فعبدوهم ليشفعوا لهم عند الله كما كانوا يقولون في الدنيا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكانوا بعبادة شركائهم كافرين ساترين.

٤. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (الروضة البستان المتناهي منظرا وطيبا)، وقال في المفردات: (الحبر الأثر

المستحسن، إلى أن قال، وقوله عز وجل: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم)

ب. والمراد بتفرق الخلق يومئذ تميز المؤمنين الصالحين من المجرمين ودخول هؤلاء النار ودخول أولئك الجنة على ما يشير إليه الآيتان التاليتان.

ج. ولزوم هذا التميز والتفرق في الوجود هو الذي أخذه الله سبحانه حجة على ثبوت المعاد حيث قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]

٦. التسبيح والإحياء والإماتة:

المقطع [٦] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٦٠»:

١. ﴿فَسُبْحانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾:

أ. لما ذكر أنه يبدأ الخلق ثم يعيدهم ويرجعهم للقائه فيفرقهم طائفتين: أهل الجنة والنعمة وأهل النار والعذاب، أما أهل الجنة فهم المؤمنون العاملون للصالحات وأما أهل النار فهم الكفار المكذبون لآيات الله وقد ذكر أنهم كانوا في الدنيا أهل قوة ونعمة لكنهم نسوا الآخرة وكذبوا بآيات الله واستهزءوا بها حتى انتهى بهم الأمر إلى سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ب. فتحصل من ذلك أن في دار الخلقة تدبيرا إلهيا متقنا صالحا جميلا على أجمل ما يكون وأن للإنسان على توالي الأزمنة والدهور آثاما وخطيئات من العقيدة السيئة في حق ربه واتخاذ شركاء له وإنكار لقائه إلى سائر المعاصي.

ج. ذيل الكلام بتسبيحه كلما تجدد حين بعد حين وتحميده على صنعه وتدبيره في السماوات

والأرض وهو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزه عن هذه الاعتقادات الباطلة والأعمال الردية ومحمود في جميع ما خلقه ودبره في السماوات والأرض.

د. ومن هناك يظهر:

• أولا: أن التسبيح والتحميد في الآيتين إنشاء تنزيه وثناء منه تعالى لا من غيره حتى يكون المعنى: قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله فقد تكرر في كلامه تعالى تسبيحه وتحميده لنفسه كقوله: ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] وقوله: ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]

• وثانيا: أن المراد بالتسبيح والتحميد معناهما المطلق دون الصلوات اليومية المفروضة كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدرا، والمعنى: قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله.

• وثالثا: أن قوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ معترضة واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه، وقوله: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ معطوفان على محل ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ لا على قوله: ﴿فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى يختص المساء والصباح بالتسبيح والسماوات والأرض والعشي والظهيرة بالتحميد بل الأوقات وما فيها للتسبيح والأمكنة وما فيها للتحميد.

هـ. فالسياق يشير إلى أن ما في السماوات والأرض من خلق وأمر هو لله يستدعي بحسنه حمدا وثناء لله سبحانه وأن للإنسان على مر الدهور وتغير الأزمنة والأوقات من الشرك والمعصية ما يتنزه عنه ساحة قدسه تعالى وتقدس.

و. نعم هاهنا اعتبار آخر يتداخل فيه التحميد والتسبيح وهو أن الأزمنة والأوقات على تغيرها وتصرمها من جملة ما في السماوات والأرض فهي بوجودها يثني على الله تعالى، ثم كل ما في السماوات والأرض بفقرها إليه تعالى وذلتها دونه ونقصها بالنسبة إلى كماله تعالى تسبحه كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] لكن هذا الاعتبار غير منظور إليه في الآيتين اللتين نحن فيهما.

ز. وللمفسرين في الآيتين أقوال أخر متفرقة أشرنا إلى المهم منها في الوجوه التي قدمناها.

ح. وتغيير السياق في قوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ لكون العشي لم يبن منه فعل من باب الإفعال بخلاف المساء والصباح والظهيرة حيث بني منها الإمساء والإصباح والإظهار بمعنى الدخول في المساء والصباح والظهيرة كذا قيل.

ط. والخطاب الذي في الآيتين في قوله: ﴿تُمْسُونَ وتُصْبِحُونَ وتُظْهِرُونَ﴾ ليس من الالتفات في شيء بل تعميم للخطاب الذي للنبي ﷺ منذ شرعت السورة، والمعنى: فإذا كان الأمر على هذه السبيل فالله منزه حينما دخلتم أنتم معاشر البشر في مساء وحينما دخلتم في صباح وفي العشي وحينما دخلتم في ظهيرة وله الثناء الجميل في السماوات والأرض.

ي. ونظير هذا التعميم ما في قوله سابقا: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولاحقا في قوله: ﴿وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

٢. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾:

أ. ظاهر إخراج الحي من الميت وبالعكس خلق ذوي الحياة من الأرض الميتة ثم تبديل ذوي الحياة أرضا ميتة، وقد فسر بخلق المؤمن من الكافر وخلق الكافر من المؤمن فإنه يعد المؤمن حيا والكافر ميتا، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً﴾ [الأنعام: ١٢٢]

ب. وأما إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض وابتهاجها بالنبات في الربيع والصيف بعد خمودها في الخريف والشتاء، وقوله: ﴿وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي تبعثون وتخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإحياء الأرض بعد موتها، وقد تقدم تفسير نظير صدر الآية وذيلها مرارا.

٧. آية خلق الإنسان من تراب ثم انتشاره:

المقطع [٧] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٦٥»:

١. ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقة الإنسان إلى الأرض فإن مراتب تكون الإنسان من مضغة أو علقة أو نطفة أو غيرها مركبات أرضية تنتهي إلى العناصر الأرضية.

٢. ﴿ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾:

أ. إذا فجائية أي يفاجئكم أنكم أناسي تنتشرون في الأرض أي يخلقكم من تركيبات أرضية المترقب منها كينونة أرضية ميتة أخرى مثلها لكن يفاجئكم دفعة أنه يصير بشرا ذوي حياة وشعور عقلي ينتشرون في الأرض في سبيل تدمير أمر الحياة فقوله: ﴿ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ في معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً

آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]

ب. فخلق الإنسان أي جمع أجزائه من الأرض وتأليفها آية وكينونة هذا المجموع إنسانا ذا حياة وشعور عقلي آية أو آيات أخر تدل على صانع حي عليم يدبر الأمر ويجري هذا النظام العجيب.

ج. وقد ظهر بهذا المعنى أن ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي والجملة معطوفة على قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ لا على قوله: ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ﴾

٨. خلق الأزواج وجعل المودة والرحمة:

المقطع [٨] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٦٥»:

١. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾:

أ. قال الراغب: (يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى من الحيوانات المتزاوجة: زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها: زوج، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ وقال: ﴿وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وزوجة لغة رديئة وجمعها زوجات، إلى أن قال، وجمع الزوج أزواج)

ب. فقوله: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾ أي خلق لأجلكم، أو لينفعكم، من جنسكم قرائن وذلك أن كل واحد من الرجل والمرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزا يتم فعله بمقارنة الآخر ويتم بمجموعهما أمر التوالد والتناسل فكل واحد منهما ناقص في نفسه مفتقر إلى الآخر ويحصل من المجموع واحد تام له أن يلد وينسل، ولهذا النقص والافتقار يتحرك الواحد منهما إلى الآخر حتى إذا اتصل به سكن إليه لأن كل ناقص مشتاق إلى كماله وكل مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره وهذا هو الشبق المودع في كل من هذين القرينين.

٢. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾:

أ. المودة كأنها الحب الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الذي هو نوع تأثر نفساني عن العظمة والكبرياء.

ب. والرحمة نوع تأثر نفساني عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال وحاجته إلى رفع نقيصته

يدعو الراحم إلى إنجائه من الحرمان ورفع نقصه.

ج. ومن أجل موارد المودة والرحمة المجتمع المنزلي فإن الزوجين يتلازمان بالمودة والمحبة وهما معا وخاصة الزوجة يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم وعجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية فيقومان بواجب العمل في حفظهم وحراستهم وتغذيتهم وكسوتهم وإيوائهم وتربيتهم ولولا هذه الرحمة لانقطع النسل ولم يعش النوع قط.

د. ونظير هذه المودة والرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدني بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودة ويرحم المساكين والعجزة والضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياة.

هـ. والمراد بالمودة والرحمة في الآية الأوليان على ما يعطيه مناسبة السياق أو الأخيرتان على ما يعطيه إطلاق الآية.

٣. ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأنهم إذا تفكروا في الأصول التكوينية التي يبعث الإنسان إلى عقد المجتمع من الذكورة والأنوثة الداعيتين إلى الاجتماع المنزلي والمودة والرحمة الباعثتين على الاجتماع المدني ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع واستكمال الإنسان في حياتية الدنيا والأخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهية في تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم وتدهش به أحلامهم.

٩. اختلاف الألسنة والألوان آية للعالمين:

المقطع [٩] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٦٧»:

١. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ﴾:

أ. الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربية والفارسية والأردوية وغيرها وباختلاف الألوان اختلاف الأمم في ألوانهم كالبياض والسواد والصفرة والحمرة.

ب. ويمكن أن يستفاد اختلاف الألسنة من جهة النغم والأصوات ونحو التكلم والنطق وباختلاف الألوان اختلاف كل فردين من أفراد الإنسان بحسب اللون لو دقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن.

ج. فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون في نظام الخلقة على آيات دقيقة دالة على أن الصنع والإيجاد مع النظام الجاري فيه لا يقوم إلا بالله ولا ينتهي إلا إليه.

١٠. المنام والابتغاء من فضل الله آية للسامعين:

المقطع [١٠] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٦٧»:

١. ﴿وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾:

أ. الفضل الزيادة على مقدار الحاجة ويطلق على العطية لأن المعطي إنما يعطي ما فضل من مقدار حاجته، والمراد به في الآية الكريمة الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق.

ب. وفي خلق الإنسان ذا قوى فعالة تبعثه إلى طلب الرزق ورفع حوائج الحياة للبقاء بالحركة والسعي ثم هدايته إلى الاستراحة والسكون لرفع متاعب السعي وتجديد تجهيز القوى وتخصيص الليل والنهار المتعاقبين للسعي والسكون والتسبيب إلى وجود الليل والنهار بأوضاع سماوية قائمة بالأرض والشمس لآيات نافعة لمن له سمع واع يعقل ما يسمع فإذا وجده حقا اتبعه.

ج. قال في الكشاف، في الآية: (هذا من باب اللف وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين لأنهما زمانان والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن وأسد المعاني ما دل عليه القرآن)

د. وقد ظهر مما تقدم معنى تذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

١١. إحياء الأرض بالمطر آية للعاقلين:

المقطع [١١] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٦٨»:

١. ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾:

أ. الظاهر أن الفعل نزل منزلة المصدر ولذلك لم يصدر بأن المصدرية كما صدر به قوله: ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ وقوله: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ﴾ وتنزيل الفعل منزلة المصدر لغة عربية جيدة وعليه يحمل المثل السائر: (وتسمع بالمعيدي خير من أن تراه) ولا ضير في حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتي في مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير كقوله: ﴿مَنامُكُمْ﴾ ﴿يُرِيكُمُ﴾ ﴿أَنْ تَقُومَ﴾

ب. واحتمل في قوله: ﴿يُرِيكُمُ﴾ أن يكون بحذف أن المصدرية والتقدير أن يريكم البرق وأيد بقراءة النصب في يريكم.

ج. واحتمل أن يكون من حذف المضاف، والتقدير: ومن آياته آية أن يريكم البرق، واحتمل أن يكون التقدير ومن آياته آية البرق ثم استونف فقيل: يريكم البرق.، واحتمل أن يكون ﴿مِنْ آياتِهِ﴾ متعلقا بقوله: ﴿يُرِيكُمُ﴾، والتقدير: ويريكم من آياته البرق، واحتمل أن يكون ﴿مِنْ آياتِهِ﴾ حالا من البرق، والتقدير: ويريكم البرق حال كون البرق من آياته.

د. وهذه وجوه متفرقة لا يخفى عليك بعدها على أن بعضها يخرج الكلام في الآية عن موافقة السياق في الآيات السابقة النظيرة له كالوجهين الأخيرين.

٢. ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أي خوفا من الصاعقة وطمعا في المطر، وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ تقدم تفسيره كرارا، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن أهل التعقل يفقهون أن هناك عناية متعلقه بهذه المصالح فليس مجرد اتفاق وصدفة.

١٢. قيام السماوات والأرض بأمر الله والبَعْث:

المقطع [١٢] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٦٨»:

١. ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾:

أ. القيام مقابل القعود ولما كان أعدل حالات الإنسان حيث يقوى به على عامة أعماله أستعير لثبوت الشيء واستقراره على أعدل حالاته كما يستعار لتدبير الأمر، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]

ب. والمراد بقيام السماء والأرض بأمر من الله ثبوتهما على حالهما من حركة وسكون وتغير وثبات بأمره تعالى وقد عرف أمره بقوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]

٢. ﴿ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾:

أ. ﴿إِذا﴾ الأولى شرطية و﴿إِذا﴾ الثانية فجائية قائمة مقام فاء الجزاء و﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ متعلق بقوله: ﴿دَعْوَةً﴾ والجملة معطوفة على محل الجملة الأولى لأن المراد بالجملة أعني قوله: ﴿ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ﴾ البعث والرجوع إلى الله وليس في عداد الآيات بل الجملة إخبار بأمر احتج عليه سابقا وسيحتج عليه لاحقا.

ب. وأما قول القائل: إن الجملة على تأويل المفرد وهي معطوفة على ﴿أَنْ تَقُومَ﴾ والتقدير ومن آياته قيام السماء والأرض بأمره ثم خروجكم إذا دعاكم دعوة من الأرض.

ج. فلازمه كون البعث معدودا من الآيات وليس منها على أن البعث أحد الأصول الثلاثة التي يحتج بالآيات عليه، ولا يحتج به على التوحيد مثلا بل لو احتج فبالتوحيد عليه فافهم ذلك.

د. ولما كانت الآيات المذكورة من خلق البشر من تراب وخلقهم أزواجا واختلاف ألسنتهم وألوانهم ومنامهم وابتغائهم من فضله وإراءة البرق وتنزيل الماء من السماء كلها آيات راجعة إلى تدبير أمر الإنسان كان المراد بقوله: ﴿أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ﴾ بمعونة السياق ثبات السماء والأرض على وضعهما الطبيعي وحالها العادية ملائمتين لحياة النوع الإنساني المرتبطة بهما وكان قوله: ﴿ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ﴾ مترتبا على ذلك ترتب التأخير أي إن خروجهم من الأرض متأخر عن هذا القيام مقارن لخرابهما كما ينبئ به آيات كثيرة في مواضع مختلفة من كلامه تعالى.

هـ. ويظهر بذلك أيضا أن المراد من قوله السابق ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقهما من جهة ما يرتبطان بالحياة البشرية وينفعانها.

و. وقد رتبت الآيات المذكورة آخذة من بدء خلق الإنسان وتكونه ثم تصنفه صنفين: الذكر والأنثى ثم ارتباط وجوده بالسماء والأرض واختلاف ألسنتهم وألوانهم ثم السعي في طلب الرزق وسكون المنام ثم إراءة البرق وتنزيل الأمطار حتى تنتهي إلى قيام السماء والأرض إلى أجل مسمى ليتم لهذا النوع الإنساني ما قدر له من أمد الحياة ويعقب ذلك البعث فهذا بعض ما في ترتيب ذكر هذه الآيات من

النكات.

ز. وقد رتبت الفواصل أعني قوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لِلْعالِمِينَ﴾ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ على هذا الترتيب لأن الإنسان يتفكر فيصير عالما ثم إذا سمع شيئا من الحقائق وعاه ثم عقله والله أعلم.

١٣. ملك الله للسماء والأرض وقنوت كل شيء له:

المقطع [١٣] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٧٠»:

١. ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾:

أ. كانت الآيات المذكورة مسوقة لإثبات ربوبيته تعالى وألوهيته كما تقدمت الإشارة إليه ولما انتهى الكلام إلى ذكر البعث والرجوع إلى الله عقب ذلك بالبرهان على إمكانه والحجة مأخوذة من الخلق والتدبير المذكورين في الآيات السابقة.

ب. فقوله: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى إحاطة ملكه الحقيقي لجميع من في السماوات والأرض وهم المحشورون إليه وذلك لأن وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى قيام فقر وحاجة لا استقلال ولا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه وهذا هو الملك الحقيقي الذي أثره جواز تصرف المالك في ملكه كيف شاء فله تعالى أن يتصرف في مملوكيه بنقلهم من النشأة الدنيا إلى النشأة الآخرة.

ج. وقد أكد ذلك بقوله: ﴿كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾ والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوع، على ما ذكره الراغب في المفردات.، والمراد بالطاعة مع الخضوع الطاعة التكوينية، على ما يعطيه السياق، دون التشريعية التي ربما تخلفت.

د. وذلك أنهم الملائكة والجن والإنس فأما الملائكة فليس عندهم إلا خضوع الطاعة، وأما الجن والإنس فهم مطيعون منقادون للعلل والأسباب الكونية وكلما احتالوا في إلغاء أثر علة من العلل أو سبب من الأسباب الكونية توسلوا إلى علة أخرى وسبب آخر كوني ثم علمهم وإرادتهم كاختيارهم جميعا من الأسباب الكونية فلا يكون إلا ما شاء الله أي الذي تمت علله في الخارج ولا يتحقق مما شاءوا إلا ما أذن فيه وشاءه فهو المالك لهم ولما يملكونه.

١٤. بدء الخلق وإعادته والمثل الأعلى لله:

المقطع [١٤] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٧٢»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ بدء الخلق إنشاؤه ابتداء من غير مثال سابق والإعادة إنشاء بعد إنشاء.

٢. ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الضمير الأول للإعادة المفهوم من قوله: ﴿يُعِيدُهُ﴾ والضمير الثاني راجع إليه تعالى على ما يتبادر من السياق.

٣. سؤال وإشكال: وقد استشكل قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الدال ظاهرا على كون الإعادة أسهل وأهون عليه من البدء وهو ينافي كون قدرته مطلقة غير محدودة فإن القدرة اللامتناهية لا تختلف حالها في تعلقها بشيء دون شيء فتعلقها بالصعب والسهل على السواء فلا معنى لاسم التفضيل هاهنا، والجواب: وقد أجيب عنه بوجوه:

أ. منها: أن ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾ راجع إلى الخلق دونه تعالى والإعادة أهون على الخلق لأنه مسبوق بالابتداء الذي يسهل الفعل على الفاعل بتحققه منه مرة أو أزيد بخلاف الابتداء الذي لا يسبقه فعل، فالابتداء أصعب بالطبع بالنسبة إلى الإعادة والإعادة بالعكس، فالمعنى: أن الإعادة أهون من البدء بالنسبة إلى الخلق وإذا كان كذلك بالنسبة إلى الخلق فما ظنك بالخالق.

- وفيه أن رجوع الضمير إلى الخلق خلاف ظاهر الآية.

ب. ومنها: أن أفعل هاهنا منسلخ عن معنى التفضيل فأهون عليه بمعنى هين عليه نظير قوله: ﴿ما عِنْدَ الله خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ﴾

- وفيه أنه تحكم ظاهر لا دليل عليه.

ج. ومنها: أن التفضيل إنما هو للإعادة في نفسها بالقياس إلى الإنشاء الابتدائي لا بالنسبة إليه تعالى ووقوع التفضيل بين فعل منه وفعل لا بأس به كما في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وهذا هو الذي يستفاد من كلام الزمخشري إذ يقول: فإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ﴾ حتى كأنها فضلت على قيام السماوات والأرض بأمره ثم هونت بعد

ذلك؟ قلت: الإعادة في نفسها عظيمة لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء)

• وفيه أن تقييد الوصف بقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ أصدق شاهد على أن القياس الواقع بين الإعادة والإنشاء إنما هو بالنسبة إليه تعالى لا بين نفس الإعادة والإنشاء فالإشكال على ما كان.

د. ومنها: أن التفضيل إنما هو بالنظر إلى الأصول الدائرة بين الناس والموازين المتبعة عندهم لا بالنظر إلى الأمر في نفسه، لما يرون أن تكرر الوقوع حتى لمرة واحدة يوجب سهولته على الفاعل بالنسبة إلى الفعل غير المسبوق بمثله فكأنه قيل: والإعادة أهون عليه بالنظر إلى أصولكم العلمية المتبعة عندكم وإلا فالإنشاء والإعادة بالنسبة إليه تعالى على السواء.

• وفيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن الشأن في استفادته من اللفظ ولا شاهد عليه من جهة لفظ الآية.

هـ. ومنها: ما ذكره أيضا في الكشاف، قال: (ووجه آخر وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد له من فعله لأنها لجزاء الأعمال وجزاؤها واجب والأفعال إما محال والمحال ممتنع أصلا خارج عن المقدور وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة، وإما تفضل والتفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله، وإما واجب لا بد من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع وإذا كانت أبعدها من الامتناع كانت أدخلها في التأتي والتسهل فكانت أهون منها وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء)

• وفيه:

● أولا: أنه مبني على تحقق الأشياء بالأولوية دون الوجوب وقد تحقق في محله بطلانه.

● وثانيا: أن القرب والبعد اللذين ذكرهما تصوير عقلي محض والسهولة والصعوبة وصفان وجوديان يتصف بهما وجود الشيء من حيث صدوره عن فاعله الموجد له ولا يبتني الوصف الوجودي على الاعتبار العقلي.

● وثالثا: أن الإنشاء أيضا كالإعادة في الابتناء على المصلحة وهي الغاية فما لم يكن الإنشاء ذا

مصلحة موجبة لم يتحقق كما أن الإعادة كذلك فهما في القرب والبعد من الامتناع على السواء كما قيل.

● ورابعا: أن مقتضى هذا الوجه كون الإعادة أهون من الإنشاء بالنظر إلى أنفسهما فيعود في الحقيقة إلى الوجه الثالث ويتوجه إليه ما توجه إليه.

٤. والذي ينبغي أن يقال أن الجملة أعني قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ معلل بقوله بعده: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهو الحجة المثبتة لقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾

٥. والمستفاد من قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾:

أ. إن كل وصف كمالي يمثل به شيء في السماوات والأرض كالحياة والقدرة والعلم والملك والجود والكرم والعظمة والكبرياء وغيرها فلله سبحانه أعلى ذلك الوصف وأرفعها من مرتبة تلك الموجودات المحدودة كما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]

ب. وذلك أن كل وصف من أوصاف الكمال اتصف به شيء مما في السماوات والأرض فله في حد نفسه ما يقابله فإنه مما أفاضه الله عليه وهو في نفسه خال عنه فالحي منها ميت في ذاته والقادر منها عاجز في ذاته ولذلك كان الوصف فيها محدودا مقيدا بشيء دون شيء وحال دون حال، وهكذا فالعلم فيها مثلا ليس مطلقا غير محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه وكذلك الحياة والقدرة والملك والعظمة وغيرها.

ج. والله سبحانه هو المفيض لهذه الصفات من فضله والذي له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود وصرف غير مخلوط فلا جهل في مقابل علمه ولا ممات يقابل حياته وهكذا فله سبحانه من كل صفة يتصف به الموجودات السماوية والأرضية، وهي صفات غير ممحضة ولا مطلقة، ما هو أعلاها أي مطلقها ومحضها.

د. فكل صفة توجد فيه تعالى وفي غيره من المخلوقات، فالذي فيه أعلاها وأفضلها والذي في غيره مفضول بالنسبة إلى ما عنده.

هـ. ولما كانت الإعادة متصفة بالهون إذا قيس إلى الإنشاء فيما عند الخلق فهو عنده تعالى أهون أي هون محض غير مخلوط بصعوبة ومشقة بخلاف ما عندنا معاشر الخلق ولا يلزم منه أن يكون في الإنشاء صعوبة ومشقة عليه تعالى لأن المشقة والصعوبة في الفعل تتبع قدرة الفاعل بالتعاكس فكلما قلت القدرة كثرت المشقة وكلما كثرت قلت حتى إذا كانت القدرة غير متناهية انعدمت المشقة من رأس، وقدرته تعالى

غير متناهية فلا يشق عليه فعل أصلا وهو المستفاد من قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن القدرة إذا جاز تعلقها بكل شيء لم تكن إلا غير متناهية فافهم ذلك.

٦. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم أنه في مقام الحجة بالنسبة إلى قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ومحصله أن كل صفة كمالية يتصف به شيء مما في السماوات والأرض من جمال أو جلال فإن لله سبحانه أعلاها أي مطلقها من غير تقييد ومحضها من غير شوب وصرفها من غير خلط.

٧. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، أي إنه تعالى عزيز واجد لكل ما يفقده غيره ممتنع من أن يمتنع عليه شيء حكيم لا يعرض فعله فتور، ولو لم تكن صفة من صفاته مثلا أعلى مما عند غيره من الممكنات كانت محدودة غير مطلقة ومخلوطة غير صرفة غير خالية من النقص والقصور فاستذله ذاك القصور فلم يكن عزيزا على الإطلاق وأحدث ذاك النقص في فعله ثلمة وفتورا فلم يكن حكيما على الإطلاق.

١٥. ضرب المثل من الأنفس لبيان بطلان الشرك:

المقطع [١٥] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٨-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٧٦»:

١. ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ لابتداء الغاية أي ضرب لكم مثلا متخذا من أنفسكم منتزعا من الحالات التي لديكم، وقوله: ﴿هَلْ لَكُمْ﴾ شروع في المثل المضروب والاستفهام للإنكار، و﴿ما﴾ في ﴿مِنْ ما مَلَكَتْ﴾ للنوع أي من نوع ما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء، و﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ شُرَكاءَ﴾ زائدة وهو مبتدأ، وقوله: ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ﴾ تفريع على الشركة، و﴿فَأَنْتُمْ﴾ خطاب شامل للمالكين والمملوكين على طريق التغليب، وقوله: ﴿تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تخافون المماليك الشركاء أن تستبدوا في تصرف المال المشترك من غير إذن منهم ورضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الأحرار.

ب. وهذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أن الله سبحانه مما خلق شركاء في الألوهية والربوبية وقد ألقى المثل في صورة الاستفهام الإنكاري: هل يوجد بين مماليككم من العبيد والإماء من يكونون شركاء لكم في الأموال التي رزقناكم، والحال أنهم مماليك لكم تملكونهم وما في أيديهم، بحيث تخافونهم من التصرف في أموالكم بغير إذن منهم ورضى كما تخافون الشركاء الأحرار من نوع أنفسكم؟! لا يكون ذلك أبدا ولا يجوز أن يكون المملوك شريكا لمولاه في ماله وإذا لم يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة والجن وهم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملك من مخلوقيه وآلهة وأربابا من دونه؟

ج. ثم تمم الكلام بقوله: ﴿كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وفيه تمهيد لما يتلوه من الكلام.

٢. ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾:

أ. إضراب عما يستفاد من ذيل الآية السابقة والتقدير وهؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقل بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم.

ب. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: بل اتبع الذين أشركوا وإنما بدله من قوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سيصفهم بالضلال في قوله: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ فالظلم يستتبع الإضلال الإلهي، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

ج. فقوله: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ استفهام إنكاري مدلوله الإيئاس من نعمة الهداية للمشركين المتبعين لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم وقد تكرر في كلامه تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

٣. ﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾:

أ. نفي لنجاتهم بنصرة الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاة من الضلال وتبعاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم ونفي الجمع دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء.

ب. وقول القائل إن معنى نفي الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابلة الجمع بالجمع غير مطرد.

ج. ومعنى الآية: بل اتبع الذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم وتعقل فأضلهم الله بظلمهم ولا هادي يهديهم وليس لهم ناصرون ينصرونهم.

١٦. إقامة الوجه للدين حنيفاً والفطرة:

المقطع [١٦] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهَّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهَّ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٧٧»:

١. ﴿فَأَقِمْ وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾، لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهَّ﴾ وبيان معنى الفطرة الإلهية]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية تأمر بإقامة الوجه للدين الحنيف، وأن الحنيفية هي الاعتدال والاستقامة، وأن الدين المقصود هو الإسلام الذي تدعو إليه الخلقة الإلهية.

ب. إثبات أن الفطرة الإنسانية هي الأساس الثابت للسنة الدينية، وأن الإنسان مفطور على معرفة ربه وعلى الإقرار بالتوحيد، كما ورد في الروايات.

ج. توضيح أن الفطرة لا تبديل لها، وأن الدين القيم هو ما يوافق الفطرة الإنسانية، وأن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

د. بيان أن المراد بالفطرة في الروايات هو التوحيد والولاية، وأن الإنسان مفطور على الاعتراف بالله والرسول والأئمة عليهم السلام بوجه إجمالي.

هـ. الرد على الأقوال التي حملت الفطرة على الملة أو على دلالة الخلقة على الصانع، وبيان أنها لا تفي بالمعنى القرآني.

و. عرض الروايات الواردة في تفسير الفطرة، وبيان أنها تدل على أن الفطرة هي المعرفة بالله وأن الولاية هي تمام الدين.

٢. وضع هنا مبحثا حول [معنى كون الدين فطرياً]، خلاصته:

أ. كل نوع من الموجودات يسير سيراً تكوينياً معيناً ذا مراحل، يرد النوع في كل منها بعد المرور بالبعض الذي قبله، ولا يزال يستكمل حتى ينتهي إلى نهاية كماله، وهذا التوجه التكويني يسمى هداية عامة إلهية، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾

ب. النوع الإنساني غير مستثنى من هذه الهداية العامة، لكنه يفارق سائر الأنواع في أنه لسعة حاجته التكوينية لا يقدر على تتميم نواقصه وحده، بل يحتاج إلى اجتماع منزلي ثم اجتماع مدني، والاجتماع لا يتم إلا بأصول علمية وقوانين اجتماعية يحترمها الكل، وهذه الأصول والقوانين تختلف باختلاف الاعتقادات (مادية، وثنية، توحيدية)

ج. السنن والقوانين الاجتماعية هي قضايا عملية اعتبارية تابعة للمصالح (الكمالات الإنسانية الحقيقية)، وحوائج الإنسان الحقيقية هي ما تطلبه النفس ويصدقه العقل، لا ما تطلبه الأهواء النفسانية، ومن الواجب أن يتخذ الدين من اقتضاءات الخلقة الإنسانية وينطبق على الفطرة والتكوين.

د. الإسلام يسمى دين الفطرة لأن الفطرة الإنسانية تقتضيه، ويسمى إسلاماً لما فيه من تسليم العبد لإرادة الله، ويسمى دين الله وسيله الله، والدين الحق يجب أن يؤخذ من طريق الوحي والنبوة، ولا يكفي فيه العقل، كما تقدم في مباحث النبوة.

١٧. الإنابة إلى الله والتقوى والنهي عن الشرك والفرقة:

المقطع [١٧] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١ـ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٨١»:

١. ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

أ. تعميم للخطاب بعد تخصيصه بالنبي ﷺ نظير قوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ﴾ [الطلاق: ١] وقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢]

ب. فيئول المعنى إلى نحو من قولنا: فأقم وجهك للدين حنيفا أنت ومن معك منيبين إلى الله، والإنابة الرجوع بالتوبة.

٢. ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ التقوى بحسب دلالة المقام يشمل امتثال أوامره والانتهاء عن

نواهيه تعالى فاختصاص إقامة الصلاة من بين سائر العبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهي عمود الدين.

٣. ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ القول في اختصاصه من بين المحرمات بالذكر نظير القول في الصلاة فالشرك بالله أكبر الكبائر الموبقة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات.

٤. ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾:

أ. (من) للتبيين و﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾، بيان للمشركين وفيه تعريفهم بأخص صفاتهم في دينهم وهو تفرقهم في دينهم وعودهم شيعة شيعة وحزبا حزبا يفرح ويسر كل شيعة وحزب بما عندهم من الدين والسبب في ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الأهواء وأنه لا يهديهم ولا هادي غيره.

ب. ومن المعلوم أن هوى النفس لا يتفق في النفوس بل ولا يثبت على حال واحدة دون أن يختلف باختلاف الأحوال وإذا كان هو الأساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء وينزل بنزولها، ولا فرق في ذلك بين الدين الباطل والدين الحق المبني على أساس الهوى.

ج. ومن هنا يظهر أن النهي عن تفرق الكلمة في الدين نهي في الحقيقة عن بناء الدين على أساس الهوى دون العقل، وربما احتمل كون الآية استئنافا من الكلام وهو لا يلائم السياق.

د. وفي الآية ذم للمشركين بما عندهم من صفة التفرق في الكلمة والتحزب في الدين.

١٨. دعاء الله عند الضر ثم الشرك عند الرحمة:

المقطع [١٨] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٨٢»:

١. ﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾:

أ. التعبير بالمس للدلالة على القلة والخفة وتنكير ضر ورحمة أيضا لذلك والمعنى: إذا أصاب الناس شيء من الضر ولو قليلا كمرض ما وفقر ما وشدة ما دعوا ربهم وهو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثم إذا أذاقهم الله من عنده رحمة إذا فريق من هؤلاء الناس بربهم الذي كانوا يدعونه ويعترفون بربوبيته يشركون باتخاذ الأنداد والشركاء.

ب. أي إنهم كافرون للنعمة طبعا وإن اعترفوا بها عند الضر وقد أخذ لذلك فريقا منهم لأن منهم من ليس كذلك.

٢. ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد لأولئك المشركين عند إذاقة الرحمة واللام في ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ للأمر الغائب وقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ متفرع على سابقه وهو أمر آخر والأمران جميعا للتهديد، والالتفات من الأمر الغائب إلى الأمر الحاضر لثوران الوجد والسخط من تفريطهم في جنب الله واستهانتهم بأمره فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرعوا عند الضر ويكفروا إذا كشف.

٣. ﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾:

أ. ﴿أَمْ﴾ منقطعة والمراد بالإنزال الاعلام أو التعليم مجازا، والسلطان البرهان، والمراد بالتكلم الدلالة مجازا فالمعنى بل أعلمناهم برهانا فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم.

ب. ويمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان وهو الملك فلا مجاز في الإنزال والتكلم والمعنى: بل أأنزلنا عليهم ملكا فهو يتكلم بها كانوا به يشركون أو بشركهم.

١٩. فرح الناس بالرحمة وقنوطهم عند السيئة:

المقطع [١٩] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَّ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٦-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٨٣»:

١. ﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾:

أ. الإذاقة كالمس تدل على قليل النيل ويسيره، والقنوط اليأس.

ب. وإذا الأولى شرطية والثانية فجائية والمقابلة بين ﴿إِذا﴾ في إذاقة الرحمة و﴿إِنْ﴾ في إصابة السيئة لأن الرحمة كثيرة قطعية والسيئة قليلة احتمالية، ونسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة لأن الرحمة وجودية

مفاضة منه تعالى والسيئة عدمية هي عدم الإفاضة ولذا عللها بقوله: ﴿بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وفي تعليل السيئة بذلك وعدم التعليل في جانب الرحمة بشيء إشارة إلى أن الرحمة تفضل.

ج. والتعبير في الرحمة بقوله: ﴿فَرِحُوا﴾ وفي السيئة بقوله: ﴿إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ للدلالة على حدوث القنوط ولم يكن بمترقب فإن الرحمة والسيئة بيد الله والرحمة واسعة ولهذا عبر بالمضارع الدال على الحال لتمثيل حالهم.

د. والمراد بالآية بيان أن الناس لا يعدو نظرهم ظاهر ما يشاهدونه من النعمة والنقمة إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يتبصروا ويعقلوا أن الأمر بيد غيرهم وبمشية من ربهم إذا لم يشأ لم يكن، وإذا فقدوا قنطوا كان ليس ذلك بإذن من ربهم وإذا لم يشأ لم يأذن وفتح باب النعمة فهم ظاهريون سطحيون.

هـ. وبهذا يتضح أن لا تدافع بين هذه الآية وبين قوله السابق: ﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ الآية وذلك أن مدلول هذه الآية أن أفهامهم سطحية إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا قنطوا ومدلول تلك أنهم إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا دعوا الله وهم قانطون من الشيء وأسبابه منيبين راجعين إلى الله سبحانه فلا تدافع:

• وربما أجيب بأن المراد بالناس في هذه الآية فريق آخر غير الفريق المراد بالناس في الآية السابقة ولو فرض اتحادهما كان ما ذكر من دعائهم في حال وقنوطهم في حال أخرى.

• وأجيب عنه أيضا بأن الدعاء لساني جار على العادة ولا ينافي القنوط الذي هو أمر قلبي وأنت خبير بما في كل من الجوابين من الفتور.

• وأجيب أيضا أن المراد بقنوطهم فعلهم فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء، وفيه مضافا إلى عدم الدليل على ذلك أنه لا يلائم معنى المفاجأة في القنوط.

٢. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. بيان لخطئهم في المبادرة إلى الفرح والقنوط عند إذاقة الرحمة وإصابة السيئة فإن الرزق في سعته وضيقه تابع لمشية الله فعلى الإنسان أن يعلم أن الرحمة التي ذاقها والسيئة التي أصابته ممكنة الزوال بمشية الله سبحانه ولا موجب للفرح بما لا يؤمن فقده ولا للقنوط مما يرجى زواله.

ب. وأما أنه أمر ظاهر للإنسان مقطوع به كأنه يراه فلأن الرزق الذي يناله الإنسان أو يكتسبه

متوقف الوجود على ألوف وألوف من الأسباب والشرائط ليس الإنسان الذي يراه لنفسه إلا أحد تلك الأسباب ولا السبب الذي يركن إليه ويطيب به نفسا إلا بعض تلك الأسباب وعامة الأسباب منتهية إليه سبحانه فهو الذي يعطي ويمنع وهو الذي يبسط ويقدر أي يوسع ويضيق، والباقي ظاهر.

٢٠. إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل:

المقطع [٢٠] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٨٥»:

١. ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾:

أ. ذو القربى صاحب القرابة من الأرحام والمسكين أسوأ حالا من الفقير وابن السبيل المسافر ذو الحاجة، وإضافة الحق إلى الضمير تدل على أن لذي القربى حقا ثابتا، والخطاب للنبي ﷺ، فظاهر الآية بما تحتف به من القرائن أن المراد بها الخمس والتكليف للنبي ﷺ ويتبعه غيره ممن كلف بالخمس، والقرابة على أي حال قرابة النبي ﷺ كما في آية الخمس، هذا كله على تقدير كون الآية مدنية وأما على تقدير كونها مكية كسائر آيات السورة فالمراد مطلق الإحسان للقرابة والمسكين وابن السبيل.

ب. ولعموم الآية معنى عمم ذكره أثره الجميل فقال: ﴿ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

٢١. الربا لا يربو عند الله والزكاة يضاعفها:

المقطع [٢١] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٨٥»:

١. ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ، وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ الربا نماء المال، وقوله: ﴿لِيَرْبُوَا﴾، يشير إلى وجه التسمية، فالمراد أن المال الذي تؤتونه الناس ليزيد في أموالهم لا إرادة لوجه الله، بقرينة ذكر إرادة الوجه في مقابله، فليس يزيد وينمو عند الله أي لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه.

٢. ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾:

أ. المراد بالزكاة مطلق الصدقة أي إعطاء المال لوجه الله من غير تبذير، والمضعف ذو الضعف، والمعنى: وما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فأولئك هم الذين يضاعف لهم مالهم أو ثوابهم.

ب. فالمراد بالربا والزكاة بقرينة المقابلة وما احتف بهما من الشواهد، الربا الحلال وهو العطية من غير قربة، والصدقة وهي إعطاء المال مع قصد القربة، هذا كله على تقدير كون الآية مكية وأما على تقدير كونها مدنية فالمراد بالربا الربا المحرم وبالزكاة هي الزكاة المفروضة.

ج. وهذه الآية والتي قبلها أشبه بالمدنيات منها بالمكيات ولا اعتبار بما يدعى من الرواية أو الإجماع المنقول.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن إبراهيم اليماني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الربا رباءان: ربا يؤكل وربا لا يؤكل، فأما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل، تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك الربا الذي يؤكل، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ﴾ وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه وأوعد عليه النار.

• أقول: ورواه أيضا في التهذيب، عن إبراهيم بن عمر عنه عليه السلام، وفي تفسير القمي، عن حفص بن غياث عنه عليه السلام، وفي المجمع: (مرسلا عن أبي جعفر عليه السلام.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ قال أمير المؤمنين عليه السلام: فرض الله الصلاة تنزيها عن الكبر، والزكاة تسبيبا للرزق، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق، وصلة الأرحام منماة للعدد.

ج. وفي الفقيه خطبة للزهراء عليه السلام وفيها: ففرض الله الإيمان تطهيرا من الشرك والصلاة، تنزيها عن الكبر والزكاة زيادة في الرزق.

٢٢. الخلق والرزق والإماتة والإحياء:

المقطع [٢٢] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:

٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٩٤»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. اسم الجلالة مبتدأ و﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خبره، وكذا قوله: ﴿مَنْ يَفْعَلُ﴾ مبتدأ خبره ﴿مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ المقدم عليه والاستفهام إنكاري وقد ذكر في تركيب الآية احتمالات أخر.

ب. والمعنى: أن الله سبحانه هو الذي اتصف بكذا وكذا وصفا من أوصاف الألوهية والربوبية فهل من الآلهة الذين تدعون أنهم آلهة من يفعل شيئا من ذلكم يعني من الخلق والرزق والإماتة والإحياء وإذ ليس منهم من يفعل شيئا من ذلكم فالله سبحانه هو إلهكم وربكم لا إله إلا هو.

ج. ولعل الوجه في ذكر الخلق مع الرزق والإحياء والإماتة مع تكرر تقدم ذكره في سلك الاحتجاجات السابقة الإشارة إلى أن الرزق لا ينفك عن الخلق بمعنى أن بعض الخلق يسمى بالقياس إلى بعض آخر يديم بقاءه به رزقا فالرزق في الحقيقة من الخلق فالذي يخلق الخلق هو الذي يرزق الرزق.

د. فليس لهم أن يقولوا: إن الرازق وكذا المحيي والمميت بعض آلهتنا كما ربما يدعيه بعضهم أن مدبر عالم الإنسان بعض الآلهة ومدبر كل شأن من شئون العالم من الخيرات والشرور بعضهم لكنهم لا يختلفون أن الخلق والإيجاد منه تعالى لا يشاركه في ذلك أحد فإذا سلم ذلك ومن المسلم أن الرزق مثلا خلق وكذا سائر الشئون لا تنفك عن الخلق رجع الأمر كالخلق إليه تعالى ولم يبق لآلهتهم شأن من الشئون.

هـ. ثم نزه سبحانه نفسه عن شركهم فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

٢٣. الفساد في البر والبحر بسبب أعمال الناس:

المقطع [٢٣] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤١-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٩٥»:

١. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

أ. الآية بظاهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعة خاصة، فالمراد بالبر

والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطح الكرة الأرضية.

ب. والمراد بالفساد الظاهر المصائب والبلايا الظاهرة فيهما الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل وقطع الأمطار والسنين والأمراض السارية والحروب والغارات وارتفاع الأمن وبالجملة كل ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي سواء كان مستندا إلى اختيار الناس أو غير مستند إليه، فكل ذلك فساد ظاهر في البر أو البحر مخل بطيب العيش الإنساني.

٢. ﴿بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي بسبب أعمالهم التي يعملونها من شرك أو معصية وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾، الآية: [الأعراف: ٩٦] وأيضا في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب أن بين أعمال الناس والحوادث الكونية رابطة مستقيمة يتأثر إحداهما من صلاح الأخرى وفسادها.

٣. ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾:

أ. اللام للغاية، أي ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيئة بل ليذيقهم نفس ما عملوا وقد ظهر في صورة الوبال وإنما كان بعض ما عملوا لأن الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]

ب. والآية ناظرة إلى الوبال الدنيوي وإذاقة بعضه لأكله من غير نظر إلى وبال الأعمال الأخروي فما قيل: إن المراد إذاقة الوبال الدنيوي وتأخير الوبال الأخروي إلى يوم القيامة لا دليل عليه ولعله جعل تقدير الكلام: (ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا مع أن التقدير (ليذيقهم جزاء بعض ما عملوا)، لأن الذي يحوجنا إلى تقدير المضاف، لو أحوجنا، هو أن الراجع إليهم ثانيا في صورة الفساد هو جزاء أعمالهم لا نفس أعمالهم فالذي أذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا.

٤. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم ومعاصيهم إلى التوحيد والطاعة.

٥. ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه لما احتج في الآية السابقة على التوحيد ونزهه عن شركهم أشار في هذه الآية إلى ما يستتبع الشرك، وهو معصية، من الفساد في الأرض وإذاقة وبال السيئات فبين ذلك بيان عام.

٦. ولهم في الآية تفاسير مختلفة عجيبة:

أ. كقول بعضهم المراد بالأرض أرض مكة.

ب. وقول بعضهم: المراد بالبر القفار التي لا يجري فيها نهر وبالبحر كل قرية على شاطئ نهر عظيم.

ج. وقول بعضهم: البر الفيافي ومواضع القبائل والبحر السواحل والمدن التي عند البحر والنهر.

د. وقول بعضهم: البر البرية والبحر المواضع المخصبة الخضرة.

هـ. وقول بعضهم: إن هناك مضافا محذوفا والتقدير في البر ومدن البحر.

و. ولعل الذي دعاهم إلى هذه الأقاويل ما ورد أن الآية ناظرة إلى القحط الذي وقع بمكة إثر دعاء النبي ﷺ على قريش لما لجوا في كفرهم وداموا على عنادهم فأرادوا تطبيق الآية على سبب النزول فوقعوا فيما وقعوا من التكلف.

٧. وقول بعضهم: إن المراد بالفساد في البر قتل ابن آدم أخاه وفي البحر أخذ كل سفينة غصبا وهو كما ترى.

٨. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أمر للنبي ﷺ أن يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار الذين كانوا من قبل حيث خربت ديارهم وعفت آثارهم وبادوا عن آخرهم وانقطع دابرهم بأنواع من النوائب والبلايا كان أكثرهم مشركين فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا إلى التوحيد، فالآية في مقام الاستشهاد لمضمون الآية السابقة.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ قال: في البر فساد الحيوان إذا لم يمطر، وكذلك هلاك دواب البحر بذلك.

ب. وقال الصادق عليه السلام: حياة دواب البحر بالمطر، فإذا كف المطر ظهر الفساد في البر والبحر، وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي.

• أقول: وهو من الجري.

ج. وفي روضة الكافي، بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ فقال: عنى بذلك أي

انظروا في القرآن، فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم)

٢٤. إقامة الوجه للدين القيم:

المقطع [٢٤] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم: ٤٣-٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٩٧»:

١. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ تفريع على ما تقدمه أي إذا كان الشرك والكفر بالحق بهذه المثابة وله وبال سيلحق بالمتلبس به فأقم وجهك للدين القيم.

٢. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَأَقِمْ﴾ والمرد مصدر ميمي بمعنى الرد وهو بمعنى الراد واليوم الذي لا مرد له من الله يوم القيامة.

٣. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾:

أ. أصله يتصدعون، والتصدع في الأصل تفرق أجزاء الأواني ثم استعمل في مطلق التفرق كما قيل، والمراد به، كما قيل، تفرقهم يومئذ إلى الجنة والنار.

ب. وقيل: المراد تفرق الناس بأشخاصهم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾: [القارعة: ٤] ولكل وجه، ولعل الأظهر امتياز الفريقين كما سيأتي.

٤. ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ الظاهر أنه تفسير لقوله في الآية السابقة: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي وبال كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذي سينقلب عليه نارا يخلد فيها وهذا أحد الفريقين.

٥. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾:

أ. مهد الفراش بسطه وإيطاؤه، وهؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقد جيء بالجزاء ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ جمعا نظرا إلى المعنى، كما أنه جيء به مفردا في الشرطية السابقة ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ نظرا إلى اللفظ، واكتفى في الشرط بذكر العمل الصالح ولم يذكر الإيمان معه لأن العمل إنما يصلح

بالإيمان على أنه مذكور في الآية التالية.

ب. والمعنى: والذين عملوا عملا صالحا، بعد الإيمان، فلأنفسهم يوطئون ما يعيشون به ويستقرون عليه.

٦. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾:

أ. قال الراغب: (الجزاء الغناء والكفاية، قال الله تعالى: ﴿لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾، وقال: ﴿لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً﴾ والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرا فخير وإن شرا فشر، يقال: جزيته كذا وبكذا)

ب. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ اللام للغاية ولا ينافي عد ما يؤتيهم جزاء، وفيه معنى المقابلة، عده من فضله وفيه معنى عدم الاستحقاق وذلك لأنهم بأعيانهم وما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله سبحانه فلا يملكون لأنفسهم شيئا حتى يستحقوا به أجرا، وأين العبودية من الملك والاستحقاق فما يؤتونه من الجزاء فضل من غير استحقاق.

ج. لكنه سبحانه بفضله ورحمته اعتبر لهم ملكا لأعمالهم في عين أنه يملكهم ويملك أعمالهم فجعل لهم بذلك حقا يستحقونه، وجعل ما ينالونه من الجنة والزلفى أجرا مقابلا لأعمالهم وهذا الحق المجعول أيضا فضل آخر منه سبحانه.

د. ومنشأ ذلك حبه تعالى لهم لأنهم لما أحبوا ربهم أقاموا وجوههم للدين القيم واتبعوا الرسول فيما دعا إليه فأحبهم الله كما قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١]

هـ. ولذا كانت الآية تعد ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء وفيه معنى المقابلة والمبادلة وتعد ذلك من فضله نظرا إلى أن نفس هذه المقابلة والمبادلة فضل منه سبحانه ومنشؤه حبه تعالى لهم كما يومئ إليه تذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾

٧. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾، يفيد التعليل بالنسبة إلى جانبي النفي والإثبات جميعا أي أنه تعالى يخص المؤمنين العاملين للصالحات بهذا الفضل ويحرم الكافرين منه لأنه يحب هؤلاء ولا يحب هؤلاء.

٢٥. إرسال الرياح مبشرات ورحمة وجريان الفلك:

المقطع [٢٥] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٩٩»:

١. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، المراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قبيل نزوله.

٢. ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ عطف على موضع مبشرات لما فيه من معنى التعليل والتقدير يرسل الرياح لتبشركم وليذيقكم من رحمته والمراد بإذاقة الرحمة إصابة أنواع النعم المترتبة على جريان الرياح كتلقيح الأشجار ودفع العفونات وتصفية الأجواء وغير ذلك مما يشمله إطلاق الجملة.

٣. ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ أي لجريان الرياح وهبوبها، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لتطلبوا من رزقه الذي هو من فضله.

٤. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، غاية معنوية كما أن الغايات المذكورة من قبل غايات صورية، والشكر هو استعمال النعمة بنحو ينبئ عن إنعام منعمه أو الثناء اللفظي عليه بذكر إنعامه، وينطبق بالأخرة على عبادته ولذلك جيء بلعل المفيدة للرجاء فإن الغايات المعنوية الاعتبارية ربما تخلفت.

٢٦. إرسال الرسل بالبينات والانتقام من المجرمين ونصر المؤمنين:

المقطع [٢٦] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ١٩٩»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. قال الراغب: (أصل الجرم، بالفتح فالسكون، قطع الثمرة عن الشجر، إلى أن قال، وأجرم صار ذا جرم نحو أثمر وأتمر وألبن وأستعير ذلك لكل اكتساب مكروه، ولا يكاد يقال في عامة كلامهم للكيس المحمود)

ب. والآية كالمعترضة وكأنها مسوقة لبيان أن للمؤمنين حقا على ربهم وهو نصرهم في الدنيا

والآخرة ومنه الانتقام من المجرمين، وهذا الحق مجعول من قبله تعالى لهم على نفسه فلا يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوبا في نفسه مقهورا محكوما لغيره.

٢. ﴿فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ الفاء فصيحة أي فآمن بعضهم وأجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين وكان حقا علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب وإهلاك مخالفيهم، وفي الآية بعض الإشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه من النصر.

٣. في المجمع: (وجاءت الرواية عن أم الدرداء أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من امرئ يرد عن عرض أخيه، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم قرأ: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء.

٢٧. إحياء الأرض بالمطر دليل على قدرة الله على البعث:

المقطع [٢٧] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٤٨-٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٠١»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ﴾:

أ. الإثارة التحريك والنشر والسحاب الغمام والسماء جهة العلو فكل ما علاك وأظلك فهو سماء والكسف بالكسر فالفتح جمع كسفة وهي القطعة والودق القطر من المطر والخلال جمع خلة وهي الفرجة.

ب. والمعنى: الله الذي يرسل الرياح فتحرك وتنشر سحابا ويبسط ذلك السحاب في جهة العلو من الجو كيف يشاء سبحانه ويجعله قطعات متراكبة متراكمة فترى قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لأنه مادة حياتهم وحياة الحيوان والنبات.

٢. ﴿وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾:

أ. الإبلاس: اليأس والقنوط.

ب. وضمير ﴿يُنَزَّلَ﴾ للمطر وكذا ضمير ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ على ما قيل، وعليه يكون ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ تأكيدا لقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ وفائدة التأكيد، على ما قيل، الاعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من اليأس إلى الاستبشار، وذلك أن قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ يحتمل الفسحة في الزمان فجاء ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ للدلالة على الاتصال ودفع ذلك الاحتمال.

ج. وفي الكشاف: (أن قوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى: ﴿فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها﴾ ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك)

د. وربما قيل: إن ضمير ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ لإرسال الرياح، والمعنى: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبل إرسال الرياح لآيسين قانطين.

٣. ﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. الآثار جمع الأثر وهو ما يبقى بعد الشيء فيدل عليه كأثر القدم وأثر البناء وأستعير لكل ما يتفرع على شيء، والمراد برحمة الله المطر النازل من السحاب الذي بسطته الرياح، وآثارها ما يترتب على نزول المطر من النبات والأشجار والأثمار وهي بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها.

ب. ولذا قال: ﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ فجعل آثار الرحمة التي هي المطر كيفية إحياء الأرض بعد موتها، فحياة الأرض بعد موتها من آثار الرحمة والنبات والأشجار والأثمار من آثار حياتها وهي أيضا من آثار الرحمة والتدبير تدبير إلهي يتفرع على خلقة الرياح والسحاب والمطر.

٤. ﴿إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾:

أ. الإشارة بذلك إليه تعالى بما له من الرحمة التي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها، وفي الإشارة البعيدة تعظيم، والمراد بالموتى موتى الإنسان أو الإنسان وغيره من ذوي الحياة.

ب. والمراد بقوله: ﴿إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾ الدلالة على المماثلة بين إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى إذ في كل منهما موت هو سقوط آثار الحياة من شيء محفوظ وحياة هي تجدد تلك الآثار بعد سقوطها،

وقد تحقق الإحياء في الأرض والنبات وحياة الإنسان وغيره من ذوي الحياة مثلها وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد، فإذا جاز الإحياء في بعض هذه الأمثال وهو الأرض والنبات فليجز في البعض الآخر.

٥. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للإحياء المذكور ببيان آخر وهو عموم القدرة فإن القدرة غير محدودة ولا متناهية فيشمل الإحياء بعد الموت وإلا لزم تقيدها وقد فرضت مطلقة غير محدودة.

٦. ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾:

أ. ضمير ﴿فَرَأَوْهُ﴾ للنبات المفهوم من السياق، وقوله: ﴿لَظَلُّوا﴾ جواب للقسم قائم مقام الجزاء، والمعنى: وأقسم لئن أرسلنا ريحا باردة فضربت زروعهم وأشجارهم بالصفار ورأوه لظلوا بعده كافرين بنعمه.

ب. ففي الآية توبيخهم بالتقلب السريع في النعمة والنقمة، فإذا لاحت لهم النعمة بادروا إلى الاستبشار، وإذا أخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلمات من النعم.

ج. وقيل: ضمير ﴿فَرَأَوْهُ﴾ للسحاب لأن السحاب إذا كان أصفر لم يمطر، وقيل: للريح فإنه يذكر ويؤنث، والقولان بعيدان.

٢٨. الموتى والصم والعمي والإسلام:

المقطع [٢٨] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٢-٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٠٤»:

١. ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل: لا تشتغل ولا تحزن بهؤلاء الذين تتبدل بهم الأحوال من إبلاس واستبشار وكفر ومن عدم الإيمان بآياتنا وعدم تعقلها فإنهم موتى وصم وعمي وأنت لا تقدر على إسماعهم وهدايتهم وإنما تسمع وتهدي من يؤمن بآياتنا أي يعقل هذه الحجج ويصدقها فهم مسلمون، وقد تقدم تفسير الآيتين في سورة النمل.

٢٩. خلق الإنسان من ضعف ثم قوة ثم ضعف وشيبة:

المقطع [٢٩] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم:

٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٠٤»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾:

أ. الضعف والقوة متقابلان، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ للابتداء أي ابتداء خلقكم من ضعف أي ابتدأكم ضعفاء، ومصداقه على ما تفيده المقابلة أول الطفولية وإن أمكن صدقه على النطفة.

ب. والمراد بالقوة بعد الضعف بلوغ الأشد وبالضعف بعد القوة الشيخوخة ولذا عطف عليه ﴿شَيْبَةً﴾ عطف تفسير، وتنكير ﴿ضَعْفٍ﴾ و﴿قُوَّةً﴾ للدلالة على الإبهام وعدم تعين المقدار لاختلاف الأفراد في ذلك.

٢. ﴿يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ أي كما شاء الضعف فخلقه ثم القوة بعده فخلقها ثم الضعف بعدها فخلقه وفي ذلك أتم الإشارة إلى أن تتالي هذه الأحوال من الخلق وإذ كان هذا النقل من حال إلى حال في عين أنه تدبير خلقا فهو لله الخالق للأشياء فليس لقائل منهم أن يقول: إن ذلك من التدبير الراجع إلى إله الإنسان، مثلا كما يقوله الوثنية.

٣. ثم تمم الكلام بالعلم والقدرة فقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾

٣٠. قِصر زمن الدنيا بالنسبة للآخرة:

المقطع [٣٠] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٠٥»:

١. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ﴾:

أ. هذه الآيات كالذنابة للآيات السابقة العادة للآيات والحجج على وحدانيته تعالى والبعث، وكالتمهيد والتوطئة للآية التي تختتم بها السورة فإنه لما عد شيئا من الآيات والحجج وأشار إلى أنهم ليسوا ممن يترقب منهم الإيمان أو يطمع في إيمانهم أراد أن يبين أنهم في جهل من الحق يتلقون الحديث الحق باطلا والآيات الصريحة الدلالة منعزلة عن دلالتها وكذلك يؤفكون ولا عذر لهم يعتذرون به.

ب. وهذا الإفك والتقلب من الحق إلى الباطل يدوم عليهم ويلازمهم حتى قيام الساعة فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت والبعث غير ساعة من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم

كل حق فظنوه باطلا.

ج. فقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾، يحكي عنهم اشتباه الأمر عليهم في أمر الفصل بين الدنيا ويوم البعث حتى ظنوه ساعة من ساعات الدنيا.

٢. ﴿كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي يصرفون من الحق إلى الباطل فيدعون إلى الحق ويقام عليه الحجج والآيات فيظنونه باطلا من القول وخرافة من الرأي.

٣١. إيمان أهل العلم بالبعث وعدم نفع المعذرة للظالمين:

المقطع [٣١] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٦-٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٠٦»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾:

أ. رد منهم لقول المجرمين: ﴿ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾ فإن المجرمين لإخلادهم إلى الأرض وتوغلهم في نشأة الدنيا يرون يوم البعث والفصل بينه وبين الدنيا محكوما بنظام الدنيا فقدروا الفصل بساعة وهو مقدار قليل من الزمان كأنهم ظنوا أنهم بعد في الدنيا لأنه مبلغ علمهم.

ب. فرد عليهم أهل العلم والإيمان أن اللبث مقدر بالفصل بين الدنيا ويوم البعث وهو الفصل الذي يشير إليه قوله: ﴿وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]

ج. فاستنتجوا منه أن اليوم يوم البعث ولكن المجرمين لما كانوا في ريب من البعث ولم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنوا أنهم لم يمر بهم إلا ساعة من ساعات الدنيا وهذا معنى قولهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾، أي كنتم جاهلين مرتابين لا يقين لكم بهذا اليوم ولذلك اشتبه عليكم أمر اللبث.

د. ومن هنا يظهر أن المراد بقوله: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ﴾، اليقين والالتزام بمقتضاه وأن العلم بمعنى اليقين بالله وبآياته والإيمان بمعنى الالتزام بمقتضى اليقين من الموهبة الإلهية، ومن هنا يظهر أيضا أن المراد بكتاب الله الكتب السماوية أو خصوص القرآن لا غيره وقول بعضهم: إن في الآية تقديما وتأخيرا والتقدير وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث لا يعتد به.

٢. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاستعتاب طلب العتبى، والعتبى إزالة العتاب أي لا ينفعهم المعذرة عن ظلمهم ولا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم.

٣٢. ضرب الأمثال في القرآن وجحود الكافرين بها:

المقطع [٣٢] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٠٦»:

١. ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، إشارة إلى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحق حيث لا ينفعهم مثل يقرب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع عليها، ولذا عقبه بقوله: ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي جاءون بالباطل وهذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق يرون كل حق باطلا، ووضع الموصول والصلة موضع الضمير للدلالة على سبب القول.

٣٣. طبع الله على قلوب الجاهلين والصبر على وعد الله:

المقطع [٣٣] من سورة الروم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٥٩ـ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٠٧»:

١. ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾، أي يجهلون بالله وآياته ومنها البعث وهم يصرون على جهلهم وارتيابهم.

٢. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾:

أ. أي فاصبر على ما يواجهونك به من قولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وسائر تهكماتهم، إن وعد الله أنه ينصرك حق كما أومأ إليه بقوله: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون بوعد الله سبحانه.

ب. وقول بعضهم: إن المعنى لا يوقنون بما تتلو عليهم من الآيات البينات بتكذيبهم لها وإيذائهم لك بأباطيلهم، ليس بشيء وقد بدأت السورة بالوعد وختمت بالوعد والوعدان جميعا بالنصرة.

سورة لقمان

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة كما يومئ إليه فاتحتها وخاتمتها، ويشير إليه سياق عامة آياتها: الدعوة إلى التوحيد والإيقان بالمعاد، والأخذ بكليات شرائع الدين.

ب. ويلوح من صدر السورة أنها نزلت في بعض المشركين حيث كان يصد الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوقة ملهية، كما ورد فيه الأثر في سبب نزول قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية، وسيوافي حديثه، فنزلت السورة تبين أصول عقائد الدين وكليات شرائعه الحقة، وقصت شيئاً من خبر لقمان الحكيم ومواعظه تجاه أحاديثهم الملهية.

ج. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

د. ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ﴾ الآية.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١١] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن الكريم آيات الكتاب الحكيم، وتمدح المحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوقنون بالآخرة، وتصف الجنة لهم، وتذكر خلق السماوات والأرض، وتأمر بالإحسان إلى الوالدين، وتحذر من الشرك به، وتذكر أن علم كل شيء عند الله.

٢. الآيات [١٢ ـ ١٩] في الآيات إشارة إلى إيتاء لقمان الحكمة، ونبذة من حكمه ومواعظه لابنه، ولم يذكر في القرآن إلا في هذه السورة، ويناسب المورد من حيث مقابلة قصته الممتلئة حكمة وموعظة لما قص من حديث من كان يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً.

٣. الآيات [٢٠ ـ ٣٤] رجوع إلى ما قبل القصة من آيات الوحدانية ونفي الشريك وأدلتها، المنتهية إلى قوله: ﴿هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾

١. آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين:

المقطع [١] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ١-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٠٩»:

١. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. تقدم تفسير مفردات هذه الآيات في السور السابقة.

ب. وقد وصف الكتاب بالحكيم إشعارا بأنه ليس من لهو الحديث من شيء بل كتاب لا انثلام فيه ليداخله لهو الحديث وباطل القول، ووصفه أيضا بأنه هدى ورحمة للمحسنين تتميما لصفة حكمته فهو يهدي إلى الواقع الحق ويوصل إليه لا كاللهو الشاغل للإنسان عما يهمه، وهو رحمة لا نقمة صارفة عن النعمة.

ج. ووصف المحسنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما العمدتان في الأعمال وبالإيقان بالآخرة ويستلزم التوحيد والرسالة وعامة التقوى، كل ذلك مقابلة الكتاب للهو الحديث المصغي إليه لمن يستمع لهو الحديث.

٢. شراء لهو الحديث لإضلال الناس:

المقطع [٢] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٠٩»:

١. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً﴾، اللهو ما يشغلك عما يهمك، ولهو الحديث: الحديث الذي يلهي عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافية والقصص الداعية إلى الفساد والفجور، أو بما يقارنه كالتغني بالشعر أو بالملاهي والمزامير والمعازف فكل ذلك يشمله لهو الحديث.

٢. ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

أ. مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقة الاعتقادية والعلمية وخاصة قصص الأنبياء وأممهم الخالية فإن لهو الحديث والأساطير المزوقة المختلقة تعارض أولا

هذه القصص ثم تهدم بنيان سائر المعارف الحقة وتوهنها في أنظار الناس.

ب. ويؤيد ذلك قوله بعد: ﴿وَيَتَّخِذَها هُزُواً﴾ فإن لهو الحديث بما أنه حديث كما سمعت يعارض أولا الحديث ويتخذه سخريا.

ج. فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص والمعارف وكأن مراد من كان يشتري لهو الحديث أن يضل الناس بصرفهم عن القرآن وأن يتخذ القرآن هزوا بأنه حديث مثله وأساطير كأساطيره.

د. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بيضل وهو في الحقيقة وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين وإن كانوا أيضا لا علم لهم ثم هددهم بقوله: ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ أي مذل يوهنهم ويذلهم حذاء استكبارهم في الدنيا.

٣. ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾:

أ. وصف لذاك الذي يشتري لهو الحديث ليضل الناس عن القرآن ويهزأ به والوقر الحمل الثقيل والمراد بكون الوقر على أذنيه أن يشد عليهما ما يمنع من السمع وقيل: هو كناية عن الصمم.

ب. والمعنى: وإذا تتلى على هذا المشتري لهو الحديث آياتنا أي القرآن ولى وأعرض عنها وهو مستكبر كأن لم يسمعها قط كأنه أصم فبشره بعذاب أليم.

ج. وقد أعيد إلى من يشتري ضمير الإفراد أولا كما في ﴿يَشْتَرِي﴾ و﴿لِيُضِلَ﴾ و﴿يَتَّخِذَها﴾ باعتبار اللفظ والضمير الجمع، ثانيا باعتبار المعنى ثم ضمير الإفراد باعتبار اللفظ كما في ﴿عَلَيْهِ﴾ وغيره كذا قيل، ومن الممكن أن يكون ضمير ﴿لَهُمْ﴾ في الآية السابقة راجعا إلى مجموع المضل والضالين المدلول عليهم بالسياق فتكون الضمائر الراجعة إلى ﴿مِنَ﴾ مفردة جميعا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة، بن عبد الدار بن قصي بن كلاب، كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم، ويحدث بها قريشا ويقول لهم: إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار، وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن: عن الكلبي.

• أقول: وروى هذا المعنى في الدر المنثور، عن البيهقي عن ابن عباس، ولا يبعد أن يكون ذلك

سبب نزول تمام السورة كما تقدمت الإشارة إليه.

ب. وفي المعاني، بإسناده عن يحيى بن عبادة عن أبي عبد الله عليه السلام: قلت: قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال: منه الغناء.

• أقول: وروى هذا المعنى في الكافي، بإسناده عن مهران عنه عليه السلام، وبإسناده عن الوشاء عن الرضا عنه عليه السلام، وبإسناده عن الحسن بن هارون عنه عليه السلام.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: الغناء مما أوعد الله عليه النار وتلا هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾

د. وفيه، بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن كسب المغنيات فقال: التي يدخل عليها الرجال حرام، والتي تدعى إلى الأعراس ليس به بأس، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾

هـ. وفي المجمع: وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ قال: لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام، وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ الآية.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن جم غفير من أصحاب الجوامع عن أبي أمامة عنه ﷺ.

و. وفيه، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: هو الطعن في الحق والاستهزاء به وما كان أبو جهل وأصحابه يجيئون به إذ قال: يا معاشر قريش، ألا أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم؟ ثم أرسل إلى زبد وتمر فقال: هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به، قال: ومنه الغناء.

ز. أخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسين قال: ما قدست أمة فيها البربط.

ح. وفي تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ، لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة، من بني عبد الدار بن قصي، وكان النضر ذا رواية لأحاديث الناس وأشعارهم، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً﴾ الآية.

٣. جنات النعيم للمؤمنين الصالحين:

المقطع [٣] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٨ـ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١٠»:

أ. رجوع بعد إنذار ذاك المشتري وتهديده بالعذاب المهين ثم العذاب الأليم إلى تبشير المحسنين وتطييب أنفسهم بجنة النعيم الخالدة الموعودة من قبله تعالى ووعده الحق.

ب. ولما كان غرض من اشترى لهو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضله بغير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطلة كأساطيره ويهين به وكان لا يعتني بما تتلى عليه من الآيات مستكبرا وذلك استهانة بالله سبحانه أكد أولا ما وعده للمحسنين بقوله: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ ثم وصف ثانيا نفسه بالعزة المطلقة، فلا يطرأ عليه ذلة وأهانه والحكمة المطلقة فلا يداخل كلامه باطل ولا هزل وخرافة.

ج. ثم وصفه ثالثا بأنه الذي يدبر أمر السماء والأرض والنبات والحيوان والإنسان لأنه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنة وأولئك بالعذاب وهو قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾

٤. خلق السموات والأرض وما فيها آية للمؤمنين:

المقطع [٤] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠ـ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١١»:

١. ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] أن قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ يحتمل أن يكون قيدا توضيحيا، والمعنى أنكم ترونها ولا أعمدة لها، وأن يكون قيدا احترازيا والمعنى خلقها بغير أعمدة مرئية إشعارا بأن هناك أعمدة غير مرئية.

٢. ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾، أي ألقى فيها جبالا شامخة لئلا تضطرب بكم وفيه إشعار بأن بين الجبال والزلازل رابطة مستقيمة.

٣. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي نشر في الأرض من كل حيوان يدب عليها.

٤. ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾:

أ. أي وأنزلنا من جهة العلو ماء وهو المطر وأنبتنا فيها شيئا من كل زوج نباتي شريف فيه منافع وله فوائد، وفيه إشارة إلى تزوج النبات وقد تقدم الكلام فيه في نظيره.

ب. والالتفات فيها من الغيبة إلى التكلم مع الغير للإشارة إلى كمال العناية بأمره كما قيل.

٥. ﴿هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾:

أ. لما أراهم خلقه وتدبيره تعالى للسماوات والأرض وما عليها فأثبت به ربوبيته وألوهيته تعالى كلفهم أن يروه شيئا من خلق آلهتهم إن كانوا آلهة وأربابا فإن لم يقدروا على إراءة شيء ثبت بذلك وحدانيته تعالى في ألوهيته وربوبيته.

ب. وإنما كلفهم بإراءة شيء من خلق آلهتهم، وهم يعترفون أن الخلق لله وحده ولا يسندون إلى آلهتهم خلقا وإنما ينسبون إليهم التدبير فقط، لأنه نسب إلى الله خلقا هو بعينه تدبير من غير انفكاك، فلو كان لآلهتهم تدبير في العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره وإذ ليس لهم خلق فليس لهم تدبير فلا إله إلا الله ولا رب غيره.

ج. وقد سيقت الآية خطابا من النبي ﷺ لأن نوع هذا الخطاب ﴿فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ لا يستقيم من غيره ﷺ.

٥. إيتاء لقمان الحكمة وأمره بشكر الله:

المقطع [٥] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١٤»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلهِ﴾:

أ. الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية النافعة وهي وسط الاعتدال بين الجهل والجربزة، وقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ قيل: هو بتقدير القول أي وقلنا: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾

ب. والظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول، وذلك أن حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الذي ينبغي له بحيث يشير إلى إنعام المنعم، وإيقاعه كما هو حقه يتوقف على معرفة المنعم

ومعرفة نعمه بما هي نعمة وكيفية وضعها موضعه بحيث يحكي عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له إلى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالملازمة.

ج. وفي قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ للهِّ﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة وذلك أن التكلم مع الغير من المتكلم إظهار للعظمة بالتكلم عن قبل نفسه وخدمه وقول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر وهو ظاهر.

٢. ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

أ. استغناء منه تعالى أن نفع الشكر إنما يرجع إلى نفس الشاكر والكفر لا يتضرر به إلا نفسه دونه سبحانه ومن يشكر فإنما يوقع الشكر لنفع نفسه ولا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق ومن كفر فإنما يتضرر به نفسه إن الله غني لا يؤثر فيه الشكر نفعا ولا ضرا حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر.

ب. وفي التعبير عن الشكر بالمضارع الدال على الاستمرار وفي الكفر بالماضي الدال على المرة إشعار بأن الشكر إنما ينفع مع الاستمرار لكن الكفر يتضرر بالمرة منه.

٣. وضع هنا مبحثا حول [قصة لقمان ونبذ من حكمه]، خلاصته:

أ. لم يرد اسم لقمان في القرآن إلا في سورة لقمان، ولم يذكر من قصصه إلا أنه آتاه الله الحكمة وأمره بالشكر، وقد وردت في قصته وحكمه روايات كثيرة مختلفة، نورد بعضها.

ب. لقمان لم يكن نبياً، بل كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين، أحب الله فأحبه ومن عليه بالحكمة، وقد عرضت عليه الخلافة فرفضها، مفضلاً العافية على البلاء، لأن الحكم أشد المنازل وأكثر فتناً، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً خير من العكس.

ج. ورد في الروايات أن لقمان كان حبشياً، وكان قوياً في أمر الله، متورعاً، ساكتاً، مستكيناً، عميق النظر، طويل الفكر، لم يضحك قط، ولم يغضب قط، ولم يفرح بشيء من الدنيا، ولم يحزن على شيء منها، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء.

د. مواعظ لقمان لابنه شملت: التوحيد، وتحذير الشرك، ومجالسة العلماء، وعدم الجدال معهم، وأخذ البلاغ من الدنيا دون الترفض أو الدخول المضر بالآخرة، والصوم الذي يقطع الشهوة ولا يمنع الصلاة، وجعل الإيمان سفينة والتوكل شراعها والتقوى زادها.

هـ. من حكمه: لا تركن إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها، فإن الله لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين ولا بلاءها عقوبة للعاصين، ولا تتكلف ما قد كفيته، ولا تضيع ما وليته، وصاحب مائة ولا تعاد واحداً، وكن عبداً للأخيار ولا تكن ولداً للأشرار، وأد الأمانة تسلم دنياك وآخرتك.

و. حذر لقمان من الضجر وسوء الخلق وقلة الصبر، وأوصى بحسن الخلق مع جميع الناس، والرضا بالقسم، وقطع الطمع مما في أيدي الناس، فإن الأنبياء والصديقين بلغوا ما بلغوا بقطع طمعهم.

٦. تحذير لقمان لابنه من الشرك الأعظم:

المقطع [٦] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١٥»:

أ. عظمة كل عمل بعظمة أثره وعظمة المعصية بعظمة المعصي فإن مؤاخذة العظيم عظيمة فأعظم المعاصي معصية الله لعظمته وكبريائه فوق كل عظمة وكبرياء بأنه الله لا شريك له وأعظم معاصيه معصيته في أنه الله لا شريك له.

ب. ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ حيث أطلق عظمته من غير تقييد بقياسه إلى سائر المعاصي يدل على أن له من العظمة ما لا يقدر بقدر.

٧. الوصية بالوالدين وشكرهما مع عدم طاعتهما في الشرك:

المقطع [٧] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١٥»:

١. ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾:

أ. اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان وليس من كلام لقمان وإنما اطرد هاهنا للدلالة على وجوب

ب. شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لانتهائه إلى وصيته وأمره تعالى، فشكرهما عبادة له تعالى وعبادته شكر.

٢. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾:

أ. ذكر بعض ما تحملته أمه من المحنة والأذى في حمله وتربيته ليكون داعيا له إلى شكرهما وخاصة الأم.

ب. والوهن الضعف وهو حال بمعنى ذات وهن أو مفعول مطلق والتقدير تهن وهنا على وهن، والفصال الفطم وترك الإرضاع، ومعنى كون الفصال في عامين تحققه بتحقق العامين فيئول إلى كون الإرضاع عامين، وإذا ضم إلى ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ [الأحقاف: ١٥] بقي لأقل الحمل ستة أشهر، وستكرر الإشارة إليه فيما سيأتي.

٣. ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾:

أ. تفسير لقوله: ﴿وَصَّيْنَا﴾، في أول الآية أي كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله، وقوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ إنذار وتأكيد للأمر بالشكر.

ب. والقول في الالتفات الواقع في الآية في قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، من سياق التكلم مع الغير إلى سياق التكلم وحده كالقول في الالتفات في قوله السابق: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾

٤. ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾:

أ. أي إن ألحا عليك بالمجاهدة أن تجعل ما ليس لك علم به أو بحقيقته شريكا لي فلا تطعهما ولا تشرك بي، والمراد بكون الشريك المفروض لا علم به كونه معدوما مجهولا مطلقا لا يتعلق به علم فيئول المعنى: لا تشرك بي ما ليس بشيء، هذا محصل ما ذكره في الكشاف، وربما أيده قوله تعالى: ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]

ب. وقيل: ﴿تُشْرِكَ﴾ بمعنى تكفر و﴿ما﴾ بمعنى الذي، والمعنى: وإن جاهداك أن تكفر بي كفرا لا حجة لك به فلا تطعهما ويؤيده تكرار نفي السلطان على الشريك في كلامه تعالى كقوله: ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ [يوسف: ٤٠] إلى غير ذلك من الآيات.

٥. ﴿وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾:

أ. الجملتان كالتلخيص والتوضيح لما تقدم في الآيتين من الوصية بهما والنهي عن إطاعتهما إن

جاهدا على الشرك بالله.

ب. يقول سبحانه: يجب على الإنسان أن يصاحبهما في الأمور الدنيوية غير الدين الذي هو سبيل الله صحابا معروفا ومعاشرة متعارفة غير منكرة من رعاية حالهما بالرفق واللين من غير جفاء وخشونة وتحمل المشاق التي تلحقه من جهتهما فليست الدنيا إلا أياما معدودة متصرمة، وأما الوالدين فإن كانا ممن أناب إلى الله فلتتبع سبيلهما وإلا فسبيل غيرهما ممن أناب إلى الله.

ج. ومن هنا يظهر أن في قوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾ إيجازا لطيفا فهو يفيد أنهما لو كانا من المنيبين إلى الله فلتتبع سبيلهما وإلا فلا يطاعا ولتتبع سبيل غيرهما ممن أناب إلى الله.

٦. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. أي هذا الذي ذكر، تكليفكم في الدنيا ثم ترجعون إلي يوم القيامة فأظهر لكم حقيقة أعمالكم التي عملتموها في الدنيا فأقضي بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر.

ب. وبها مر يظهر أن قوله: ﴿فِي الدُّنْيا﴾ يفيد أولا قصر المصاحبة بالمعروف في الأمور الدنيوية دون الدينية، وثانيا: تهوين أمر الصحبة وأنها ليست إلا في أيام قلائل فلا كثير ضير في تحمل مشاق خدمتهما، وثالثا المقابلة ليوم الرجوع إلى الله المشار إليه بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن من الكبائر عقوق الوالدين، واليأس من روح الله والأمن من مكر الله

ب. وقد روي: أكبر الكبائر الشرك بالله.

ج. وفي الفقيه، في الحقوق المروية عن سيد العابدين عليه السلام: حق الله الأكبر عليك أن تعبده ولا تشرك به شيئا، فإذا فعلت ذلك بإخلاص، جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة، قال: وأما حق أمك، أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحدا، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحدا، ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتظلك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحر والبرد لتكون لها، فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه، وأما حق أبيك فأن تعلم أنه أصلك، فإنك لولاه لم تكن فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك،

فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه، فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله.

د. وفي الكافي، بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك.

هـ. وفي المناقب: مر الحسين بن علي عليه السلام، على عبد الرحمن بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء، فلينظر إلى هذا المجتاز وما كلمته منذ ليالي صفين، فأتى به أبو سعيد الخدري إلى الحسين عليه السلام، فقال له الحسين عليه السلام: أتعلم أني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء، وتقاتلني وأبي يوم صفين؟ والله إن أبي لخير مني، فاستعذر، وقال إن النبي ﷺ قال لي: أطع أباك، فقال له الحسين عليه السلام: أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ وقال رسول الله ﷺ: إنما الطاعة بالمعروف، وقوله: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

و. وفي الفقيه في ألفاظه ﷺ الموجزة: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

٨. علم الله بما في السماوات والأرض من خردلة فما فوقها:

المقطع [٨] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١٧»:

١. ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾:

أ. ذكروا أن الضمير في ﴿إِنَّها﴾ للخصلة من الخير والشر لدلالة السياق على ذلك وهو أيضا اسم كان و﴿مِثْقالَ حَبَّةٍ﴾ خبره، والمراد بكونها في صخرة اختفاؤها بالاستقرار في جوف الصخرة الصماء أو في السماوات أو في الأرض، والمراد بالإتيان بها إحضارها للحساب والجزاء.

ب. كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعا إلى التوحيد ونفي الشريك وما في هذه الآية فصل ثان في المعاد وفيه حساب الأعمال، والمعنى: يا بني إن تكن الخصلة التي عملت من خير أو شر أخف

الأشياء وأدقها كمثقال حبة من خردل فتكن تلك الخصلة الصغيرة مستقرة في جوف صخرة أو في أي مكان من السماوات والأرض يأت بها الله للحساب والجزاء لأن الله لطيف ينفذ علمه في أعماق الأشياء ويصل إلى كل خفي خبير يعلم كنه الموجودات.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده إلى معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم، وأحب ذلك إلى الله عز وجل، فقال: ما أعلم شيئا بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، الحديث.

ب. وفيه، بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: الصلاة قربان كل تقي.

ج. وفي المجمع: ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ﴾ من المشقة والأذى، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: عن علي عليه السلام.

٩. من وصايا لقمان لابنه: الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر:

المقطع [٩] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١٨»:

١. ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾:

أ. الآية وما بعدها من كلامه راجع إلى نبذة من الأعمال والأخلاق الفاضلة.

ب. فمن الأعمال الصلاة التي هي عمود الدين ويتلوها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبة.

٢. ﴿إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾:

أ. الإشارة إلى الصبر والإشارة البعيدة للتعظيم والترفيع وقول بعضهم: إن الإشارة إلى جميع ما تقدم من الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر ليس في محله لتكرر عد الصبر من عزم الأمور

في كلامه تعالى كقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] وقوله: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

ب. والعزم، على ما ذكره الراغب، عقد القلب على إمضاء الأمر وكون الصبر، وهو حبس النفس في الأمر، من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبي ما لم ينحل وينفصم ثبت الإنسان على الأمر الذي عقد عليه فالصبر لازم الجد في العقد والمحافظة عليه وهو من قدرة النفس وشهامتها.

ج. وقول بعضهم: إن المعنى أن ذلك من عزيمة الله وإيجابه في الأمور بعيد وكذا قول بعضهم: إن العزم هو الجزم وهو لغة هذيل.

١٠. النهي عن التكبر والتجبر في المشي:

المقطع [١٠] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١٨»:

١. ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾:

أ. قال الراغب: (الصعر ميل في العنق والتصعير إمالته عن النظر كبرا قال: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وقال: المرح شدة الفرح والتوسع فيه)

ب. فالمعنى: لا تعرض بوجهك عن الناس تكبرا ولا تمش في الأرض مشية من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء، وهو التكبر بتخيل الفضيلة، ويكثر من الفخر، وقال بعضهم إن معنى: ﴿لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تلو عنقك لهم تذللا عند الحاجة وفيه أنه لا يلائمه ذيل الآية.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي ولا تمل وجهك من الناس بكل، ولا تعرض عمن يكلمك استخفافا به، وهذا المعنى قول ابن عباس وأبي عبد الله عليه السلام.

ب. أخرج الطبراني وابن عدي وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري: أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قال: إلى الشدق.

١١. القصد في المشي وغض الصوت وكراهة رفع الصوت:

المقطع [١١] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ

صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢١٩»:

١. ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾:

أ. القصد في الشيء الاعتدال فيه والغض، على ما ذكره الراغب، النقصان من الطرف والصوت فغض الصوت النقص والقصر فيه.

ب. والمعنى: وخذ بالاعتدال في مشيك وبالنقص والقصر في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه.

٢. في المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هي العطسة المرتفعة القبيحة، والرجل يرفع صوته بالحديث رفعا قبيحا، إلا أن يكون داعيا أو يقرأ القرآن.

• أقول: وفي جميع هذه المعاني وخاصة في العقوق روايات كثيرة متظافرة.

١٢. تسخير ما في السموات والأرض وإسباغ النعم ظاهرة وباطنة:

المقطع [١٢] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَّ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٢٨»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾:

أ. رجوع إلى ما قبل قصة لقمان وهو الدليل على أن الخطاب للمشركين وإن كان ذيل الآية يشعر بعموم الخطاب.

ب. وعليه فصدر الآية من تتمة كلام النبي ﷺ ويتصل بقوله: ﴿هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ولا التفات في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾

ج. وعلى تقدير كونه من كلامه تعالى ففي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ التفات من سياق الغيبة الذي في قوله: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ إلى الخطاب، والالتفات في مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد المتكلم وتأكد غيظه من جهل المخاطبين وتماديهم في غيهم بحيث لا ينفعهم دلالة ولا ينجح فيهم إشارة فيواجهون

بذكر ما هو بمرأى منهم ومسمع لعلهم يتنبهوا عن نومتهم وينتزعوا عن غفلتهم.

د. وكيف كان فالمراد بتسخير السماوات والأرض للإنسان وهم يرون ذلك ما نشاهده من ارتباط أجزاء الكون بعضها ببعض في نظام عام يدبر أمر العالم عامة والإنسان خاصة لكونه أشرف أجزاء هذا العالم المحسوس بما فيه من الشعور والإرادة فقد سخر الله الكون لأجله.

هـ. والتسخير قهر الفاعل في فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر ويريده كتسخير الكاتب القلم للكتابة وكما يسخر المولى عبده والمخدوم خادمه في أن يفعل باختياره وإرادته ما يختاره ويريده المولى والمخدوم والأسباب الكونية كائنة ما كانت تفعل بسببيتها الخاصة ما يريده الله من نظام يدبر به العالم الإنساني.

و. ومما مر يظهر أن اللام في ﴿لَكُمْ﴾ للتعليل الغائي والمعنى لأجلكم والمسخر بالكسر هو الله تعالى دون الإنسان، وربما احتمل كون اللام للملك والمسخر بالكسر هو الإنسان بمشية من الله تعالى كما يشاهد من تقدم الإنسان بمرور الزمان في تسخير أجزاء الكون واستخدامه لها في سبيل مقاصده لكن لا يلائمه تصدير الكلام بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾

٢. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾:

أ. الإسباغ الإتمام والإيساع أي أتم وأوسع عليكم نعمه، والنعم جمع نعمة وهو في الأصل بناء النوع وغلب عليه استعماله في ما يلائم الإنسان فيستلذ منه، والمراد بالنعم الظاهرة والباطنة بناء على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهرة للحس كالسمع والبصر وسائر الجوارح والصحة والعافية والطيبات من الرزق والنعم الغائبة عن الحس كالشعور والإرادة والعقل.

ب. وبناء على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهرة من النعم هي ما ظهر للحس كما تقدم وكالدين الذي به ينتظم أمور دنياهم وآخرتهم والباطنة منها كما تقدم وكالمقامات المعنوية التي تنال بإخلاص العمل.

٣. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾:

أ. رجوع الخطاب إلى النبي ﷺ على ما كان في السياق السابق، والمجادلة المخاصمة النظرية بطريق المغالبة، والمقابلة بين العلم والهدى والكتاب تلوح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجة عقلية،

وبالهدى ما يفيضه الله بالوحي أو الإلهام، وبالكتاب الكتاب السماوي المنتهي إليه تعالى بالوحي النبوي ولذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاث من العلم لا رابع لها.

ب. فمعنى قوله: ﴿يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ﴾ كذا وكذا أنه يجادل في وحدانيته تعالى في الربوبية والألوهية بغير حجة يصح الركون إليها بل عن تقليد.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في كمال الدين، بإسناده إلى حماد بن أبي زياد قال: سألت سيدي موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ فقال: النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، والباطنة الإمام الغائب.

• أقول: هو من الجري والآية أعم مدلولا.

ب. وفي تفسير القمي، بإسناده عن جابر قال: قال رجل عند أبي جعفر عليه السلام: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ قال: أما النعمة الظاهرة فالنبي ﷺ، وما جاء به من معرفة الله عز وجل وتوحيده، وأما النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا، الحديث.

• أقول: هو كسابقه.

ج. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وفي رواية الضحاك عن ابن عباس قال: سألت النبي ﷺ عنه فقال: يا ابن عباس أما ما ظهر فالإسلام، وما سوى الله من خلقك وما أفاض عليك من الرزق، وأما ما بطن فستر مساوي عملك ولم يفضحك به، يا ابن عباس إن الله تعالى يقول: ثلاثة جعلتهن للمؤمن ولم يكن له: صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله، وجعلت له ثلث ماله أكفر به عنه خطاياه، والثالث سترت مساوي عمله ولم أفضحه بشيء منه، ولو أبديتها عليه لنبذه أهله فمن سواهم.

• أقول: روى ما يقرب منه في الدر المنثور، بطرق عن ابن عباس، والحديث كسابقيه من الجري.

١٣. تقليد الآباء في الكفر:

المقطع [١٣] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٢٩»:

١. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾:

أ. ضمائر الجمع راجعة إلى ﴿مِنَ﴾ باعتبار المعنى كما أن ضمير الإفراد في الآية السابقة راجع إليه باعتبار اللفظ.

ب. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ في التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال: اتبعوا الكتاب أو القرآن إشارة إلى كون الدعوة دعوة ذات حجة لا تحكم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجة النبوة فكأنه قيل: وإذا دعوا إلى دين التوحيد الذي يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند الله سبحانه، وبعبارة أخرى إذا ألقى إليهم القول مع الحجة قابلوه بالتحكم من غير حجة فقالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا.

٢. ﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾:

أ. أي أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع إلى عذاب السعير؟ فالاستفهام للإنكار ولو وصلية معطوفة على محذوف مثلها والتقدير أيتبعونهم لو لم يدعهم الشيطان ولو دعاهم.

ب. ومحصل الكلام: أن الاتباع إنما يحسن إذا كانوا على الحق وأما لو كانوا على الباطل وكان اتباعا يدعوهم به إلى الشقاء وعذاب السعير وهو كذلك فإنه اتباع في عبادة غير الله ولا معبود غيره.

١٤. من يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى:

المقطع [١٤] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهَّ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهَّ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣٠»:

١. ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾:

أ. استئناف ويحتمل أن يكون حالا من مفعول ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ وفي معنى الجملة الحالية ضمير عائد إليهم، والمعنى: أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى كذا والحال أن من أسلم وجهه إلى الله كذا فقد نجا وأفلح والحال أن عاقبة الأمور ترجع إلى الله فيجب أن يكون هو المعبود.

ب. وإسلام الوجه إلى الله تسليمه له وهو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعبادة وإعراضه عمن سواه، والإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسره به في أول السورة ﴿هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ والعروة الوثقى المستمسك

الذي لا انفصام له.

ج. والمعنى: ومن وحد الله وعمل صالحا مع اليقين بالمعاد فهو ناج غير هالك البتة في عاقبة أمره لأنها إلى الله وهو الذي يعده بالنجاة والفلاح.

د. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ بما أنه استعارة تمثيلية عن النجاة والفلاح.

١٥. النهي عن الحزن على كفر الكافرين:

المقطع [١٥] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣١»:

١. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ تسلية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه أن لا يغلبه الحزن وهم بالآخرة راجعون إليه تعالى فينبؤهم بما عملوا أي يظهر لهم حقيقة أعمالهم وتبعاتها وهي النار.

٢. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ كشف عن حقيقة حالهم ببيان آخر فإن البيان السابق ﴿إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا﴾ ربما أوهم أنهم ما داموا متنعمين في الدنيا خارجون من قدرة الله ثم إذا ماتوا أو بعثوا دخلوا فيما خرجوا منه فانتقم منهم بالعذاب جيء بهذا البيان للدلالة على أنهم غير خارجين من التدبير قط وإنما يمتعهم في الدنيا قليلا ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كل حال وأمرهم إلى الله دائما لن يعجزوا الله في حال التنعم ولا غيرها.

١٦. إقرار المشركين بأن الله خالق السموات والأرض:

المقطع [١٦] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣١»:

١. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. إشارة إلى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون، فإنهم إن سئلوا عمن

خلق السماوات والأرض اعترفوا بأنه الله عز اسمه وإذا كان الخالق هو هو فالمدبر لها هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق، وإذا كان مدبر الأمر والمنعم الذي يبسط ويقبض ويرجى ويخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون.

ب. ولذلك أمره ﷺ أن يحمد الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم أشار إلى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق وما يستلزمه فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نعم قليل منهم يعلمون ذلك ولكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه وقد أيقنوا به كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]

١٧. لله ملك السموات والأرض وهو الغني الحميد وكلماته لا تنفد:

المقطع [١٧] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٦-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣١»:

١. ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾:

أ. لما كان اعترافهم بأن الخالق هو الله سبحانه إنما يثبت التوحد بالربوبية والألوهية إذا كان التدبير والتصرف إليه تعالى وكان نفس الخلق كافيا في استلزامه اكتفى به في تمام الحجة واستحمد النبي ﷺ واستجهل القوم لغفلتهم.

ب. ثم احتج عليه ثانيا من طريق انحصار الملك الحقيقي فيه تعالى لكونه غنيا محمودا مطلقا وتقريره أنه تعالى مبدئ كل خلق ومعطي كل كمال فهو واجد لكل ما يحتاج إليه الأشياء فهو غني على الإطلاق إذ لو لم يكن غنيا من جهة من الجهات لم يكن مبدئا له معطيا لكماله هذا خلف، وإذا كان غنيا على الإطلاق كان له ما في السماوات والأرض فهو المالك لكل شيء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير وتصرف يقع في العالم فهو له إذ لو كان شيء من التدبير لغيره لا له كان مالكه ذلك الغير دونه وإذا كان التدبير والتصرف له تعالى فهو رب العالمين والإله الذي يعبد ويشكر إنعامه وإحسانه.

ج. وهذا هو الذي يشير إليه قوله: ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فقوله: ﴿لِلَّهِ ما فِي﴾، حجة على وحدانيته وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ تعليل للملك.

د. وأما قوله: ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي المحمود في أفعاله فهو مبدأ آخر للحجة وذلك أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري وكل جميل في العالم فهو له سبحانه فإليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق ولو كان شيء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب إليه لكان الحمد والثناء لغيره تعالى لا له فلا يكون حميدا على الإطلاق وبالنسبة إلى كل شيء وقد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ﴾:

أ. ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ بيان للموصول والشجرة واحد الشجر وتفيد في المقام، وهي في سياق ﴿لَوْ﴾ الاستغراق أي كل شجرة في الأرض، والمراد بالبحر مطلق البحر، وقوله: ﴿يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي يعينه بالانضياف إليه سبعة أمثاله والظاهر أن المراد بالسبعة التكثير دون خصوص هذا العدد والكلمة هي اللفظ الدال على معنى، وقد أطلق في كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى، وقد قال: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقد أطلق على المسيح عليه السلام الكلمة في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]

ب. فالمعنى: ولو جعل أشجار الأرض أقلاما وأخذ البحر وأضيف إليه سبعة أمثاله وجعل المجموع مدادا فكتب كلمات الله، بتبديلها ألفاظا دالة عليها، بتلك الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لكونها غير متناهية.

ج. ومن هنا يظهر أن في الكلام إيجازا بالحذف وأن قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في مقام التعليل، والمعنى: لأنه تعالى عزيز لا يعزه ولا يقهره شيء فهذه الكتابة لا ينفد بها ما هو من عنده حكيم لا يفوض التدبير إلى غيره.

د. والآية متصلة بما قبلها من حيث دلالته على كون تدبير الخلق له سبحانه لا لغيره فسيقت هذه الآية للدلالة على سعة تدبيره وكثرة أوامره التكوينية في الخلق والتدبير إلى حيث ينفد البحر الممدود بسبعة أمثاله لو جعل مدادا وكتبت به أشجار الأرض المجعولة أقلاما قبل أن ينفد أوامره وكلماته.

١٨. الخلق والبعث والسمع والبصر:

المقطع [١٨] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ

وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣٣»:

١. ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾:

أ. سوق للكلام إلى إمكان الحشر وخاصة من جهة استبعادهم المعاد لكثرة عدد الموتى واختلاطهم بالأرض من غير تميز بعضهم من بعض.

ب. فقال تعالى: ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ في الإمكان والتأتي فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يعجزه كثرة ولا يتفاوت بالنسبة إليه الواحد والجمع، وذكر الخلق مع البعث للدلالة على عدم الفرق بين البدء والعود من حيث السهولة والصعوبة بل لا يتصف فعله بالسهولة والصعوبة.

ج. ويشهد لما ذكر إضافة الخلق والبعث إلى ضمير الجمع المخاطب والمراد به الناس ثم تنظيره بالنفس الواحدة، والمعنى: ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم ولا بعثكم إلا كخلق نفس واحدة وبعثها فأنتم على كثرتكم والنفس الواحدة سواء لأنه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم والبعث لجزاء الأعمال فإنما يشكل من جهة الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها واختلاط بعضها ببعض لكنه ليس يجهل شيئا منها لأنه سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم وبعبارة أخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهدة.

د. وبما مر يندفع الاعتراض على الآية بأن المناسب لتعليل كون خلق الكثير وبعثهم كنفس واحدة أن يعلل بمثل قولنا: إن الله على كل شيء قدير أو قوي عزيز أو ما يشبه ذلك لا بمثل السميع البصير الذي لا ارتباط له بالخلق والبعث، وذلك أن الإشكال الذي تعرضت الآية لدفعه هو أن البعث لجزاء الأعمال وهي على كثرتها واندماج بعضها في بعض كيف تتميز حتى تجزى عليها فالإشكال متوجه إلى ما ذكره قبل ثلاث آيات بقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا﴾ وقد أجيب بأنه كيف يخفى عليه شيء من الأقوال والأعمال وهو سميع بصير لا يشذ عن مشاهدته قول ولا فعل.

هـ. وقد كان ذيل قوله السابق: ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا﴾ بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ وهو مبني على أن الجزاء على حسب ما يحمله القلب من الحسنة والسيئة كما يشير إليه قوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وجواب عن هذا الإشكال لو وجه إلى ما تحمله القلوب على كثرته فيجاب عنه أن الله عليم بذات الصدور ولو وجه إلى نفس الأعمال الخارجية من الأقوال والأفعال فالجواب عنه بما في هذه الآية التي نحن فيها: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، فالإشكال والجواب بوجه

نظير ما وقع في قوله تعالى: ﴿قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ [طه: ٥٢]، فافهم.

و. وقد أجابوا عن الاعتراض بأجوبة أخرى غير تامة من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

١٩. إيلاج الليل في النهار وتسخير الشمس والقمر:

المقطع [١٩] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣٤»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾:

أ. استشهاد لما تقدم في الآية السابقة من علمه بالأعمال بأن التدبير الجاري في نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقض ذاك وبالعكس بحسب الفصول المختلفة وبقاع الأرض المتفرقة في نظم ثابت جار على اختلافه، وكذا التدبير الجاري في الشمس والقمر على اختلاف طلوعهما وغروبهما واختلاف جريانهما ومسيرهما بحسب الحس وكل منهما يجري لأجل مسمى ولا اختلاف ولا تشوش في النظام الدقيق الذي لهما فهذا كله مما يمتنع من غير علم وخبرة من مدبرها.

ب. فالمراد بإيلاج الليل في النهار أخذ الليل في الطول وإشغاله بعض ساعات النهار من قبل وبإيلاج النهار في الليل عكس ذلك، والمراد بجريان الشمس والقمر المسخرين إلى أجل مسمى انتهاء كل وضع من أوضاعهما إلى وقت محدود مقدر ثم عودهما إلى بدء فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجاري وأمعن فيه لم يشك في أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جهل وليس ذلك عن صدفة واتفاق.

٢. ﴿وَأَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

أ. عطف على موضع ﴿أَنَّ اللهَ يُولِجُ﴾ والتقدير ألم تر أن الله بما تعملون خبير وذلك لأن من شاهد نظام الليل والنهار والشمس والقمر لم يكد يغفل عن كون صانعه عليما بجلائل أعماله ودقائقها، كذا قيل.

• وفيه أن استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجاري في الليل والنهار والشمس والقمر وإن صح في نفسه فهو علم حدسي لا مصحح لتسميتها رؤية وهو ظاهر.

ب. ولعل المراد من مشاهدة خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن في النظام الجاري في أعمال نفسه بما أنها صادرة عن العالم الإنساني موزعة من جهة إلى الأعمال الصادرة عن القوى الظاهرة من سمع وبصر وشم وذوق ولمس والصادرة عن القوى الباطنة المدركة أو الفعالة أو من جهة إلى بعض القوى والأدوات أو كلها ومن جهة إلى جاذبة ودافعة ومن جهة إلى سني العمر من طفولية ورهاق وشباب وشيب إلى غير ذلك.

ج. ثم في ارتباط بعضها ببعض واستخدام بعضها لبعض واهتداء النفس إلى وضع كل في موضعه الذي يليق به وحركته بهذه القافلة من القوى والأعمال نحو غايتها من الكمال وسعادتها في المال وتورطها في ورطات عالم المادة وموطن الزينة والفتنة فمن ناج أو هالك.

د. فإذا أمعن في هذا النظام المحير للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدره ربه ونظام نظمه صانعه العليم القدير ومشاهدة هذا النظام العلمي العجيب مشاهدة أنه بما يعملون خبير، والله العالم.

٢٠. الله هو الحق وما يدعون من دونه الباطل:

المقطع [٢٠] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣٥»:

١. ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾:

أ. لما ذكر سبحانه أن منه بدء كل شيء فيستند إليه في وجوده وتدبير أمره وأن إليه عود كل شيء من غير فرق بين الواحد والكثير وأنه ليس إلى من يدعون من دونه خلق ولا أمر جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيرا إلى ما تقدم: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ﴾

ب. توضيحه أن الحق هو الثابت من جهة ثبوته والباطل يقابل الحق فهو اللاثابت من جهة عدم ثبوته، وقوله: ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ بما فيه من ضمير الفصل وتعريف الخبر باللام يفيد القصر أعني حصر المبتدإ في الخبر.

ج. فقوله: ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ قصر له تعالى في الثبوت، أي هو ثابت لا يشوب ثبوته بطلان وبعبارة أخرى هو ثابت من جميع الجهات وبعبارة ثالثة هو موجود على كل تقدير فوجوده مطلق غير مقيد بقيد ولا مشروط بشرط فوجوده ضروري وعدمه ممتنع وغيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير

وهو تقدير وجود سببه وهو الوجود المقيد الذي يوجد بغيره من غير ضرورة في ذاته.

د. وإذا كان حقية الشيء هو ثبوته فهو تعالى حق بذاته وغيره إنما يحق ويتحقق به.

هـ. وإذا تأملت هذا المعنى حق تأمله وجدت:

• أولا: أن الأشياء بأجمعها تستند في وجودها إليه تعالى وأيضا تستند في النظام الجاري فيها عامة وفي النظامات الجزئية الجارية في كل نوع من أنواعها وكل فرد من أفرادها إليه تعالى.

• وثانيا: أن الكمالات الوجودية التي هي صفات الوجود كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والوحدة والخلق والملك والغنى والحمد والخبرة، مما عد في الآيات السابقة أو لم يعد، صفات قائمة به تعالى على حسب ما يليق بساحة كبريائه وعز قدسه لأنها صفات وجودية والوجود قائم به تعالى فهي إما عين ذاته كالعلم والقدرة وإما صفات خارجة عن ذاته منتزعة عن فعله كالخلق والرزق والرحمة.

• وثالثا: أن قبول الشريك في ذاته أو في تدبيره وكل ما يحمل معنى الفقد والنقص مسلوب عنه تعالى وهذه هي الصفات السلبية كنفي الشريك ونفي التعدد ونفي الجسم والمكان والزمان والجهل والعجز والبطلان والزوال إلى غيرها، فإن إطلاق وجوده وعدم تقيده بقيد ينفي عنه كل معنى عدمي أي إثبات الوجود مطلقا فإن مرجع نفي النفي إلى الإثبات.

و. ولعل قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيها بناء على أن اسم ﴿الْعَلِيُّ﴾ يفيد معنى تنزهه عن ما لا يليق بساحته فهو مجمع الصفات السلبية والكبير يفيد سعته لكل كمال وجودي فهو مجمع الصفات الثبوتية.

ز. وأن صدر الآية برهان على ذيلها وذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتية والسلبية جميعا على ما تقدم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال فهو الله عز اسمه.

٢. ﴿وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ﴾:

أ. يجري فيه ما جرى في قوله: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ فالذي يدعونه من الآلهة ليس لهم من الحقيقة شيء ولا إليهم من الخلق والتدبير شيء لأن الشريك في الألوهية والربوبية باطلا لا حق فيه وإذ كان باطلا على كل تقدير فلا يستند إليه خلق ولا تدبير مطلقا.

ب. والحق والعلي والكبير ثلاثة من الأسماء الحسنى وقد تحقق مما تقدم أن الحق في معنى الواجب

الوجود وأن العلي من الصفات السلبية والكبير من الصفات الثبوتية قريب المعنى من قولنا: المستجمع لصفات الكمال.

٢١. جريان الفلك في البحر آية لكل صبار شكور:

المقطع [٢١] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣٧»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾:

أ. الباء في ﴿بِنِعْمَتِ اللهِ﴾ للسببية وذكر النعمة كالتوطئة لآخر الآية وفيه تلويح إلى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب.

ب. والمعنى: ألم تر أن الفلك تجري وتسير في البحر بسبب نعمة الله وهي أسباب جريانها من الريح ورطوبة الماء وغير ذلك.

ج. واحتمل بعضهم أن الباء للتعدية أو المعية والمراد بالنعمة ما تحمله السفن من الطعام وسائر أمتعة الحياة.

٢. وقد تمم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ والصبار الشكور أي كثير الصبر عند الضراء وكثير الشكر عند النعماء كناية عن المؤمن على ما قيل.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ﴾ قال: السفن تجري في البحر بقدرة الله.

ب. وفيه في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قال: الذي يصبر على الفقر والفاقة، ويشكر الله عز وجل على جميع أحواله.

ج. وفي المجمع في الآية وفي الحديث: الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر.

• أقول: وهو مأخوذ من الآية فقد مر أنه كناية عن المؤمن.

٢٢. إخلاص الدعاء لله عند الشدة:

المقطع [٢٢] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣٧»:

١. ﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾:

أ. قال الراغب: (الظلة سحابة تظل وأكثر ما يقال فيما يستوخم ويكره، قال: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ ﴿عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾)

ب. والمعنى: وإذا غشيهم وأحاط بهم في البحر موج كقطع السحاب انقطعوا إلى الله ودعوه للنجاة حال كونهم مخلصين له الدين أي وفي ذلك دليل على أن فطرتهم على التوحيد.

٢. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ المقتصد سالك القصد أي الطريق المستقيم والمراد به التوحيد الذي دلتهم عليه فطرتهم إذ ذلك، وفي التعبير بمن التبعيضية استقلال عدتهم أي فلما نجا الله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص إلى البر فقليل منهم المقتصدون.

٣. ﴿وما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختار مبالغة من الختر وهو شدة الغدر وفي السياق دليل على الاستكثار والمعنى ظاهر.

٢٣. تقوى الله والخوف من يوم القيامة:

المقطع [٢٣] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣٨»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾:

أ. لما ساق الحجج والمواعظ الشافية الوافية جمعهم في خاتمتها في خطاب عام يدعوهم إلى التقوى وينذرهم بيوم القيامة الذي لا يغني فيه مغن إلا الإيمان والتقوى.

ب. قال الراغب: (الجزاء الغنى والكفاية، وقال: يقال: غررت فلانا أصبت غرته ونلت منه ما أريد والغرة غفلة في اليقظة والغرار غفلة مع غفوة، إلى أن قال: فالغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغر وتضر وتمر)

ج. فمعنى الآية: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ وهو الله سبحانه ﴿وَاخْشَوْا يَوْماً﴾ وهو يوم القيامة ﴿لا يَجْزِي﴾ لا يغني ﴿والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ﴾ مغن كاف ﴿عَنْ والِدِهِ﴾ ﴿شَيْئاً (إِنَّ وَعْدَ الله﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لا يخلف ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ بزينتها الغارة ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ أي جنس ما يغر الإنسان من شئون الحياة الدنيا أو خصوص الشيطان.

٢٤. ما استأثر الله بعلمه من الغيب:

المقطع [٢٤] من سورة لقمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٣٨»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:

أ. الغيث المطر ومعنى جمل الآية ظاهر.

ب. وقد عد سبحانه أمورا ثلاثة مما تعلق به علمه وهي العلم بالساعة وهو مما استأثر الله علمه لنفسه لا يعلمه إلا هو ويدل على القصر قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وتنزيل الغيث وعلم ما في الأرحام ويختصان به تعالى إلا أن يعلمه غيره.

ج. وعد أمرين آخرين يجهل بهما الإنسان وبذلك يجهل كل ما سيجري عليه من الحوادث وهو قوله: ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً﴾ وقوله: ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

د. وكان المراد تذكرة أن الله يعلم كل ما دق وجل حتى مثل الساعة التي لا يتيسر علمها للخلق وأنتم تجهلون أهم ما يهمكم من العلم فالله يعلم وأنتم لا تعلمون فإياكم أن تشركوا به وتتمردوا عن أمره وتعرضوا عن دعوته فتهلكوا بجهلكم.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الخصال، عن أبي أسامة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: ألا أخبركم بخمسة لم يطلع الله عليها أحدا من خلقه؟ قال: قلت: بلى قال: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً، وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

• أقول: هناك روايات كثيرة جدا عن النبي والأئمة عليهمالسلام تخبر عن مستقبل حالهم وعن زمان موتهم ومكانه وهي تقيد هذه الرواية وما في معناها من الروايات بالتعليم الإلهي لكن بعض الروايات يأبى التقييد ولا يعبأ بأمرها.

ب. أخرج ابن المنذر عن عكرمة: أن رجلا يقال له الوراث، من بني مازن بن حفصة بن قيس غيلان جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، متى تقوم الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فما ذا أكسب غدا؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت هذه الآية.

• أقول: الحديث لا يخلو من شيء لعدم انطباق الآية على فقرات السؤال.

ج. أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: لم يعم على نبيكم ﷺ إلا الخمس من سرائر الغيب، هذه الآية في آخر لقمان إلى آخر السورة.

سورة السجدة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة تقرير المبدإ والمعاد، وإقامة الحجة عليهما، ودفع ما يختلج القلوب في ذلك، مع إشارة إلى النبوة والكتاب.

ب. ثم بيان ما يتميز به الفريقان: المؤمنون بآيات الله حقاً، والفاسقون الخارجون عن زي العبودية، ووعد أولئك بما هو فوق تصور المتصورين من الثواب، ووعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلد، وأنهم سيذوقون عذاباً أدنى دون العذاب الأكبر.

ج. وتختتم السورة بتأكيد الوعيد، وأمر النبي ﷺ بالانتظار كما هم منتظرون.

د. وهي مكية إلا ثلاث آيات نزلت ـ كما قيل ـ بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً﴾ إلى تمام ثلاث آيات.

هـ. والذي أوردناه من آياتها يتضمن الفصل الأول من فصلي غرض السورة الذي أشرنا إليه.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن الكريم كتاب لا ريب فيه، وأنه منزل من رب العالمين، وتعدد الأدلة على قدرة الله في خلقه، وتذكر خلق الإنسان، وتصف المؤمنين الذين يخرون سجداً لله، وتذكر أن المتكبرين يعذبون يوم القيامة.

٢. الآيات [١٥ ـ ٣٠] الآيات تفرق بين المؤمنين بحقيقة معنى الإيمان وبين الفاسقين والظالمين، وتذكر لكل ما يلزمه من الآثار والتبعات، ثم تنذر الظالمين بعذاب الدنيا، وتأمر النبي ﷺ بانتظار الفتح، وعند ذلك تختم السورة.

١. تنزيل الكتاب من رب العالمين لا ريب فيه:

المقطع [١] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

[السجدة: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٤٣»:

١. ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾، أي هذا تنزيل الكتاب، والتنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول وإضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى: هذا هو الكتاب المنزل لا ريب فيه.

٢. ﴿مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ فيه براعة استهلال لما في غرض السورة أن يتعاطى بيانه من الوحدانية والمعاد اللذين ينكرهما الوثنية لما مر مرارا أنهم لا يقولون برب العالمين بل يثبتون لكل عالم إلها ولمجموع الآلهة إلها هو الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

٣. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾، أم منقطعة، والمعنى: بل يقولون افترى القرآن على الله وليس من عنده فرده بقوله: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ﴾ إلخ.

٤. ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾:

أ. قيل: يعني قريشا فإنهم لم يأتهم نبي قبله ﷺ بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبياء كخالد بن سنان العبسي وحنظلة على ما في الروايات.

ب. وقيل: المراد به أهل الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ فكانوا كأنهم في غفلة عما لزمهم من حق نعم الله وما خلقهم له من العبادة.

• وفيه أن معنى الفترة هو عدم انبعاث نبي له شريعة وكتاب وأما الفترة عن مطلق النبوة فلا نسلم تحققها وخلو جميع الزمان وهو قريب من ستة قرون من النبي مطلقا.

٥. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ غاية رجائية لإرسال الرسول والترجي قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتكلم كما تقدم في نظائره.

٢. خلق السموات والأرض واستواء الله على العرش:

المقطع [٢] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٤٤»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾:

أ. تقدم الكلام في تفسير قوله: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ في نظائره من الآيات وتقدم أيضا أن الاستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات بنظام عام إجمالي يحكم على الجميع ولذا اتبع العرش في أغلب ما وقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣] وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]

ب. والوجه في ذكر الاستواء على العرش، بعد ذكر خلق السماوات والأرض أن الكلام في اختصاص الربوبية والألوهية بالله وحده ومجرد استناد الخلقة إليه تعالى لا ينفع في إبطال ما يقول به الوثنية شيئا فإنهم لا ينكرون استناد الخلقة إليه وحده وإنما يقولون باستناد التدبير وهو الربوبية للعالم إلى آلهتهم ثم اختصاص الألوهية وهي المعبودية بآلهتهم ولله تعالى من الشأن أنه رب الأرباب وإله الآلهة، فكان من الواجب عند إقامة الحجة لإبطال قولهم إن يذكر أمر الخلقة ثم يتعقب بأمر التدبير لمكان تلازمهما وعدم انفكاك أحدهما من الآخر حتى يكون موجد الأشياء وخالقها هو الذي يربها ويدبر أمرها فيكون ربا وحده وإلها وحده كما أنه موجد خالق وحده.

ج. ولذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلقة في الآية التي نحن فيها إذ قيل: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ، وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ فالولاية والشفاعة كالاستواء على العرش من شئون التدبير.

٢. ﴿ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾:

أ. الولي هو الذي يملك تدبير أمر الشيء ومن المعلوم أن أمورنا والشئون التي تقوم به حياتنا قائمة بالوجود محكومة مدبرة للنظام العام الحاكم في الأشياء عامة وما يخص بنا من نظام خاص، والنظام أيا ما كان من لوازم خصوصيات خلق الأشياء والخلقة كيفما كانت مستندة إليه تعالى فهو تعالى ولينا القائم بأمرنا المدبر لشئوننا وأمورنا، كما هو ولي كل شيء كذلك وحده لا شريك له.

ب. والشفيع، على ما تقدم في مباحث الشفاعة، هو الذي ينضم إلى سبب ناقص فيتمم سببيته وتأثيره، والشفاعة تتميم السبب الناقص في تأثيره وإذا طبقناها على الأسباب والمسببات الخارجية كانت

أجزاء الأسباب المركبة وشرائطها بعضها شفيعا لبعض لتتميم حصة من الأثر منسوبة إليه كما أن كلا من السحاب والمطر والشمس والظل وغيرها شفيع للنبات.

ج. وإذ كان موجد الأسباب وأجزائها والرابط بينها وبين المسببات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقة الذي يتمم نقصها ويقيم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لا شفيع غيره.

د. وببيان آخر أدق قد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن أسماءه تعالى الحسنى وسائط بينه وبين خلقه في إيصال الفيض إليهم فهو تعالى يرزقهم مثلا بما أنه رازق جواد غني رحيم ويشفي المريض بما أنه شاف معاف رءوف رحيم ويهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز وهكذا.

هـ. فما من شيء من المخلوقات المركبة الوجود إلا ويتوسط لوجوده عدة من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض وبعضها في عرض بعض وكل ما هو أخص منها يتوسط بين الشيء وبين الأعم منها كما أن الشافي يتوسط بين المريض وبين الرءوف الرحيم والرحيم يتوسط بينه وبين القدير وهكذا.

و. والتوسط المذكور في الحقيقة تتميم لتأثير السبب فيه وإن شئت فقل هو تقريب للشيء من السبب لفعلية تأثيره وينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيع ليس من دونه شفيع في الحقيقة فافهم.

ز. وقد تبين بما مر أن لا إشكال في إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعا بنفسه عند نفسه وحقيقته توسط صفة من صفاته الكريمة بين الشيء وصفة من صفاته كما يستعاذ من سخطه إلى رحمته ومن عدله إلى فضله، وأما كونه تعالى شفيعا بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو مما لا يجوز البتة.

٣. والقوم لتقريبهم إشكال إطلاق الشفيع عليه تعالى على المعنى الثاني أي بمعنى كونه شفيعا عند غيره اختلفوا في تفسير الآية على أقوال:

أ. فقال بعضهم: إن دون في قوله: ﴿ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ بمعنى عند و﴿مِنْ دُونِهِ﴾ حال من ضمير ﴿لَكُمْ﴾ والمعنى: ما لكم حال كونكم مجاوزين دونه ومن عند ولي ولا شفيع أي لا ولي لكم ولا شفيع ففيه نفي الولي والشفيع لهم عند الله.

• وفيه أن دون وإن صح كونه بمعنى عند لكن وجود ﴿مِنْ﴾ قرينة على أنه بمعنى غير، ولا معنى

لأخذ المجاوزة ورجوع ﴿ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ إلى معنى (ما لكم عنده)

ب. وقال بعضهم: إن الشفيع في الآية بمعنى الناصر مجازا ودون بمعنى غير و﴿مِنْ دُونِهِ﴾ حال من ﴿وَلِيٍّ﴾ والمعنى: ما لكم ولي ولا ناصر غيره.

• وفيه أنه تجوز من غير موجب.

ج. وقال بعضهم إن إطلاق الشفيع هنا من قبيل المشاكلة التقديرية لما أن المشركين المنذرين كثيرا ما كانوا يقولون في آلهتهم: هؤلاء شفعاؤنا ويزعمون أن كل واحد منهم شفيع لهم والمعنى: على هذا لو فرض وقدر أن الإله ولي شفيع ما لكم ولي ولا شفيع غير الله سبحانه.

د. وقال بعضهم: إن دون بمعنى عند والضمير في ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ للعذاب، والمعنى: ليس لكم من دون عذابه ولي، أي قريب ينفعكم ويرد عذابه عنكم ولا شفيع يشفع لكم.

• وفيه أن إرجاع الضمير إلى العذاب تحكم من غير دليل، ويرد على جميع هذه الوجوه أنها تكلفات ناشئة من أخذ الشفيع غير المشفوع عنده وقد عرفت أن المعنى تحليلي والشفيع والمشفوع عنده واحد.

٤. ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهام توبيخي يوبخهم على استمرارهم على الإعراض عن أدلة العقول حتى يتذكروا أن الملك والتدبير لله سبحانه وهو المعبود بالحق ليس لهم دونه ولي ولا شفيع كما يزعمون ذلك لآلهتهم.

٣. تدبير الأمر من السماء إلى الأرض في يوم مقداره ألف سنة:

المقطع [٣] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٤٧»:

١. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾:

أ. تتميم لبيان أن تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه وهذا هو القرينة على أن المراد بالأمر في الآية الشأن دون الأمر المقابل للنهي.

ب. والتدبير وضع الشيء في دابر الشيء والإتيان بالأمر بعد الأمر فيرجع إلى إظهار وجود الحوادث واحدا بعد واحد كالسلسلة المتصلة بين السماء والأرض وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا

خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]

ج. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ بعد قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ لا يخلو من إشعار بأن ﴿يُدَبِّرُ﴾ مضمن معنى التنزيل والمعنى: يدبر الأمر منزلا أو ينزله مدبرا، من السماء إلى الأرض ولعله الأمر الذي يشير إليه قوله: ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ [فصلت: ١٢]

د. وفي قوله: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذي تنتهي إليه أزمة الأمور دون السماء بمعنى جهة العلو أو ناحية من نواحي العالم الجسماني فإن الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنه صعود من الطريق التي نزل منها، ولم يذكر هناك إلا علو هو السماء، وسفل هو الأرض ونزول وعروج فالنزول من السماء والعروج إلى الله يشعر بأن السماء هو مقام الحضور الذي يصدر منه تدبير الأمر أو أن موطن تدبير الأمر الأرضي هو السماء والله المحيط بكل شيء ينزل التدبير الأرضي من هذا الموطن، ولعل هذا هو الأقرب إلى الفهم بالنظر إلى قوله: ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾

٢. ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾:

أ. معناه على أي حال أنه في ظرف لو طبق على ما في الأرض من زمان الحوادث ومقدار حركتها انطبق على ألف سنة مما نعده فإن من المسلم أن الزمان الذي يقدره ما نعده من الليل والنهار والشهور والسنين لا يتجاوز العالم الأرضي.

ب. وإذ كان المراد بالسماء هو عالم القرب والحضور وهو مما لا سبيل للزمان إليه كان المراد أنه وعاء لو طبق على مقدار حركة الحوادث في الأرض كان مقداره ألف سنة مما تعدون.

ج. وأما أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول واللبث والعروج أو مقدار مجموع النزول والعروج دون اللبث أو مقدار كل واحد من النزول والعروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أن ﴿فِي يَوْمٍ﴾ قيد لقوله: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فقط كما وقع في قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]

د. ثم على تقدير كون الظرف قيدا للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث إلى الله أو العروج يوم القيامة وهو مقدار يوم القيامة، وأما كونه خمسين ألف سنة فهو بالنسبة إلى الكافر من حيث الشقة أو أن الألف سنة مقدار مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو خمسون موقفا كل موقف مقداره ألف سنة.

هـ. ثم المراد بقوله: ﴿مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هل هو التحديد حقيقة أو المراد مجرد التكثير كما في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] أي يعمر عمرا طويلا جدا وإن كان هذا الاحتمال بعيدا من السياق.

و. والآية، كما ترى، تحتمل الاحتمالات جميعا ولكل منها وجه والأقرب من بينها إلى الذهن كون ﴿فِي يَوْمٍ﴾ قيدا لقوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ وكون المراد بيوم عروج الأمر مشهدا من خمسين مشهدا من مشاهد يوم القيامة، والله أعلم.

٤. الغيب والشهادة والخلق والروح:

المقطع [٤] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٦-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٤٩»:

١. ﴿ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسير مفردات الآية، ومناسبة الأسماء الثلاثة الكريمة للمقام ظاهرة.

٢. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾:

أ. قال الراغب: (الحسن عبارة عن كل مبهج، بصيغة الفاعل، مرغوب فيه وذلك ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل ومستحسن من جهة الهوى ومستحسن من جهة الحس)، وهذا تعريف له من جهة خاصته وانقسامه بانقسام الإدراكات الإنسانية.

ب. وحقيقته ملاءمة أجزاء الشيء بعضها لبعض والمجموع للغرض والغاية الخارجة منه فحسن الوجه تلاؤم أجزائه من العين والحاجب والأنف والفم وغيرها، وحسن العدل ملاءمته للغرض من الاجتماع المدني وهو نيل كل ذي حق حقه، وهكذا.

ج. والتدبر في خلقة الأشياء وكل منها في نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض والمجموع من وجوده مجهز بما يلائم كماله وسعادته تجهيزا لا أتم ولا أكمل منه يعطي أن كلا منها حسن في نفسه حسنا لا أتم وأكمل منه بالنظر إلى نفسه.

د. وأما ما نرى من المساءة والقبح في الأشياء فلأحد أمرين:

• إما لكون الشيء السيئ ذا عنوان عدمي يعود إليه المساءة لا لوجوده في نفسه كالظلم والزنا فإن الظلم ليس بسيئ قبيح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت والزنا ليس بسيئ قبيح من جهة نفس العمل الخارجي الذي هو مشترك بينه وبين النكاح بل بما أن فيه مخالفة للنهي الشرعي أو للمصلحة الاجتماعية.

• أو بقياسه إلى شيء آخر فيعرضه المساءة والقبح من طريق المقايسة كقياس الحنظل إلى البطيخ وقياس الشوك إلى الورد وقياس العقرب إلى الإنسان فإن المساءة إنما تطرأ هذه الأشياء من طريق القياس إلى مقابلاتها ثم قياسها إلى طبعنا، ويرجع هذا الوجه من المساءة إلى الوجه الأول بالحقيقة.

هـ. وكيف كان فالشيء بما أنه موجود مخلوق لا يتصف بالمساءة ويدل عليه الآية ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ إذا انضم إلى قوله: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فينتجان:

• أولا: أن الخلقة تلازم الحسن فكل مخلوق حسن من حيث هو مخلوق.

• وثانيا: أن كل سيئ وقبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيئ قبيح كالمعاصي والسيئات من حيث هي معاص وسيئات والأشياء السيئة من جهة القياس.

٣. ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾ المراد بالإنسان النوع فالمبدو خلقه من طين هو النوع الذي ينتهي أفراده إلى من خلق من طين من غير تناسل من أب وأم كآدم وزوجه عليه السلام، والدليل على ذلك قوله بعده: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ فالنسل الولادة بانفصال المولود عن الوالدين والمقابلة بين بدء الخلق وبين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين، ولو كان المراد ذلك لكان حق الكلام أن يقال: ثم جعله سلالة من ماء مهين فافهمه.

٤. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾:

أ. السلالة كما في المجمع: (الصفوة التي تنسل أي تنزع من غيرها ويسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه، والمهين من الهون وهو الضعف والحقارة وثم للتراخي الزماني)

ب. والمعنى: ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوة من ماء ضعيف أو حقير.

٥. ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ التسوية التصوير وتتميم العمل، وفي قوله: ﴿نَفَخَ فِيهِ مِنْ

رُوحِهِ﴾ استعارة بالكناية بتشبيه الروح بالنفس الذي يتنفس به ثم نفخة في قالب من سواه، وإضافة الروح إليه تعالى إضافة تشريفية، والمعنى: ثم صور الإنسان المبدو خلقه من الطين والمجعول نسله من سلالة من ماء مهين ونفخ فيه من روح شريف منسوب إليه تعالى.

٦. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾:

أ. امتنان بنعمة الإدراك الحسي والفكري فالسمع والبصر للمحسوسات والقلوب للفكريات أعم من الإدراكات الجزئية الخيالية والكلية العقلية.

ب. ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون شكرا قليلا، والجملة اعتراضية في محل التوبيخ وقيل: الجملة حالية، والمعنى: جعل لكم الأبصار والأفئدة والحال أنكم تشكرون قليلا، والجملة على أي حال مسوقة للبث والشكوى والتوبيخ.

ج. والالتفات في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، من الغيبة إلى خطاب الجمع لتسجيل أن الإنعام الإلهي الشامل للجميع يربو على شكرهم فهم قاصرون أو أكثرهم مقصرون.

٧. وضع هنا مبحثا حول [كينونة الإنسان الأولي]، خلاصته:

أ. الآيات القرآنية ظاهرة في أن البشر الموجودين اليوم ينتهون بالتناسل إلى زوج واحد (رجل وامرأة) هما آدم وحواء، وهما مخلوقان من تراب أو طين، غير متكونين من أب وأم، وهذا هو الظاهر المعتدّ به، وإن لم يكن نصاً صريحاً لا يقبل التأويل.

ب. الآيات لا تبيّن كيفية خلق آدم من الأرض: هل تمّ بتكوين إلهي آني من غير مهل، أم في أزمنة معتد بها تبدل فيها استعداداته حتى نفخ فيه الروح؟ لكن قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يدل على أن آدم خُلق من تراب بلا والد، وإلا فسد معنى الآية في الاحتجاج على النصارى.

ج. الأقوال الأخرى (كآدم النوعي، أو انتهاء النسل إلى أفراد معدودين، أو التطور من نوع آخر كالقرد، أو التطور من إنسان غير كامل فكرياً) كلها مدفوعة بالآيات، لأن الآيات تصرح بخلق الإنسان الأول من تراب من غير أب وأم.

د. القول بالتطور (انشعاب الإنسان الكامل من نوع آخر ناقص) لا يدعمه دليل قطعي، فما وجد

من آثار حفرية وتشريح تطبيقي يدل على تدرج المادة في استعدادها لقبول الصور الحيوانية المختلفة، لا على انشعاب نوع كامل من ناقص بالتوالد، وهو فرضية حدسية غير يقينية، قابلة للتغيير بتقدم العلم.

هـ. الاستدلال بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ﴾ أو بقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ﴾ أو بقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ لا يدل على التطور، لأن ﴿ثُمَّ﴾ قد تكون للترتيب الكلامي، و﴿الْعَالَمِينَ﴾ في الآية يعمّ جميع البشر إلى يوم القيامة، والنكرة في سياق الإثبات لا تفيد العموم.

٥. تكذيب المشركين بالبعث وتذكيرهم بملك الموت:

المقطع [٥] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١٠ـ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٥٠»:

١. ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ﴾:

أ. حجة من منكري البعث مبنية على الاستبعاد، والضلال في الأرض قيل: هو الضيعة كما يقال: ضلت النعمة أي ضاعت، وقيل: هو بمعنى الغيبة، وكيف كان فمرادهم به أإنا إذا متنا وانتشرت أجزاء أبداننا في الأرض وصرنا بحيث لا تميز لأجزائنا من سائر أجزاء الأرض ولا خبر عنا نقع في خلق جديد ونخلق ثانيا خلقنا الأول؟

ب. والاستفهام للإنكار، والخلق الجديد هو البعث.

٢. ﴿بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ﴾ إضراب عن فحوى قولهم: ﴿أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ﴾ كأنه قيل: إنهم لا يجحدون الخلق الجديد لجحدهم قدرتنا على ذلك أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع إلينا ولقائنا ولذا جيء في الجواب عن قولهم بما يدل على الرجوع.

٣. ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. توفي الشيء أخذه تاما كاملا كتوفي الحق وتوفي الدين من المديون.

ب. ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ قيل: أي وكل بإماتتكم وقبض أرواحكم والآية مطلقة ظاهرة في أعم من ذلك.

ج. وقد نسب التوفي في الآية إلى ملك الموت، وفي قوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ [الزمر:

٤٢] إليه تعالى، وفي قوله: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] إلى الرسل والملائكة نظرا إلى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب الملائكة الرسل أعوان ملك الموت وفوقهم ملك الموت الآمر بذلك المجرى لأمر الله والله من ورائهم محيط وهو السبب الأعلى ومسبب الأسباب فذلك بوجه كمثل كتابة الإنسان بالقلم فالقلم كاتب واليد كاتبة والإنسان كاتب.

٤. ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. هو الرجوع الذي عبر عنه في الآية السابقة باللقاء وموطنه البعث المترتب على التوفي والمتراخي عنه، كما يدل عليه العطف بثم الدالة على التراخي.

ب. والآية، على أي تقدير، جواب عن الاحتجاج بضلال الموتى في الأرض على نفي البعث ومن المعلوم أن إماتة ملك الموت لهم ليس يحسم مادة الإشكال فيبقى قوله: ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ دعوى خالية عن الدليل في مقابل دعواهم المدللة والكلام الإلهي أنزه ساحة أن يتعاطى هذا النوع من المحاجة.

ج. لكنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجتهم المبنية على الاستبعاد بأن حقيقة الموت ليس بطلانا لكم وضلالا منكم في الأرض بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان وأرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أي ما يعني بلفظة (كم) محفوظون لا يضل منكم شيء في الأرض وإنما يضل الأبدان وتتغير من حال إلى حال وقد كانت في معرض التغير من أول كينونتها، ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا إلى ربكم بالبعث ورجوع الأرواح إلى أجسادها.

د. وبهذا يندفع حجتهم على نفي المعاد بضلالهم سواء قررت على نحو الاستبعاد أو قررت على أن تلاشي البدن يبطل شخصية الإنسان فينعدم ولا معنى لإعادة المعدوم فإن حقيقة الإنسان هي نفسه التي يحكي عنها بقول (أنا) وهي غير البدن والبدن تابع لها في شخصيته وهي لا تتلاشى بالموت ولا تنعدم بل محفوظة في قدرة الله حتى يؤذن في رجوعها إلى ربها للحساب والجزاء فيبعث على الشريطة التي ذكر الله سبحانه.

٥. وظهر بما تقدم:

أ. أولا وجه اتصال قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بقوله: ﴿أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ﴾ وأنه جواب حاسم للإشكال قاطع للشبهة، وقد أشكل الأمر على بعض من فسر التوفي بمطلق الإماتة من غير التفات إلى نكتة التعبير بلفظ التوفي فتكلف في توجيه اتصال الآيتين بما لا يرتضيه العقل السليم.

ب. وثانيا: أن الآية من أوضح الآيات القرآنية الدالة على تجرد النفس بمعنى كونها غير البدن أو شيء من حالات البدن.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ وعن قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وعن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ و﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وعن قول الله عز وجل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا﴾ وعن قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ﴾ وقد يموت في الدنيا في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، فكيف هذا؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى جعل لملك الموت أعوانا من الملائكة، يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة، له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجه، فيتوفاهم الملائكة ويتوفاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو، ويتوفاها الله تعالى من ملك الموت.

ب. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل من الأنصار يعوده، فإذا ملك الموت عند رأسه فقال رسول الله ﷺ: يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن، فقال: أبشر يا محمد فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم يا محمد إني لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله، فأقوم في جانب من الدار فأقول: والله ما لي من ذنب وإن لي لعودة وعودة الحذر الحذر، وما خلق الله من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر في بر ولا بحر، إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم وليلة خمس مرات، حتى إني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد إني لا أقدر أن أقبض روح بعوضة، حتى يكون الله تبارك وتعالى هو الذي يأمر بقبضه.

٦. ندم المجرمين يوم القيامة وتمنيهم الرجعة:

المقطع [٦] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُو

رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٢ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٥٢»:

١. ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾:

أ. نكس الرأس إطراقه وطأطأته، والمراد بالمجرمين بقرينة ذيل الآية خصوص المنكرين للمعاد فاللام فيه لا تخلو من معنى العهد أي هؤلاء الذين يجحدون المعاد ويقولون: ﴿أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ﴾

ب. وفي التعبير عن البعث بقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ محاذاة لما تقدم من قوله: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ﴾ أي واقفون موقفا من اللقاء لا يسعهم إنكاره، وقولهم: ﴿أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا﴾ ومسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ينجلي لهم أن النجاة في الإيمان والعمل الصالح وقد حصل لهم الإيمان اليقيني وبقي العمل الصالح ولذا يعترفون باليقين ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيتم لهم سببا النجاة.

ج. والمعنى: ولو ترى إذ هؤلاء الذين يجرمون بإنكار لقاء الله مطرقوا رءوسهم عند ربهم في موقف اللقاء من الخزي والذل والندم يقولون ربنا أبصرنا بالمشاهدة وسمعنا بالطاعة فارجعنا نعمل عملا صالحا إنا موقنون والمحصل أنك تراهم يجحدون اللقاء ولو تراهم إذ أحاط بهم الخزي والذل فنكسوا رءوسهم واعترفوا بما ينكرونه اليوم وسألوا العود إلى هاهنا ولن يعودوا.

٢. ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها﴾ أي لو شئنا أن نعطي كل نفس أعم من المؤمنة والكافرة الهدى الذي يختص بها ويناسبها لأعطيناه لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافر وإرادته أن يتلبس بالهدى فيتلبس بها من طريق الاختيار والإرادة كما شئنا في المؤمن كذلك فتلبس بالهدى باختيار منه وإرادة من دون أن ينجر إلى الإلجاء والاضطرار فيبطل التكليف ويلغو الجزاء.

٣. ﴿وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾:

أ. أي ولكن هناك قضاء سابق مني محتوم وهو إملاء جهنم من الجنة والناس أجمعين وهو قوله لإبليس لما امتنع من سجدة آدم وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] فقضى أن يدخل متبعي إبليس

العذاب المخلد.

ب. ولازم ذلك أن لا يهديهم لظلمهم وفسقهم بالخروج عن زي العبودية كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠] إلى غير ذلك من الآيات.

٤. ﴿فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ والنسيان ذهول صورة الشيء عن الذاكرة ويكنى به عن عدم الاعتناء بما يهم الشيء وهو المراد في الآية.

ب. والمعنى: فإذا كان من القضاء إذاقة العذاب لمتبعي إبليس فذوقوا العذاب بسبب عدم اعتنائكم بلقاء هذا اليوم حتى جحدتموه ولم تعملوا صالحا تثابون به فيه لأنا لم نعتن بما يهمكم في هذا اليوم من السعادة والنجاة، وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد وتوضيح لسابقه أي إن الذوق الذي أمرنا به ذوق عذاب الخلد ونسيانهم لقاء يومهم هذا أعمالهم السيئة.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها﴾ قال: لو شئنا أن نجعلهم كلهم معصومين لقدرنا.

- أقول: العصمة لا تنافي الاختيار فلا تنافي بين مضمون الرواية وما قدمناه في تفسير الآية.

٧. من صفات المؤمنين: السجود والتسبيح وقيام الليل والإنفاق:

المقطع [٧] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦٢»:

١. ﴿إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

أ. لما ذكر شطرا من الكلام في الكفار الذين يجحدون لقاءه ويستكبرون في الدنيا عن الإيمان والعمل الصالح أخذ في صفة الذين يؤمنون بآيات ربهم ويخضعون للحق لما ذكروا ووعظوا.

ب. فقوله: ﴿إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا﴾ حصر للإيمان بحقيقة معناه فيهم ومعناه أن علامة التهيؤ للإيمان الحقيقي هو كذا وكذا.

٢. ﴿الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً﴾ ذكر سبحانه شيئا من أوصافهم وشيئا من أعمالهم، أما ما

هو من أوصافهم فتذللهم لمقام الربوبية وعدم استكبارهم عن الخضوع لله وتسبيحه وحمده وهو قوله: ﴿إِذا ذُكِّرُوا بِها﴾ أي الدالة على وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وما يلزمها من المعاد والدعوة النبوية إلى الإيمان والعمل الصالح ﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾ أي سقطوا على الأرض ساجدين لله تذللا واستكانة ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي نزهوه مقارنا للثناء الجميل عليه، والسجدة والتسبيح والتحميد وإن كانت من الأفعال لكنها مظاهر لصفة التذلل والخضوع لمقام الربوبية والألوهية، ولذا أردفها بصفة تلازمها فقال: ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

٣. ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾:

أ. هذا معرفهم من حيث أعمالهم كما أن ما في الآية السابقة كان معرفهم من حيث أوصافهم.

ب. فقوله: ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ التجافي التنحي والجنوب جمع جنب وهو الشق، والمضاجع جمع مضجع وهو الفراش وموضع النوم، والتجافي عن المضاجع كناية عن ترك النوم.

٤. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ حال من ضمير جنوبهم والمراد اشتغالهم بدعاء ربهم في جوف الليل حين تنام العيون وتسكن الأنفاس لا خوفا من سخطه تعالى فقط حتى يغشيهم اليأس من رحمة الله ولا طمعا في ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه ومكره بل يدعونه خوفا وطمعا فيؤثرون في دعائهم أدب العبودية على ما يبعثهم إليه الهدى وهذا التجافي والدعاء ينطبق على النوافل الليلية.

٥. ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ عمل آخر لهم وهو الإنفاق لله وفي سبيله.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾، قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه، فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير.

• أقول: ورواها أيضا فيه بطرق أخر موصولة وموقوفة، وروى صدر الحديث الشيخ في أماليه بالإسناد عن الصادق عليه السلام في الآية ولفظه كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن سليمان بن خالد عن أبي جعفر عليه السلام قال: ألا أخبرك بالإسلام أصله وفرعه وذروة سنامه؟ قلت: بلى جعلت فداك، قال: أما أصله فالصلاة وفرعه الزكاة وذروة سنامه

الجهاد، ثم قال: إن شئت أخبرتك بأبواب الخير: قلت: نعم جعلت فداك، قال: الصوم جنة والصدقة تذهب بالخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يذكر الله ثم قرأ: ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾

• أقول: وروى هذا المعنى في المحاسن، بإسناده عن علي بن عبد العزيز عن الصادق عليه السلام وفي المجمع: عن الواحدي بالإسناد عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ ورواه في الدر المنثور، عن الترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم عن معاذ عنه ﷺ.

ج. أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: ذكر لنا رسول الله قيام الليل ففاضت عيناه، حتى تحادرت دموعه فقال: ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾

٨. ما أخفي للمؤمنين من قرة أعين جزاء أعمالهم:

المقطع [٨] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦٣»:

١. ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. تفريع لما لهم من الأوصاف والأعمال يصف ما أعد الله لهم من الثواب.

ب. ووقوع نفس وهي نكرة في سياق النفي يفيد العموم، وإضافة قرة إلى أعين لا أعينهم تفيد أن فيما أخفي لهم قرة عين كل ذي عين.

ج. والمعنى: فلا تعلم نفس من النفوس، أي هو فوق علمهم وتصورهم، ما أخفاه الله لهم مما تقر به عين كل ذي عين جزاء في قبال ما كانوا يعملون في الدنيا.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والطبراني وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة من طريق أبي صخر عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يصف الجنة حتى انتهى، ثم قال: فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم قرأ: ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ الآيتين.

ب. وفي المجمع: (وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ما من حسنة إلا ولها ثواب مبين في القرآن إلا صلاة الليل، فإن الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها قال: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ الآية.

ج. وفي تفسير القمي، حدثني أبي عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من عمل حسن يعمله العبد، إلا وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل، فإن الله عز وجل لم يبين ثوابها لعظيم خطره عنده، فقال جل ذكره: ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: إن لله عز وجل كرامة في عباده المؤمنين، في كل يوم جمعة فإذا كان يوم الجمعة، بعث الله إلى المؤمن ملكا معه حلتان فينتهي إلى باب الجنة، فيقول: استأذنوا لي على فلان، فيقال له هذا رسول ربك على الباب فيقول لأزواجه: أي شيء ترين علي أحسن؟ فيقلن يا سيدنا والذي أباحك الجنة، ما رأينا عليك أحسن من هذا الذي قد بعث إليك ربك، فيتزر بواحدة ويتعطف بالأخرى، فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد، فإذا اجتمعوا تجلى لهم الرب تبارك وتعالى، فإذا نظروا إليه أي إلى رحمته خروا سجدا، فيقول: عبادي ارفعوا رءوسكم ليس هنا يوم سجود، ولا عبادة قد رفعت عنكم المئونة، فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل مما أعطيتنا؟ أعطيتنا الجنة فيقول: لكم مثل ما في أيديكم سبعين مرة، فيرجع المؤمن في كل جمعة بسبعين ضعفا مثل ما في يديه، وهو قوله: ﴿وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ وهو يوم الجمعة، إن ليلها ليلة غراء ويومها يوم أزهر، فأكثروا من التسبيح والتهليل والتكبير، والثناء على الله عز وجل والصلاة على رسول الله ﷺ، قال: فيمر المؤمن فلا يمر بشيء إلا أضاء له، حتى ينتهي إلى أزواجه فيقلن: والذي أباحنا الجنة، يا سيدنا ما رأيناك أحسن منك الساعة، فيقول: إني نظرت إلى نور ربي، إلى أن قال ـ: قلت جعلت فداك زدني، فقال: إن الله تعالى خلق جنة بيده، ولم يرها عين ولم يطلع عليها مخلوق، يفتحها الرب كل صباح فيقول: ازدادي ريحا ازدادي طيبا وهو قول الله: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾

• أقول: ذيل الرواية تفسير لصدرها وقوله: أي إلى رحمة ربه، من كلام الراوي.

د. وفي الكافي، بإسناده عن عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أطعم مؤمنا حتى يشبعه، لم يدر أحد من خلق الله جل وعز ما له من الأجر، في الآخرة لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا الله رب العالمين.

٩. تفاوت المؤمن والفاسق في الجزاء يوم القيامة:

المقطع [٩] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا

لَا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ـ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦٣»:

١. ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾:

أ. الإيمان سكون علمي خاص من النفس بالشيء ولازمه الالتزام العملي بما آمن به والفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمرة إذا خرجت عن قشرها ومآل معناه الخروج عن زي العبودية.

ب. والاستفهام في الآية للإنكار، وقوله: ﴿لا يَسْتَوُونَ﴾ نفي لاستواء الفريقين تأكيدا لما يفيده الإنكار السابق.

٢. ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المأوى المكان الذي يأوي إليه ويسكن فيه الإنسان، والنزل بضمتين كل ما يعد للنازل في بيت من الطعام والشراب، ثم عمم كما قيل لكل عطية، والباقي ظاهر.

٣. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ﴾ كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها ولذلك عقبه بقوله: ﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها﴾، وقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ دليل على أن المراد بالذين فسقوا هم منكرو المعاد وخطابهم وهم في النار بهذا الخطاب شماتة بهم وكثيرا ما كانوا يشمتون في الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾ قال: إن علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط تشاجرا، فقال الفاسق وليد بن عقبة: أنا والله أبسط منك لسانا وأحد منك سنانا، وأمثل منك جثوا في الكتيبة، فقال علي عليه السلام: اسكت إنما أنت فاسق، فأنزل الله ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾

• أقول: ورواه في المجمع: عن الواحدي عن ابن عباس وفي الدر المنثور، عن كتاب الأغاني والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه وأيضا عن ابن إسحاق وابن جرير عن

عطاء بن يسار وعن ابن أبي حاتم عن السدي عنه وأيضا عن ابن أبي حاتم عن ابن أبي ليلى مثله.

ب. وفي الاحتجاج، عن الحسن بن علي عليه السلام: في حديث يحاج فيه رجالا عند معاوية: وأما أنت يا وليد بن عقبة، فوالله ما ألومك أن تبغض عليا، وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدة، وقتل أباك صبرا بيده يوم بدر أم كيف تسبه، وقد سماه الله مؤمنا في عشر آيات من القرآن، وسماك فاسقا وهو قول الله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾

١٠. العذاب الأدنى قبل الأكبر:

المقطع [١٠] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢١-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦٤»:

١. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

أ. لما كان غاية إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجو والرجوع المرجو هو الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف والإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال ودون العذاب الذي بعد الموت وحينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

ب. والمعنى: أقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أي الأقرب مثل السنين والأمراض والقتل ونحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلهم يرجعون إلينا بالتوبة من شركهم وجحودهم.

ج. قيل: سمي عذاب الدنيا أدنى ولم يقل: الأصغر، حتى يقابل الأكبر لأن المقام مقام الإنذار والتخويف ولا يناسبه عد العذاب أصغر، وكذا لم يقل دون العذاب الأبعد حتى يقابل العذاب الأدنى لعدم ملاءمته مقام التخويف.

٢. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾:

أ. كأنه في مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذبون فعلله بأنهم ظالمون أشد الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين والله منتقم منهم.

ب. فقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾، تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون والعذاب انتقام منهم، والله منتقم من المجرمين.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال: سألت عبادة بن الصامت عن قول الله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ﴾ فقال: سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: هي المصائب والأسقام والأنصاب، عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة، قلت: يا رسول الله فما هي لنا؟ قال: زكاة وطهور.

ب. وفي المجمع: في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: أن العذاب الأدنى الدابة والدجال.

١١. إيتاء موسى الكتاب وجعل الأئمة يهدون بأمر الله:

المقطع [١١] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٣ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦٦»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾:

أ. المراد بالكتاب التوراة والمرية الشك والريب.

ب. وقد اختلفوا في مرجع الضمير في قوله: ﴿مِنْ لِقائِهِ﴾ ومعنى الكلمة:

• فقيل: الضمير لموسى وهو مفعول اللقاء والتقدير فلا تكن في مرية من لقائك موسى وقد لقيه ليلة المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السورة نازلة بعد المعراج فهو تذكرة لما قد وقع وإن كانت نازلة قبله فهو وعد منه تعالى للنبي ﷺ أنه سيراه.

• وقيل: الضمير لموسى والمعنى: فلا تكن في مرية من لقائك موسى يوم القيامة.

• وقيل: الضمير للكتاب والتقدير فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب.

• وقيل: التقدير من لقائك الكتاب أو من لقاء الكتاب إياك.

• وقيل: الضمير لما لقي موسى من الأذى من قومه والمعنى: فلا تكن في مرية من لقاء الأذى كما لقيه موسى من قومه وأنت خبير بأن الطبع السليم لا يقبل شيئا من هذه الوجوه، على أنها لا تفي لبيان

وجه اتصال الآية بما قبلها.

ج. ومن الممكن، والله أعلم، أن يرجع ضمير لقائه إليه تعالى والمراد بلقائه البعث بعناية أنه يوم يحضرون لربهم لا حجاب بينه وبينهم كما تقدم، وقد عبر عنه باللقاء قبل عدة آيات في قوله: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ﴾، ثم عبر عنه بما في معناه في قوله: ﴿ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

• فيكون المعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب كما آتيناك القرآن فلا تكن في مرية من البعث الذي ينطق به القرآن بالشك في نفس القرآن وقد أيد نزول القرآن عليه ﷺ بنزول التوراة على موسى في مواضع من القرآن، ويؤيده قوله بعد: ﴿وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾

د. ويمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التام إليه تعالى عند وحي القرآن أو بعضه كما في بعض الروايات، فيكون رجوعا إلى ما في صدر السورة من قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾، وذيل الآية أشد تأييدا لهذا الوجه من سابقه والله أعلم.

٢. ﴿وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ أي هاديا فالمصدر بمعنى اسم الفاعل أو بمعناه المصدري مبالغة.

٣. ﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ﴾:

أ. أي وجعلنا من بني إسرائيل أئمة يهدون الناس بأمرنا وإنما نصبناهم أئمة هداة للناس حين صبروا في الدين وكانوا قبل ذلك موقنين بآياتنا.

ب. وقد تقدم البحث عن معنى الإمامة وهداية الإمام بأمر الله في تفسير قوله: ﴿قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾ [البقرة: ١٢٤] وقوله: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وغير ذلك من الموارد المناسبة.

ج. وقد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمة المنبسطة بالتوراة أنها هدى في نفسه يهدي من اتبعه إلى الحق، وأنها أنشأت في حجر تربيتها أناسا اجتباهم الله للإمامة فصاروا يهدون بأمره فهي مباركة للعمل بها ومباركة بعد العمل.

٤. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

أ. يريد اختلافهم في الدين وإنما كان ذلك بغيا بينهم كما يذكره في مواضع من كلامه كقوله: ﴿وَلَقَدْ

آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧]

ب. فالمراد بقوله: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ القضاء الفاصل بين الحق والباطل والمحق والمبطل والباقي ظاهر.

١٢. السير في مساكن الأمم الماضية آية وعبرة لمن يسمع:

المقطع [١٢] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦٦»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ﴾:

أ. العطف على محذوف كأنه قيل: ألم يبين لهم كذا وكذا، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، والهداية بمعنى التبيين أو هو مضمن معنى التبيين ولذا عدي باللام.

ب. ﴿كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ مشير إلى الفاعل قائم مقامه، والمعنى: أولم يبين لهم كثرة من أهلكنا من القرون والحال أنهم يمشون في مساكنهم.

٢. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدي إلى طاعة الحق وقبوله.

١٣. إحياء الأرض بالماء وإخراج الزرع آية:

المقطع [١٣] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦٦»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾:

أ. قال في المجمع: (السوق الحث على السير من ساقه يسوقه، وقال: الجرز الأرض اليابسة التي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها)

ب. والزرع مصدر في الأصل والمراد به هنا المزروع.

ج. والآية تذكر آية أخرى من آيات الله سبحانه تدل على حسن تدبيره للأشياء وخاصة ذوي الحياة

منها كالأنعام والإنسان، والمراد بسوق الماء إلى الأرض الخالية من النبات سوق السحب الحاملة للأمطار إليها، ففي نزول ماء المطر منها حياة الأرض وخروج الزرع واغتذاء الإنسان والأنعام التي يسخرها ويربيها لمقاصد حياته.

٢. ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ تنبيه وتوبيخ وتخصيص هذه الآية بالإبصار، والآية السابقة بالسمع لما أن العلم بإهلاك الأمم الماضين إنما هو بالأخبار التي تنال من طريق السمع وأما العلم بسوق الأمطار إلى الأرض الجرز وإخراج الزرع واغتذاء الأنعام والإنسان فالطريق إليه حاسة البصر.

١٤. يوم الفتح وعدم نفع الإيمان عنده للذين أنكروه:

المقطع [١٤] من سورة السجدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨ـ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٦٧»:

١. ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ﴾:

أ. قال الراغب: (الفتح إزالة الإغلاق والإشكال، إلى أن قال، وفتح القضية فتاحا فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها، قال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ﴾)

ب. وقد تقدم في الآيات السابقة مما يصدق عليه الفتح بمعنى الفصل أمران: أحدهما فصل بينهم يوم القيامة، والآخر إذاقة العذاب الأدنى أو الانتقام منهم في الدنيا ولذا فسر الفتح بعضهم بيوم القيامة فيكون معنى قولهم: ﴿مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ هو معنى قولهم المحكي كرارا في كلامه تعالى: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾

ج. وفسره بعضهم بيوم بدر فإنه لم ينفع الذين قتلوا من المشركين إيمانهم بعد القتل.

د. وذكر بعضهم أن المراد به فتح مكة ولا يلائمه الجواب المذكور في قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ إلا أن يقول قائل: إن إيمانهم يومئذ، وقد عاندوا الحق وقاتلوا النبي ﷺ سنين وجاهدوا في إطفاء نور الله، لم يكن إيمانا إلا نفاقا من غير أن يدخل في قلوبهم وينتفع به نفوسهم وقد ألزموا بالإيمان ولم ينظروا.

هـ. ويمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبي ﷺ وبين الأمة ويكون ذلك في آخر الزمان كما

تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ الآية: [يونس: ٤٧]

و. وكيف كان فالمراد بالآيتين استعجال المشركين بالفتح والجواب أنه فتح لا ينفع حال الذين كفروا إيمانهم لأنه ظرف لا ينفع نفسا إيمانها ولا أن العذاب يمهلهم وينظرهم.

٢. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾:

أ. أمر بالإعراض عنهم وانتظار الفتح كما أنهم ينتظرون وإنما كانوا منتظرين موته أو قتله ﷺ وبالجملة انقطاع دابر دعوته الحقة فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتى يظهر الله الحق على الباطل والمحق على المبطل.

ب. ومن هذا السياق يظهر أن المراد بالفتح الفتح الدنيوي.

سورة الأحزاب

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤٦] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

تتضمن السورة تفاريق من المعارف والأحكام والقصص والعبر والمواعظ، وفيها قصة غزوة الخندق وإشارة إلى قصة بني القريظة من اليهود، وسياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينة.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٨] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تأمر النبي ﷺ بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، وتأمره بالتوكل على الله، وتذكر أن الله أحاط بكل شيء، وتذكر أخذ الله الميثاق من النبيين ورسلهم.

٢. الآيات [٩ ـ ٢٧] قصة غزوة الخندق وما عقبها من أمر بني قريظة، ووجه اتصالها بما قبلها ما فيها من ذكر حفظ العهد ونقضه.

٣. الآيات [٢٨ ـ ٣٥] آيات راجعة إلى أزواج النبي ﷺ تأمره:

أ. أولاً: أن ينبئهن أن ليس لهن من الدنيا وزينتها إلا العفاف والكفاف إن اخترن زوجية النبي ﷺ، ثم تخاطبهن.

ب. ثانياً: أنهن واقفات في موقف صعب على ما فيه من العلو والشرف، فإن اتقين الله يؤتين أجرهن مرتين، وإن أتين بفاحشة مبينة يضاعف لهن العذاب ضعفين، ويأمرهن بالعفة ولزوم بيوتهن من غير تبرج، والصلاة والزكاة، وذكر ما يتلى في بيوتهن من الآيات والحكمة، ثم يعد مطلق الصالحين من الرجال والنساء وعداً بالمغفرة والأجر العظيم.

٤. الآيات [٣٦ ـ ٤٠]:

أ. الآيات أعني قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ في قصة تزوج رسول الله ﷺ بزوج مولاه زيد الذي كان قد اتخذه ابناً.

ب. ولا يبعد أن تكون الآية الأولى أعني قوله: ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، مرتبطة

بالآيات التالية كالتوطئة لها.

٥. الآيات [٤١ ـ ٤٨] آيات تدعو المؤمنين إلى الذكر والتسبيح، وتبشرهم وتعدهم الوعد الجميل، وتخاطب النبي ﷺ بصفاته الكريمة، وتأمره أن يبشر المؤمنين ولا يطيع الكافرين والمنافقين، ويمكن أن يكون القبيلان مختلفين في النزول زماناً.

٦. الآيات [٤٩ ـ ٦٢] تتضمن الآيات أحكاماً متفرقة، بعضها خاصة بالنبي ﷺ وأزواجه، وبعضها عامة.

٧. الآيات [٦٣ ـ ٧٣] آيات تذكر شأن الساعة وبعض ما يجري على الكفار من عذابها، وتأمر المؤمنين بالقول السديد وتعدهم عليه وعداً جميلاً، ثم تختتم السورة بذكر الأمانة.

١. أمر النبي بالتقوى واتباع الوحي والتوكل على الله:

المقطع [١] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَّ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَّ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ وَكَفَى بِاللهَّ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٧٣»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾:

أ. أمر للنبي ﷺ بتقوى الله وفيه تمهيد للنهي الذي بعده ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾

ب. وفي سياق النهي، وقد جمع فيه بين الكافرين والمنافقين ونهى عن إطاعتهم، كشف عن أن الكافرين كانوا يسألونه أمرا لا يرتضيه الله سبحانه وكان المنافقون يؤيدونهم في مسألتهم ويلحون، أمرا كان الله سبحانه بعلمه وحكمته قد قضى بخلافه وقد نزل الوحي الإلهي بخلافه، أمرا خطيرا لا يؤمن مساعدة الأسباب على خلافه إلا أن يشاء الله فحذر النبي ﷺ عن إجابتهم إلى ملتمسهم وأمر بمتابعة ما أوحى الله إليه والتوكل عليه.

ج. وبهذا يتأيد ما ورد في أسباب النزول أن عدة من صناديد قريش بعد وقعة أحد دخلوا المدينة بأمان من النبي ﷺ وسألوا النبي ﷺ أن يتركهم وآلهتم فيتركوه وإلهه فنزلت الآيات ولم يجبهم النبي إلى ذلك وسيأتي في البحث الروائي التالي.

د. وبما تقدم ظهر وجه تذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ وكذا تعقيب الآية بالآيتين

بعدها.

٢. ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ الآية عامة في حد نفسها لكنها من حيث وقوعها في سياق النهي تأمر النبي ﷺ باتباع ما نزل به الوحي فيما يسأله الكافرون والمنافقون وأتباعه إجراؤه عملا بدليل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾

٣. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ الآية كالآية السابقة في أنها عامة في حد نفسها، لكنها لوقوعها في سياق النهي السابق تدل على الأمر بالتوكل على الله فيما يأمره به الوحي وتشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر إلى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضة المخافة والاضطراب إلا التوكل على الله سبحانه فإنه السبب الوحيد الذي لا يغلبه سبب مخالف.

٤. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾ الآيات، نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السلمي، قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبي، بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ﷺ، ليكلموه فقاموا وقام معهم عبد الله بن أبي، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق، فدخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم، فقال: إني أعطيتهم الأمان وأمر، فأخرجوا من المدينة ونزلت الآية ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ﴾ من أهل مكة أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة ﴿وَالْمُنافِقِينَ﴾ ابن أبي وابن سعيد وطعمة.

• أقول: وروي إجمال القصة في الدر المنثور، عن جرير عن ابن عباس، وروي أسباب أخر لنزول الآيات لكنها أجنبية غير ملائمة لسياق الآيات فأضربنا عنها.

٢. نفي وجود قلبين للرجل ونفي كون الأدعياء أبناء:

المقطع [٢] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٧٤»:

١. ﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾:

أ. كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين في الاعتقاد فإن القلب الواحد أي النفس الواحدة لا يسع

اعتقادين متنافيين ورأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين ويصدق بالمتناقضين وقوله: ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ يفيد زيادة التقرير كقوله: ﴿وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

ب. قيل: الجملة توطئة وتمهيد كالتعليل لما يتلوها من إلغاء أمر الظهار والتبني فإن في الظهار جعل الزوجة بمنزلة الأم وفي التبني والدعاء جعل ولد الغير ولدا لنفسه والجمع بين الزوجية والأمومة وكذا الجمع بين بنوة الغير وبنوة نفسه جمع بين المتنافيين ولا يجتمعان إلا في قلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

ج. ولا يبعد أن تكون الجملة في مقام التعليل لقوله السابق: ﴿لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإن طاعة الله وولايته وطاعة الكفار والمنافقين وولايتهم متنافيتان متباينتان كالتوحيد والشرك لا يجتمعان في القلب الواحد وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

٢. ﴿وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ﴾:

أ. كان الرجل في الجاهلية يقول لزوجته أنت مني كظهر أمي أو ظهرك علي كظهر أمي فيشبه ظهرها بظهر أمه وكان يسمى ذلك ظهارا ويعد طلاقا لها، وقد ألغاه الإسلام.

ب. فمفاد الآية أن الله لم يجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن بقول ظهرك علي كظهر أمي أمهات لكم وإذ لم يجعل ذلك فلا أثر لهذا القول والجعل تشريعي.

٣. ﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ﴾:

أ. الأدعياء جمع دعي وهو المتخذ ولدا المدعو ابنا وقد كان الدعاء والتبني دائرا بينهم في الجاهلية وكذا بين الأمم الراقية يومئذ كالروم وفارس وكانوا يرتبون على الدعي أحكام الولد الصلبي من التوارث وحرمة الازدواج وغيرهما وقد ألغاه الإسلام.

ب. فمفاد الآية أن الله لم يجعل الذين تدعونهم لأنفسكم أبناء لكم بحيث يجري فيهم ما يجري في الأبناء الصلبيين.

٤. ﴿ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ الإشارة بقوله: ﴿ذلِكُمْ﴾ إلى ما تقدم من الظهار والدعاء أو إلى الدعاء فقط وهو الأظهر ويؤيده اختصاص الآية التالية بحكم الدعاء

فحسب.

٥. ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ﴾ أي إن نسبة الدعي إلى أنفسكم ليس إلا قولا تقولونه بأفواهكم ليس له أثر وراء ذلك فهو كناية عن انتفاء الأثر كما في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾ [المؤمنون: ١٠٠]

٦. ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾:

أ. معنى كون قوله: هو الحق أنه إن أخبر عن شيء كان الواقع مطابقا لما أخبر به وإن أنشأ حكما ترتب عليه آثاره وطابقته المصلحة الواقعية.

ب. ومعنى هدايته السبيل أنه يحمل من هداه على سبيل الحق التي فيها الخير والسعادة وفي الجملتين تلويح إلى أن دعوا أقوالكم وخذوا بقوله.

٧. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ﴾ حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان سبب ذلك أن رسول الله ﷺ لما تزوج بخديجة بنت خويلد، خرج إلى سوق عكاظ في تجارة، ورأى زيدا يباع ورآه غلاما كيسا حصينا، فاشتراه فلما نبئ رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام، فأسلم وكان يدعى زيد مولى محمد، فلما بلغ حارثة بن شراحيل الكلبي خبر ولده زيد قدم مكة، وكان رجلا جليلا فأتى أبا طالب، فقال: يا أبا طالب إن ابني وقع عليه السبي، وبلغني أنه صار إلى ابن أخيك، تسأله إما أن يبيعه وإما أن يفاديه وإما أن يعتقه، فكلم أبو طالب رسول الله ﷺ فقال رسول الله: هو حر فليذهب حيث شاء فقام حارثة فأخذ بيد زيد، فقال له: يا بني الحق بشرفك وحسبك، فقال زيد: لست أفارق رسول الله، فقال له أبوه: فتدع حسبك ونسبك، وتكون عبدا لقريش؟ فقال زيد: لست أفارق رسول الله ما دمت حيا، فغضب أبوه فقال: يا معشر قريش اشهدوا أني قد برئت منه وليس هو ابني، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا أن زيدا ابني أرثه ويرثني، فكان زيد يدعى ابن محمد، وكان رسول الله ﷺ يحبه وسماه زيد الحب، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، زوجه زينب بنت جحش، وأبطأ عنه يوما فأتى رسول الله منزله يسأل عنه، فإذا زينب جالسة وسط حجرتها يستحق طيبها بفهر لها، فدفع رسول الله الباب ونظر إليها وكانت جميلة حسنة، فقال: سبحان الله رب النور وتبارك الله أحسن الخالقين، ثم رجع رسول الله إلى منزله، ووقعت زينب في قلبه موقعا عجيبا، وجاء زيد إلى منزله فأخبرته زينب بما قال رسول الله، فقال لها زيد: هل لك أن أطلقك حتى يتزوج بك رسول الله؟ فقالت: أخشى أن

تطلقني ولا يتزوجني رسول الله، فجاء زيد إلى رسول الله فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أخبرتني زينب بكذا وكذا، فهل لك أن أطلقها حتى تتزوجها؟ فقال له رسول الله: لا اذهب، واتق الله وأمسك عليك زوجك، ثم حكى الله فقال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ، وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ، فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها﴾ إلى قوله: ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ فزوجه الله من فوق عرشه، فقال المنافقون: يحرم علينا نساء أبنائنا ويزوج امرأة ابنه زيد، فأنزل الله في هذا ﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

- أقول: وروى قريبا منه مع اختلاف ما في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن ابن عباس.

٣. دعوة الأدعياء لآبائهم:

المقطع [٣] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٧٥»:

١. ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾:

أ. اللام في ﴿لِآبائِهِمْ﴾ للاختصاص أي ادعوهم وهم مخصوصون بآبائهم أي انسبوهم إلى آبائهم وقوله: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾، الضمير إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿ادْعُوهُمْ﴾ نظير قوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ و(أقسط) صيغة تفضيل من القسط بمعنى العدل.

ب. والمعنى: انسبوهم إلى آبائهم، إذا دعوتموهم، لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند الله.

٢. ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ﴾ المراد بعدم علمهم آباءهم عدم معرفتهم بأعيانهم، والموالي هم الأولياء، والمعنى: وإن لم تعرفوا آباءهم فلا تنسبوهم إلى غير آبائهم بل ادعوهم بالإخوة والولاية الدينية.

٣. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي لا ذنب لكم في الذي أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتموهم لغير آبائهم ولكن الذي تعمدته قلوبكم ذنب أو ولكن تعمد قلوبكم بذلك فيه الذنب.

٤. ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ راجع إلى ما أخطئ به.

٤. النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم:

المقطع [٤] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٧٦»:

١. ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾:

أ. أنفس المؤمنين هم المؤمنون فمعنى كون النبي أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم: ومعنى الأولوية هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أولى منه فالمحصل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والكلاءة والمحبة والكرامة واستجابة الدعوة وإنفاذ الإرادة فالنبي أولى بذلك من نفسه ولو دار الأمر بين النبي وبين نفسه في شيء من ذلك كان جانب النبي أرجح من جانب نفسه.

ب. ففيما إذا توجه شيء من المخاطر إلى نفس النبي فليقه المؤمن بنفسه ويفده نفسه وليكن النبي أحب إليه من نفسه وأكرم عنده من نفسه ولو دعته نفسه إلى شيء والنبي إلى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئا وأراد النبي خلافه كان المتعين استجابة النبي ﷺ وطاعته وتقديمه على نفسه.

ج. وكذا النبي ﷺ أولى بهم فيما يتعلق بالأمور الدنيوية أو الدينية كل ذلك لمكان الإطلاق في قوله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

د. ومن هنا يظهر ضعف ما قيل: إن المراد أنه أولى بهم في الدعوة فإذا دعاهم إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى خلافه كان عليهم أن يطيعوه ويعصوا أنفسهم، فتكون الآية في معنى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤] وما أشبه ذلك من الآيات وهو مدفوع بالإطلاق.

هـ. وكذا ما قيل إن المراد أن حكمه فيهم أنفذ من حكم بعضهم على بعض كما في قوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] ويئول إلى أن ولايته على المؤمنين فوق ولاية بعضهم على بعض المدلول عليه بقوله: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ وفيه أن السياق لا يساعد عليه.

٢. ﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾:

أ. جعل تشريعي أي أنهن منهم بمنزلة أمهاتهم في وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن بعد النبي ﷺ كما سيأتي التصريح به في قوله: ﴿وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾

ب. فالتنزيل إنما هو في بعض آثار الأمومة لا في جميع الآثار كالتوارث بينهن وبين المؤمنين والنظر في وجوههن كالأمهات وحرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم وكصيرورة آبائهن وأمهاتهن أجدادا وجدات وإخوتهن وأخواتهن أخوالا وخالات للمؤمنين.

٣. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ﴾:

أ. الأرحام جمع رحم وهي العضو الذي يحمل النطفة حتى تصير جنينا فيتولد، وإذ كانت القرابة النسبية لازمة الانتهاء إلى رحم واحدة عبر عن القرابة بالرحم فسمي ذوو القرابة أولي الأرحام.

ب. والمراد بكون أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، الأولوية في التوارث، وقوله: ﴿فِي كِتابِ اللهِ﴾ المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة، وقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ﴾ مفضل عليه والمراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم، والمعنى: وذوو القرابة بعضهم أولى ببعض من المهاجرين وسائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالمؤاخاة الدينية، وهذه الأولوية في كتاب الله وربما احتمل كون قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ﴾ بيانا لقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ﴾

ج. والآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين.

٤. ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ الاستثناء منقطع، والمراد بفعل المعروف إلى الأولياء الوصية لهم بشيء من التركة، وقد حد شرعا بثلث المال فما دونه، وقوله: ﴿كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾ أي حكم فعل المعروف بالوصية مسطور في اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه عن جابر عن النبي ﷺ أنه كان يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأيما رجل مات وترك دينا فالي، ومن ترك مالا فهو لورثته.

• أقول: وفي معناه روايات أخر من طرق الشيعة وأهل السنة.

ب. أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن بريدة قال: غزوت مع على اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت عليا فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير وقال: يا بريدة، ألست

أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه.

ج. وفي الاحتجاج، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في حديث طويل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من كنت أولى به من نفسه فأنت أولى به من نفسه، وعلي بين يديه في البيت.

• أقول: ورواه في الكافي، بإسناده عن جعفر عنه (ص) والأحاديث في هذا المعنى من طرق الفريقين فوق حد الإحصاء.

د. وفي الكافي، بإسناده عن حنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أي شيء للموالي؟ فقال: ليس لهم من الميراث إلا ما قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾

٥. أخذ الميثاق من النبيين وسؤال الصادقين عن صدقهم:

المقطع [٥] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٧٧»:

١. ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً﴾:

أ. إضافة الميثاق إلى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوة مشعر بذلك فالميثاق المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبيون وهو غير الميثاق المأخوذ من عامة البشر الذي يشير إليه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾ [الأعراف: ١٧٢]

ب. وقد ذكر أخذ الميثاق من النبيين في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا﴾ [آل عمران: ٨١]

ج. والآية المبحوث عنها وإن لم تبين ما هو الميثاق المأخوذ منهم وإن كانت فيها إشارة إلى أنه أمر متعلق بالنبوة لكن يمكن أن يستفاد من آية آل عمران أن الميثاق مأخوذ على وحدة الكلمة في الدين وعدم

الاختلاف فيه كما في قوله: ﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]

د. وقد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمى خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال: ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ ومعنى العطف إخراجهم من بينهم وتخصيصهم بالذكر كأنه قيل: وإذ أخذنا الميثاق منكم أيها الخمسة ومن باقي النبيين.

هـ. ولم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلا لعظمة شأنهم ورفعة مكانهم فإنهم أولوا عزم وأصحاب شرائع وكتب وقد عدهم على ترتيب زمانهم: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم عليه السلام، لكن قدم ذكر النبي ﷺ وهو آخرهم زمانا لفضله وشرفه وتقدمه على الجميع.

٢. ﴿وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ تأكيد وتغليظ للميثاق نظير قوله: ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]

٣. ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾:

أ. اللام في ﴿لِيَسْئَلَ﴾ للتعليل أو للغاية وهو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا﴾ وقوله: ﴿وَأَعَدَّ﴾ معطوف على ذلك المحذوف، والتقدير فعل ذلك أي أخذ الميثاق ليتمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما.

ب. ولم يقل: وليعد للكافرين عذابا، إشارة أن عذابهم ليس من العلل الغائية لأخذ الميثاق وإنما النقص من ناحيتهم والخلف من قبلهم.

ج. وأما سؤال الصادقين عن صدقهم فقيل: المراد بالصادقين الأنبياء وسؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أممهم وكأنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]

د. وقيل: المراد سؤال الصادقين في توحيد الله وعدله والشرائع عن صدقهم أي عما كانوا يقولون فيه، وقيل: المراد سؤال الصادقين في أقوالهم عن صدقهم في أفعالهم، وقيل: المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أهو وجه الله أو غيره؟ إلى غير ذلك من الوجوه وهي كما ترى.

هـ. والتأمل فيما يفيده قوله: ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ يرشد إلى خلاف ما ذكروه، ففرق بين قولنا: سألت الغني عن غناه وسألت العالم عن علمه، وبين قولنا: سألت زيدا عن ماله أو عن علمه، فالمتبادر من الأولين أني طالبته أن يظهر غناه وأن يظهر علمه، ومن الأخيرين أني طالبته أن يخبرني هل له مال أو هل له علم؟ أو يصف لي ما له من المال أو من العلم.

و. وعلى هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما في باطنهم من الصدق في مرتبة القول والفعل وهو عملهم الصالح في الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق إليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن في نفوسهم وهذا في الدنيا لا في الآخرة فأخذ الميثاق في نشأة أخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الذر ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾ الآيات.

ز. وبالجملة الآيتان من الآيات المنبئة عن عالم الذر المأخوذ فيه الميثاق وتذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء عليهم‌السلام وترتب شأنهم وعملهم في الدنيا على ذلك في ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه.

ح. ولمكان هذا التعميم ذكر عاقبة أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين والكلام في الميثاق المأخوذ منهم فكأنه قيل: أخذنا ميثاقا غليظا من النبيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبلغونه ليسأل الصادقين ويطالبهم بالتكليف والهداية إظهار صدقهم في الاعتقاد والعمل ففعلوا فقدر لهم الثواب وأعد للكافرين عذابا أليما.

ط. ومن هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله: ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ﴾، وذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له وإن كان أخذه منه تعالى بوساطة من الملائكة المصحح لقوله: ﴿أَخَذْنا﴾ ﴿وَأَخَذْنا﴾ فالمطالب لصدق الصادقين والمعد لعذاب الكافرين بالحقيقة هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر.

٤. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال: وآدم بين الروح والجسد.

• أقول: وهو بلفظه مروي بطرق مختلفة عنه ﷺ ومعناه كون الميثاق مأخوذا في نشأة غير هذه النشأة

وقبلها.

٦. ذكر نعمة الله على المؤمنين يوم الأحزاب:

المقطع [٦] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٨٤»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾:

أ. تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم وصرف جنود المشركين عنهم وقد كانوا جنودا مجندة من شعوب وقبائل شتى كغطفان وقريش والأحابيش وكنانة ويهود بني قريظة والنضير أحاطوا بهم من فوقهم ومن أسفل منهم فسلط الله عليهم الريح وأنزل ملائكة يخذلونهم.

ب. وهو قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ﴾ ظرف للنعمة أو لثبوتها ﴿جاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ من طوائف كل واحدة منهم جند كغطفان وقريش وغيرهما ﴿فَأَرْسَلْنا﴾ بيان للنعمة وهو الإرسال المتفرع على مجيئهم ﴿عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ وهي الصبا وكانت باردة في ليال شاتية ﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها﴾ وهي الملائكة لخذلان المشركين ﴿وَكانَ الله بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾

٧. بلاء المؤمنين وزلزلتهم الشديدة يوم الأحزاب:

المقطع [٧] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٨٥»:

١. ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ الجاءون من فوقهم وهو الجانب الشرقي للمدينة غطفان ويهود بني قريظة وبني النضير والجاءون من أسفل منهم وهو الجانب الغربي لها قريش ومن انضم إليهم من الأحابيش وكنانة فقوله: ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾

٢. ﴿إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ﴾:

أ. عطف بيان آخر لقوله: ﴿إِذْ جاءَتْكُمْ﴾، وزيغ الأبصار ميلها والقلوب هي الأنفس والحناجر

جمع حنجر وهو جوف الحلقوم.

ب. والوصفان أعني زيغ الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر كنايتان عن كمال غشيان الخوف لهم حتى حولهم إلى حال المحتضر الذي يزيغ بصره وتبلغ روحه الحلقوم.

٣. ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ أي يظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول: إن الكفار سيغلبون ويستولون على المدينة، وبعضهم يقول: إن الإسلام سينمحق والدين سيضيع، وبعضهم يقول: إن الجاهلية ستعود كما كانت، وبعضهم يقول: إن الله غرهم ورسوله إلى غير ذلك من الظنون.

٤. ﴿هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً﴾:

أ. هنالك إشارة بعيدة إلى زمان أو مكان والمراد الإشارة إلى زمان مجيء الجنود وكان شديدا عليهم لغاية بعيدة، والابتلاء الامتحان، والزلزلة والزلزال الاضطراب، والشدة القوة وتختلفان في أن الغالب على الشدة أن تكون محسوسا بخلاف القوة، قيل: ولذلك يطلق القوي عليه تعالى دون الشديد.

ب. والمعنى في ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون واضطربوا خوفا اضطرابا شديدا.

٨. النفاق والمرض والغرور:

المقطع [٨] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٨٦»:

١. ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾:

أ. الذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان من المؤمنين وهم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وإنما سمي المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام.

ب. والغرور حمل الإنسان على الشر بإراءته في صورة الخير والاغترار احتماله له، قال الراغب: (يقال: غررت فلانا أصبت غرته ونلت منه ما أريد، والغرة، بكسر الغين، غفلة في اليقظة)

ج. والوعد الذي يعدونه غرورا من الله ورسوله لهم بقرينة المقام هو وعد الفتح وظهور الإسلام على الدين كله وقد تكرر في كلامه تعالى كما ورد أن المنافقين قالوا: يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى

وقيصر ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء.

٩. تخاذل المنافقين وفرارهم من القتال:

المقطع [٩] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٣-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٨٦»:

١. ﴿وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينة الرسول بعد الهجرة ثم المدينة، والمقام بضم الميم الإقامة، وقولهم: ﴿لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ أي لا وجه لإقامتكم هاهنا قبال جنود المشركين فالغلبة لهم لا محالة فارجعوا ثم أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال عاطفا على قوله: قالت طائفة: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ﴾ أي من المنافقين والذين في قلوبهم مرض ﴿النَّبِيَ﴾ في الرجوع ﴿يَقُولُونَ﴾ استئذانا ﴿إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ﴾ أي فيها خلل لا يأمن صاحبها دخول السارق وزحف العدو ﴿وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ﴾ أي ما يريدون بقولهم هذا ﴿إِلَّا فِراراً﴾

٢. ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً﴾:

أ. ضمائر الجمع للمنافقين والمرضى القلوب والضمير في ﴿دُخِلَتْ﴾ للبيوت ومعنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولا عليهم، والأقطار جمع قطر وهو الجانب، والمراد بالفتنة بقرينة المقام الردة والرجعة من الدين والمراد بسؤالها طلبها منهم، والتلبث التأخر.

ب. والمعنى: ولو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها وهم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم مسئولهم وما تأخروا بالردة إلا يسيرا من الزمان بمقدار الطلب والسؤال أي إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشدة والبأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا.

٣. ﴿وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً﴾ اللام للقسم، وقوله: ﴿لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ﴾ أي لا يفرون عن القتال وهو بيان للعهد ولعل المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم

بالإيمان بالله ورسوله وما جاء به رسوله ومما جاء به: الجهاد الذي يحرم الفرار فيه ومعنى الآية ظاهر.

٤. ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ إذ لا بد لكل نفس من الموت لأجل مقضي محتوم لا يتأخر عنه ساعة ولا يتقدم عليه فالفرار لا يؤثر في تأخير الأجل شيئا.

٥. ﴿وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي وإن نفعكم الفرار فمتعتم بتأخر الأجل فرضا لا يكون ذلك التمتيع إلا تمتيعا قليلا أو في زمان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محالة.

٦. ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾:

أ. كانت الآية السابقة تنبيها لهم على أن حياة الإنسان مقضي مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف وفي هذه الآية تنبيه، على أن الشر والخير تابعان لإرادة الله محضا لا يمنع عن نفوذها سبب من الأسباب ولا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر إلى إرادته تعالى والقرار على أمره بالتوكل عليه.

ب. ولما كانت قلوبهم مرضى أو مشغولة بكفر مستبطن عدل عن أمر النبي ﷺ بتكليمهم إلى تكليم نفسه فقال: ﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾

١٠. إحباط أعمال المنافقين وشحهم وبخلهم:

المقطع [١٠] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨ـ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٨٧»:

١. ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾:

أ. التعويق التثبيط والصرف، وهلم اسم فعل بمعنى أقبل، ولا يثنى ولا يجمع في لغة الحجاز، والبأس الشدة والحرب، وأشحة جمع شحيح بمعنى البخيل، والذي يغشى عليه هو الذي أخذته الغشوة

فغابت حواسه وأخذت عيناه تدوران، والسلق بالفتح فالسكون الضرب والطعن.

ب. ومعنى الآيتين: إن الله ليعلم الذين يثبطون منكم الناس ويصرفونهم عن القتال وهم المنافقون ويعلم الذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أو ضعفة الإيمان تعالوا وأقبلوا ولا يحضرون الحرب إلا قليلا بخلاء عليكم بنفوسهم، فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون إليك من الخوف نظرا لا إرادة لهم فيه ولا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشي عليه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوكم وطعنوكم بألسنة حداد قاطعة حال كونهم بخلاء على الخير الذي نلتمسه، أولئك لم يؤمنوا ولم يستقر الإيمان في قلوبهم وإن أظهروه في ألسنتهم فأبطل الله أعمالهم وأحبطها وكان ذلك على الله يسيرا.

٢. ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي يظنون من شدة الخوف أن الأحزاب، وهم جنود المشركين المتحزبون على النبي ﷺ، لم يذهبوا بعد ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ﴾ مرة ثانية بعد ذهابهم وتركهم المدينة ﴿يَوَدُّوا﴾ ويحبوا ﴿أَنَّهُمْ بادُونَ﴾ أي خارجون من المدينة إلى البدو ﴿فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ﴾ وأخباركم ﴿وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ﴾ ولم يخرجوا منها بادين ﴿ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي ولا كثير فائدة في لزومهم إياكم وكونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلا قليلا لا يعتد به.

١١. الأسوة الحسنة برسول الله لمن يرجو الله واليوم الآخر:

المقطع [١١] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٨٨»:

١. ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾:

أ. الأسوة القدوة وهي الاقتداء والاتباع، وقوله: ﴿فِي رَسُولِ اللهِ﴾ أي في مورد رسول الله والأسوة التي في مورده هي تأسيهم به واتباعهم له والتعبير بقوله: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ﴾ الدال على الاستقرار والاستمرار في الماضي إشارة إلى كونه تكليفا ثابتا مستمرا.

ب. والمعنى: ومن حكم رسالة الرسول وإيمانكم به أن تتأسوا به في قوله وفعله وأنتم ترون ما يقاسيه في جنب الله وحضوره في القتال وجهاده في الله حق جهاده.

ج. وفي الكشاف: (فإن قلت: فما حقيقة قوله: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؟ وقرئ

أسوة بالضم، قلت: فيه وجهان: أحدهما أنه في نفسه أسوة حسنة أي قدوة وهو المؤتسى أي المقتدى به كما تقول: في البيضة عشرون منا حديد أي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد، والثاني: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع وهي المواساة بنفسه) وأول الوجهين قريب مما قدمناه.

٢. ﴿لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾:

أ. بدل من ضمير الخطاب في ﴿لَكُمْ﴾ للدلالة على أن التأسي برسول الله ﷺ خصلة جميلة زاكية لا يتصف بها كل من تسمى بالإيمان، وإنما يتصف بها جمع ممن تلبس بحقيقة الإيمان فكان يرجو الله واليوم الآخر أي تعلق قلبه بالله فآمن به وتعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحا ومع ذلك ذكر الله كثيرا فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبي في أفعاله وأعماله.

ب. وقيل: قوله: ﴿لِمَنْ كانَ﴾، صلة لقوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ أو صفة له للمنع عن الإبدال من ضمير الخطاب ومآل الوجوه الثلاثة بحسب المعنى واحد.

١٢. إيمان المؤمنين عند رؤية الأحزاب وتسليمهم بأمر الله:

المقطع [١٢] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٨٩»:

١. ﴿وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾، وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب ونزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم وتبصرهم في الإيمان وتصديقهم لله ولرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من الارتياب وسيئ القول، وبذلك يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم بالله ورسوله.

٢. ﴿قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾:

أ. الإشارة بهذا إلى ما شاهدوه مجردا عن سائر الخصوصيات، كما في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨]

ب. والوعد الذي أشاروا إليه قيل: هو ما كان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذي وعدهم.

ج. وقيل: إنهم كانوا قد سمعوا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] فتحققوا أنهم سيصيبهم ما أصاب الأنبياء والمؤمنين بهم من الشدة والمحنة التي تزلزل القلوب وتدهش النفوس فلما رأوا الأحزاب أيقنوا أنه من الوعد الموعود وأن الله سينصرهم على عدوهم.

د. والحق هو الجمع بين الوجهين نظرا إلى جمعهم بين الله ورسوله في الوعد إذ قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله.

٣. ﴿وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ شهادة منهم على صدق الوعد، وقوله: ﴿وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً﴾ أي إيمانا بالله ورسوله وتسليما لأمر الله بنصرة دينه والجهاد في سبيله.

١٣. صفات المؤمنين الثابتين الصادقين:

المقطع [١٣] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٩٠»:

١. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾:

أ. قال الراغب: (النحب النذر المحكوم بوجوبه، يقال: قضى فلان نحبه أي وفى بنذره قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾، ويعبر بذلك عمن مات كقولهم: قضى أجله واستوفى أكله وقضى من الدنيا حاجته)

ب. ﴿صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ أي حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفروا إذا لاقوا العدو، ويشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن في الآية محاذاة لقوله السابق في المنافقين والضعفاء الإيمان: ﴿وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ﴾ كما أن في الآية السابقة محاذاة لما ذكر سابقا من ارتياب القوم وعدم تسليمهم لأمر الله.

ج. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ﴾، أي منهم من قضى أجله بموت أو قتل في سبيل الله ومنهم من ينتظر

ذلك وما بدلوا شيئا مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلا.

٢. في المجمع: روى أبو القاسم الحسكاني عن عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن علي عليه السلام قال: فينا نزلت ﴿رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ فأنا والله المنتظر ما بدلت تبديلا.

١٤. جزاء الصادقين وعقوبة المنافقين:

المقطع [١٤] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٩٠»:

١. ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾:

أ. اللام للغاية وما تتضمنه الآية غاية لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين والمؤمنين.

ب. فقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ المراد بالصادقين المؤمنين وقد ذكر صدقهم قبل، والباء في ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ للسببية أي ليجزي المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم.

ج. ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وليعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم وذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إن الله كان غفورا رحيما.

٢. وفي الآية من حيث كونها بيان غاية نكتة لطيفة هي أن المعاصي ربما كانت مقدمة للسعادة والمغفرة لا بما أنها معاص بل لكونها سائقة للنفس من الظلمة والشقوة إلى حيث تتوحش النفس وتتنبه فتتوب إلى ربها وتنتزع عن معاصيها وذنوبها فيتوب الله عليها في الغاية.

١٥. رد الله الكافرين بغيظهم وكفاية المؤمنين القتال:

المقطع [١٥] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٩١»:

١. ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً﴾:

أ. الغيظ الغم والحنق والمراد بالخير ما كان يعده الكفار خيرا وهو الظفر بالنبي ﷺ والمؤمنين.

ب. والمعنى: ورد الله الذين كفروا مع غمهم وحنقهم والحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونه وكفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا وكان الله قويا على ما يريد عزيزا لا يغلب.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: ذكر محمد بن كعب القرظي وغيره من أصحاب السير قالوا: كان من حديث الخندق، أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب في جماعة من بني النضير، الذين أجلاهم رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم، فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول، فديننا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل، دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله فيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾ فسر قريشا ما قالوا ونشطوا لما دعوهم إليه، فأجمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون عليه، وأن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر، في فزارة والحارث بن عوف في بني مرة ومسعر بن جبلة الأشجعي، فيمن تابعه من الأشجع وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل طليحة فيمن اتبعه من بني أسد وهما حليفان أسد وغطفان، وكتب قريش إلى رجال من بني سليم، فأقبل أبو الأعور السلمي فيمن اتبعه من بني سليم مددا لقريش، فلما علم بذلك رسول الله ﷺ ضرب الخندق على المدينة، وكان الذي أشار إليه سلمان الفارسي، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر، قال: يا رسول الله إنا كنا بفارس، إذا حوصرنا خندقنا علينا، فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكموه.

ب. فما ظهر من دلائل النبوة في حفر الخندق ما رواه أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن كثير بن عبد الله بن عمر بن عوف المزني قال: حدثني أبي عن أبيه قال: خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعا بين عشرة، فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلا قويا فقال الأنصار: سلمان منا، وقال المهاجرون: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: سلمان منا أهل البيت، قال عمرو بن عوف: فكنت

أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن وستة من الأنصار نقطع أربعين ذراعا، فحفرنا حتى إذا بلغنا الثرى، أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة، فكسرت حديدنا وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره عن الصخرة، فأما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيه بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، فرقي سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو مضروب عليه قبة، فقال: يا رسول الله، خرجت صخرة بيضاء من الخندق مدورة فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحك فيها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق، وأخذ المعول وضرب بها ضربة، فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها يعني لابتي المدينة، حتى لكان مصباحا في جوف ليل مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة، فتح فكبر المسلمون، ثم ضرب ضربة أخرى فلمعت برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي أرى؟ فقال: أما الأولى فإن الله عز وجل فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق، فاستبشر المسلمون بذلك وقالوا: الحمد لله موعد صادق، قال: وطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وقال المنافقون: ألا تعجبون؟ يحدثكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق، ولا تستطيعون أن تبرزوا.

ج. ومما ظهر فيه أيضا من آيات النبوة ما رواه أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن عبد الواحد بن أيمن المخزومي قال حدثني، أيمن المخزومي قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: كنا يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كدية وهي الجبل، فقلنا: يا رسول الله إن كدية عرضت فيه، فقال رسول الله ﷺ رشوا عليها ماء، ثم قام وأتاها وبطنه معصوب الحجر من الجوع، فأخذ المعول أو المسحاة فسمى ثلاثا، ثم ضرب فعادت كثيبا أهيل، فقلت: ائذن لي يا رسول الله إلى المنزل ففعل، فقلت للمرأة هل عندك من شيء؟ فقالت: عندي صاع من شعير وعناق فطحنت الشعير فعجنته وذبحت العناق وسلختها وخليت بين المرأة وبين ذلك، ثم أتيت رسول الله ﷺ فجلست عنده ساعة، ثم قلت: ائذن لي يا رسول الله ففعل، فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: إن عندنا طعيما لنا، فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك فقال: وكم هو؟ فقلت: صاع من شعير وعناق، فقال للمسلمين جميعا: قوموا إلى

جابر، فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، فقلت: جاء بالخلق إلى صاع شعير وعناق، فدخلت على المرأة وقلت قد افتضحت، جاءك رسول الله ﷺ بالخلق أجمعين فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ قلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عني غما شديدا، فدخل رسول الله ﷺ فقال: خذي ودعيني من اللحم، فجعل رسول الله ﷺ يثرد ويفرق اللحم، ثم يحم هذا ويحم هذا فما زال يقرب إلى الناس، حتى شبعوا أجمعين ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا، ثم قال رسول الله ﷺ: كلي وأهدي، فلم نزل نأكل ونهدي قومنا أجمع، أورده البخاري في الصحيح، قالوا: ولما فرغ رسول الله من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد، حتى نزلوا إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام، وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضيري، حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك، فلما سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه يا كعب افتح لي، فقال: ويحك يا حيي إنك رجل مشئوم، إني قد عاهدت محمدا ولست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا، قال: ويحك افتح لي حتى أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: إن أغلقت دوني إلا على جشيشة تكره أن آكل منها معك، فأحفظ الرجل ففتح له فقال: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على سادتها وقادتها، قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه، فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر بجهام قد أهراق ماءه يرعد ويبرق وليس فيه شيء، فدعني ومحمدا وما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء، فلم يزل حيي بكعب يفتل منه في الذروة والغارب، حتى سمح له على أن أعطاه عهدا وميثاقا، لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده، وبرىء مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ، بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، أحد بني عبد الأشهل وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، فقال: انطلقوا، حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم

لا؟ فإن كان حقا فالحنوا لنا لحنا نعرفه، ولا تفتوا أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس، وخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم، قالوا: لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وقال سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم، فإن ما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة، ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: عضل والقارة، لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله خبيب بن عدي وأصحابه أصحاب الرجيع، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن وظهر النفاق من بعض المنافقين، فأقام رسول الله ﷺ، وأقام المشركون عليه بضعا وعشرين ليلة، لم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبال، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود، أخو بني عامر بن لوي وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله قد تلبسوا للقتال، وخرجوا على خيولهم حتى مروا بمنازل بني كنانة، فقالوا: تهيئوا للحرب يا بني كنانة، فستعلمون اليوم من الفرسان؟ ثم أقبلوا تعنق بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق، فقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، حتى أخذ عليهم الثغرة التي منها اقتحموا، وأقبلت الفرسان نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود فارس قريش، وكان قد قاتل يوم بدر، حتى ارتث وأثبته الجراح ولم يشهد أحدا، فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مشهده، وكان يعد بألف فارس، وكان يسمى فارس يليل لأنه أقبل في ركب من قريش، حتى إذا كانوا بيليل، وهو واد قريب من بدر، عرضت لهم بنو بكر في عدد فقال لأصحابه: امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر، حتى منعهم أن يصلوا إليه فعرف بذلك، وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المذاد، وكان أول من طفره عمرو وأصحابه فقيل في ذلك:

عمرو بن عبد كان أول فارس...جزع المذاد وكان فارس يليل

د. وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبد ود، كان ينادي: من يبارز؟ فقام علي وهو مقنع في الحديد، فقال: أنا له يا نبي الله، فقال: إنه عمرو اجلس، ونادى عمرو: ألا رجل؟ وهو يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟

وقام علي فقال: أنا له يا رسول الله، ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححت عن النداء...بجمعكم هل من مبارز؟

ووقفت إذ جبن المشجع...موقف البطل المناجز

إن السماحة والشجاعة في...الفتى خير الغرائز

فقام علي فقال: يا رسول الله أنا له، فقال: إنه عمرو، فقال: وإن كان عمرا فاستأذن رسول الله ﷺ فأذن له ـ، قال ابن إسحاق: فمشى إليه وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك...مجيب صوتك غير عاجز

ذو نية وبصيرة...والصدق منجي كل فائز

إني لأرجو أن أقيم...عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى...ذكرها عند الهزاهز

قال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي، قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فقال: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهريق دمك، فقال علي: لكني والله ما أكره أن أهريق دمك، فغضب عمرو ونزل وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضبا فاستقبله علي بدرقته فضربه عمرو بالدرقة فقدها، وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه علي على حبل العاتق فسقط، وفي رواية حذيفة: وتسيف على رجليه بالسيف من أسفل، فوقع على قفاه وثارت بينهما عجاجة، فسمع علي يكبر فقال رسول الله ﷺ: قتله والذي نفسي بيده، فكان أول من ابتدر العجاج عمرو بن الخطاب، وقال: يا رسول الله قتله فجز على رأسه، وأقبل نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل، قال حذيفة: فقال النبي ﷺ: أبشر يا علي، فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد لرجح عملك بعملهم، وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المشركين، إلا وقد دخله وهن بقتل عمرو، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو.

هـ. وعن الحاكم أبي القاسم أيضا بالإسناد عن سفيان الثوري عن زبيد الثاني عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: كان يقرأ (وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ بعلي) وخرج أصحابه منهزمين حتى طفرت خيولهم الخندق، وتبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبد العزى جوف الخندق، فجعلوا يرمونه بالحجارة فقال لهم:

قتلة أجمل من هذه ينزل بعضكم أقاتله فقتله الزبير بن العوام، وذكر ابن إسحاق: أن عليا طعنة في ترقوته، حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق، وبعث المشركون إلى النبي ﷺ، يشترون جيفته بعشرة آلاف، فقال النبي: هو لكم لا نأكل ثمن الموتى، وذكر علي أبياتا منها:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه...ونصرت رب محمد بصواب

فضربته وتركته متجدلا...كالجذع بين دكادك ورواب

وعففت عن أثوابه لو أنني...كنت المقطر بزني أثوابي

قال ابن إسحاق: ورمى حنان بن قيس بن العرفة سعد بن معاذ بسهم، وقال: خذها وأنا ابن العرفة فقطع أكحله، فقال سعد: عرف الله وجهك في النار اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا، فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي، أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني، حتى تقر عيني من بني قريظة، قال: وجاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي، فمرني بأمرك فقال له النبي ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت فإنما الحرب خدعة، فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، فقال لهم: إني لكم صديق، والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة، إن البلد بلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإنما قريش وغطفان بلادهم غيرها وإنما جاءوا حتى نزلوا معكم، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم، تستوثقون به أن لا يبرحوا حتى يناجزوا محمدا، فقالوا له: قد أشرت برأي، ثم ذهب فأتى أبا سفيان وأشراف قريش، فقال: يا معشر قريش، إنكم قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدا ودينه، وإني قد جئتكم بنصيحة فاكتموا علي، فقالوا: نفعل ما أنت عندنا بمتهم، قال: تعلمون أن بني قريظة، قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد، فبعثوا إليه أنه لا يرضيك عنا، إلا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم، وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك، فقال: بلى فإن بعثوا إليكم يسألونك نفرا من رجالكم، فلا تعطوهم رجلا واحدا واحذروا، ثم جاء غطفان وقال: يا معشر غطفان، إني رجل منكم، ثم قال لهم ما قال لقريش، فلما أصبح أبو سفيان وذلك يوم السبت، في شوال سنة خمس من الهجرة، بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل

في نفر من قريش، أن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر اليهود، إن الكراع والخف قد هلكا، وإنا لسنا بدار مقام فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه، فبعثوا إليه أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم، حتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم، لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمدا فقال أبو سفيان: والله لقد حذرنا هذا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان: أنا لا نعطيكم رجلا واحدا، فإن شئتم أن تخرجوا وتقاتلوا وإن شئتم فاقعدوا، فقالت اليهود: هذا والله الذي قال لنا نعيم، فبعثوا إليهم أنا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهنا، وخذل الله بينهم وبعث سبحانه عليهم الريح، في ليال شاتية باردة شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين، قال محمد بن كعب قال حذيفة بن اليمان والله لقد رأيتنا يوم الخندق، وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلا الله، وقام رسول الله ﷺ يصلي ما شاء الله من الليل ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنة، قال حذيفة: فوالله ما قام منا أحد، مما بنا من الخوف والجهد والجوع، فلما لم يقم أحد دعاني فلم أجد بدا من إجابته، قلت: لبيك، قال: اذهب فجيء بخبر القوم، ولا تحدثن شيئا حتى ترجع، قال: وأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده تفعل بهم ما تفعل، ما يستمسك لهم بناء ولا تثبت لهم نار ولا يطمئن لهم قدر، فإني لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله، ثم قال: يا معشر قريش، لينظر أحدكم من جليسه؟ قال حذيفة: فبدأت بالذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان، ثم عاد أبو سفيان براحلته فقال: يا معشر قريش، والله ما أنتم بدار مقام هلك الخف والحافر، وأخلفتنا بنو قريظة وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء، ثم عجل فركب راحلته، وإنها لمعقولة ما حل عقالها إلا بعد ما ركبها، قال: قلت في نفسي: لو رميت عدو الله وقتلته، كنت قد صنعت شيئا فوترت قوسي، ثم وضعت السهم في كبد القوس وأنا أريد أن أرميه، فأقتله فذكرت قول رسول الله ﷺ لا تحدثن شيئا حتى ترجع، قال فحططت القوس، ثم رجعت إلى رسول الله وهو يصلي، فلما سمع حسي فرج بين رجليه فدخلت تحته، وأرسل على طائفة من مرطة فركع وسجد، ثم قال: ما الخبر؟ فأخبرته، وعن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ، حين أجلى عنه الأحزاب: الآن نغزوهم ولا يغزوننا فكان كما قال، فلم يغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم حتى فتح الله عليهم مكة:

• أقول: هذا ما أورده الطبرسي في مجمع البيان، من القصة أوردناه ملخصا وروى القمي في تفسيره، قريبا منه وأورده في الدر المنثور، في روايات متفرقة.

١٦. قذف الرعب في قلوب الخائنين:

المقطع [١٦] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٢٩١»:

١. ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ﴾ المظاهرة المعاونة، والصياصي جمع صيصية وهي الحصن الذي يمتنع به ولعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون ويشرفون منها ومن أعالي الجدران على أعدائهم في خارجها ومحاصريهم، والمعنى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ﴾ أي عاونوا المشركين وهم بنو قريظة.

٢. ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ﴾ وهم اليهود ﴿مِنْ صَياصِيهِمْ﴾ وحصونهم ﴿وَقَذَفَ﴾ وألقى ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ والخوف ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ وهم الذراري والنساء ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ أي وملككم بعدهم ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها﴾ وهي أرض خيبر أو الأرض التي أفاء الله مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وأما تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح إلى يوم القيامة أو أرض مكة أو أرض الروم وفارس فلا يلائمه سياق الآيتين ﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: روى الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لما انصرف النبي ﷺ عن الخندق، ووضع عنه اللأمة واغتسل واستحم تبدي له جبريل فقال: عذيرك من محارب، ألا أراك أن قد وضعت عنك اللأمة وما وضعناها بعد، فوثب رسول الله ﷺ فزعا، فعزم على الناس أن لا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة، فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس، واختصم الناس فقال بعضهم: إن رسول الله عزم علينا أن لا نصلي حتى نأتي قريظة، فإنما نحن في عزمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم، وصلى طائفة من الناس احتسابا، وتركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس فصلوها، حين جاءوا بني قريظة احتسابا، فلم يعنف رسول الله ﷺ واحدا من الفريقين، وذكر عروة أنه بعث علي بن أبي طالب على المقدم، ودفع إليه اللواء وأمره أن ينطلق، حتى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل، وخرج

رسول الله على آثارهم، فمر على مجلس من الأنصار في بني غنم ينتظرون رسول الله ﷺ، فزعموا أنه قال: مر بكم الفارس آنفا، فقالوا: مر بنا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج، فقال رسول الله ﷺ: ليس ذلك بدحية، ولكنه جبرائيل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب، قالوا: وسار علي حتى إذا دنا من الحصن، سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: أظنك سمعت لي منهم أذى؟ فقال: نعم يا رسول الله فقال: لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: يا إخوة القردة والخنازير! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ فقالوا: يا أبا لقاسم ما كنت جهولا، وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة، حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم، حين رجعت قريش وغطفان، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم، حتى يناجزهم قال كعب بن أسد: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا: ما هن؟، قال: نبايع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم علي هذا فهلموا فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد رجالا مصلتين بالسيوف، ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا يهمنا، وإن نظهر لنجدن النساء والأبناء، فقالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير في العيش بعدهم، قال: فإن أبيتم علي هذه فإن الليلة ليلة السبت، وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا فلعلنا نصيب منهم غرة، فقالوا: نفسد سبتنا؟ ونحدث فيه ما أحدث من كان قبلنا، فأصابهم ما قد علمت من المسخ؟ فقال: ما بات رجل منكم، منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما، قال الزهري: وقال رسول الله ﷺ، حين سألوه أن يحكم فيهم رجلا: اختاروا من شئتم من أصحابي، فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك النبي ﷺ فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فأمر رسول الله ﷺ بسلاحهم، فجعل في قبته وأمر بهم فكتفوا وأوثقوا، وجعلوا في دار أسامة، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فجيء به فحكم فيهم بأن يقتل مقاتلوهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم وتغنم أموالهم وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال للأنصار: إنكم ذو عقار وليس للمهاجرين عقار، فكبر رسول الله ﷺ

وقال لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل، وفي بعض الروايات: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، وأرقعة جمع رقيع اسم سماء الدنيا، فقتل رسول الله مقاتليهم، وكانوا فيما زعموا: ستمائة مقاتل، وقيل: قتل منهم أربعمائة وخمسين رجلا وسبى سبعمائة وخمسين، وروي أنهم قالوا لكعب بن أسد، وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ إرسالا: يا كعب ما ترى يصنع بنا؟ فقال كعب: أفي كل موطن تقولون؟ ألا ترون أن الداعي لا ينزع، ومن يذهب منكم لا يرجع هو والله القتل، وأتي بحيي بن أخطب عدو الله عليه حلة، فاختية قد شقها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة، لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما بصر برسول الله ﷺ فقال: أما والله ما لمت نفسي على عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم قال: يا أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدرة ملحمة، كتبت على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه، ثم قسم رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأموالهم على المسلمين، وبعث بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصاري، فابتاع بهم خيلا وسلاحا، قالوا: فلما انقضى شأن بني قريظة، انفجر جرح سعد بن معاذ، فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد.

ب. وروي عن جابر بن عبد الله قال: جاء جبرائيل إلى رسول الله ﷺ فقال: من هذا العبد الصالح الذي مات، فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش، فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد بن معاذ قد قبض.

• أقول: وروى القصة القمي في تفسيره، مفصلة وفيه: فأخرج كعب بن أسيد مجموعة يداه إلى عنقه، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال له: يا كعب أما نفعك وصية ابن الحواس، الحبر الذكي الذي قدم عليكم من الشام، فقال: تركت الخمر والخمير وجئت إلى البئوس والتمور، لنبي يبعث مخرجه بمكة، ومهاجرته في هذه البحيرة يجتزي بالكسيرات والتميرات، ويركب الحمار العري، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوة، يضع سيفه على عاتقه، لا يبالي من لاقى منكم، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر فقال قد كان ذلك يا محمد، ولولا أن اليهود يعيروني أني جزعت عند القتل، لآمنت بك وصدقتك، ولكني على دين اليهود عليه أحيا وعليه أموت، فقال رسول الله ﷺ: قدموه واضربوا عنقه فضربت.

ج. وفيه أيضا: فقتلهم رسول الله ﷺ، في البردين بالغداة والعشي في ثلاثة أيام وكان يقول: اسقوهم العذب وأطعموهم الطيب، وأحسنوا أساراهم حتى قتلهم كلهم فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾

١٧. تخيير النبي لأزواجه بين الدنيا والآخرة:

المقطع [١٧] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٠٥»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين:

أ. سياق الآيتين يلوح أن أزواج النبي أو بعضهن كانت لا ترتضي ما في عيشتهن في بيت النبي ﷺ من الضيق والضنك فاشتكت إليه ذلك واقترحت عليه أن يسعدهن في الحياة بالتوسعة فيها وإيتائهن من زينتها.

ب. فأمر الله سبحانه نبيه أن يخيرهن بين أن يفارقنه ولهن ما يردن وبين أن يبقين عنده ولهن ما هن عليه من الوضع الموجود.

ج. وقد ردد أمرهن بين أن يردن الحياة الدنيا وزينتها وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة، وهذا الترديد يدل:

• أولا: أن الجمع بين سعة العيش وصفائها بالتمتع من الحياة وزينتها وزوجية النبي ﷺ والعيشة في بيته مما لا يجتمعان.

• وثانيا: أن كلا من طرفي الترديد مقيد بما يقابل الآخر، والمراد بإرادة الحياة الدنيا وزينتها جعلها هي الأصل سواء أريدت الآخرة أو لم يرد، والمراد بإرادة الحياة الآخرة جعلها، هي الأصل في تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياة الدنيا ونيلت الزينة وصفاء العيش أو لم يكن شيء من ذلك.

د. ثم الجزاء أعني نتيجة اختيارهن كلا من طرفي الترديد مختلف فلهن على تقدير اختيارهن الحياة الدنيا وزينتها بمفارقة النبي ﷺ أن يطلقهن ويمتعهن جمعاء من مال الدنيا، وعلى تقدير بقائهن على زوجية النبي ﷺ واختيار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقا بل بشرط الإحسان والعمل الصالح.

هـ. ويتبين بذلك أن ليس لزوجية النبي ﷺ من حيث هي زوجية كرامة عند الله سبحانه وإنما

الكرامة لزوجيته المقارنة للإحسان والتقوى ولذلك لما ذكر ثانيا علو منزلتهن قيده أيضا بالتقوى فقال: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ وهذا كقوله في النبي وأصحابه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ إلى أن قال: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ حيث مدحهم عامة بظاهر أعمالهم أولا ثم قيد وعدهم الأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح.

و. وبالجملة فإطلاق قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] على حاله غير منتقض بكرامة أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلك.

ز. فقوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ أمر النبي ﷺ أن يبلغ الآيتين أزواجه ولازمه أن يطلقهن ويمتعهن إن اخترن الشق الأول ويبقيهن على زوجيته إن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

٢. ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها﴾ إرادة الحياة الدنيا وزينتها كناية بقرينة المقابلة عن اختيارها وتعلق القلب بتمتعاتها والإقبال عليها والإعراض عن الآخرة.

٣. ﴿فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾:

أ. قال في الكشاف: (أصل تعال أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطأ ثم كثرت حتى استوت في استعماله الأمكنة، ومعنى تعالين أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد أمرين ولم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول: أقبل يخاصمني وذهب يكلمني وقام يهددني)

ب. والتمتيع إعطاؤهن عند التطليق مالا يتمتعن به والتسريح هو التطليق والسراح الجميل هو الطلاق من غير خصومة ومشاجرة بين الزوجين.

ج. وفي الآية أبحاث فقهية أوردها المفسرون والحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصية خاصة بالنبي ﷺ ولا دليل من جهة لفظها على شموله لغيره وتفصيل القول في الفقه.

٤. ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾:

أ. فقد تقدم أن المقابلة بين هذه الجملة وبين قوله: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها﴾، تقيد كلا منهما بخلاف الأخرى وعدمها، فمعنى الجملة: وإن كنتن تردن وتخترن طاعة الله ورسوله وسعادة الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش والحرمان من زينة الحياة الدنيا وهي مع ذلك كناية عن البقاء في زوجية

النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش وإلا لم يصح اشتراك الإحسان في الأجر الموعود وهو ظاهر.

ب. فالمعنى: وإن كنتن تردن وتخترن البقاء على زوجية النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش فإن، الله هيأ لكن أجرا عظيما بشرط أن تكن محسنات في أعمالكن مضافا إلى إرادتكن الله ورسوله والدار الآخرة فإن لم تكن محسنات لم يكن لكن إلا خسران الدنيا والآخرة جميعا.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ كان سبب نزولها أنه لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر، وأصاب كنز آل أبي الحقيق قلن أزواجه أعطنا ما أصبت، فقال لهن رسول الله ﷺ قسمته بين المسلمين، على ما أمر الله عز وجل فغضبن من ذلك، وقلن: لعلك ترى أنك إن طلقتنا، أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا؟ فأنف الله عز وجل لرسوله فأمره أن يعزلهن، فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربة أم إبراهيم، تسعة وعشرين يوما حتى حضن وطهرن، ثم أنزل الله عز وجل هذه الآية وهي آية التخيير، فقال: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ فقامت أم سلمة أول من قامت فقالت: قد اخترت الله ورسوله، فقمن كلهن فعانقنه وقلن مثل ذلك الحديث.

• أقول: وروي ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنة وفيها أن أول من اختارت الله ورسوله منهن عائشة.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن داود بن سرحان عن أبي عبد الله عليه السلام: أن زينب بنت جحش قالت: يرى رسول الله إن خلى سبيلنا أن لا نجد زوجا غيره، وقد كان اعتزل نساءه تسعة وعشرين ليلة، فلما قالت زينب الذي قالت بعث الله جبرائيل إلى محمد ﷺ فقال: ﴿قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ الآيتين كلتيهما، فقلن: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة.

ج. وفيه، بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل خير امرأته فاختارت نفسها بانت؟ قال: لا، إنما هذا شيء كان لرسول الله ﷺ خاصة أمر بذلك ففعل، ولو اخترن أنفسهن لطلقهن وهو قول الله عز وجل: ﴿قُلْ لِأَزْواجِكَ، إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها، فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾

د. وفي المجمع: روى الواحدي بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله

ﷺ جالسا مع حفصة، فتشاجرا بينهما فقال لها: هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلا؟ قالت: نعم، فأرسل إلى عمر فلما أن دخل عليهما قال لها: تكلمي، فقالت: يا رسول الله تكلم ولا تقل إلا حقا، فرفع عمر يده فوجأ وجهها، ثم رفع يده فوجأ وجهها ـ فقال له النبي ﷺ: كف فقال عمر: يا عدوة الله النبي لا يقول إلا حقا والذي بعثه بالحق، لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتي، فقام النبي ﷺ فصعد إلى غرفة فمكث فيها شهرا، لا يقرب شيئا من نسائه يتغدى ويتعشى فيها، فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

هـ. وفي الخصال، عن الصادق عليه السلام قال: تزوج رسول الله ﷺ بخمس عشرة امرأة، ودخل بثلاث عشر امرأة منهن، وقبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بهما فعمرة وسنا، وأما الثلاث عشرة اللاتي دخل بهن فأولهن خديجة بنت خويلد، ثم سودة بنت زمعة ثم أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية، ثم أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر، ثم حفصة بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة بن الحارث أم المساكين، ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيب رملة بنت أبي سفيان، ثم ميمونة بنت الحارث ثم زينب بنت عميس، ثم جويرية بنت الحارث، ثم صفية بنت حيي بن أخطب، والتي وهبت نفسها للنبي خولة بنت حكيم السلمي ـ وكان له سريتان، يقسم لهما مع أزواجه مارية القبطية وريحانة الخندفية، والتسع اللاتي قبض عنهن عائشة وحفصة وأم سلمة، وزينب بنت جحش وميمونة بنت الحارث، وأم حبيب بنت أبي سفيان وجويرية وسودة وصفية، وأفضلهن خديجة بنت خويلد ثم أم سلمة ثم ميمونة.

١٨. نساء النبي وجزاء الإحسان والإساءة:

المقطع [١٨] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٠٧»:

١. ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ﴾:

أ. عدل عن مخاطبة النبي ﷺ فيهن إلى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف وزيادة التوكيد، والآية والتي بعدها تقرير وتوضيح بنحو لما يستفاد من قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ إثباتا ونفيا.

ب. فقوله: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ الفاحشة الفعلة البالغة في الشناعة والقبح وهي الكبيرة كإيذاء النبي ﷺ والافتراء والغيبة وغير ذلك، والمبينة هي الظاهرة.

ج. وقوله: ﴿يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي حال كونه ضعفين والضعفان المثلان ويؤيد هذا المعنى قوله في جانب الثواب بعد: ﴿نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ﴾ فلا يعبأ بما قيل إن المراد بمضاعفة العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثة أمثاله بتقريب أن مضاعفة العذاب زيادته وإذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثة أمثاله.

٢. وختم الآية بقوله: ﴿وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ للإشارة إلى أنه لا مانع من ذلك من كرامة الزوجية ونحوها إذ لا كرامة إلا للتقوى وزوجية النبي ﷺ إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى وأما مع المعصية فلا تزيد إلا بعدا ووبالا.

٣. ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ﴾:

أ. القنوت الخضوع، وقيل: الطاعة وقيل: لزوم الطاعة مع الخضوع، والاعتاد التهيئة، والرزق الكريم مصداقه الجنة.

ب. والمعنى: ومن يخضع منكن لله ورسوله أو لزم طاعة الله ورسوله مع الخضوع ويعمل عملا صالحا نعطها أجرها مرتين أي ضعفين وهيأنا لها رزقا كريما وهي الجنة.

ج. والالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله: ﴿نُؤْتِها﴾ و﴿أَعْتَدْنا﴾ للإيذان بالقرب والكرامة، خلاف البعد والخزي المفهوم من قوله: ﴿يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ﴾

١٩. نهي نساء النبي عن الخضوع بالقول:

المقطع [١٩] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٠٨»:

١. ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾:

أ. الآية تنفي مساواتهن لسائر النساء إن اتقين وترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهي

والأمر متفرعة على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ وَقَرْنَ وَلا تَبَرَّجْنَ﴾، وهي خصال مشتركة بين نساء النبي ﷺ وسائر النساء.

ب. فتصدير الكلام بقوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَ﴾ ثم تفريع هذه التكاليف المشتركة عليه، يفيد تأكد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل: لستن كغيركن فيجب عليكن أن تبالغن في امتثال هذه التكاليف وتحتطن في دين الله أكثر من سائر النساء.

ج. وتؤيد بل تدل على تأكد تكاليفهن مضاعفة جزائهن خيرا وشرا كما دلت عليها الآية السابقة فإن مضاعفة الجزاء لا تنفك عن تأكد التكليف.

٢. ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ بعد ما بين علو منزلتهن ورفعة قدرهن لمكانهن من النبي ﷺ وشرط في ذلك التقوى فبين أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبي ﷺ نهاهن عن الخضوع في القول وهو ترقيق الكلام وتليينه مع الرجال بحيث يدعو إلى الريبة وتثير الشهوة فيطمع الذي في قلبه مرض وهو فقدان قوة الإيمان التي تردعه عن الميل إلى الفحشاء.

٣. ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ أي كلاما معمولا مستقيما يعرفه الشرع والعرف الإسلامي وهو القول الذي لا يشير بلحنه إلى أزيد من مدلوله معرى عن الإيماء إلى فساد وريبة.

٢٠. الأمر بالاستقرار في البيوت وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة:

المقطع [٢٠] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٠٩»:

١. ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى﴾

أ. (قرن) من قر يقر إذا ثبت وأصله اقررن حذفت إحدى الرائين أو من قار يقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهن في بيوتهن ولزومهن لها.

ب. والتبرج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها.

ج. والجاهلية الأولى الجاهلية قبل البعثة فالمراد الجاهلية القديمة، وقول بعضهم: إن المراد به زمان ما بين آدم ونوح عليه السلام ثمان مائة سنة، وقول آخرين إنها ما بين إدريس ونوح، وقول آخرين زمان

داود وسليمان وقول آخرين إنه زمان ولادة إبراهيم، وقول آخرين إنه زمان الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ أقوال لا دليل يدل عليها.

٢. ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾:

أ. أمر بامتثال الأوامر الدينية وقد أفرد الصلاة والزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين في العبادات والمعاملات ثم جمع الجميع في قوله: ﴿وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾

ب. وطاعة الله هي امتثال تكاليفه الشرعية وطاعة رسوله فيما يأمر به وينهى بالولاية المجعولة له من عند الله كما قال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، مسندا عن أبي عبد الله عن أبيه عليه السلام: في هذه الآية ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى﴾ قال: أي ستكون جاهلية أخرى.

• أقول: وهو استفادة لطيفة.

٢١. إرادة الله إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم:

المقطع [٢١] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٠٩»:

لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ودلالته على عصمة أهل البيت عليهم السلام]، خلاصته:

أ. بيان أن كلمة ﴿إِنَّما﴾ تفيد حصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير، وكلمة ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ تدل على اختصاص هذا الحكم بالمخاطبين.

ب. إثبات أن الآية نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، بدلالة الروايات المتواترة عن الفريقين، وليست خاصة بأزواج النبي.

ج. توضيح أن المراد بإذهاب الرجس هو العصمة الإلهية، أي إزالة كل اعتقاد باطل وعمل سيئ عن أهل البيت، وتطهيرهم تطهيراً كاملاً.

د. بيان أن الإرادة في الآية إرادة تكوينية لا تشريعية، لأن الإرادة التشريعية لا تلائم مقام العصمة

ولا اختصاص الآية بأهل البيت.

هـ. الرد على من زعم أن الآية تشمل أزواج النبي، وبيان أن الروايات المتواترة عن أم سلمة وغيرها تصرح باختصاصها بأهل الكساء.

و. توضيح أن وقوع الآية بين آيات خطاب أزواج النبي لا يوجب شمولها لهن، لأن الآية نزلت وحدها ثم أدرجت في هذا الموضع.

ز. عرض الروايات الواردة في نزول الآية في أهل الكساء من طرق الفريقين، وبيان تواترها المعنوي.

٢٢. تذكير نساء النبي بما يتلى في بيوتهن من الآيات والحكمة:

المقطع [٢٢] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهَّ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَّ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣١٣»:

١. ﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ الله وَالْحِكْمَةِ إِنَّ الله كانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾:

أ. ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد والتشديد الذي في الآيات فيكون بمنزلة الوصية بعد الوصية بامتثال ما وجه إليهن من التكاليف، وفي قوله: ﴿فِي بُيُوتِكُنَ﴾ تأكيد آخر.

ب. والمعنى: واحفظن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة وليكن منكن في بال حتى لا تغفلن ولا تتخطين مما خط لكم من المسير.

ج. وأما قول بعضهم: إن المراد واشكرن الله إذ صيركن في بيوت يتلى فيهن القرآن والسنة فبعيد من السياق وخاصة بالنظر إلى قوله في ذيل الآية: ﴿إِنَّ الله كانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾

٢٣. صفات المسلمين الصادقين وجزاؤهم:

المقطع [٢٣] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَّ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان:

١٦/ ٣١٣»:

١. ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾:

أ. الإسلام لا يفرق بين الرجال والنساء في التلبس بكرامة الدين وقد أشار سبحانه إلى ذلك إجمالا في مثل قوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم صرح به في مثل قوله: ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى﴾ [آل عمران: ١٩٥] ثم صرح به تفصيلا في هذه الآية.

ب. فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ المقابلة بين الإسلام والإيمان تفيد مغايرتهما نوعا من المغايرة والذي يستفاد منه نحو مغايرتهما قوله تعالى: ﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الحجرات: ١٥] يفيد أولا أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل وظاهر الجوارح والإيمان أمر قلبي، وثانيا: أن الإيمان الذي هو أمر قلبي اعتقاد وإذعان باطني بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح.

ج. فالإسلام هو التسليم العملي للدين بإتيان عامة التكاليف والمسلمون والمسلمات هم المسلمون لذلك والإيمان هو عقد القلب على الدين، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح والمؤمنون والمؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم ولا عكس.

٢. ﴿وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ﴾ القنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع وقوله: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ﴾ الصدق مطابقة ما يخبر به الإنسان أو يظهره، للواقع، فهم صادقون في دعواهم صادقون في قولهم صادقون في وعدهم.

٣. ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ﴾ فهم متلبسون بالصبر عند المصيبة والنائبة وبالصبر على الطاعة وبالصبر عن المعصية، وقوله: ﴿وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ﴾ الخشوع تذلل باطني بالقلب كما أن الخضوع تذلل ظاهري بالجوارح.

٤. ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ﴾ والصدقة إنفاق المال في سبيل الله ومنه الزكاة الواجبة، وقوله: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ﴾ بالصوم الواجب والمندوب، وقوله: ﴿وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ﴾ أي

لفروجهن وذلك بالتجنب عن غير ما أحل الله لهم، وقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي الله كثيرا حذف لظهوره وهم الذين يكثرون من ذكر الله بلسانهم وجنانهم ويشمل الصلاة والحج.

٥. ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ التنكير للتعظيم.

٦. أحاديث وآثار: في المجمع: قال مقاتل بن حيان: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة، مع زوجها جعفر بن أبي طالب، دخلت على نساء رسول الله ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء لفي خيبة وخسار، فقال ﷺ: ومم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾

• أقول: وفي روايات أخر أن القائلة هي أم سلمة.

٢٤. وجوب الامتثال لأمر الله ورسوله وعدم الخيرة:

المقطع [٢٤] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٢١»:

١. ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾:

أ. يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع إلى أعمال العباد أو تصرفه في شأن من شئونهم بواسطة رسول من رسله، وقضاء رسوله هو الثاني من القسمين وهو التصرف في شأن من شئون الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له بمثل قوله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

ب. فقضاؤه ﷺ قضاء منه بولايته وقضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره، ويشهد سياق قوله: ﴿إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ حيث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء الله ورسوله معا، على أن المراد بالقضاء التصرف في شئون الناس دون الجعل التشريعي المختص بالله.

٢. ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾:

أ. أي ما صح ولا يحق لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاءوا وقوله: ﴿إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ ظرف لنفي الاختيار.

ب. وضميرا الجمع في قوله: ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ للمؤمن والمؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين والمؤمنات لوقوعهما في حيز النفي ووضع الظاهر موضع المضمر حيث قيل: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ولم يقل: أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشإ توهم الخيرة وهو انتساب الأمر إليهم.

ج. والمعنى: ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله ورسوله بالتصرف في أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه إليهم وكونه أمرا من أمورهم فيختاروا منه غير ما قضى الله ورسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله ورسوله.

د. والآية عامة لكنها لوقوعها في سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجيء من قوله: ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ الآية، حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبي ﷺ بزوج زيد وتعييره بأنها كانت زوج ابنه المدعو له بالتبني وسيجيء في البحث الروائي بعض ما يتعلق بالمقام.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسبا وكانت امرأة فيها حدة، فأنزل الله ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها.

- أقول: وفي معناها روايات أخر.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء، فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها، وقالت إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده فنزلت.

- أقول: والروايتان أشبه بالتطبيق منهما بسبب النزول.

٢٥. قصة زيد وزوجته وإبطال التبني وإيجاب تنفيذ أمر الله:

المقطع [٢٥] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا

مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٢٢»:

١. ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾:

أ. المراد بهذا الذي أنعم الله عليه وأنعم النبي عليه زيد بن حارثة الذي كان عبدا للنبي ﷺ ثم حرره واتخذه ابنا له وكان تحته زينب بنت جحش بنت عمة النبي ﷺ أتى زيد النبي فاستشاره في طلاق زينب فنهاه النبي ﷺ عن الطلاق ثم طلقها زيد فتزوجها النبي ﷺ ونزلت الآيات.

ب. فقوله: ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ أي بالهداية إلى الإيمان وتحبيبه إلى النبي ﷺ وقوله: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي بالإحسان إليه وتحريره وتخصيصه بنفسك، وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾ كناية عن الكف عن تطليقها، ولا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها.

٢. ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ أي مظهره ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾ ذيل الآيات أعني قوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ دليل على أن خشيته ﷺ الناس لم تكن خشية على نفسه بل كان خشية في الله فأخفى في نفسه ما أخفاه استشعارا منه أنه لو أظهره عابه الناس وطعن فيه بعض من في قلبه مرض فأثر ذلك أثرا سيئا في إيمان العامة، وهذا الخوف، كما ترى ليس خوفا مذموما بل خوف في الله هو في الحقيقة خوف من الله سبحانه.

٣. ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾:

أ. الظاهر في نوع من العتاب ردع عن نوع من خشية الله وهي خشيته عن طريق الناس وهداية إلى نوع آخر من خشيته تعالى وأنه كان من الحري أن يخشى الله دون الناس ولا يخفي ما في نفسه ما الله مبديه وهذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتروج زوج زيد الذي كان تبناه ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين في التزوج بأزواج الأدعياء وهو ﷺ كان يخفيه في نفسه إلى حين مخافة سوء أثره في الناس فآمنه الله ذلك بعتابه عليه نظير ما تقدم في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية.

ب. فظاهر العتاب الذي يلوح من قوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾ مسوق لانتصاره وتأييد أمره قبال طعن الطاعنين ممن في قلوبهم مرض نظير ما تقدم في قوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]

ج. ومن الدليل على أنه انتصار وتأييد في صورة العتاب قوله بعد: ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها﴾ حيث أخبر عن تزويجه إياها كأنه أمر خارج عن إرادة النبي ﷺ واختياره ثم قوله: ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾

د. فقوله: ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها﴾ متفرع على ما تقدم من قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ وقضاء الوطر منها كناية عن الدخول والتمتع، وقوله: ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ تعليل للتزويج ومصلحة للحكم، وقوله: ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ مشير إلى تحقق الوقوع وتأكيد للحكم.

هـ. ومن ذلك يظهر أن الذي كان النبي ﷺ يخفيه في نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواها وحبه الشديد لها وهي بعد مزوجة كما ذكره جمع من المفسرين واعتذروا عنه بأنها حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فإن فيه أولا: منع أن يكون بحيث لا يقوى عليه التربية الإلهية، وثانيا: أنه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانه وإخفائه في نفسه فلا مجوز في الإسلام لذكر حلائل الناس والتشبب بهن.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في العيون في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون، مع أصحاب الملل، في حديث يجيب فيه عن مسألة علي بن الجهم في عصمة الأنبياء، قال: وأما محمد ﷺ وقول الله عز وجل: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾ فإن الله عز وجل، عرف نبيه ﷺ أسماء أزواجه في دار الدنيا، وأسماء أزواجه في الآخرة وأنهن أمهات المؤمنين، وأحد من سمي له زينب بنت جحش، وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة، فأخفى ﷺ اسمها في نفسه، ولم يبده لكيلا يقول أحد من المنافقين: أنه قال في امرأة في بيت رجل: إنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنين وخشي قول المنافقين، قال الله عز وجل: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾ يعني في نفسك الحديث.

• أقول: وروي ما يقرب منه فيه عنه عليه السلام في جواب مسألة المأمون عنه في عصمة الأنبياء.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ قيل: إن الذي أخفاه في نفسه، هو أن الله سبحانه أعلمه، أنها ستكون من أزواجه وأن زيدا سيطلقها، فلما جاء زيد وقال له: أريد أن أطلق زينب، قال له: أمسك عليك زوجك، فقال سبحانه: لم قلت: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمتك أنها

ستكون من أزواجك؟: وروي ذلك عن علي بن الحسين عليه السلام.

ج. أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك فنزلت: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ قال أنس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذه الآية، فتزوجها رسول الله ﷺ الحديث.

• أقول: والروايات كثيرة في المقام وإن كان كثير منها لا يخلو من شيء وفي الروايات: ما أولم رسول الله ﷺ على امرأة من نسائه ما أولم على زينب ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم، وفي الروايات أنها كانت تفتخر على سائر نساء النبي بثلاث أن جدها وجد النبي ﷺ واحد فإنها كانت بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ وأن الذي زوجها منه هو الله سبحانه وأن السفير جبريل.

٢٦. لا حرج على النبي فيما فرض الله له والأمر قدر مقدور:

المقطع [٢٦] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٨-٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٢٣»:

١. ﴿ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾:

أ. الفرض هو التعيين والاسهام يقال: فرض له كذا أي عينه له وأسهمه به، وقيل: هو في المقام بمعنى الإباحة والتجويز، والحرج الكلفة والضيق، والمراد بنفي الحرج نفي سببه وهو المنع عما فرض له.

ب. والمعنى: ما كان على النبي من منع فيما عين الله له أو أباح الله له حتى يكون عليه حرج في ذلك.

٢. ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ اسم موضوع موضع المصدر فيكون مفعولا مطلقا والتقدير سن الله ذلك سنة، والمراد بالذين خلوا من قبل هم الأنبياء والرسل الماضون بقرينة قوله بعد: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ﴾

٣. ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ أي يقدر من عنده لكل أحد ما يلائم حاله ويناسبها، والأنبياء

لم يمنعوا مما قدره الله وأباحه لغيرهم حتى يمنع النبي ﷺ من بعض ما قدر وأبيح.

٤. ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾:

أ. الموصول بيان للموصول المتقدم أعني قوله: ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾

ب. والخشية هي تأثر خاص للقلب عن المكروه وربما ينسب إلى السبب الذي يتوقع منه المكروه، يقال: خشيت أن يفعل بي فلان كذا أو خشيت فلانا أن يفعل بي كذا، والأنبياء يخشون الله ولا يخشون أحدا غيره لأنه لا مؤثر في الوجود عندهم إلا الله.

ج. وهذا غير الخوف الذي هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الاتقاء عملا سواء كان معه تأثر قلبي أو لا فإنه أمر عملي ربما ينسب إلى الأنبياء كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١] وقوله في النبي ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨] وهذا هو الأصل في معنى الخوف والخشية وربما استعملا كالمترادفين.

د. ومما تقدم يظهر أن الخشية منفية عن الأنبياء عليهمالسلام مطلقا وإن كان سياق قوله: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ﴾، يلوح إلى أن المنفي هو الخشية في تبليغ الرسالة، على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية في أمر التبليغ مستوعبة لجميع أعمالهم.

٥. ﴿وَكَفى بِالله حَسِيباً﴾ أي محاسبا يحاسب على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يخشى ولا يخشى غيره.

٢٧. محمد رسول الله وخاتم النبيين:

المقطع [٢٧] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٢٤»:

١. ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ الله وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾:

أ. لا شك في أن الآية مسوقة لدفع اعتراضهم على النبي ﷺ بأنه تزوج زوج ابنه ومحصل الدفع أنه ليس أبا زيد ولا أبا أحد من الرجال الموجودين في زمن الخطاب حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا بزوج ابنه فالخطاب في قوله: ﴿مِنْ رِجالِكُمْ﴾ للناس الموجودين في زمن نزول الآية، والمراد

بالرجال ما يقابل النساء والولدان ونفي الأبوة نفي تكويني لا تشريعي ولا تتضمن الجملة شيئا من التشريع.

ب. والمعنى: ليس محمد ﷺ أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا منه بزوج ابنه وزيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطليقه ليس تزوجا بزوج الابن حقيقة وأما تبنيه زيدا فإنه لا يترتب عليه شيء من آثار الأبوة والبنوة وما جعل أدعياءكم أبناءكم.

ج. وأما القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم فإنهم أبناؤه حقيقة لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالا حتى ينتقض الآية وكذا الحسن والحسين وهما ابنا رسول الله فإن النبي ﷺ قبض قبل أن يبلغا حد الرجال.

د. ومما تقدم ظهر أن الآية لا تقتضي نفي أبوته ﷺ للقاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذا للحسنين لما عرفت أنها خاصة بالرجال الموجودين في زمن النزول على نعت الرجولية.

٢. ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾:

أ. الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع والقالب بمعنى ما يطبع به وما يقلب به والمراد بكونه خاتم النبيين أن النبوة اختتمت به ﷺ فلا نبي بعده.

ب. وقد عرفت فيما مر معنى الرسالة والنبوة وأن الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله إلى الناس والنبي هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين وحقائقه ولازم ذلك أن يرتفع الرسالة بارتفاع النبوة فإن الرسالة من أنباء الغيب، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة.

ج. ومن هنا يظهر أن كونه ﷺ خاتم النبيين يستلزم كونه خاتما للرسل.

د. وفي الآية إيماء إلى أن ارتباطه ﷺ وتعلقه بكم تعلق الرسالة والنبوة وأن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه.

٣. ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي ما بينه لكم إنما كان بعلمه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وصح الحديث عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى دارا، فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة، فكان من

دخلها ونظر إليها فقال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، قال ﷺ: فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء: أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما.

• أقول: وروى هذا المعنى غيرهما كالترمذي والنسائي وأحمد وابن مردويه عن غير جابر كأبي سعيد وأبي هريرة.

ب. أخرج ابن الأنباري في المصاحف عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كنت أقرئ الحسن والحسين، فمر بي علي بن أبي طالب وأنا أقرئهما فقال لي: أقرئهما وخاتم النبيين بفتح التاء.

٢٨. الأمر بذكر الله كثيراً وتسبيحه وتحية المؤمنين يوم القيامة:

المقطع [٢٨] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٢٨»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ الذكر ما يقابل النسيان وهو توجيه الإدراك نحو المذكور وأما التلفظ بها يدل عليه من أسمائه وصفاته فهو بعض مصاديق الذكر.

٢. ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾:

أ. التسبيح هو التنزيه وهو مثل الذكر لا يتوقف على اللفظ وإن كان التلفظ بمثل سبحان الله بعض مصاديق التسبيح.

ب. والبكرة أول النهار والأصيل آخره بعد العصر وتقييد التسبيح بالبكرة والأصيل لما فيهما من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه وتنزيهه من التغير والتحول وكل نقص طار، ويمكن أن يكون البكرة والأصيل معا كناية عن الدوام كالليل والنهار في قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ [فصلت: ٣٨]

٣. ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾:

أ. المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب إليه ولذلك قيل: إن الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن الناس الدعاء لكن الذي نسب من الصلاة إلى الله سبحانه في القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصة بالمؤمنين وهي التي تترتب

عليها سعادة العقبى والفلاح المؤبد ولذلك علل تصليته عليهم بقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾

ب. وقد رتب سبحانه في كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم وعلى ذكرهم له ذكره لهم فقال: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وتصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمة فإن ذكروه كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا صلى عليهم كثيرا وغشيهم بالنور وأبعدهم من الظلمات.

ج. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾، في مقام التعليل لقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ وتفيد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيرا ذكركم برحمته كثيرا وبالغ في إخراجكم من الظلمات إلى النور ويستفاد منه أن الظلمات إنما هي ظلمات النسيان والغفلة والنور نور الذكر.

٤. ﴿وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ وضع الظاهر موضع المضمر، أعني قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: وكان بكم رحيما، ليدل به على سبب الرحمة وهو وصف الإيمان.

٥. ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ ظاهر السياق أن ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول أي إنهم يحيون، بالبناء للمفعول، يوم يلقون ربهم من عند ربهم ومن ملائكته بالسلام أي إنهم يوم اللقاء في أمن وسلام لا يصيبهم مكروه ولا يمسهم عذاب.

٦. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ أي وهيأ الله لهم ثوابا جزيلا.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر، فليس له حد ينتهي إليه، فرض الله عز وجل الفرائض، فمن أداهن فهو حدهن، وشهر رمضان فمن صامه فهو حده، والحج فمن حج فهو حده إلا الذكر، فإن الله عز وجل لم يرض منه بالقليل، ولم يجعل له حدا ينتهي إليه، ثم تلا: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ فقال: لم يجعل الله له حدا ينتهي إليه، قال: وكان أبي كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله وآكل معه الطعام، وإنه ليذكر الله ولقد كان يحدث القوم ما يشغله ذلك، عن ذكر الله وكنت أرى لسانا لازقا بحنكه يقول: لا إله إلا الله، وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر، والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عز وجل فيه يكثر بركته

ويحضره الملائكة ويهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب لأهل الأرض، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن، ولا يذكر الله يقل بركته ويهجره الملائكة ويحضره الشياطين، وقال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير أعمالكم، أرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم ويقتلوكم؟ فقالوا: بلى، قال: ذكر الله عز وجل كثيرا، ثم قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال: أكثرهم لله ذكرا، وقال رسول الله ﷺ: من أعطي لسانا ذاكرا، فلقد أعطي خير الدنيا والآخرة، وقال في قوله تعالى: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ قال: لا تستكثر ما عملت من خير لله.

ب. وفيه، بإسناده عن أبي المعزى رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: من ذكر الله في السر فقد ذكر الله كثيرا، إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية، ولا يذكرونه في السر فقال الله عز وجل: ﴿يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾

• أقول: وهو استفادة لطيفة.

ج. وفي الخصال، عن زيد الشحام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ما ابتلي المؤمن بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها، قيل: وما هي؟ قال: المواساة في ذات يده، والإنصاف من نفسه، وذكر الله كثيرا، أما إني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وإن كان منه، ولكن ذكر الله عند ما أحل له وذكر الله عند ما حرم عليه.

د. أخرج أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ سئل، أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيرا، قلت: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين، حتى ينكسر ويختضب دما، لكان الذاكرون الله أفضل درجة منه.

٢٩. إرسال النبي بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً:

المقطع [٢٩] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِّ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهَّ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ وَكَفَى بِاللهَّ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٢٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾:

أ. شهادته ﷺ على الأعمال أن يتحملها في هذه النشأة ويؤديها يوم القيامة وقد تقدم في قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١١٢] وغيره من آيات الشهادة أنه ﷺ شهيد الشهداء.

ب. وكونه مبشرا ونذيرا تبشيره المؤمنين المطيعين لله ورسوله بثواب الله والجنة وإنذاره الكافرين والعاصين بعذاب الله والنار.

٢. ﴿وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً﴾:

أ. دعوته إلى الله هي دعوته الناس إلى الإيمان بالله وحده، ولازمه الإيمان بدين الله وتقيد الدعوة بإذن الله يجعلها مساوقة للبعثة.

ب. وكونه ﷺ سراجا منيرا هو كونه بحيث يهتدي به الناس إلى سعادتهم وينجون من ظلمات الشقاء والضلالة فهو من الاستعارة، وقول بعضهم: إن المراد بالسراج المنير القرآن والتقدير ذا سراج منير تكلف من غير موجب.

٣. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾، الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممن يأخذه وقد وصف الله عطاءه فقال: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] فبين أنه يعطي من الثواب ما لا يقابل العمل وهو الفضل ولا دليل في الآية يدل على اختصاصه بالآخرة.

٤. ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾، تقدم معنى طاعة الكافرين والمنافقين في أول السورة.

٥. ﴿وَدَعْ أَذاهُمْ﴾ أي اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه وعدم الاشتغال به والدليل على هذا المعنى قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ أي لا تستقل بنفسك في دفع أذاهم بل اجعل الله وكيلا في ذلك وكفى بالله وكيلا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في العلل، بإسناده عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده الحسن بن علي عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فسأله أعلمهم فيما سأله فقال: لأي شيء سميت محمدا وأحمد وأبا القاسم

وبشيرا ونذيرا وداعيا؟ فقال ﷺ: أما الداعي فإني أدعو الناس إلى دين ربي عز وجل، وأما النذير فإني أنذر بالنار من عصاني، وأما البشير فإني أبشر بالجنة من أطاعني، الحديث.

ب. وفي تفسير القمي في قوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ أنها نزلت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين.

٣٠. حكم المطلقات قبل الدخول والمساس:

المقطع [٣٠] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٤»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾:

أ. المراد بنكاحهن العقد عليهن بالنكاح، وبالمس الدخول، وبالتمتيع إعطاؤهن شيئا من المال يناسب شأنهن وحالهن والتسريح بالجميل إطلاقهن من غير خصومة وخشونة.

ب. والمعنى: إذا طلقتم النساء بعد النكاح وقبل الدخول فلا عدة لهن للطلاق ويجب تمتيعهن بشيء من المال والسراح الجميل.

ج. والآية مطلقة تشمل ما إذا فرض لهن فريضة المهر وما إذا لم يفرض فيقيدها قوله: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وتبقى حجة فيما لم يفرض لهن فريضة.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه، روى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ، فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾ قال: متعوهن أي أجملوهن بما قدرتم عليه من معروف فإنهن يرجعن بكآبة ووحشة وهم عظيم وشماتة من أعدائهن، فإن الله كريم يستحيي ويحب أهل الحياء إن أكرمكم أشدكم إكراما لحلائلهم.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام: في رجل طلق امرأته قبل أن

يدخل بها، قال: عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئا، وإن لم يكن فرض لها فليمتعها، على نحو ما يمتع به مثلها من النساء.

• أقول: والروايات في هذا المعنى كثيرة وهي مبنية على تخصيص الآية بآية البقرة كما تقدم في تفسير الآية.

ج. أخرج عبد بن حميد عن حبيب بن ثابت قال: جاء رجل إلى علي بن الحسين فسأله عن رجل، قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، قال: ليس بشيء بدأ الله بالنكاح قبل الطلاق، فقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَ﴾

• أقول: ورواه في المجمع: (عن حبيب بن ثابت عنه عليه السلام.

د. أخرج ابن ماجة وابن مردويه عن المسور بن مخرمة عن النبي ﷺ قال: لا طلاق قبل نكاح ولا عتق قبل ملك.

• أقول: وروي مثله عن جابر وعائشة عنه ﷺ.

٣١. إحلال أزواج النبي وملك اليمين وبنات العم والخالات والهبة:

المقطع [٣١] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٥»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَ﴾ يذكر سبحانه لنبيه ﷺ بالإحلال سبعة أصناف من النساء:

أ. الصنف الأول ما في قوله: ﴿أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَ﴾ والمراد بالأجور المهور.

ب. والثاني ما في قوله: ﴿وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ أي من يملكه من الإماء الراجعة إليه من الغنائم والأنفال، وتقييد ملك اليمين بكونه مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله: ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَ﴾ للتوضيح لا للاحتراز.

ج. والثالث والرابع ما في قوله: ﴿وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمّاتِكَ﴾ قيل: يعني نساء قريش.

د. والخامس والسادس ما في قوله: ﴿وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ﴾ قيل: يعني نساء بني زهرة، وقوله: ﴿اللّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قال في المجمع: (هذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل.

هـ. والسابع ما في قوله: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها﴾ وهي المرأة المسلمة التي بذلت نفسها للنبي ﷺ بمعنى أن ترضى أن يتزوج بها من غير صداق ومهر فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها، وقوله: ﴿خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إيذان بأن هذا الحكم، أي حلية المرأة للرجل ببذل النفس، من خصائصه لا يجري في المؤمنين، وقوله بعده: ﴿قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ تقرير لحكم الاختصاص.

٢. ﴿لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ تعليل لقوله في صدر الآية: ﴿إِنّا أَحْلَلْنا لَكَ﴾ أو لما في ذيلها من حكم الاختصاص والأول أظهر وقد ختمت الآية بالمغفرة والرحمة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام وبإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ﴾ كم أحل له من النساء؟ قال: ما شاء من شيء.

ب. في الكافي، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ﴾؟ فقال: لرسول الله ﷺ، أن ينكح ما شاء من بنات عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته وأزواجه اللاتي هاجرن معه ـ، وأحل له أن ينكح من عرض المؤمنين، بغير مهر وهي الهبة، ولا تحل الهبة إلا لرسول الله ﷺ، فأما لغير رسول الله فلا يصلح نكاح إلا بمهر، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ﴾

ج. أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن علي بن الحسين: في قوله: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ هي أم شريك الأزدية التي وهبت نفسها للنبي ﷺ.

• أقول: وروي أنها خولة بنت الحكيم وأنها ليلى بنت الخطيم وأنها ميمونة، والظاهر أن الواهبة

نفسها عدة من النساء.

د. وفي الكافي، مسندا عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن المرأة لا تخطب الزوج، وأنا امرأة أيم لا زوج لي منذ دهر، ولا ولد فهل لك من حاجة؟ فإن تك فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني، فقال لها رسول الله خيرا ودعا لها، ثم قال: يا أخت الأنصار، جزاكم الله عن رسول الله خيرا، فقد نصرني رجالكم ورغبت في نساؤكم، فقالت لها حفصة: ما أقل حياءك وأجرأك وأنهمك للرجال، فقال رسول الله: كفي عنها يا حفصة، فإنها خير منك رغبت في رسول الله ولمتها وعبتها، ثم قال للمرأة: انصرفي رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك في وتعرضك لمحبتي وسروري، وسيأتيك أمري إن شاء الله، فأنزل الله عز وجل ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ، إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: فأحل الله عز وجل هبة المرأة نفسها للنبي ﷺ ولا يحل ذلك لغيره.

هـ. وفي المجمع: (وقيل: إنها لما وهبت نفسها للنبي ﷺ قالت عائشة: ما بال النساء يبذلن أنفسهن بلا مهر؟فنزلت الآية، فقالت عائشة: ما أرى الله إلا يسارع في هواك، فقال رسول الله ﷺ: فإنك إن أطعت الله سارع في هواك.

٣٢. ترجية النبي من يشاء من النساء وإيوائهن:

المقطع [٣٢] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٦»:

١. ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ﴾:

أ. الإرجاء التأخير والتبعيد، وهو كناية عن الرد، والإيواء: الإسكان في المكان وهو كناية عن القبول والضم إليه.

ب. والسياق يدل على أن المراد به أنه ﷺ على خيرة من قبول من وهبت نفسها له أو رده.

٢. ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ﴾:

أ. الابتغاء هو الطلب أي ومن طلبتها من اللاتي عزلتها ولم تقبلها فلا إثم عليك ولا لؤم أي يجوز لك أن تضم إليك من عزلتها ورددتها من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لك بعد العزل والرد.

ب. ويمكن أن يكون إشارة إلى أن له ﷺ أن يقسم بين نسائه وأن يترك القسم فيؤخر من يشاء منهن ويقدم من يشاء ويعزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل وهو أوفق لقوله بعده: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى﴾ أي أقرب ﴿أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي يسررن ﴿وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وذلك لسرور المتقدمة بما قسمت له ورجاء المتأخرة أن تتقدم بعد.

٣. ﴿وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ أي يعلم مصالح عباده ولا يعاجل في العقوبة.

٤. وفي الآية أقوال مختلفة أخر والذي أوردناه هو الأوفق لوقوعها في سياق سابقتها متصلة بها وبه وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليه السلام كما سيجيء.

٣٣. تحريم النساء على النبي بعد ذلك وعدم تبديلهن:

المقطع [٣٣] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٦»:

١. ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾:

أ. ظاهر الآية لو فرضت مستقلة في نفسها غير متصلة بما قبلها تحريم النساء له ﷺ إلا من خيرهن فاخترن الله ونفي جواز التبدل بهن يؤيد ذلك.

ب. لكن لو فرضت متصلة بما قبلها وهو قوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ﴾، كان مدلولها تحريم ما عدا المعدودات وهي الأصناف الستة التي تقدمت.

ج. وفي بعض الروايات عن بعض أئمة أهل البيت عليه السلام أن المراد بالآية محرمات النساء المعدودة في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ﴾ الآية: [النساء: ٢٣]، فقوله: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي من بعد اللاتي اخترن الله ورسوله وهي التسعة على المعنى الأول أو من بعد من عددناه في قولنا: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ﴾ على المعنى الثاني أو من بعد المحللات وهي المحرمات على المعنى الثالث.

٢. ﴿وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ﴾ أي أن تطلق بعضهن وتزوج مكانها من غيرهن، وقوله: ﴿إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يعني الإماء وهو استثناء من قوله في صدر الآية ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ﴾

٣. ﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ معناه ظاهر وفيه تحذير عن المخالفة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ فقال: إنما عنى به، لا يحل لك النساء التي حرم الله عليك في هذه الآية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ، وَأَخَواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخالاتُكُمْ﴾ إلى آخرها، ولو كان الأمر كما يقولون، كان قد أحل لكم ما لم يحل له، لأن أحدكم يستبدل كلما أراد ولكن الأمر ليس كما يقولون، إن الله عز وجل أحل لنبيه ﷺ، أن ينكح من النساء ما أراد إلا ما حرم في هذه الآية في سورة النساء.

ب. أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي بن زيد عن الحسن: في قوله: ﴿وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ﴾ قال: قصره الله على نسائه التسع اللاتي مات عنهن، قال علي فأخبرت علي بن الحسين فقال: لو شاء تزوج غيرهن، ولفظ عبد بن حميد فقال: بل كان له أيضا أن يتزوج غيرهن.

٣٤. آداب الدخول إلى بيوت النبي والطعام والحديث:

المقطع [٣٤] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ بيان لأدب الدخول في بيوت النبي ﷺ، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء من النهي، وقوله: ﴿إِلى طَعامٍ﴾ متعلق بالإذن، وقوله: ﴿غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ﴾ أي غير منتظرين لورود إناء الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطيلوا المكث في انتظار الطعام ويبينه قوله: ﴿وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ﴾ أي أكلتم ﴿فَانْتَشِرُوا﴾، وقوله: ﴿وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عطف على قوله: ﴿غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ﴾ وهو حال بعد حال، أي غير ماكثين في حال انتظار الإناء قبل الطعام ولا في حال الاستئناس لحديث بعد الطعام.

٢. ﴿إِنَّ ذٰلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ تعليل للنهي أي لا تمكثوا كذلك لأن مكثكم ذلك كان يتأذى منه النبي فيستحيي منكم أن يسألكم الخروج وقوله: ﴿وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ﴾ أي من بيان الحق لكم وهو ذكر تأذيه والتأديب بالأدب اللائق.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: وأما قوله عز وجل ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فإنه لما أن تزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، وكان يحبها فأولم ودعا أصحابه، فكان أصحابه إذا أكلوا يحبون أن يتحدثوا عند رسول الله ﷺ، وكان يحب أن يخلو مع زينب فأنزل الله عز وجل، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ وذلك أنهم كانوا يدخلون بلا إذن فقال عز وجل: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾

• أقول: وروي تفصيل القصة عن أنس بطرق مختلفة.

ب. أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان قال: نزل حجاب رسول الله على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

• أقول: ورواها أيضا ابن سعد عن أنس وفيه: أن السنة كانت مبتنى رسول الله ﷺ بزينب.

٣٥. فرض الحجاب وكونه أطهر للقلوب:

المقطع [٣٥] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٨»:

١. ﴿وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَ﴾، ضمير ﴿سَأَلْتُمُوهُنَ﴾ لأزواج النبي ﷺ وسؤالهن متاعا كناية عن تكليمهن لحاجة أي إذا مست الحاجة إلى تكليمكم أزواج النبي ﷺ فكلموهن من وراء حجاب، وقوله: ﴿ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَ﴾ بيان لمصلحة الحكم.

٣٦. النهي عن أذى رسول الله وعن نكاح أزواجه من بعده:

المقطع [٣٦] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ

اللَّهَ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣-٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٨»:

١. ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾، أي ليس لكم إيذاؤه بمخالفة ما أمرتم في نسائه وفي غير ذلك وليس لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم أي نكاحكم أزواجه من بعده كان عند الله عظيما، وفي الآية إشعار بأن بعضهم ذكر ما يشير إلى نكاحهم أزواجه بعده وهو كذلك كما سيأتي في البحث الروائي الآتي.

٢. ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ معناه ظاهر وهو في الحقيقة تنبيه تهديدي لمن كان يؤذي النبي ﷺ أو يذكر نكاح أزواجه من بعده.

٣. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت الآية.

• أقول: وقد وردت بذلك عدة من الروايات وفي بعضها أنه كان يريد عائشة وأم سلمة.

٣٧. إباحة كشف الزينة للمحارم والنساء وما ملكت أيمانهن:

المقطع [٣٧] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٨»:

١. ﴿لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ﴾:

أ. ضمير ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ لنساء النبي ﷺ، والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب وقد استثنى الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات وهؤلاء محارم، قيل: ولم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم من الممكن أن يصفوهن لأبنائهم.

ب. واستثنى أيضا نساءهن وإضافة النساء إلى ضمير هن يلوح إلى أن المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كما مر في قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسائِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] واستثنى أيضا ما ملكت أيمانهن من العبيد والإماء.

٢. ﴿وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ فيه تأكيد الحكم وخاصة من جهة الالتفات من

الغيبة إلى الخطاب في ﴿اتَّقِينَ اللهَ﴾

٣٨. صلاة الله وملائكته على النبي وأمر المؤمنين بذلك:

المقطع [٣٨] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٨»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾:

أ. قد تقدم أن أصل الصلاة الانعطاف فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافا مطلقا لم يقيد في الآية بشيء دون شيء وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتزكية والاستغفار وهي من المؤمنين الدعاء بالرحمة.

ب. وفي ذكر صلاته تعالى وصلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أن في صلاة المؤمنين له اتباعا لله سبحانه وملائكته وتأكيدا للنهي الآتي.

ج. وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالى أن يصلي عليه وآله.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في ثواب الأعمال، عن أبي المعزى عن أبي الحسن عليه السلام في حديث قال: قلت: ما معنى صلاة الله وصلاة ملائكته وصلاة المؤمن؟ قال: صلاة الله رحمة من الله، وصلاة الملائكة تزكية منهم له، وصلاة المؤمنين دعاء منهم له.

ب. وفي الخصال، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة قال: صلوا على محمد وآل محمد، فإن الله تعالى يقبل دعاءكم عند ذكر محمد، ودعاءكم وحفظكم إياه إذا قرأتم ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ فصلوا عليه في الصلاة كنتم أو في غيرها.

ج. أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن كعب بن عجرة قال: قال رجل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم

وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

• أقول: وقد أورد ثماني عشرة حديثا غير هذه الرواية تدل على تشريك آل النبي معه في الصلاة روتها أصحاب السنن والجوامع عن عدة من الصحابة منهم ابن عباس وطلحة وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وأبو مسعود الأنصاري وبريدة وابن مسعود وكعب بن عجرة وعلي عليه السلام وأما روايات الشيعة فهي فوق حد الإحصاء.

د. أخرج أحمد والترمذي عن الحسن بن علي أن رسول الله ﷺ قال: البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي.

٣٩. لعنة الله على من يؤذي النبي والمؤمنين:

المقطع [٣٩] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧-٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٨»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾:

أ. من المعلوم أن الله سبحانه منزه من أن يناله الأذى وكل ما فيه وصمة النقص والهوان فذكره مع الرسول وتشريكه في إيذائه تشريف للرسول وإشارة إلى أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضا بالسوء إذ ليس للرسول بما أنه رسول إلا ربه فمن قصده فقد قصد ربه.

ب. وقد أوعدهم باللعن في الدنيا والآخرة واللعن هو الإبعاد من الرحمة والرحمة الخاصة بالمؤمنين هي الهداية إلى الاعتقاد الحق وحقيقة الإيمان، ويتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمة في الدنيا تحريمه عليه جزاء لعمله فيرجع إلى طبع القلوب كما قال: ﴿لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] وقال: ﴿وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: ٤٦] وقال: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾ سورة [محمد: ٢٣]

ج. وأما اللعن في الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب فيها وقد قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]

د. ثم أوعدهم بأنه أعد لهم، أي في الآخرة، عذابا مهينا ووصف العذاب بالمهين لأنهم يقصدون باستكبارهم في الدنيا إهانة الله ورسوله فقوبلوا في الآخرة بعذاب يهينهم.

٢. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾:

أ. تقييد إيذائهم بغير ما اكتسبوا لأن إيذاءهم بما اكتسبوا كما في القصاص والحد والتعزير لا إثم فيه.

ب. وأما إيذاؤهم بغير ما اكتسبوا ومن دون استحقاق فيعده سبحانه احتمالا للبهتان والإثم المبين، والبهتان هو الكذب على الغير يواجهه به، ووجه كون الإيذاء من غير اكتساب بهتانا أن المؤذي إنما يؤذي لسبب عنده يعده جرما له يقول: لم قال كذا؟ لم فعل كذا؟ وليس بجرم فيبهته عند الإيذاء بنسبة الجرم إليه مواجهة وليس بجرم.

ج. وكونه إثما مبينا لأن الافتراء والبهتان مما يدرك العقل كونه إثما من غير حاجة إلى ورود النهي عنهما شرعا.

٤٠. أمر النساء بالحجاب:

المقطع [٤٠] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٣٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾، الجلابيب جمع جلباب وهو ثوب تشتمل به المرأة فيغطي جميع بدنها أو الخمار الذي تغطي به رأسها ووجهها.

٢. ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي يتسترن بها فلا تظهر جيوبهن وصدورهن للناظرين.

٣. ﴿ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾:

أ. أي ستر جميع البدن أقرب إلى أن يعرفن أنهن أهل الستر والصلاح فلا يؤذين أي لا يؤذيهن أهل الفسق بالتعرض لهن.

ب. وقيل: المعنى ذلك أقرب من أن يعرفن أنهن مسلمات حرائر فلا يتعرض لهن بحسبان أنهن إماء أو من غير المسلمات من الكتابيات أو غيرهن والأول أقرب.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ، يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَ﴾ فإنه كان سبب نزولها أن النساء كن يخرجن إلى المسجد، ويصلين خلف رسول الله ﷺ، فإذا كان الليل وخرجن إلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة، يقعد الشباب لهن في طريقهن فيؤذونهن ويتعرضون لهن، فأنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الآية.

ب. أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان، من أكسية سود يلبسنها.

٤١. وعيد المنافقين والمرجفين بالقتل والإخراج:

المقطع [٤١] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٤٠»:

١. ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾:

أ. الانتهاء عن الشيء الامتناع والكف عنه، والإرجاف إشاعة الباطل للاغتمام به وإلقاء الاضطراب بسببه، والإغراء بالفعل التحريض عليه.

ب. والمعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الإفساد والذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنحرضنك عليهم ثم يجاورونك في المدينة بسبب نفيهم عنها إلا زمانا قليلا وهو ما بين صدور الأمر وفعلية إجرائه.

٢. ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ الثقف إدراك الشيء والظفر به، والجملة حال من المنافقين ومن عطف عليهم أي حال كونهم ملعونين أينما وجدوا أخذوا وبولغ في قتلهم فعمهم القتل.

٣. ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾:

أ. السنة هي الطريقة المعمولة التي تجري بطبعها غالبا أو دائما.

ب. يقول سبحانه هذا النكال الذي أوعدنا به المنافقين ومن يحذو حذوهم من النفي والقتل الذريع هي سنة الله التي جرت في الماضين فكلما بالغ قوم في الإفساد وإلقاء الاضطراب بين الناس وتمادوا وطغوا في ذلك أخذناهم كذلك ولن تجد لسنة الله تبديلا فتجري فيكم كما جرت في الأمم من قبلكم.

٤٢. علم الساعة عند الله ولعنة الكافرين وندمهم:

المقطع [٤٢] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٣ـ٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٤٦»:

١. آيات تذكر شأن الساعة وبعض ما يجري على الكفار من عذابها وتأمر المؤمنين بالقول السديد وتعدهم عليه وعدا جميلا ثم تختتم السورة بذكر الأمانة.

٢. ﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ تذكر الآية سؤال الناس عن الساعة وإنما كانوا يريدون أن يقدر لهم زمن وقوعها وأنها قريبة أو بعيدة كما يومئ إليه التعبير عنها بالساعة فأمر أن يجيبهم بقصر العلم بها في الله سبحانه وعلى ذلك جرت الحال كلما ذكرت في القرآن.

٣. ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ زيادة في الإبهام وليعلموا أن النبي ﷺ مثل غيره في عدم العلم بها وليس من الستر الذي أسره إليه وستره من الناس.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ لعن الكفار إبعادهم من الرحمة، والإعداد التهيئة، والسعير النار التي أشعلت فالتهبت، والباقي ظاهر.

٥. ﴿خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ الفرق بين الولي والنصير أن الولي يلي بنفسه تمام الأمر والمولى عليه بمعزل، والنصير يعين المنصور على بعض الأمر وهو إتمامه فالولي يتولى الأمر كله والنصير يتصدى بعضه، والباقي ظاهر.

٦. ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ تقلب وجوههم في

النار تحولها لحال بعد حال فتصفر وتسود وتكون كالحة أو انتقالها من جهة إلى جهة لتكون أبلغ في مس العذاب كما يفعل باللحم المشوي، وقولهم: ﴿يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ كلام منهم على وجه التحسر والتمني.

٧. ﴿وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ السادة جمع سيد وهو، على ما في المجمع: (ـ المالك المعظم الذي يملك تدبير السواد الأعظم وهو الجمع الأكثر، والكبراء جمع كبير ولعل المراد به الكبير سنا فالعامة تطيع وتقلد أحد رجلين إما سيد القوم وإما أسنهم.

٨. ﴿رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ الضعفان المثلان وإنما سألوا لهم ضعفي العذاب لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، ولذلك أيضا سألوا لهم اللعن الكبير.

٤٣. النهي عن التشبه بمن آذوا نبي الله موسى:

المقطع [٤٣] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٤٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾:

أ. نهي عن أن يكونوا كبعض بني إسرائيل فيعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء وليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل وإن كان منهيا عنه بل قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ اللهُ﴾ يشهد بأنه كان إيذاء من قبيل التهمة والافتراء المحوج في رفعه إلى التبرئة والتنزيه.

ب. ولعل السكوت عن ذكر ما آذوا به موسى عليه السلام يؤيد ما ورد في الحديث أنهم قالوا: ليس لموسى ما للرجال فبرأه الله من قولهم وسيوافيك.

ج. وأوجه ما قيل في إيذائهم النبي ﷺ أنه إشارة إلى قصة زيد وزينب، وإن يكن كذلك فمن إيذائه ﷺ ما في كثير من روايات القصة من سردها على نحو لا يناسب ساحة قدسه.

٢. ﴿وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾ أي ذا جاه ومنزلة والجملة مضافا إلى اشتمالها على التبرئة إجمالا تعلل تبرئته تعالى له وللآية وما بعدها نوع اتصال بالآيات الناهية عن إيذاء النبي ﷺ.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: أن بني إسرائيل كانوا يقولون: ليس لموسى ما للرجال، وكان موسى إذا أراد الاغتسال ذهب إلى موضع لا يراه فيه أحد، فكان يوما يغتسل على شط نهر وقد وضع ثيابه على صخرة، فأمر الله الصخرة فتباعدت عنه حتى نظر بنو إسرائيل إليه، فعلموا أن ليس كما قالوا فأنزل الله ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى﴾ الآية.

ب. وفي المجمع: واختلفوا فيما أوذي به موسى على أقوال: أحدها: أن موسى وهارون صعدا الجبل فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته، فأمر الله الملائكة فحملته حتى مروا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته حتى عرفوا أنه قد مات، وبرأه الله من ذلك عن علي وابن عباس، وثانيها: أن موسى كان حييا ستيرا يغتسل وحده، فقالوا: ما يستتر منا إلا لعيب في جلده إما برص وأما أدرة، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر، فمر الحجر بثوبه فطلبه موسى فرآه بنو إسرائيل عريانا، كأحسن الرجال خلقا فبرأه الله مما قالوا، رواه أبو هريرة مرفوعا.

• أقول: وروى الرواية الأولى في الدر المنثور، أيضا عن ابن مسعود والثانية أيضا عن أنس وابن عباس.

٤٤. الأمر بالتقوى والقول السديد لإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب:

المقطع [٤٤] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ـ٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٤٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾، السديد من السداد وهو الإصابة والرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقة الواقع وعدم كونه لغوا أو ذا فائدة غير مشروعة كالنميمة وغير ذلك فعلى المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلم به وأن لا يكون لغوا أو يفسد به إصلاح.

٢. ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ رتب على ملازمة القول السديد إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب وذلك أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول ولغو الحديث والكلام الذي يترتب عليه فساد، وبرسوخ هذه الصفة فيها تنقطع طبعا عن الفحشاء والمنكر واللغو في الفعل وعند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ما ضيعه

من عمره في موبقات الذنوب إن كان قد ابتلي بشيء من ذلك وكفى بالندم توبة، ويحفظه الله فيما بقي من عمره عن اقتحام المهلكات وإن رام شيئا من صغائر الذنوب غفر الله له فقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فملازمة القول السديد تسوق الإنسان إلى صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب بإذن الله.

٣. ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾:

أ. وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة والاجتناب عن جميع المناهي بترتيب الفوز العظيم على طاعة الله ورسوله.

ب. وبذلك تختتم السورة في معناها في الحقيقة لأن طاعة الله ورسوله هي الكلمة الجامعة بين جميع الأحكام السابقة، من واجبات ومحرمات والآيتان التاليتان كالمتمم لمعنى هذه الآية.

٤. أحاديث وآثار: أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال: ما جلس رسول الله ﷺ على هذا المنبر قط إلا تلا هذه الآية: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾

• أقول: وروي ما يقرب منه أيضا عن عائشة وأبي موسى الأشعري وعروة.

٤٥. عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وحمل الإنسان لها:

المقطع [٤٥] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٤٨»:

لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ وبيان المراد بالأمانة]، خلاصته:

أ. بيان أن الأمانة في الآية ليست التكاليف الشرعية أو العقل أو الأعضاء أو أمانات الناس، بل هي الولاية الإلهية التي هي كمال العبودية والاستكمال بتحقيق الدين حقاً علماً وعملاً.

ب. إثبات أن السماوات والأرض والجبال أبيت حمل الأمانة لعدم استعدادها وصلاحيتها لها، بينما حملها الإنسان لأنه قابل للظلم والجهل، وبالتالي قابل للعدل والعلم.

ج. توضيح أن حمل الإنسان للأمانة مع كونه ظلوماً جهولاً ليس تناقضاً، بل لأن الظلم والجهل يثبتان لمن من شأنه العدل والعلم، وهذا هو مصحح تحمل الأمانة.

د. بيان أن الأمانة المذكورة هي الولاية الإلهية التي تتحصل بالعلم بالله والعمل الصالح، وأنها تعرضت على السماوات والأرض والجبال عرض مقايسة لا تكليفاً حقيقياً.

هـ. الرد على الأقوال المختلفة في تفسير الأمانة، وبيان أن المعنى الذي يلتئم مع سياق الآية هو ما ورد في الروايات من أنها ولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

و. عرض الروايات الواردة في تفسير الآية، وبيان أنها تدل على أن الأمانة هي الولاية الإلهية.

٤٦. عاقبة المنافقين والمشركين والمؤمنين:

المقطع [٤٦] من سورة الأحزاب، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٥١»:

١. ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ﴾ اللام للغاية أي كانت عاقبة هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات وذلك أن الخائن للأمانة يتظاهر في الأغلب بالصلاح والأمانة وهو النفاق وقليلا ما يتظاهر بالخيانة لها ولعل اعتبار هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين والمنافقات في الآية على المشركين والمشركات.

٢. ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ عطف على ﴿لِيُعَذِّبَ﴾ أي وكان عاقبة ذلك أن يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، والتوبة من الله هي رجوعه إلى عبده بالرحمة فيرجع إلى الإنسان إذا آمن به ولم يخن بالرحمة ويتولى أمره وهو ولي المؤمنين فيهديه إليه بالستر على ظلمه وجهله وتحليته بالعلم النافع والعمل الصالح لأنه غفور رحيم.

سورة سبأ

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣١] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتكلم السورة حول الأصول الثلاثة: أعني الوحدانية والنبوة والبعث، فتذكرها وتذكر ما لمنكريها من الاعتراض فيها والشبه التي ألقوها، ثم تدفعها بوجوه الدفع من حكمة وموعظة ومجادلة حسنة.

ب. وتهتم ببيان أمر البعث أكثر من غيره، فتذكره في مفتتح الكلام، ثم تعود إليه عودة بعد عودة إلى مختتمه.

ج. وهي مكية بشهادة مقاصد آياتها على ذلك.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تمجد الله الذي له ما في السماوات والأرض، وتذكر أن الذين كفروا لا يؤمنون بالآخرة، وتأمرهم بالنظر في آثار الله، وترد على من قالوا إن محمداً مفتر، وتذكر أنهم في شك من البعث.

٢. الآيات [١٠ ـ ٢١]:

أ. تشير الآيات إلى نبذة من قصص داود وسليمان، إذ آتاهما الله من فضله: إذ أنعم على داود بتسخير الجبال والطير معه وتليين الحديد له، وسخر لسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وغيرها، وأمرهما بالعمل الصالح شكراً، وكانا عبدين شكورين.

ب. ثم إلى قصة سبأ، حيث أنعم عليهم بجنتين عن اليمين والشمال ليعيشوا فيها عيشاً رغداً، فكفروا بالنعمة وأعرضوا عن الشكر، فأرسل عليهم سيل العرم، وبدل جنتيهم جنتين دون ذلك، وقد كان عمر بلادهم فكفروا فجعلهم أحاديث ومزقهم كل ممزق، كل ذلك لكفرهم النعمة وإعراضهم عن الشكر، ولا يجازى إلا الكفور.

ج. وجه اتصال القصص على ما تقدم من حديث البعث: أن الله هو المدبر لأمور عباده، وهم

مغمورون في أنواع نعمه، وللمنعم على المنعم عليه الشكر على نعمته، وعليه أن يميز بين الشاكرين لنعمته والكافر بها، وإذ لا ميز في هذه النشأة، فهناك نشأة أخرى يتميز فيها الفريقان، فالبعث لا مفر عنه.

٣. الآيات [٢٢ ـ ٣٠] آيات مقررة للتوحيد واحتجاجات حوله.

٤. الآيات [٣١ ـ ٥٤]:

أ. فصل آخر من آيات السورة، تتكلم في أمر النبوة وما يرجع إليها، وما يقول المشركون فيها، وتتخلص في خلالها بما يجري عليهم يوم الموت أو يوم القيامة.

ب. وقد اتصلت بقوله في الفصل السابق: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ الآية، وقد عرفت أن الآية كالبرزخ بين الفصلين، تذكر الرسالة وتجعلها دليلاً على التوحيد.

١. الحمد لله مالك ما في السموات والأرض والحكيم الخبير:

المقطع [١] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٥٦»:

١. ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. المطلوب بيان البعث والجزاء بيانا لا يعتريه شك بالإشارة إلى الحجة التي ينقطع بها الخصم والأساس الذي يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم ملكه تعالى لكل شيء من كل جهة حتى يصح له أي تصرف أراد فيها من إبداء ورزق وإماتة وإحياء بالإعادة وجزاء، وثانيهما كمال علمه تعالى بالأشياء من جميع جهاتها علما لا يطرأ عليه عزوب وزوال حتى يعيد كل من أراد ويجزيه على ما علم من أعماله خيرا أو شرا.

ب. وقد أشير إلى أول الأمرين في الآية الأولى التي نحن فيها وإلى الثانية في الآية الثانية وبذلك يظهر أن الآيتين تمهيد لما في الآية الثالثة والرابعة.

ج. فقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ثناء عليه على ملكه المنبسط على كل شيء بحيث له أن يتصرف في كل شيء بما شاء وأراد.

٢. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ تخصيص الحمد بالآخرة لما أن الجملة الأولى تتضمن الحمد في الدنيا

فإن النظام المشهود في السماوات والأرض نظام دنيوي كما يشهد به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ﴾: [إبراهيم: ٤٨]

٣. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾:

أ. ختم الآية بالاسمين الكريمين للدلالة على أن تصرفه في نظام الدنيا ثم تعقيبه بنظام الآخرة مبني على الحكمة والخبرة فبحكمته عقب الدنيا بالآخرة وإلا لغت الخلقة وبطلت ولم يتميز المحسن من المسيء كما قال: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾ إلى أن قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وبخبرته يحشرهم ولا يغادر منهم أحدا ويجزي كل نفس بما كسبت.

ب. والخبير من أسماء الله الحسنى مأخوذة من الخبرة وهي العلم بالجزئيات فهو أخص من العليم.

٤. ﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها﴾ الولوج مقابل الخروج والعروج مقابل النزول وكان العلم بالولوج والخروج والنزول والعروج كناية عن علمه بحركة كل متحرك وفعله واختتام الآية بقوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ كان فيه إشارة إلى أن له رحمة ثابتة ومغفرة ستصيب قوما بإيمانهم.

٢. إثبات الساعة وجزاء المؤمنين وعذاب الكافرين:

المقطع [٢] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٣-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٥٧»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ﴾:

أ. يذكر إنكارهم لإتيان الساعة وهي يوم القيامة وهم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه وعلمه بكل شيء ولا مورد للارتياب في إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلا عن إنكار إتيانها ولذلك أمر النبي ﷺ أن يجيب عن قولهم بقوله: ﴿قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي الساعة.

ب. ولما كان السبب العمدة في إنكارهم هو اختلاط الأشياء ومنها أبدان الأموات بعضها ببعض وتبدل صورها تبدلا بعد تبدل بحيث لا خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تميز بعضها من بعض أشار إلى دفع ذلك بقوله: ﴿عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ﴾ أي لا يفوت ﴿عن علمه﴾ ﴿مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾

٢. ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ تعميم لعلمه لكل شيء وفيه مع ذلك إشارة إلى أن للأشياء كائنة ما كانت ثبوتا في كتاب مبين لا تتغير ولا تتبدل وإن زالت رسومها عن صفحة الكون وقد تقدم بعض الكلام في الكتاب المبين في سورة الأنعام وغيرها.

٣. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾:

أ. اللام في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ للتعليل وهو متعلق بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ نوع محاذاة لقوله السابق: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾

ب. وفي الآية بيان أحد السببين لقيام الساعة وهو أن يجزي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة بما فيها والسبب الأخير ما يشير إليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ﴾ إلخ.

٤. ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾:

أ. السعي الجد في المشي والمعاجزة المبالغة في الإعجاز وقيل: المسابقة والكلام مبني على الاستعارة بالكناية كان الآيات مسافة يسيرون فيها سيرا حثيثا ليعجزوا الله ويسبقوه والرجز كالرجس القذر ولعل المراد به العمل السيئ فيكون إشارة إلى تبدل العمل عذابا أليما عليهم أو سببا لعذابهم، وقيل: الرجز هو سيء العذاب.

ب. وفي الآية تعريض للكفار الذين يصرون على إنكار البعث.

٥. ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾:

أ. الموصول الأول فاعل يرى والموصول الثاني مفعوله الأول والحق مفعوله الثاني والمراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله وبآياته، وبالذي أنزل إليه القرآن النازل إليه ﷺ.

ب. وجملة ﴿وَيَرَى﴾، استئناف متعرض لقوله السابق: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو حال من فاعل

كفروا، والمعنى: أولئك يقولون: لا تأتينا الساعة وينكرونه جهلا، والعلماء بالله وآياته يرون أن هذا القرآن النازل إليك المخبر بأن الساعة آتية هو الحق.

٦. ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ معطوف على الحق أي ويرون القرآن يهدي إلى صراط من هو عزيز لا يغلب على ما يريد محمود يثنى على جميع أفعاله لأنه لا يفعل مع عزته إلا الجميل وهو الله سبحانه، وفي التوصيف بالعزيز الحميد مقابلة لما وصفهم به في قوله: ﴿الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ﴾

٣. استهزاء الكافرين بالبعث ونسبة النبي إلى الجنون والكذب:

المقطع [٣] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٥٨»:

١. ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾:

أ. كلام منهم وارد مورد الاستهزاء يعرفون فيه النبي ﷺ بعضهم لبعض بالقول بالمعاد.

ب. والتمزيق التقطيع والتفريق، وكونهم في خلق جديد استقرارهم فيه أي تجديد خلقتهم بإحيائهم بعد موتهم ووجودهم ثانيا بعد عدمهم، وقوله: ﴿إِذا مُزِّقْتُمْ﴾ ظرف لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

ج. والمعنى: وقال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبي ﷺ لإنذاره إياهم بالبعث والجزاء: هل ندلكم على رجل والمراد به النبي ﷺ ينبئكم ويخبركم أنكم ستستقرون في خلق جديد ويتجدد لكم الوجود إذا فرقت أبدانكم كل التفريق وقطعت بحيث لا يتميز شيء منها من شيء.

٢. ﴿أَفْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾، الاستفهام للتعجيب فإن القول ببعث الأجساد بعد فنائها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلا لتلبيس الأمر على الناس وإضلالهم لينال بعض ما عندهم وإلا فكيف يلتبس فيه الأمر على عاقل، ولهذا رددوا الأمر بين الافتراء والجنة في الاستفهام والمعنى: أهو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوه بما بدا له من غير فكر مستقيم.

٣. ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾:

أ. رد لقولهم وإضراب عن الترديد الذي أتوا به مستفهمين، ومحصله أن ذلك ليس افتراء على الله

ولا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرون في عذاب سيظهر لهم وقد أبعدهم ذلك عن الحق فكانوا في ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلك أن يعقلوا الحق ويذعنوا به.

ب. ووضع الموصول موضع الضمير في قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ للدلالة على أن علة وقوعهم فيما وقعوا فيه من العذاب والضلال عدم إيمانهم بالآخرة.

٤. آية الخسف والكسف لمن أناب واتعظ:

المقطع [٤] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٥٩»:

١. ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ وعظ وإنذار لهم باستعظام ما اجترءوا عليه من تكذيب آيات الله والاستهزاء برسوله فالمراد بقوله: ﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ إحاطة السماء والأرض بهم من بين أيديهم ومن خلفهم فأينما نظروا وجدوا سماء تظلهم وأرضا تقلهم لا مفر لهم منهما.

٢. ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ أي إذ أحاط بهم الأرض والسماء وهما مدبرتان بتدبيرنا منقادتان مسخرتان لنا أن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلكهم أو نسقط عليهم قطعة من السماء فنهلكهم فما لهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل؟

٣. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾، أي فيما ذكر من إحاطة السماء والأرض وكونهما مدبرتين لله سبحانه أن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآية لكل عبد منيب، راجع إلى ربه بالطاعة، فهؤلاء لا يستهينون بهذه الأمور ولا يجترءون على تكذيب هذه الآيات إلا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابة إلى ربهم ورجوعا إلى طاعته.

٥. نعمة الله على داود بتسخير الجبال والطير والحديد:

المقطع [٥] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦١»:

١. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ الفضل العطية والتأويب الترجيع من الأوب بمعنى الرجوع والمراد به ترجيع الصوت بالتسبيح بدليل قوله فيه في موضع آخر: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾: [ص: ١٩] والطير معطوف على محل الجبال ومنه يظهر فساد قول بعضهم: إن الأوب بمعنى السير وأن الجبال كانت تسير معه حيثما سار.

٢. ﴿يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ بيان للفضل الذي أوتي داود وقد وضع فيه الخطاب الذي خوطبت به الجبال والطير فسخرتا به موضع نفس التسخير الذي هو العطية وهو من قبيل وضع السبب موضع المسبب والمعنى: سخرنا الجبال له تئوب معه والطير، وهذا هو المتحصل من تسخير الجبال والطير له كما يشير إليه قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾: [ص: ١٩] وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي وجعلناه لينا له على ما به من الصلابة.

٣. ﴿أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، السابغات جمع سابغة وهي الدرع الواسعة، والسرد نسج الدرع، وتقديره الاقتصاد فيه بحيث تتناسب حلقه أي اعمل دروعا واسعة وأجعلها متناسبة الحلق، وجملة ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾، نوع تفسير لا لأنه الحديد له.

٤. ﴿وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ معنى الجملة في نفسها ظاهر وهي لوقوعها في سياق بيان إيتاء الفضل وعد النعم تفيد معنى الأمر بالشكر كأنه قيل: وقلنا اشكر النعم أنت وقومك بالعمل الصالح.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في كمال الدين، بإسناده إلى هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام: في حديث يذكر فيه قصة داود عليه السلام قال: إنه خرج يقرأ الزبور وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل، ولا حجر ولا طائر إلا أجابه.

ب. وفي تفسير القمي قوله عز وجل: ﴿أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ﴾ قال: الدروع ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ قال: المسامير التي في الحلقة، وقوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ قال: كانت الريح تحمل كرسي سليمان، فتسير به في الغداة مسيرة شهر وبالعشي مسيرة شهر.

٦. تسخير الريح والنحاس والجن لسليمان:

المقطع [٦] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦٣»:

١. ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾، أي وسخرنا لسليمان الريح مسير غدو تلك الريح، وهو أول النهار إلى الظهر، مسير شهر ورواح تلك الريح، وهو من الظهر إلى آخر النهار، مسير شهر أي أنها تسير في يوم مسير شهرين.

٢. ﴿وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ الإسالة إفعال من السيلان بمعنى الجريان والقطر النحاس أي وأذبنا له القطر فسالت كالعين الجارية.

٣. ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾، أي وجمع من الجن، بدليل قوله بعد: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ﴾ يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له ﴿وَمَنْ يَزِغْ﴾ أي ينحرف ﴿عَنْ أَمْرِنا﴾ ولم يطع سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾ ظاهر السياق أن المراد به عذاب النار في الدنيا دون الآخرة، وفي لفظ الآية دلالة على أن المسخر له كان بعض الجن لا جميعهم.

٧. عمل الجن لسليمان وأمره بالشكر وقلة الشاكرين:

المقطع [٧] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦٣»:

١. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ﴾، المحاريب جمع محراب وهو مكان إقامة الصلاة والعبادة، والتماثيل جمع تمثال وهي الصورة المجسمة من الشيء والجفان جمع جفنة وهي صحفة الطعام، والجوابي جمع جابية الحوض الذي يجبى أي يجمع فيه الماء، والقدور جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام، والراسيات الثابتات والمراد بكون القدور راسيات كونها ثابتات في أمكنتها لا يزلن عنها لعظمها.

٢. ﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً﴾ خطاب لسليمان وسائر من معه من آل داود أن يعملوا ويعبدوا الله

شكرا له، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي الشاكر لله شكرا بعد شكر والجملة إما في مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكنين في هذا المقام قليلون وهم الأوحديون من الناس، وإما في مقام التعليل كأنه قيل: إنهم قليل فكثروا عدتهم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن داود بن الحصين وعن أبان بن عثمان عن الفضل أبي العباس قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ، مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ﴾ قال: ما هي تماثيل الرجال والنساء ولكنها تماثيل الشجر وشبهه.

ب. وفيه، عن بعض أصحابنا مرفوعا عن هشام بن الحكم قال: قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام ثم مدح الله القلة فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾

• أقول: وقد وقع هذا المعنى في عدة روايات وهو ينطبق على أحد المعنيين المتقدمين في ذيل الآية.

٨. موت سليمان ودلالة دابة الأرض عليه وجهل الجن بالغيب:

المقطع [٨] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦٣»:

١. ﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾:

أ. المراد بدابة الأرض الأرضة على ما وردت به الروايات والمنسأة العصا وقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ الخرور السقوط على الأرض.

ب. ويستفاد من السياق أنه عليه السلام لما قبض كان متكئا على عصاه فبقي على تلك الحال قائما متكئا على عصاه زمانا لا يعلم بموته إنس ولا جن فبعث الله عز وجل أرضة فأخذت في أكل منسأته حتى إذا أكلت انكسرت العصا وسقط سليمان على الأرض فعلموا عند ذلك بموته وتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم وما لبثوا هذا المقدار من الزمان، وهو من حين قبضه إلى خروره، في العذاب المهين المذل لهم.

٢. أحاديث وآثار: في العلل، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: أمر سليمان بن داود الجن

فصنعوا له قبة من قوارير، فبينا هو متكئ على عصاه في القبة، ينظر إلى الجن كيف ينظرون إليه إذ حانت منه التفاتة، فإذا رجل معه في القبة قال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أقبل الرشا ولا أهاب الملوك أنا ملك الموت، فقبضه وهو قائم متكئ على عصاه في القبة والجن ينظرون إليه، قال: فمكثوا سنة يدأبون له حتى بعث الله عز وجل الأرضة، فأكلت منسأته وهي العصا، فلما خر تبينت الجن، أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين الحديث.

• أقول: وبقاؤه عليه السلام على حال القيام متكئا على عصاه سنة وارد في عدة من روايات الشيعة وأهل السنة.

٩. إنعام الله على سبأ بالجنتين والبلدة الطيبة:

المقطع [٩] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦٤»:

١. ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ﴾، سبأ العرب العاربة باليمن سموا، كما قيل، باسم أبيهم سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقوله: ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ﴾ أي عن يمين مسكنهم وشماله.

٢. ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أمر بالأكل من جنتين وهو كناية عن رزقهم منهما، ثم بالشكر له على نعمته ورزقه، وقوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي بلدة ملائمة صالحة للمقام ورب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع: في الحديث عن فروة بن مسيك قال: سألت رسول الله ﷺ عن سبإ أرجل هو أم امرأة؟ فقال: هو رجل من العرب، ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تيامنوا، فالأزد وكندة ومذحج والأشعرون وأنمار وحمير فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم وبجيلة، وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من أرباب الجوامع والسنن عنه ﷺ، والمراد بالتيامن والتشاؤم السكونة باليمن والشام.

١٠. عقوبة إعراض أهل سبأ:

المقطع [١٠] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٦-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦٤»:

١. ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾:

أ. العرم المسناة التي تحبس الماء، وقيل: المطر الشديد وقيل غير ذلك، والأكل بضمتين كل ثمرة مأكولة، والخمط، على ما قيل، كل نبت أخذ طعما من المرارة، والأثل الطرفاء وقيل: شجر يشبهها أعظم منها لا ثمرة له، والسدر معروف، والأثل وشيء معطوفان على ﴿أُكُلٍ﴾ لا على خمط.

ب. والمعنى: فأعرضوا أي قوم سبإ عن الشكر الذي أمروا به فجازيناهم وأرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم وذهب بجنتيهم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي ثمرة مرة وذواتي طرفاء وشيء قليل من السدر.

٢. ﴿ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾:

أ. ﴿ذلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إرسال السيل وتبديل الجنتين ومحله النصب مفعولا ثانيا لجزيناهم والفرق بين الجزاء والمجازاة، كما قيل إن المجازاة لا تستعمل إلا في الشر والجزاء أعم.

ب. والمعنى: جزينا سبأ ذلك الجزاء بسبب كفرهم وإعراضهم عن الشكر، أو في مقابلة ذلك، ولا نجازي بالسوء إلا من كان كثير الكفران لأنعم الله.

١١. جحود سبأ لنعمة القرى المتقاربة والأمن:

المقطع [١١] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٨-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦٥»:

١. ﴿وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً﴾ ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لسبإ والكلام

مسوق لبيان تتمة قصتهم المطلوب ذكرها وهو عطف على قوله: ﴿كانَ لِسَبَإٍ﴾ والمراد بالقرى التي باركنا فيها القرى الشامية، والمراد بكون القرى ظاهرة كونها متقاربة يرى بعضها من بعض.

٢. ﴿وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلنا السير فيها على نسبة مقدرة متناسبة غير مختلفة فالنسبة بين واحدة منها وما يليها كالنسبة بين ما يليها وما يليه، وقوله: ﴿سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾ على تقدير القول أي وقلنا: سيروا في هذه القرى على أمن إن شئتم ليالي وإن شئتم أياما، والمراد قررنا فيها الأمن يسيرون فيها متى ما شاءوا من غير خوف وقلق.

٣. ﴿فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾:

أ. أي أنعمنا عليهم ما أنعمنا من وفور الفواكه وقرب المنازل وأمن الطرق وسهولة السير ورغد العيش فملوا ذلك وسئموه وقالوا: ﴿رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا﴾ أي اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعيدة نركب فيها الرواحل ونقطع المفاوز والبوادي وهذا بغي منهم وكفران كما طلبت بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى.

ب. وبالجملة أتم الله نعمه عليهم في السفر بقرب المنازل وأمن الطرق ووفور النعمة كما أتم نعمه عليهم في الحضر وأراد منهم الشكر على ذلك فكفروا بنعمه في السفر كما كفروا بها في الحضر، فأسرع الله في إسعاف ما اقترحوه فخرب بلادهم وفرق جمعهم وشتت شملهم.

ج. فقوله: ﴿فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا﴾ اقتراح ضمني لتخريب بلادهم، وقوله: ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بالمعاصي.

٤. ﴿فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي أزلنا أعيانهم وآثارهم فلم يبق منهم إلا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلا في وهم المتوهم وخيال المتخيل وفرقناهم كل تفرق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزءان مجتمعان إلا فرقنا بينهما فصاروا كسدى لا شبح له بعد ما كانوا مجتمعا ذا قوة وشوكة حتى ضرب بهم المثل (تفرقوا أيادي سبإ)

٥. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي في هذا الذي ذكر من قصتهم لآيات لكل من كثر صبره في جنب الله وكثر شكره لنعمه التي لا تحصى يستدل بتلك الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكرا لنعمه وأن وراءه يوما يبعث فيه ويجزى بعمله.

٦. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن سدير قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل، ﴿فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية، فقال: هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض، وأنهار جارية وأموال ظاهرة فكفروا نعم الله عز وجل، وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله، فغير الله ما بهم من نعمة، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فأرسل الله عليهم سيل العرم ففرق قراهم وخرب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جنانهم جنتين، ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ثم قال: ﴿ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾

• أقول: وورد في عدة من الروايات أن القرى التي بارك الله فيها هم أهل بيت النبي ﷺ والقرى الظاهرة هم الوسائط بينهم وبين الناس من حملة أحاديثهم وغيرهم، وهو من بطن القرآن وليس من التفسير في شيء.

١٢. تصديق إبليس ظنه واتباعه إلا فريقاً من المؤمنين:

المقطع [١٢] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠-٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦٦»:

١. ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. أي حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقا عليهم إذ قال لربه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ ولَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾، وقوله: ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان لتصديقه ظنه.

ب. ومنه يظهر أن ضمير الجمع في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ هاهنا وكذا في الآية التالية لعامة الناس لا لسبإ خاصة وإن كانت الآية منطبقة عليهم.

٢. ﴿وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ﴾:

أ. ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطرهم إلى اتباعه حتى يكونوا معذورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فيتسلط عليهم لا أنه يتسلط فيتبعونه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال حاكيا عن إبليس يوم القيامة: ﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا

أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

ب. ومنشأ اتباعهم له ريب وشك في قلوبهم من الآخرة يظهر منهم بظهور أثره الذي هو الاتباع لإبليس، فإذنه سبحانه لإبليس أن يتسلط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدار من التسلط ليمتاز به أهل الشك في الآخرة من أهل الإيمان به ولا يرفع ذلك مسئوليتهم في اتباعه لكونه عن اختيار منهم.

ج. فقوله: ﴿وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾ نفي لكل سلطان، وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي لنميز ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ﴾ استثناء لسلطانه عليهم من طريق اتباعهم له عن اختيار منهم، وقد وضع فيه الغاية موضع ذي الغاية أي التمييز المذكور موضع التسلط من طريق الاتباع الاختياري.

د. وتقييد الإيمان والشك بالآخرة في الآية لمكان أن الرادع الوحيد عن المعصية والداعي إلى الطاعة هو الإيمان بالآخرة دون الإيمان بالله ورسوله لولا الآخرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾ [ص: ٢٦] وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي عالم علما لا يفوته المعلوم بنسيان أو سهو أو غير ذلك وفيه تحذير عن الكفران والمعصية وإنذار لأهل الكفر والمعصية.

١٣. عجز الآلهة المزعومة عن وزن ذرة وعدم ملكهم شيئاً:

المقطع [١٣] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٦٩»:

١. ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ﴾، أمر النبي ﷺ أن يحتج على إبطال ألوهية آلهتهم بعدم قدرتهم على استجابة الدعاء، فقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي ادعوا الذين زعمتموهم آلهة من دون الله، فمفعولا ﴿زَعَمْتُمْ﴾ محذوفان لدلالة السياق عليهما، ودعاؤهم هو مسألتهم شيئا من الحوائج.

٢. ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ واقع موقع الجواب كأنه قيل: فما ذا يكون إذا دعوهم؟ فقيل: لا يستجيبون لهم بشيء لأنهم ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ ولو ملكوا لاستجابوا، ولا تتم الربوبية والألوهية إلا بأن يملك الرب والإله شيئا مما يحتاج إليه

الإنسان فيملكه له وينعم عليه به فيستحق بإزائه العبادة شكرا له فيعبد، أما إذا لم يملك شيئا فلا يكون ربا ولا إلها.

٣. ﴿وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ﴾:

أ. كان الملك المنفي في الجملة السابقة ﴿لا يَمْلِكُونَ﴾، الملك المطلق المنبسط على الجميع والمنفي في هذه الجملة الملك المحدود المتبعض الذي ينبسط على البعض دون الكل إما مشاعا أو مفروزا، لكن المشركين ما كانوا يقولون بالملك المشترك بينهم وبين الله سبحانه مشاعا بل كانوا يقولون بملك كل من آلهتهم لنوع من الخلقة أو بعض منها، وأما الله سبحانه فهو رب الأرباب وإله الآلهة.

ب. وعلى هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلقة وعدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيتهم وألوهيتهم.

٤. ﴿وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي ليس لله سبحانه منهم كلا أو بعضا من معين يعينه فيما يفرض فيه عجزه عن القيام بأمر تدبيره إذ لو كان له منهم ظهير يظهره على التدبير كان مالكا فيستجيب إذا دعي فيما هو ظهير بالنسبة إليه وإذ ليس فليس.

٥. فتبين مما تقدم أن احتجاج الآية على نفي الملك بانتفاء استجابتهم دعاء الداعي يجري في جميع الصور الثلاث وهي ملكهم لما في السماوات وما في الأرض مطلقا وملكهم على وجه الشركة مع الله سبحانه وكونهم أو بعضهم ظهيرا لله سبحانه.

١٤. لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن وكان محقا:

المقطع [١٤] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٧٠»:

١. ﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾:

أ. المشركون كانوا يقولون بشفاعة آلهتهم كما حكاه الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس: ١٨]، وليس مرادهم بالشفاعة شفاعة يوم القيامة التي يثبتها القرآن الكريم فإنهم ما كانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعة في الدنيا لعبادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم وإصلاح شئونهم

بتوسط آلهتهم.

ب. وإذ كانت الآلهة مخلوقين لله مملوكين له من كل وجه فلا يملكون الشفاعة من عند أنفسهم مستقلين بها إلا أن يملكهم الله سبحانه ذلك وهو الإذن لهم في أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفعوا بإذن الله سبحانه.

٢. ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾:

أ. يحتمل أن يكون اللام في ﴿لِمَنْ﴾ لام الملك والمراد بمن أذن له الشافع من الملائكة، والمعنى: لا تنفع الشفاعة إلا أن يملكه الشافع بالإذن من الله وأن يكون لام التعليل والمراد بمن أذن له المشفوع له، والمعنى: لا تنفع الشفاعة إلا لأجل من أذن له من المشفوع لهم، قال في الكشاف: (وهذا يعني الوجه الثاني وجه لطيف وهو الوجه)

ب. وهو الوجه فإن الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهي وإجرائه، قال تعالى: ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وقال: ﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١] والوساطة المذكورة من الشفاعة كما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب.

ج. فالملائكة جميعا شفعاء لكن لا في كل أمر ولكل أحد بل في أمر أذن الله فيه ولمن أذن له فنفي شفاعتهم إلا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء، فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ [الأنبياء: ٢٨] لا في معنى قوله: ﴿ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]

٣. ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾:

أ. التفزيع إزالة الفزع وكشفه وضمائر الجمع، على ما يعطيه السياق، للشفعاء وهم الملائكة.

ب. ولازم قوله: ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ وهو غاية، أن يكون هناك أمر مغيى بها وهو كون قلوبهم في فزع ممتد في انتظار أمر الله سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه، فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] فالفزع هو التأثر والانقباض من الخوف وهو المراد بسجدتهم تذللا من خوف ربهم من فوقهم.

ج. وبذلك يظهر أن المراد بفزعهم حتى يفزع عنهم أن التذلل غشي قلوبهم وهو تذللهم من حيث إنهم أسباب وشفعاء في نفوذ الأوامر الإلهية ووقوعه على ما صدر وكما أريد، وكشف هذا التذلل هو تلقيهم الأمر الإلهي واشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لا يظهر من وجودهم إلا فعلهم وطاعتهم لله فيما أمرهم به وأنه لا واسطة بين الله سبحانه وبين الفعل إلا أمره فافهم ذلك.

د. وإنما نسب الفزع والتفزيع إلى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم وعن كل شيء إلا ربهم وهم على هذه الحالة لا يشعرون بشيء غيره حتى إذا كشف الفزع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهي بلا مهل ولا تخلف فليس الأمر بحيث يعطل أو يتأخر عن الوقوع، قال تعالى: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فالمستفاد من الآية نظرا إلى هذا المعنى أنهم في فزع حتى إذا أزيل فزعهم بصدور الأمر الإلهي.

٤. ﴿قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَ﴾:

أ. يدل على أنهم طوائف كثيرون يسأل بعضهم بعضا عن الأمر الإلهي بعد صدوره وانكشاف الفزع عن قلوب السائلين.

ب. ويتبين منه أن كشف الفزع ونزول الأمر إلى بعضهم أسبق منه إلى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسئول عالما بما سئل عنه قبل السائل.

ج. فلهم مراتب مختلفة ومقامات متفاوتة بعضها فوق بعض تتلقى الدانية منها الأمر الإلهي من العالية من غير تخلف ولا مهلة وهو طاعة الداني منهم للعالي، كما يستفاد ذلك أيضا بالتدبر في قوله تعالى: ﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وقوله في وصف الروح الأمين: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]

د. فبينهم مطاع ومطيع ولا طاعة مع ذلك إلا لله سبحانه لأن المطاع منهم لا شأن له إلا إيصال ما وصل إليه من الأمر الإلهي إلى مطيعه الذي دونه، ويمكن أن يستفاد ذلك من توصيف القول بالحق في قوله: ﴿قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَ﴾ أي قال القول الثابت الذي لا سبيل للبطلان والتبدل إليه.

٥. وما ألطف ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي هو العلي الذي دونه كل شيء والكبير الذي يصغر عنده كل شيء فليس للملائكة المكرمين إلا تلقي قوله الحق وامتثاله وطاعته كما يريد.

٦. فقد تحصل من الآية الكريمة:

أ. أن الملائكة فزعون في أنفسهم متذللون في ذواتهم ذاهلون عن كل شيء إلا عن ربهم محدقون إلى ساحة العظمة والكبرياء في انتظار صدور الأمر حتى يكشف عن قلوبهم الفزع، بصدور الأمر ونزوله وهم مع ذلك طوائف مختلفة ذووا مقامات متفاوتة علوا ودنوا يتوسط كل عال في إيصال الأمر النازل إلى من هو دونه.

ب. فهم مع كونهم شفعاء وأسبابا متوسطة لا يشفعون ولا يتوسطون في حدوث حادث من حوادث الخلق والتدبير إلا بإذن خاص من ربهم في حدوثه فيتحملون الأمر النازل إليهم حتى يحققوه في الكون من غير أن يستقلوا من أنفسهم في شيء أو يستبدوا برأي، ومن كان هذا شأنه لا يشعر بشيء إلا طاعة ربه فيما يأمره به كيف يكون ربا مستقلا في أمره مفوضا إليه التدبير يعطي ما يشاء ويمنع ما يشاء؟

٧. وفي الآية أقوال مختلفة أخر:

أ. منها: أن ضمير ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ و﴿قالُوا﴾ الثاني للمشركين دون الملائكة وضمير ﴿قالُوا﴾ الأول للملائكة والمعنى: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين وقت الفزع قالت الملائكة لهم: ما ذا قال ربكم؟ قالت المشركون لهم: الحق فيعترفون بما أنكروه في الدنيا.

ب. ومنها: أن ضمير ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ للملائكة والمراد أن الملائكة الموكلين بالأعمال إذا صعدوا بأعمال العباد إلى السماء ولهم زجل وصوت عظيم خشيت الملائكة أنها الساعة فيفزعون ويخرون سجدا لله سبحانه حتى إذا كشف عن قلوبهم الفزع وعلموا أنه ليس الأمر كذلك فسألوا ما ذا قال ربكم؟ قالوا: الحق.

ج. ومنها: أن الله لما بعث النبي ﷺ بعد فترة بينه وبين عيسى عليه السلام لم ينزل فيها شيء من الوحي أنزل الله سبحانه جبريل بالوحي فلما نزل ظنت الملائكة أنه نزل بشيء من أمر الساعة فصعقوا لذلك فجعل جبريل يمر بكل سماء ويكشف الفزع عن الملائكة الساكنين فيها فرفعوا رءوسهم وقال بعضهم لبعض: ما ذا قال ربكم؟ قالوا: الحق أي الوحي.

د. ومنها: أن الضمير للملائكة والمراد أن الله سبحانه إذا أوحى إلى بعض الملائكة غشي على الملائكة عند سماع الوحي ويصعقون ويخرون سجدا للآية العظيمة فإذا فزع عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الذي أوحي إليه ما ذا قال ربك؟ أو سأل بعضهم بعضا ما ذا قال ربكم؟ فيعلمون أن الأمر في

غيرهم.

هـ. وأنت بعد التدبر في الآية الكريمة والتأمل فيما قدمناه تعلم وجه الضعف في هذه الأقوال وأن شيئا منها على تقدير صحته في نفسه لا يصلح تفسيرا لها.

٨. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وذلك أن أهل السماوات لم يسمعوا وحيا، فيما بين أن بعث عيسى بن مريم إلى أن بعث محمد ﷺ، فلما بعث الله جبرئيل إلى محمد، سمع أهل السماوات صوت وحي القرآن، كوقع الحديد على الصفا فصعق أهل السماوات، فلما فرغ عن الوحي انحدر جبرئيل، كلما مر بأهل سماء فزع عن قلوبهم يقول: كشف عن قلوبهم، فقال بعض لبعض: ما ذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير.

• أقول: وروي مثله من طرق أهل السنة موصولا وموقوفا عن النبي ﷺ ومدلول الرواية على أي حال مصداق من مصاديق الآية ولا تصلح لتفسيرها البتة.

١٥. الرزق والهدى والضلال والفتح:

المقطع [١٥] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٧٤»:

١. ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾:

أ. احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الذي هو الملاك العمدة في اتخاذهم الآلهة فإنهم يتعللون في عبادتهم الآلهة بأنها ترضيهم فيوسعون لهم في رزقهم فيسعدون بذلك.

ب. فأمر النبي ﷺ أن يسألهم من يرزقهم من السماوات والأرض؟ والجواب عنه أنه الله سبحانه لأن الرزق خلق في نفسه ولا خالق، حتى عند المشركين، إلا الله عز اسمه لكنهم يستنكفون عن الاعتراف به بألسنتهم وإن أذعنت به قلوبهم ولذلك أمر أن ينوبهم في الجواب فقال: ﴿قُلِ اللهُ﴾

٢. ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾:

أ. تتمة قول النبي ﷺ وهذا القول بعد إلقاء الحجة القاطعة ووضوح الحق في مسألة الألوهية مبني على سلوك طريق الإنصاف، ومفاده أن كل قول إما هدى أو ضلال لا ثالث لهما نفيا وإثباتا ونحن وأنتم على قولين مختلفين لا يجتمعان فإما أن نكون نحن على هدى وأنتم في ضلال وإما أن تكونوا أنتم على هدى ونحن في ضلال فانظروا بعين الإنصاف إلى ما ألقي إليكم من الحجة وميزوا المهدي من الضال والمحق من المبطل.

ب. واختلاف التعبير في قوليه: ﴿لَعَلى هُدىً﴾ و﴿فِي ضَلالٍ﴾ بلفظة على وفي، كما قيل، للإشارة إلى أن المهتدي كأنه مستعل على منار يتطلع على السبيل وغايتها التي فيها سعادته، والضال منغمر في ظلمة لا يدري أين يضع قدمه وإلى أين يسير وما ذا يراد به؟

٣. ﴿قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

أ. أي إن العمل وخاصة عمل الشر لا يتعدى عن عامله ولا يلحق وباله إلا به فلا يسأل عنه غيره فلا تسألون عما أجرمنا بل نحن المسئولون عنه ولا نسأل عما تعملون بل أنتم المسئولون.

ب. وهذا تمهيد لما في الآية التالية من حديث الجمع والفتح فإن الطائفتين إذا اختلفا في الأعمال خيرا وشرا كان من الواجب أن يفتح بينهما ويتميز كل من الأخرى حتى يلحق به جزاء عمله من خير أو شر أو سعادة أو شقاء والذي يفتح ويميز هو الرب تعالى.

ج. وفي التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام وفي ناحية المشركين بقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب في المناظرة.

٤. ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. لما كان من الواجب أن يلحق بكل من المحسن والمسيء جزاء عمله وكان لازمه التمييز بينهما بالجمع ثم الفرق كان ذلك شأن مدبر الأمر وهو الرب أمر نبيه ﷺ أن يذكرهم أن الذي يجمع بين الجميع ثم يفتح بينهم بالحق هو الله، فهو رب هؤلاء وأولئك فإنه هو الفتاح العليم يفتح بين كل شيئين بالخلق والتدبير فيتميز بذلك الشيء من الشيء كما قال: ﴿أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهو العليم بكل شيء.

ب. فالآية تثبت البعث لتمييز المحسن من المسيء أولا ثم انحصار التمييز والجزاء في جانبه تعالى

بانحصار الربوبية فيه ويبطل بذلك ربوبية من اتخذوه من الأرباب.

ج. والفتاح من أسماء الله الحسنى والفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائدة تترتب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه والفتح بين الشيئين ليتميز كل منهما عن الآخر بذاته وصفاته وأفعاله.

١٦. الشركاء والتنزيه والعزة والحكمة:

المقطع [١٦] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٧٥»:

١. ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. أمر آخر للنبي ﷺ أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضرورية للإله المستحق للعبادة من الاستقلال بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر؟ وهذا معنى قوله: ﴿أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي ألحقتموهم به شركاء له.

ب. ثم ردع بنفسه وقال: كلا لا يكونون شركاء له لأنهم إما أن يروه الأصنام بما أنها معبودة لهم معدودة آلهتهم وهي أجسام ميتة خالية عن الحياة والعلم والقدرة وإما أن يروه أرباب هذه الأصنام وهم الملائكة وغيرهم بجعل الأصنام تماثيل مشيرة إليهم وهم وإن لم يخلوا عن حياة وعلم وقدرة إلا أن ما لهم من صفات الكمال مفاضة عليهم من الله سبحانه لا استقلال لهم في شيء من هذه الصفات ولا في الأفعال المتفرعة عليها فأين الاستقلال في التدبير الذي يدعون أنه مفوض إليهم فالوجود الواجبي بكماله اللامتناهي يمنع أن يكون في خلقه من يشاركه في شيء من كماله، اللهم إلا أن يدعوا أنه شاركهم في بعض ما له من الشئون لتدبير خلقه من غير صلاحية لهم ذاتية وهذا ينافي حكمته تعالى.

ج. وقد أشير إلى هذه الحجة بقوله: ﴿بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فإن عزته تعالى، وهو منع جانبه أن يعدو إلى حريم كماله عاد لكونه لا يحد بحد، تمنع أن يشاركه في شيء من صفات كماله كالربوبية والألوهية المنتهيتين إلى الذات أحد غيره هذا لو كانت الشركة عن صلاحية ذاتية من الشريك ولو كانت عن إرادة جزافية منه من غير صلاحية حقيقة من الشريك فالحكمة الإلهية تمنع ذلك.

د. وقد تبين بذلك أن الآية متضمنة لحجة قاطعة برهانية فأحسن التدبر فيها.

١٧. إرسال الرسول كافة للناس بشيراً ونذيراً:

المقطع [١٧] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٧٦»:

١. ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الكف كف الإنسان وهي ما بها يقبض ويبسط وكففته أصبت كفه، وكففته أصبته بالكف ودفعته بها وتعورف الكف بالدفع على أي وجه كان بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره، وقوله: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ أي كافا لهم عن المعاصي والهاء فيه للمبالغة كقولهم: راوية وعلامة ونسابة)

ب. ويؤيد هذا المعنى توصيفه ﷺ بالبشير والنذير، فقوله: ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ حالان يبينان صفته لقوله: ﴿كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾

ج. وربما قيل: إن التقدير وما أرسلناك إلا إرساله كافة للناس ولا يخلو من تكلف وبعد، و أما كون كافة بمعنى جميعا وحالا من الناس، والمعنى: وما أرسلناك إلا للناس جميعا فهم يمنعون عن تقدم الحال على صاحبه المجرور.

٢. واعلم أن منطوق الآية وإن كان راجعا إلى النبوة وفيها انتقال من الكلام في التوحيد إلى الكلام في النبوة على حد الآيات التالية، لكن في مدلولها حجة أخرى على التوحيد وذلك أن الرسالة من لوازم الربوبية التي شأنها تدبير الناس في طريق سعادتهم ومسيرهم إلى غايات وجودهم فعموم رسالته ﷺ وهو رسول الله تعالى لا رسول غيره دليل على أن الربوبية منحصرة في الله سبحانه فلو كان هناك رب غيره لجاءهم رسوله ولم يعم رسالة النبي ﷺ أو عمتهم واحتاجوا معه إلى غيره، وهذا معنى قول علي عليه السلام، على ما روي، لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ويؤيده ما في ذيل الآية من قوله: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فإن دالة انحصار الرسالة في رسل الله على انحصار الربوبية في الله عز اسمه أمس بجهل الناس من كونه ﷺ رسولا كافا لهم عن المعاصي بشيرا ونذيرا.

٣. فمفاد الآية على هذا: لا يمكنهم أن يروك شريكا له والحال أنا لم نرسلك إلا كافا لجميع الناس بشيرا ونذيرا ولو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك إليهم وهم عباد لإله آخر والله أعلم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. عن ابن مردويه عن ابن عباس وفي المجمع عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي، بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، وإنما كان النبي يبعث إلى قومه، ونصرت بالرعب يرعب مني عدوي على مسيرة شهر، وأطعمت المغنم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأعطيت الشفاعة فادخرتها لأمتي إلى يوم القيامة، وهي إن شاء الله نائلة من لا يشرك بالله شيئا.

• أقول: وروي أيضا هذا المعنى عن ابن المنذر عن أبي هريرة عنه ﷺ.

• والرواية معارضة لما ورد مستفيضا أن نوحا كان مبعوثا إلى الناس كافة وذكر في بعضها إبراهيم عليه السلام وفي بعضها أن أولي العزم كلهم مبعوثون إلى الدنيا كافة، وتخالف أيضا عموم الشفاعة للأنبياء المستفاد من عدة من الروايات وقد قال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] وقد شهد القرآن بأن المسيح عليه السلام من الشهداء قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [النساء: ١٥٩]

ب. والروايات من طرق العامة والخاصة كثيرة في عموم رسالته للناس كافة وظاهر كثير منها أخذ ﴿كَافَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ حالا من ﴿لِلنَّاسِ﴾ قدم عليه ويمنعه البصريون من النحاة ويجوزه الكوفيون.

١٨. استعجال الوعد وعدم تأخره ساعة ولا تقدُّمه:

المقطع [١٨] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٢٩ـ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٧٧»:

١. ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ سؤال عن وقت الجمع والفتح وهو البعث فالآية متصلة بقوله السابق: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا﴾ الآية، وهذا أيضا من شواهد ما قدمنا من المعنى لقوله: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ وإلا كانت هذه الآية والتي بعدها متخللتين بين قوله: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ﴾ الآية، والآيات التالية المتعرضة لمسألة النبوة.

٢. ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾:

أ. أمر منه تعالى أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضي محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعا

ولا يختلف وقت وقوعه البتة أي إن الله وعد به وعدا لا يخلفه إلا أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلا الله سبحانه.

ب. وما قيل: إن المراد به يوم الموت غير سديد فإنهم لم يسألوا إلا عما تقدم وعده وهو يوم الجمع والفتح والجمع ثم الفتح من خصائص يوم القيامة دون يوم الموت.

١٩. حوار الضعفاء والمستكبرين وتبرؤهم من بعضهم يوم القيامة:

المقطع [١٩] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨١»:

١. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

أ. المراد بالذين كفروا المشركون والمراد بالذي بين يديه الكتب السماوية من التوراة والإنجيل وذلك أن المشركين وهم الوثنيون ليسوا قائلين بالنبوة ويتبعها الكتاب السماوي.

ب. وقول بعضهم: إن المراد بالذي بين يديه هو أمر الآخرة مما لا دليل يساعده، وقد أكثر القرآن الكريم من التعبير عن التوراة والإنجيل بالذي بين يديه، ومن الخطإ قول بعضهم: إن المراد بالذين كفروا هم اليهود.

٢. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾:

أ. الظاهر أن اللام في ﴿الظَّالِمُونَ﴾ للعهد، وهذه الآية والآيتان بعدها تشير إلى أن وبال هذا الكفر، وأساسه ضلال أئمة الكفر وإضلالهم تابعيهم، سيلحق بهم وسيندمون عليه ولن ينفعهم الندم.

ب. فقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ خطاب للنبي ﷺ إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ وهم الكافرون بكتب الله ورسله، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ﴿مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ للحساب والجزاء يوم القيامة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي يتحاورون ويتراجعون في الكلام متخاصمين ﴿يَقُولُ الَّذِينَ

اسْتُضْعِفُوا﴾ بيان لرجوع بعضهم إلى بعض في القول والمستضعفون الأتباع الذين استضعفتهم المتبوعون ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم الأئمة القادة ﴿لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ يريدون أنكم أجبرتمونا على الكفر وحلتم بيننا وبين الإيمان.

٣. ﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ جوابا عن قولهم وردا لما اتهموهم به من الإجبار والإكراه ﴿أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار أي أنحن صرفناكم ﴿عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ﴾ فبلوغه إليكم بالدعوة النبوية أقوى الدليل على أنا لم نحل بينه وبينكم وكنتم مختارين في الإيمان به والكفر ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ متلبسين بالإجرام مستمرين عليه فأجرمتم بالكفر به لما جاءكم من غير أن نجبركم عليه فكفركم منكم ونحن برآء منه.

٤. ﴿وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ ردا لقولهم ودعواهم البراءة ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أي مكركم بالليل والنهار حملنا على الكفر ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً﴾ وأمثالا من الآلهة أي أنكم لم تزالوا في الدنيا تمكرون الليل والنهار وتخطون الخطط لتستضعفونا وتتآمروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون، فلم نشعر إلا ونحن مضطرون على الائتمار بأمركم إذ تأمروننا بالكفر والشرك.

٥. ﴿وَأَسَرُّوا﴾ وأخفوا ﴿النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ﴾ وشاهدوا أن لا مناص، وإخفاؤهم الندامة يوم القيامة، وهو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء، نظير كذبهم على الله وإنكارهم الشرك بالله وحلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور ملكاتهم الرذيلة التي رسخت في نفوسهم فقد كانوا يسرون الندامة في الدنيا خوفا من شماتة الأعداء وكذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسروا واليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنهم كاذبون في قولهم.

٦. ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ﴾ السلاسل ﴿فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فصارت أعمالهم أغلالا في أعناقهم تحبسهم في العذاب.

٧. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ﴾ قال: يسرون الندامة في النار إذا رأوا ولي الله، فقيل: يا ابن رسول الله، وما يغنيهم أسرارهم الندامة وهم في العذاب؟ قال: يكرهون شماتة الأعداء.

• أقول: ورواه أيضا عن أبي عبد الله عليه السلام.

٢٠. المترفون يكذبون الرسل ويكفرون بما أرسلوا به:

المقطع [٢٠] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٣»:

١. المترفون اسم مفعول من الإتراف وهو الزيادة في التنعيم، وفيه إشعار بأن الإتراف يفضي إلى الاستكبار على الحق كما تفيده الآية اللاحقة.

٢١. الافتخار بالأموال والأولاد وعدم التقرب بها دون الإيمان:

المقطع [٢١] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٥-٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٣»:

١. ﴿وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾:

أ. ضمير الجمع للمترفين، ومن شأن الإتراف والترفه والتقلب في نعم الدنيا أن يتعلق قلب الإنسان بها ويستعظمها فيرى السعادة فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلا ظاهر الحياة وينسى ما وراءه.

ب. ولذا حكى سبحانه عنهم ذلك إذ قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً﴾ فلا سعادة إلا فيها ولا شقوة معها ﴿وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في آخرة، ولم ينفوا العذاب إلا للغفلة والانصراف عما وراء كثرة الأموال والأولاد فإذ كانت هي السعادة والفلاح فحسب فالعذاب في فقدها ولا عذاب معها.

ج. وهاهنا وجه آخر وهو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال والولد ظنوا أن لهم كرامة على الله سبحانه وهم على كرامتهم عليهم ما داموا، والمعنى: أنا ذوو كرامة على الله بما أوتينا من كثرة الأموال والأولاد ونحن على كرامتنا فما نحن بمعذبين لو كان هناك عذاب.

د. فتكون الآية في معنى قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ

السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ [فصلت: ٥٠] قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ الآية وما يتلوها إلى تمام أربع آيات جواب عن قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً﴾، وقد أجيب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال والأولاد سعة وضيقا بيد الله على ما تستدعيه الحكمة والمصلحة وهيأ من الأسباب لا بمشية الإنسان ولا لكرامة له على الله فربما بسط في رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذي حزم أو أحمق خفيف العقل، وربما بسط على واحد ثم قدر له، فلا دلالة في الإتراف على سعادة أو كرامة.

هـ. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي﴾ نسبه إلى نفسه لأنهم لم يكونوا يرون الله ربا لأنفسهم والرزق من شئون الربوبية ﴿يَبْسُطُ﴾ أي يوسع ﴿الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ من عباده بحسب الحكمة والمصلحة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فينسبونه ما لم يؤتوه إلى الأسباب الظاهرية الاتفاقية ثم إذا أوتوه نسبوه إلى حزمهم وحسن تدبيرهم أنفسهم وكفى به دليلا على الحمق.

٢. ﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. هذا هو الجواب الثاني عن قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ومحصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من الله لا يترتب على الأموال والأولاد إذ لا توجب الأموال والأولاد قربا وزلفى من الله حتى ينتفي معها العذاب الإلهي فوضع تقريب المال في الآية موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع المسبب.

ب. وهذا معنى قوله: ﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ﴾ التي تعتمدون عليها في السعادة وانتفاء عذاب الله ﴿بِالَّتِي﴾ أي بالجماعة التي ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى﴾ أي تقريبا.

٣. ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ في ماله وولده بأن أنفق من أمواله في سبيل الله وبث الإيمان والعمل الصالح في أولاده بتربية دينية ﴿فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ﴾ لعله من إضافة الموصوف إلى الصفة أي الجزاء المضاعف من جهة أنهم اهتدوا وهدوا وأيضا من جهة تضعيف الحسنات إلى عشر أضعافها وزيادة ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ﴾ أي في القباب العالية ﴿آمِنُونَ﴾ من العذاب فما هم بمعذبين.

٤. ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ﴾ أي يجدون في آياتنا وهم يريدون أن يعجزونا، أو أن يسبقونا ﴿أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ وإن كثرت أموالهم وأولادهم.

٥. وفي قوله: ﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ﴾، انتقال إلى خطاب عامة الناس من الكفار وغيرهم والوجه فيه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال والأولاد سواء في ذلك المؤمن والكافر فالمال والولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان وعمل صالح فيهما وإلا فلا يزيدان إلا وبالا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي وذكر رجل عند أبي عبد الله عليه السلام الأغنياء ووقع فيهم، فقال أبو عبد الله عليه السلام: اسكت، فإن الغني إذا كان وصولا لرحمه بارا بإخوانه، أضعف الله له الأجر ضعفين لأن الله يقول: ﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً، فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا، وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾

ب. وفي أمالي الشيخ، بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يقول فيه: حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم، ثم أعطاهم بكل واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله عز وجل: ﴿جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً﴾ وقال: ﴿فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا، وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾

٢٢. بسط الرزق وقبضه والإنفاق والخلف:

المقطع [٢٢] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٥»:

١. ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (يقال: أخلف الله له وعليه إذا أبدل له ما ذهب عنه)

ب. سياق الآية يدل على أن المراد بالإنفاق فيها الإنفاق في وجوه البر والمراد بيان أن هذا النحو من الإنفاق لا يضيع عند الله بل يخلفه ويرزق بدله.

ج. فقوله في صدر الآية: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ للإشارة إلى أن أمر الرزق في سعته وضيقه إلى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق ولا يزيد بالإمساك ثم قال: ﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قليلا كان أو كثيرا وأيا ما كان من المال ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ويرزقكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإنه يرزق جودا ورزق غيره معاملة في الحقيقة ومعاوضة، ولأنه الرازق في الحقيقة وغيره ممن يسمى رازقا واسطة لوصول الرزق.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من صدق بالخلف جاد بالعطية.

ب. وفيه، بإسناده عن سماعة عن أبي الحسن عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة.

ج. أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن لكل يوم نحسا فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة، ثم قال: اقرءوا مواضع الخلف فإني سمعت الله يقول: ﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ إذا لم ينفقوا كيف يخلف؟

٢٣. حشر المشركين وسؤال الملائكة وتبرؤهم منهم وعذابهم:

المقطع [٢٣] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ـ٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٥»:

١. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾ المراد بهم جميعا بشهادة السياق العابدون والمعبودون جميعا.

٢. ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾:

أ. ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم ولو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنهم عبدوهم في الدنيا وقد أنكروها كما في الآية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى بن مريم: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾

ب. والغرض من السؤال تبكيت المشركين وإقناطهم من نصرة الملائكة وشفاعتهم لهم وقد عبدوهم في الدنيا لذلك.

٣. ﴿قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾:

أ. أخذت الملائكة في جوابهم عن سؤاله تعالى بجوامع الأدب فنزهوه سبحانه أولا تنزيها مطلقا فيه تنزيهه من أن يعبدوا من دونه ثم نفوا رضاهم بعبادة المشركين لهم لكن لا بالتصريح بنفي الرضا بالعبادة ولا بالتفوه بعبادتهم صونا لساحة المخاطبة عما يقرع السمع بذلك، ولو تصورا لا تصديقا بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى ونفيها عنهم ليدل على نفي الرضا بعبادتهم لهم على طريق الكناية فإن الرضا بعبادتهم لازمه الموالاة بينهم، والموالاة بينهم تنافي قصر الولاية في الله سبحانه فإذا انحصرت الولاية فيه تعالى لم تكن موالاة وإذا لم تكن موالاة لم يكن رضا.

ب. ثم قالوا على ما حكاه الله سبحانه: ﴿بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ والجن هم الطائفة الثانية من الطوائف الثلاث التي يعبدهم الوثنيون وهم الملائكة والجن والقديسون من البشر، والأقدم في استحقاق العبادة عندهم هم الطائفتان الأوليان والطائفة الثالثة ملحقة بهما بعد الكمال وإن كانوا أفضل منهما.

ج. والإضراب في قولهم: ﴿بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يدل على أن الجن كانوا على رضى من عبادتهم لهم.

د. وهؤلاء من الجن هم الذين يعدهم الوثنيون مبادئ الشرور في العالم فيعبدونهم اتقاء من شرورهم كما يعبدون الملائكة طمعا في خيراتهم لما أنهم مباد للخيرات لا كما قيل: إن المراد بالجن إبليس وذريته وقبيله ومعنى عبادتهم لهم طاعتهم فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة أو مطلق المعاصي، ويرده ما وقع في الآية من التعبير بلفظ الإيمان دون الطاعة ولا ما قيل: إنهم كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم ولا ما قيل: إنهم كانوا يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها.

هـ. ولعل الوجه في نسبة الإيمان بهم إلى أكثرهم دون جميعهم أن أكثرهم يعبدون الآلهة اتقاء من طروق الشر من قبلهم، ومبادئ الشر عندهم مطلقا الجن لا كما قيل: إن المراد بالأكثر الكل، وهو مبني على تفسير العبادة بمعنى الطاعة وقد عرفت ما فيه.

٤. ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ نوع تفريع على تبري الملائكة منهم وقد بين تبري عامة المتبوعين من تابعيهم والتابعين

من متبوعيهم في مواضع كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ [العنكبوت: ٢٥]، ومعنى الآية ظاهر.

٢٤. تكذيب الكفار للقرآن:

المقطع [٢٤] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٧»:

١. ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ﴾، خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد في التمسك بدين آبائهم وتحريض لهم عليه ﷺ، وفي توصيف الآيات بالبينات نوع عتبى كأنه قيل: إذا تتلى عليهم هذه الآيات وهي بينة لا ريب فيها فبدلا من أن يدعوا عامتهم إلى اتباعها حثوهم على الإصرار على تقليد آبائهم وحرضوهم عليه، وفي إضافة الآباء إلى ضمير ﴿يَصُدَّكُمْ﴾ مبالغة في التحريض والإثارة.

٢. ﴿وَقالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً﴾ معطوف على ﴿قالُوا﴾ أي وقالوا مشيرا إلى الآيات البينات إشارة تحقير ليس هذا إلا كلاما مصروفا عن وجهه مكذوبا به على الله، بدلا من أن يقولوا: إنها آيات بينات نازلة من عند الله تعالى، وقد أشاروا إلى الآيات البينات بهذا دلالة على أنهم لم يفهموا منها إلا أنها شيء ما لا أزيد من ذلك.

٣. ثم غير سبحانه السياق وقال: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ومجيء الحق لهم بلوغه وظهوره لهم، والأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل والمعنى: والذين كفروا بعثهم الكفر إلى أن يقولوا للحق الصريح الذي بلغهم وظهر لهم هذا سحر ظاهر سحريته وبطلانه.

٢٥. الكتب والنذير والتكذيب والنكير:

المقطع [٢٥] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٤-٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٧»:

١. أكد الله تعالى إصرارهم على دحض الحق باتباع الهوى من غير دليل يدل عليه بقوله: ﴿وَما

آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ والجملة حالية أي وعد الذين كفروا، أي كفار قريش، الحق الصريح الظاهر لهم سحرا مبينا والحال أنا لم نعطهم كتبا يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل ولم نرسل إليهم قبلك من رسول ينذرهم ويبين لهم ذلك فيقولوا استنادا إلى الكتاب الإلهي أو إلى قول الرسول النذير: إنه حق أو باطل.

٢. ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾:

أ. ضميرا الجمع الأول والثاني لكفار قريش ومن يتلوهم والثالث والرابع للذين من قبلهم، والمعشار العشر والنكير الإنكار، والمراد به في الآية لازمه وهو الأخذ بالعذاب.

ب. والمعنى: وكذب بالحق من الآيات الذين كانوا من قبل كفار قريش من الأمم الماضية ولم يبلغ كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوة والشدة فكذب أولئك الأقوام رسلي فكيف كان أخذي بالعذاب وما أهون أمر قريش، والالتفات في الآية إلى التكلم لاستعظام الجرم وتهويل المؤاخذة.

٢٦. الموعظة بالقيام لله مثنى وفرادى ثم التفكر:

المقطع [٢٦] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٨»:

١. ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾:

أ. المراد بالموعظة الوصية كناية أو تضمينا، وقوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي تنهضوا لأجل الله ولوجهه الكريم، وقوله: ﴿مَثْنى وَفُرادى﴾ أي اثنين اثنين وواحدا واحدا كناية عن التفرق وتجنب التجمع والغوغاء فإن الغوغاء لا شعور لها ولا فكر وكثيرا ما تميت الحق وتحيي الباطل.

ب. ﴿ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ استئناف ﴿إِنَّما﴾ نافية ويشهد بذلك قوله بعد: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ ويمكن أن يكون ﴿إِنَّما﴾ استفهامية أو موصولة و﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ بيانا له.

ج. والمراد بصاحبكم النبي ﷺ نفسه والوجه في التعبير به تذكرتهم بصحبته الممتدة لهم أربعين سنة من حين ولادته إلى حين بعثته ليتذكروا أنهم لم يعهدوا منه اختلالا في فكر أو خفة في رأي أو أي شيء يوهم أن به جنونا.

د. والمعنى: قل لهم: إنما أوصيكم بالعظة أن تنهضوا وتنتصبوا لوجه الله متفرقين حتى يصفو فكركم ويستقيم رأيكم اثنين اثنين وواحدا واحدا وتتفكروا في أمري فقد صاحبتكم طول عمري على سداد من الرأي وصدق وأمانة ليس في من جنة، ما أنا إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد في يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن.

٢٧. تعفف النبي عن طلب الأجر:

المقطع [٢٧] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٩»:

١. ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوة فإنه إذا وهبهم كما سألهم من أجر فليس له عليهم أجر مسئول ولازمه أن لا يسألهم وهذا تطييب لنفوسهم أن لا يتهموه بأنه جعل الدعوة ذريعة إلى نيل مال أو جاه.

٢. ثم تمم القول بقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لئلا يرد عليه قوله بأنه دعوى غير مسموعة فإن الإنسان لا يروم عملا بغير غاية فدفعه بأن لعملي أجرا لكنه على الله لا عليكم وهو يشهد عملي وهو على كل شيء شهيد.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ سأل قومه أن يودوا أقاربه ولا يؤذوهم، وأما قوله: ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ يقول: ثوابه لكم.

٢٨. الحق والغيوب والباطل:

المقطع [٢٨] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٩»:

١. ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾:

أ. القذف الرمي، وقوله: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ خبر بعد خبر أو خبر لمبتدء محذوف وهو الضمير الراجع إليه تعالى.

ب. ومقتضى سياق الآيات السابقة أن المراد بالحق المقذوف القرآن النازل إليه بالوحي من عنده

تعالى الذي هو قول فصل يحق الحق ويبطل الباطل فهو الحق المقذوف إليه ﷺ من عند علام الغيوب فيدمغ الباطل ويزهقه، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقال: ﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١]

٢. ﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾ المراد بمجيء الحق على ما تهدي إليه الآية السابقة نزول القرآن المبطل بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة لكل باطل من أصله.

٣. ﴿وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾ أي ما يظهر أمرا ابتدائيا جديدا بعد مجيء الحق وما يعيد أمرا كان قد أظهره من قبل إظهارا ثانيا بنحو الإعادة فهو كناية عن بطلان الباطل وسقوطه عن الأثر من أصله بالحق الذي هو القرآن.

٢٩. الضلال والهدى والوحي:

المقطع [٢٩] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٨٩»:

١. ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾:

أ. بيان لأثر الحق الذي هو الوحي فإنه عرفه حقا مطلقا فالحق إذا كان حقا من كل جهة لم يخطئ في إصابة الواقع في جهة من الجهات وإلا كان باطلا من تلك الجهة فالوحي يهدي ولا يخطئ البتة.

ب. ولذا قال تأكيدا لما تقدم: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ وفرض مني ضلال ﴿فَإِنَّما أَضِلُّ﴾ مستقرا ذلك الضلال ﴿عَلَى نَفْسِي﴾ فإن للإنسان من نفسه أن يضل ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ فوحيه حق لا يحتمل ضلالا ولا يؤثر إلا الهدى.

٢. وقد علل الكلام بقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ للدلالة على أنه يسمع الدعوة ولا يحجبه عنها حاجب البعد وقد مهد له قبلا وصفه تعالى في قذف الحق بأنه علام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخل بأمره ويمنع نفوذ مشيته هداية الناس بالوحي قال تعالى: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ [الجن: ٢٨]

٣٠. فزع الكافرين يوم القيامة وندمهم وتمنيهم الإيمان:

المقطع [٣٠] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥١ـ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٩٠»:

١. ﴿وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾:

أ. ظاهر السياق السابق ويشعر به قوله الآتي: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أن الآيات الأربع وصف حال مشركي قريش ومن يلحق بهم حال الموت.

ب. فقوله: ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا﴾ أي حين فزع هؤلاء المشركون عند الموت ﴿فَلا فَوْتَ﴾ أي لا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو أي حائل آخر.

٢. ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾:

أ. كناية عن عدم فصل بينهم وبين من يأخذهم وقد عبر بقوله: ﴿أُخِذُوا﴾ مبنيا للمفعول ليستند الأخذ إليه سبحانه، وقد وصف نفسه بأنه قريب، وكشف عن معنى قربه بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] وأزيد منه في قوله: ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وأزيد منه في قوله: ﴿أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] فبين أنه أقرب إلى الإنسان من نفسه وهذا الموقف هو المرصاد الذي ذكره في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾ [الفجر: ١٤] فكيف يتصور فوت الإنسان منه وهو أقرب إليه من نفسه؟ أو من ملائكته المكرمين الذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه وبينهم.

ب. فقوله: ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما نتصوره من معنى القرب لاحتباسنا في سجن الزمان والمكان وأنسنا بالأمور المادية وإلا فالأمر أعظم من ذلك.

٣. ﴿وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾:

أ. التناوش التناول وضمير ﴿بِهِ﴾ للقرآن على ما يعطيه السياق.

ب. والمراد بكونهم في مكان بعيد أنهم في عالم الآخرة وهي دار تعين الجزاء وهي أبعد ما يكون من عالم الدنيا التي هي دار العمل وموطن الاكتساب بالاختيار وقد تبدل الغيب شهادة لهم والشهادة غيبا كما تشير إليه الآية التالية.

٤. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾:

أ. حال من الضمير في ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ والمراد بقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ رميهم عالم الآخرة وهم في الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به وكونه غائبا عن حواسهم إذ كانوا يقولون: لا بعث ولا جنة ولا نار، وقيل: المراد به رميهم النبي ﷺ بالسحر والكذب والافتراء والشعر.

ب. والعناية في إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبة إلى الآخرة نظيره إطلاقه على الآخرة بالنسبة إلى الدنيا وقد تقدمت الإشارة إليه.

٥. ومعنى الآيتين: وقال المشركون حينما أخذوا آمنا بالحق الذي هو القرآن وأنى لهم تناول الإيمان به، إيمانا يفيد النجاة، من مكان بعيد وهو الآخرة والحال أنهم كفروا به من قبل في الدنيا وهم ينفون أمور الآخرة بالظنون والأوهام من مكان بعيد وهو الدنيا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ الآية، أخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يخرج رجل يقال له السفياني في عمق دمشق، وعامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يبقر بطون النساء، ويقتل الصبيان فيجمع لهم قيس فيقتلها حتى لا يمنع ذنب تلعة، ويخرج رجل من أهل بيتي فيبلغ السفياني فيبعث إليه جندا من جنده، فيهزمهم فيسير إليه السفياني بمن معه، حتى إذا صار ببيداء من الأرض خسف بهم، فلا ينجو منهم إلا المخبر منهم.

• أقول: والرواية مستفيضة من طرق أهل السنة مختصرة أو مفصلة وقد رووها من طرق مختلفة عن ابن عباس وابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة وجد عمرو بن شعيب وأم سلمة وصفية وعائشة وحفصة أزواج النبي ﷺ ونفيرة امرأة القعقاع عن سعيد بن جبير موقوفا.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكابلي قال: قال أبو جعفر عليه السلام: والله لكأني أنظر إلى القائم عليه السلام، وقد أسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد الله حقه، ثم يقول: يا أيها الناس، من يحاجني في الله، فأنا أولى بالله، أيها الناس من يحاجني بآدم فأنا أولى بآدم، أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى بنوح، أيها الناس من يحاجني بإبراهيم فأنا أولى بإبراهيم، أيها الناس من يحاجني بموسى فأنا أولى بموسى، أيها الناس

من يحاجني بعيسى فأنا أولى بعيسى، أيها الناس من يحاجني بمحمد فأنا أولى بمحمد، أيها الناس من يحاجني بكتاب الله فأنا أولى بكتاب الله، ثم ينتهي إلى المقام فيصلي ركعتين وينشد الله حقه، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: هو والله المضطر في كتاب الله، في قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ﴾ فيكون أول من يبايعه جبرئيل ثم الثلاثمائة والثلاثة عشر، فمن كان ابتلي بالمسير وافى ومن لم يبتل بالمسير فقد عن فراشه، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام: هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾ قال: الخيرات الولاية، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ وهم أصحاب القائم عليه السلام يجتمعون والله إليه في ساعة واحدة، فإذا جاء إلى البيداء يخرج إليه جيش السفياني، فيأمر الله عز وجل الأرض فيأخذ بأقدامهم، وهو قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ، وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ وَقالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ يعني بالقائم من آل محمد عليه السلام ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ﴾ يعني أن لا يعذبوا ﴿كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ﴾ يعني من كان قبلهم من المكذبين هلكوا ﴿مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾

٣١. الحيلولة بين الكافرين وبين ما يشتهون:

المقطع [٣١] من سورة سبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٦/ ٣٩١»:

١. ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾:

أ. ظاهر السياق أن المراد بما يشتهون اللذائذ المادية الدنيوية التي يحال بينهم وبينها بالموت، والمراد بأشياعهم من قبل أشباههم من الأمم الماضية أو موافقوهم في المذهب، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ تعليل لقوله: ﴿كَما فُعِلَ﴾

ب. والمعنى: ووقعت الحيلولة بين المشركين المأخوذين وبين ما يشتهون من ملاذ الدنيا كما فعل ذلك بأشباههم من مشركي الأمم الدارجة من قبلهم إنهم كانوا في شك مريب من الحق أو من الآخرة فيقذفونها بالغيب.

٢. واعلم أن ما قدمناه من الكلام في هذه الآيات الأربع مبني على ما يعطيه ظاهر السياق وقد

استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن الآيات ناظرة إلى خسف جيش السفياني بالبيداء وهو من علائم ظهور المهدي عليه السلام المتصلة به فعلى تقدير نزول الآيات في ذلك يكون ما قدمناه من المعنى من باب جري الآيات فيه.

سورة فاطر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٩] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة بيان الأصول الثلاثة: وحدانيته تعالى في ربوبيته، ورسالة الرسول، والمعاد إليه، وتقرير الحجة لذلك، وقد توسل لذلك بجُمل من نعمه العظيمة السماوية والأرضية، والإشارة إلى تدبيره المتقن لأمر العالم عامة والإنسان خاصة.

ب. وقد قدم على هذا التفصيل الإشارة الإجمالية إلى انحصار فتح الرحمة وإمساكها ـ وهو إفاضة النعمة والكف عنها ـ فيه تعالى بقوله: ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها﴾ الآية.

ج. وقدم على ذلك الإشارة إلى وسائط هذه الرحمة المفتوحة والنعم الموهوبة، وهم الملائكة المتوسطون بينه تعالى وبين خلقه في حمل أنواع النعم من عنده تعالى وإيصالها إلى خلقه، فافتتح السورة بذكرهم.

د. والسورة مكية كما يدل عليه سياق آياتها، وقد استثنى بعضهم آيتين وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا﴾ الآية، وهو غير ظاهر من سياق الآيتين.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تمجد الله فاطر السماوات والأرض، وتصف الملائكة بأنهم رسل أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وتذكر أنه يزيد في الخلق ما يشاء، وإنه على كل شيء قدير.

٢. الآيات [٢ ـ ٨]:

أ. لما أشار إلى الملائكة وهم وسائط في وصول النعم إلى الخليقة، أشار إلى نفس النعم إشارة كلية، فذكر أن عامة النعم من الله سبحانه لا غير، فهو الرازق لا يشاركه فيه أحد.

ب. ثم احتج بالرازقية على الربوبية، ثم على المعاد، وأن وعده تعالى بالبعث وعذاب الكافرين

ومغفرة المؤمنين الصالحين حق.

ج. وفي الآيات تسلية للنبي ﷺ.

٣. الآيات [٩ ـ ١٤] احتجاجات على وحدانيته تعالى في ألوهيته، بعد جُملة من النعم السماوية والأرضية التي يتنعم بها الإنسان، ولا خالق لها ولا مدبر لأمرها إلا الله سبحانه، وفيها بعض الإشارة إلى البعث.

٤. الآيات [١٥ ـ ٢٦]:

أ. لما بين لهم أن الخلق والتدبير إليه تعالى، فهو ربهم له الملك دون الذين يدعون من دونه، فهم لا يملكون شيئاً حتى يقوموا بتدبيره، أخذ يبين ذلك ببيان آخر مشوب بالوعيد والتهديد، وهو أنه تعالى غني عنهم وهم فقراء إليه، فله أن يذهبهم ويأت بخلق جديد إن شاء، جزاء بما كسبوا.

ب. ثم وجه الخطاب إلى النبي ﷺ بما حاصله: أن هذه المؤاخذة والإهلاك لا يشمل إلا هؤلاء المكذبين، دون المؤمنين الذين يؤثر فيهم إنذار النبي عليه السلام، فبينهما فرق ظاهر، وهو ﷺ نذير كالنذر الماضين، وحاله كحال من قبله من المنذرين، وإن يكذبوه فقد كذبت الأنبياء الماضين مكذبو أممهم، فأخذهم الله أخذاً شديداً، وسيأخذ المكذبين من هذه الأمة.

٥. الآيات [٢٧ ـ ٣٨]:

أ. رجوع إلى ذكر آيات أخر من آيات التوحيد، وفيها انتقال إلى حديث الكتاب وأنه حق نازل من عند الله تعالى.

ب. وقد انجر الكلام في الفصل السابق من الآيات إلى ذكر النبوة والكتاب حيث قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ وقال: ﴿جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ﴾، فكان من الحري أن يتعرض لصفة الكتاب وما تستتبعه من الآثار.

٦. الآيات [٣٩ ـ ٤٥]:

أ. احتجاج على توحيد الربوبية كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ الآية.

ب. وعلى نفي ربوبية شركائهم ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية.

ج. وتوبيخ وتهديد لهم على نقضهم ما أبرموه باليمين ومكرهم السيئ، ثم تسجيل أن الله لا يعجزه شيء، وإنما يمهل من أمهله من هؤلاء الظالمين إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم جازاهم ما يستحقونه، وبذلك تختتم السورة.

١. الله فاطر السموات والأرض وجاعل الملائكة رسلاً:

المقطع [١] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٦»:

١. ﴿الْحَمْدُ للهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. الفطر، على ما ذكره الراغب، هو الشق طولا فإطلاق الفاطر عليه تعالى بعناية استعارية كأنه شق العدم فأخرج من بطنها السماوات والأرض فمحصل معناه أنه موجد السماوات والأرض إيجادا ابتدائيا من غير مثال سابق، فيقرب معناه من معنى البديع والمبدع والفرق بين الإبداع والفطر أن العناية في الإبداع متعلقة بنفي المثال السابق وفي الفطر بطرد العدم وإيجاد الشيء من رأس لا كالصانع الذي يؤلف مواد مختلفة فيظهر به صورة جديدة لم تكن.

ب. والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود فيشملهما وما فيهما من مخلوق فيكون من قبيل إطلاق معظم الأجزاء وإرادة الكل مجازا، أو المراد نفس السماوات والأرض اعتناء بشأنهما لكبر خلقتهما وعجيب أمرهما كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]

ج. وكيف كان فقوله: ﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أسمائه تعالى أجري صفة لله والمراد بالوصف الاستمرار دون الماضي فقط لأن الإيجاد مستمر وفيض الوجود غير منقطع ولو انقطع لانعدمت الأشياء.

د. والإتيان بالوصف بعد الوصف للإشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى كأنه قيل: الحمد لله على ما أوجد السماوات والأرض وعلى ما جعل الملائكة رسلا أولي أجنحة فهو تعالى محمود ما أتى فيما أتى إلا الجميل.

٢. ﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾:

أ. الملائكة جمع ملك بفتح اللام وهم موجودات خلقهم الله وجعلهم وسائط بينه وبين العالم المشهود وكلهم بأمور العالم التكوينية والتشريعية عباد مكرمون لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ب. فقوله تعالى: ﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ يشعر بل يدل على كون جميع الملائكة، والملائكة جمع محلى باللام مفيد للعموم، رسلا وسائط بينه وبين خلقه في إجراء أوامره التكوينية والتشريعية.

ج. ولا موجب لتخصيص الرسل في الآية بالملائكة النازلين على الأنبياء عليهمالسلام وقد أطلق القرآن الرسل على غيرهم من الملائكة كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ﴾

د. والأجنحة جمع جناح وهو من الطائر بمنزلة اليد من الإنسان يتوسل به إلى الصعود إلى الجو والنزول منه والانتقال من مكان إلى مكان بالطيران.

هـ. فوجود الملك مجهز بما يفعل به نظير ما يفعله الطائر بجناحه فينتقل به من السماء إلى الأرض بأمر الله ويعرج به منها إليها ومن أي موضع إلى أي موضع، وقد سماه القرآن جناحا ولا يستوجب ذلك إلا ترتب الغاية المطلوبة من الجناح عليه وأما كونه من سنخ جناح غالب الطير ذا ريش وزغب فلا يستوجبه مجرد إطلاق اللفظ كما لم يستوجبه في نظائره كألفاظ العرش والكرسي واللوح والقلم وغيرها.

و. ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾ صفة للملائكة، ومثنى وثلاث ورباع ألفاظ دالة على تكرر العدد أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة كأنه قيل: جعل الملائكة بعضهم ذا جناحين وبعضهم ذا ثلاثة أجنحة وبعضهم ذا أربعة أجنحة.

٣. ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ﴾ لا يخلو من إشعار بحسب السياق بأن منهم من يزيد أجنحته على أربعة.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لجميع ما تقدمه أو الجملة الأخيرة والأول أظهر.

٥. وضع هنا مبحثا حول [الملائكة في القرآن]، خلاصته:

أ. تكرر ذكر الملائكة في القرآن، ولم يذكر منهم بالتسمية إلا جبريل وميكال، وما عداهما مذكور

بالوصف (كملك الموت، والكرام الكاتبين، والسفرة الكرام البررة، والرقيب والعتيد)

ب. صفاتهم وأعمالهم: أنهم موجودات مكرمون، وسائط بين الله والعالم المشهود، وكل حادثة صغيرة أو كبيرة لهم فيها شأن، وليس لهم شأن إلا إجراء الأمر الإلهي في مجراه، ولا يعصون الله فيما أمرهم، وليس لهم نفسية مستقلة تريد غير ما أراد الله.

ج. الملائكة على مراتب مختلفة (آمر مطيع، ومأمور مطيع)، وليس لهم من أنفسهم شيء البتة، فهم غير مغلوبين لأنهم يعملون بأمر الله، والله غالب على أمره.

د. الملائكة منزهون عن المادة الجسمانية التي هي في معرض الزوال والفساد والتغير، وما ورد في الروايات من صورهم وأشكالهم الجسمانية إنما هو بيان لتمثلاتهم وظهوراتهم للواصفين، لا أنهم يتشكلون ويتصورون بتلك الأشكال في أنفسهم.

هـ. الفرق بين التمثل والتشكل: التمثل هو ظهور الملك لمن يشاهده في صورة الإنسان، وهو في ظرف المشاهدة ذو صورة الإنسان، وفي نفسه ملك ذو صورة ملكية، أما التشكل فهو صيرورة الشيء شيئاً آخر في نفسه، بحيث يكون إنساناً في العين والذهن معاً.

و. القول بأن الملك جسم لطيف يتشكل بأشكال مختلفة (إلا الكلب والخنزير) لا دليل عليه من عقل ولا نقل، والإجماع المدّعى في مثل هذه المسائل الاعتقادية غير ثابت الحجية.

٦. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق صفة الملائكة في ضوء القرآن والروايات]، خلاصته:

أ. بيان أن الملائكة مخلوقات من نور، خلقهم الله بأجنحة مختلفة، وهم مختلفون في الخلقة والمنزلة، منهم الكروبيون وحملة العرش والروحانيون.

ب. إثبات أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، وإنما يعيشون بنسيم العرش، وهم معصومون من الذنوب، لا تغشاهم غفلة ولا سهو.

ج. توضيح أن الملائكة متفاوتون في الخلقة، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، وجبرئيل له ستمائة جناح.

د. بيان أن الملائكة حفظة للإنسان، يحفظونه من الآفات والمهالك حتى إذا حان أجله خلوا بينه وبين ما يصيبه.

هـ. عرض الروايات الواردة في صفة جبرئيل وإسرافيل وميكائيل، وبيان عظم خلقهم وقربهم من الله.

و. بيان أن الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه كلب أو تمثال أو إناء يبال فيه، كما ورد في الرواية النبوية.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المجموعة بإسناده عنه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا، وقرأ ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ﴾

ب. وفي التوحيد، بإسناده عن زرارة عن عبد الله بن سليمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إن القضاء والقدر خلقان من خلق الله، يزيد في الخلق ما يشاء.

ج. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ﴾: روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن.

• أقول: والروايات الثلاث الأخيرة من قبيل الجري والانطباق.

٢. الفتح والإمساك والعزة والحكمة:

المقطع [٢] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٤»:

١. ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾:

أ. المعنى أن ما يؤتيه الله الناس من النعمة وهو الرزق فلا مانع عنه وما يمنع فلا مؤتي له فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما يرسل الله للناس.، كما عبر في الجملة الثانية بالإرسال لكنه عدل عن الإرسال إلى الفتح لما وقع مكررا في كلامه أن لرحمته خزائن كقوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ ص: وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ﴾ الإسراء: والتعبير بالفتح أنسب من الإرسال في الخزائن ففيه إشارة إلى أن الرحمة التي يؤتاها الناس مخزونة في خزائن محيطة بالناس لا يتوقف نيلهم منها إلا إلى فتحها من غير مئونة زائدة.

ب. وقد عبر عن الرزق الذي هو النعمة بالرحمة للدلالة على أن إفاضته تعالى لهذه النعم ناشئة من مجرد الرحمة من غير توقع لنفع يعود إليه أو كمال يستكمل به.

٢. ﴿وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي وما يمنع من الرحمة فلا مرسل له من دونه، وفي التعبير بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أول في المنع كما أنه أول في الإعطاء.

٣. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقرير للحكم المذكور في الآية الكريمة بالاسمين الكريمين فهو تعالى لكونه عزيزا لا يغلب إذا أعطى فليس لمانع أن يمنع عنه وإذا منع فليس لمعط أن يعطيه، وهو تعالى حكيم إذا أعطى أعطى عن حكمة ومصلحة وإذا منع منع عن حكمة ومصلحة وبالجملة لا معطي إلا الله ولا مانع إلا هو، ومنعه وإعطائه عن حكمة.

٣. تذكير الناس بنعمة الله وإثبات أنه الخالق الرازق:

المقطع [٣] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهَّ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهَّ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهَّ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٥»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. لما قرر في الآية السابقة أن الإعطاء والمنع لله سبحانه لا يشاركه في ذلك أحد احتج في هذه الآية بذلك على توحده في الربوبية.

ب. وتقرير الحجة أن الإله إنما يكون إلها معبودا لربوبيته وهي ملكة تدبير أمر الناس وغيرهم، والذي يملك تدبير الأمر بهذه النعم التي يتقلب فيها الناس وغيرهم ويرتزقون بها هو الله سبحانه دون غيره من الآلهة التي اتخذوها لأنه سبحانه هو الذي خلقها دونهم والخلق لا ينفك عن التدبير ولا يفارقه فهو سبحانه إلهكم لا إله إلا هو لأنه ربكم الذي يدبر أمركم بهذه النعم التي تتقلبون فيها وإنما كان ربا مدبرا بهذه النعم لأنه خالقها وخالق النظام الذي يجري عليها.

ج. وبذلك يظهر أن المراد بالناس المخاطبين الوثنيون وغيرهم ممن اتخذ لله شريكا.

٢. ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ﴾ المراد بالذكر ما يقابل النسيان دون الذي الذكر اللفظي.

٣. ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. الرزق هو ما يمد به البقاء ومبدؤه السماء بواسطة الأشعة والأمطار وغيرهما والأرض بواسطة النبات والحيوان وغيرهما.

ب. وبذلك يظهر أيضا أن في الآية إيجازا لطيفا فقد بدلت الرحمة في الآية السابقة نعمة في هذه الآية أولا ثم النعمة رزقا ثانيا وكان مقتضى سياق الآيتين أن يقال: هل من رازق أو هل من منعم أو هل من راحم لكن بدل ذلك من قوله: ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ﴾ ليكون إشارة إلى برهان ثان ينقطع به الخصام، فإنهم يرون تدبير العالم لآلهتهم بإذن الله فلو قيل: هل من رازق أو منعم غير الله لم ينقطع الخصام وأمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من الله إليهم لكن لما قيل: ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ﴾ أشير بالوصف إلى أن الرازق والمدبر هو خالق الرزق لا غير فانقطع الخصام ولم يمكنهم إلا أن يجيبوا بنفي خالق غير الله يرزقهم من السماء والأرض.

٤. ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض بالتوحيد يفيد التعظيم نظير قوله: ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ﴾ أي لا معبود بالحق إلا هو لأن المستحق للعبادة هو الذي ينعم عليكم ويرزقكم وليس إلا الله.

٥. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ توبيخ متفرع على ما سبغ من البرهان أي فإذا كان الأمر هكذا وأنتم تقرون بذلك فإلى متى تصرفون عن الحق إلى الباطل ومن التوحيد إلى الإشراك.

٦. وفي إعراب الآية أعني قوله: ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾، بين القوم مشاجرات طويلة والذي يناسب ما تقدم من تقرير البرهان أن ﴿مِنْ﴾ زائدة للتعميم، وقوله: ﴿غَيْرُ اللهِ﴾ صفة لخالق تابع لمحله، وكذا قوله: ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾، و﴿مِنْ خالِقٍ﴾ مبتدأ محذوف الخبر وهو موجود، وقوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض، وقوله: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ تفريع على ما تقدمه.

٧. ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾:

أ. تسلية للنبي ﷺ أي وإن يكذبوك بعد استماع هذه البراهين الساطعة فلا تحزن فليس ذلك ببدع فقد كذبت رسل من قبلك كذبتهم أممهم وأقوامهم وإلى الله ترجع عامة الأمور فيجازيهم بما يستحقونه بتكذيبهم الحق بعد ظهوره فليسوا بمعجزين بتكذيبهم.

ب. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من قبيل وضع السبب موضع المسبب وأن قوله: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾

٤. التحذير من غرور الدنيا وغرور الشيطان:

المقطع [٤] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهَّ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾:

أ. خطاب عام للناس يذكرهم بالمعاد كما كان الخطاب العام السابق يذكرهم بتوحده تعالى في الربوبية والألوهية.

ب. فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي وعده أنه يبعثكم فيجازي كل عامل بعمله إن خيرا وإن شرا ﴿حَقٌّ﴾ أي ثابت واقع، وقد صرح بهذا الوعد في قوله الآتي: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

٢. ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ النهي وإن كان متوجها إلى الحياة الدنيا صورة لكنه في الحقيقة متوجه إليهم، والمعنى إذا كان وعد الله حقا فلا تغتروا بالحياة الدنيا بالاشتغال بزينتها والتلهي بما ينسيكم يوم الحساب من ملاذها وملاهيها والاستغراق في طلبها والإعراض عن الحق.

٣. ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾:

أ. الغرور بفتح الغين صيغة مبالغة من الغرور بالضم وهو الذي يبالغ في الغرور ومن عادته ذلك، والظاهر، كما قيل، إن المراد به الشيطان ويؤيده التعليل الواقع في الآية التالية: ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾

ب. ومعنى غروره بالله توجيهه أنظارهم إلى مظاهر حلمه وعفوه تعالى تارة ومظاهر ابتلائه واستدراجه وكيده أخرى فيرون أن الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة والإعراض عن الحق والحقيقة لا يستعقب عقوبة ولا يستتبع مؤاخذة، وأن أبناء الدنيا كلما أمعنوا في طلبهم وتوغلوا في غفلتهم واستغرقوا في المعاصي والذنوب زادوا في عيشهم طيبا وفي حياتهم راحة وبين الناس جاها وعزة فيلقي الشيطان عند ذلك في قلوبهم أن لا كرامة إلا في التقدم في الحياة الدنيا، ولا خبر عما وراءها وليس ما تتضمنه الدعوة الحقة من الوعد والوعيد وتخبر به النبوة من البعث والحساب والجنة والنار إلا خرافة، فالمراد بغرور الشيطان الإنسان بالله اغترار الإنسان بما يعامل به الله الإنسان على غفلته وظلمه.

ج. وربما قيل: إن المراد بالغرور الدنيا الغارة للإنسان وأن قوله: ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ تأكيد

لقوله: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا﴾ بتكراره معنى.

٥. الشيطان والعداوة والسعير والمغفرة:

المقطع [٥] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: ٦-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٨»:

١. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، تعليل للنهي المتقدم في قوله: ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ والمراد بعداوة الشيطان أنه لا شأن له إلا إغواء الإنسان وتحريمه سعادة الحياة وحسن العاقبة، والمراد باتخاذ الشيطان عدوا التجنب من اتباع دعوته إلى الباطل وعدم طاعته فيما يشير إليه في وساوسه وتسويلاته ولذلك علل عداوته بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾

٢. فقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ في مقام تعليل ما تقدمه والحزب هو العدة من الناس يجمعهم غرض واحد، واللام في ﴿لِيَكُونُوا﴾ للتعليل فكونهم من أصحاب السعير علة غائية لدعوته، والسعير النار المسعرة وهو من أسماء جهنم في القرآن.

٣. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هذا هو الوعد الحق الذي ذكره الله سبحانه، وتنكير العذاب للدلالة على التفخيم على أن لهم دركات ومراتب مختلفة من العذاب باختلاف كفرهم وفسوقهم فالإبهام أنسب ويجري نظير الوجهين في قوله: ﴿مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ﴾

٦. تزيين سوء العمل للكافرين وهداية الله لمن يشاء:

المقطع [٦] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٨»:

١. ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ تقرير وبيان للتقسيم الذي تتضمنه الآية السابقة أعني تقسيم الناس إلى كافر له عذاب شديد ومؤمن عامل بالصالحات له مغفره وأجر كبير والمراد أنهما لا يستويان فلا تستوي عاقبة أمرهما.

٢. فقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ مبتدأ خبره محذوف أي كمن ليس كذلك، والفاء لتفريع الجملة على معنى الآية السابقة، والاستفهام للإنكار، والمراد بمن زين له سوء عمله فرآه حسنا الكافر ويشير به إلى أنه منكوس فهمه مغلوب على عقله يرى عمله على غير ما هو عليه والمعنى أنه لا يستوي من زين له عمله السيئ فرآه حسنا والذي ليس كذلك بل يرى السيئ سيئا.

٣. ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾:

أ. تعليل للإنكار السابق في قوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ أي الكافر الذي شأنه ذلك والمؤمن الذي بخلافه لا يستويان لأن الله يضل أحدهما بمشيته وهو الكافر الذي يرى السيئة حسنة ويهدي الآخر بمشيته وهو المؤمن الذي يعمل الصالحات ويرى السيئة سيئة.

ب. وهذا الإضلال إضلال على سبيل المجازاة وليس إضلالا ابتدائيا فلا ضير في انتسابه إلى الله سبحانه.

ج. وبالجملة اختلاف الكافر والمؤمن في عاقبتهما بحسب الوعد الإلهي بالعذاب والرحمة لاختلافهما بالإضلال والهداية الإلهيين واختلافهما بالإضلال والهداية باختلافهما في رؤية السيئة حسنة وعدمها.

٤. ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾:

أ. الحسرات جمع حسرة وهي الغم لما فأت والندم عليه، وهي منصوبة لأنه مفعول لأجله والمراد بذهاب النفس عليهم هلاكها فيهم لأجل الحسرات الناشئة من عدم إيمانهم.

ب. والجملة متفرعة على الفرق السابق أي إذا كانت الطائفتان مختلفتين بالإضلال والهداية من جانب الله فلا تهلك نفسك حسرات عليهم إذ كذبوك وكفروا بك فإن الله هو الذي يضلهم جزاء لكفرهم ورؤيتهم السيئة حسنة وهو عليم بما يصنعون فلا يختلط عليه الأمر ولا يفعل بهم إلا الحق ولا يجازيهم إلا بالحق.

ج. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾ في موضع التعليل لقوله: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾ فلا ينبغي للرسول ﷺ أن يهلك نفسه عليهم حسرات حيث ضلوا وحقت عليهم كلمة العذاب فإن الله هو الذي يضلهم لصنعهم وهو عليم بما يصنعون.

٧. الرياح والسحاب والإحياء والنشور:

المقطع [٧] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢١»:

١. ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾، العناية في المقام بتحقق وقوع الأمطار وإنبات النبات بها، ولذلك قال: ﴿اللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ﴾ وهذا بخلاف ما في سورة الروم من قوله: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً﴾ الروم:.

٢. ﴿فَتُثِيرُ سَحاباً﴾ عطف على ﴿أَرْسَلَ﴾ والضمير للرياح والإتيان بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية والإثارة إفعال من ثار الغبار يثور ثورانا إذا انتشر ساطعا.

٣. ﴿فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾:

أ. أي إلى أرض لا نبات فيها ﴿فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ وأنبتنا فيها نباتا بعد ما لم تكن، ونسبة الإحياء إلى الأرض وإن كانت مجازية لكن نسبته إلى النبات حقيقية وأعمال النبات من التغذية والنمو وتوليد المثل وما يتعلق بذلك أعمال حيوية تنبعث من أصل الحياة.

ب. ولذلك شبه البعث وإحياء الأموات بعد موتهم بإحياء الأرض بعد موتها أي إنبات النبات بعد توقفه عن العمل وركوده في الشتاء فقال: ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ أي البعث فالنشور بسط الأموات يوم القيامة بعد إحيائهم وإخراجهم من القبور.

ج. وفي قوله: ﴿فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾، التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير فهو تعالى في قوله: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ﴾ بنعت الغيبة وفي قوله: ﴿فَسُقْناهُ﴾، بنعت التكلم مع الغير ولعل النكتة في ذلك هي أنه لما قال: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ﴾ أخذ لنفسه نعت الغيبة ويتبعه فيه الإرسال فإن فعل الغائب غائب، ثم لما قال: ﴿فَتُثِيرُ سَحاباً﴾ على نحو حكاية الحال الماضية صار المخاطب كأنه يرى الفعل ويشاهد الرياح وهي تثير السحاب وتنشره في الجو فصار كأنه يرى من يرسل الرياح لأن مشاهدة الفعل كادت أن لا تنفك عن مشاهدة الفاعل فلما ظهر تعالى بنعت الحضور غير سياق كلامه من الغيبة إلى التكلم واختار لفظ التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

٤. ﴿فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ﴾ ولم يقل: فأحييناه مع كفايته وكذا قوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِها﴾ مع جواز الاكتفاء بما تقدمه للأخذ بصريح القول الذي لا ارتياب دونه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أراد الله أن يبعث الخلق، أمطر السماء على الأرض أربعين صباحا، فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم.

• أقول: وفي هذا المعنى عدة روايات أخر.

ب. أخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ قال: أما مررت بأرض مجدبة، ثم مررت بها مخصبة تهتز خضراء؟ قال: بلى، قال: كذلك يحيي الله الموتى وكذلك النشور.

٨. العزة والكلم الطيب والعمل الصالح:

المقطع [٨] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٢»:

١. ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم: أرض عزاز أي صلبة قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾)

ب. فالصلابة هو الأصل في معنى العزة ثم توسع فاستعمل العزيز فيمن يقهر ولا يقهر كقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا﴾، وكذا العزة بمعنى الغلبة قال تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ﴾ والعزة بمعنى القلة وصعوبة المنال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾، والعزة بمعنى مطلق الصعوبة قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ﴾ التوبة: (والعزة بمعنى الأنفة والحمية قال تعالى ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ﴾ إلى غير ذلك.

ج. ثم إن العزة بمعنى كون الشيء قاهرا غير مقهور أو غالبا غير مغلوب تختص بحقيقة معناها

بالله عز وجل إذ غيره تعالى فقير في ذاته ذليل في نفسه لا يملك لنفسه شيئا إلا أن يرحمه الله ويؤتيه شيئا من العزة كما فعل ذلك بالمؤمنين به قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

د. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ ليس بمسوق لبيان اختصاص العزة بالله بحيث لا ينالها غيره وأن من أرادها فقد طلب محالا وأراد ما لا يكون بل المعنى من كان يريد العزة فليطلبها منه تعالى لأن العزة له جميعا لا توجد عند غيره بالذات.

هـ. فوضع قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ في جزاء الشرط من قبيل وضع السبب موضع المسبب وهو طلبها من عنده أي اكتسابها منه بالعبودية التي لا تحصل إلا بالإيمان والعمل الصالح.

٢. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾:

أ. الكلم، كما قيل، اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث، وقال في المجمع: (والكلم جمع كلمة يقال؟ هذا كلم وهذه كلم فيذكر ويؤنث، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء يجوز فيه التذكير والتأنيث)

ب. والمراد بالكلم على أي حال ما يفيد معنى تاما كلاميا ويشهد به توصيفه بالطيب فطيب الكلم هو ملاءمته لنفس سامعه ومتكلمه بحيث تنبسط منه وتستلذه وتستكمل به وذلك إنما يكون بإفادته معنى حقا فيه سعادة النفس وفلاحها.

ج. وبذلك يظهر أن المراد به ليس مجرد اللفظ بل بما أن له معنى طيبا فالمراد به الاعتقادات الحقة التي يسعد الإنسان بالإذعان لها وبناء عمله عليها والمتيقن منها كلمة التوحيد التي يرجع إليها سائر الاعتقادات الحقة وهي المشمولة لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها﴾ إبراهيم: وتسمية الاعتقاد قولا وكلمة أمر شائع بينهم.

د. وصعود الكلم الطيب إليه تعالى هو تقربه منه تعالى اعتلاء وهو العلي الأعلى رفيع الدرجات، وإذ كان اعتقادا قائما بمعتقده فتقربه منه تعالى تقرب المعتقد به منه، وقد فسروا صعود الكلم الطيب بقبوله تعالى له وهو من لوازم المعنى.

هـ. ثم إن الاعتقاد والإيمان إذا كان حق الاعتقاد صادقا إلى نفسه صدقه العمل ولم يكذبه أي يصدر عنه العمل على طبقه فالعمل من فروع العلم وآثاره التي لا تنفك عنه، وكلما تكرر العمل زاد

الاعتقاد رسوخا وجلاء وقوي في تأثيره فالعمل الصالح وهو العمل الحري بالقبول الذي طبع عليه بذل العبودية والإخلاص لوجهه الكريم يعين الاعتقاد الحق في ترتب أثره عليه وهو الصعود إليه تعالى وهو المعزى إليه بالرفع فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

و. فقد تبين بما مر معنى قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وأن ضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ لله سبحانه والمراد بالكلم الطيب الاعتقاد الحق كالتوحيد، وبصعوده تقربه منه تعالى، وبالعمل الصالح ما كان على طبق الاعتقاد الحق ويلائمه وأن الفاعل في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ ضمير مستكن راجع إلى العمل الصالح وضمير المفعول راجع إلى الكلم الطيب.

٣. ولهم في الآية أقوال أخر:

أ. فقد قيل: إن المراد بصعود الكلم الطيب قبوله والإثابة عليه كما تقدمت الإشارة إليه.

ب. وقيل: المراد صعود الملائكة بما كتب من الإيمان والطاعات إلى الله سبحانه.

ج. وقيل: المراد صعودهم به إلى السماء فسمي الصعود إلى السماء صعودا إلى الله مجازا.

د. وقيل: إن فاعل ﴿يَرْفَعُهُ﴾ ضمير عائد إلى الكلم الطيب وضمير المفعول للعمل الصالح والمعنى أن الكلم الطيب يرفع العمل الصالح أي أن العمل الصالح لا ينفع إلا إذا صدر عن التوحيد.

هـ. وقيل: فاعل ﴿يَرْفَعُهُ﴾ ضمير مستكن راجع إليه تعالى والمعنى العمل الصالح يرفعه الله.

و. وجملة هذه الوجوه لا تخلو من بعد والأسبق إلى الذهن ما قدمناه من المعنى.

٤. ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾:

أ. ذكروا أن ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ وصف قائم مقام موصوف محذوف وهو المكرات، ووضع اسم الإشارة موضع الضمير في ﴿مَكْرُ أُولَئِكَ﴾ للدلالة على أنهم متعينون لا مختلطون بغيرهم والمعنى والذين يمكرون المكرات السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك الماكرين هو يبور ويهلك فلا يستعقب أثرا حيا فيه سعادتهم وعزتهم.

ب. وقد بان أن المراد بالسيئات أنواع المكرات والحيل التي يتخذها المشركون وسائل لكسب العزة، والآية مطلقة، وقيل: المراد المكرات التي اتخذتها قريش على رسول الله ﷺ في دار الندوة وغيرها من إثبات أو إخراج أو قتل فرد الله كيدهم إليهم وأخرجهم إلى بدر وقتلهم وأثبتهم في القليب فجمع عليهم

الإثبات والإخراج والقتل وهذا وجه حسن لكن الآية مطلقة.

ج. ووجه اتصال ذيل الآية بصدرها أعني اتصال قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ بقوله: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أن المشركين كانوا يعتزون بآلهتهم كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ مريم: فدعاهم الله سبحانه وهم يطلبون العز إلى نفسه بتذكيرهم أن العزة لله جميعا وبين تعالى ذلك بأن توحيده يصعد إليه والعمل الصالح يرفعه فيكتسب الإنسان بالتقرب منه عزة من منبع العزة وأما الذين يمكرون كل مكر سيئ لاكتساب العزة فلهم عذاب شديد وما مكروه من المكر بائر هالك لا يصعد إلى محل ولا يكسب لهم عزا.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إن لكل قول مصداقا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا قال ابن آدم، وصدق قوله بعمله رفع قوله بعمله إلى الله، وإذا قال وخالف عمله قوله، رد قوله على عمله الخبيث وهوى به في النار.

ب. وفي التوحيد، بإسناده عن زيد بن علي عن أبيه عليه السلام في حديث قال: وإن لله تبارك وتعالى بقاعا في سماواته، فمن عرج به إلى بقعة منها فقد عرج به إليه، ألا تسمع الله عز وجل يقول: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ ويقول في قصة عيسى بن مريم عليه السلام ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ﴾ ويقول عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

• أقول: وعن الفقيه، مثله.

ج. وفي نهج البلاغة: ولولا إقرارهن له بالربوبية، وإذعانهن له بالطواعية لما جعلهن موضعا لعرشه ولا مسكنا لملائكته، ولا مصعدا للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه.

٩. خلق الإنسان من تراب ثم نطفة ثم جعله أزواجاً:

المقطع [٩] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥»:

١. ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً﴾:

أ. يشير تعالى إلى خلق الإنسان فابتدأ خلقه من تراب وهو المبدأ البعيد الذي تنتهي إليه الخلقة ثم من نطفة وهي مبدأ قريب تتعلق به الخلقة:

- وقيل: المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن الشيء يضاف إلى أصله.
- وقيل: بل المراد خلق آدم نفسه.
- وقيل: بل المراد خلقهم خلقا إجماليا من تراب في ضمن خلق آدم من تراب والخلق التفصيلي هو من نطفة كما قال: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾

ب. والفرق بين الوجوه الثلاثة أن في الأول نسبة الخلق من تراب إليهم على طريق المجاز العقلي، وفي الثاني المراد بخلقهم خلق آدم ولا مجاز في النسبة، وفي الثالث المراد خلق كل واحد من الأفراد من التراب حقيقة من غير مجاز إلا أنه خلق إجمالي لا تفصيلي وبهذا يفارق ما قدمناه من الوجه.

ج. ويمكن تأييد القول الأول بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ﴾، والثاني بنحو قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾، والثالث بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ولكل وجه.

٢. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً﴾ أي ذكورا وإناثا، وقيل: أي قدر بينكم الزوجية وزوج بعضكم من بعض، وهو كما ترى، وقيل: أي أصنافا وشعوبا، وهو كسابقه.

٣. ﴿وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ من زائدة لتأكيد النفي، والباء في ﴿بِعِلْمِهِ﴾ للمصاحبة وهو حال من الحمل والوضع، والمعنى ما تحمل ولا تضع أنثى إلا وعلمه يصاحب حمله ووضعه، وذكر بعضهم أنه حال من الفاعل وأن كونه حالا من الحمل والوضع وكذا من مفعوليهما أي المحمول والموضوع خلاف الظاهر وهو ممنوع.

٤. ﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ﴾:

أ. أي وما يمد ويزاد في عمر أحد فيكون معمرا ولا ينقص من عمره أي عمر أحد إلا في كتاب.

ب. فقوله: ﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ من قبيل قوله: ﴿إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ يوسف: فوضع معمر موضع نائب الفاعل وهو أحد بعناية أنه بعد تعلق التعمير به يصير معمرا وإلا فتعمير المعمر لا معنى له.

ج. ﴿وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الضمير في ﴿عُمُرِهِ﴾ راجع إلى ﴿مُعَمَّرٍ﴾ باعتبار موصوفه المحذوف

وهو أحد والمعنى ولا ينقص من عمر أحد وإلا فنقص عمر المفروض معمرا تناقض خارق للفرض.

د. ﴿إِلَّا فِي كِتابٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ الذي لا سبيل للتغيير إليه فقد كتب فيه أن فلانا يزاد في عمره كذا لسبب كذا وفلانا ينقص من عمره كذا لسبب كذا وأما كتاب المحو والإثبات فهو مورد التغير وسياق الآية يفيد وصف العلم الثابت ولهم في قوله: ﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ وجوه أخر ضعيفة لا جدوى في التعرض لها.

ه. ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ تعليل وتقرير لما في الآية من وصف خلق الإنسان وكيفية إحداثه وإبقائه والمعنى أن هذا التدبير الدقيق المتين المهيمن على كليات الحوادث وجزئياتها المقرر كل شيء في مقره على الله يسير لأنه الله العليم القدير المحيط بكل شيء بعلمه وقدرته فهو تعالى رب الإنسان كما أنه رب كل شيء.

١٠. البحران والطعام والحلية والفلك:

المقطع [١٠] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٦»:

١. ﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ قيل: العذب من الماء طيبه، والفرات الماء الذي يكسر العطش أو البارد كما في المجمع: (والسائغ هو الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته والأجاج الذي يحرق لملوحته أو المر.

٢. ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ اللحم الطري الغض الجديد، والمراد لحم السمك أو السمك والطير، البحري والحلية المستخرجة من البحر اللؤلؤ والمرجان والأصداف قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ﴾

٣. وفي الآية تمثيل للمؤمن والكافر بالبحر العذب والمالح يتبين به عدم تساوي المؤمن والكافر في الكمال الفطري وإن تشاركا في غالب الخواص الإنسانية وآثارها فالمؤمن باق على فطرته الأصلية ينال بها سعادة الحياة الدائمة والكافر منحرف فيها متلبس بما لا تستطيبه الفطرة الإنسانية وسيعذب بأعماله فمثلهما مثل البحرين المختلفين عذوبة وملوحة فهما مختلفان من حيث البقاء على فطرة الماء الأصلية وهي العذوبة

والخروج عنها بالملوحة وإن اشتركا في بعض الآثار التي ينتفع بها، فمن كل منهما تأكلون لحما طريا وهو لحم السمك والطير المصطاد من البحر وتستخرجون حلية تلبسونها كاللؤلؤ والمرجان والأصداف.

٤. فظاهر الآية أن الحلية المستخرجة مشتركة بين البحر العذب والبحر المالح لكن جمعا من المفسرين استشكلوا ذلك بأن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من البحر المالح دون العذب، وقد أجابوا عنه بأجوبة مختلفة:

أ. منها أن الآية مسوقة لبيان اشتراك البحرين في مطلق الفائدة وإن اختص ببعضها كأنه قيل: ومن كل تنتفعون وتستفيدون كما تأكلون منهما لحما طريا وتستخرجون من البحر المالح حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر.

ب. ومنها أنه شبه المؤمن والكافر بالعذب والأجاج ثم فضل الأجاج على الكافر بأن في الأجاج بعض النفع والكافر لا نفع في وجوده فالآية على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ البقرة:.

ج. ومنها أن قوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ من تتمة التمثيل على معنى أن البحرين وإن اشتركا في بعض المنافع تفاوتا فيما هو المقصود بالذات لأن أحدهما خالطه ما خرج به عن صفاء فطرته والمؤمن والكافر وإن اتفقا أحيانا في بعض المكارم كالشجاعة والسخاوة متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على صفاء الفطرة الأصلية دون الآخر.

د. ومنها أنه لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة وإن لم نره فالإشكال باختصاص الحلية بالماء المالح ممنوع.

هـ. ومنها منع أصل الدعوى وهو كون الآية ﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ﴾، تمثيلا للمؤمن والكافر بل هي واقعة في سياق تعداد النعم لإثبات الربوبية كقوله قبلا: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ﴾ وقوله بعدا: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ﴾، فالآية مسوقة لبيان نعمة البحر واختلافه بالعذوبة والملوحة وما فيهما من المنافع المشتركة والمختصة، ويؤيد هذا الوجه أن نظير الآية في سورة النحل واقعة في سياق الآيات العادة لنعم الله سبحانه وهو قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى

الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل:.

ز. والحق أن أصل الاستشكال في غير محله وأن البحرين يشتركان في وجود الحلية فيهما كما هو مذكور في الكتب الباحثة عن هذه الشئون مشروح فيها.

٥. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

أ. ضمير ﴿فِيهِ﴾ للبحر، ومواخر جمع ماخرة من المخر بمعنى الشق عدت السفينة ماخرة لشقها الماء بجؤجؤتها.

ب. قيل: إنما أفرد ضمير الخطاب في قوله: ﴿تَرَى﴾ بخلاف الخطابات المتقدمة والمتأخرة لأن الخطاب لكل أحد يتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط.

٦. ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مخر الفلك البحر بتسخيره لتطلبوا من عطائه وهو الرزق ورجاء أن تشكروا الله سبحانه، وقد تقدم أن الترجي الذي تفيده (لعل) في كلامه تعالى قائم بالمقام دون المتكلم.

٧. وقد قيل في هذه الآية: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ وفي سورة النحل: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فاختلفت الآيتان في تقديم ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مَوَاخِرَ﴾ وتأخيره منه وعطف ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وعدمه:

أ. ولعل النكتة في ذلك أن آية النحل مصدرة بكلمة التسخير فهي مسوقة لبيان كيفية التسخير والأنسب لذلك تأخير ﴿فِيهِ﴾ ليتعلق بمواخر ويشير إلى مخر البحر فيصرح بالتسخير بخلاف ما هاهنا ثم التسخير له غايات كثيرة منها ابتغاء الفضل والأنسب لذلك عطف ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ على محذوف ليدل على عدم انحصار الغاية في ابتغاء الفضل بخلاف ما هاهنا فإن الغرض بيان أنه الرازق المدبر ليرتدع المكذبون، وقد تقدم ذكر تكذيبهم، عن تكذيبهم ويكفي في ذلك بيان ابتغائهم الفضل غاية من غير حاجة إلى العطف، والله أعلم.

ب. وقال في روح المعاني، في المقام: (والذي يظهر لي في ذلك أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها ولواحقها وتعقيب الآيات بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾ فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سيق استطرادا أو تتمة للتمثيل

كما علمت آنفا فقدم فيه ﴿فِيهِ﴾ إيذانا بأنه ليس المقصود بالذات ذلك، وكان الاهتمام بها هناك اقتضى أن يقال في تلك الآية: ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ بالواو ومخالفة ما هنا لذلك اقتضت ترك الواو في قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا﴾)

١١. إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر وعدم سماع الأصنام:

المقطع [١١] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٩»:

١. ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾، إيلاج الليل في النهار قصر النهار بطول الليل وإيلاج النهار في الليل قصر الليل بطول النهار، والمراد بالجملتين الإشارة إلى اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر المستمر في أيام السنة بتغير الأيام ولذا عبر بقوله: ﴿يُولِجُ﴾ الدال على استمرار التغيير بخلاف جريان الشمس والقمر فإنه ثابت على حاله ولذا عبر فيه بقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ والعناية صورية مسامحية.

٢. ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ بمنزلة النتيجة لما تقدم أي إذا كان أمر خلقكم وتدبيركم برا وبحرا وأرضا وسماء منتسبا إليه مدبرا بتدبيره فذلكم الله ربكم الذي يملككم ويدبر أمركم.

٣. ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ مستنتج مما قبله وتوطئة وتمهيد لما بعده من قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾

٤. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ القطمير على ما قاله الراغب الأثر على رأس النواة وذلك مثل للشيء الطفيف، وفي المجمع: (القطمير لفافة النواة وقيل: الحبة في بطن النواة) والكلام على أي حال مبالغة في نفي أصل الملك، والمراد بالذين تدعون من دون الله آلهتهم الذين كانوا يدعونها من الأصنام وأربابها.

٥. ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، بيان وتقرير لما تقدم من قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي تصديق كونهم لا يملكون شيئا أنكم إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم لأن الأصنام جمادات لا شعور لها ولا حس وأرباب الأصنام كالملائكة

والقديسين من البشر في شغل شاغل من ذلك على أنهم لا يملكون سمعا من عند أنفسهم فلا يسمعون إلا بإسماعه.

٦. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ﴾ إذ لا قدرة لهم على الاستجابة قولا ولا فعلا أما الأصنام فظاهر وأما أرباب الأصنام فقدرتهم من الله سبحانه ولن يأذن الله لأحد أن يستجيب أحدا يدعوه بالربوبية قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّهِ وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾

٧. ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يردون عبادتكم إليكم ويتبرءون منكم بدلا من أن يكونوا شفعاء لكم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾، فالآية في نفي الاستجابة وكفر الشركاء يوم القيامة في معنى قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ الأحقاف:.

٨. ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي لا يخبرك عن حقيقة الأمر مخبر مثل خبير وهو خطاب خاص بالنبي ﷺ بعد الإعراض عن خطابهم لعدم تفقههم بالبيان الحق أو خطاب عام في صورة الخطاب الخاص خوطب به السامع أي من كان كقوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ﴾ الآية السابقة، وقوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾

١٢. الناس فقراء إلى الله والله هو الغني الحميد:

المقطع [١٢] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٢»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾:

أ. لا ريب أن في الآية نوع تمهيد بالنسبة إلى الآيتين التاليتين يتبين بها مضمونها وهي مع ذلك مستقلة في مفادها.

ب. بيان ذلك: أن السياق يشعر بأن أعمال هؤلاء المكذبين كانت تكشف عن أنهم كانوا يتوهمون أن لهم أن يستغنوا عن الله سبحانه بعبادة آلهتهم وأن لله إليهم حاجة ولذلك يدعوهم إلى نفسه بالدعوة

الإلهية التي يقوم بها رسله فهناك غنى وفقر ولهم نصيب من الغنى ولله نصيب من الفقر تعالى عن ذلك.

ج. فرد الله سبحانه زعمهم ذلك بقوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فقصر الفقر فيهم وقصر الغنى فيه سبحانه فكل الفقر فيهم وكل الغنى فيه سبحانه، وإذ كان الغنى والفقر وهما الوجدان والفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم القصر السابق قصر آخر وهو قصرهم في الفقر وقصره تعالى في الغنى فليس لهم إلا الفقر وليس له تعالى إلا الغنى، فالله سبحانه غني بالذات له أن يذهبهم ويستغني عنهم وهم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره.

د. والملاك في غناه تعالى عنهم وفقرهم أنه تعالى خالقهم ومدبر أمرهم وإليه الإشارة بأخذ لفظ الجلالة في بيان فقرهم وبيان غناه، والإشارة إلى الخلق والتدبير في قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وكذا توصيفه تعالى بالحميد وهو المحمود في فعله الذي هو خلقه وتدبيره، فيعود معنى الكلام إلى نحو من قولنا: يا أيها الناس أنتم بما أنكم مخلوقون مدبرون لله الفقراء إلى الله فيكم كل الفقر والحاجة والله بما أنه الخالق المدبر، الغني لا غنى سواه.

هـ. وعلى هذا لا ضير في قصر الفقر في الناس سواء أريد به المكذبون خاصة أو عامة الناس مع كون غيرهم من المخلوقات فقراء إلى الله كمثلهم وذلك أن عموم علة الحكم يعمم الحكم فكأنه قيل: أنتم معاشر الخليقة الفقراء إلى خالقكم المدبر لأمركم وهو الغني الحميد.

٢. سؤال وإشكال: وقد أجيب عن إشكال قصر الفقر في الناس مع عمومه لغيرهم والجواب: بوجوه من الجواب:

أ. منها أن في قصر الفقر في الناس مبالغة في فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ ولا يرد الجن لأنهم لا يحتاجون في المطعم والملبس وغيرهما كما يحتاج الإنسان.

ب. ومنها أن المراد الناس وغيرهم وهو على طريقة تغليب الحاضر على الغائب وأولي العلم على غيرهم.

ج. ومنها أن الوجه حمل اللام في الناس على العهد وفي الفقراء على الجنس لأن المخاطبين في الآية هم الذين خوطبوا في قوله: ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ الآية أي ذلكم المعبود هو الذي وصف بصفات

الجلال لا الذين تدعون من دونه وأنتم أشد الخلائق احتياجا إليه.

د. ومنها أن القصر إضافي بالنسبة إليه تعالى لا حقيقي.

هـ. وغير خفي عليك أن مفاد الآية وسياقها لا يلائم شيئا من هذه الأجوبة نعم يمكن توجيه الجواب الأخير بما يرجع إلى ما قدمناه من الوجه.

٣. وتذييل الآية بصفة الحميد للإشارة إلى أنه غني محمود الأفعال إن أعطى وإن منع لأنه إذا أعطى لم يعطه لبدل لغناه عن الجزاء والشكر وكل بدل مفروض وإن منع لم يتوجه إليه لائمة إذ لا حق لأحد عليه ولا يملك منه شيء.

٤. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾:

أ. أي إن يرد إذهابكم يذهبكم أيها الناس لأنه غني عنكم لا يستضر بذهابكم ويأت بخلق جديد يحمدونه ويثنون عليه لا لحاجة منه إليهم بل لأنه حميد ومقتضاه أن يجود فيحمد وليس ذلك على الله بصعب لقدرته المطلقة لأنه الله عز اسمه.

ب. فقد بان أن مضمون الآية متفرع على مضمون الآية السابقة فقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ متفرع على كونه تعالى غنيا، وقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ متفرع على كونه تعالى حميدا، وقد فرع مضمون الجملتين في موضع آخر على غناه ورحمته قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ﴾ الأنعام:.

١٣. لا تزر وازرة وزر أخرى:

المقطع [١٣] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٥»:

١. ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾:

أ. قال الراغب: (الوزر، بفتحتين، الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل، قال تعالى: ﴿كَلَّا لا وَزَرَ﴾ والوزر، بالكسر فالسكون، الثقل تشبيها بوزر الجبل، ويعبر به عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً﴾ الآية كقوله: ﴿لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾) انتهى فالمعنى لا تحمل نفس حاملة للإثم إثم نفس أخرى ولازم ذلك أن لا تؤاخذ نفس إلا بما حملت من إثم نفسها واكتسبته من

الوزر.

ب. والآية كأنه دفع دخل يشعر به آخرها كأنه لما قال: إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين، فهددهم بالإهلاك والإفناء، قيل: هؤلاء المكذبون أخذوا بوزرهم فما حال المؤمنين؟ أيؤخذون بوزر غيرهم؟، فأجيب أن لا تزر وازرة وزر أخرى ولا تحمل نفس حمل غيرها الذي أثقلها وإن كانت ذات قربى.

ج. فهؤلاء المكذبون هم المعنيون بالتهديد ولا تنفع فيهم دعوتك وإنذارك لأنهم مطبوع على قلوبهم، وإنما ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة والفريقان لا يستويان لأن مثلهم مثل الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات.

د. فقوله: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر والإثم إثم نفس أخرى حاملة.

٢. ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة أثقلها حملها من الإثم غيرها إلى ما حملته من الإثم ليحمله عنها لا يستجاب لها ولا يحمل من حملها شيء ولو كان المدعو ذا قربى للداعي كالأب والأم والأخ والأخت.

١٤. إنذار من يخشى ربه بالغيب ويقيم الصلاة:

المقطع [١٤] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٦»:

١. ﴿إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ أي هؤلاء المكذبون لا ينتفعون بالإنذار ولا تتحقق معهم حقيقة الإنذار لأنهم مطبوع على قلوبهم إنما تنذر وينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة التي هي أفضل العبادات وأهمها وبالجملة يؤمنون بالله ويعبدونه أي الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة إثر إنذارك لا أنهم يخشون ربهم ويصلون ثم ينذرون بعد ذلك حتى يلزم تحصيل الحاصل فالآية كقوله: ﴿إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾

٢. ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾:

أ. بدل الخشية وإقامة الصلاة من التزكي للإشارة إلى أن المطلوب بالدعوة والإنذار هو التزكي

وتزكية النفس تلبسها بالخشية من الله على الغيب وإقامة الصلاة.

ب. وفيه تقرير وتأكيد لما تقدم من كونه تعالى غنيا حميدا فهو تعالى لا ينتفع بما يدعو إليه من التزكي بل الذي تزكى فإنما يتزكى لنفع نفسه.

٣. وقد ختم الآية بقوله: ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ للدلالة على أن تزكية من تزكى لا تذهب سدى، فإن كلا من الفريقين صائرون إلى ربهم لا محالة وهو يحاسبهم ويجازيهم فيجازي هؤلاء المتزكين أحسن الجزاء.

١٥. التفاوت بين الأعمى والبصير والظلمات والنور والظل والحرور:

المقطع [١٥] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ـ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٦»:

١. ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ الظاهر أنه عطف على قوله: ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ تعليل في صورة التمثيل لعدم مساواة هؤلاء المتزكين لأولئك المكذبين، وقيل: عطف على قوله السابق: ﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ﴾

٢. ﴿وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ﴾ تكرار حروف النفي مرة بعد مرة في الآية وما يليها لتأكيد النفي.

٣. ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ الحرور شدة حر الشمس على ما قيل وقيل: هو السموم وقيل: السموم يهب نهارا والحرور يهب ليلا ونهارا.

٤. ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ وإنما كرر قوله: ﴿ما يَسْتَوِي﴾ ولم يعطف ﴿الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ﴾ على قوله: ﴿الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ كرابعته لطول الفصل فأعيد ﴿ما يَسْتَوِي﴾ لئلا يغيب المعنى عن ذهن السامع فهو كقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ إلى أن قال: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، التوبة:.

ب. والجمل المتوالية المترتبة أعني قوله: ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ إلى قوله: ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ﴾ تمثيلات للمؤمن والكافر وتبعات أعمالهما.

٥. ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ﴾ وهو المؤمن كان ميتا فأحياه الله فأسمعه لما في نفسه من الاستعداد لذلك قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً﴾ الأنعام:، وأما النبي عليه السلام فإنما هو وسيلة والهدى هدى الله.

٦. ﴿وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي الأموات والمراد بهم الكفار المطبوع على قلوبهم.

٧. ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾:

أ. قصر إضافي أي ليس لك إلا إنذارهم وأما هداية من اهتدى منهم وإضلال من ضل ولم يهتد جزاء له بسيئ عمله فإنما ذلك لله سبحانه.

ب. ولم يذكر البشير مع النذير مع كونه ﷺ متلبسا بالوصفين معا لأن المقام مقام الإنذار فالمناسب هو التعرض لوصف الإنذار مع أنه مذكور في الآية التالية.

٨. ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾:

أ. المفاد على ما يقتضيه السياق إنا أرسلناك بالتبشير والإنذار وليس ببدع مستغرب فما من أمة من الأمم إلا وقد خلا ومضى فيها نذير فذلك من سنن الله الجارية في خلقه.

ب. وظاهر السياق أن المراد بالنذير الرسول المبعوث من عند الله وفسر بعضهم النذير بمطلق من يقوم بالعظة والإنذار من نبي أو عالم غير نبي وهو خلاف ظاهر الآية.

ج. نعم ليس من الواجب أن يكون نذير كل أمة من أفرادها فقد قال تعالى: ﴿خَلا فِيها﴾ ولم يقل: (خلا منها)

٩. وضع هنا مبحثا حول [معنى عموم الإنذار]، خلاصته:

أ. تقدم في أبحاث النبوة وقصص نوح ما يدل من طريق العقل على عموم النبوة، ويؤيده الكتاب، فلا تخلو أمة من الأمم الإنسانية عن ظهور دعوة نبوية فيها، وأما كون نبي كل أمة من نفس تلك الأمة فلا دليل عليه.

ب. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] يفيد أن كل أمة كان فيها نذير، لكن لا يستلزم أن يبلغ الإنذار كل فرد فرد من الأمة.

ج. فعلية الإنذار واطراد الدعوة في كل فرد لا توافقها حكومة العلل والأسباب المتزاحمة في هذه

النشأة المادية، كما أن كل مولود إنساني مجهز لأن يعمر عمراً طبيعياً، لكن الحوادث تحول بين أكثر الأفراد وبين ذلك.

د. النبوة والإنذار عام لكل أمة، لكن لا يستلزم أن تبلغ الدعوة كل شخص من أشخاصها، بل من الجائز أن تبلغ بعض الأمة وتتخلف عن بعض لحيلولة علل وأسباب مزاحمة، فمن بلغته الدعوة تمت عليه الحجة، ومن لم تبلغه لم تتم عليه الحجة وكان من المستضعفين، وأمره إلى الله، قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٨]

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ قال: هؤلاء الكفار لا يسمعون منك، كما لا يسمع أهل القبور.

ب. أخرج أبو سهل السري بن سهل الجنديسابوري الخامس من حديثه من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن ابن عباس: في قوله: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ قال كان النبي ﷺ يقف على القتلى يوم بدر ويقول: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، يا فلان بن فلان ألم تكفر بربك؟ ألم تكذب نبيك؟ ألم تقطع رحمك؟ فقالوا: يا رسول الله أيسمعون ما تقول؟ قال: ما أنتم بأسمع منهم لما أقول: فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ مثل ضربه الله للكفار أنهم لا يسمعون لقوله.

- أقول: وفي الرواية ما لا يخفى من لوائح الوضع فساحة النبي عليه السلام أجل من أن يقول ما ليس له به علم من ربه حتى ينزل الله عليه آية تكذبه فيما يدعيه ويخبر به.
- على أن ما نقله من الآية لا يطابق المصحف فصدره مأخوذ من سورة النمل [الآية: ٨٠] وذيله مأخوذ من سورة فاطر [الآية: ٢٢]، على أن سياق الآية مكي في سياق آيات سابقة ولاحقة مكية.

ج. وفي الإحتجاج، في احتجاج الصادق عليه السلام: قال السائل فأخبرني عن المجوس أفبعث إليهم نبيا؟ فإني أجد لهم كتبا محكمة، ومواعظ بليغة وأمثالا شافية، ويقرون بالثواب والعقاب، ولهم شرائع يعملون بها، قال: ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وقد بعث إليهم نبي بكتاب من عند الله، فأنكروه وجحدوا كتابه.

١٦. تكذيب الأمم السابقة للرسل وعاقبة نكير الله:

المقطع [١٦] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥ـ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٣٧»:

١. ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ﴾ البينات هي الآيات المعجزة التي تشهد على حقية الرسل، والزبر جمع زبور ولعل المراد بها بقرينة مقابلتها للكتاب الصحائف والكتب التي فيها ذكر الله تعالى من غير أن تتضمن الأحكام والشرائع، والكتاب المنير الكتاب المنزل من السماء المتضمن للشرائع ككتاب نوح وإبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليه السلام، ومعنى الآية ظاهر.

٢. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ الأخذ كناية عن التعذيب، والنكير الإنكار، والباقي ظاهر.

١٧. اختلاف ألوان الثمار والجبال والناس والدواب وخشية العلماء:

المقطع [١٧] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ـ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤١»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها﴾:

أ. حجة أخرى على التوحيد وهو أن الله سبحانه ينزل الماء من السماء بالأمطار وهو أقوى العوامل المعينة لخروج الثمرات، ولو كان خروجها عن مقتضى طباع هذا العامل وهو واحد لكان جميعها ذا لون واحد فاختلاف الألوان يدل على وقوع التدبير الإلهي.

ب. والقول بأن اختلافها منوط باختلاف العوامل المؤثرة فيها ومنها اختلاف العناصر الموجودة فيها نوعا وقدرا وخصوصية التأليف، مدفوع بأن الكلام منقول حينئذ إلى اختلاف نفس العناصر وهي منتهية إلى المادة المشتركة التي لا اختلاف فيها فاختلاف العناصر المكونة منها يدل على عامل آخر وراء

المادة يدبر أمرها ويسوقها إلى غايات مختلفة.

ج. والظاهر أن المراد باختلاف ألوان الثمرات اختلاف نفس ألوانها ويلزمه اختلافات أخر من حيث الطعم والرائحة والخواص، وقيل المراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع فكثيرا ما يطلق اللون في الفواكه والأطعمة على النوع كما يقال: قدم فلان ألوانا من الطعام والفاكهة فهو من الكناية، وقوله بعد: ﴿وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ لا يخلو من تأييد للوجه الأول.

د. وفي قوله: ﴿فَأَخْرَجْنا بِهِ﴾، التفات من الغيبة إلى التكلم، قيل: إن ذلك لكمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة.

هـ. ونظير الوجه يجري في قوله السابق: ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ وأما ما في الآية السابقة من قوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ فلعل الوجه فيه أن أمرهم إلى الله لا يتخلل بينه وبينهم أحد حتى يشفع لهم أو ينصرهم فينجوا من العذاب.

٢. ﴿وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ﴾:

أ. الجدد بالضم فالفتح جمع جدة بضم الجيم وهي الطريقة والجادة، والبيض والحمر جمع أبيض وأحمر، والظاهر أن قوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها﴾ صفة لجدد و﴿أَلْوانُها﴾ فاعل ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ ولو كانت الجملة مبتدأ وخبرا لقيل: مختلفة ألوانها كما قيل، والغرابيب جمع غربيب وهو الأسود الشديد السواد ومنه الغراب و﴿سُودٌ﴾ بدل أو عطف بيان لغرابيب.

ب. والمعنى: ألم تر أن من الجبال طرائق بيض وحمر وسود مختلف ألوانها، والمراد إما الطرق المسلوكة في الجبال ولها ألوان مختلفة، وإما نفس الجبال التي هي خطوط مختلفة ممدودة على وجه الأرض بيض وحمر وسود مختلف ألوانها.

٣. ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ﴾:

أ. أي ومن الناس والدواب التي تدب في الأرض والأنعام كالإبل والغنم والبقر بعض مختلف ألوانه بالبياض والحمرة والسواد كاختلاف الثمرات والجبال في ألوانها.

ب. وقيل: قوله: ﴿كَذلِكَ﴾ خبر لمبتدإ محذوف، والتقدير الأمر كذلك فهو تقرير إجمالي للتفصيل المتقدم من اختلاف الثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام.

ج. وقيل: ﴿كَذلِكَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَخْشَى﴾ في قوله: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ والإشارة إلى ما تقدم من الاعتبار بالثمرات والجبال وغيرهما والمعنى إنما يخشى الله كذلك الاعتبار بالآيات من عباده العلماء، وهو بعيد لفظا ومعنى.

٤. ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾:

أ. استئناف يوضح أن الاعتبار بهذه الآيات إنما يؤثر أثره ويورث الإيمان بالله حقيقة والخشية منه بتمام معنى الكلمة في العلماء دون الجهال، وقد مر أن الإنذار إنما ينجح فيهم حيث قال: ﴿إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ فهذه الآية كالموضحة لمعنى تلك تبين أن الخشية حق الخشية إنما توجد في العلماء.

ب. والمراد بالعلماء العلماء بالله وهم الذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة تامة تطمئن بها قلوبهم وتزيل وصمة الشك والقلق عن نفوسهم وتظهر آثارها في أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم، والمراد بالخشية حينئذ حق الخشية ويتبعها خشوع في باطنهم وخضوع في ظاهرهم، هذا ما يستدعيه السياق في معنى الآية.

٥. ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يفيد معنى التعليل فلعزته تعالى وكونه قاهرا غير مقهور وغالبا غير مغلوب من كل جهة يخشاه العارفون، ولكونه غفورا كثير المغفرة للآثام والخطيئات يؤمنون به ويتقربون إليه ويشتاقون إلى لقائه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ الآية: روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: يعني بالعلماء من صدق قوله فعله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم، وفي الحديث أعلمكم بالله أخوفكم لله.

• أقول: وفي روضة الكافي، بإسناده عن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام ما في معناه.

ب. أخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: العلم علمان: علم في القلب فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان فذاك حجة الله على خلقه.

١٨. التلاوة والصلاة والإنفاق والتجارة:

المقطع [١٨] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ـ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٣»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ تلاوة الكتاب قراءة القرآن وقد أثنى عليها الله سبحانه، وإقامة الصلاة إدامة إتيانها وحفظها من أن تترك، والإنفاق من الرزق سرا وعلانية بذل المال سرا تحذرا من الرياء وزوال الإخلاص في الإنفاق المسنون، وبذل المال علانية ليشيع بين الناس كما في الإنفاق الواجب.

٢. ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ أي لن تهلك بالخسران، وذكر بعضهم أن قوله: ﴿يَرْجُونَ﴾، خبر إن في صدر الآية وعند بعضهم الخبر مقدر يتعلق به قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ (أي فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم)

٣. ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ وما عطف عليه في الآية السابقة أي إنهم عملوا ما عملوا لأن يوفيهم ويؤتيهم إيتاء تاما كاملا أجورهم وثوابات أعمالهم.

٤. ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يمكن أن يراد بهذه الزيادة تضعيف الثواب أضعافا كما في قوله: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ الأنعام: وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ البقرة:، ويمكن أن يراد بها زيادة ليست من سنخ ثواب الأعمال كما في قوله: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ ق:.

٥. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعليل لمضمون الآية وزيادة فهو تعالى لكونه غفورا يغفر زلاتهم ولكونه شكورا يثيبهم ويزيد من فضله.

١٩. الوحي والكتاب حق مصدق لما بين يديه:

المقطع [١٩] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٤»:

١. ﴿وَالَّذِي أَوْحَينا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ ضمير الفصل واللام في قوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾

للتأكيد لا للقصر أي هو حق لا يشوبه باطل.

٢٠. إرث الكتاب لمن اصطفى من العباد:

المقطع [٢٠] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٤»:

لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وبيان المراد بالمصطفين]، خلاصته:

أ. بيان أن المراد بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ في الآية هو القرآن الكريم، وأن ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي، أي بعد إنزال الوحي أورث الله الكتاب المصطفين من عباده.

ب. إثبات أن المراد بـ ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ هم ذرية النبي ﷺ من ولد فاطمة عليها السلام، كما ورد في الروايات المستفيضة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ج. توضيح أن الآية تقسم المصطفين إلى ثلاثة أصناف: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، وأن السابق بالخيرات هو الإمام، والمقتصد هو العارف بالإمام، والظالم لنفسه هو من لا يعرف الإمام.

د. بيان أن إيراث الكتاب للمصطفين لا يمنع انتفاع غيرهم به، وإنما القائمون بحقه وحفظه هم المصطفون، كما ورد في إيراث بني إسرائيل الكتاب.

هـ. الرد على الأقوال الأخرى في تفسير الآية، وبيان أن الروايات المتواترة عن أهل البيت عليهم السلام تخصص المعنى وتوضح المراد.

و. عرض الروايات الواردة في تفسير الآية، وبيان أنها تدل على أن الآية خاصة بولد فاطمة عليهم السلام.

٢١. الجنات والأساور والحرير والحمد:

المقطع [٢١] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٣ـ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٧»:

١. ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ التحلية هي التزيين والأساور جمع أسورة وهي جمع سوار بكسر السين قال الراغب: (سوار المرأة معرب وأصله دستواره) انتهى

٢. ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾، ظاهره أنه بيان للفضل الكبير قال في المجمع: (هذا تفسير للفضل كأنه قيل: ما ذلك الفضل؟ فقال: هي جنات أي جزاء جنات أو دخول جنات ويجوز أن يكون بدلا من الفضل كأنه قال: ذلك دخول جنات) والباقي ظاهر.

٣. ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

أ. قيل: المراد بالحزن الذي يحمدون الله على إذهابه بإدخالهم الجنة الحزن الذي كان يتوجه إليهم في الحياة الدنيا وما يحف بها من الشدائد والنوائب.

ب. وقيل: المراد به الحزن الذي كان قد أحاط بهم بعد الارتحال من الدنيا، وقيل الدخول في جنة الآخرة إشفاقا مما اكتسبوه من السيئات.

ج. وعلى هذا فالقول قول الظالم لنفسه منهم أو قوله وقول المقتصد وأما السابق بالخيرات منهم فلا سيئة في صحيفة أعماله حتى يعذب بها، وهذا الوجه أنسب لقولهم في آخر حمدهم: ﴿إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

٤. ﴿الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾:

أ. المقامة الإقامة، ودار المقامة المنزل الذي لا خروج منه ولا تحول.

ب. والنصب بفتحتين التعب والمشقة، واللغوب بضم اللام: العي والتعب في طلب المعاش وغيره.

ج. والمعنى: الذي جعلنا حالين في دار الخلود من فضله من غير استحقاق منا عليه لا يمسنا في هذه الدار وهي الجنة مشقة وتعب ولا يمسنا فيها عي ولا كلال في طلب ما نريد أي إن لنا فيها ما نشاء.

د. وفي قوله: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ مناسبة خاصة مع قوله السابق: ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾

٢٢. نار جهنم للكافرين واصطراخهم وطلبهم الرجعة:

المقطع [٢٢] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٨»:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ﴾ اللام في ﴿لَهُمْ﴾ للاختصاص ويفيد كون النار جزاء لهم لا ينفك عنهم، وقوله: ﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت حتى يموتوا فهم أحياء على ما هم فيه من شدة العذاب ولا يخفف عنهم من عذاب النار كذلك نجزي كل كفور شديد الكفران أو كثيره.

٢. ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا﴾:

أ. في المجمع: (الاصطراخ الصياح والنداء بالاستغاثة افتعال من الصراخ)

ب. ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا﴾، بيان لاصطراخهم، وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾، جواب اصطراخهم وقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ وقوله: ﴿فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ كل منهما متفرع على ما قبله.

ج. والمعنى، وهؤلاء الذين في النار من الكفار يصطرخون ويصيحون بالاستغاثة فيها قائلين: ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحا غير سيئ غير الذي كنا نعمل فيقال لهم ردا عليهم:، كلا، أولم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا ولم تؤمنوا؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصرهم ليتخلصوا من العذاب.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في نهج البلاغة، وقال: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة.

• أقول: ورواه عنه عليه السلام في المجمع: (ورواه في الدر المنثور، عن ابن جرير عنه عليه السلام.

ب. أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبيهقي في سننه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين وهو المعمر الذي قال الله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾

• أقول: وروي ذلك بطرق أخرى عن سهل بن سعد وأبي هريرة عنه ﷺ.

ج. وفي المجمع: وقيل هو توبيخ لابن ثماني عشرة سنة، وروي ذلك عن الباقر عليه السلام.

• أقول: ورواه في الفقيه، عنه عليه السلام مضمرا.

٢٣. الله عالم غيب السموات والأرض وما في الصدور والخلافة:

المقطع [٢٣] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٨-٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٤٨»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ فيعاملكم بما في باطنكم من الاعتقاد وآثار الأعمال ويحاسبكم عليه سواء وافق ظاهركم باطنكم أو خالف قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾

٢. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. الخلائف جمع خليفة، وكون الناس خلائف في الأرض هو قيام كل لاحق منهم مقام سابقه وسلطته على التصرف والانتفاع منها كما كان السابق مسلطا عليه وهم إنما نالوا هذه الخلافة من جهة نوع الخلقة وهو الخلقة من طريق النسل والولادة فإن هذا النوع من الخلقة يقسم المخلوق إلى سلف وخلف.

ب. فجعل الخلافة الأرضية نوع من التدبير مشوب بالخلق غير منفك عنه ولذلك استدل به على توحده تعالى في ربوبيته لأنه مختص به تعالى لا مجال لدعواه لغيره.

ج. فقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ حجة على توحده تعالى في ربوبيته وانتفائها عن شركائهم: تقريره أن الذي جعل الخلافة الأرضية في العالم الإنساني هو ربهم المدبر لأمرهم، وجعل الخلافة لا ينفك عن نوع الخلقة فخالق الإنسان هو رب الإنسان لكن الخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله هو رب الإنسان.

٣. ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي فالله سبحانه هو رب الإنسان فمن كفر وستر هذه الحقيقة ونسب الربوبية إلى غيره تعالى فعلى ضرره كفره.

٤. ﴿وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً﴾:

أ. بيان لكون كفرهم عليهم وهو أن كفرهم يورث لهم مقتا عند ربهم والمقت شدة البغض لأن فيه إعراضا عن عبوديته واستهانة بساحته، ويورث لهم خسارا في أنفسهم لأنهم بدلوا السعادة الإنسانية شقاء ووبالا سيصيبهم في مسيرهم ومنقلبهم إلى دار الجزاء.

ب. وإنما عبر عن أثر الكفر بالزيادة لأن الفطرة الإنسانية بسيطة ساذجة واقعة في معرض الاستكمال والازدياد فإن أسلم الإنسان زاده ذلك كمالا وقربا من الله وإن كفر زاده ذلك مقتا عند الله وخسارا.

ج. وإنما قيد المقت بقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ دون الخسار لأن الخسار من تبعات تبديل الإيمان كفرا والسعادة شقاء وهو أمر عند أنفسهم وأما المقت وشدة البغض فمن عند الله سبحانه.

د. والحب والبغض المنسوبان إلى الله سبحانه من صفات الأفعال وهي معان خارجة عن الذات غير قائمة بها، ومعنى حبه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه وانجذابها إليه وبغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه وابتعادها عنه.

٢٤. تحدّي المشركين بشركائهم وأنهم لا يملكون شيئاً:

المقطع [٢٤] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٥٢»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. إضافة الشركاء إليهم بعناية أنهم يدعون أنهم شركاء لله فهي إضافة لامية مجازية.

ب. وفي الآية تلقين النبي ﷺ الحجة على نفي ربوبية آلهتهم الذين كانوا يعبدونهم وتقرير الحجة أنهم لو كانوا أربابا آلهة من دون الله لكان لهم شيء من تدبير العالم فكانوا خالقين لما يدبرونه لأن الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر ولو كانوا خالقين لدل عليه دليل والدليل إما من العالم أو من قبل الله سبحانه أما العالم فلا شيء منه يدل على كونه مخلوقا لهم ولو بنحو الشركة وهو قوله: ﴿أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾ وأما من قبله تعالى فلو كان لكان كتابا سماويا نازلا من عنده

سبحانه يعترف بربوبيتهم ويجوز للناس أن يعبدوهم ويتخذوهم آلهة، ولم ينزل كتاب على هذه الصفة وهم معترفون بذلك وهو قوله: ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾

ج. وإنما عبر عن نفي خالقيتهم في الأرض بقوله: ﴿أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ولم يقل: أنبئوني ألهم شرك في الأرض؟ وعبر في السماوات بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾ ولم يقل: أم ما ذا خلقوا من السماوات، لأن المراد بالأرض، على ما يدل عليه سياق الاحتجاج، العالم الأرضي وهو الأرض بما فيها وما عليها والمراد بالسماوات العالم السماوي المشتمل على السماوات وما فيها وما عليها فقوله: ﴿ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ في معنى ألهم شرك في الأرض ولا يكون إلا بخلق شيء منها، وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾ في معنى أم ما ذا خلقوا من السماوات، وقد اكتفى بذكر الخلق في جانب الأرض إشارة إلى أن الشرك في الربوبية لا يكون إلا بخلق.

٢. ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾:

أ. أي بل آتيناهم كتابا فهم على بينة منه أي على حجة ظاهرة من الكتاب أن لشركائهم شركة معنا وذلك بدلالته على أنهم شركاء لله.

ب. وقد قال: ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً﴾ ولم يقل: أم لهم كتاب ونحو ذلك ليتأكد النفي والإنكار فإن قولنا: أم لهم كتاب ونحو ذلك إنكار لوجود الكتاب لكن قوله: ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً﴾ إنكار لوجود الكتاب ممن ينزل الكتاب لو نزل.

ج. وقد تبين بما تقدم أن ضمير الجمع في ﴿آتَيْناهُمْ﴾ وفي ﴿فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ﴾ للمشركين فلا يعبأ بما قيل: إن الضميرين للشركاء.

٣. ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً﴾:

أ. إضراب عما تقدم من الاحتجاج بأن الذي حملهم على الشرك ليس هو حجة تحملهم عليه ويعتمدون عليها بل غرور بعضهم بعضا بوعد الشفاعة والزلفى فأسلافهم يغرون أخلافهم ورؤساؤهم وأئمتهم يغرون مرءوسيهم وتابعيهم ويعدونهم شفاعة الشركاء عند الله سبحانه ولا حقيقة لها.

ب. وحجة الآية عامة على المشركين عبدة الأصنام وهم الذين يعبدون الملائكة والجن وقديسي البشر ويتخذون لهم أصناما يتوجهون إليها، وعلى الذين يعبدون روحاني الكواكب ويتوجهون إلى

الكواكب ثم يتخذون للكواكب أصناما، وعلى الذين يعبدون الملائكة والعناصر من غير أن يتخذوا لها أصناما كما ينقل عن الفرس القدماء، وعلى الذين يعبدون بعض البشر كالنصارى للمسيح عليه السلام.

٢٥. الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا:

المقطع [٢٥] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٥٥»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾:

أ. قيل: إن الآية استئناف مقرر لغاية قبح الشرك وهوله أي إن الله تعالى يحفظ السماوات والأرض كراهة أن تزولا أو لئلا تزولا وتضمحلا لأن الممكن كما يحتاج إلى الواجب حال إيجاده يحتاج إليه حال بقائه)

ب. والظاهر أنه تعالى لما استدل على توحده في الربوبية بجعل الخلافة في النوع الإنساني بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ثم نفى الشركة مطلقا بالحجة عمم الحجة بحيث تشمل الخلق كله أعني السماوات والأرض فاحتج على توحده بإبقاء الخلق بعد إحداثه فإن من البين الذي لا يرتاب فيه أن حدوث الشيء وأصل تلبسه بالوجود بعد العدم غير بقائه وتلبسه بالوجود بعد الوجود على نحو الاستمرار فبقاء الشيء بعد حدوثه يحتاج إلى إيجاد بعد إيجاد على نحو الاتصال والاستمرار.

ج. وإبقاء الشيء بعد إحداثه كما أنه إيجاد بعد الإيجاد كذلك هو تدبير لأمره فإنك إن دققت النظر وجدت أن النظام الجاري في الكون إنما يجري بالإحداث والإبقاء فقط، والموجد والخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله سبحانه هو الخالق المدبر للسماوات والأرض وحده لا شريك له.

د. فقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ الإمساك بمعناه المعروف وقوله: ﴿أَنْ تَزُولا﴾ وتقديره كراهة أن تزولا أو لئلا تزولا، متعلق به، وقيل: الإمساك بمعنى المنع أو بمعنى الحفظ وعلى أي حال فالإمساك كناية عن الإبقاء وهو الإيجاد بعد الإيجاد على سبيل الاتصال والاستمرار، والزوال هو الاضمحلال والبطلان.

هـ. ونقل عن بعضهم أنه فسر الزوال بالانتقال المكاني، والمعنى أن الله يمنع السماوات والأرض

من أن ينتقل شيء منهما عن مكانه الذي استقر فيه فيرتفع أو ينخفض) والشأن في تصور مراده تصورا صحيحا.

٢. ﴿وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ السياق يعطي أن المراد بالزوال هاهنا الإشراف على الزوال إذ نفس الزوال لا يجتمع معه الإمساك والمعنى وأقسم لئن أشرفتا على الزوال لم يمسكهما أحد من بعد الله سبحانه إذ لا مفيض للوجود غيره ويمكن أن يكون المراد بالزوال معناه الحقيقي والمراد بالإمساك القدرة على الإمساك وقد تبين أن ﴿مِنْ﴾ الأولى زائدة للتأكيد والثانية للابتداء، وضمير ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ راجع إليه تعالى، وقيل: راجع إلى الزوال.

٣. ﴿إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾:

أ. فهو لحلمه لا يعجل إلى أمر ولمغفرة يستر جهات العدم في الأشياء، ومقتضى الاسمين أن يمسك السماوات والأرض أن تزولا إلى أجل مسمى.

ب. وقال في إرشاد العقل السليم: (إنه كان حليما غفورا غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هدا حسبما قال تعالى: ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾)

٢٦. الأيمان والهداية والنفور:

المقطع [٢٦] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٥٦»:

١. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾:

أ. قال الراغب: (الجهد، بفتح الجيم، والجهد، بضمها، الطاقة والمشقة، إلى أن قال، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ﴾ أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم)

ب. وقال: (النفر الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالفزع إلى الشيء وعن الشيء يقال: نفر عن الشيء نفورا قال تعالى: ﴿ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾)

ج. قيل بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم) انتهى، وسياق الآية يصدق هذا النقل ويؤيده.

د. فقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الضمير لقريش وقد حلفوا هذا الحلف قبل بعثة النبي ﷺ بدليل قوله بعد: ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾، والمقسم به قوله: ﴿لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾

٢. ﴿لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾:

أ. أي إحدى الأمم التي جاءهم نذير كاليهود والنصارى وإنما قال: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ ولم يقل: أهدى منهم لأن المعنى أنهم كانوا أمة ما جاءهم نذير ثم لو جاءهم نذير كانوا أمة ذات نذير كإحدى تلك الأمم المنذرة ثم بتصديق النذير يصيرون أهدى من التي ماثلوها وهو قوله: ﴿أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ فافهمه.

ب. وقيل: إن مقتضى المقام العموم، وقوله: ﴿إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ عام وإن كان نكرة في سياق الإثبات واللام في ﴿الْأُمَمِ﴾ للعهد، والمعنى ليكونن أهدى من كل واحدة من تلك الأمم التي كذبوا رسلهم من اليهود والنصارى وغيرهم.

ج. وقيل: المعنى ليكونن أهدى من أمة يقال فيها: إحدى الأمم تفضيلا لها على غيرها من الأمم كما يقال: هو واحد القوم وواحد عصره، ولا يخلو الوجه الأخير عن تكلف وبعد.

٣. ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ المراد بالنذير النبي ﷺ والنفور التباعد والهرب.

٢٧. الاستكبار والمكر السيء لا يحيق إلا بأهله:

المقطع [٢٧] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٥٧»:

١. ﴿اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾:

أ. قال الراغب: (المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكر محمود وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح

قال تعالى: ﴿لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾)

ب. وقال أيضا: (قال عز وجل: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي لا ينزل ولا يصيب، قيل: وأصله حق فقلب نحو زل وزال وقد قرئ فأزلهما الشيطان وأزالهما وعلى هذا ذمه وذامه)

ج. ﴿اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ﴾ مفعول لأجله لقوله: ﴿نُفُوراً﴾ أي نفروا عنه وتباعدوا للاستكبار في الأرض وقوله: ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ معطوف على ﴿اسْتِكْباراً﴾ ومفعول لأجله مثله، وقيل: معطوف على ﴿نُفُوراً﴾ والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة بدليل قوله ثانيا: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾

٢. ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾:

أ. أي لا يصيب ولا ينزل المكر السيئ إلا بأهله ولا يستقر إلا فيه، فإن المكر السيئ وإن كان ربما أصاب به مكروه للممكور به، لكنه سيزول ولا يدوم إلا أن أثره السيئ بها أنه المكر سيئ يبقى في نفس الماكر وسيظهر فيه ويجزى به إما في الدنيا وإما في الآخرة البتة، ولهذا فسر الآية في مجمع البيان، بقوله: والمعنى لا ينزل جزاء المكر السيئ إلا بمن فعله.

ب. والكلام مرسل إرسال المثل كقوله تعالى: ﴿إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ يونس: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ﴾ الفتح:.

٣. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ النظر والانتظار بمعنى التوقع والفاء للتفريع والجملة استنتاج مما تقدمها والاستفهام للإنكار والمعنى وإذ مكروا المكر السيئ والمكر السيئ يحيق بأهله فهم لا ينتظرون إلا السنة الجارية في الأمم الماضين وهي العذاب الإلهي النازل بهم إثر مكرهم وتكذيبهم بآيات الله.

٤. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾:

أ. تبديل السنة أن توضع العافية والنعمة موضع العذاب، وتحويلها أن ينقل العذاب من قوم يستحقونه إلى غيرهم، وسنة الله لا تقبل تبديلا ولا تحويلا لأنه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبعيضا ولا استثناء.

ب. وقد أخذ الله بالعذاب هؤلاء المشركين الماكرين يوم بدر فقتل عامتهم، والخطاب للنبي ﷺ أو لكل سامع.

٢٨. السير في الأرض والنظر في عواقب الأمم:

المقطع [٢٨] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٥٨»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ استشهاد على سنته الجارية في الأمم الماضية وقد كانوا أشد قوة من مشركي مكة فأخذهم الله بالعذاب لما مكروا وكذبوا.

٢. ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً﴾ ﴿قَدِيراً﴾ تتميم لسابق البيان لمزيد إنذارهم وتخويفهم، والمحصل ليتقوا الله وليؤمنوا به ولا يمكروا به ولا يكذبوا فإن سنة الله في ذلك هي العذاب كما يشهد به ما جرى في الأمم السابقة من الإهلاك والتعذيب وقد كانوا أشد قوة منهم والله سبحانه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض بقوة أو مكر فإنه عليم على الإطلاق لا يغفل ولا يجهل حتى ينخدع بمكر أو حيلة قدير على الإطلاق لا يقاومه شيء.

٢٩. المؤاخذة والأجل:

المقطع [٢٩] من سورة فاطر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٥٩»:

١. ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾:

أ. المراد بالمؤاخذة المؤاخذة الدنيوية كما يدل عليه قوله الآتي: ﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، والمراد بالناس جميعهم فإن الآية مسبوقة بذكر مؤاخذة بعضهم وهم الماكرون المكذبون بآيات الله، والمراد بما كسبوا المعاصي التي اكتسبوها بقرينة المؤاخذة التي هي العذاب وقد قال في نظيره الآية من سورة النحل: ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ﴾ النحل:.

ب. والمراد بظهرها ظهر الأرض لأن الناس يعيشون عليه على أن الأرض تقدم ذكرها في الآية السابقة.

ج. والمراد بالدابة كل ما يدب في الأرض من إنسان ذكر أو أنثى أو كبير أو صغير واحتمل أن يكون المراد كل ما يدب في الأرض من حيوان وإهلاك غير الإنسان من أنواع الحيوان إنما هو لكونها مخلوقة للإنسان كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ البقرة:.

د. وقول بعضهم: ذلك لشؤم المعاصي وقد قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ مدفوع بأن شؤم المعصية لا يتعدى العاصي إلى غيره وقد قال تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ فاطر:، وأما الآية أعني قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال: فمدلولها على ما تقدم من تفسيرها اختصاص الفتنة بالذين ظلموا منهم خاصة لا عمومها لهم ولغيرهم فراجع.

٢. ﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهو الموت أو القيامة وقوله: ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً﴾ أي فيجازي كلا بما عمل فإنه بصير بهم عليم بأعمالهم لأنهم عباده وكيف يمكن أن يجهل الخالق خلقه والرب عمل عبده؟

٣. وقد بان بما تقدم أن قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً﴾ من وضع السبب موضع المسبب الذي هو الجزاء.

٤. والآية أعني قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ﴾، واقعة موقع الجواب عن سؤال مقدر ناش عن الآية السابقة فإنه تعالى لما أنذر أهل المكر والتكذيب من المشركين بالمؤاخذة واستشهد بما جرى في الأمم السابقة وذكر أنه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض كأنه قيل: فإذا لم يعجزه شيء في السماوات والأرض فكيف يترك سائر الناس على ما هم عليه من المعاصي؟ وما ذا يمنعه أن يؤاخذهم بما كسبوا؟ فأجاب أنه لو يؤاخذ جميع الناس بما كسبوا من المعاصي كما يؤاخذ هؤلاء الماكرين المكذبين ما ترك على ظهر الأرض أحدا منهم يدب ويتحرك، وقد قضى سبحانه أن يعيشوا في الأرض ويعمروها إذ قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ البقرة: فلا يؤاخذهم ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى وهو الموت أو البعث فإذا جاء أجلهم عاملهم بما عملوا إنه كان بعباده بصيرا.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، حدثني أبي عن النوفلي عن السكوني عن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: سبق العلم، وجف القلم، ومضى القضاء وتم القدر، بتحقيق الكتاب، وتصديق الرسل، وبالسعادة من الله لمن آمن واتقى، وبالشقاء لمن كذب وكفر، وبالولاية من الله عز وجل

للمؤمنين، وبالبراءة منه المشركين، ثم قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل يقول: يا ابن آدم بمشيتي كنت أنت، الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي، وبقوتي وعصمتي وعافيتي أديت إلي فرائضي، وأنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بذنبك مني، الخير مني إليك واصل بما أوليتك به، والشر منك إليك بما جنيت جزاء، وبكثير من تسلطي لك انطويت على طاعتي، وبسوء ظنك بي قنطت من رحمتي، فلي الحمد والحجة عليك بالبيان، ولي السبيل عليك بالعصيان، ولك الجزاء الحسن عندي بالإحسان، لم أدع تحذيرك، ولم آخذك عند غرتك، وهو قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا﴾ ـ﴿ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾، لم أكلفك فوق طاقتك، ولم أحملك من الأمانة إلا ما أقررت بها على نفسك، ورضيت لنفسي منك بما رضيت به لنفسك مني، ثم قال عز وجل: ﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ـ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً﴾

سورة يس

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة بيان الأصول الثلاثة للدين، فهي تبتدئ بالنبوة وتصف حال الناس في قبول الدعوة وردها، وأن غاية الدعوة الحقة إحياء قوم بركوبهم صراط السعادة، وتحقيق القول على آخرين، وبعبارة أخرى تكميل الناس في طريقي السعادة والشقاء.

ب. ثم تنتقل السورة إلى التوحيد فتعد جُملة من آيات الوحدانية، ثم تنتقل إلى ذكر المعاد فتذكر بعث الناس للجزاء وامتياز المجرمين يومئذ من المتقين، وتصف ما تئول إليه حال كل من الفريقين.

ج. ثم ترجع إلى ما بدأت، فتلخص القول في الأصول الثلاثة وتستدل عليها، وعند ذلك تختتم السورة.

د. ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

هـ. فالسورة عظيمة الشأن، تجمع أصول الحقائق وأعراقها، وقد ورد من طرق العامة والخاصة: أن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس.

و. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٢] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن القرآن حق منزل من العزيز الرحيم، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم، وتذكر أن أكثرهم غافلون، وتأمر بالإنذار لمن اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، وتثبت أن الله يحصي كل شيء.

٢. الآيات [١٣ ـ ٣٢]:

أ. مثل مشتمل على الإنذار والتبشير، ضربه الله سبحانه لعامة القوم، يشير فيه إلى الرسالة الإلهية وما تستتبعه الدعوة الحقة من المغفرة والأجر الكريم لمن آمن بها واتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، ومن

العذاب الأليم لمن كفر وكذب بها فحق عليه القول.

ب. وفيه إشارة إلى وحدانيته تعالى، ومعاد الناس إليه جميعاً.

ج. ولا منافاة بين إخباره بأنهم لا يؤمنون سواء أنذروا أم لم ينذروا، وبين إنذارهم، لأن في البلاغ إتماماً للحجة وتكميلاً للسعادة أو الشقاوة، قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]

٣. الآيات [٣٢ ـ ٤٧]:

أ. بعد ما قص عليهم قصة أصحاب القرية وما آل إليه أمرهم في الشرك وتكذيب الرسل، ووبخهم على الاستهانة بأمر الرسالة، وأنذرهم بنزول العذاب عليهم كما نزل على المكذبين من القرون الأولى، وبأنهم جميعاً محضرون للحساب والجزاء.

ب. أورد آيات من الخلق والتدبير تدل على ربوبيته وألوهيته تعالى وحده لا شريك له، ثم وبخهم على ترك النظر في آيات الوحدانية والمعاد والإعراض عنها، والاستهزاء بالحق، والإمساك عن الإنفاق للفقراء والمساكين.

٤. الآيات [٤٨ ـ ٦٥] لما فرغ من تفصيل آيات التوحيد المشار إليه إجمالاً في أول الكلام، شرع في تفصيل خبر المعاد وذكر كيفية قيام الساعة وإحضارهم للحساب والجزاء، وما يجزى به أصحاب الجنة، وما يجازى به المجرمون، كل ذلك تبييناً لما تقدم من إجمال خبر المعاد.

٥. الآيات [٦٦ ـ ٨٣] بيان تلخيصي للمعاني السابقة في سياق آخر، ففيه تهديد لهم بالعذاب، والإشارة إلى أنه ﷺ رسول وأن كتابه ذكر وقرآن، وليس بشاعر ولا كتابه بشعر، والإشارة إلى خلق الأنعام آية للتوحيد، والاحتجاج على الميعاد.

١. القرآن الحكيم وإرسال الرسل وإنذار الغافلين:

المقطع [١] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٦٢»:

١. ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ غافِلُونَ﴾ إقسام منه تعالى بالقرآن الحكيم على كون النبي ﷺ من المرسلين، وقد وصف القرآن بالحكيم لكونه مستقرا فيه الحكمة وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر والمواعظ.

٢. ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ مقسم عليه كما تقدم.

٣. ﴿عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر لقوله: ﴿إِنَّكَ﴾، وتنكير الصراط، كما قيل، للدلالة على التفخيم وتوصيفه بالمستقيم للتوضيح فإن الصراط هو الطريق الواضح المستقيم، والمراد به الطريق الذي يوصل عابريه إلى الله تعالى أي إلى السعادة الإنسانية التي فيها كمال العبودية لله والقرب، وقد تقدم في تفسير الفاتحة بعض ما ينفع في هذا المقام من الكلام.

٤. ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾:

أ. وصف للقرآن مقطوع عن الوصفية منصوب على المدح، والمصدر بمعنى المفعول ومحصل المعنى أعني بالقرآن ذاك المنزل الذي أنزله الله العزيز الرحيم الذي استقر فيه العزة والرحمة.

ب. والتذييل بالوصفين للإشارة إلى أنه قاهر غير مقهور وغالب غير مغلوب فلا يعجزه إعراض المعرضين عن عبوديته ولا يستذله جحود الجاحدين وتكذيب المكذبين، وأنه ذو رحمة واسعة لمن يتبع الذكر ويخشاه بالغيب لا لينتفع بإيمانهم بل ليهديهم إلى ما فيه سعادتهم وكمالهم فهو بعزته ورحمته أرسل الرسول وأنزل عليه القرآن الحكيم لينذر الناس فيحق كلمة العذاب على بعضهم ويشمل الرحمة منهم آخرين.

٥. ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ﴾:

أ. تعليل للإرسال والتنزيل و﴿قَوْماً﴾ نافية والجملة صفة لقوله: ﴿قَوْماً﴾ والمعنى إنما أرسلك وأنزل عليك القرآن لتنذر وتخوف قوما لم ينذر آباؤهم فهم غافلون.

ب. والمراد بالقوم إن كان هو قريش ومن يلحق بهم فالمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون فإن الأبعدين من آبائهم كان فيهم النبي إسماعيل ذبيح الله، وقد أرسل إلى العرب رسل آخرون كهود وصالح وشعيب عليه السلام، وإن كان المراد جميع الناس المعاصرين نظرا إلى عموم الرسالة فكذلك أيضا فآخر رسول معروف بالرسالة قبله ﷺ هو عيسى عليه السلام وبينهما زمان الفترة.

ج. واعلم أن ما ذكرناه في تركيب الآيات هو الذي يسبق منها إلى الفهم وقد أوردوا في ذلك

وجوها أخر بعيدة عن الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطولات.

٦. ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. اللام للقسم أي أقسم لقد ثبت ووجب القول على أكثرهم، والمراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول.

ب. والمراد بالقول الذي حق عليهم كلمة العذاب التي تكلم بها الله سبحانه في بدء الخلقة مخاطبا بها إبليس: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

ج. والمراد بتبعية إبليس طاعته فيما يأمر به بالوسوسة والتسويل بحيث تثبت الغواية وترسخ في النفس كما يشير إليه قوله تعالى خطابا لإبليس: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

- ولازمه الطغيان والاستكبار على الحق كما يشير إليه ما يحكيه الله من تساؤل المتبوعين والتابعين في النار: ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

- ولازمه الانكباب على الدنيا والإعراض عن الآخرة بالمرة ورسوخ ذلك في نفوسهم قال تعالى: ﴿وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ النحل: فيطبع الله على قلوبهم ومن آثاره أن لا سبيل لهم إلى الإيمان قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾

د. وبما تقدم ظهر أن الفاء في قوله: ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ للتفريع لا للتعليل كما احتمله بعضهم.

٧. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة، حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم لا يبصرون، فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد، ولم يكن بطن من بطون قريش، إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة، فدعا النبي ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، قال: فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

• أقول: وقد رووا القصة بأشكال مختلفة في بعضها أن رسول الله ﷺ قرأ الآيات فاحتجب منهم فلم يروه ودفع الله عنه شرهم وكيدهم، وفي بعضها أن الآيات، من أول السورة إلى قوله: ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت في القصة فقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنا﴾ إلى آخر الآيتين يقص صنع الله بهم في ستر النبي ﷺ عن أبصارهم وقوله: ﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ﴾ يخبر عن عدم إيمان ذاك النفر.

• وأنت خبير بأن سياق الآيات يأبى الانطباق على هذه الروايات بما فيها من القصة فهو سياق متناسق منسجم يصف حال طائفتين من الناس وهم الذين حق عليهم القول فهم لا يؤمنون والذين يتبعون الذكر ويخشون ربهم بالغيب.

• وأين ذلك من حمل قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ﴾ على الناس المنذرين وحمل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ﴾ و﴿جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ الآيتين على قصة أبي جهل ورهطه، وحمل قوله: ﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ على رهطه وأضف إلى ذلك حمل قوله: ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ على قصة قوم من الأنصار بالمدينة وسيوافيك خبره فيختل بذلك السياق وتنثلم وحدة النظم.

• فالحق أن الآيات نازلة دفعة ذات سياق واحد تصف حال الناس وتفرقهم عند بلوغ الدعوة ووقوع الإنذار على فرقتين، ولا مانع من وقوع القصة واحتجاب النبي ﷺ من أعدائه بالآيات.

٢. الأغلال والسدود والإيمان:

المقطع [٢] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ٨ـ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٦٤»:

١. ﴿إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾:

أ. الأعناق جمع عنق بضمتين وهو الجيد، والأغلال جمع غل بالكسر وهي على ما قيل ما تشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد، ومقمحون اسم مفعول من الإقماح وهو رفع الرأس كأنهم قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم إلى أذقانهم فبقيت رءوسهم مرفوعة إلى السماء لا يتأتى لهم أن ينكسوها فينظروا إلى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها ويميزوها من غيرها.

ب. وتنكير قوله: ﴿أَغْلالاً﴾ للتفخيم والتهويل.

ج. والآية في مقام التعليل لقوله السابق: ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾

٢. ﴿وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾:

أ. السد الحاجز بين الشيئين، وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كناية عن جميع الجهات، والغشي والغشيان التغطية يقال: غشيه كذا أي غطاه وأغشى الأمر فلانا أي جعل الأمر يغطيه، والآية متممة للتعليل السابق وقوله: ﴿جَعَلْنا﴾ معطوف على ﴿جَعَلْنا﴾ المتقدم.

ب. وعن الرازي في تفسيره في معنى التشبيه في الآيتين أن المانع عن النظر في الآيات قسمان: قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحا لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه، وقسم يمنع عن النظر في الآفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلي بهما حرم عن النظر بالكلية.

ج. ومعنى الآيتين أنهم لا يؤمنون لأنا جعلنا في أعناقهم أغلالا نشد بها أيديهم على أعناقهم فهي إلى الأذقان فهم مرفوعة رءوسهم باقون على تلك الحال وجعلنا من جميع جهاتهم سدا فجعلناه يغطيهم فهم لا يبصرون فلا يهتدون، ففي الآيتين تمثيل لحالهم في حرمانهم من الاهتداء إلى الإيمان وتحريمه تعالى عليهم ذلك جزاء لكفرهم وغوايتهم وطغيانهم في ذلك.

د. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ البقرة: في الجزء الأول من الكتاب أن ما وقع في القرآن من هذه الأوصاف ونظائرها التي وصف بها المؤمنون والكفار يكشف عن حياة أخرى للإنسان في باطن هذه الحياة الدنيوية مستورة عن الحس المادي ستظهر له إذا انكشفت الحقائق بالموت أو البعث، وعليه فالكلام في أمثال هذه الآيات جار في مجرى الحقيقة دون المجاز كما عليه القوم.

٣. ﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. عطف تفسير وتقرير لما تتضمنه الآيات الثلاث المتقدمة وتلخيص للمراد وتمهيد لما يتلوه من قوله: ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ الآية.

ب. واحتمل أن يكون عطفا على قوله: ﴿لا يُبْصِرُونَ﴾ والمعنى فهم لا يبصرون ويستوي عليهم إنذارك وعدم إنذارك لا يؤمنون والوجه الأول أقرب إلى الفهم.

٤. ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾:

أ. القصر للإفراد، والمراد بالإنذار الإنذار النافع الذي له أثر، وبالذكر القرآن الكريم، وباتباعه تصديقه والميل إليه إذا تليت آياته، والتعبير بالماضي للإشارة إلى تحقق الوقوع، والمراد بخشية الرحمن بالغيب خشيته تعالى من وراء الحجاب وقبل انكشاف الحقيقة بالموت أو البعث، وقيل: أي حال غيبته من الناس بخلاف المنافق وهو بعيد.

ب. وقد علقت الخشية على اسم الرحمن الدال على صفة الرحمة الجالبة للرجاء للإشعار بأن خشيتهم خوف مشوب برجاء وهو الذي يقر العبد في مقام العبودية فلا يأمن ولا يقنط.

ج. وتنكير ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ و﴿أَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ للتفخيم أي فبشره بمغفرة عظيمة من الله وأجر كريم لا يقدر قدره وهو الجنة، والدليل على جميع ما تقدم هو السياق.

د. والمعنى: إنما تنذر الإنذار النافع الذي له أثر، من اتبع القرآن إذا تليت عليه آياته ومال إليه وخشي الرحمن خشية مشوبة بالرجاء فبشره بمغفرة عظيمة وأجر كريم لا يقدر قدره.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ قال: قد رفعوا رءوسهم.

ب. وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ -﴿فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ الهدى، أخذ الله سمعهم وأبصارهم وقلوبهم، وأعماهم عن الهدى، نزلت في أبي جهل بن هشام ونفر من أهل بيته، وذلك أن النبي ﷺ قام يصلي، وقد حلف أبو جهل لعنه الله لئن رآه يصلي ليدمغه، فجاءه ومعه حجر والنبي ﷺ قائم يصلي، فجعل كلما رفع الحجر ليرميه، أثبت الله عز وجل يده إلى عنقه ولا يدور الحجر بيده، فلما رجع إلى أصحابه سقط الحجر من يده، ثم قام رجل آخر وهو رهطه أيضا فقال أنا أقتله، فلما دنا منه فجعل يسمع قراءة رسول الله ﷺ، فأرعب فرجع إلى أصحابه فقال، حال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه، فخفت أن أتقدم، وقوله تعالى: ﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فلم يؤمن من أولئك الرهط من بني مخزوم أحد.

• أقول: وروي نحو منه في الدر المنثور، عن البيهقي في الدلائل عن ابن عباس وفيه: أن ناسا من بني مخزوم تواطئوا بالنبي ﷺ ليقتلوه، منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة، فبينا النبي ﷺ قائم يصلي يسمعون

قراءته، فأرسلوا إليه الوليد ليقتله، فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلي فيه، فجعل يسمع قراءته ولا يراه فانطلق إليهم، فأعلمهم ذلك فأتوه، فلما انتهوا إلى المكان الذي يصلي فيه، سمعوا قراءته فيذهبون إليه، فيسمعون أيضا من خلفهم، فانصرفوا فلم يجدوا إليه سبيلا، فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ الآية.

٣. إحياء الموتى وإحصاء الأعمال:

المقطع [٣] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٦٦»:

١. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾:

أ. المراد بإحياء الموتى إحياؤهم للجزاء.

ب. والمراد بما قدموا الأعمال التي عملوها قبل الوفاة فقدموها على موتهم، والمراد بآثارهم ما تركوها لما بعد موتهم من خير يعمل به كتعليم علم ينتفع به أو بناء مسجد يصلى فيه أو ميضاة يتوضأ فيها، أو شر يعمل به كوضع سنة مبتدعة يستن بها أو بناء مفسقة يعصى الله فيها.

ج. وربما قيل: إن المراد بما قدموا النيات وبآثارهم الأعمال المترتبة المتفرعة عليها وهو بعيد من السياق.

د. والمراد بكتابة ما قدموا وآثارهم ثبتها في صحائف أعمالهم وضبطها فيها بواسطة كتبة الأعمال من الملائكة وهذه الكتابة غير كتابة الأعمال وإحصائها في الإمام المبين الذي هو اللوح المحفوظ وإن توهم بعضهم أن المراد بكتابة ما قدموا وآثارهم هو إحصاؤها في الكتاب المبين وذلك أنه تعالى يثبت في كلامه كتابا يحصي كل شيء ثم لكل أمة كتابا يحصي أعمالهم ثم لكل إنسان كتابا يحصي أعماله كما قال: ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ الأنعام:، وقال: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ الجاثية:، وقال: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾ الإسراء:، وظاهر الآية أيضا يقضي بنوع من البينونة بين كتاب الأعمال والإمام المبين حيث فرق بينهما بالخصوص والعموم واختلاف التعبير بالكتابة والإحصاء.

٢. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾:

أ. هو اللوح المحفوظ من التغيير الذي يشتمل على تفصيل قضائه سبحانه في خلقه فيحصي كل شيء وقد ذكر في كلامه تعالى بأسماء مختلفة كاللوح المحفوظ وأم الكتاب والكتاب المبين والإمام المبين كل منها بعناية خاصة.

ب. ولعل العناية في تسميته إماما مبينا أنه لاشتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتدى لهم وكتب الأعمال كما سيأتي في تفسير سورة الجاثية مستنسخة منه قال تعالى: ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية:.

ج. وقيل: المراد بالإمام المبين صحف الأعمال وليس بشيء، وقيل: علمه تعالى وهو كسابقه نعم لو أريد به العلم الفعلي كان له وجه.

د. ومن عجيب القول في هذا المقام ما ذكره بعضهم أن الذي كتب في اللوح المحفوظ هو ما كان وما يكون إلى يوم القيامة لا حوادث العالم إلى أبد الآبدين وذلك أن اللوح عند المسلمين جسم وكل جسم متناهي الأبعاد كما يشهد به الأدلة وبيان كل شيء فيه على الوجه المعروف عندنا دفعة مقتض لكون المتناهي ظرفا لغير المتناهي وهو محال بالبديهة فالوجه تخصيص عموم كل شيء والقول بأن المراد به الحوادث إلى يوم القيامة هذا، وهو تحكم وسنتعرض له تفصيلا.

هـ. والآية في معنى التعليل بالنسبة إلى ما تقدمها كأنه تعالى يقول: ما أخبرنا به ووصفناه من حال أولئك الذين حق عليهم القول وهؤلاء الذين يتبعون الذكر ويخشون ربهم بالغيب هو كذلك لأن أمر حياة الكل إلينا وأعمالهم وآثارهم محفوظة عندنا فنحن على علم وخبرة بما تئول إليه حال كل من الفريقين.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الرزاق والترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال: كان بنو سلمة في ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: إنه يكتب آثاركم ثم قرأ عليهم الآية فتركوا.

ب. أخرج الفاريابي وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا قريبا من

المسجد فنزلت ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ فقالوا: بل نمكث مكاننا.

• أقول: والكلام في الروايتين كالكلام فيما تقدمهما.

ج. أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: من سن سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء، ثم تلا هذه الآية ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾

د. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ أي في كتاب مبين وهو محكم، وذكر ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنا والله الإمام المبين أبين الحق من الباطل، ورثته من رسول الله ﷺ.

هـ. وفي معاني الأخبار، بإسناده إلى أبي الجارود عن أبي جعفر عن أبيه عن جده عليه السلام عن النبي ﷺ في حديث: أنه قال في علي عليه السلام إنه الإمام، الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء.

• أقول: الحديثان لو صحا لم يكونا من التفسير في شيء بل مضمونهما من بطن القرآن وإشاراته، ولا مانع من أن يرزق الله عبدا وحده وأخلص العبودية له العلم بها في الكتاب المبين وهو عليه السلام سيد الموحدين بعد النبي ﷺ.

٤. أهل القرية وتكذيبهم للمرسلين وعاقبة الإعراض:

المقطع [٤] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٣-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٧٢»:

١. ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾:

أ. المثل كلام أو قصة يمثل به مقصد من المقاصد فيتضح للمخاطب، ولما كانت قصتهم توضح ما تقدم من الوعد والوعيد أمر نبيه ﷺ أن يضربها مثلا لهم.

ب. والظاهر أن ﴿مَثَلاً﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿اضْرِبْ﴾ ومفعوله الأول قوله: ﴿أَصْحابَ الْقَرْيَةِ﴾ والمعنى واضرب لهم أصحاب القرية وحالهم هذه الحال مثلا وقد قدم المفعول الثاني تحرزا عن الفصل المخل.

٢. ﴿إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾:

أ. التعزيز من العزة بمعنى القوة والمنعة، وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ﴾ بيان تفصيلي لقوله: ﴿إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾

ب. والمعنى: واضرب لهم مثلا أصحاب القرية وهم في زمان أرسلنا إليهم رسولين اثنين من رسلنا فكذبوهما أي الرسولين فقويناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنا إليكم مرسلون من جانب الله.

٣. ﴿قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾:

أ. كانوا يرون أن البشر لا ينال النبوة والوحي، ويستدلون على ذلك بأنفسهم حيث لا يجدون من أنفسهم شيئا من ذاك القبيل فيسرون الحكم إلى نفوس الأنبياء مستندين إلى أن حكم الأمثال واحد.

ب. وعلى هذا التقرير يكون معنى قوله: ﴿وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ لم ينزل الله وحيا ولو نزل شيئا على بشر لنلناه من نفوسنا كما تدعون أنتم ذلك، وتعبيرهم عن الله سبحانه بالرحمن إنما هو لكونهم كسائر الوثنيين معترفين بالله سبحانه واتصافه بكرائم الصفات كالخلق والرحمة والملك غير أنهم يرون أنه فوض أمر التدبير إلى مقربي خلقه كالملائكة الكرام فهم الأرباب المدبرون والآلهة المعبودون، وأما الله عز اسمه فهو رب الأرباب وإله الآلهة.

ج. ومن الممكن أن يكون ذكر اسم الرحمن في الحكاية دون المحكي فيكون التعبير به لحلمه ورحمته تعالى قبل إنكارهم وتكذيبهم للحق الصريح.

٤. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾:

أ. بمنزلة النتيجة لصدر الآية، ومحصل قولهم إنكم بشر مثلنا ولا نجد نحن على بشريتنا في نفوسنا شيئا من الوحي النازل الذي تدعونه وأنتم مثلنا فما أنزل الرحمن شيئا من الوحي فدعواكم كاذبة وإذ ليس لكم إلا هذه الدعوى فإن أنتم إلا تكذبون.

ب. ويظهر بما تقدم نكتة الحصر في قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ وكذا الوجه في نفي الفعل ولم

يقل: إن أنتم إلا كاذبون لأن المراد نفي الفعل في الحال دون الاستمرار والاستقبال.

٥. ﴿قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾:

أ. لم يحك الله سبحانه عن هؤلاء الرسل جوابا عن حجة قومهم: ﴿ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ لكنهم مختلفون في تفسيرها والصابئون يفسرونها بالنفي فمعنى العالم والقادر عندهم من ليس بجاهل وعاجز.

ب. كما نقل عن الرسل المبعوثين إلى الأمم الدارجة لما احتجت أممهم بمثل هذه الحجة ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ فردتها رسلهم بقولهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾، وقد مر تقريره.

ج. بل حكى عنهم أنهم ذكروا للقوم أنهم مرسلون إليهم مأمورون بتبليغ الرسالة ليس عليهم إلا ذلك وأنهم في غنى عن تصديقهم لهم وإيمانهم بهم ويكفيهم فيه أن يعلم ربهم بأنهم مرسلون لا حاجة لهم إلى أزيد من ذلك.

د. فقوله: ﴿قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ إخبار عن رسالتهم وقد أكد الكلام بأن المشددة المكسورة واللام، والاستشهاد بعلم ربهم بذلك، وقوله: ﴿رَبُّنا يَعْلَمُ﴾ معترض بمنزلة القسم، والمعنى إنا مرسلون إليكم صادقون في دعوى الرسالة ويكفينا في ذلكم علم ربنا الذي أرسلنا بها ولا حاجة لنا فيه إلى تصديقكم لنا ولا نفع لنا فيه من أجر ونحوه ولا يهمنا تحصيله منكم بل الذي يهمنا هو تبليغ الرسالة وإتمام الحجة.

٦. ﴿وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ البلاغ هو التبليغ والمراد به تبليغ الرسالة أي لم يؤمر ولم نكلف إلا بتبليغ الرسالة وإتمام الحجة.

٧. ﴿قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. القائلون أصحاب القرية والمخاطبون هم الرسل، والتطير هو التشؤم وقولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾، تهديد منهم للرسل.

ب. والمعنى: قالت أصحاب القرية لرسلهم، إنا تشأمنا بكم ونقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ ولم تكفوا عن الدعوة لنرجمنكم بالحجارة وليصلن إليكم وليقعن بكم منا عذاب أليم.

٨. ﴿قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾:

أ. القائلون هم الرسل يخاطبون به أصحاب القرية.

ب. ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ الطائر في الأصل هو الطير وكان يتشاءم به ثم توسع واستعمل في كل ما يتشاءم به، وربما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث، وربما يستعمل في البخت الشقي الذي هو أمر موهوم يرونه مبدأ لشقاء الإنسان وحرمانه من كل خير.

ج. وكيف كان فقوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ ظاهر معناه أن الذي ينبغي أن تتشأموا به هو معكم وهو حالة إعراضكم عن الحق الذي هو التوحيد وإقبالكم إلى الباطل الذي هو الشرك.

د. وقيل: المعنى طائركم أي حظكم ونصيبكم من الخير والشر معكم من أفعالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، هذا وهو أخذ الطائر بالمعنى الثاني لكن قوله بعد: ﴿أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أنسب بالنسبة إلى المعنى الأول.

٩. ﴿أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ استفهام توبيخي والمراد بالتذكير تذكيرهم بالحق من وحدانيته تعالى ورجوع الكل إليه ونحوهما وجزاء الشرط محذوف في الكلام تلويحا إلى أنه مما لا ينبغي أن يذكر أو يتفوه به والتقدير أإن ذكرتم بالحق قابلتموه بمثل هذا الجحود الشنيع والصنيع الفظيع من التطير والتوعد.

١٠. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أي مجاوزون للحد في المعصية وهو إضراب عما تقدم والمعنى بل السبب الأصلي في جحودكم وتكذيبكم للحق أنكم قوم تستمرون على الإسراف ومجاوزة الحد.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: قالوا: بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له، وهو حبيب صاحب يس فسلما عليه، فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال: أمعكما آية؟ قالا نعم نحن نشفي المريض، ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى فقال الشيخ: إن لي ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين قالا: فانطلق بنا إلى منزل نتطلع حاله، فذهب بهما فمسحا ابنه، فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحا، ففشا الخبر في المدينة، وشفى الله على أيديهما كثيرا من المرضى، وكان لهم ملك يعبد الأصنام فأنهي الخبر إليه فدعاهما، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى، جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، إلى عبادة من يسمع ويبصر، قال الملك: ولنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك، قال: قوما حتى أنظر في أمركما، فأخذهما

الناس في السوق وضربوهما.

ب. قال وهب بن منبه: بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية، فأتياها ولم يصلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكرا الله، فغضب الملك وأمر بحبسهما، وجلد كل واحد منهما مائة جلدة، فلما كذب الرسولان وضربا، بعث عيسى شمعون الصفا رأس الحواريين على أمرهما، لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكرا، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به، فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضي عشرته، وأنس به وأكرمه، ثم قال له ذات يوم: أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن، وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل سمعت قولهما؟ قال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك، قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نتطلع ما عندهما، فدعاهما الملك فقال لها شمعون: من أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء لا شريك له، قال: وما آتاكما؟ قالا: ما تتمناه، فأمر الملك حتى جاءوا بغلام مطموس العينين، وموضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله، حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين، فوضعا في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك ثم قال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع صنيعا مثل هذا؟ فيكون لك ولأهلك شرفا، فقال الملك: ليس لي عنك سر إن إلهنا الذي نعبده، لا يضر ولا ينفع، ثم قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به وبكما، قالا: إلهنا قادر على كل شيء فقال، الملك، إن هاهنا ميتا مات منذ سبعة أيام لم ندفنه، حتى يرجع أبوه وكان غائبا فجاءوا بالميت، وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية، وجعل شمعون يدعو ربه سرا فقام الميت، وقال لهم إني قد مت منذ سبعة أيام، وأدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله فتعجب الملك، فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك، دعاه إلى الله فآمن، وآمن من أهل مملكته قوم وكفر آخرون.

ج. قال: وقد روى مثل ذلك العياشي بإسناده عن الثمالي وغيره عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام إلا أن في بعض الروايات: بعث الله الرسولين إلى أهل أنطاكية، ثم بعث الثالث، وفي بعضها أن عيسى أوحى الله إليه أن يبعثها، ثم بعث وصيه شمعون ليخلصها، وأن الميت الذي أحياه الله بدعائهما كان ابن الملك، وأنه قد خرج من قبره ينفض التراب عن رأسه، فقال له: يا بني ما حالك؟ قال: كنت ميتا فرأيت رجلين ساجدين، يسألان الله تعالى أن يحييني، قال: يا بني فتعرفهما إذا رأيتهما؟ قال: نعم، فأخرج

الناس إلى الصحراء، فكان يمر عليه رجل بعد رجل، فمر أحدهما بعد جمع كثير فقال: هذا أحدهما، ثم مر الآخر فعرفهما وأشار بيده إليهما، فآمن الملك وأهل مملكته.

د. وقال ابن إسحاق: بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبا وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة الرسل.

• أقول: سياق آيات القصة لا يلائم بعض هذه الروايات.

٥. دعوة الرجل المؤمن قومه إلى عبادة الخالق والإيمان بالرسل:

المقطع [٥] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٠-٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٧٥»:

١. ﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾:

أ. أقصى المدينة أبعد مواضعها بالنسبة إلى مبدإ مفروض، وقد بدلت القرية في أول الكلام مدينة هنا للدلالة على عظمها والسعي هو الإسراع في المشي.

ب. ووقع نظير هذا التعبير في قصة موسى والقبطي وفيها ﴿وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى﴾ فقدم (رجل) هناك وأخر هاهنا ولعل النكتة في ذلك أن الاهتمام هناك بمجيء الرجل وإخباره موسى بائتمار الملإ لقتله فقدم الرجل ثم أشير إلى اهتمام الرجل نفسه بإيصال الخبر وإبلاغه فجيء بقوله: ﴿يَسْعى﴾ حالا مؤخرا بخلاف ما هاهنا فالاهتمام بمجيئه من أقصى المدينة ليعلم أن لا تواطؤ بينه وبين الرسل في أمر الدعوة فقدم ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ وأخر الرجل وسعيه.

ج. وقد اشتد الخلاف بينهم في اسم الرجل واسم أبيه وحرفته وشغله ولا يهمنا الاشتغال بذلك في فهم المراد ولو توقف عليه الفهم بعض التوقف لأشار سبحانه في كلامه إليه ولم يهمله.

د. وإنما المهم هو التدبر في حظه من الإيمان في هذا الموقف الذي انتهض فيه لتأييد الرسل عليه السلام ونصرتهم فقد كان على ما يعطيه التدبر في المنقول من كلامه رجلا نور الله سبحانه قلبه بنور الإيمان يؤمن بالله إيمان إخلاص يعبده لا طمعا في جنة أو خوفا من نار بل لأنه أهل للعبادة ولذلك كان من

المكرمين ولم يصف الله سبحانه في كلامه بهذا الوصف إلا ملائكته المقربين وعباده المخلصين، وقد خاصم القوم فخصمهم وأبطل ما تعلق به القوم من الحجة على عدم جواز عبادة الله سبحانه ووجوب عبادة آلهتهم وأثبت وجوب عبادته وحده وصدق الرسل في دعواهم الرسالة ثم آمن بهم.

٢. ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾:

أ. بيان لقوله: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وفي وضع قوله: ﴿مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ في هذه الآية موضع قوله: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ في الآية السابقة إشعار بالعلية وبيانها أن عدم جواز اتباع قائل في قوله إنما يكون لأحد أمرين: إما لكون قوله ضلالا والقائل به ضالا ولا يجوز اتباع الضال في ضلاله، وإما لأن القول وإن كان حقا والحق واجب الاتباع لكن لقائله غرض فاسد يريد أن يتوسل إليه بكلمة الحق كاقتناء المال واكتساب الجاه والمقام ونحو ذلك، وأما إذا كان القول حقا وكان القائل بريئا من الغرض الفاسد منزها من الكيد والمكر والخيانة كان من الواجب اتباعه في قوله، وهؤلاء الرسل مهتدون في قولهم: لا تعبدوا إلا الله، وهم لا يريدون منكم أجرا من مال أو جاه فمن الواجب عليكم أن تتبعوهم في قولهم.

ب. أما أنهم مهتدون فلقيام الحجة على صدق ما يدعون إليه من التوحيد وكونه حقا، والحجة هي قوله: ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ﴾ إلى تمام الآيتين.

ج. وأما أنهم لا يريدون منكم أجرا فلما دل عليه قولهم: ﴿رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وقد تقدم تقريره.

د. وبهذا البيان يتأيد ما قدمناه من كون قولهم: ﴿رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ مسوقا لنفي إرادتهم من القوم أجرا أو غير ذلك.

٣. ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾:

أ. شرع في استفراغ الحجة على التوحيد ونفي الآلهة في آيتين واختار لذلك سياق التكلم وحده إلا في جملة اعترض بها في خلال الكلام وهي قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وذلك بإجراء الحكم في نفسه بما أنه إنسان أوجده الله وفطره حتى يجري في كل إنسان هو مثله والأفراد أمثال فقوله: ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ﴾، في معنى وما للإنسان لا يعبد إلخ، أيتخذ الإنسان من دونه آلهة إلخ.

ب. وقد عبر عنه تعالى بقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ للإشعار بالعلية فإن فطره تعالى للإنسان وإيجاده

له بعد العدم لازمه رجوع كل ما للإنسان من ذات وصفات وأفعال إليه تعالى وقيامه به وملكه له فليس للإنسان إلا العبودية محضة فعلى الإنسان أن ينصب نفسه في مقام العبودية ويظهرها بالنسبة إليه تعالى وهذا هو العبادة فعليه أن يعبده تعالى لأنه أهل لها.

ج. وهذا هو الذي أشرنا إليه آنفا أن الرجل كان يعبد الله بالإخلاص له لا طمعا في جنة ولا خوفا من نار بل لأنه أهل للعبادة.

د. وإذ كان الإيمان به تعالى وعبادته هكذا أمرا لا يناله عامة الناس فإن الأكثرين منهم إنما يعبدون خوفا أو طمعا أو لكليهما التفت الرجل بعد بيان حال نفسه إلى القوم فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يريد به إنذارهم بيوم الرجوع وأنه تعالى سيحاسبهم على ما عملوا فيجازيهم بمساوئ أعمالهم فقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كالمعترضة الخارجة عن السياق أو هي هي.

٤. ثم إن الآيتين حجتان قائمتان على إبطال ما احتج به الوثنية وبنوا على ذلك عبادة الأصنام وأربابها، توضيح ذلك أنهم قالوا: إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو خيال أو عقل لا يناله شيء من القوى الإدراكية فلا يمكن التوجه إليه بالعبادة فسبيل العبادة أن نتوجه إلى مقربي حضرته والأقوياء من خلقه كالملائكة الكرام والجن والقديسين من البشر حتى يكونوا شفعاء لنا عند الله في إيصال الخيرات ودفع الشرور والمكاره:

أ. والجواب عن أولى الحجتين بما حاصله أن الإنسان وإن كان لا يحيط علما بالذات المتعالية لكنه يعرفه تعالى بصفاته الخاصة به مثل كونه فاطرا له موجدا إياه فله أن يتوجه إليه من طريق هذه الصفات وإنكار إمكانه مكابرة، وهذا الجواب هو الذي أشار إليه بقوله: ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾

ب. وعن الثانية أن هؤلاء الآلهة إن كانت لهم شفاعة كانت مما أفاضه الله عليهم والله سبحانه لا يعطيهم ذلك إلا فيما لا تتعلق به منه إرادة حاتمة ولازمه أن شفاعتهم فيما أذن الله لهم فيه كما قال: ﴿ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣] أما إذا أراد الله شيئا إرادة حتم فلا تنفع شفاعتهم شيئا في المنع عن نفوذها فاتخاذهم آلهة وعدمه سواء في عدم التأثير لجلب خير أو دفع شر، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾

٥. وتعبيره عنه تعالى بالرحمن إشارة إلى سعة رحمته وكثرتها وأن النعم كلها من عنده وتدبير الخير

والشر إليه ويتحصل من هنا برهان آخر على وحدانيته تعالى في الربوبية، إذ لما كان جميع النعم وكذا النظام الجاري فيها، من رحمته وقائمة به من غير استقلال في شيء منها كان المستقل بالتدبير هو تعالى حتى أن تدبير الملائكة لو فرض تدبيرهم لشيء من رحمته وتدبيره تعالى وكانت الربوبية له تعالى وحده وكذا الألوهية.

٦. ﴿إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ تسجيل للضلال على اتخاذ الآلهة.

٧. ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾:

أ. من كلام الرجل خطابا للرسل وقوله: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ كناية عن الشهادة بالتحمل، وقوله: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

ب. تجديد الشهادة بالحق وتأكيد للإيمان فإن ظاهر السياق أنه إنما قال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ بعد محاجته خطابا للرسل ليستشهدهم على إيمانه وليؤيدهم بإيمانهم بمرأى من القوم ومسمع.

ج. وقيل: إنه خطاب للقوم تأييدا للرسل، والمعنى إني آمنت بالله فاسمعوا مني فإني لا أبالي بما يكون منكم على ذلك أو المعنى إني آمنت بالله فاسمعوا مني وآمنوا به أو أنه أراد به أن يغضبهم ويشغلهم عن الرسل بنفسه حيث إنه رأى أنهم بصدد الإيقاع بهم، هذا.

• وفيه أنه لا يلائمه التعبير عن الله سبحانه بقوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ فإن القوم ما كانوا يتخذونه تعالى ربا لهم وإنما كانوا يعبدون الأرباب من دون الله سبحانه.

• ورد بأن المعنى إني آمنت بربكم الذي قامت الحجة على ربوبيته لكم وهو الله سبحانه، وفيه أنه تقييد من غير مقيد.

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أبو داود وأبو نعيم وابن عساكر والديلمي عن أبي ليلى قال: قال رسول الله ﷺ: الصديقين ثلاثة، حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي قال: ﴿يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم.

• أقول: ورواه أيضا عن البخاري في تأريخه عن ابن عباس عنه ﷺ ولفظه: الصديقون ثلاثة: حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار صاحب آل ياسين، وعلي بن أبي طالب.

ب. في المجمع: عن تفسير الثعلبي بالإسناد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن النبي ﷺ قال: سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين، علي بن أبي طالب وصاحب يس، ومؤمن آل فرعون فهم الصديقون وعلي أفضلهم.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن الطبراني وابن مردويه وضعفه عن ابن عباس عنه عليه السلام ولفظه: السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى صاحب يس، والسابق إلى محمد ﷺ علي بن أبي طالب.

٦. دخول المؤمن الجنة وتحسر قومه وصيحة العذاب:

المقطع [٦] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٦-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٧٩»:

١. ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾:

أ. الخطاب للرجل وهو، كما يفيده السياق، يلوح إلى أن القوم قتلوه فنودي من ساحة العزة أن ادخل الجنة كما يؤيده قوله بعد: ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فوضع قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ موضع الإخبار عن قتلهم إياه إشارة إلى أنه لم يكن بين قتله بأيديهم وبين أمره بدخول الجنة أي فصل وانفكاك كأن قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة.

ب. والمراد بالجنة على هذا جنة البرزخ دون جنة الآخرة، وقول بعضهم: إن المراد بها جنة الآخرة والمعنى سيقال له: ادخل الجنة يوم القيامة والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع تحكم من غير دليل كما قيل: إن الله رفعه إلى السماء فقيل له ادخل الجنة فهو حي يتنعم فيها إلى قيام الساعة، وهو تحكم كسابقه.

ج. وقيل: إن القائل: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ هو القوم قالوا له ذاك حين قتله استهزاء وفيه أنه لا يلائم ما أخبر الله سبحانه عنه بقوله بعد: ﴿قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ فإن ظاهره أنه تمنى علم قومه بما هو فيه بعد استماع نداء ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ولم يسبق من الكلام ما يصح أن يبتني عليه قوله ذاك.

٢. ﴿قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾:

أ. استئناف كسابقه كالجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا كان بعد تأييده للرسل؟ فقيل: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ثم قيل: فما ذا كان بعد؟ فقيل: ﴿قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ وهو نصح منه لقوله ميتا كما كان ينصحهم حيا.

ب. و﴿بِما﴾ في قوله: ﴿بِما غَفَرَ لِي﴾ مصدرية، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي﴾ عطف على ﴿غَفَرَ﴾ والمعنى بمغفرة ربي لي وجعله إياي من المكرمين.

ج. وموهبة الإكرام وإن كانت وسيعة ينالها كثيرون كالإكرام بالنعمة كما في قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ الفجر: وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ الحجرات: فإن كرامة العبد عند الله إكرام منه له لكنه لم يعد من المكرمين بوصف الإطلاق إلا طائفتين من خلقه: الملائكة الكرام كما في قوله: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، والكاملين في إيمانهم من المؤمنين سواء كانوا من المخلصين بكسر اللام كما في قوله: ﴿أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] أو من المخلصين بفتح اللام كما في قوله: ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ [الصافات: ٤٢]

د. والآية من أدلة وجود البرزخ.

٣. ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾:

أ. الضميران للرجل، و﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد قتله، و﴿مِنْ﴾ الأولى والثالثة لابتداء الغاية، والثانية مزيدة لتأكيد النفي.

ب. والآية توطئة للآية التالية، وهي مسوقة لبيان هوان أمر القوم والانتقام منهم بإهلاكهم على الله سبحانه وأنه لا يحتاج في إهلاكهم إلى عدة وعدة حتى ينزل من السماء جندا من الملائكة يقاتلونهم فيهلكونهم فلم يفعل ذلك فيهم ولا فعل ذلك في إهلاك من أهلك من الأمم الماضين وإنما أهلكهم بصيحة واحدة تقضي عليهم.

٤. ﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً، فَإِذا هُمْ خامِدُونَ﴾:

أ. أي ما كان الأمر الذي كان سبب إهلاكهم بمشيتنا إلا صيحة واحدة، وتأنيث الفعل لتأنيث الخبر وتنكير ﴿صَيْحَةً﴾ وتوصيفها بالوحدة للاستحقار، والخمود السكون واستئناف الجملة لكونها

كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا كان سبب إهلاكهم؟ فقيل: إن كانت إلا صيحة واحدة.

ب. والمعنى: كان سبب هلاكهم أيسر أمر وهي صيحة واحدة ففاجأهم السكون فصاروا ساكنين لا يسمع لهم حس وهم عن آخرهم موتى لا يتحركون.

٧. حسرة العباد على استهزائهم بالرسل وإحضار الأمم للحساب:

المقطع [٧] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٠-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٨٠»:

١. ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾:

أ. أي يا ندامة العباد ونداء الحسرة عليهم أبلغ من إثباتها لهم، وسبب الحسرة ما يتضمنه قوله: ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾

ب. ومن هذا السياق يستفاد أن المراد بالعباد عامة الناس وتتأكد الحسرة بكونهم عبادا فإن رد العبد دعوة مولاه وتمرده عنه أشنع من رد غيره نصيحة الناصح.

ج. وبذلك يظهر سخافة قول من قال: إن المراد بالعباد الرسل أو الملائكة أو هما جميعا، وكذا قول من قال: إن المراد بالعباد الناس لكن المتحسر هو الرجل.

د. وظهر أيضا أن قوله: ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ﴾ من قول الله تعالى لا من تمام قول الرجل.

٢. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾:

أ. توبيخ لأولئك الذين نودي عليهم بالحسرة، و﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ بيان لكم، والقرون جمع قرن وهو أهل عصر واحد.

ب. ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ بيان لقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ ضمير الجمع الأول للقرون والثاني والثالث للعباد.

ج. والمعنى: ألم يعتبروا بكثرة المهلكين بأمر الله من القرون الماضية وأنهم مأخوذون بأخذ إلهي لا يتمكنون من الرجوع إلى ما كانوا يترفون فيه؟

د. وللقوم في مراجع الضمائر وفي معنى الآية أقوال أخر بعيدة عن الفهم تركنا إيرادها.

٣. ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾:

أ. لفظة ﴿إِنْ﴾ حرف نفي و﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ تنوينه عوض عن المضاف إليه، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا، وجميع بمعنى مجموع، ولدينا ظرف متعلق به، ومحضرون خبر بعد خبر وهو جميع، واحتمل بعضهم أن يكون صفة لجميع.

ب. والمعنى: وما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء يوم القيامة فالآية في معنى قوله: ﴿ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]

٨. آية إحياء الأرض الميتة وإخراج الحب والثمرات:

المقطع [٨] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٨٥»:

١. ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾:

أ. يذكر سبحانه في الآية واللتين بعدها آية من آيات الربوبية وهي تدبير أمر أرزاق الناس وتغذيتهم من أثمار النبات من الحبوب والتمر والعنب وغيرها.

ب. فقوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها﴾ وإن كان ظاهره أن الآية هي الأرض إلا أن الجملتين توطئتان لقوله: ﴿وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا﴾ ومسوقتان للإشارة إلى أن هذه الأغذية النباتية من آثار نفخ الحياة في الأرض الميتة وتبديلها حبا وثمرا يأكلون من ذلك فالآية بنظر هي الأرض الميتة من حيث ظهور هذه الخواص فيها وتمام تدبير أرزاق الناس بها.

٢. ﴿وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا﴾ أي وأخرجنا من الأرض بإنبات النبات حبا كالحنطة والشعير والأرز وسائر البقولات.

٣. ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ تفريع على إخراج الحب وبالأكل يتم التدبير، وضمير ﴿فَمِنْهُ﴾ للحب.

٤. ﴿وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ﴾:

أ. قال الراغب: (الجنة كل بستان ذي شجر تستر بأشجاره الأرض)، والنخيل جمع نخل وهو معروف، والأعناب جمع عنب يطلق على الشجرة وهي الكرم وعلى الثمرة.

ب. وقال الراغب: (العين الجارحة، إلى أن قال، ويستعار العين لمعان هي موجودة في الجارحة بنظرات مختلفة، إلى أن قال، ويقال لمنبع الماء عين تشبيها بها لما فيها من الماء)، والتفجير في الأرض شقها لإخراج المياه، والباقي ظاهر.

٥. ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾:

أ. اللام لتعليل ما ذكر في الآية السابقة أي جعلنا فيها جنات وفجرنا فيها العيون بشقها ليأكل الناس من ثمره.

ب. ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ قيل: الضمير للمجعول من الجنات ولذا أفرد وذكر ولم يقل: من ثمرها أي من ثمر الجنات، أو من ثمرهما أي من ثمر النخيل والأعناب.

ج. وقيل: الضمير للمذكور وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة كما في قول رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق...كأنه في الجلد توليع البهق

فقد روي أن أبا عبيدة سأله عن قوله (كأنه) فقال كان ذاك.

د. وفي مرجع ضمير ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أقوال أخر رديئة كقول بعضهم إن الضمير للنخيل فقط، وقول آخر: إنه للماء لدلالة العيون عليه أو بحذف مضاف والتقدير ماء العيون وقول آخر: إن الضمير للتفجير المفهوم من ﴿فَجَّرْنا﴾ والمراد بالثمر على هذين الوجهين الفائدة، وقول آخر: إن الضمير له تعالى وإضافته إليه لأنه خلقه وملكه.

٦. ﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾:

أ. العمل هو الفعل والفرق بينهما، على ما ذكره الراغب، أن أكثر ما يستعمل العمل في الفعل المقارن للقصد والإرادة، ولذلك يشذ استعماله في الحيوان والجماد، ولذلك أيضا يتصف العمل بالصلاح وخلافه فيقال، عمل صالح وعمل طالح ولا يتصف بهما مطلق الفعل.

ب. و ﴿ما﴾ في ﴿وَما عَمِلَتْهُ﴾ نافية والمعنى ولم يعمل الثمر بأيديهم حتى يشاركونا في تدبير الأرزاق بل هو مما اختصصنا بخلقه وتتميم التدبير به من دون أن نستعين بهم فما بالهم لا يشكرون.

ج. ويؤيد هذا المعنى قوله في أواخر السورة وهو يمتن عليهم بخلق الأنعام لتدبير أمر رزقهم وحياتهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً﴾ إلى أن قال: ﴿وَمِنْها يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ

وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾

د. واحتمل بعضهم كون ﴿ما﴾ في ﴿وَما عَمِلَتْهُ﴾ موصولة معطوفة على ﴿ثَمَرِهِ﴾ والمعنى ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته أيديهم من ثمره كالخل والدبس المأخوذين من التمر والعنب وغير ذلك، وهذا الوجه وإن عده بعضهم أوجه من سابقه ليس بذاك فإن المقام مقام بيان آيات دالة على ربوبيته تعالى بذكر أمور من التدبير يخصه تعالى ولا يناسبه ذكر شيء من تدبير الغير معه وتتميم الحجة بذلك، ولو كان المراد ذكر عملهم بما أنه منته إلى خلقه تعالى وجزء من التدبير العام كان الأنسب أن يقال: وما هديناهم إلى عمله أو ما يؤدي معناه لينتفي به توهم الشركة في التدبير.

هـ. واحتمل بعضهم كون ﴿ما﴾ نكرة موصوفة معطوفة على ﴿ثَمَرِهِ﴾ والمعنى ليأكلوا من ثمره ومن شيء عملته أيديهم، هذا ويرد عليه ما يرد على سابقه.

٧. ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ توبيخ واستقباح لعدم شكره وشكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولا وفعلا أي إظهارهم أنهم عباد له مدبرون بتدبيره وهو العبادة فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيته واتخاذه إلها معبودا.

٩. تنزيه الخالق عن كل نقص وخلقه الأزواج في الكون:

المقطع [٩] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٨٧»:

١. ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ إنشاء لتنزيه تعالى، لما ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من أنواع النبات ورزقهم من الحبوب والأثمار، وإنما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضا كما قال: ﴿وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ق: أشار إلى ما هو أعظم وأوسع من خلق أزواج النبات وهو خلق الأزواج كلها وتنظيم العالم المشهود باستيلاد كل شيء من فاعل ومنفعل قبله هما أبواه كالذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات، وكل فاعل ومنفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمرا ثالثا، أشار تعالى إلى ذلك فنزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها﴾، فقوله: ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها﴾ إنشاء تسبيح على ما يعطيه السياق لا إخبار.

٢. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ هو وما بعده بيان للأزواج والذي تنبت الأرض هو النبات ولا يبعد

شموله الحيوان وقد قال تعالى في الإنسان وهو من أنواع الحيوان ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً﴾ نوح: ويؤيد ذلك أن ظاهر سياق البيان استيعابه للمبين مع عدم ذكر الحيوان في عدد الأزواج.

٣. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي الناس، وقوله: ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ وهو الذي يجهله الإنسان من الخليقة أو يجهل كيفية ظهوره أو ظهور الكثرة فيه.

٤. وربما قيل في الآية: إن المراد بالأزواج الأنواع والأصناف، ولا يساعد عليه الآيات التي تذكر خلق الأزواج كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والمقارنة ونوع من التألف والتركب من لوازم مفهوم الزوجية:

أ. قال الراغب: (يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة: زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها: زوج كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا: زوج، قال: وقوله: ﴿خَلَقْنا زَوْجَيْنِ﴾ فبين أن كل ما في العالم زوج من حيث إن له ضدا ما أو مثلا ما أو تركيبا ما بل لا ينفك بوجه من تركيب)

ب. فزوجية الزوج هي كونه مفتقرا في تحققه إلى تألف وتركب ولذلك يقال لكل واحد من القرينين من حيث هما قرينان: زوج لافتقاره إلى قرينه، وكذا يقال لمجموع القرينين: زوج لافتقاره في تحققه زوجا إلى التألف والتركب فكون الأشياء أزواجا مقارنة بعضها بعضا لإنتاج ثالث أو كونه مولدا من تألف اثنين.

١٠. آيات الليل والنهار والشمس والقمر:

المقطع [١٠] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٨٨»:

١. ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾:

أ. آية أخرى من آيات الربوبية الدالة على وقوع التدبير العام السماوي للعالم الإنساني مذكورة في أربع آيات.

ب. ولا شك أن الآية تشير إلى مفاجأة الليل عقيب ذهاب النهار، والسلخ في الآية بمعنى الإخراج ولذلك عدي بمن ولو كان بمعنى النزع كما في قولنا: سلخت الإهاب عن الشاة تعين تعديه بعن دون من.

ج. ويؤيد ذلك أنه تعالى عبر في مواضع من كلامه عن ورود كل من الليل والنهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال في مواضع من كلامه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فإذا كان ورود النهار بعد الليل إيلاجا للنهار في الليل اعتبارا كان مفاجأة الليل بعد النهار إخراجا للنهار من الليل اعتبارا.

د. كأن الليل أطبق عليهم وأحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نوره وضياؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانيا بانطباق الظلام وإحاطته بما أضاءه النهار ففي الكلام نوع من الاستعارة بالكناية.

هـ. ولعل فيما ذكرناه من الوجه كفاية عما أطنبوا فيه من البحث في معنى سلخ النهار من الليل ثم مفاجأة الليل.

٢. ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾:

أ. جريها حركتها وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَها﴾ اللام بمعنى إلى أو للغاية، والمستقر مصدر ميمي أو اسم زمان أو مكان، والمعنى أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهي إلى مستقرها أي استقرارها وسكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله.

ب. وأما جريها وهو حركتها فظاهر النظر الحسي يثبت لها حركة دورية حول الأرض لكن الأبحاث العلمية تقضي بالعكس وتكشف أن لها مع سياراتها حركة انتقالية نحو النسر الواقع.

ج. وكيف كان فمحصل المعنى أن الشمس لا تزال تجري ما دام النظام الدنيوي على حاله حتى تستقر وتسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا ويبطل هذا النظام، وهذا المعنى يرجع بالمال إلى معنى القراءة المنسوبة إلى أهل البيت وغيرهم: (والشمس تجري لا مستقر لها) كما قيل.

د. وأما حمل جريها على حركتها الوضعية حول مركزها فهو خلاف ظاهر الجري الدال على الانتقال من مكان إلى مكان.

٣. ﴿ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي الجري المذكور تقدير وتدبير ممن لا يغلبه غالب في إرادته ولا يجهل جهات الصلاح في أفعاله.

٤. ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾:

أ. المنازل جمع منزل اسم مكان من النزول والظاهر أن المراد به المنازل الثمانية والعشرون التي يقطعها القمر في كل ثمانية وعشرين يوما وليلة تقريبا.

ب. والعرجون عود عذق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته وهو عود أصفر مقوس يشبه الهلال، والقديم العتيق.

ج. وقد اختلفت الأنظار في معنى الآية للاختلاف في تركيبها، وأقرب التقديرات من الفهم قول من قال: إن التقدير والقمر قدرناه ذا منازل أو قدرنا له منازل حتى عاد هلالا يشبه العرجون العتيق المصفر لونه.

د. تشير الآية إلى اختلاف مناظر القمر بالنسبة إلى أهل الأرض فإن نوره مكتسب من الشمس يستنير بها نصف كرته تقريبا وما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم ثم يتغير موضع الاستنارة ولا يزال كذلك حتى يعود إلى الوضع الأول ويعرض ذلك أن يظهر لأهل الأرض في صورة هلال ثم لا يزال ينبسط عليه النور حتى يتبدر ثم لا يزال ينقص حتى يعود إلى ما كان عليه أوله.

هـ. ولاختلاف صوره آثار بارزة في البر والبحر وحياة الناس على ما بين في الأبحاث المربوطة.

و. فالآية الكريمة تذكر من آية القمر أحواله الطارئة له بالنسبة إلى الأرض وأهلها دون حاله في نفسه ودون حاله بالنسبة إلى الشمس فقط.

ز. ومن هنا لا يبعد أن يقال في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ إن المراد بقوله: ﴿تَجْرِي﴾ الإشارة إلى ما يعطيه ظاهر الحس من حركتها اليومية والفصلية والسنوية وهي حالها بالنسبة إلينا، وبقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ حالها في نفسها وهي سكونها بالنسبة إلى سياراتها المتحركة حولها كأنه قيل: وآية لهم أن الشمس على استقرارها تجري عليهم وقد دبر العزيز العليم بذلك كينونة العالم الأرضي وحياة أهله والله أعلم.

٥. ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾:

أ. لفظة ينبغي تدل على الترجح ونفي ترجح الإدراك من الشمس نفي وقوعه منها، والمراد به أن التدبير ليس مما يجري يوما ويقف آخر بل هو تدبير دائم غير مختل ولا منقوض حتى ينقضي الأجل المضروب منه تعالى لذلك.

ب. فالمعنى أن الشمس والقمر ملازمان لما خط لهما من المسير فلا تدرك الشمس القمر حتى يختل بذلك التدبير المعمول بهما ولا الليل سابق النهار وهما متعاقبان في التدبير فيتقدم الليل والنهار فيجتمع ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان.

ج. ولم يتعرض لنفي إدراك القمر للشمس ولا لنفي سبق النهار الليل لأن المقام مقام بيان انحفاظ النظم الإلهي عن الاختلال والفساد فنفى إدراك ما هو أعظم وأقوى وهو الشمس لما هو أصغر وأضعف وهو القمر، ويعلم منه حال العكس ونفى سبق الليل الذي هو افتقاده للنهار الذي هو ليله والليل مضاف إليه متأخر طبعا منه ويعلم به حال العكس.

٦. ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾:

أ. أي كل من الشمس والقمر وغيرهما من النجوم والكواكب يجرون في مجرى خاص به كما تسبح السمكة في الماء فالفلك هو المدار الفضائي الذي يتحرك فيه الجرم العلوي، ولا يبعد حينئذ أن يكون المراد بالكل كل من الشمس والقمر والليل والنهار وإن كان لا يوجد في كلامه تعالى ما يشهد على ذلك.

ب. والإتيان بضمير الجمع الخاص بالعقلاء في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ لعله للإشارة إلى كونها مطاوعة لمشيته مطيعة لأمره تعالى كالعقلاء كما في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ حم السجدة:.

ج. وللمفسرين في جمل الآية آراء أخر مضطربة أضربنا عنها من أراد الوقوف عليها فليراجع المفصلات.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: روي عن علي بن الحسين زين العابدين وأبي جعفر الباقر وجعفر الصادق عليه السلام: (لا مستقر لها) بنصب الراء.

ب. أخرج سعيد بن منصور وأحمد البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها﴾ قال: مستقرها تحت العرش.

• أقول: وقد روي هذا المعنى عن أبي ذر عنه ﷺ من طرق الخاصة والعامة مختصرة ومطولة، وفي

بعضها أنها بعد الغروب تصعد سماء سماء حتى تصل إلى ما دون العرش فتسجد وتستأذن في الطلوع وتبقى على ذلك حتى تكسى نورا ويؤذن لها في الطلوع.

• والرواية إن صحت فهي مؤولة.

ج. وفي روضة الكافي، بإسناده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله عز وجل خلق الشمس قبل القمر، وخلق النور قبل الظلمة.

د. وفي المجمع: روى العياشي في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال: كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا، والفضل بن سهل والمأمون في الإيوان بمرو، فوضعت المائدة فقال الرضا عليه السلام: إن رجلا من بني إسرائيل سألني بالمدينة فقال: النهار خلق قبل أم الليل؟ فما عندكم؟ قال: وأداروا الكلام فلم يكن عندهم في ذلك شيء، فقال الفضل للرضا: أخبرنا بها أصلحك الله، قال: نعم من القرآن أم من الحساب، قال له الفضل من جهة الحساب، فقال: قد علمت يا فضل إن طالع الدنيا السرطان، والكواكب في مواضع شرفها، فزحل في الميزان والمشتري في السرطان، والمريخ في الجدي والشمس في الحمل، والزهرة في الحوت وعطارد في السنبلة، والقمر في الثور، فتكون الشمس في العاشر وسط السماء، فالنهار قبل الليل، ومن القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ﴾ أي الليل قد سبقه النهار.

• أقول: نقل الآلوسي في روح المعاني، هذا الحديث ثم قال: (وفي الاستدلال بالآية بحث ظاهر، وأما بالحساب فله وجه في الجملة ورأى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر والذي يغلب على الظن عدم صحة الخبر من مبتدئه فالرضا أجل من أن يستدل بالآية على ما سمعت من دعواه)

• وقد اختلط عليه الأمر في تحصيل حقيقة معنى الليل والنهار، توضيحه:

● أن الليل والنهار متقابلان تقابل العدم والملكة كالعمى والبصر فكما أن العمى ليس مطلق عدم البصر حتى يكون الجدار مثلا أعمى لعدم البصر فيه بل هو عدم البصر مما من شأنه أن يتصف بالبصر كالإنسان كذلك الليل ليس هو مطلق عدم النور بل هو زمان عدم استضاءة ناحية من نواحي الأرض بنور الشمس ومن المعلوم أن عدم الملكة يتوقف في تحققه على تحقق الملكة المقابلة له قبله حتى يتعين بالإضافة إليه فلو لا البصر لم يتحقق عمى ولولا النهار لم يتحقق الليل.

● فمطلق الليل بمعناه الذي هو به ليل مسبوق الوجود بالنهار وقوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ﴾ وإن كان ناظرا إلى الترتيب المفروض بين النهر والليالي وأن هناك نهارا وليلا ونهارا وليلا وأن واحدا من هذه الليالي لا يسبق النهار الذي بجنبه.

● لكنه تعالى أخذ في قوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ﴾ مطلق الليل ونفى تقدمه على مطلق النهار ولم يقل: إن واحدا من الليالي الواقعة في هذا الترتيب لا يسبق النهار الواقع في الترتيب قبله.

● فالحكم في الآية مبني على ما يقتضيه طبيعة الليل والنهار بحسب التقابل الذي أودعه الله بينهما وقد استفيد منه الحكم بانحفاظ الترتيب في تعاقب الليل والنهار فإن كل ليل هو افتقاد النهار الذي هو يتلوه فلا يتقدم عليه وإلى هذا يشير عليه السلام بعد ذكر الآية بقوله: (أي الليل قد سبقه النهار) يعني أن سبق النهار الليل هو خلقه قبله وليس كما يتوهم أن هناك نهر أو ليالي موجودة ثم يتعين لكل منها محله.

● وقول المعترض: (وأما بالحساب فله وجه في الجملة) لا يدرى وجه قوله: في الجملة وهو وجه تام مبني على تسليم أصول التنجيم صحيح بالجملة على ذلك التقدير لا في الجملة.

● وكذا قوله: (ورأى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر) لا محصل له لأن دائرة نصف النهار وهي الدائرة المارة على القطبين ونقطة ثالثة بينهما غير متناهية في العدد لا تتعين لها نقطة معينة في السماء دون نقطة أخرى فيكون كون الشمس في إحداهما نهارا للأرض دون أخرى.

١١. حمل ذرية آدم في الفلك ورحمة الله وإغراق الكافرين:

المقطع [١١] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [يس: ٤١-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٩٢»:

١. ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾:

أ. قال الراغب: (الذرية أصلها الصغار من الأولاد، وتقع في التعارف على الصغار والكبار معا، ويستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع)، والفلك السفينة، والمشحون المملوء.

ب. آية أخرى من آيات ربوبيته تعالى وهو جريان تدبيره في البحر حيث يحمل ذريتهم في الفلك المشحون بهم وبأمتعتهم يجوزون به من جانب إلى جانب للتجارة وغيرها، ولا حامل لهم فيه ولا حافظ

لهم عن الغرق إلا هو تعالى والخواص التي يستفيدون منها في ركوب البحر أمور مسخرة له تعالى منتهية إلى خلقه على أن هذه الأسباب لو لم تنته إليه تعالى لم تغن طائلا.

ج. وإنما نسبت الحمل إلى الذرية دونهم أنفسهم فلم يقل: أنا حملناهم لإثارة الشفقة والرحمة.

٢. ﴿وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ﴾:

أ. المراد به، على ما فسروه، الأنعام قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] وقال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٨٠]

ب. وفسر بعضهم الفلك المذكور في الآية السابقة بسفينة نوح عليه السلام وما في هذه الآية بالسفن والزوارق المعمولة بعدها وهو تفسير رديء ومثله تفسير ما في هذه الآية بالإبل خاصة.

ج. وربما فسر ما في هذه الآية بالطيارات والسفن الجوية المعمولة في هذه الأعصار والتعميم أولى.

٣. ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾:

أ. الصريخ هو الذي يجيب الصراخ ويغيث، الاستغاثة والإنقاذ هو الإنجاء من الغرق.

ب. والآية متصلة بقوله السابق: ﴿أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي إن الأمر إلى مشيتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث ولا ينقذهم منقذ.

٤. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ﴾ استثناء مفرغ والتقدير لا ينجون بسبب من الأسباب وأمر من الأمور إلا لرحمة منا تنالهم ولتمتع إلى حين الأجل المسمى الذي قدرناه لهم.

١٢. الأمر بالتقوى وإعراض المكذبين عن آيات الله:

المقطع [١٢] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٥ـ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٩٢»:

١. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لما ذكر الآيات الدالة على الربوبية ذمهم على عدم رعايتهم حقها وعدم إقبالهم عليها وعدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البينات ناطقة أن ربكم الله فاتقوا معصيته في حالكم الحاضرة وما قدمتم من المعاصي، أو عذاب الشرك والمعاصي التي أنتم مبتلون بها وما خلفتم وراءكم، أو اتقوا ما بين أيديكم من الشرك والمعاصي في

الحياة الدنيا وما خلفكم من العذاب في الآخرة، أعرضوا عنه ولم يستجيبوا له على ما هو دأبهم في جميع الآيات التي ذكروا بها.

٢. ومن هنا يظهر:

أ. أولا: أن المراد بما بين أيديهم وما خلفهم الشرك والمعاصي التي هم مبتلون بها في حالهم الحاضرة وما كانوا مبتلين به قبل، أو العذاب الذي استوجبوه بذلك والمآل واحد، أو الشرك والمعاصي في الدنيا والعذاب في الآخرة وهو أوجه الوجوه.

ب. وثانيا: أن حذف جواب إذا للدلالة على أن حالهم بلغت من الجرأة على الله والاستهانة بالحق مبلغا لا يستطاع معها ذكر ما يجيبون به داعي الحق إذا دعاهم إلى التقوى فيجب أن يترك أسفا ولا يذكر، وقد دل عليه بقوله: ﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾

٣. ﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ المراد بإتيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهدة أو بالتلاوة والذكر، وأيضا هي أعم من أن تكون آية آفاقية أو أنفسية، أو تكون آية معجزة كالقرآن فهم معرضون عنها جميعا.

١٣. أمر المنفقين وردّ الكفار بالاستهزاء والضلال:

المقطع [١٣] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٩٣»:

١. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾:

أ. كان قوله: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ﴾ متعرضا لجوابهم إذا دعوا إلى عبادة الله وهي أحد ركني الدين الحق، وهذه الآية تعرضت لجوابهم إذا دعوا إلى الشفقة على خلق الله وهو الركن الآخر ومعلوم أن جوابهم الرد دون القبول.

ب. فقوله: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ يتضمن دعوتهم إلى الإنفاق على الفقراء والمساكين من أموالهم وفي التعبير عن الأموال بما رزقهم الله إشعار بأن المالك لها حقيقة هو الله الذي رزقهم بها وسلطهم عليها، وهو الذي خلق الفقراء والمساكين وأقام حاجتهم إلى ما عند هؤلاء من فضل المؤن

الذي لا يفتقرون إليه فلينفقوا عليهم وليحسنوا وليجملوا والله يحب الإحسان وجميل الفعل.

٢. ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾:

أ. جوابهم للدعوة إلى الإنفاق، وإنما أظهر القائل، الذين كفروا، ومقتضى المقام الإضمار للإشارة إلى أن كفرهم بالحق وإعراضهم عنه باتباع الشهوات هو الذي دعاهم إلى الاعتذار بمثل هذا العذر المبني على الإعراض عما تدعو إليه الفطرة من الشفقة على خلق الله وإصلاح ما فسد في المجتمع كما أن الإظهار في قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ للإشارة إلى أن قائل ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ هم الذين آمنوا.

ب. وفي قولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ إشعار بأن المؤمنين إنما قالوا لهم: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ بعنوان أنه مما يشاؤه الله ويريده حكما دينيا فردوه بأن إرادة الله لا تتخلف عن مراده فلو شاء أن يطعمهم أطعمهم أي وسع في رزقهم وجعلهم أغنياء.

ج. وهذه مغالطة منهم خلطوا فيه بين الإرادة التشريعية المبنية على الابتلاء والامتحان وهداية العباد إلى ما فيه صلاح حالهم في دنياهم وآخرتهم ومن الجائز أن تتخلف عن المراد بالعصيان، وبين الإرادة التكوينية التي لا تتخلف عن المراد ومن المعلوم أن مشيئة الله وإرادته المتعلقة بإطعام الفقراء والإنفاق عليهم من المشيئة التشريعية دون التكوينية فتخلفها في مورد الفقراء إنما يدل على عصيان الذين كفروا وتمردهم عما أمروا به لا على عدم تعلق الإرادة به وكذب مدعيه.

د. وهذه مغالطة بنوا عليها جل ما افتعلوه من سنن الوثنية وقد حكى الله سبحانه ذلك عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] وقوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]

٣. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ من تمام قول الذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أي إنكم في ضلال مبين في دعواكم أن الله أمرنا بالإنفاق وشاء منا ذلك.

١٤. استعجال الكفار بالعذاب:

المقطع [١٤] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ

يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٨ـ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٩٨»:

١. ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبني على الإنكار، ولعله لذلك جيء باسم الإشارة الموضوعة للقريبة ولأن النبي ﷺ والمؤمنين كثيرا ما كانوا يسمعونهم حديث يوم القيامة وينذرونهم به، والوعد يستعمل في الخير والشر إذا ذكر وحده وإذا قابل الوعيد تعين الوعد للخير والوعيد للشر.

٢. ﴿ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾:

أ. النظر بمعنى الانتظار، والمراد بالصيحة نفخة الصور الأولى بإعانة السياق، وتوصيف الصيحة بالوحدة للإشارة إلى هوان أمرهم على الله جلت عظمته فلا حاجة إلى مئونة زائدة، و﴿يَخِصِّمُونَ﴾ أصله يختصمون من الاختصام بمعنى المجادلة والمخاصمة.

ب. والآية جواب لقولهم: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ﴾ مسوقة سوق الاستهزاء بهم والاستهانة بأمرهم كما كان قولهم كذلك، والمعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون: متى هذا الوعد في سؤالهم عن وقت الوعد المنبئ عن الانتظار إلا صيحة واحدة، يسيرة علينا بلا مئونة ولا تكلف، تأخذهم فلا يسعهم أن يفروا وينجوا منها والحال أنهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم.

٣. ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يتفرع على هذه الصيحة بما أنها تفاجئهم ولا تمهلهم أن يموتوا من فورهم فلا يستطيعوا توصية، على أن الموت يعمهم جميعا دفعة فلا يترك منهم أحدا يوصى إليه، ولا أن يرجعوا إلى أهلهم إذا كانوا في الخارج من بيوتهم مثلا.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً﴾ الآية، قال: ذلك في آخر الزمان يصاح فيهم صيحة، وهم في أسواقهم يتخاصمون، فيموتون كلهم في مكانهم، لا يرجع أحد منهم إلى منزله ولا يوصي بوصية، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

١٥. النفخ في الصور للبعث وعدل الله في الجزاء:

المقطع [١٥] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ إِنْ

كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥١-٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٩٨»:

١. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ هذه هي نفخة الصور الثانية التي بها الإحياء والبعث، والأجداث جمع جدث وهو القبر والنسل الإسراع في المشي وفي التعبير عنه بقوله: ﴿إِلى رَبِّهِمْ﴾ تقريع لهم لأنهم كانوا ينكرون ربوبيته والباقي ظاهر.

٢. ﴿قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾:

أ. البعث الإقامة، والمرقد محل الرقاد والمراد به القبر، وتعبيرهم عنه تعالى بالرحمن نوع استرحام وقد كانوا يقولون في الدنيا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] وقوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ﴾ والجملة الفعلية قد تعطف على الاسمية.

ب. وقولهم: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا مبني على إنكارهم البعث وهم في الدنيا ورسوخ أثر الإنكار والغفلة عن يوم الجزاء في نفوسهم وهم لا يزالون مستغرقين في الأهواء فإذا قاموا من قبورهم مسرعين إلى المحشر فاجأهم الورود في عالم لا يستقبلهم فيه إلا توقع الشر فأخذهم الفزع الأكبر والدهشة التي لا تقوم لها الجبال ولذا يتبادرون أولا إلى دعوة الويل والهلاك كما كان ذلك دأبهم في الدنيا عند الوقوع في المخاطر ثم سألوا عمن بعثهم من مرقدهم لأن الذي أحاط بهم من الدهشة أذهلهم من كل شيء.

٣. ثم ذكروا ما كانت الرسل عليه السلام يذكرونهم به من الوعد الحق بالبعث والجزاء فشهدوا بحقية الوعد واستعصموا بالرحمة فقالوا: ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ﴾ على ما هو دأبهم في الدنيا حيث يكيدون عدوهم إذا ظهر عليهم بالتملق وإظهار الذلة والاعتراف بالظلم والتقصير ثم صدقوا الرسل بقولهم: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾

٤. وبما تقدم ظهر:

أ. أولا: وجه دعوتهم بالويل إذا بعثوا.

ب. وثانيا: وجه سؤالهم عمن بعثهم من مرقدهم الظاهر في أنهم جاهلون به أولا ثم إقرارهم بأنه الذي وعده الرحمن وتصديقهم المرسلين فيما بلغوا عنه تعالى.

ج. ويظهر أيضا أن قوله: ﴿مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾ وقوله: ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ﴾، من قولهم،

وقيل: قوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ عطف على مدخول ﴿ما﴾ و﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية و﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ﴾ جواب من الله أو من الملائكة أو من المؤمنين لقولهم: ﴿مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾؟ وغير خفي أنه خلاف الظاهر وخاصة على تقدير كون ﴿ما﴾ مصدرية ولو كان قوله: ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ﴾، جوابا من الله أو الملائكة لقولهم: ﴿مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾ لأجيب بالفاعل دون الفعل لأنهم سألوا عن فاعل البعث! وما قيل: إن العدول إليه لتذكير كفرهم وتقريعهم عليه مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل هذا، لا يغني طائلا.

د. وظهر أيضا أن قوله: ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ﴾ مبتدأ وخبر، وقيل ﴿هذا﴾ صفة لمرقدنا بتأويل اسم الإشارة إلى المشتق و﴿ما﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمن حق وهو بعيد عن الفهم.

٥. ﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾:

أ. اسم كان محذوف والتقدير إن كانت الفعلة أو النفخة إلا نفخة واحدة تفاجئهم أنهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير ومهلة.

ب. والتعبير بقوله: ﴿لَدَيْنا﴾ لأن اليوم يوم الحضور لفصل القضاء عند الله سبحانه.

٦. ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في هذا اليوم يقضي بينهم قضاء عدلا ويحكم حكما حقا فلا تظلم نفس شيئا.

٧. ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. عطف تفسير لقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ وهو في الحقيقة بيان برهاني لانتفاء الظلم يومئذ لدلالته على أن جزاء أعمال العاملين يومئذ نفس أعمالهم، ولا يتصور مع ذلك ظلم لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وتحميل العامل عمله وضع الشيء في موضعه ضرورة.

ب. وخطاب الآية من باب تمثيل يوم القيامة وإحضاره وإحضار من فيه بحسب العناية الكلامية، وليس، كما توهم، حكاية عما سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب الله سبحانه أو الملائكة أو المؤمنين يوم القيامة فلا موجب له من جهة السياق.

ج. والمخاطب بقوله: ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ السعداء والأشقياء جميعا.

د. وما قيل عليه أن الحصر يأبى التعميم فإنه تعالى يوفي المؤمنين أجورهم ويزيدهم من فضله

أضعافا مضاعفة مدفوع بأن الحصر في الآية نازل إلى جزاء العمل وأجره وما يدل من الآيات على المزيد كقوله: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ أمر وراء الجزاء والأجر خارج عن طور العمل.

هـ. وربما أجيب عنه بأن معنى الآية أن الصالح لا ينقص ثوابه والطالح لا يزاد عقابه فإن الحكمة تنافيه أما زيادة الثواب ونقض العقاب فلا مانع منه أو أن المراد بقوله: ﴿لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنكم لا تجزون إلا من جنس عملكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

و. وفيه أن مدلول الآية لو كان ما ذكر اندفع الإشكال لكن الشأن في دلالتها على ذلك.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: في الحديث: تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان، فما يطويانه حتى تقوم الساعة، والرجل يرفع أكلته إلى فيه حتى تقوم الساعة، والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته، فما يسقيها حتى تقوم.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وكذا عن قتادة عنه ﷺ مرسلا.

ب. وفي تفسير القمي وقوله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ قال: من القبور: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: تعالى ﴿يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾ فإن القوم كانوا في القبور، فلما قاموا حسبوا أنهم كانوا نياما وقالوا: ﴿يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾، قالت الملائكة: ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾

ج. وفي الكافي، بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أبو ذر رحمه الله يقول في خطبته: وما بين الموت والبعث، إلا كنومة نمتها ثم استيقظت منها.

١٦. من نعيم أهل الجنة:

المقطع [١٦] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥-٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٠١»:

١. ﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ﴾:

أ. الشغل الشأن الذي يشغل الإنسان ويصرفه عما عداه، والفاكه من الفكاهة وهي التحدث بما

يسر أو التمتع والتلذذ ولا فعل له من الثلاثي المجرد على ما قيل.

ب. وقيل: ﴿فاكِهُونَ﴾ معناه ذوو فاكهة نحو لابن وتامر ويبعده أن الفاكهة مذكورة في السياق ولا موجب لتكرارها.

ج. والمعنى أن أصحاب الجنة في هذا اليوم في شأن يشغلهم عن كل شيء دونه وهو التنعم في الجنة متمتعون فيها.

٢. ﴿هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ﴾:

أ. الظلال جمع ظل وقيل جمع ظلة بالضم وهي السترة من الشمس من سقف أو شجر أو غير ذلك، والأريكة كل ما يتكأ عليه من وسادة أو غيرها.

ب. والمعنى: هم أي أصحاب الجنة وأزواجهم من حلائلهم المؤمنات في الدنيا أو من الحور العين في ظلال أو أستار من الشمس وغيرها متكئون على الأرائك اتكاء الأعزة.

٣. ﴿لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ﴾ الفاكهة ما يتفكه به من الثمرات كالتفاح والأترج ونحوهما، وقوله: ﴿يَدَّعُونَ﴾ من الادعاء بمعنى التمني أي لهم في الجنة فاكهة ولهم فيها ما يتمنونه ويطلبونه.

٤. ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾:

أ. سلام مبتدأ محذوف الخبر والتنكير للتفخيم والتقدير سلام عليهم أو لهم سلام، و﴿قَوْلاً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير أقوله قولا من رب رحيم.

ب. والظاهر أن السلام منه تعالى وهو غير سلام الملائكة المذكور في قوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ﴾ قال يفاكهون النساء ويلاعبونهن.

ب. وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله عز وجل: ﴿فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ﴾ الأرائك السرر عليها الحجال.

ج. وفيه في قوله عز وجل: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ قال: السلام منه هو الأمان، وقوله:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ قال: إذا جمع الله الخلق يوم القيامة، بقوا قياما على أقدامهم حتى يلجمهم العرق فينادون: يا رب حاسبنا ولو إلى النار، قال: فيبعث الله رياحا فتضرب بينهم وينادي مناد: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فيميز بينهم فصار المجرمون في النار، ومن كان في قلبه الإيمان صار إلى الجنة.

• أقول: وقد ورد في بعض الروايات أن الله سبحانه يتجلى لهم فيشتغلون به عن كل من سواه ما دام التجلي والمراد به ارتفاع كل حجاب بينهم وبين ربهم دون الرؤية البصرية التي لا تتحقق إلا بمقارنة الجهات والأبعاد فإنها مستحيلة في حقه تعالى.

د. وفي اعتقادات الصدوق، قال عليه السلام: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس.

١٧. فصل المجرمين وتذكيرهم بعهد الله وعداوة إبليس:

المقطع [١٧] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٥٩ـ٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٠٢»:

١. ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ونقول اليوم للمجرمين امتازوا من أصحاب الجنة وهو تمييزهم منهم يوم القيامة وإنجاز لما في قوله في موضع آخر: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ص:، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١]

٢. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾:

أ. العهد الوصية، والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس ويأمر به إذ لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته، وقد علل النهي عن طاعته بكونه عدوا مبينا لأن العدو لا يريد بعدوه خيرا.

ب. وقيل: المراد بعبادته عبادة الآلهة من دون الله وإنما نسبت إلى الشيطان لكونها بتسويله وتزيينه، وهو تكلف من غير موجب.

ج. وإنما وجه الخطاب إلى المجرمين بعنوان أنهم بنو آدم لأن عداوة الشيطان إنما نشبت أول ما

نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى واستكبر فرجم ثم عاد ذريته بعداوته وأوعدهم كما حكاه الله تعالى إذ قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]

د. وأما عهده تعالى ووصيته إلى بني آدم أن لا يطيعوه فهو الذي وصاهم به بلسان رسله وأنبيائه وحذرهم عن اتباعه كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]: وقوله: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢]

هـ. وقيل: المراد بالعهد عهده تعالى إليهم في عالم الذر حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلَى﴾، وقد عرفت مما قدمناه في تفسير آية الذر أن العهد الذي هناك هو بوجه عين العهد الذي وجه إليهم في الدنيا.

٣. ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ عطف تفسير لما سبقه، وقد تقدم كلام في معنى الصراط المستقيم في تفسير قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ من سورة الفاتحة.

٤. ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ الجبل الجماعة وقيل: الجماعة الكثيرة والكلام مبني على التوبيخ والعتاب.

٥. ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي كان يستمر عليكم الإيعاد بها مرة بعد مرة بلسان الأنبياء والرسل عليه السلام وأول ما أوعد الله سبحانه بها حين قال لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٢-٤٣] وفي لفظ الآية إشارة إلى إحضار جهنم يومئذ.

٦. ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الصلا، اللزوم والاتباع، وقيل: مقاساة الحرارة ويظهر بقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أن الخطاب للكفار وهم المراد بالمجرمين.

١٨. ختم الأفواه وشهادة الجوارح يوم القيامة:

المقطع [١٨] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٦٥-٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٠٣»:

١. ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي يشهد كل منها بما كانوا يكسبونه بواسطته فالأيدي بالمعاصي التي كسبوها بها والأرجل بالمعاصي الخاصة بها على ما يعطيه السياق.

٢. ومن هنا يظهر أن كل عضو ينطق بما يخصه من العمل وأن ذكر الأيدي والأرجل من باب الأنموذج ولذا ذكر في موضع آخر السمع والبصر والفؤاد كما في سورة الإسراء [الآية: ٣٦]، وفي موضع آخر الجلود كما في سورة حم السجدة [الآية: ٢٠]، وسيأتي بعض ما يتعلق به من الكلام في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله.

٣. ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾:

أ. قال في مجمع البيان: (الطمس محو الشيء حتى يذهب أثره فالطمس على العين كالطمس على الكتاب ومثله الطمس على المال وهو إذهابه حتى لا يقع عليه إدراك، وأعمى مطموس وطميس وهو أن يذهب الشق الذي بين الجفنين)

ب. فقوله: ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ﴾ أي لو أردنا لأذهبنا أعينهم فصارت ممسوحة لا أثر منها فذهبت به أبصارهم وبطل أبصارهم.

٤. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ﴾:

أ. أي أرادوا السبق إلى الطريق الواضح الذي لا يخطئ قاصده ولا يظل سالكه فلم يبصروه ولن يبصروه فالاستبعاد المفهوم من قوله: ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ كناية عن الامتناع.

ب. وقول بعضهم: إن المراد باستباق الصراط مبادرتهم إلى سلوك طريق الحق وعدم اهتدائهم إليها، لا يخلو من بعد.

٥. ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (والمسخ قلب الصورة إلى خلقة مشوهة كما مسخ قوم قردة وخنازير وقال: والمكانة والمكان واحد)، والمراد بمسخهم على مكانتهم تشوية خلقهم وهم قعود في مكانهم الذي هم فيه من غير أن يغيرهم عن حالهم بعلاج وتكلف بل بمجرد المشية فهو كناية عن كونه هينا سهلا عليه تعالى من غير أي صعوبة.

ب. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي مضيا في العذاب ولا يرجعون إلى حالهم قبل العذاب والمسخ فالمضي والرجوع كنايتان عن الرجوع إلى حال السلامة والبقاء على حال العذاب والمسخ.

ج. وقيل: المراد مضيهم نحو مقاصدهم ورجوعهم إلى منازلهم وأهليهم ولا يخلو من بعد.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب، فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه قال الله عز وجل ـ: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتَابَهُمْ﴾ ـ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١]

ب. وفي تفسير العياشي، عن مسعد بن صدقة عن جعفر بن محمد عن جده قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة يصف هول يوم القيامة: ختم الله على الأفواه فلا تكلم، وتكلمت الأيدي وشهدت الأرجل، ونطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثا.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر يأتي بعضها في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾، وتقدم بعضها في الكلام على قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾

١٩. التعمير والتنكيس والعقل:

المقطع [١٩] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٠٧»:

١. ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾:

أ. التعمير التطويل في العمر، والتنكيس تقليب الشيء بحيث يعود أعلاه أسفله ويتبدل قوته ضعفا وزيادته نقصا والإنسان في عهد الهرم منكس الخلق يتبدل قوته ضعفا وعلمه جهلا وذكره نسيانا.

ب. والآية في مقام الاستشهاد بتنكيس الخلق على إمكان مضمون الآيتين السابقتين والمراد أن الذي ينكس خلق الإنسان إذا عمره قادر على أن يطمس على أعينهم وعلى أن يمسخهم على مكانتهم.

٢. وفي قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ توبيخهم على عدم التعقل وحثهم على التدبر في هذه الأمور والاعتبار بها.

٢٠. القرآن ذكر وهدى ومنذر لكل حي:

المقطع [٢٠] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩-٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٠٨»:

١. ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾:

أ. عطف ورجوع إلى ما تقدم في صدر السورة من تصديق رسالة النبي ﷺ وكون كتابه تنزيلا من عنده تعالى.

ب. فقوله: ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ﴾ نفى أن يكون علمه الشعر ولازمه أن يكون بحيث لا يحسن قول الشعر لا أن يحسنه ويمتنع من قوله للنهي من الله متوجه إليه، ولا أن النازل من القرآن ليس بشعر وإن أمكنه ﷺ أن يقوله.

ج. وبه يظهر أن قوله: ﴿وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ في مقام الامتنان عليه بأنه نزهه عن أن يقول شعرا فالجملة في مقام دفع الدخل والمحصل أن عدم تعليمنا إياه الشعر ليس يوجب نقصا فيه ولا أنه تعجيز له بل لرفع درجته وتنزيه ساحته عما يتعاوره العارف بصناعة الشعر فيقع في معرض تزيين المعاني بالتخيلات الشعرية الكاذبة التي كلما أمعن فيها كان الكلام أوقع في النفس، وتنظيم الكلام بأوزان موسيقية ليكون أوقع في السمع، فلا ينبغي له ﷺ أن يقول الشعر وهو رسول من الله وآية رسالته ومتن دعوته القرآن المعجز في بيانه الذي هو ذكر وقرآن مبين.

٢. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾:

أ. تفسير وتوضيح لقوله: ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ بما أن لازم معناه أن القرآن ليس بشعر فالحصر المستفاد من قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من قصر القلب والمعنى ليس هو بشعر ما هو إلا ذكر وقرآن مبين.

ب. ومعنى كونه ذكرا وقرآنا أنه ذكر مقروء من الله ظاهر ذلك.

٣. ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾:

أ. تعليل متعلق بقوله: ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ﴾ والمعنى ولم نعلمه الشعر لينذر بالقرآن المنزه من أن

يكون شعرا من كان حيا أو متعلق بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ والمعنى ليس ما يتلوه على الناس إلا ذكرا وقرآنا مبينا نزلناه إليه لينذر من كان حيا ومآل الوجهين واحد.

ب. والآية، كما ترى، تعد غاية إرسال الرسول وإنزال القرآن إنذار من كان حيا، وهو كناية عن كونه يعقل الحق ويسمعه، وحقيقة القول ووجوبه على الكافرين فمحاذاة الآية لما في صدر السورة من الآيات في هذا المعنى ظاهر.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ الآية، قال: كانت قريش تقول: إن هذا الذي يقوله محمد شعر، فرد الله عليهم فقال: ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ ـ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ولم يقل رسول الله ﷺ شعرا قط.

ب. وفي المجمع: روي عن الحسن: أن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت: كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا، فقال له أبو بكر: يا رسول الله إنما قال: كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا، وأشهد أنك رسول الله، وما علمك الله الشعر وما ينبغي لك.

ج. وفيه، عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتمثل ببيت أخي بني قيس:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا...ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل يقول: ويأتيك من لم تزود بالأخبار، فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله، فيقول: إني لست بشاعر ولا ينبغي لي.

• أقول: وروي في الدر المنثور، الخبرين عن الحسن وعائشة كما رواه وروي في الدر المنثور غير ذلك مما تمثل به ﷺ.

• وقال في المجمع: (فأما قوله: أنا النبي لا كذب...أنا ابن عبد المطلب.، فقد قال قوم: إن هذا ليس بشعر، وقال آخرون: إنما هو اتفاق منه وليس يقصد إلى شعر)، والبيت منقول عنه ﷺ وقد أكثروا من البحث فيه وطرح الرواية أهون من نفي كونه شعرا أو شعرا مقصودا إليه.

د. وفيه في قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا﴾ الآية، ويجوز أن يكون المراد بمن كان حيا عاقلا، وروي ذلك عن علي عليه السلام.

٢١. تسخير الأنعام للناس:

المقطع [٢١] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٠٩»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ﴾:

أ. ذكر آية من آيات التوحيد تدل على ربوبيته تعالى وتدبيره للعالم الإنساني وهي نظيرة ما تقدم في ضمن آيات التوحيد السابقة من إحياء الأرض الميتة بإخراج الحب والثمرات وتفجير العيون.

ب. والمراد بكون الأنعام مما عملته أيديه تعالى عدم إشراكهم في خلقها واختصاصه به تعالى فعمل الأيدي كناية عن الاختصاص.

٢. ﴿فَهُمْ لَها مالِكُونَ﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿خَلَقْنا لَهُمْ﴾ فإن المعنى خلقنا لأجلهم فهي مخلوقة لأجل الإنسان ولازمه اختصاصها به وينتهي الاختصاص إلى الملك فإن الملك الاعتباري الذي في المجتمع من شعب الاختصاص.

ب. وبذلك يظهر ما في قول بعضهم: إن في تفرع قوله: ﴿فَهُمْ لَها مالِكُونَ﴾ على قوله: ﴿خَلَقْنا لَهُمْ﴾ خفاء، والظاهر تفرعها على مقدر والتقدير خلقناها لهم فهم لها مالكون، وأنت خبير بعدم خفاء تفرعها على ﴿خَلَقْنا لَهُمْ﴾ وعدم الحاجة إلى تقدير.

ج. وقيل: الملك بمعنى القدرة والقهر، وفيه أنه مفهوم من قوله بعد: ﴿وَذَلَّلْناها لَهُمْ﴾ والتأسيس خير من التأكيد.

٣. ﴿وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ﴾ تذليل الأنعام جعلها منقادة لهم غير عاصية وهو تسخيرها لهم، والركوب بفتح الراء الحمولة كالإبل والبقر، وقوله: ﴿وَمِنْها يَأْكُلُونَ﴾ أي من لحمها يأكلون.

٤. ﴿وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ المراد بالمنافع ما ينتفعون به من شعرها ووبرها وجلودها وغير ذلك، والمشارب جمع مشرب، مصدر ميمي بمعنى المفعول، والمراد بها الألبان، والكلام

في معنى الشكر كالكلام فيما تقدم في قوله: ﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾

٥. ومعنى الآيات الثلاث: أولم يعلموا أنا خلقنا لأجلهم ولتدبير أمر حياتهم الدنيا أنعاما من الإبل والبقر والغنم فتفرع على ذلك أنهم مالكون لها ملكا يصحح لهم أنواع تصرفاتهم فيها من غير معارض، وذللناها لهم بجعلها مسخرة لهم منقادة غير عاصية فمنها ركوبهم الذي يركبونه، ومنها أي من لحومها يأكلون، ولهم فيها منافع ينتفعون بأشعارها وأوبارها وجلودها ومشروبات من ألبانها يشربونها أفلا يشكرون الله على هذا التدبير الكامل الذي يكشف عن ربوبيته لهم؟ أولا يعبدونه شكرا لأنعمه؟

٢٢. عجز الآلهة المزعومة عن نصر عابديها:

المقطع [٢٢] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١١٠»:

١. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾:

أ. ضمائر الجمع للمشركين، والمراد بالآلهة الأصنام أو الشياطين وفراعنة البشر دون الملائكة المقربين والأولياء من الإنسان لعدم ملاءمة ذيل الكلام: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ لذلك.

ب. وإنما اتخذوهم آلهة رجاء أن ينصروا من ناحيتهم لأن عامتهم تتخذ إلها زعما منهم أن تدبير أمره مفوض إلى من اتخذه إلها من خير أو شر فيعبده العابد منهم ليرضيه بعبادته فلا يسخط فيقطع النعمة أو يرسل النقمة.

٢. ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أي لا يستطيع هؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم آلهة نصر هؤلاء المشركين لأنهم لا يملكون شيئا من خير أو شر.

٣. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾:

أ. الظاهر أن أول الضميرين للمشركين وثانيهما للآلهة من دون الله والمراد أن المشركين جند للآلهة وذلك أن من لوازم معنى الجندية التبعية والملازمة والمشركون هم المعدودون أتباعا لآلهتهم مطيعين لهم دون العكس.

ب. والمراد بالإحضار في قوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ الإحضار للجزاء يوم القيامة قال تعالى:﴾ قال:

وقال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧] ومحصل المعنى لا يستطيع الآلهة المتخذون نصر المشركين وهم أي المشركون لهم أي لآلهتهم أتباع مطيعون محضرون معهم يوم القيامة.

ج. وأما قول القائل: إن المعنى أن المشركين جند لآلهتهم معدون للذب عنهم في الدنيا، أو إن المعنى وهم أي الآلهة لهم أي للمشركين جند محضرون لعذاب المشركين يوم القيامة لأنهم وقود النار التي يعذب بها المشركون، أو محضرون لعذابهم إظهارا لعجزهم عن النصر أو لإقناط المشركين عن شفاعتهم فهي معان رديئة.

٤. ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ﴾ الفاء لتفريع النهي عن الحزن على حقيقة اتخاذهم الآلهة من دون الله رجاء للنصر أي إذا كان هذا حقيقة حالهم أن الذين استنصروهم لا يستطيعون نصرهم أبدا وأنهم سيحضرون معهم للعذاب فلا يحزنك قولهم ما قالوا به من الشرك فإنا لسنا بغافلين عنهم حتى يعجزونا أو يفسدوا علينا بعض الأمر بل نعلم ما يسرون من أقوالهم وما يعلنون، وفي تركيب الآية بعض أقوال رديئة أضربنا عنه.

٢٣. خلق الإنسان من نطفة وإنكار البعث وإحياء العظام:

المقطع [٢٣] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١١١»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾:

أ. رجوع إلى ما تقدم من حديث البعث والاحتجاج عليه إثر إنكارهم، ولا يبعد أن يكون بيانا تفصيليا لقولهم المشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ والمراد بالرؤية العلم القطعي أي أولم يعلم الإنسان علما قاطعا أنا خلقناه من نطفة، وتنكير نطفة للتحقير والخصيم المصر على خصومته وجداله.

ب. والاستفهام للتعجب والمعنى من العجيب أن الإنسان يعلم أنا خلقناه من نطفة مهينة فيفاجئه أنه خصيم مجادل مبين.

٢. ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾:

أ. الرميم البالي من العظام، و﴿نَسِيَ خَلْقَهُ﴾ حال من فاعل ضرب، وقوله: ﴿قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ بيان للمثل الذي ضربه الإنسان، ولذلك جيء به مفصولا من غير عطف لأن الكلام في معنى أن يقال: فما ذا ضرب مثلا؟ فقيل قال من يحيي العظام وهي رميم.

ب. والمعنى وضرب الإنسان لنا مثلا وقد نسي خلقه من نطفة لأول مرة، ولو كان ذاكره لم يضرب المثل الذي ضربه وهو قوله: (من يحيي العظام وهي بالية؟) لأنه كان يرد على نفسه ويجيب عن المثل الذي ضربه بخلقه الأول كما لقنه الله تعالى لنبيه ﷺ جوابا عنه.

٣. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾:

أ. تلقين الجواب للنبي ﷺ.

ب. الإنشاء هو الإيجاد الابتدائي وتقييده بقوله (﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ للتأكيد، وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى أنه تعالى لا ينسى ولا يجهل شيئا من خلقه فإذا كان هو خالق هذه العظام لأول مرة وهو لا يجهل شيئا مما كانت عليه قبل الموت وبعده فإحياؤه ثانيا بمكان من الإمكان لثبوت القدرة وانتفاء الجهل والنسيان.

٤. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾:

أ. بيان لقوله: ﴿الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والإيقاد إشعال النار.

ب. والآية مسوقة لرفع استبعاد جعل الشيء الموات شيئا ذا حياة والحياة والموت متنافيان والجواب أنه لا استبعاد فيه فإنه هو الذي جعل لكم من الشجر الأخضر الذي يقطر ماء نارا فإذا أنتم منه توقدون وتشعلون النار، والمراد به على المشهور بين المفسرين شجر المرخ والعفار كانوا يأخذون منهما على خضرتهما فيجعل العفار زندا أسفل ويجعل المرخ زندا أعلى فيسحق الأعلى على الأسفل فتنقدح النار بإذن الله فحصول الحي من الميت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجرة الخضراء وهما متضادان.

٥. أحاديث وآثار:

أ. عن تفسير العياشي، عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء أبي بن خلف فأخذ عظما باليا من حائط ففته ثم قال: إذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا؟ فأنزل الله: ﴿قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ـ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

• أقول: وروي مثله في الدر المنثور، بطرق كثيرة عن ابن عباس وعروة بن الزبير، وعن قتادة والسدي وعكرمة

• وروي أيضا عن ابن عباس: أن القائل هو العاص بن وائل، وبطريق آخر عنه، أن القائل هو عبد الله بن أبي.

ب. وفي الإحتجاج: في احتجاج أبي عبد الله الصادق عليه السلام: قال السائل: أفيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟ قال ﷺ: بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور، فعند ذلك تبطل الأشياء وتنفى فلا حس ولا محسوس، ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها، وذلك أربعمائة سنة يسبت فيها الخلق، وذلك بين النفختين، قال: وأنى له بالبعث والبدن قد بلي، والأعضاء قد تفرقت فعضو ببلدة تأكله سباعها، وعضو بأخرى تمزقه هوامها، وعضو قد صار ترابا يبنى به مع الطين في حائط، قال ﷺ: إن الذي أنشأه من غير شيء، وصوره على غير مثال، كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه، قال: أوضح لي ذلك، قال ﷺ: إن الروح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير ترابا كما منه خلق، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها، فما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب محفوظ، عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وإن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور، فتربو الأرض ثم تمخض مخض السقاء، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب، إذا غسل بالماء والزبد من اللبن إذا مخض فيجتمع تراب كل قالب إلى قالبه، فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها ويلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئا.

٢٤. قدرة الخالق على الإعادة:

المقطع [٢٤] من سورة يس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١-٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١١٢»:

١. ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. الاستفهام للإنكار والآية بيان للحجة السابقة المذكورة في قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ببيان أقرب إلى الذهن وذلك بتبديل إنشائهم أول مرة من خلق السماوات والأرض الذي هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ المؤمن:.

ب. فالآية في معنى قولنا: وكيف يمكن أن يقال: إن الله الذي خلق عوالم السماوات والأرض بما فيها من سعة الخلقة البديعة وعجيب النظام العام المتضمن لما لا يحصى من الأنظمة الجزئية المدهشة للعقول المحيرة للألباب والعالم الإنساني جزء يسير منها، لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس، بلى وإنه خلاق عليم.

ج. والمراد بمثلهم:

- قيل: هم وأمثالهم وفيه أنه مغاير لمعنى مثل على ما يعرف من اللغة والعرف.
- وقيل: المراد بمثلهم هم أنفسهم بنحو الكناية على حد قولهم: مثلك غني عن كذا أي أنت غني عنه، وفيه أنه لو كان كناية لصح التصريح به لكن لا وجه لقولنا: أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلقهم فإن الكلام في بعثهم لا في خلقهم والمشركون معترفون بأن خالقهم هو الله سبحانه.
- وقيل: ضمير ﴿مِثْلَهُمْ﴾ للسماوات والأرض فإنها تشملان ما فيهما من العقلاء فأعيد إليهما ضمير العقلاء تغليبا فالمراد أن الله الخالق للعالم قادر على خلق مثله.
- وفيه أن المقام مقام إثبات بعث الإنسان لا بعث السماوات والأرض، على أن الكلام في الإعادة وخلق مثل الشيء ليس إعادة لعينه بل بالضرورة.

د. فالحق أن يقال: إن المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان، بيانه:

- أن الإنسان مركب من نفس وبدن، والبدن في هذه النشأة في معرض التحلل والتبدل دائما فهو لا يزال يتغير أجزاؤه والمركب ينتفي بانتفاء أحد أجزائه فهو في كل آن غيره في الآن السابق بشخصه وشخصية الإنسان محفوظة بنفسه، روحه، المجردة المنزهة عن المادة والتغيرات الطارئة من قبلها المأمونة من الموت والفساد.
- والمتحصل من كلامه تعالى أن النفس لا تموت بموت البدن وأنها محفوظة حتى ترجع إلى الله سبحانه كما تقدم استفادته من قوله تعالى: ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ

رَبِّهِمْ كافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ الم السجدة:.

• فالبدن اللاحق من الإنسان إذا اعتبر بالقياس إلى البدن السابق منه كان مثله لا عينه لكن الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس إلى الإنسان ذي البدن السابق كان عينه لا مثله لأن الشخصية بالنفس وهي واحدة بعينها.

• ولما كان استبعاد المشركين في قولهم: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ راجعا إلى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكان خلق مثلهم وأما عودهم بأعيانهم فهو إنما يتم بتعلق النفوس والأرواح المحفوظة عند الله بالأبدان المخلوقة جديدا، فيكون الأشخاص الموجودين في الدنيا من الناس بأعيانهم كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعلق الإحياء على الموتى بأعيانهم فقال: ﴿عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ ولم يقل: على أن يحيي أمثال الموتى.

٢. ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾:

أ. الآية من غرر الآيات القرآنية تصف كلمة الإيجاد وتبين أنه تعالى لا يحتاج في إيجاد شيء مما أراده إلى ما وراء ذاته المتعالية من سبب يوجد له ما أراده أو يعينه في إيجاده أو يدفع عنه مانعا يمنعه.

ب. وقد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقة في كلامه فقال: ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقال: ﴿وَإِذا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]

ج. فقوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ﴾ الظاهر أن المراد بالأمر الشأن، وقوله في آية النحل المنقولة آنفا: ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ﴾ إن كان يؤيد كون الأمر بمعنى القول وهو الأمر اللفظي بلفظة كن إلا أن التدبر في الآيات يعطي أن الغرض فيها وصف الشأن الإلهي عند إرادة خلق شيء من الأشياء لا بيان أن قوله تعالى عند خلق شيء من الأشياء هذا القول دون غيره، فالوجه حمل القول على الأمر بمعنى الشأن بمعنى أنه جيء به لكونه مصداقا للشأن لا حمل الأمر على القول بمعنى ما يقابل النهي.

د. ﴿إِذا أَرادَ شَيْئاً﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء كما يعطيه سياق الآية وقد ورد في عدة من الآيات القضاء مكان الإرادة كقوله: ﴿إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولا ضير فالقضاء هو الحكم والقضاء والحكم والإرادة من الله شيء واحد وهو كون الشيء الموجود بحيث ليس له من الله سبحانه إلا

أن يوجد فمعنى إذا أردناه إذا أوقفناه موقف تعلق الإرادة.

هـ. ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ خبر إنما أمره أي يخاطبه بكلمة كن ومن المعلوم أن ليس هناك لفظ يتلفظ به وإلا احتاج في وجوده إلى لفظ آخر وهلم جرا فيتسلسل ولا أن هناك مخاطبا ذا سمع يسمع الخطاب فيوجد به لأدائه إلى الخلف فالكلام تمثيل لإفاضته تعالى وجود الشيء من غير حاجة إلى شيء آخر وراء ذاته المتعالية ومن غير تخلف ولا مهل.

٣. وبه يظهر فساد ما ذكره بعضهم حيث قال: (الظاهر أن هناك قولا لفظيا هو لفظ كن وإليه ذهب معظم السلف وشئون الله تعالى وراء ما تصل إليه الأفهام فدع عنك الكلام والخصام)

أ. وذلك أن ما ذكره من كون شئونه تعالى وراء طور الأفهام لو أبطل الحجة العقلية القطعية بطلت بذلك المعارف الدينية من أصلها فصحة الكتاب مثلا بما يفيده من المعارف الحقيقية إنما تثبت بالحجة العقلية فلو بطلت الحجة العقلية بكتاب أو سنة أو شيء آخر مما يثبت هو بها لكان ذلك الدليل المبطل مبطلا لنفسه أولا فلا تزل قدم بعد ثبوتها.

ب. ومن المعلوم أن ليس هناك إلا الله عز اسمه والشيء الذي يوجد لا ثالث بينهما وإسناد العلية والسببية إلى، إرادته دونه تعالى والإرادة صفة فعلية منتزعة من مقام الفعل كما تقدم، يستلزم انقطاع حاجة الأشياء إليه تعالى من رأس لاستيجابه استغناء الأشياء بصفة منتزعة منها عنه تعالى وتقدس.

ج. ومن المعلوم أن ليس هناك أمر ينفصل عنه تعالى يسمى إيجادا ووجودا ثم يتصل بالشيء فيصير به موجودا وهو ظاهر فليس بعده تعالى إلا وجود الشيء فحسب.

٤. ومن هنا يظهر:

أ. أن كلمة الإيجاد وهي كلمة كن هي وجود الشيء الذي أوجده لكن بما أنه منتسب إليه قائم به وأما من حيث انتسابه إلى نفسه فهو موجود لا إيجاد ومخلوق لا خلق.

ب. ويظهر أيضا أن الذي يفيض منه تعالى لا يقبل مهلة ولا نظرة ولا يتحمل تبدلا ولا تغيرا، ولا يتلبس بتدريج وما يتراءى في الخلق من هذه الأمور إنما يتأتى في الأشياء في ناحية نفسها لا من الجهة التي تلي ربها سبحانه وهذا باب ينفتح منه ألف باب.

٥. وفي الآيات للتلويح إلى هذه الحقائق إشارات لطيفة كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ

ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقوله في آخر الآية: ﴿فَيَكُونُ﴾ بيان لطاعة الشيء المراد له تعالى وامتثاله لأمر ﴿كُنْ﴾ ولبسه الوجود.

٦. ﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. الملكوت مبالغة في معنى الملك كالرحموت والرهبوت في معنى الرحمة والرهبة.

ب. وانضمام الآية إلى ما قبلها يعطي أن المراد بالملكوت الجهة التالية له تعالى من وجهي وجود الأشياء، وبالملك الجهة التالية للخلق أو الأعم الشامل للوجهين، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقوله:﴾ قال: وقوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]

ج. وجعل الملكوت بيده تعالى للدلالة على أنه متسلط عليها لا نصيب فيها لغيره.

د. ومآل المعنى قوله: ﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنزيه تعالى عما استبعدوا منكرين للمعاد لغفلتهم عن أن ملكوت كل شيء بيده وفي قبضته.

٧. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ خطاب لعامة الناس من مؤمن ومشرك، وبيان لنتيجة البيان السابق بعد التنزيه.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في نهج البلاغة: يقول لما أراد كونه: كن فيكون، لا بصوت يقرع ولا نداء يسمع، وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنا، ولو كان قديما لكان إلها ثانيا.

ب. وفيه: يقول ولا يلفظ ويريد ولا يضمر.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن صفوان بن يحيى قال، قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق، قال: فقال: الإرادة من الخلق الضمير، وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله فإرادته إحداثه لا غير ذلك، لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق، فإرادة الله الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان، ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له.

• أقول: والروايات عنهم عليه السلام في كون إرادته من صفات الفعل مستفيضة.

سورة الصافات

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٥] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. في السورة احتجاج على التوحيد، وإنذار للمشركين، وتبشير للمخلصين من المؤمنين، وبيان ما يئول إليه حال كل من الفريقين.

ب. ثم ذكر عدة من عباده المؤمنين ممن من الله عليهم وقضى أن ينصرهم على عدوهم.

ج. وفي خاتمة السورة ما هو بمنزلة محصل الغرض منها: وهو تنزيهه والسلام على عباده المرسلين، وتحميده تعالى فيما فعل.

د. والسورة مكية بشهادة سياقها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١١] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر صفوف الملائكة وتلاوتهم للذكر، وتؤكد وحدانية الله، وتذكر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأن الشياطين لا يستطيعون استراق السمع من الملأ الأعلى.

٢. الآيات [١٢ ـ ٧٠]:

أ. حكاية استهزائهم بآيات الله، وبعض أقاويلهم المبنية على الكفر وإنكار المعاد، والرد عليهم بتقرير أمر البعث، وما يجري عليهم فيه من الشدة وألوان العذاب، وما يكرم الله به عباده المخلصين من النعمة والكرامة.

ب. وفيها ذكر تخاصم أهل النار يوم القيامة، وذكر محادثة بين أهل الجنة وأخرى بين بعضهم وبعض أهل النار.

٣. الآيات [٧١ ـ ١١٣]:

أ. تعقيب لغرض السياق السابق المتعرض لشركهم وتكذيبهم بآيات الله وتهديدهم بأليم العذاب، يقول: إن أكثر الأولين ضلوا كضلالهم، وكذبوا الرسل المنذرين كتكذيبهم.

ب. ويستشهد بقصص: نوح، وإبراهيم، وموسى وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس عليه السلام.

ج. وفي الآيات المنقولة إشارة إلى قصة نوح وخلاصة قصص إبراهيم عليه السلام.

٤. الآيات [١١٤ ـ ١٣٢] ملخص قصة موسى وهارون، وإشارة إلى قصة إلياس عليه السلام، وبيان ما أنعم الله عليهم وعذاب مكذبيهم، وجانب الرحمة يربو فيها على جانب العذاب، والتبشير يزيد على الإنذار.

٥. الآيات [١٣٣ ـ ١٤٨] خلاصة قصة لوط عليه السلام، ثم قصة يونس عليه السلام وابتلاء الله تعالى له بالحوت، مأخوذاً بما أعرض عن قومه عند ارتفاع العذاب عنهم بعد نزوله وإشرافه عليهم.

٦. الآيات [١٤٩ ـ ١٨٢]:

أ. قدم سبحانه ما بين به أنه رب معبود، عبده عباد مخلصون كالأنبياء المكرمين، وكفر به آخرون، فنجى عباده وأخذ الكافرين بأليم العذاب.

ب. ثم تعرض في هذه الآيات لما يعتقدونه في آلهتهم وهم الملائكة والجن، وأن الملائكة بنات الله، وبينه وبين الجنة نسباً.

ج. والوثنية البرهمية والبوذية والصابئة ما كانوا يقولون بأنوثة جميع الملائكة، وإن قالوا بها في بعضهم، لكن المنقول عن بعض قبائل العرب الوثنيين كجهينة وسليم وخزاعة وبني مليح القول بأنوثة الملائكة جميعاً، وأما الجن فالقول بانتهاء نسبهم إليه في الجملة منقول عن الجميع.

د. وبالجملة يشير تعالى في الآيات إلى فساد قولهم، ثم يبشر النبي ﷺ بالنصر ويهددهم بالعذاب، ويختم السورة بتنزيهه تعالى والتسليم على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

١. الصافات والتوحيد والمشارق:

المقطع [١] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ١ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٢٠»:

١. ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِراتِ زَجْراً فَالتَّالِياتِ ذِكْراً﴾:

أ. على ما قيل، جمع صافة وهي جمع صاف، والمراد بها على أي حال الجماعة التي تصطف أفرادها والزاجرات من الزجر وهو الصرف عن الشيء بالتخويف بذم أو عقاب والتاليات من التلاوة بمعنى القراءة.

ب. وقد أقسم الله تعالى بهذه الطوائف الثلاث: الصافات والزاجرات والتاليات وقد اختلفت كلماتهم في المراد بها: فأما الصافات فقيل: إن المراد بها الملائكة تصف أنفسها في السماء صفوفا كصفوف المؤمنين في الصلاة، وقيل: إنها الملائكة تصف أجنحتها في الهواء إذا أرادت النزول إلى الأرض واقفة في انتظار أمر الله تعالى، وقيل: إنها الجماعة من المؤمنين يقومون في الصلاة أو في الجهاد مصطفين.

ج. وأما الزاجرات فقيل: إنها الملائكة تزجر العباد عن المعاصي فيوصله الله إلى قلوب الناس في صورة الخطرات كما يوصل وساوس الشياطين، وقيل: إنها الملائكة الموكلة بالسحاب تزجرها وتسوقها إلى حيث أراد الله سبحانه، وقيل: هي زواجر القرآن وهي آياته الناهية عن القبائح، وقيل: هم المؤمنون يرفعون أصواتهم بالقرآن عند قراءته فيزجرون الناس عن المنهيات.

د. وأما التاليات فقيل: هم الملائكة يتلون الوحي على النبي الموحى إليه، وقيل: هي الملائكة تتلو الكتاب الذي كتبه الله وفيها ذكر الحوادث، وقيل: جماعة قراء القرآن يتلونه في الصلاة.

هـ. ويحتمل، والله العالم، أن يكون المراد بالطوائف الثلاث المذكورة في الآيات طوائف الملائكة النازلين بالوحي المأمورين بتأمين الطريق ودفع الشياطين عن المداخلة فيه وإيصاله إلى النبي مطلقا أو خصوص محمد ﷺ كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ [الجن: ٢٦ـ٢٨]

و. وعليه فالمعنى أقسم بالملائكة الذين يصفون في طريق الوحي صفا فبالذين يزجرون الشياطين ويمنعونهم عن المداخلة في الوحي فبالذين يتلون على النبي الذكر وهو مطلق الوحي أو خصوص القرآن كما يؤيده التعبير عنه بتلاوة الذكر.

ز. ويؤيد ما ذكرنا وقوع حديث رمي الشياطين بالشهب بعد هذه الآيات، وكذا قوله بعد: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا﴾ الآية كما سنشير إليه.

ح. ولا ينافي ذلك إسناد النزول بالقرآن إلى جبرئيل وحده في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]: وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] لأن الملائكة المذكورين أعوان جبرئيل فنزولهم به نزوله به وقد قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦]، وقال حكاية عنهم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]، وقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦] وهذا كنسبة التوفي إلى الرسل من الملائكة في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وإلى ملك الموت وهو رئيسهم في قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]

ط. ولا ضير في التعبير عن الملائكة بلفظ الإناث: الصافات والزاجرات والتاليات لأن موصوفها الجماعة، والتأنيث لفظي.

ي. وهذه أول سورة في القرآن صدرت بالقسم وقد أقسم الله سبحانه في كلامه بكثير من خلقه كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجم والليل والنهار والملائكة والناس والبلاد والأثمار، وليس ذلك إلا لما فيها من الشرف باستناد خلقها إليه تعالى وهو قيومها المنبع لكل شرف وبهاء.

٢. ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ الخطاب لعامة الناس وهو مقسم به، وهو كلام مسوق بدليل كما سيأتي.

٣. ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾:

أ. خبر بعد خبر لأن، أو خبر لمبتدإ محذوف والتقدير هو رب السماوات.، أو بدل من واحد.

ب. وفي سوق الأوصاف إشعار بعلة كون الإله واحدا كما أن خصوصية القسم مشعر بعلة كونه رب السماوات والأرض وما بينهما.

ج. كأنه قيل إن إلهكم لواحد لأن الملاك في ألوهية الإله وهي كونه معبودا بالحق أن يكون ربا يدبر الأمر على ما تعترفون وهو سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما الذي يدبر أمرها ويتصرف في جميعها.

د. وكيف لا؟ وهو تعالى يوحي إلى نبيه فيتصرف في السماء وسكانها بإرسال ملائكة يصطفون بينها وبين الأرض وهناك مجال الشياطين فيزجرونهم وهو تصرف منه فيما بين السماء والأرض وفي الشياطين ثم يتلون الذكر على نبيه وفيه تكميل للناس وتربية لهم سواء صدقوا أم كذبوا ففي الوحي تصرف منه في

السماوات والأرض وما بينهما فهو على وحدانيته رب الجميع المدبر لأمرها والإله الواحد.

٤ . ﴿وَرَبُّ الْمَشارِقِ﴾ أي مشارق الشمس باختلاف الفصول أو المراد مشارق مطلق النجوم أو مطلق المشارق، وفي تخصيص المشارق بالذكر مناسبة لطلوع الوحي بملائكته من السماء وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وقال: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [النجم: ٧]

٢ . الزينة والشهب والشيطان:

المقطع [٢] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ـ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٢٢»:

١ . ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ﴾:

أ . المراد بالزينة ما يزين به، والكواكب بيان أو بدل من الزينة وقد تكرر حديث تزيين السماء الدنيا بزينة الكواكب في كلامه كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ﴾ حم السجدة: وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ﴾ الملك:، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها﴾ ق:.

ب . ولا يخلو من ظهور في كون السماء الدنيا من السماوات السبع التي يذكرها القرآن هو عالم الكواكب فوق الأرض وإن وجهه بعضهم بما يوافق مقتضى الهيئة القديمة أو الجديدة.

٢ . ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ﴾ حفظا مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير وحفظناها حفظا من كل شيطان مارد، والمراد بالشيطان الشرير من الجن والمارد الخبيث العاري من الخير.

٣ . ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ﴾:

أ . أصل ﴿لا يَسَّمَّعُونَ﴾ لا يتسمعون والتسمع الإصغاء، وهو كناية عن كونهم ممنوعين مدحورين وبهذه العناية صار وصفا لكل شيطان ولو كان بمعنى الإصغاء صريحا أفاد لغوا من الفعل إذ لو كانوا لا يصغون لم يكن وجه لقذفهم.

ب . والملأ من الناس الأشراف منهم الذين يملئون العيون، والملأ الأعلى هم الذين يريد الشياطين التسمع إليهم وهم الملائكة الكرام الذين هم سكنة السماوات العلى على ما يدل عليه كلامه تعالى كقوله:

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]

ج. وقصدهم من التسمع إلى الملإ الأعلى الاطلاع على أخبار الغيب المستوردة عن هذا العالم الأرضي كالحوادث المستقبلة والأسرار المكنونة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، وقوله حكاية عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩]

٤. ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ﴾ القذف الرمي والجانب الجهة.

٥. ﴿دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾ الدحور الطرد والدفع، وهو مصدر بمعنى المفعول منصوب حالا أي مدحورين أو مفعول له أو مفعول مطلق، والواصب الواجب اللازم.

٦. ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾:

أ. الخطفة الاختلاس والاستلاب، والشهاب ما يرى في الجو كالكوكب المنقض، والثقوب الركوز وسمي الشهاب ثاقبا لأنه لا يخطئ هدفه وغرضه.

ب. والمراد بالخطفة اختلاس السمع وقد عبر عنه في موضع آخر باستراق السمع قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، والاستثناء من ضمير الفاعل في قوله: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ﴾ وجوز بعضهم كون الاستثناء منقطعا.

ج. ومعنى الآيات الخمس: أنا زينا السماء التي هي أقرب السماوات منكم، أو السماء السفلى بزينة وهي الكواكب، وحفظناها حفظا من كل شيطان خبيث عار من الخير ممنوعين من الإصغاء إلى الملإ الأعلى، للاطلاع إلى ما يلقون بين أنفسهم من أخبار الغيب، ويرمون من كل جهة حال كونهم مطرودين ولهم عذاب لازم لا يفارقهم إلا من اختلس من أخبارهم الاختلاسة فأتبعه شهاب ثاقب لا يخطئ غرضه.

٧. وضع هنا مبحثا حول [معنى الشهب]، خلاصته:

أ. أورد المفسرون أنواعاً من التوجيه لتصوير استراق السمع من الشياطين ورميهم بالشهب، مبنية على تصور أفلاك محيطة بالأرض تسكنها الملائكة ولها أبواب، وفي السماء الأولى جمع من الملائكة بأيديهم الشهب يرصدون المسترقين للسمع فيقذفونهم بها.

ب. اتضح اليوم اتضاح عيان بطلان هذه الآراء، ويتفرع على ذلك بطلان الوجوه التي أوردوها في تفسير الشهب.

ج. يحتمل أن تكون هذه البيانات في كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضروبة، تصور بها الحقائق الخارجة عن الحس في صورة المحسوس لتقريبها من الحس، وهو القائل: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

د. وهذا كثير في كلامه تعالى، ومنه العرش والكرسي واللوح والكتاب، فالمراد بالسماء التي تسكنها الملائكة عالماً ملكوتياً ذا أفق أعلى نسبته إلى هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسة إلى الأرض.

هـ. والمراد باقتراب الشياطين من السماء واستراقهم السمع وقذفهم بالشهب: اقترابهم من عالم الملائكة للاطلاع على أسرار الخلقة والحوادث المستقبلة، ورميهم بها لا يطيقونه من نور الملكوت، أو كرتهم على الحق لتلبيسه، ورمي الملائكة إياهم بالحق الذي يبطل أباطيلهم.

٣. خلق الإنسان من طين وإنكار الكفار للبعث:

المقطع [٣] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١١-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٢٥»:

١. ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾:

أ. اللازب الملتزق بعضه ببعض بحيث يلزمه ما جاوره، وقال في مجمع البيان: اللازب واللازم بمعنى)

ب. والمراد بقوله: ﴿مَنْ خَلَقْنا﴾ إما الملائكة المشار إليهم في الآيات السابقة وهم حفظة الوحي ورماة الشهب، وإما غير الناس من الخلق العظيم كالسماوات والأرض والملائكة، والتعبير بلفظ أولي العقل للتغليب.

ج. والمعنى: فإذا كان الله هو رب السماوات والأرض وما بينهما والملائكة فاسألهم أن يفتوا أهم أشد خلقا أم غيرهم ممن خلقنا فهم أضعف خلقا لأنا خلقناهم من طين ملتزق فليسوا بمعجزين لنا.

٢. ثم حكى الله تعالى استهزاءهم بآياته وبعض أقاويلهم المبنية على الكفر وإنكار المعاد والرد عليهم بتقرير أمر البعث وما يجري عليهم فيه من الشدة وألوان العذاب وما يكرم الله به عباده المخلصين من النعمة والكرامة، وفيها ذكر تخاصم أهل النار يوم القيامة، وذكر محادثة بين أهل الجنة وأخرى بين بعضهم وبعض أهل النار.

٣. ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيبهم إياك مع دعوتك إياهم إلى كلمة الحق، وهم يسخرون ويهزءون من تعجبك منهم أو من دعائك إياهم إلى الحق، وإذا ذكروا بآيات الله الدالة على التوحيد ودين الحق لا يذكرون ولا يتنبهون.

٤. ﴿وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾:

أ. في مجمع البيان: (سخر واستسخر بمعنى واحد)

ب. والمعنى: وإذا رأوا هؤلاء المشركون آية معجزة من آيات الله المعجزة كالقرآن وشق القمر يستهزءون بها.

٥. ﴿وَقالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ في إشارتهم إلى الآية بلفظة هذا إشعار منهم أنهم لا يفقهون منها إلا أنها شيء ما من غير زيادة وهو من أقوى الإهانة والاستسخار.

٦. ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾:

أ. إنكار منهم للبعث مبني على الاستبعاد فمن المستبعد عند الوهم أن يموت الإنسان فيتلاشى بدنه ويعود ترابا وعظاما ثم يعود إلى صورته الأولى.

ب. ومن الدليل على أن الكلام مسوق لإفادة الاستبعاد تكرارهم الاستفهام الإنكاري بالنسبة إلى آبائهم الأولين فإن استبعاد الوهم لبعثهم وقد انمحت رسومهم ولم يبق منهم إلا أحاديث أشد وأقوى من استبعاده بعثهم أنفسهم.

ج. ولو كان إنكارهم البعث مبنيا على أنهم ينعدمون بالموت فتستحيل إعادتهم كان الحكم فيهم وفي آبائهم على نهج واحد ولم يحتج إلى تجديد استفهام بالنسبة إلى آبائهم.

٧. أحاديث وآثار: أخرج ابن المنذر عن ابن جريح: في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ قال النبي ﷺ: عجبت بالقرآن حين أنزل ويسخر منه ضلال بني آدم.

٤. البعث والزجرة ويوم الدين:

المقطع [٤] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ١٨ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٣٠»:

١. ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بأنهم مبعوثون.

٢. ﴿وَأَنْتُمْ داخِرُونَ﴾ أي صاغرون مهانون أذلاء، وهذا في الحقيقة احتجاج بعموم القدرة ونفوذ الإرادة من غير مهلة، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ولذا عقبه بقوله: ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَللهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧]

٣. ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ﴾ الفاء لإفادة التعليل والجملة تعليل لقوله: ﴿وَأَنْتُمْ داخِرُونَ﴾ وفي التعبير بزجرة إشعار باستذلالهم.

٤. ﴿وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ المشعر بأنهم مبهوتون مدهوشون متفكرون ثم يتنبهون بكونه يوم البعث فيه الدين والجزاء وهم يحذرون منه بما كفروا وكذبوا ولذا قالوا: يوم الدين، ولم يقولوا يوم البعث، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع.

٥. ﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل هو كلام بعضهم لبعض وقيل: كلام الملائكة أو كلامه تعالى لهم، ويؤيده الآية التالية، والفصل هو التمييز بين الشيئين وسمي يوم الفصل لكونه يوم التمييز بين الحق والباطل بقضائه وحكمه تعالى أو التمييز بين المجرمين والمتقين قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]

٥. حشر الظالمين وأزواجهم ومعبوداتهم إلى الجحيم:

المقطع [٥] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٣٠»:

١. ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾:

أ. من كلامه تعالى للملائكة والمعنى وقلنا للملائكة: احشروهم وقيل: هو من كلام الملائكة بعضهم لبعض.

ب. والحشر، على ما ذكره الراغب، إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها.

ج. والمراد بالذين ظلموا على ما يؤيده آخر الآية المشركون ولا كل المشركين بل المعاندون للحق الصادون عنه منهم قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥] ٤٥، والتعبير بالماضي في المقام يفيد فائدة الوصف فليس المراد بالذين ظلموا من تحقق منه ظلم ما ولو مرة واحدة بل تعريف لهم بحاصل ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا كما لو قيل: ما ذا فعل فلان في حياته فيقال ظلم، فالفعل يفيد فائدة الوصف، وفي كلامه تعالى من ذلك شيء كثير كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]: (وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾) الزمر: وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]

٢. ﴿وَأَزْواجَهُمْ﴾:

أ. الظاهر أن المراد به قرناؤهم من الشياطين قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ إلى أن قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]

ب. وقيل: المراد بالأزواج الأشباه والنظائر فأصحاب الزنا يحشرون مع أصحاب الزنا وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر وهكذا.

• وفيه أن لازمه أن يراد بالذين ظلموا طائفة خاصة من أصحاب كل معصية واللفظ لا يساعد عليه على أن ذيل الآية لا يناسبه.

ج. وقيل: المراد بالأزواج نساؤهم الكافرات وهو ضعيف كسابقه.

٣. ﴿وَما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. الظاهر أن المراد به الأصنام التي يعبدونها نظرا إلى ظاهر لفظة ﴿ما﴾ فالآية نظيرة قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]

ب. ويمكن أن يكون المراد بلفظة ﴿ما﴾ ما يعم أولي العقل من المعبودين كالفراعنة والنماردة، وأما الملائكة المعبودون والمسيح عليه السلام فيخرجهم من العموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]

٤. ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾:

أ. الجحيم من أسماء جهنم في القرآن وهو من الجحمة بمعنى شدة تأجج النار على ما ذكره الراغب.

ب. والمراد بهدايتهم إلى صراطها إيصالهم إليه وإيقاعهم فيه بالسوق، وقيل: تسمية ذلك بالهداية من الاستهزاء، وقال في مجمع البيان: (إنما عبر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلا من الهداية إلى الجنة كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ من حيث إن هذه البشارة وقعت لهم بدلا من البشارة بالنعيم)

٥. ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (يقال: وقفت أنا ووقفت غيري، أي يعدي ولا يعدي، وبعض بني تميم يقول: أوقفت الدابة والدار)

ب. فقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ أي احبسوهم لأنهم مسئولون أي حتى يسأل عنهم، والسياق يعطي أن هذا الأمر بالوقوف والسؤال إنما يقع في صراط الجحيم.

ج. واختلفت كلماتهم فيما هو السؤال عنه فقيل: يسألون عن قول لا إله إلا الله، وقيل: عن شرب الماء البارد استهزاء بهم، وقيل: عن ولاية علي عليه السلام.

د. وهذه الوجوه لو صحت فإنما تشير إلى مصاديق ما يسأل عنه والسياق يشهد أن السؤال هو ما يشتمل عليه قوله: ﴿ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تفعلونه في الدنيا فتستعينون به على حوائجكم ومقاصدكم، وما يتلوه من قوله: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي مسلمون لا يستكبرون يدل على أن المراد بقوله: ﴿ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ﴾ السؤال عن استكبارهم عن طاعة الحق كما كانوا يستكبرون في الدنيا.

هـ. فالسؤال عن عدم تناصرهم سؤال عن سبب الاستكبار الذي كانوا عليه في الدنيا فقد تبين به

أن المسئول عنه هو كل حق أعرضوا عنه في الدنيا من اعتقاد حق أو عمل صالح استكبارا على الحق تظاهرا بالتناصر.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: الذين ظلموا آل محمد عليه السلام حقهم ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم.

• أقول: صدر الرواية من الجري.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ قيل: عن ولاية علي عليه السلام، عن أبي سعيد الخدري.

• أقول: ورواه الشيخ في الأمالي، بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبي ﷺ، وفي العيون، عن علي وعن الرضا عليه السلام عنه ﷺ، وفي تفسير القمي، عن الإمام عليه السلام.

ج. وفي الخصال، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت.

• أقول: وروي في العلل عنه ﷺ مثله.

د. وفي نهج البلاغة: اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم.

هـ. أخرج البخاري في تأريخه والترمذي والدارمي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ما من داع دعا إلى شيء، إلا كان موقوفا يوم القيامة لازما به لا يفارقه، وإن دعا رجل رجلا ثم قرأ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾

٦. تحاور أهل النار واعتراف المتبعين والمتبوعين بالضلال:

المقطع [٦] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٢٧-٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٣٢»:

١. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾:

أ. تخاصم واقع بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة، والتعبير عنه بالتساؤل لأنه في معنى سؤال بعضهم بعضا تلاوما وتعاتبا يقول التابعون لمتبوعيهم: لم أضللتمونا؟ فيقول المتبوعون: لم قبلتم منا ولا سلطان لنا عليكم؟

ب. فقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ البعض الأول هم المعترضون والبعض الثاني المعترض عليهم كما يعطيه سياق التساؤل وتساؤلهم تخاصمهم.

٢. ﴿قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ﴾:

أ. أي من جهة الخير والسعادة فاستعمال اليمين فيها شائع كثير كقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] والمعنى أنكم كنتم تأتوننا من جهة الخير والسعادة فتقطعون الطريق وتحولون بيننا وبين الخير والسعادة وتضلوننا.

ب. وقيل: المراد باليمين الدين وهو قريب من الوجه السابق، وقيل: المراد باليمين القهر والقوة كما في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣] ولا يخلو من وجه نظرا إلى جواب المتبوعين.

٣. ﴿قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾:

أ. جواب المتبوعين بتبرئة أنفسهم من إشقاء التابعين وأن جرمهم مستند إلى سوء اختيار أنفسهم، فقالوا: بل لم تكونوا مؤمنين أي لم نكن نحن السبب الموجب لإجرامكم وهلاككم بخلوكم عن الإيمان بل لم تكونوا مؤمنين لا أنا جردناكم من الإيمان.

ب. ثم قالوا: ﴿وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾ وهو في معنى الجواب على فرض التسليم كأنه قيل: ولو فرض أنه كان لكم إيمان فما كان لنا عليكم من سلطان حتى نسلبه منكم ونجردكم منه، على أن سلطان المتبوعين إنما هو بالتابعين فهم الذين يعطونهم السلطة والقوة فيتسلطون عليهم أنفسهم.

ج. ثم قالوا: ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ﴾ والطغيان هو التجاوز عن الحد وهو إضراب عن قوله: ﴿لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ كأنه قيل: ولم يكن سبب هلاككم مجرد الخلو من الإيمان بل كنتم قوما طاغين كما كنا مستكبرين طاغين فتعاضدنا جميعا على ترك سبيل الرشد واتخاذ سبيل الغي فحق علينا كلمة العذاب التي

قضى بها الله سبحانه قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩]

د. ولهذا المعنى عقب قوله: ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ﴾ بقوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ﴾ أي لذائقون العذاب.

هـ. ثم قالوا: ﴿فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ﴾ وهو متفرع على ثبوت كلمة العذاب وآخر الأسباب لهلاكهم فإن الطغيان يستتبع الغواية ثم نار جهنم، قال تعالى لإبليس ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٢-٤٣]

و. فكأنه قيل: فلما تلبستم بالطغيان حل بكم الغواية بأيدينا من غير سلطان لنا عليكم إلا اتباعكم لنا واتصالكم بنا فسرى إليكم ما فينا من الصفة وهي الغواية فالغاوي لا يتأتى منه إلا الغواية والإناء لا يترشح منه إلا ما فيه، وبالجملة إنكم لم تجبروا ولم تسلبوا الاختيار منذ بدأتم في سلوك سبيل الهلاك إلى أن وقعتم في ورطته وهي الغواية فحق عليكم القول.

٤. ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

أ. ضمير ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ للتابعين والمتبوعين فهم مشتركون في العذاب لاشتراكهم في الظلم وتعاونهم على الجرم من غير مزية لبعضهم على بعض.

ب. واستظهر بعضهم أن المغوين أشد عذابا وذلك في مقابلة أوزارهم وأوزار أمثال أوزارهم فالشركة لا تقتضي المساواة والحق أن الآيات مسوقة لبيان اشتراكهم في الظلم والجرم والعذاب اللاحق بهم من قبله، ويمكن مع ذلك أن يلحق بكل من المتبوعين والتابعين ألوان من العذاب ناشئة عن خصوص شأنهم قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]

٥. ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ تأكيد لتحقيق العذاب، والمراد بالمجرمين المشركون بدليل قوله بعد: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾

٧. استكبار المشركين عن التوحيد وجحودهم الحق:

المقطع [٧] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا

اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٥ـ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٣٥»:

١. ﴿إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إذا عرض عليهم التوحيد أن يؤمنوا به أو كلمة الإخلاص أن يقولوها استمروا على استكبارهم ولم يقبلوا.

٢. ﴿وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قولهم هذا إنكار منهم للرسالة بعد استكبارهم عن التوحيد وإنكارهم له.

٣. ﴿بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رد لقولهم: ﴿لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ حيث رموه عليه السلام بالشعر والجنون وفيه رمي لكتاب الله بكونه شعرا ومن هفوات الجنون فرد عليهم بأن ما جاء به حق وفيه تصديق الرسل السابقين فليس بباطل من القول كالشعر وهفوة الجنون وليس ببدع غير مسبوق في معناه.

٤. ﴿إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ﴾ تهديد لهم بالعذاب لاستكبارهم ورميهم الحق بالباطل.

٥. ﴿وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا ظلم فيه لأنه نفس عملكم يرد إليكم.

٨. نعيم المخلصين في جنات النعيم وما فيها من كرامة:

المقطع [٨] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٠ـ٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٣٥»:

١. ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾:

أ. استثناء منقطع من ضمير ﴿لَذائِقُوا﴾ أو من ضمير ﴿ما تُجْزَوْنَ﴾ ولكل وجه والمعنى على الأول لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وليسوا بذائقي العذاب الأليم والمعنى على الثاني لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وراء جزاء عملهم وسيجيء الإشارة إلى معناه.

ب. واحتمال كون الاستثناء متصلا ضعيف لا يخلو من تكلف.

ج. وقد سماهم الله سبحانه عباد الله المخلصين فأثبت لهم عبودية نفسه والعبد هو الذي لا يملك لنفسه شيئا من إرادة ولا عمل فهؤلاء لا يريدون إلا ما أراده الله ولا يعملون إلا له.

د. ثم أثبت لهم أنهم مخلصون بفتح اللام أي إن الله تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد فلا تعلق لهم بشيء غيره تعالى من زينة الحياة الدنيا ولا من نعم العقبى وليس في قلوبهم إلا الله سبحانه.

هـ. ومن المعلوم أن من كانت هذه صفته كان التذاذه وتنعمه غير ما يلتذ ويتنعم غيره وارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه وإن شاركهم في ضروريات المأكل والمشرب ومن هنا يتأيد أن المراد بقوله: ﴿أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ الإشارة إلى أن رزقهم في الجنة، وهم عباد مخلصون، رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم ولا يختلط بما يتمتع به من دونهم وإن اشتركا في الاسم.

٢. ﴿أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾:

أ. أي رزق خاص متعين ممتاز من رزق غيرهم فكونه معلوما كناية عن امتيازه كما في قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] والإشارة بلفظ البعيد للدلالة على علو مقامهم.

ب. وأما ما فسره بعضهم أن المراد بكون رزقهم معلوما كونه معلوم الخصائص مثل كونه غير مقطوع ولا ممنوع حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الرائحة، وكذا ما ذكره آخرون أن المراد أنه معلوم الوقت لقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وكذا قول القائل: إن المراد به الجنة فهي وجوه غير سديدة.

ج. ومن هنا يظهر أن أخذ قوله: ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء من ضمير ﴿وَما تُجْزَوْنَ﴾ لا يخلو من وجه كما تقدمت الإشارة إليه.

٣. ﴿فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾:

أ. الفواكه جمع فاكهة وهي ما يتفكه به من الأثمار بيان لرزقهم المعلوم غير أنه تعالى شفعه بقوله: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ للدلالة على امتياز هذا الرزق أعني الفاكهة مما عند غيرهم بأنها مقارنة لإكرام خاص يخصهم قبال اختصاصهم بالله سبحانه وكونه لهم لا يشاركهم فيه شيء.

ب. وفي إضافة الجنات إلى النعيم إشارة إلى ذلك فقد تقدم في قوله: ﴿فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية: النساء:، وقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] وغيرهما أن حقيقة النعمة هي الولاية وهي كونه تعالى هو القائم بأمر عبده.

٤. ﴿عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ السرر جمع سرير وهو معروف وكونهم متقابلين معناه استئناس بعضهم

ببعض واستمتاعهم بنظر بعضهم في وجه بعض من غير أن يرى بعضهم قفا بعض.

٥. ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ الكأس إناء الشراب ونقل عن كثير من اللغويين أن إناء الشراب لا يسمى كأسا إلا وفيه الشراب فإن خلا منه فهو قدح والمعين من الشراب الظاهر منه من عان الماء إذا ظهر وجرى على وجه الأرض، والمراد بكون الكأس من معين صفاء الشراب فيها ولذا عقبه بقوله: ﴿بَيْضاءَ﴾

٦. ﴿بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي صافية في بياضها لذيذة للشاربين فاللذة مصدر أريد به الوصف مبالغة أو هي مؤنث لذ بمعنى لذيذ كما قيل.

٧. ﴿لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾:

أ. الغول الإضرار والإفساد، قال الراغب: (الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحس به)، فنفي الغول عن الخمر نفي مضارها والإنزاف فسر بالسكر المذهب للعقل وأصله إذهاب الشيء تدريجا.

ب. ومحصل المعنى: أنه ليس فيها مضار الخمر التي في الدنيا ولا إسكارها بإذهاب العقل.

٨. ﴿وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾:

أ. وصف للحور التي يرزقونها وقصور طرفهن كناية عن نظرهن نظرة الغنج والدلال ويؤيده ذكر العين بعده وهو جمع عيناء مؤنث أعين وهي الواسعة العين في جمال.

ب. وقيل: المراد بقاصرات الطرف أنهن قصرن طرفهن على أزواجهن لا يردن غيرهم لحبهن لهم، وبالعين أن أعينهن شديدة في سوادها شديدة في بياضها.

٩. ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ البيض معروف وهو اسم جنس واحدته بيضة والمكنون هو المستور بالادخار قيل: المراد تشبيههن بالبيض الذي كنه الريش في العش أو غيره في غيره فلم تمسه الأيدي ولم يصبه الغبار، وقيل: المراد تشبيههن ببطن البيض قبل أن يقشر وقبل أن تمسه الأيدي.

١٠. أحاديث وآثار: في روضة الكافي، بإسناده عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر عليه السلام عن النبي ﷺ في حديث: وأما قوله: ﴿أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ قال: يعلمه الخدام فيأتون به إلى أولياء الله قبل أن يسألوهم إياه، أما قوله: ﴿فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ قال: فإنهم لا يشتهون شيئا في الجنة إلا أكرموا به.

٩. تحاور أهل الجنة ونجاة المؤمن من قرين السوء في الجحيم:

المقطع [٩] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠-٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٣٧»:

١. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾:

أ. حكاية محادثة تقع بين أهل الجنة فيسأل بعضهم عن أحوال بعض ويحدث بعضهم بما جرى عليه في الدنيا وتنتهي المحادثة إلى تكليمهم بعض أهل النار وهو في سواء الجحيم.

ب. فقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ضمير الجمع لأهل الجنة من عباد الله المخلصين وتساؤلهم، كما تقدم، سؤال بعضهم عن بعض وما جرى عليه.

٢. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾:

أ. أي قال قائل من أهل الجنة المتسائلين إني كان لي في الدنيا مصاحب يختص بي من الناس، كذا يعطي السياق.

ب. وقيل: المراد بالقرين القرين من الشياطين وفيه أن القرآن إنما يثبت قرناء الشياطين في المعرضين عن ذكر الله والمخلصون في عصمة إلهية من قرين الشياطين وكذا من تأثير الشيطان فيهم كما حكى عن إبليس استثناءهم من الإغواء: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، ص: نعم ربما أمكن أن يتعرض لهم الشيطان من غير تأثير فيهم لكنه غير أثر القرين.

٣. ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾:

أ. ضمير ﴿يَقُولُ﴾ للقرين، ومفعول ﴿الْمُصَدِّقِينَ﴾ البعث للجزاء وقد قام مقامه قوله: ﴿أَإِذَا مِتْنَا﴾ إلخ والمدينون المجزيون.

ب. والمعنى: كأن يقول لي قريني مستبعدا منكرا أإنك لمن المصدقين للبعث للجزاء أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما فتلاشت أبداننا وتغيرت صورها أإنا لمجزيون بالإحياء والإعادة؟ فهذا مما لا ينبغي أن

يصدق.

٤. ﴿قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ ضمير ﴿قالَ﴾ للقائل المذكور قبلا، والاطلاع الإشراف والمعنى ثم قال القائل المذكور مخاطبا لمحادثيه من أهل الجنة: هل أنتم مشرفون على النار حتى تروا قريني والحال التي هو فيها؟

٥. ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ السواء الوسط ومنه سواء الطريق أي وسطه والمعنى فأشرف القائل المذكور على النار فرآه أي قرينه في وسط الجحيم.

٦. ﴿قالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، والإرداء السقوط من مكان عال كالشاهق ويكنى به عن الهلاك والمعنى أقسم بالله إنك قربت أن تهلكني وتسقطني فيما سقطت فيه من الجحيم.

٧. ﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾:

أ. المراد بالنعمة التوفيق والهداية الإلهية، والإحضار الإشخاص للعذاب قال في مجمع البيان: ولا يستعمل (أحضر) مطلقا إلا في الشر.

ب. والمعنى ولو لا توفيق ربي وهدايته لكنت من المحضرين للعذاب مثلك.

٨. ﴿أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾:

أ. الاستفهام للتقرير والتعجيب، والمراد بالموتة الأولى هي الموتة عن الحياة الدنيا وأما الموتة عن البرزخ المدلول عليها بقوله: ﴿رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ المؤمن: فلم يعبأ بها لأن الموت الذي يزعم الزاعم فيه الفناء والبطلان هو الموت الدنيوي.

ب. والمعنى، على ما في الكلام من الحذف والإيجاز، ثم يرجع القائل المذكور إلى نفسه وأصحابه فيقول متعجبا أنحن خالدون منعمون فما نحن بميتين إلا الموتة الأولى وما نحن بمعذبين؟

ج. قال في مجمع البيان: (ويريدون به التحقيق لا الشك وإنما قالوا هذا القول لأن لهم في ذلك سرورا مجددا وفرحا مضاعفا وإن كان قد عرفوا أنهم سيخلدون في الجنة وهذا كما أن الرجل يعطى المال الكثير فيقول مستعجبا: كل هذا المال لي؟ وهو يعلم أن ذلك له وهذا كقوله:

أبطحاء مكة هذا الذي... أراه عيانا وهذا أنا؟

قال: ولهذا عقبه بقوله: ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾)

٩. ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هو من تمام قول القائل المذكور وفيه إعظام لموهبة الخلود وارتفاع العذاب وشكر للنعمة.

١٠. ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه من قول القائل المذكور والإشارة بهذا إلى الفوز أو الثواب أي لمثل هذا الفوز أو الثواب فليعمل العاملون في دار التكليف، وقيل: هو من قول الله سبحانه وقيل: من قول أهل الجنة.

ب. واعلم أن لهم أقوالا مختلفة في نسبة أكثر الجمل السابقة إلى قول الله تعالى أو قول الملائكة أو قول أهل الجنة غير القائل المذكور والذي أوردناه هو الذي يساعد عليه السياق.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ يقول: في وسط الجحيم.

ب. وفيه في قوله تعالى: ﴿أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ بإسناده عن أبيه عن علي بن مهزيار والحسن بن محبوب عن النضر بن سويد عن درست عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، جيء بالموت ويذبح كالكبش بين الجنة والنار، ثم يقال: خلود فلا موت أبدا فيقول أهل الجنة: ﴿أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ـ ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ـ ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ﴾

• أقول: وحديث ذبح الموت في صورة كبش يوم القيامة من المشهورات رواه الشيعة وأهل السنة، وهو تمثل الخلود يومئذ.

١٠. الزقوم والفتنة والحميم:

المقطع [١٠] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُها كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّياطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ـ٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٤٠»:

١. ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾:

أ. مقايسة بين ما هيأه الله نزلا لأهل الجنة مما وصفه من الرزق الكريم وبين ما أعده نزلا لأهل النار من شجرة الزقوم التي طلعها كأنه رءوس الشياطين وشراب من حميم.

ب. فقوله: ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ الإشارة بذلك إلى الرزق الكريم المذكورة سابقا المعد لورود أهل الجنة والنزل بضمتين ما يهيأ لورود الضيف فيقدم إليه إذا ورد من الفواكه ونحوها.

ج. والزقوم، على ما قيل، اسم شجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورم تكون في تهامة والبلاد المجدبة المجاورة للصحراء سميت به الشجرة الموصوفة بها في الآية من الأوصاف، وقيل: إن قريشا ما كانت تعرفه وسيأتي ذلك في البحث الروائي.

د. ولفظة خير في الآية بمعنى الوصف دون التفضيل إذ لا خيرية في الزقوم أصلا فهو كقوله: ﴿مَا عِنْدَ اللهَّ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ﴾ [الجمعة: ١١] والآية على ما يعطيه السياق من كلامه تعالى.

٢. ﴿إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ الضمير لشجرة الزقوم، والفتنة المحنة والعذاب.

٣. ﴿إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ وصف لشجرة الزقوم، وأصل الجحيم قعرها، ولا عجب في نبات شجرة في النار وبقائها فيها فحياة الإنسان وبقاؤه خالدا فيها أعجب والله يفعل ما يشاء.

٤. ﴿طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ﴾ الطلع حمل النخلة أو مطلق الشجرة أول ما يبدو، وتشبيه ثمرة الزقوم برءوس الشياطين بعناية أن الأوهام العامية تصور الشيطان في أقبح صورة كما تصور الملك في أحسن صورة وأجملها قال تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وبذلك يندفع ما قيل: إن الشيء إنما يشبه بما يعرف ولا معرفة لأحد برءوس الشياطين.

٥. ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ الفاء للتعليل يبين به كونها نزلا للظالمين يأكلون منها، وفي قوله: ﴿فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ إشارة إلى تسلط جوع شديد عليهم يحرصون به على الأكل كيفما كان.

٦. ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب المزيج والخليط، والحميم الماء الحار البالغ في حرارته، والمعنى ثم إن لأولئك الظالمين، زيادة عليها، لخليطا مزيجا من ماء حار بالغ الحرارة يشربونه فيختلط به ما ملئوا منه البطون من الزقوم.

٧. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي إنهم بعد شرب الحميم يرجعون إلى الجحيم فيستقرون فيها ويعذبون، وفي الآية تلويح إلى أن الحميم خارج الجحيم.

٨. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ روي أن قريشا لما سمعت هذه الآية قالت: ما نعرف هذه الشجرة، قال ابن الزبعري: الزقوم بكلام البربر التمر والزبد، وفي رواية بلغة اليمن فقال أبو جهل لجاريته: يا جارية زقمينا فأتته الجارية بتمر وزبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمد، فيزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر، فأنزل الله سبحانه ﴿إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي بطرق عديدة.

١١. اتباع الآباء في الضلال وإرسال المنذرين وعاقبة المكذبين:

المقطع [١١] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٤١»:

١. ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾:

أ. ألفيت كذا أي وجدته وصادفته، والإهراع الإسراع والمعنى أن سبب أكلهم وشربهم ثم رجوعهم إلى الجحيم أنهم صادفوا آباءهم ضالين، وهم مقلدون وأتباع لهم وهم أصلهم ومرجعهم، فهم يسرعون على آثارهم فجوزوا بنزل كذلك والرجوع إلى الجحيم جزاء وفاقا.

ب. تعقيب لغرض السياق السابق المتعرض لشركهم وتكذيبهم بآيات الله وتهديدهم بأليم العذاب يقول: إن أكثر الأولين ضلوا كضلالهم وكذبوا الرسل المنذرين كتكذيبهم ويستشهد بقصص نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس عليه السلام وما في الآيات المنقولة إشارة إلى قصة نوح وخلاصة قصص إبراهيم عليه السلام.

٢. ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. كلام مسوق لإنذار مشركي هذه الأمة بتنظيرهم للأمم الهالكين من قبلهم فقد ضل أكثرهم كما ضل هؤلاء وأرسل إليهم رسل منذرون كما أرسل منذر إلى هؤلاء فكذبوا فكان عاقبة أمرهم الهلاك إلا المخلصين منهم.

ب. واللام في ﴿لَقَدْ ضَلَّ﴾ للقسم وكذا في ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا﴾ والمنذرين الأول بكسر الذال المعجمة وهم الرسل والثاني بفتح الذال المعجمة وهم الأمم الأولون، و﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ﴾ إن كان المراد بهم من في الأمم من المخلصين كان استثناء متصلا وإن عم الأنبياء كان منقطعا إلا بتغليبه غير الأنبياء عليهم والمعنى ظاهر.

١٢. استجابة الله لنوح وإنجائه وذريته والسلام عليه:

المقطع [١٢] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٥-٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٤٥»:

١. ﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ اللامان للقسم وهو يدل على كمال العناية بنداء نوح وإجابته تعالى، وقد مدح تعالى نفسه في إجابته فإن التقدير فلنعم المجيبون نحن، وجمع المجيب لإفادة التعظيم وقد كان نداء نوح، على ما يفيده السياق، دعاءه على قومه واستغاثته بربه المنقولين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وفي قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]

٢. ﴿وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ الكرب، على ما ذكره الراغب، الغم الشديد والمراد به الطوفان أو أذى قومه، والمراد بأهله أهل بيته والمؤمنون به من قومه وقد قال تعالى في سورة هود: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ [هود: ٤٠] والأهل كما يطلق على زوج الرجل وبنيه يطلق على كل من هو من خاصته.

٣. ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ أي الباقين من الناس بعد قرنهم وقد بحثنا في هذا المعنى في قصة نوح من سورة هود.

٤. ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾:

أ. المراد بالترك الإبقاء وبالآخرين الأمم الغابرة غير الأولين، وقد ذكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم عليه السلام أيضا في هذه السورة وقد بدلت في القصة بعينها من سورة الشعراء من قوله: ﴿وَاجْعَلْ

لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] واستفدنا منه هناك أن المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث الله بعده من يقوم بدعوته ويدعو إلى ملته وهي دين التوحيد.

ب. فيتأيد بذلك أن المراد بالإبقاء في الآخرين هو إحياؤه تعالى دعوة نوح عليه السلام إلى التوحيد ومجاهدته في سبيل الله عصرا بعد عصر وجيلا بعد جيل إلى يوم القيامة.

٥. ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ﴾:

أ. المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلى باللام مفيدا للعموم، والظاهر أن المراد به عالمو البشر وأممهم وجماعاتهم إلى يوم القيامة فإنه تحية من عند الله مباركة طيبة تهدى إليه من قبل الأمم الإنسانية ما جرى فيها شيء من الخيرات اعتقادا أو عملا فإنه عليه السلام أول من انتهض لدعوة التوحيد ودحض الشرك وما يتبعه من العمل وقاسى في ذلك أشد المحنة فيما يقرب من ألف سنة لا يشاركه في ذلك أحد فله نصيب من كل خير واقع بينهم إلى يوم القيامة، ولا يوجد في كلامه تعالى سلام على هذه السعة على أحد ممن دونه.

ب. وقيل: المراد بالعالمين عوالم الملائكة والثقلين من الجن والإنس.

٦. ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما امتن عليه من الكرامة كإجابة ندائه وتنجيته وأهله من الكرب العظيم وإبقاء ذريته وتركه عليه في الآخرين والسلام عليه في العالمين، وتشبيه جزائه بجزاء عموم المحسنين من حيث أصل الجزاء الحسن لا في خصوصياته فلا يوجب ذلك اشتراك الجميع فيما اختص به عليه السلام وهو ظاهر.

٧. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لإحسانه المدلول عليه بالجملة السابقة وذلك لأنه عليه السلام لكونه عبدا لله بحقيقة معنى الكلمة كان لا يريد ولا يفعل إلا ما يريده الله، ولكونه من المؤمنين حقا كان لا يرى من الاعتقاد إلا الحق وسرى ذلك إلى جميع أركان وجوده ومن كان كذلك لا يصدر منه إلا الحسن الجميل فكان من المحسنين.

٨. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ ثم للتراخي الكلامي دون الزماني والمراد بالآخرين قومه المشركون.

١٣. إبراهيم والقلب السليم وكيده للأصنام:

المقطع [١٣] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ

رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٨٣-٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٤٧»:

١. ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ﴾:

أ. الشيعة هم القوم المشايعون لغيرهم الذاهبون على أثرهم وبالجملة كل من وافق غيره في طريقته فهو من شيعته تقدم أو تأخر قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ سبأ:.

ب. وظاهر السياق أن ضمير ﴿شِيعَتِهِ﴾ لنوح أي إن إبراهيم كان ممن يوافقه في دينه وهو دين التوحيد، وقيل: الضمير لمحمد ﷺ ولا دليل عليه من جهة اللفظ.

ج. قيل: ومن حسن الإرداف في نظم الآيات تعقيب قصة نوح عليه السلام وهو آدم الثاني أبو البشر بقصة إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء إليه تنتهي أنساب جل الأنبياء بعده وعلى دينه تعتمد أديان التوحيد الحية اليوم كدين موسى وعيسى ومحمد ﷺ، وأيضا نوح عليه السلام نجاه الله من الغرق وإبراهيم عليه السلام نجاه الله من الحرق.

٢. ﴿إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾:

أ. مجيئه ربه كناية عن تصديقه له وإيمانه به، ويؤيد ذلك أن المراد بسلامة القلب عروه عن كل ما يضر التصديق والإيمان بالله سبحانه من الشرك الجلي والخفي ومساوئ الأخلاق وآثار المعاصي وأي تعلق بغيره ينجذب إليه الإنسان ويختل به صفاء توجهه إليه سبحانه.

ب. وبذلك يظهر أن المراد بالقلب السليم ما لا تعلق له بغيره تعالى كما في الحديث وسيجيء إن شاء الله في البحث الروائي الآتي.

ج. وقيل: المراد به السالم من الشرك، ويمكن أن يوجه بما يرجع إلى الأول وقيل: المراد به القلب الحزين، وهو كما ترى.

د. والظرف في الآية متعلق بقوله سابقا ﴿مِنْ شِيعَتِهِ﴾ والظروف يغتفر فيها ما لا يغتفر في غيرها،

وقيل متعلق باذكر المقدر.

٣. ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ﴾ أي أي شيء تعبدون؟ وإنما سألهم عن معبودهم وهو يرى أنهم يعبدون الأصنام تعجبا واستغرابا.

٤. ﴿أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ﴾ أي تقصدون آلهة دون الله إفكا وافتراء، إنما قدم الإفك والآلهة لتعلق عنايته بذلك.

٥. ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾:

أ. لا شك أن ظاهر الآيتين أن إخباره عليه السلام بأنه سقيم مرتبط بنظرته في النجوم ومبني عليه ونظرته في النجوم إما لتشخيص الساعة وخصوص الوقت كمن به حمى ذات نوبة يعين وقتها بطلوع كوكب أو غروبها أو وضع خاص من النجوم وإما للوقوف على الحوادث المستقبلة التي كان المنجمون يرون أن الأوضاع الفلكية تدل عليها، وقد كان الصابئون مبالغين فيها وكان في عهده عليه السلام منهم جم غفير.

ب. فعلى الوجه الأول لما أراد أهل المدينة أن يخرجوا كافة إلى عيد لهم نظر إلى النجوم وأخبرهم أنه سقيم ستعتريه العلة فلا يقدر على الخروج معهم.

ج. وعلى الوجه الثاني نظر عليه السلام حينذاك إلى النجوم نظرة المنجمين فأخبرهم أنها تدل على أنه سيسقم فليس في وسعه الخروج معهم.

د. وأول الوجهين أنسب لحاله عليه السلام وهو في إخلاص التوحيد بحيث لا يرى لغيره تعالى تأثيرا، ولا دليل لنا قويا يدل على أنه عليه السلام لم يكن به في تلك الأيام سقم أصلا، وقد أخبر القرآن بإخباره بأنه سقيم وذكر سبحانه قبيل ذلك أنه جاء ربه بقلب سليم فلا يجوز عليه كذب ولا لغو من القول.

هـ. ولهم في الآيتين وجوه أخر أوجهها أن نظرته في النجوم وإخباره بالسقم من المعاريض في الكلام والمعاريض أن يقول الرجل شيئا يقصد به غيره ويفهم منه غير ما يقصده فلعله نظر عليه السلام في النجوم نظر الموحد في صنعه تعالى يستدل به عليه تعالى وعلى وحدانيته وهم يحسبون أنه ينظر إليها نظر المنجم فيها ليستدل بها على الحوادث ثم قال: إني سقيم يريد أنه سيعتريه سقم فإن الإنسان لا يخلو في حياته من سقم ما ومرض ما كما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وهم يحسبون أنه يخبر عن

سقمه يوم يخرجون فيه لعيد لهم، والمرجح عنده لجميع ذلك ما كان يهتم به من الرواغ إلى أصنامهم وكسرها.

- لكن هذا الوجه مبني على أنه كان صحيحا غير سقيم يومئذ، وقد سمعت أن لا دليل يدل عليه.
- على أن المعاريض غير جائزة على الأنبياء لارتفاع الوثوق بذلك عن قولهم.

٦. ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ ضمير الجمع للقوم وضمير الإفراد لإبراهيم عليه السلام أي خرجوا من المدينة وخلفوه.

٧. ﴿فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ﴾:

أ. الروغ والرواغ والروغان الحياد والميل، وقيل أصله الميل في جانب ليخدع من يريده.

ب. وفي قوله: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾؟ تأييد لما ذكروا أن المشركين كانوا يضعون أيام أعيادهم طعاما عند آلهتهم.

٨. ﴿أَلا تَأْكُلُونَ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ﴾:

أ. تكليم منه لآلهتهم وهي جماد وهو يعلم أنها جماد لا تأكل ولا تنطق لكن الوجد وشدة الغيظ حمله على أن يمثل موقفها موقف العقلاء ثم يؤاخذها مؤاخذة العقلاء كما يفعل بالمجرمين.

ب. فنظر إليها وهي ذوات أبدان كهيئة من يتغذى ويأكل وعندها شيء من الطعام فامتلأ غيظا وجاش وجدا فقال: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾؟ فلم يسمع منها جوابا فقال: ﴿ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ﴾؟ وأنتم آلهة يزعم عبادكم أنكم عقلاء قادرون مدبرون لأمورهم فلما لم يسمع لها حسا راغ عليها ضربا باليمين.

٩. ﴿فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾:

أ. أي تفرع على ذاك الخطاب أن مال على آلهتهم يضربهم ضربا باليد اليمنى أو بقوة بناء على كون المراد باليمين القوة.

ب. وقول بعضهم: إن المراد باليمين القسم والمعنى مال عليهم ضربا بسبب القسم الذي سبق منه وهو قوله: ﴿تَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ﴾: بعيد.

١٠. ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾:

أ. الزف والزفيف الإسراع في المشي أي فجاءوا إلى إبراهيم والحال أنهم يسرعون اهتماما بالحادثة

التي يظنون أنه الذي أحدثها.

ب. وفي الكلام إيجاز وحذف من خبر رجوعهم إلى المدينة ووقوفهم على ما فعل بالأصنام وتحقيقهم الأمر وظنهم به عليه السلام مذكور في سورة الأنبياء.

١١. ﴿قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾:

أ. فيه إيجاز وحذف من حديث القبض عليه والإتيان به على أعين الناس ومسألته وغيرها.

ب. والاستفهام للتوبيخ وفيه مع ذلك احتجاج على بطلان طريقتهم فهو يقول: لا يصلح ما نحته الإنسان بيده أن يكون ربا للإنسان معبودا له والله سبحانه خلق الإنسان وما يعمله والخلق لا ينفك عن التدبير فهو رب الإنسان ومن السفه أن يترك هذا ويعبد ذاك.

ج. وقد بان بذلك أن الأظهر كون ما في قوله: ﴿ما تَنْحِتُونَ﴾ موصولة والتقدير ما تنحتونه، وكذا في قوله: ﴿وَما تَعْمَلُونَ﴾ وجوز بعضهم كون ﴿ما﴾ فيها مصدرية وهو في أولها بعيد جدا.

د. ولا ضير في نسبة الخلق إلى ما عمله الإنسان أو إلى عمله لأن ما يريده الإنسان ويعمله من طريق اختياره مراد الله سبحانه من طريق إرادة الإنسان واختياره ولا يوجب هذا النوع من تعلق الإرادة بالفعل بطلان تأثير إرادة الإنسان وخروج الفعل عن الاختيار وصيرورته مجبرا عليه، وهو ظاهر.

هـ. ولو كان المراد نسبة خلق أعمالهم إلى الله سبحانه بلا واسطة لا من طريق إرادتهم بل بتعلق إرادته بنفس عملهم وأفاد الجبر لكان القول أقرب إلى أن يكون عذرا لهم من أن يكون توبيخا وتقبيحا، وكانت الحجة لهم لا عليهم.

١٢. ﴿قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ البنيان مصدر بنى يبني والمراد به المبني، والجحيم النار في شدة تأججها.

١٣. ﴿فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ الكيد الحيلة والمراد احتيالهم إلى إهلاكه وإحراقه بالنار.

١٤. ﴿فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ كناية عن جعل إبراهيم فوقهم لا يؤثر فيه كيدهم شيئا إذ قال سبحانه: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]

١٥. وقد اختتم بهذا فصل من قصص إبراهيم عليه السلام وهو انتهاضه أولا على عبادة الأوثان

واختصامه لعبادها وانتهاء أمره إلى إلقائه النار وإبطاله تعالى كيدهم.

١٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: القلب السليم الذي يلقى الله عز وجل، وليس فيه أحد سواه.

ب. وفيه، قال: القلب السليم من الشك.

ج. وفي روضة الكافي، بإسناده عن حجر عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أبو جعفر عليه السلام: عاب آلهتهم فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم، قال أبو جعفر عليه السلام: والله ما كان سقيما وما كذب.

• أقول: وفي معناه روايات أخر وفي بعضها: ما كان إبراهيم سقيما وما كذب، إنما عنى سقيما في دينه مرتادا.

• وقد تقدم الروايات في قصة حجاج إبراهيم عليه السلام قومه وكسره الأصنام وإلقائه في النار في تفسير سور الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء.

١٤. ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه والفداء بالذبح العظيم:

المقطع [١٤] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ٩٩-١١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٥١»:

١. ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾:

أ. فصل آخر من قصصه عليه السلام يذكر عزمه على المهاجرة من بين قومه واستيهابه من الله ولدا صالحا وإجابته إلى ذلك وقصة ذبحه ونزول الفداء.

ب. فقوله: ﴿وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾ كالإنجاز لما وعدهم به مخاطبا لآزر: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ومنه يعلم أن مراده بالذهاب إلى ربه الذهاب إلى مكان يتجرد فيه لعبادته تعالى ودعائه وهو الأرض المقدسة.

ج. وقول بعضهم: إن المراد أذهب إلى حيث أمرني ربي لا شاهد عليه، وكذا قول بعضهم: إن المراد أني ذاهب إلى لقاء ربي حيث يلقونني في النار فأموت وألقى ربي سيهديني إلى الجنة.

• وفيه، كما قيل، إن ذيل الآية لا يناسبه وهو قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وكذا قوله بعده: ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾

٢. ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حكاية دعاء إبراهيم عليه السلام ومسألته الولد أي قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ وقد قيده بكونه من الصالحين.

٣. ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾:

أ. أي فبشرناه أنا سنرزقه غلاما حليما وفيه إشارة إلى أنه يكون ذكرا ويبلغ حد الغلمان، وأخذ الغلومة في وصفه مع أنه بلغ مبلغ الرجال للإشارة إلى حاله التي يظهر فيها صفة كماله وصفاء ذاته وهو حلمه الذي مكنه من الصبر في ذات الله إذ قال: ﴿يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

ب. ولم يوصف في القرآن من الأنبياء بالحلم إلا هذا النبي الكريم في هذه الآية وأبوه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]

٤. ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ الفاء في أول الآية فصيحة تدل على محذوف والتقدير فلما ولد له ونشأ وبلغ معه السعي، والمراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغا يسعى فيه لحوائج الحياة عادة وهو سن الرهاق، والمعنى فلما راهق الغلام قال له يا بني.

٥. ﴿قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ هي رؤيا إبراهيم ذبح ابنه، وقوله: ﴿إِنِّي أَرى﴾ يدل على تكرر هذه الرؤيا له كما في قوله: ﴿وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى﴾

٦. ﴿فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ هو من الرأي بمعنى الاعتقاد أي فتفكر فيما قلت وعين ما هو رأيك فيه، وهذه الجملة دليل على أن إبراهيم عليه السلام فهم من منامه أنه أمر له بالذبح مثل له في مثال نتيجة الأمر ولذا طلب من ابنه الرأي فيه وهو يختبره بما ذا يجيبه؟

٧. ﴿قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ جواب ابنه، وقوله: ﴿يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ﴾ إظهار رضا بالذبح في صورة الأمر وقد قال: افعل ما تؤمر ولم يقل اذبحني إشارة إلى أن أباه مأمور بأمر ليس له إلا ائتماره وطاعته.

٨. ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ تطييب منه لنفس أبيه أنه لا يجزع منه ولا يأتي بما يهيج وجد الوالد عن ولده المزمل بدمائه، وقد زاد في كلامه صفاء على صفاء إذ قيد وعده بالصبر بقوله: ﴿إِنْ شاءَ اللهُ﴾ فأشار إلى أن اتصافه بهذه الصفة الكريمة أعني الصبر ليس له من نفسه ولا أن زمامه بيده بل هو من مواهب الله ومننه إن يشأ تلبس به وله أن لا يشاء فينزعه منه.

٩. ﴿فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾:

أ. الإسلام الرضا والاستسلام: والتل الصرع والجبين أحد جانبي الجبهة واللام في ﴿لِلْجَبِينِ﴾ لبيان ما وقع عليه الصراع كقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، والمعنى فلما استسلما إبراهيم وابنه لأمر الله ورضيا به وصرعة إبراهيم على جبينه.

ب. وجواب لما محذوف إيماء إلى شدة المصيبة ومرارة الواقعة.

١٠. ﴿وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ معطوف على جواب لما المحذوف، وقوله: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ أي أوردتها مورد الصدق وجعلتها صادقة وامتثلت الأمر الذي أمرناك فيها أي إن الأمر فيها كان امتحانيا يكفي في امتثاله تهيؤ المأمور للفعل وإشرافه عليه فحسب.

١١. ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾:

أ. الإشارة بكذلك إلى قصة الذبح بما أنها محنة شاقة وابتلاء شديد والإشارة بهذا إليها أيضا وهو تعليل لشدة الأمر.

ب. والمعنى: إنا على هذه الوتيرة نجزي المحسنين فنمتحنهم امتحانات شاقة صورة هينة معنى فإذا أتموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة، وذلك لأن الذي ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين.

١٢. ﴿وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي وفدينا ابنه بذبح عظيم وكان كبشا أتى به جبرئيل من عند الله سبحانه فداء على ما في الأخبار، والمراد بعظمة الذبح عظمة شأنه بكونه من عند الله سبحانه وهو الذي

فدى به الذبيح.

١٣. ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ تقدم الكلام فيه.

١٤. ﴿سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ﴾ تحية منه تعالى عليه، وفي تنكير سلام تفخيم له.

١٥. ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم تفسير الآيتين.

١٦. ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الضمير لإبراهيم عليه السلام.

واعلم أن هذه الآية المتضمنة للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله: ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ المتعقبة بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ إلى آخر القصة ظاهرة كالصريحة أو هي صريحة في أن الذبيح غير إسحاق وهو إسماعيل عليه السلام وقد فصلنا القول في ذلك في قصص إبراهيم عليه السلام من سورة الأنعام.

١٧. ﴿وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾:

أ. المباركة على شيء جعل الخير والنماء والثبات فيه أي وجعلنا فيها أعطينا إبراهيم وإسحاق الخير الثابت والنماء.

ب. ويمكن أن يكون قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما﴾ قرينة على أن المراد بقوله: ﴿بارَكْنا﴾ إعطاء البركة والكثرة في أولاده وأولاد إسحاق، والباقي ظاهر.

١٨. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات قال: وقد أعلمتك أن رب شيء من كتاب الله عز وجل، تأويله غير تنزيله ولا يشبه كلام البشر، وسأنبئك بطرف منه فتكتفي إن شاء الله، من ذلك قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فذهابه إلى ربه توجهه إليه عبادة، واجتهادا وقربة إلى الله عز وجل، ألا ترى أن تأويله غير تنزيله؟

ب. وفيه، بإسناده عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام قال: يا فتح إن لله إرادتين ومشيئتين: إرادة حتم، وإرادة عزم ينهى وهو يشاء ذلك ويأمر وهو لا يشاء، أوما رأيت أنه نهى آدم وزوجته، عن أن يأكلا من الشجرة وهو يشاء ذلك؟ ولو لم يشأ لم يأكلا، ولو أكلا لغلبت شهوتهما مشيئة الله تعالى، وأمر إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام وشاء أن لا يذبحه، ولو لم يشأ أن لا يذبحه،

لغلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله عز وجل، قلت: فرجت عني فرج الله عنك.

ج. وعن أمالي الشيخ، بإسناده إلى سليمان بن يزيد قال: حدثنا علي بن موسى قال: حدثني أبي عن أبيه عن أبي جعفر عن أبيه عن آبائه عليهمالسلام قال: الذبيح إسماعيل عليه السلام.

• أقول: وروي مثله في المجمع: (عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام، وبهذا المضمون روايات كثيرة أخرى عن أئمة أهل البيت عليه السلام، وقد وقع في بعض رواياتهم أنه إسحاق وهو مطروح لمخالفة الكتاب.

د. وعن الفقيه سئل الصادق عليه السلام عن الذبيح من كان؟ فقال إسماعيل لأن الله تعالى ذكر قصته في كتابه، ثم قال: ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

• أقول: هذا ما تقدم في بيان الآية أن الآية بسياقها ظاهرة بل صريحة في ذلك.

هـ. وفي المجمع: (عن ابن إسحاق: أن إبراهيم كان إذا زار إسماعيل وهاجر، حمل على البراق فيغدو من الشام، فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ معه السعي رأى في المنام أن يذبحه، فقال له: يا بني خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير، أخبره بما قد ذكره الله عنه فقال: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح من دمي شيئا، فتراه أمي واشحذ شفرتك، وأسرع مر السكين على حلقي، ليكون أهون علي فإن الموت شديد، فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله.، ثم ساق القصة وفيها ثم انحنى إليه بالمدية، وقلب جبرئيل المدية على قفاها، واجتر الكبش من قبل ثبير واجتر الغلام من تحته، ووضع الكبش مكان الغلام، ونودي من ميسرة مسجد الخيف: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

• أقول: والروايات في القصة كثيرة ولا تخلو من اختلاف.

و. وفيه: روى العياشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل، وبين بشارته بإسحاق عليه السلام؟ قال: كان بين البشارتين خمس سنين، قال الله سبحانه ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ يعني إسماعيل، وهي أول بشارة بشر الله به إبراهيم عليه السلام في الولد.

١٥. منة الله على موسى وهارون وإنجاؤهما وإيتائهما الكتاب:

المقطع [١٥] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٤-١٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٥٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ﴾ المن الإنعام ومن المحتمل أن يكون المراد به ما سيعده مما أنعم عليهما وعلى قومهما من التنجية والنصر وإيتاء الكتاب والهداية وغيرها فيكون قوله: ﴿وَنَجَّيْناهُما﴾ إلخ من عطف التفسير.

٢. ﴿وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الغم الشديد من استضعاف فرعون لهم يسومهم سوء العذاب ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

٣. ﴿وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ﴾:

أ. وهو الذي أدى إلى خروجهم من مصر وجوازهم البحر وهلاك فرعون وجنوده.

ب. وبذلك يندفع ما توهم أن مقتضى الظاهر أن يذكر النصر قبل التنجية لتوقفها عليه، وذلك أن النصر إنما يكون فيما إذا كان للمنصور قوة ما لكنها لا تكفي لدفع الشر فتتم بالنصر وكان لبني إسرائيل عند الخروج من مصر بعض القوة فناسب إطلاق النصر على إعانتهم على ذلك بخلاف أصل تخليصهم من يد فرعون فإنهم كانوا أسراء مستعبدين لا قوة لهم فلا يناسب هذا الاعتبار إلا ذكر التنجية دون النصر.

٤. ﴿وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ أي يستبين المجهولات الخفية فيبينها وهي التي يحتاج إليها الناس في دنياهم وآخرتهم.

٥. ﴿وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ المراد بها الهداية بتمام معنى الكلمة، ولذا خصها بهما ولم يشرك فيها معهما قومهما، ولقد تقدم كلام في معنى الهداية إلى الصراط المستقيم في سورة الفاتحة.

٦. ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم تفسيرها.

١٦. إلياس يدعو قومه لترك عبادة بعل والإخلاص لله:

المقطع [١٦] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ

لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣-١٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٥٧»:

١. ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قيل: إنه عليه السلام من آل هارون كان مبعوثا إلى بعلبك ولم يذكر في كلامه ما يستشهد به عليه.

٢. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾:

أ. شطر من دعوته عليه السلام يدعو قومه فيها إلى التوحيد ويوبخهم على عبادة بعل، صنم كان لهم، وترك عبادة الله سبحانه.

ب. وكلامه عليه السلام على ما فيه من التوبيخ واللوم يتضمن حجة تامة على توحيده تعالى فإن قوله: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ يوبخهم أولا على ترك عبادة أحسن الخالقين، والخلق والإيجاد كما يتعلق بذوات الأشياء يتعلق بالنظام الجاري فيها الذي يسمى تدبيرا فكما أن الخلق إليه تعالى فالتدبير أيضا إليه فهو المدبر كما أنه الخالق، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿اللهَ رَبَّكُمْ﴾ بعد وصفه تعالى بأحسن الخالقين.

ج. ثم أشار إلى أن ربوبيته تعالى لا تختص بقوم دون قوم كالأصنام التي يتخذ كل قوم بعضا منها دون بعض فيكون صنم ربا لقوم دون آخرين بل هو تعالى رب لهم ولآبائهم الأولين لا يختص ببعض دون بعض لعموم خلقه وتدبيره، وإليه أشار بقوله: ﴿اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾

٣. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي مبعوثون ليحضروا العذاب، وقد تقدم أن الإحضار إذا أطلق أفاد معنى الشر.

٤. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ دليل على أنه كان في قومه جمع منهم.

٥. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم الكلام في نظائرها.

٦. وضع هنا مبحثا حول [قصة إلياس عليه السلام]، خلاصته:

أ. لم يذكر اسم إلياس عليه السلام في القرآن إلا في هذا الموضع (سورة الصافات) وفي سورة الأنعام عند ذكر هداية الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥]

ب. لم يذكر من قصته في هذه السورة إلا أنه كان يدعو إلى عبادة الله قوماً كانوا يعبدون ﴿بَعْلًا﴾،

فآمن به وأخلص الإيمان قوم منهم، وكذبه آخرون (وهم جل القوم)، وإنهم لمحضرون.

ج. أثنى الله عليه في سورة الأنعام بما أثنى به على الأنبياء عامة، وأثنى عليه في سورة الصافات بأنه من عباده المؤمنين المحسنين، وحياة بالسلام بناء على القراءة المشهورة: ﴿سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ﴾

د. وردت فيه أخبار مختلفة متهافتة، كالروايات التي تقول إن إلياس هو إدريس، أو أن الخضر هو إلياس، أو أنه حي لا يموت، أو أنه صاحب الجبال والبر، أو أنه لاقى النبي في بعض أسفاره، ولكن هذه الروايات ضعاف، وظاهر آيات القصة لا يساعد عليها.

هـ. الرواية المطولة المروية عن وهب بن منبه (التي تذكر قصة الملك وامرأته، وهروب إلياس، وإمساك المطر، وإحياء يونس، ورفعه إلى السماء) لا ترتاب في ضعفها بالتأمل.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ قال كان لهم صنم يسمونه بعلا.

ب. وفي المعاني، بإسناده إلى قادح عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام: في قول الله عز وجل: (سلام على آل يس) قال: يس محمد ﷺ ونحن آل يس.

• أقول: وعن العيون، عن الرضا عليه السلام مثله، وهو مبني على قراءة آل يس كما قرأه نافع وابن عامر ويعقوب وزيد.

١٧. إنجاء لوط وأهله وتدمير الآخرين:

المقطع [١٧] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٣ـ١٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٦٢»:

١. ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ وإنما نجاه وأهله من العذاب النازل على قومه وهو الخسف وأمطار حجارة من سجيل على ما ذكره الله تعالى في سائر كلامه.

٢. ﴿إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ﴾ أي في الباقين في العذاب المهلكين به وهي امرأة لوط.

٣. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ التدمير الإهلاك، والآخرين قومه الذين أرسل إليهم.

٤. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ فإنهم على طريق الحجاز إلى الشام،

والمراد بالمرور عليهم المرور على ديارهم الخربة وهي اليوم مستورة بالماء على ما قيل.

١٨. قصة يونس وتوبته وإيمان قومه:

المقطع [١٨] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩ـ١٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٦٣»:

١. ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾:

أ. أي السفينة المملوءة من الناس والإباق هرب العبد من مولاه.

ب. والمراد بإباقه إلى الفلك خروجه من قومه معرضا عنهم وهو عليه السلام وإن لم يعص في خروجه ذلك ربه ولا كان هناك نهي من ربه عن الخروج لكن خروجه إذ ذاك كان ممثلا لإباق العبد من خدمة مولاه فأخذه الله بذلك، وقد تقدم بعض الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

٢. ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ المساهمة المقارعة والإدحاض الغلبة أي فقارع من في السفينة فكان من المغلوبين، وقد كان عرض لسفينتهم الحوت فاضطروا إلى أن يلقوا واحدا منهم في البحر ليبتلعه ويخلي السفينة فقارعوا فأصابت يونس عليه السلام.

٣. ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ الالتقام الابتلاع، ومليم من ألام أي دخل في اللوم كأحرم إذا دخل في الحرم أو بمعنى صار ذا ملامة.

٤. ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾:

أ. عده من المسبحين وهم الذين تكرر منهم التسبيح وتمكن منهم حتى صار وصفا لهم يدل على دوام تلبسه زمانا بالتسبيح، قيل: أي من المسبحين قبل التقام الحوت إياه، وقيل: بل في بطن الحوت، وقيل: أي كان من المسبحين قبل التقام الحوت وفي بطنه.

ب. والذي حكي من تسبيحه في كلامه تعالى قوله في سورة الأنبياء: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ

إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ولازم ذلك أن يكون من المسبحين في بطن الحوت خاصة أو فيه وفيما قبله فاحتمال كون المراد تسبيحه قبل التقام الحوت مرجوح لا ينبغي أن يصار إليه.

ج. على أن تسبيحه مع اعترافه بالظلم في قوله: ﴿سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، على ما سيجيء، تسبيح له تعالى عما كان يشعر به فعله من ترك قومه وذهابه على وجهه، وقوله: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ يدل على أن تسبيحه كان هو السبب المستدعي لنجاته، ولازم ذلك أن يكون إنما ابتلي بما ابتلي به لينزهه تعالى فينجو بذلك من الغم الذي ساقه إليه فعله إلى ساحة العافية.

د. وبذلك يظهر أن العناية في الكلام إنما هي بتسبيحه في بطن الحوت خاصة فخير الأقوال الثلاثة أوسطها.

هـ. فالظاهر أن المراد بتسبيحه نداؤه في الظلمات بقوله: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد قدم التهليل ليكون كالعلة المبينة لتسبيحه كأنه يقول: لا معبود بالحق يتوجه إليه غيرك فأنت منزه مما كان يشعر به فعلي أني آبق منك معرض عن عبوديتك متوجه إلى سواك إني كنت ظالما لنفسي في فعلي فها أنا متوجه إليك متبرئ مما كان يشعر به فعلي من التوجه عنك إلى غيرك.

و. فهذا معنى تسبيحه ولو لا ذلك منه لم ينج أبدا إذ كان سبب نجاته منحصرا في التسبيح والتنزيه بالمعنى الذي ذكر.

ز. وبذلك يظهر أن المراد بقوله: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ تأبيد مكثه في بطنه إلى أن يبعث فيخرج منه كالقبر الذي يقبر فيه الإنسان ويلبث فيه حتى يبعث فيخرج منه قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]

ح. ولا دلالة في الآية على كونه عليه السلام على تقدير اللبث حيا في بطن الحوت إلى يوم يبعثون أو ميتا وبطنه قبره مع بقاء بدنه وبقاء جسد الحوت على حالهما أو بنحو آخر فلا مساغ لاختلافهم في كونه عليه السلام حيا على هذا التقدير أو ميتا وبطنه قبره، وأن المراد بيوم يبعثون النفخة الأولى التي فيها يموت الخلائق أو النفخة الثانية أو التأجيل بيوم القيامة كناية عن طول اللبث.

٥. ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾:

أ. النبذ طرح الشيء والرمي به، والعراء المكان الذي لا سترة فيه يستظل بها من سقف أو خباء أو

شجر.

ب. والمعنى على ما يعطيه السياق أنه صار من المسبحين فأخرجناه من بطن الحوت وطرحناه خارج الماء في أرض لا ظل فيها يستظل به وهو سقيم.

٦. ﴿وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ اليقطين من نوع القرع ويكون ورقه عريضا مستديرا وقد أنبتها الله عليه ليستظل بورقها.

٧. ﴿وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أو في مورد الترقي وتفيد معنى بل، والمراد بهذه الجماعة أهل نينوى.

٨. ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾:

أ. أي آمنوا به فلم نعذبهم ولم نهلكهم بما أشرف عليهم من العذاب فمتعناهم بالحياة والبقاء إلى أجلهم المقدر لهم.

ب. والآية في إشعارها برفع العذاب عنهم وتمتيعهم تشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾:.

ج. ولا يخلو السياق من إشعار، بل دلالة، على أن المراد من إرساله في قوله: ﴿وَأَرْسَلْناهُ﴾ أمره بالذهاب ثانيا إلى القوم، وبإيمانهم في قوله: ﴿فَآمَنُوا﴾ إيمانهم بتصديقه واتباعه بعد ما آمنوا وتابوا حين رأوا العذاب.

د. ومن هنا يظهر ضعف ما استدل بعضهم بالآيتين أن إرساله إلى القوم كان بعد خروجه من بطن الحوت وأنه أمر أولا بالذهاب إلى أهل نينوى ودعوتهم إلى الله وكانوا يعبدون الأصنام فاستعظم الأمر وخرج من بيته يسير في الأرض لعل الله يصرف عنه هذا التكليف وركب البحر فابتلاه الله بالحوت ثم لما نبذ بالعراء كلف ثانيا فأجاب وأطاع ودعاهم فاستجابوا فدفع الله عذابا كان يهددهم إن لم يؤمنوا.

هـ. وذلك أن السياق كما سمعت يدل على كون إرساله بأمر ثان وأن إيمانهم كان إيمانا ثانيا بعد الإيمان والتوبة وأن تمتيعهم إلى حين كان مترتبا على إيمانهم به لا على كشف العذاب عنهم فلم يكن الله سبحانه ليتركهم لو لم يؤمنوا برسوله ثانيا كما آمنوا به وتابوا إليه أولا في غيبته فافهم ذلك.

و. على أن قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقوله: ﴿وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ

الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ن: لا يلائم ما ذكروه، وكذا قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٩٨] إذ لا يطلق الكشف إلا في عذاب واقع حال أو مشرف.

٩. وضع هنا مبحثا حول [قصة يونس عليه السلام]، خلاصته:

أ. لم يتعرض القرآن إلا لطرف من قصة يونس وقومه، وخلاصتها: أنه أرسل إلى قوم يزيدون على مائة ألف، فدعاهم فلم يجيبوا، فخرج من بينهم مغاضباً، فلما أشرف عليهم العذاب آمنوا وتابوا، فكشف الله عنهم العذاب، ولم يعلم يونس بإيمانهم، فذهب وظن أن الله لن يقدر عليه، وركب الفلك، فالتقمه الحوت، فسبح في بطنه ودعا، فاستجاب الله له وألقاه بالعراء، ثم أرسله إلى قومه فآمنوا به.

ب. وردت في قصته أخبار من طرق أئمة أهل البيت وأهل السنة متوافقة مع ما يستفاد من الآيات، وإن اختلفت في بعض الخصوصيات.

ج. قصة يونس في العهد القديم تذكر أنه هرب من الرسالة، وركب سفينة، وألقي في البحر، والتقمه حوت، وبقي في بطنه ثلاثة أيام، ثم ألقاه الحوت، وذهب إلى نينوى فنادى، فآمنوا، لكنه حزن لرفع العذاب، فعاتبه الله على حزنه على اليقطين، وهذه القصة تخالف القرآن في نسبة المعاصي (كالفرار من الرسالة وعدم الرضا برفع العذاب)، بينما القرآن ينزه الأنبياء عن المعاصي، ويحمل ما يوهم ذلك على أحسن الوجوه.

د. أثنى الله على يونس بأنه من المؤمنين، ومن المجتبين ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾، ومن الصالحين، ومن الأنبياء الذين فضلهم على العالمين وهداهم إلى صراط مستقيم.

١٩. استفهام المشركين عن نسبة البنات لله وادعاء ولد لله:

المقطع [١٩] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٧٢»:

١. ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ حلل سبحانه قولهم: إن الملائكة بنات الله إلى ما يستلزمه من اللوازم وهي أن الملائكة أولاده، وأنهم بنات، وأنه تعالى خص نفسه بالبنات وهم مخصوصون

بالبنين ثم رد هذه اللوازم واحدا بعد واحد فرد قولهم: إن له البنات ولهم البنين بقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ وهو استفهام إنكاري لقولهم بما يلزمه من تفضيلهم على الله لما أنهم يفضلون البنين على البنات ويتنزهون منهن ويئدونهن.

٢. ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ﴾ أم منقطعة أي بل أخلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون يشهدون خلقهم ولم يكونوا شاهدين خلقهم ولا لهم أن يدعوا ذلك، والذكورة والأنوثة مما لا يثبت إلا بنوع من الحس، وهذا رد لقولهم بأنوثة الملائكة.

٣. ﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ رد لقولهم بالولادة بأنه من الإفك أي صرف القول عن وجهه إلى غير وجهه أي من الحق إلى الباطل فيوجهون خلقهم بما يعدونه ولادة ويعبرون عنه بها فهم آفكون كاذبون.

٤. ﴿أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾:

أ. كرر الإنكار على اصطفاء البنات من بين لوازم قولهم لشدة شناعته.

ب. ثم وبخهم بقوله: ﴿ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ لكون قولهم حكما من غير دليل ثم عقبه بقوله: ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ توبيخا وإشارة إلى أن قولهم ذلك، فضلا عن كونه مما لا دليل عليه، الدليل على خلافه ولو تذكروا لانكشف لهم فقد تنزهت ساحته تعالى عن أن يتجزأ فيلد أو يحتاج فيتخذ ولدا، وقد احتج عليهم بذلك في مواضع من كلامه.

ج. والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على اشتداد السخط الموجب لتوبيخهم شفاها.

٥. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾:

أ. أم منقطعة والمراد بالسلطان وهو البرهان كتاب نازل من عند الله سبحانه يخبر فيه أن الملائكة بناته على ما يعطيه السياق إذ لما لم يثبت بعقل أو حس بقي أن يثبت بكتاب من عند الله نازل بالوحي فلو كانت دعواهم حقة وهم صادقون فيها كان لهم أن يأتوا بالكتاب.

ب. وإضافة الكتاب إليهم بعناية فرضه دالا على دعواهم.

٢٠. تنزيه الله عن الشركاء وإخلاص العبادة له:

المقطع [٢٠] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا

وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٧٣»:

١. ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ جعل النسب بينه وبين الجنة قولهم: إن الجنة أولاده وقد تقدم تفصيل قولهم في تفسير سورة هود في الكلام على عبادة الأصنام.

٢. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾:

أ. أي للحساب أو للنار على ما يفيده إطلاق ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ وكيف كان فهم يعلمون أنهم مربوبون لله سيحاسبهم ويجازيهم بما عملوا فبينهم وبين الله سبحانه نسبة الربوبية والعبودية لا نسب الولادة ومن كان كذلك لا يستحق العبادة.

ب. ومن الغريب قول بعضهم: إن المراد بالجنة طائفة من الملائكة يسمون بها ولازمه إرجاع ضمير ﴿إِنَّهُمْ﴾ إلى الكفار دون الجنة، وهو مما لا شاهد له من كلامه تعالى مضافا إلى بعده من السياق.

٣. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾:

أ. ضمير ﴿يَصِفُونَ﴾، نظرا إلى اتصال الآية بما قبلها، راجع إلى الكفار المذكورين قبل، والاستثناء منه منقطع والمعنى هو منزه عن وصفهم، أو عما يصفه الكفار به من الأوصاف كالولادة والنسب والشركة ونحوها، لكن عباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفا يليق به، أو بما يليق به من الأوصاف..

ب. وقيل: إنه استثناء منقطع من ضمير ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾، وقيل: من فاعل ﴿جَعَلُوا﴾ وما بينهما من الجمل المتخللة اعتراض، وهما وجهان بعيدان.

ج. وللآيتين باستقلالهما معنى أوسع من ذلك وأدق وهو رجوع ضمير ﴿يَصِفُونَ﴾ إلى الناس، والوصف مطلق يشمل كل ما يصفه به واصف، والاستثناء متصل والمعنى هو منزه عن كل ما يصفه الواصفون إلا عباد الله المخلصين، وذلك أنهم إنما يصفونه بمفاهيم محدودة عندهم وهو سبحانه غير محدود لا يحيط به حد ولا يدركه نعت فكل ما وصف به فهو أجل منه وكل ما توهم أنه هو فهو غيره لكن له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه وخصهم بنفسه لا يشاركه فيهم أحد غيره فعرفهم نفسه وأنساهم غيره يعرفونه ويعرفون غيره به فإذا وصفوه في نفوسهم وصفوه بما يليق بساحة كبريائه وإذا وصفوه بألسنتهم،

والألفاظ قاصرة والمعاني محدودة، اعترفوا بقصور البيان وأقروا بكلال اللسان كما قال النبي ﷺ وهو سيد المخلصين: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فافهم ذلك.

٤. ﴿فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ﴾:

أ. تفريع على حكم المستثنى والمستثنى منه أو المستثنى خاصة، والمعنى لما كان ما وصفتموه ضلالا، وعباد الله المخلصون لا يضلون في وصفهم، فلستم بمضلين به إلا سالكي سبيل النار.

ب. والظاهر من السياق أن ﴿ما﴾ في ﴿ما تَعْبُدُونَ﴾ موصولة والمراد بها الأصنام فحسب أو الأصنام وآلهة الضلال كشياطين الجن، وما في ﴿ما أَنْتُمْ﴾ نافية، وضمير ﴿عَلَيْهِ﴾ لله سبحانه والظرف متعلق بفاتنين، وفاتنين اسم فاعل من الفتنة بمعنى الإضلال و﴿صالِ﴾ من الصلو بمعنى الاتباع فصالي الجحيم هو المتبع للجحيم السالك سبيل النار، والاستثناء مفرغ تقديره ما أنتم بفاتنين أحدا إلا من هو صال الجحيم.

ج. والمعنى فإنكم وآلهة الضلال التي تعبدونها لستم جميعا بمضلين أحدا على الله إلا من هو متبع الجحيم.

د. وقيل: إن ﴿ما﴾ الأولى مصدرية أو موصولة وجملة ﴿فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ﴾ كلام) تام مستقل من قبيل قولهم: أنت وشأنك والمعنى فإنكم وما تعبدون متقارنان ثم استونف وقيل: ﴿ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ﴾ و﴿بِفاتِنِينَ﴾ مضمن معنى الحمل وضمير ﴿عَلَيْهِ﴾ راجع إلى ﴿ما تَعْبُدُونَ﴾ إن كانت ما مصدرية وإلى ﴿ما﴾ بتقدير مضاف إن كانت موصولة والمعنى ما أنتم بحاملين على عبادتكم أو على عبادة ما تعبدونه إلا من هو صال الجيم.

هـ. قيل: ويمكن أن يكون (على) بمعنى الباء والضمير لما تعبدون أو لما أن كانت موصولة و﴿بِفاتِنِينَ﴾ على ظاهر معناه من غير تضمين، والمعنى ما أنتم بمضلين أحدا بعبادتكم أو بعبادة ما تعبدونه إلا..

- وهذه كلها تكلفات من غير موجب والكلام فيما في الآية من الالتفات كالكلام فيما سبق منه.

٢١. مقام الملائكة وتسبيحهم وصفوفهم:

المقطع [٢١] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ وَإِنَّا

لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤-١٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٧٥»:

١. ﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾:

أ. الآيات الثلاث، على ما يعطيه السياق، اعتراض من كلام جبرئيل أو هو وأعوانه من ملائكة الوحي نظير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ﴾

ب. وقيل: هي من كلام الرسول ﷺ يصف نفسه والمؤمنين به للكافرين تبكيتا لهم وتقريعا وهو متصل بقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ والتقدير فاستفتهم وقل: ما منا معشر المسلمين إلا له مقام معلوم على قدر أعماله يوم القيامة وإنا لنحن الصافون في الصلاة وإنا لنحن المسبحون، وهو تكلف لا يلائمه السياق.

ج. والآيات الثلاث مسوقة لرد قولهم بألوهية الملائكة بإيراد نفس اعترافهم بما ينتفي به قول الكفار وهم لا ينفون العبودية عن الملائكة بل يرون أنهم مربوبون لله سبحانه أرباب وآلهة لمن دونهم يستقلون بالتصرف فيما فوض إليهم من أمر العالم من غير أن يرتبط شيء من هذا التدبير إلى الله سبحانه وهذا هو الذي ينفيه الملائكة عن أنفسهم لا كونهم أسبابا متوسطة بينه تعالى وبين خلقه كما قال تعالى ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] فقوله: ﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ أي معين مشخص أقيم فيه ليس له أن يتعداه بأن يفوض إليه أمر فيستقل فيه بل مجبول على طاعة الله فيما يأمر به وعبادته.

٢. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ أي نصف عند الله في انتظار أوامره في تدبير العالم لنجريها على ما يريد، كما قال تعالى: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ هذا ما يفيده السياق، وربما قيل: إن المراد إنا نصف للصلاة عند الله وهو بعيد من الفهم لا شاهد عليه.

٣. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المنزهون له تعالى عما لا يليق بساحة كبريائه كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]

٤. فالآيات الثلاث تصف موقف الملائكة في الخلقة وعملهم المناسب لخلقتهم وهو الاصطفاف لتلقي أمره تعالى والتنزيه لساحة كبريائه عن الشريك وكل ما لا يليق بكمال ذاته المتعالية.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج محمد بن نضر وابن عساكر عن العلاء بن سعيد: أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه: أطت السماء وحق لها أن تئط، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد، ثم قرأ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى عنه ﷺ بغير هذا الطريق.

ب. أخرج ابن مردويه عن أنس: أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: استووا تقدم يا فلان تأخر يا فلان أقيموا صفوفكم، يريد الله بكم هدى الملائكة ثم يتلو: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾

ج. وفي نهج البلاغة قال عليه السلام في وصف الملائكة: وصافون لا يتزايلون ومسبحون لا يسأمون.

٢٢. الذكر والكفر والعلم:

المقطع [٢٢] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٦٧-١٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٧٦»:

١. ﴿وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾:

أ. رجوع إلى السياق السابق.

ب. والضمير في قوله: ﴿وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ﴾ لقريش ومن يتلوهم، و﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، والمراد بذكر من الأولين كتاب سماوي من جنس الكتب النازلة على الأولين.

ج. والمعنى لو أن عندنا كتابا سماويا من جنس الكتب النازلة قبلنا على الأولين لاهتدينا وكنا عباد الله المخلصين يريدون أنهم معذورون لو كفروا لعدم قيام الحجة عليهم من قبل الله سبحانه.

د. وهذا في الحقيقة هفوة منهم فإن مذهب الوثنية يحيل النبوة والرسالة ونزول الكتاب السماوي.

٢. ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الفاء فصيحة، والمعنى فأنزلنا عليهم الذكر وهو القرآن الكريم فكفروا به ولم يفوا بما قالوا فسوف يعلمون وبال كفرهم وهذا تهديد منه تعالى لهم.

٢٣. وعد الله بنصر رسله وجنده وغلبتهم:

المقطع [٢٣] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٧٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾:

أ. كلمته تعالى لهم قوله الذي قاله فيهم وهو حكمه وقضاؤه في حقهم وسبق الكلمة تقدمها عهدا أو تقدمها بالنفوذ والغلبة واللام تفيد معنى النفع أي إنا قضينا قضاء محتوما فيهم إنهم لهم المنصورون وقد أكد الكلام بوجوه من التأكيد.

ب. وقد أطلق النصر من غير تقييده بدنيا أو آخرة أو بنحو آخر بل القرينة على خلافه قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾:

• فالرسل عليه السلام منصورون في الحجة لأنهم على الحق والحق غير مغلوب.

• وهم منصورون على أعدائهم إما بإظهارهم عليهم وإما بالانتقام منهم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ إلى أن قال: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]

• وهم منصورون في الآخرة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨]، وقد تقدم آنفا آية في سورة المؤمن في هذا المعنى.

٢. ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾:

أ. الجند هو المجتمع الغليظ ولذا يقال للعسكر جند فهو قريب المعنى من الحزب وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]

ب. والمراد بقوله: ﴿جُنْدَنَا﴾ هو المجتمع المؤتمر بأمره المجاهد في سبيله وهم المؤمنون خاصة أو الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين وفي الكلام على التقدير الثاني تعميم بعد التخصيص، وكيف كان فالمؤمنون منصورون كمتبوعيهم من الأنبياء قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقد مر بعض الآيات الدالة عليه آنفا.

ج. والحكم أعني النصر والغلبة حكم اجتماعي منوط على العنوان لا غير أي إن الرسل وهم عباد

أرسلهم الله والمؤمنون وهم جند لله يعملون بأمره ويجاهدون في سبيله ما داموا على هذا النعت منصورون غالبون، وأما إذا لم يبق من الإيمان إلا اسمه ومن الانتساب إلا حديثه فلا ينبغي أن يرجى نصر ولا غلبة.

٣. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾:

أ. تفريع على حديث النصر والغلبة ففيه وعد للنبي ﷺ بالنصر والغلبة وإيعاد للمشركين ولقريش خاصة.

ب. والأمر بالإعراض عنهم ثم جعله مغيا بقوله: ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ يلوح إلى أن الأمد غير بعيد وكان كذلك فهاجر النبي ﷺ بعد قليل وأباد الله صناديد قريش في غزوة بدر وغيرها.

٤. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ الأمر بالإبصار والإخبار بإبصارهم عاجلا وعطف الكلام على الأمر بالتولي معجلا يفيد بحسب القياس أن المعنى أنظرهم وأبصر ما هم عليه من الجحود والعناد قبال إنذارك وتخويفك فسوف يبصرون وبال جحودهم واستكبارهم.

٢٤. استعجال الكفار بالعذاب ونزوله بساحتهم:

المقطع [٢٤] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٦-١٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٧٨»:

١. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾:

أ. توبيخ لهم لاستعجالهم وقولهم: متى هذا الوعد؟ متى هذا الفتح؟ وإيذان بأن هذا العذاب مما لا ينبغي أن يستعجل لأنه يعقب يوما بئيسا وصباحا مشئوما.

ب. ونزول العذاب بساحتهم كناية عن نزوله بهم على نحو الشمول والإحاطة، وقوله: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي بئس صباحهم صباحا، والمنذرون هم المشركون من قريش.

٢. ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما مر بتكرار الآيتين على ما قيل، واحتمل بعضهم أن يكون المراد بها تقدم التهديد بعذاب الدنيا وبهذا، التهديد بعذاب الآخرة، ولا يخلو من وجه فإن الواقع في الآية ﴿وَأَبْصِرْ﴾ من غير مفعول كما في الآية السابقة من قوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ والحذف يشعر بالعموم وأن المراد إبصار ما عليه عامة الناس من الكفر والفسوق ويناسبه التهديد بعذاب

يوم القيامة.

٢٥. تسبيح الله والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين:

المقطع [٢٥] من سورة الصافات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٧٩»:

١. ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾:

أ. تنزيه له تعالى عما يصفه به الكفار المخالفون لدعوة النبي ﷺ مما تقدم ذكره في السورة.

ب. والدليل عليه إضافة التنزيه إلى قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ أي الرب الذي تعبده وتدعو إليه، وإضافة الرب ثانيا إلى العزة المفيد لاختصاصه تعالى بالعزة فهو منيع الجانب على الإطلاق فلا يذله مذل ولا يغلبه غالب ولا يفوته هارب فالمشركون أعداء الحق المهددون بالعذاب ليسوا له بمعجزين.

٢. ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ تسليم على عامة المرسلين وصون لهم من أن يصيبهم من قبله تعالى ما يسوؤهم ويكرهونه.

٣. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

سورة ص

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٢٩] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. يدور الكلام في السورة حول كون النبي ﷺ منذراً بالذكر النازل عليه من عند الله سبحانه، الداعي إلى التوحيد وإخلاص العبودية له تعالى.

ب. فتبدأ بذكر اعتزاز الكفار وشقاقهم، وبالجملة استكبارهم عن اتباعه والإيمان به وصد الناس عنه، وتفوههم بباطل القول في ذلك ورده في فصل.

ج. ثم تأمر النبي ﷺ بالصبر وذكر قصص عباده الأولين في فصل.

د. ثم يذكر مآل حال المتقين والطاغين في فصل.

هـ. ثم تأمر النبي ﷺ بإبلاغ نذارته ودعوته إلى توحيد الله، وأن مآل أتباع الشيطان إلى النار على ما قضى به الله يوم أمر الملائكة بالسجدة لآدم، فأبى إبليس فرجمه وقضى عليه وعلى من تبعه النار في فصل.

و. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تقسم بالقرآن ذي الذكر، وتذكر كفر المشركين واستكبارهم، وتعجبهم من بعثة النبي ﷺ، وتكذيبهم بالآخرة، وتذكر ما كان قبلهم من الأمم المكذبة، وتتهددهم بالعذاب يوم الحساب.

٢. الآيات [١٧ ـ ٢٩]:

أ. لما حكى سبحانه عن المشركين رميهم النبي ﷺ ودعوته الحقة باختلاق، وأنها ذريعة إلى التقدم والرئاسة، وأنه لا مرجح له عليهم حتى يختص بالرسالة والإنذار، ثم استهزائهم بيوم الحساب وعذابه الذي ينذرون به، أمر النبي ﷺ بالصبر وأن لا يزلزله هفواتهم ولا يوهن عزمه.

ب. وأن يذكر عدة من عباده الأوابين له الراجعين إليه فيما دهمهم من الحوادث، وهؤلاء تسعة من الأنبياء الكرام ذكرهم الله سبحانه: داود، وسليمان، وأيوب، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل،

واليسع، وذو الكفل عليه السلام، وبدأ بداود عليه السلام وذكر بعض قصصه.

٣. الآيات [٣٠ ـ ٤٠] القصة الثانية من قصص العباد الأوابين التي أمر النبي ﷺ أن يصبر ويذكرها.

٤. الآيات [٤١ ـ ٤٨]:

أ. القصة الثالثة مما أمر النبي ﷺ أن يصبر ويذكرها، وهي قصة أيوب النبي عليه السلام وما ابتلي به من المحنة، ثم أكرمه الله بالعافية والعطية.

ب. ثم الأمر بذكر إبراهيم وخمسة من ذريته من الأنبياء عليهم السلام.

٥. الآيات [٤٩ ـ ٦٤] فصل آخر من الكلام، يبين فيه مآل أمر المتقين والطاغين، تبشيراً وإنذاراً.

٦. الآيات [٦٥ ـ ٨٨]:

أ. الفصل الأخير من فصول السورة، المشتمل على أمر النبي ﷺ بإبلاغ نذارته ودعوته إلى التوحيد.

ب. وأن الإعراض عن الحق واتباع الشيطان ينتهي بالإنسان إلى عذاب النار المقضي في حقه وحق أتباعه، وعند ذلك تختتم السورة.

١. القرآن ذو الذكر والكافرون في عزّة وشقاق:

المقطع [١] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٨١»:

١. ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾:

أ. المراد بالذكر ذكر الله تعالى بتوحيده وما يتفرع عليه من المعارف الحقة من المعاد والنبوة وغيرهما، والعزة الامتناع، والشقاق المخالفة، قال في مجمع البيان: (وأصله أن يصير كل من الفريقين في شق أي في جانب ومنه يقال: شق فلان العصا إذا خالف)

ب. والمستفاد من سياق الآيات أن قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ قسم نظير ما في قوله: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ لا عطف على ما تقدمه، وأما المقسم عليه فالذي يدل عليه الإضراب في قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أنه أمر يمتنع عن قبوله القوم ويكفرون

به عزة وشقاقا وقد هلك فيه قرون كثيرة ثم ذكر إنذار النبي ﷺ وما قاله الكفار عليه وما أمرهم به ملؤهم حول إنذاره ﷺ أنه أعني المقسم عليه نحو من قولنا: إنك لمن المنذرين، ويشهد على ذلك أيضا التعرض في السورة بإنذاره ﷺ بالذكر مرة بعد أخرى.

ج. وقد قيل في قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ من حيث الإعراب والمعنى وجوه كثيرة لا محصل لأكثرها تركنا إيرادها لعدم الجدوى.

د. والمعنى، والله أعلم، أقسم بالقرآن المتضمن للذكر، إنك لمن المنذرين، بل الذين كفروا في امتناع عن قبوله واتباعه ومخالفة له.

٢. ﴿كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾:

أ. القرن أهل عصر واحد، والمناص بالنون مصدر ناص ينوص أي تأخر كما أنه بالباء الموحدة بمعنى التقدم على ما في المجمع: (وقيل: هو بمعنى الفرار.

ب. والمعنى: كثيرا ما أهلكنا من قبل هؤلاء الكفار من قرن وأمة بتكذيبهم الرسل المنذرين فنادوا عند نزول العذاب بالويل كقولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين أو بالاستغاثة بالله سبحانه وليس الحين حين تأخر الأخذ والعذاب أو ليس الحين حين فرار.

٣. أحاديث وآثار: في العلل، بإسناده إلى إسحاق بن عمار قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، كيف صارت الصلاة ركعة وسجدتين؟ وكيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين؟ فقال: إذا سألت عن شيء ففرغ قلبك لتفهم، إن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إنما صلاها في السماء بين يدي الله تبارك وتعالى قدام عرشه، وذلك أنه لما أسري به وصار عند عرشه، قال يا محمد ادن من صاد، فاغسل مساجدك وطهرها وصل لربك، فدنا رسول الله ﷺ إلى حيث أمره الله تبارك وتعالى، فتوضأ وأسبغ وضوءه، قلت: جعلت فداك وما صاد الذي أمر أن يغتسل منه؟ فقال: عين تنفجر من ركن من أركان العرش، يقال لها ماء الحيوان وهو ما قال الله عز وجل: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ الحديث.

• أقول: وروي هذا المعنى أعني، أن ﴿ص﴾ نهر يخرج من ساق العرش، في المعاني، عن سفيان الثوري عن الصادق عليه السلام، وروي ذلك في مجمع البيان، عن ابن عباس: أنه اسم من أسماء الله تعالى: قال: وروي ذلك عن الصادق عليه السلام.

٢. تعجب الكفار من نذير منهم واتهامه بالسحر:

المقطع [٢] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٨٢»:

١. ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي تعجبوا من مجيء منذر من نوعهم بأن كان بشرا فإن الوثنية تنكر رسالة البشر.

٢. ﴿وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يشيرون بهذا إلى النبي ﷺ يرمونه بالسحر لكونهم عاجزين عن الإتيان بمثل ما أتى به وهو القرآن، وبالكذب لزعمهم أنه يفتري على الله بنسبة القرآن وما فيه من المعارف الحقة إليه تعالى.

٣. ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾:

أ. العجاب بتخفيف الجيم اسم مبالغة من العجب وهو بتشديد الجيم أبلغ.

ب. وهو من تتمة قول الكافرين والاستفهام للتعجيب والجعل بمعنى التصيير وهو كما قيل تصيير بحسب القول والاعتقاد والدعوى لا بحسب الواقع كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩] فمعنى جعله ﷺ الآلهة إلها واحدا هو إبطاله ألوهية الآلهة من دون الله وحكمه بأن الإله هو الله لا إله إلا هو.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش، فدخلوا على أبي طالب فقالوا، إن ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا فادعه، ومره فليكف عن آلهتنا ونكف عن إلهه، قال: فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فدعاه، فلما دخل النبي ﷺ لم ير في البيت إلا مشركا، فقال: السلام على من اتبع الهدى ثم جلس، فخبره أبو طالب بما جاءوا به فقال: أوهل لهم في كلمة خير لهم من هذا، يسودون بها العرب ويطئون أعناقهم؟ فقال أبو جهل: نعم وما هذه الكلمة؟ قال: تقولون: لا إله إلا الله، قال: فوضعوا أصابعهم في آذانهم وخرجوا وهم يقولون: ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق، فأنزل الله في قولهم ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، إلى قوله: ﴿إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ قال: لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة، اجتمعت قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سفه أحلامنا، وسب آلهتنا وأفسد شبابنا وفرق جماعتنا، فإن كان الذي يحمله على ذلك العدم، جمعنا له مالا حتى يكون أغنى رجل في قريش، ونملكه علينا، فأخبر أبو طالب رسول الله ﷺ بذلك، فقال: والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري ما أردته، ولكن يعطونني كلمة يملكون بها العرب، ويدين لهم بها العجم ويكونون ملوكا في الجنة، فقال لهم أبو طالب ذلك فقالوا: نعم وعشر كلمات، فقال لهم رسول الله ﷺ تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله فقالوا: ندع ثلاثمائة وستين إلها ونعبد إلها واحدا؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ -﴿وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾ أي تخليط ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْأَحْزابِ﴾ يعني الذين تحزبوا عليه يوم الأحزاب.

• أقول: والقصة مروية من طريق أهل السنة أيضا وفي بعض رواياتهم أنه ﷺ لما عرض عليهم كلمة التوحيد قالوا له: سلنا غير هذه قال: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها فغضبوا وقالوا والكلمة كناية عن تمليكهم إياه زمام نظام العالم الأرضي فإن الشمس والقمر من أعظم المؤثرات فيه، وقد أخذ على ما يظهر أن للحسن من القدر ليصح ما أريد من التمثيل.

٣. كيد الملأ واستكبارهم على التوحيد واتهامهم بالاختلاق:

المقطع [٣] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٦-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٨٢»:

١. ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ﴾ نسبة الانطلاق إلى ملإهم وأشرافهم وقولهم ما قالوا يلوح إلى أن أشراف قريش اجتمعوا على النبي ﷺ ليحلوا مشكلة دعوته إلى التوحيد ورفض الآلهة بنوع من الاستمالة وكلموه في ذلك فما وافقهم في شيء منه ثم انطلقوا وقال بعضهم لبعض أو قالوا لأتباعهم أن امشوا واصبروا، وهذا يؤيد ما ورد في أسباب النزول مما سيجيء في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

٢. ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ بتقدير القول أي قائلين أن امشوا واصبروا على آلهتكم ولا تتركوا عبادتها وإن عابها وقدح فيها، وظاهر السياق أن القول قول بعضهم لبعض، ويمكن أن يكون قولهم لتبعتهم.

٣. ﴿إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ﴾ ظاهره أنه إشارة إلى ما يدعو إليه النبي ﷺ ويطلبه وأن مطلوبه شيء يراد بالطبع وهو السيادة والرئاسة وإنما جعل الدعوة ذريعة إليه فهو نظير قول الملإ من قوم نوح لعامتهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]

أ. وقيل: المعنى إن هذا الذي شاهدناه من إسراره ﷺ على ما يطلبه وتصلبه في دينه لشيء عظيم يراد من قبله.

ب. وقيل: المعنى إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا حيلة إلا أن تمشوا وتصبروا.

ج. وقيل: المعنى إن الصبر خلق محمود يراد منا في مثل هذه الموارد.

د. وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة لا يلائمها السياق.

٤. ﴿ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾:

أ. أرادوا بالملة الآخرة المذهب الذي تداوله الآخرون من الأمم المعاصرين لهم أو المقارنين لعصرهم قبال الملل الأولى التي تداولها الأولون كأنهم يقولون: ليس هذا من الملة الآخرة التي يرتضيها أهل الدنيا اليوم بل من أساطير الأولين.

ب. وقيل: المراد بالملة الآخرة النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يقولون بالتوحيد بل بالتثليث، وضعفه ظاهر إذ لم يكن للنصرانية وقع عندهم كالإسلام.

٥. ﴿إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾ أي كذب وافتعال.

٦. ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا﴾ استفهام إنكاري بداعي التكذيب أي لا مرجح عند محمد ﷺ يترجح به علينا فينزل عليه الذكر دوننا فهو في إنكار الاختصاص بنزول الذكر نظير قولهم: ما أنت إلا بشر مثلنا في نفي الاختصاص بالرسالة.

٧. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ﴾:

أ. إضراب عن جميع ما قالوه أي إنهم لم يقولوا عن إيمان واعتقاد به بل هم في شك من ذكري وهو

القرآن.

ب. وليس شكهم فيه من جهة خفاء دلالة آية النبوة وقصورها عن إفادة اليقين بل تعلق قلوبهم بما عندهم من الباطل ولزومهم التقليد يصرفهم عن النظر في دلالة الآية الإلهية المعجزة فشكوا في الذكر والحال أنه آية معجزة.

٨. ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾:

أ. إضراب عن الإضراب أي ليس إنكارهم وعدم إيمانهم به عن شك منهم فيه بل لأنهم لعتوهم واستكبارهم لا يعترفون بحقيته ولو لم يكن شك، حتى يذوقوا عذابي فيضطروا إلى الاعتراف كما فعل غيرهم.

ب. وفي قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي لم يذوقوا بعد عذابي، تهديد بعذاب واقع.

٤. الخزائن والملك والجند المهزوم:

المقطع [٤] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ٩-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٨٤»:

١. ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾:

أ. الكلام في موقع الإضراب و﴿أَمْ﴾ منقطعة والكلام ناظر إلى قولهم: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي بل أعندهم خزائن رحمة ربك التي ينفق منها على من يشاء حتى يمنعوك منها بل هي له تعالى وهو أعلم حيث يجعل رسالته ويخص برحمته من يشاء.

ب. وتذييل الكلام بقوله: ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ لتأييد محصل الجملة أي ليس عندهم شيء من خزائن رحمته لأنه عزيز منيع جانبه لا يداخل في أمره أحد، ولا لهم أن يصرفوا رحمته عن أحد لأنه وهاب كثير الهبات.

٢. ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ﴾:

أ. ﴿أَمْ﴾ منقطعة، والأمر في قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾ للتعجيز والارتقاء الصعود، والأسباب المعارج والمناهج التي يتوسل بها إلى الصعود إلى السماوات ويمكن أن يراد بارتقاء الأسباب التسبيب بالعلل

والحيل الذي يحصل به لهم المنع والصرف.

ب. والمعنى: بل لهم ملك السماوات والأرض فيكون لهم أن يتصرفوا فيها فيمنعوا نزول الوحي السماوي إلى بشر أرضي فإن كان كذلك فليصعدوا معارج السماوات أو فليتسببوا الأسباب وليمنعوا من نزول الوحي عليك.

٣. ﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ﴾:

أ. الهزيمة الخذلان و﴿مِنَ الْأَحْزابِ﴾ بيان لقوله: ﴿جُنْدٌ ما﴾ و﴿ما﴾ للتقليل والتحقير، والكلام مسوق لتحقير أمرهم رغما لما يشعر به ظاهر كلامهم من التعزز والإعجاب بأنفسهم.

ب. يدل على ذلك تنكير ﴿جُنْدٌ﴾ وتتميمه بلفظة ﴿ما﴾ والإشارة إلى مكانتهم بهنالك الدال على البعيد وعدهم من الأحزاب المتحزبين على الرسل الذين قطع الله دابر الماضين منهم كما سيذكر ولذلك عد هذا الجند مهزوما قبل انهزامهم.

ج. والمعنى: هم جند ما أقلاء أذلاء منهزمون هنالك من أولئك الأحزاب المتحزبين على الرسل الذين كذبوهم فحق عليهم عقابي.

٥. تكذيب الأمم السابقة للرسل واستحقاقهم العقاب:

المقطع [٥] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٨٥»:

أ. ذو الأوتاد وصف فرعون والأوتاد جمع وتد وهو معروف، قيل: سمي بذي الأوتاد لأنه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها، وقيل: لأنه كان يعذب من غضب عليه من المجرمين بالأوتاد يوتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض فيعذبه وقيل: معناه ذو الجنود أوتاد الملك، وقيل: غير ذلك من الوجوه، ولا دليل على شيء منها يعول عليه.

ب. وأصحاب الأيكة قوم شعيب وقد تقدم في سورة الحجر والشعراء، وقوله: ﴿فَحَقَّ عِقابِ﴾ أي ثبت في حقهم واستقر فيهم عقابي فأهلكتهم.

٦. انتظار الكفار صيحة واحدة وإنكارهم ليوم الحساب:

المقطع [٦] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٥ـ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٨٥»:

١. ﴿وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ﴾:

أ. النظر الانتظار والفواق الرجوع والمهلة اليسيرة، والمعنى وما ينتظر هؤلاء المكذبون من أمتك إلا صيحة واحدة تقضي عليهم وتهلكهم ما لها من رجوع أو مهلة وهي عذاب الاستئصال.

ب. قالوا: والمراد من الصيحة صيحة يوم القيامة لأن أمة محمد ﷺ مؤخر عنهم العذاب إلى قيام الساعة، وقد عرفت في تفسير سورة يونس أن ظاهر آيات الكتاب يعطي خلاف ذلك فراجع.

٢. ﴿وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾ القط النصيب والحظ، وهذه الكلمة استعجال منهم للعذاب قبل يوم القيامة استهزاء بحديث يوم الحساب والوعيد بالعذاب فيه.

٧. أمر النبي بالصبر وذكر داود وتسخير الجبال والطير معه:

المقطع [٧] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧ـ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٨٩»:

١. لما حكى سبحانه عن المشركين رميهم النبي ﷺ ودعوته الحقة باختلاق وأنها ذريعة إلى التقدم والرئاسة وأنه لا مرجح له عليهم حتى يختص بالرسالة والإنذار، ثم استهزائهم بيوم الحساب وعذابه الذي ينذرون به، أمر النبي ﷺ بالصبر وأن لا يزلزله هفواتهم ولا يوهن عزمه وأن يذكر عدة من عباده الأوابين له الراجعين إليه فيما دهمهم من الحوادث، وهؤلاء تسعة من الأنبياء الكرام ذكرهم الله سبحانه: داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل عليه السلام، وبدأ بداود عليه السلام وذكر بعض قصصه.

٢. ﴿اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾:

أ. الأيد القوة وكان عليه السلام ذا قوة في تسبيحه تعالى يسبح ويسبح معه الجبال والطير وذا قوة في ملكه وذا قوة في علمه وذا قوة وبطش في الحروب وقد قتل جالوت الملك كما قصه الله في سورة البقرة.

ب. والأواب اسم مبالغة من الأوب بمعنى الرجوع والمراد به كثرة رجوعه إلى ربه.

٣. ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ﴾:

أ. الظاهر أن ﴿مَعَهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ وجملة ﴿مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ بيان لمعنى التسخير وقدم الظرف لتعلق العناية بتبعيتها لداود واقتدائها في التسبيح لكن قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾: يؤيد تعلق الظرف بسخرنا، وقد وقع في موضع آخر من كلامه تعالى: ﴿يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ سبأ:، والعشي والإشراق الرواح والصباح.

ب. ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ (إن) فيه للتعليل والآية وما عطف عليها من الآيات بيان لكونه عليه السلام ذا أيد في تسبيحه وملكه وعلمه وكونه أوابا إلى ربه.

٤. ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ المحشورة من الحشر بمعنى الجمع بإزعاج أي وسخرنا معه الطير مجموعة له تسبح معه.

٥. ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ استئناف يقرر ما تقدمه من تسبيح الجبال والطير أي كل من الجبال والطير أواب أي كثير الرجوع إلينا بالتسبيح فإن التسبيح من مصاديق الرجوع إليه تعالى، ويحتمل رجوع ضمير ﴿لَهُ﴾ إلى داود على بعد.

٦. ولم يكن تأييد داود عليه السلام في أصل جعله تعالى للجبال والطير تسبيحا فإن كل شيء مسبح لله سبحانه قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] بل في موافقة تسبيحها لتسبيحه وقرع تسبيحها أسماع الناس وقد تقدم كلام في معنى تسبيح الأشياء لله سبحانه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الآية وأنه بلسان القال دون لسان الحال.

٧. ﴿وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ﴾:

أ. قال الراغب: (الشد العقد القوي يقال شددت الشيء قويت عقده) فشد الملك من الاستعارة بالكناية والمراد به تقوية الملك وتحكيم أساسه بالهيبة والجنود والخزائن وحسن التدبير وسائر ما يتقوى به الملك.

ب. والحكمة في الأصل بناء نوع من الحكم والمراد بها المعارف الحقة المتقنة التي تنفع الإنسان وتكمله، وقيل: المراد النبوة، وقيل الزبور وعلم الشرائع، وقيل غير ذلك وهي وجوه ردية.

ج. وفصل الخطاب تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبة واحد لغيره وتمييز حقه من باطله وينطبق على القضاء بين المتخاصمين في خصامهم.

د. وقيل: المراد به الكلام القصد ليس بإيجازه مخلا ولا بإطنابه مملا، وقيل: فصل الخطاب قول أما بعد فهو عليه السلام أول من قال: أما بعد، والآية التالية ﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ تؤيد ما قدمناه.

٨. قصة الخصمين اللذين تسورا المحراب على داود:

المقطع [٨] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢١-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٩١»:

١. ﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ﴾:

أ. الخصم مصدر كالخصومة أريد به القوم الذي استقر فيهم الخصومة، والتسور الارتقاء إلى أعلى السور وهو الحائط الرفيع كالتسنم بمعنى الارتقاء إلى سنام البعير والتذري بمعنى الارتقاء إلى ذروة الجبل، وقد فسر المحراب بالغرفة والعلية، والاستفهام للتعجيب والتشويق إلى استماع الخبر.

ب. والمعنى هل أتاك يا محمد خبر القوم المتخاصمين إذ علوا سور المحراب محراب داود عليه السلام.

٢. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لفظة ﴿إِذْ﴾ هذه ظرف لقوله: ﴿تَسَوَّرُوا﴾ كما أن ﴿إِذْ﴾ الأولى ظرف لقوله: ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ ومحصل المعنى أنهم دخلوا على داود وهو في محرابه لا من الطريق العادي بل بتسوره بالارتقاء إلى سوره والورود عليه منه ولذا فزع منهم لما رآهم دخلوا عليه من غير الطريق العادي وبغير إذن.

٣. ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾:

أ. قال الراغب: (الفزع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع

ولا يقال: فزعت من الله كما يقال: خفت منه)

ب. وقد تقدم أن الخشية تأثير القلب بحيث يستتبع الاضطراب والقلق وهي رذيلة مذمومة إلا الخشية من الله سبحانه ولذا كان الأنبياء عليهمالسلام لا يخشون غيره قال تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وأن الخوف هو التأثير عن المكروه في مقام العمل بتهيئة ما يتحرز به من الشر ويدفع به المكروه لا في مقام الإدراك فليس برذيلة مذمومة لذاته بل هو حسن فيما يحسن الاتقاء قال تعالى خطابا لرسوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨]

ج. وإذا كان الفزع هو الانقباض والنفار الحاصل من الشيء المخوف كان أمرا راجعا إلى مقام العمل دون الإدراك فلم يكن رذيلة بذاته بل كان فضيلة عند تحقق مكروه ينبغي التحرز منه فلا ضير في نسبته إلى داود عليه السلام في قوله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ وهو من الأنبياء الذين لا يخشون إلا الله.

٤. ﴿قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ﴾ لما رأوا ما عليه داود عليه السلام من الفزع أرادوا تطييب نفسه وإسكان روعه فقالوا: ﴿لا تَخَفْ﴾ وهو نهي عن الفزع بالنهي عن سببه الذي هو الخوف ﴿خَصْمانِ بَغى﴾ أي نحن خصمان أي فريقان متخاصمان تجاوز بعضنا ظلما على بعض.

٥. ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ﴾ الشطط الجور أي فاحكم بيننا حكما مصاحبا للحق ولا تجر في حكمك ودلنا على وسط العدل من الطريق.

٦. ﴿إِنَّ هذا أَخِي﴾ بيان لخصومتهم وقوله: ﴿إِنَّ هذا أَخِي﴾ كلام لواحد من أحد الفريقين يشير إلى آخر من الفريق الآخر بأن هذا أخ له)، وبهذا يظهر فساد ما استدل بعضهم بالآية على أن أقل الجمع اثنان لظهور قوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ في كونهم جمعا ودلالة قوله: ﴿خَصْمانِ﴾ ﴿هذا أَخِي﴾ على الاثنينية، وذلك لجواز أن يكون في كل واحد من جانبي التثنية أكثر من فرد واحد قال تعالى: ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجواز أن يكون أصل الخصومة بين فردين ثم يلحق بكل منهما غيره لإعانته في دعواه.

٧. ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ﴾ النعجة الأنثى من الضأن، و﴿أَكْفِلْنِيها﴾ أي اجعلها في كفالتي وتحت سلطتي و﴿عَزَّنِي فِي الْخِطابِ﴾ أي غلبني فيه والباقي ظاهر.

٨. ﴿قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾:

أ. جواب داود عليه السلام، ولعله قضاء تقديري قبل استماع كلام المتخاصم الآخر فإن من الجائز أن يكون عنده من القول ما يكشف عن كونه محقا فيما يطلبه ويقترحه على صاحبه لكن صاحب النعجة الواحدة ألقى كلامه بوجه هيج الرحمة والعطوفة منه عليه السلام فبادر إلى هذا التصديق التقديري فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ﴾

ب. فاللام للقسم، والسؤال، على ما قيل، مضمن معنى الإضافة ولذا عدي إلى المفعول الثاني بإلى، والمعنى أقسم لقد ظلمك بسؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه.

٩. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾ من تمام كلام داود عليه السلام يقرر به كلامه الأول والخلطاء الشركاء المخالطون.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [قصص داود عليه السلام]، خلاصته:

أ. لم يقع من قصة داود في القرآن إلا إشارات: ذكره في جيش طالوت حين حارب جالوت، فقتل داود جالوت، فأتاه الله الملك بعد طالوت، والحكمة، وعلمه مما يشاء، وجعله خليفة في الأرض يحكم بين الناس، وآتاه فصل الخطاب، وأيد ملكه، وسخر معه الجبال والطير تسبح معه، وألان له الحديد ليعمل منه الدروع.

ب. أثنى الله على داود ثناءً جميلاً: عده من الأنبياء، وآتاه الزبور، وآتاه فضلاً وعلماً، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وجعله خليفة في الأرض، ووصفه بأنه أواب، وإن له عنده لزلفى وحسن مآب.

ج. التدبر في آيات الكتاب المتعرضة لقصة دخول المتخاصمين على داود لا يعطي أزيد من كونه امتحاناً منه تعالى له في ظرف التمثل، ليربيه تربية إلهية ويعلمه رسم القضاء العدل.

د. ما تضمنته غالب الروايات من قصة أوريا وامرأته مما يجل عنه الأنبياء ويتنزه عنه ساحتهم، وقد تقدم في بيان الآيات والبحث الروائي محصل الكلام في ذلك.

١١. أحاديث وآثار:

أ. روي في الدر المنثور، بطريق عن أنس وعن مجاهد والسدي وبعدة طرق عن ابن عباس قصة دخول الخصم على داود عليه السلام على اختلاف ما في الروايات وروى مثلها القمي في تفسيره، ورواها

في العرائس، وغيره وقد لخصها في مجمع البيان، كما يأتي: أن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضلت علي إبراهيم فاتخذته خليلا، وفضلت علي موسى فكلمته تكليما، فقال: يا داود إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله، فإن شئت ابتليتك فقال: نعم يا رب فابتلني، فبينا هو في محرابه ذات يوم إذ وقعت حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة، فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهواها وهم بتزويجها، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه، وأمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة، ففعل ذلك وقتل، فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها، فولد له منها سليمان، فبينا هو ذات يوم في محرابه، إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما، فقالا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض، إلى قوله، وقليل ما هم، فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك، فتنبه داود على أنهما ملكان، بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته، فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه.

ب. ثم قال في المجمع: (ونعم ما قال: إنه مما لا شبهة في فساده فإن ذلك مما يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه.

• أقول: والقصة مأخوذة من التوراة غير أن التي فيها أشنع وأفظع فعدلت بعض التعديل على ما سيلوح لك.

• ففي التوراة ما ملخصه: وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره، وتمشي على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدا، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقيل: إنها بتشبع امرأة أوريا الحتي، فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت عليه فاضطجع معها، وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود أنها حبلى، وكان أوريا في جيش لداود يحاربون بني عمون، فكتب داود إلى يوآب أمير جيشه، يأمره بإرسال أوريا إليه، ولما أتاه وأقام عنده أياما، كتب مكتوبا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت، ففعل به ذلك فقتل وأخبر داود بذلك، فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابنا، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب، فأرسل الرب ناثان النبي إلى داود، فجاء

إليه وقال له، كان رجلان في مدينة واحدة، واحد منهما غني والآخر فقير، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدا، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة، قد اقتناها ورباها فجاء ضيف إلى الرجل الغني، فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره، ليهيئ للضيف الذي جاء إليه، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ لضيفه، فحمي غضب داود على الرجل جدا وقال لناثان: حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك، وترد النعجة أربعة أضعاف، لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق، فقال ناثان لداود: أنت هو الرجل يعاتبك الرب ويقول: سأقيم عليك الشر من بيتك، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك، فيضطجع معهن قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس، جزاء لما فعلت بأوريا وامرأته، فقال داود لناثان: قد أخطأت إلى الرب، فقال ناثان لداود: الرب أيضا قد نقل عنك خطيئتك، لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر، أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك من المرأة يموت، فأمرض الله الصبي سبعة أيام ثم قبضه، ثم ولدت مرأة أوريا بعده لداود ابنه سليمان.

ج. وفي العيون، في باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل والمقالات: قال الرضا عليه السلام لابن جهم: وأما داود فما يقول من قبلكم فيه؟ قال: يقولون: إن داود كان يصلي في محرابه، إذ تصور له إبليس على صورة طير، أحسن ما يكون من الطيور، فقطع داود صلاته وقام يأخذ الطير إلى الدار، فخرج في أثره فطار الطير إلى السطح، فصعد في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حيان، فاطلع داود في أثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل، فلما نظر إليها هواها، وكان قد أخرج أوريا في بعض غزواته، فكتب إلى صاحبه أن قدم أوريا أمام التابوت، فقدم فظفر أوريا بالمشركين فصعب ذلك على داود، فكتب إليه ثانية أن قدمه أمام التابوت، فقدم فقتل أوريا وتزوج داود بامرأته، قال: فضرب الرضا عليه السلام يده على جبهته وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد نسبتم نبيا من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته، حتى خرج في أثر الطير ثم بالفاحشة ثم بالقتل، فقال: يا ابن رسول الله ما كانت خطيئته؟ فقال: ويحك إن داود عليه السلام إنما ظن، أنه ما خلق الله خلقا هو أعلم منه، فبعث الله عز وجل إليه الملكين فتسورا المحراب فقالا: خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط، واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب، فعجل داود على المدعى عليه فقال، لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، ولم يسأل المدعي البينة على ذلك، ولم يقبل على المدعى عليه فيقول له: ما تقول؟

فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه، ألا تسمع الله عز وجل يقول: ﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ـ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: يا ابن رسول الله ما قصته مع أوريا؟ قال الرضا عليه السلام: إن المرأة في أيام داود، كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج بعده أبدا، فأول من أباح الله عز وجل له، أن يتزوج بامرأة قتل بعلها داود عليه السلام، فتزوج بامرأة أوريا لما قتل وانقضت عدتها، فذلك الذي شق على الناس من قتل أوريا.

د. وفي أمالي الصدوق، بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام: أنه قال لعلقمة: إن رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط، ألم ينسبوا داود عليه السلام إلى أنه تبع الطير، حتى نظر إلى امرأة أوريا فهواها، وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل، ثم تزوج بها الحديث.

٩. استغفار داود وإنابته بعد الفتنة وغفران الله له:

المقطع [٩] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٩٣»:

١. ﴿وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ﴾:

أ. أي علم داود أنما فتناه بهذه الواقعة أي أنها إنما كانت فتنة فتناه بها والفتنة الامتحان، وقيل: ظن بمعناه المعروف الذي هو خلاف اليقين وذكر استغفاره وتوبته مطلقين يؤيد ما قدمناه ولو كان الظن بمعناه المعروف كان الاستغفار والتوبة على تقدير كونها فتنة واقعا وإطلاق اللفظة يدفعه، والخر على ما ذكره الراغب سقوط يسمع منه خرير والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو، والركوع، على ما ذكره، مطلق الانحناء.

ب. والإنابة إلى الله، على ما ذكره الراغب، الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل وهي من النوب بمعنى رجوع الشيء مرة بعد أخرى.

ج. والمعنى: وعلم داود أن هذه الواقعة إنما كانت امتحانا امتحناه وأنه أخطأ فاستغفر ربه، مما وقع منه، وخر منحنيا وتاب إليه.

د. وأكثر المفسرين تبعا للروايات على أن هؤلاء الخصم الداخلين على داود عليه السلام كانوا

ملائكة أرسلهم الله سبحانه إليه ليمتحنه وستعرف حال الروايات، لكن خصوصيات القصة كتسورهم المحراب ودخولهم عليه دخولا غير عادي بحيث أفزعوه، وكذا تنبهه بأنه إنما كان فتنة من الله له لا واقعة عادية، وقوله تعالى بعد: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى﴾ الظاهر في أن الله ابتلاه بما ابتلى لينبهه ويسدده في خلافته وحكمه بين الناس، كل ذلك يؤيد كونهم من الملائكة وقد تمثلوا له في صورة رجال من الإنس.

هـ. وعلى هذا فالواقعة تمثل فيه الملائكة في صورة متخاصمين لأحدهما نعجة واحدة يسألها آخر له تسع وتسعون نعجة وسألوه القضاء فقال لصاحب النعجة الواحدة: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ وكان قوله عليه السلام، لو كان قضاء منجزا، حكما منه في ظرف التمثل كما لو كان رآهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال وحكم فيهم بما حكم ومن المعلوم أن لا تكليف في ظرف التمثل كما لا تكليف في عالم الرؤيا وإنما التكليف في عالمنا المشهود وهو عالم المادة ولم تقع الواقعة فيه ولا كان هناك متخاصمان ولا نعجة ولا نعاج إلا في ظرف التمثل فكانت خطيئة داود عليه السلام في هذا الظرف من التمثل ولا تكليف هناك كخطيئة آدم عليه السلام في الجنة من أكل الشجرة قبل الهبوط إلى الأرض وتشريع الشرائع وجعل التكاليف، واستغفاره وتوبته مما صدر منه كاستغفار آدم وتوبته مما صدر منه وقد صرح الله بخلافته في كلامه كما صرح بخلافة آدم عليه السلام في كلامه وقد مر توضيح ذلك في قصة آدم عليه السلام من سورة البقرة في الجزء الأول من الكتاب.

و. وأما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشرا والقصة على ظاهرها فينبغي أن يؤخذ قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ قضاء تقديريا أي إنك مظلوم لو لم يأت خصيمك بحجة بينة، وإنما ذلك لحفظ على ما قامت عليه الحجة من طريقي العقل والنقل أن الأنبياء معصومون بعصمة من الله لا يجوز عليهم كبيرة ولا صغيرة، على أن الله سبحانه صرح قبلا بأنه آتاه الحكمة وفصل الخطاب ولا يلائم ذلك خطأه في القضاء.

٢. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ الزلفة والزلفى المنزلة والحظوة، والمآب المرجع، وتنكير ﴿لَزُلْفى﴾ و﴿مَآبٍ﴾ للتفخيم، والباقي ظاهر.

١٠. خلافة داود في الأرض والحكم بالحق:

المقطع [١٠] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٩٤»:

١. ﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. الظاهر أن الكلام بتقدير القول والتقدير فغفرنا له ذلك وقلنا يا داود.

ب. وظاهر الخلافة أنها خلافة الله فتنطبق على ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ومن شأن الخلافة أن يحاكي الخليفة من استخلفه في صفاته وأعماله فعلى خليفة الله في الأرض أن يتخلق بأخلاق الله ويريد ويفعل ما يريده الله ويحكم ويقضي بما يقضي به الله، والله يقضي بالحق، ويسلك سبيل الله ولا يتعداها.

ج. ولذلك فرع على جعل خلافته قوله: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ﴾ وهذا يؤيد أن المراد بجعل خلافته إخراجها من القوة إلى الفعل في حقه لا مجرد الخلافة الشأنية لأن الله أكمله في صفاته وآتاه الملك يحكم بين الناس.

د. وقول بعضهم: إن المراد بخلافته المجعولة خلافته ممن قبله من الأنبياء وتفريع قوله: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ﴾ لأن الخلافة نعمة عظيمة شكرها العدل أو أن المترتب هو مطلق الحكم بين الناس الذي هو من آثار الخلافة وتقييده بالحق لأن سداده به، تصرف في اللفظ من غير شاهد.

٢. ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾:

أ. العطف والمقابلة بينه وبين ما قبله يعطيان أن المعنى ولا تتبع في قضائك الهوى هوى النفس فيضلك عن الحق الذي هو سبيل الله فتفيد الآية أن سبيل الله هو الحق.

ب. قال بعضهم: إن في أمره عليه السلام بالحكم بالحق ونهيه عن اتباع الهوى تنبيها لغيره ممن يلي أمور الناس أن يحكم بينهم بالحق ولا يتبع الباطل وإلا فهو عليه السلام من حيث إنه معصوم لا يحكم إلا بالحق ولا يتبع الباطل.

ج. وفيه أن أمر تنبيه غيره بما وجه إليه من التكليف في محله لكن عصمة المعصوم وعدم حكمه إلا بالحق لا يمنع توجه التكليف بالأمر والنهي إليه فإن العصمة لا توجب سلب اختياره وما دام اختياره باقيا

جاز بل وجب توجه التكليف إليه كما يتوجه إلى غيره من الناس، ولو لا توجه التكليف إلى المعصوم لم يتحقق بالنسبة إليه واجب ومحرم ولم تتميز طاعة من معصية فلغا معنى العصمة التي هي المصونية عن المعصية.

٣. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾:

أ. تعليل للنهي عن اتباع الهوى بأنه يلازم نسيان يوم الحساب وفي نسيانه عذاب شديد والمراد بنسيانه عدم الاعتناء بأمره.

ب. وفي الآية دلالة على أن كل ضلال عن سبيل الله سبحانه بمعصية من المعاصي لا ينفك عن نسيان يوم الحساب.

١١. خلق السماوات والأرض بالحق:

المقطع [١١] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٩٦»:

١. ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾:

أ. لما انتهى الكلام إلى ذكر يوم الحساب عطف عنان البيان عليه فاحتج عليه بحجتين إحداهما ما ساقه في هذه الآية بقوله: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ﴾ وهو احتجاج من طريق الغايات إذ لو لم يكن خلق السماء والأرض وما بينهما، وهي أمور مخلوقة مؤجلة توجد وتفنى، مؤديا إلى غاية ثابتة باقية غير مؤجلة كان باطلا والباطل بمعنى ما لا غاية له ممتنع التحقق في الأعيان، على أنه مستحيل من الحكيم ولا ريب في حكمته تعالى.

ب. وربما أطلق الباطل وأريد به اللعب ولو كان المراد ذلك كانت الآية في معنى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]

ج. وقيل: الآية عطف على ما قبلها بحسب المعنى كأنه قيل: ولا تتبع الهوى لأنه يكون سببا لضلالك ولأنه تعالى لم يخلق العالم لأجل اتباع الهوى وهو الباطل بل خلقه للتوحيد ومتابعة الشرع.

د. وفيه أن الآية التالية: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا تلائم هذا المعنى.

٢. ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي خلق العالم باطلا لا غاية له وانتفاء يوم الحساب الذي يظهر فيه ما ينتجه حساب الأمور ظن الذين كفروا بالمعاد فويل لهم من عذاب النار.

٣. ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾:

أ. هذه هي الحجة الثانية على المعاد وتقريرها أن للإنسان كسائر الأنواع كمالا بالضرورة وكمال الإنسان هو خروجه في جانبي العلم والعمل من القوة إلى الفعل بأن يعتقد الاعتقادات الحقة ويعمل الأعمال الصالحة اللتين يهديه إليهما فطرته الصحيحة وهما الإيمان بالحق والعمل الصالح اللذين بهما يصلح المجتمع الإنساني الذي في الأرض.

ب. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المتقون هم الكاملون من الإنسان والمفسدون في الأرض بفساد اعتقادهم وعملهم وهم الفجار هم الناقصون الخاسرون في إنسانيتهم حقيقة، ومقتضى هذا الكمال والنقص أن يكون بإزاء الكمال حياة سعيدة وعيش طيب وبإزاء خلافه خلاف ذلك.

ج. ومن المعلوم أن هذه الحياة الدنيا التي يشتركان فيها هي تحت سيطرة الأسباب والعوامل المادية ونسبتها إلى الكامل والناقص والمؤمن والكافر على السواء فمن أجاد العمل ووافقته الأسباب المادية فاز بطيب العيش ومن كان على خلاف ذلك لزمه الشقاء وضنك المعيشة.

د. فلو كانت الحياة مقصورة على هذه الحياة الدنيوية التي نسبتها إلى الفريقين على السواء ولم تكن هناك حياة تختص بكل منهما وتناسب حاله كان ذلك منافيا للعناية الإلهية بإيصال كل ذي حق حقه وإعطاء المقتضيات ما تقتضيه، وإن شئت فقل: تسوية بين الفريقين وإلغاء ما يقتضيه صلاح هذا وفساد ذلك خلاف عدله تعالى.

هـ. والآية، كما ترى، لا تنفي استواء حال المؤمن والكافر وإنما قررت المقابلة بين من آمن وعمل صالحا وبين من لم يكن كذلك سواء كان غير مؤمن أو مؤمنا غير صالح ولذا أتت بالمقابلة ثانيا بين المتقين والفجار.

١٢. إنزال الكتاب المبارك للتدبر والتذكر:

المقطع [١٢] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ١٩٧»:

١. ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾:

أ. أي هذا كتاب من وصفه كذا وكذا، وتوصيفه بالإنزال المشعر بالدفعة دون التنزيل الدال على التدريج لأن ما ذكر من التدبر والتذكر يناسب اعتباره مجموعا لا نجوما مفرقة.

ب. والمقابلة بين ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ و﴿لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ تفيد أن المراد بضمير الجمع الناس عامة.

ج. والمعنى: هذا كتاب أنزلناه إليك كثير الخيرات والبركات للعامة والخاصة ليتدبره الناس فيهتدوا به أو تتم لهم الحجة وليتذكر به أولو الألباب فيهتدوا إلى الحق باستحضار حجته وتلقيها من بيانه.

١٣. سليمان والخيل والذكر والمسح:

المقطع [١٣] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٠-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٠٢»:

١. ﴿وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي وهبناه له ولدا والباقي ظاهر مما تقدم.

٢. ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ﴾ العشي مقابل الغداة وهو آخر النهار بعد الزوال، والصافنات على ما في المجمع (جمع الصافنة من الخيل وهي التي تقوم على ثلاث قوائم وترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر، قال: والجياد جمع جواد والياء هاهنا منقلبة عن واو والأصل جواد وهي السراع من الخيل كأنها تجود بالركض)

٣. ﴿فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ﴾:

أ. الضمير لسليمان، والمراد بالخير: الخيل، على ما قيل، فإن العرب تسمي الخيل خيرا وعن النبي ﷺ: الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة.

ب. وقيل: المراد بالخير المال الكثير وقد استعمل بهذا المعنى في مواضع من كلامه تعالى كقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]

٤. ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ قالوا: إن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ مضمن معنى الإيثار و﴿عَنْ﴾ بمعنى على، والمراد إني آثرت حب الخيل على ذكر ربي وهو الصلاة محبا إياه أو أحببت الخيل حبا مؤثرا إياه على ذكر ربي، فاشتغلت بما عرض علي من الخيل عن الصلاة حتى غربت الشمس.

٥. ﴿حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ﴾:

أ. الضمير على ما قالوا للشمس والمراد بتواريها بالحجاب غروبها واستتارها تحت حجاب الأفق، ويؤيد هذا المعنى ذكر العشي في الآية السابقة إذ لولا ذلك لم يكن غرض ظاهر يترتب على ذكر العشي.

ب. فمحصل معنى الآية أني شغلني حب الخيل، حين عرض الخيل علي، عن الصلاة حتى فات وقتها بغروب الشمس، وإنما كان يحب الخيل في الله ليتهيأ به للجهاد في سبيل الله فكان الحضور للعرض عبادة منه فشغلته عبادة عن عبادة غير أنه يعد الصلاة أهم.

ج. وقيل: ضمير ﴿تَوارَتْ﴾ للخيل وذلك أنه أمر بإجراء الخيل فشغله النظر في جريها حتى غابت عن نظره وتوارت بحجاب البعد، وقد تقدم أن ذكر العشي يؤيد المعنى السابق ولا دليل على ما ذكره من حديث الأمر بالجري من لفظ الآية.

٦. ﴿رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾:

أ. قيل: الضمير في ﴿رُدُّوها﴾ للشمس وهو أمر منه للملائكة برد الشمس ليصلي صلاته في وقتها، وقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾ أي شرع يمسح ساقيه وعنقه ويأمر أصحابه أن يمسحوا سوقهم وأعناقهم وكان ذلك وضوءهم ثم صلى وصلوا، وقد ورد ذلك في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

ب. وقيل: الضمير للخيل والمعنى قال: ردوا الخيل فلما ردت، شرع يمسح مسحا بسوقها وأعناقها ويجعلها مسبلة في سبيل الله جزاء ما اشتغل بها عن الصلاة.

ج. وقيل: الضمير للخيل والمراد بمسح أعناق الخيل وسوقها ضربها بالسيف وقطعها والمسح القطع فهو عليه السلام غضب عليها في الله لما شغلته عن ذكر الله فأمر بردها ثم ضرب بالسيف أعناقها وسوقها فقتلها جميعا.

• وفيه أن مثل هذا الفعل مما تتنزه ساحة الأنبياء عليهمالسلام عن مثله فما ذنب الخيل لو شغله

النظر إليها عن الصلاة حتى تؤاخذ بأشد المؤاخذة فتقتل تلك القتلة الفظيعة عن آخرها مع ما فيه من إتلاف المال المحترم.

• وأما استدلال بعضهم عليه برواية أبي بن كعب عن النبي ﷺ: في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾، قطع سوقها وأعناقها بالسيف ثم أضاف إليها وقد جعلها بذلك قربانا لله وكان تقريب الخيل مشروعا في دينه فليس من التقريب ذكر في الحديث ولا في غيره.

• على أنه عليه السلام لم يشتغل عن العبادة بالهوى بل شغلته عبادة عن عبادة كما تقدمت الإشارة إليه.

د. فالمعول عليه هو أول الوجوه إن ساعده لفظ الآية وإلا فالوجه الثاني.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ الآية، قيل: إن هذه الخيل، كانت شغلته عن صلاة العصر حتى فات وقتها: عن علي عليه السلام وفي رواية أصحابنا: أنه فاته أول الوقت.

ب. وفيه، قال ابن عباس: سألت عليا عن هذه الآية، فقال: ما بلغك فيها يا ابن عباس؟ قلت: سمعت كعبا يقول: اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة، فقال: ردوها علي يعني الأفراس وكانت أربعة عشر، فأمر بضرب سوقها وأعناقها بالسيف فقتلها، فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوما، لأنه ظلم الخيل بقتلها، فقال علي: كذب كعب، لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم، لأنه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس بالحجاب، فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس: ردوها علي فردت فصلى العصر في وقتها، وإن أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم، لأنهم معصومون مطهرون.

• أقول: وقول كعب الأحبار: فسلبه الله ملكه إشارة إلى حديث الخاتم الذي سنشير إليه.

ج. وفي الفقيه، روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: إن سليمان بن داود عرض عليه ذات يوم بالعشي الخيل، فاشتغل بالنظر إليها حتى توارت الشمس بالحجاب، فقال للملائكة: ردوا الشمس علي حتى أصلي صلاتي في وقتها، فردوها فقام ومسح ساقيه وعنقه بمثل ذلك، وكان ذلك وضوءهم للصلاة، ثم قام فصلى فلما فرغ غابت الشمس وطلعت النجوم، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾

إلى قوله: ﴿مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾

• أقول: والرواية لا بأس بها لو ساعد لفظ الآية أعني قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾ على ما فيها من المعنى، وأما مسألة رد الشمس فلا إشكال فيه بعد ثبوت إعجاز الأنبياء، وقد ورد ردها لغيره عليه السلام كيوشع بن نون وعلي بن أبي طالب عليه السلام في النقل المعتبر ولا يعبأ بما أورده الرازي في تفسيره الكبير.

• وأما عقره عليه السلام الخيل وضربه أعناقها بالسيف فقد روي في ذلك عدة روايات من طرق أهل السنة وأورده القمي في تفسيره، وكأنها تنتهي إلى كعب كما مر في رواية ابن عباس المتقدمة وكيف كان فلا يعبأ بها كما تقدم.

• وقد بلغ من إغراقهم في القصة أن رووا أن الخيل كانت عشرين ألف فرس ذات أجنة ومثله ما روي في قوله: ﴿حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ﴾ عن كعب أنه حجاب من ياقوتة خضراء محيط بالخلائق منه اخضرت السماء.

• ومثل هذه الروايات أعاجيب من القصص رووها في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ الآية كما روي: أنه ولد له ولد فأمر بإرضاعه، وحفظه في السحاب إشفاقا عليه من مردة الجن، وفي بعضها خوفا عليه من ملك الموت، فوقع يوما جسده على كرسيه ميتا.

• وما روي: أنه قال يوما: لأطوفن الليلة بمائة امرأة من نسائي، تلد لي كل واحدة منهن لي فارسا يجاهد في سبيل الله، ولم يستثن فلم تحمل منهن إلا واحدة بشق من ولد، وكان يحبه فخبأه له بعض الجن من ملك الموت، فأخذه من مخبئه وقبضه على كرسي سليمان.

• وما روي في روايات كثيرة تنتهي عدة منها إلى ابن عباس وهو يصرح في بعضها أنه أخذه عن كعب: أن ملك سليمان كان في خاتمه، فتخطفه شيطان منه فزال ملكه، وتسلط الشيطان على ملكه أياما، ثم أعاد الله الخاتم إليه، فعاد إلى ما كان عليه من الملك، وقد أوردوا في القصة أمورا ينبغي أن تنزه ساحة الأنبياء عليهم‌السلام عن ذكرها فضلا عن نسبتها إليهم، قالوا: وجلوس الشيطان على كرسي سليمان هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ الآية.

• فهذه كلها مما لا يعبأ بها على ما تقدمت الإشارة إليه وإنما هي مما لعبت بها أيدي الوضع.

١٤. ابتلاء سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه:

المقطع [١٤] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٤ـ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٠٥»:

١. ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ﴾:

أ. الجسد هو الجسم الذي لا روح فيه.

ب. قيل: المراد بالجسد الملقى على كرسيه هو سليمان نفسه لمرض امتحنه الله به وتقدير الكلام ألقيناه على كرسيه جسدا أي كجسد لا روح فيه من شدة المرض.

وفيه أن حذف الضمير من (ألقيناه) وإخراج الكلام على صورته التي في الآية الظاهرة في أن الملقى هو الجسد مخل بالمعنى المقصود لا يجوز حمل أفصح الكلام عليه.

ج. ولسائر المفسرين أقوال مختلفة في المراد من الآية تبعا للروايات المختلفة الواردة فيها والذي يمكن أن يؤخذ من بينها إجمالا أنه كان جسد صبي له أماته الله وألقى جسده على كرسيه، ولقوله: ﴿ثُمَّ أَنابَ قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ إشعار أو دلالة على أنه كان له عليه السلام فيه رجاء أو أمنية في الله فأماته الله سبحانه وألقاه على كرسيه فنبهه أن يفوض الأمر إلى الله ويسلم له.

٢. ﴿قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾:

أ. ظاهر السياق أن الاستغفار مرتبط بما في الآية السابقة من إلقاء الجسد على كرسيه، والفصل لكون الكلام في محل دفع الدخل كأنه لما قيل: ﴿ثُمَّ أَنابَ﴾ قيل: فما ذا قال؟ فقيل: ﴿قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾

ب. سؤال وإشكال: وربما استشكل في قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أن فيه ضنا وبخلا، فإن فيه اشتراط أن لا يؤتى مثل ما أوتيه من الملك لأحد من العالمين غيره، والجواب: ويدفعه أن فيه سؤال ملك يختص به لا سؤال أن يمنع غيره عن مثل ما آتاه ويحرمه ففرق بين أن يسأل ملكا اختصاصيا وأن يسأل الاختصاص بملك أوتيه.

١٥. تسخير الريح والشياطين لسليمان وعطاء الله الواسع:

المقطع [١٥] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً

حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٦-٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٠٥»:

١. ﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾:

أ. متفرع على سؤاله الملك وإخباره عن إجابة دعوته وبيان الملك الذي لا ينبغي لأحد غيره وهو تسخير الريح والجن.

ب. والرخاء بالضم اللينة والظاهر أن المراد بكون الريح تجري بأمره رخاء مطاوعتها لأمره وسهولة جريانها على ما يريده عليه السلام فلا يرد أن توصيف الريح هاهنا بالرخاء يناقض توصيفه في قوله: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [الأنبياء: ٨١] بكونها عاصفة، وربما أجيب عنه بأن من الجائز أن يجعلها الله رخوة تارة وعاصفة أخرى حسب ما أراد سليمان عليه السلام.

٢. ﴿حَيْثُ أَصابَ﴾ أي حيث شاء سليمان عليه السلام وقصد وهو متعلق بتجري.

٣. ﴿وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين من الجن كل بناء منهم يبني له في البر وكل غواص يعمل له في البحر فيستخرج اللئالئ وغيرها.

٤. ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾ الأصفاد جمع صفد وهو الغل من الحديد، والمعنى سخرنا له آخرين منهم مجموعين في الأغلال مشدودين بالسلاسل.

٥. ﴿هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾:

أ. أي هذا الذي ذكر من الملك عطاؤنا لك بغير حساب والظاهر أن المراد بكونه بغير حساب أنه لا ينفد بالعطاء والمن ولذا قيل: ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ أي أنهما يستويان في عدم التأثير فيه.

ب. وقيل: المراد بغير حساب أنك لا تحاسب عليه يوم القيامة، وقيل: المراد أن إعطاءه تفضل لا مجازاة وقيل غير ذلك.

٦. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ تقدم معناه.

١٦. دعاء أيوب ربه عند الضر وإجابة الله وشفاؤه:

المقطع [١٦] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ

رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤١-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٠٨»:

١. ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ﴾:

أ. دعاء منه عليه السلام وسؤال للعافية وأن يكشف عنه ربه ما أصابه من سوء الحال، ولم يصرح بما يريده ويسأله تواضعا وتذللا غير أن نداءه تعالى بلفظ ربي يشعر بأنه يناديه لحاجة.

ب. والنصب التعب، وقوله: ﴿إِذْ نادى﴾ بدل اشتمال من ﴿عَبْدَنا﴾ أو ﴿أَيُّوبَ﴾ وقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ إلخ حكاية ندائه.

ج. والظاهر من الآيات التالية أن مراده من النصب والعذاب ما أصابه من سوء الحال في بدنه وأهله وهو الذي ذكره عنه عليه السلام في سورة الأنبياء من ندائه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ بناء على شمول الضر مصيبته في نفسه وأهله ولم يشر في هذه السورة ولا في سورة الأنبياء إلى ذهاب ماله وإن وقع ذكر المال في الروايات.

د. والظاهر أن المراد من مس الشيطان له بالنصب والعذاب استناد نصبه وعذابه من الشيطان بنحو من السببية والتأثير وهو الذي يظهر من الروايات، ولا ينافي استناد المرض ونحوه إلى الشيطان استناده أيضا إلى بعض الأسباب العادية الطبيعية لأن السببين ليسا عرضيين متدافعين بل أحدهما في طول الآخر وقد أوضحنا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٩٦] في الجزء الثامن من الكتاب.

هـ. ولا دليل يدل على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان في الإنسان وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠] فنسبها أنفسها إليه، وقال حاكيا عن موسى عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] يشير إلى الاقتتال.

و. ولو أغمض عن الروايات أمكن أن يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك إلى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنبوا من الاقتراب منه وابتعادهم وطعنهم فيه أن لو كان نبيا لم تحط به البلية من كل جانب ولم يصر إلى ما صار إليه من العاقبة السوأى وشماتتهم واستهزائهم به.

ز. وقد أنكر في الكشاف، ما تقدم من الوجه قائلا: (لا يجوز أن يسلط الله الشيطان على أنبيائه عليه

السلام ليقضي من تعذيبهم وإتعابهم وطره ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب)

• وفيه أن الذي يخص الأنبياء وأهل العصمة أنهم لمكان عصمتهم في أمن من تأثير الشيطان في نفوسهم بالوسوسة، وأما تأثيره في أبدانهم وسائر ما ينسب إليهم بإيذاء أو إتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدل على امتناعه، وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى وهو يوشع النبي عليه السلام: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]

• ولا يلزم من تسلطه على نبي بالإيذاء والإتعاب لمصلحة تقتضيه كظهور صبره في الله سبحانه وأوبته إليه أن يقدر على ما يشاء فيمن يشاء من عباد الله تعالى إلا أن يشاء الله ذلك وهو ظاهر.

٢. ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾:

أ. وقوع الآية عقيب ندائه ومسألته يعطي أنه إيذان باستجابة دعائه وأن قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكاية لما أوحي إليه عند الكشف عن الاستجابة أو هو بإضمار القول والتقدير فاستجبنا له وقلنا: اركض.، وسياق الأمر مشعر بل كاشف عن أنه كان لا يقدر على القيام والمشي بقدميه وكان مصابا في سائر بدنه فأبرأ الله ما في رجليه من ضر وأظهر له عينا هناك وأمره أن يغتسل منها ويشرب حتى يبرأ ظاهر بدنه وباطنه ويتأيد بذلك ما سيأتي من الرواية.

ب. وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فركض برجله واغتسل وشرب فبرأه الله من مرضه.

٣. ﴿وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ ورد في الرواية أنه ابتلي فيما ابتلي بموت جميع أهله إلا امرأته وأن الله أحياهم له ووهبهم له ومثلهم معهم، وقيل: إنهم كانوا قد تفرقوا عنه أيام ابتلائه فجمعهم الله إليه بعد برئه وتناسلوا فكانوا مثلي ما كانوا عددا.

٤. ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ مفعول له أي فعلنا به ما فعلنا ليكون رحمة منا وذكرى لأولي الألباب يتذكرون به.

٥. وضع هنا مبحثا حول [قصة أيوب عليه السلام]، خلاصته:

أ. لم يذكر من قصة أيوب في القرآن إلا ابتلاؤه بالضر في نفسه وأولاده، ثم تفريج الله عنه بمعافاته وإيتائه أهله ومثلهم معهم، رحمة وذكرى للعابدين.

ب. أثنى الله عليه بأنه من زمرة الأنبياء من ذرية إبراهيم، ووصفه بالصبر، وأنه نعم العبد والأواب.

ج. الروايات الواردة في قصته متنوعة: منها ما يذكر ابتلاءه الشديد (كإهلاك ماله وولده، وابتلاء بدنه بالقرح والدود، وإخراجه من القرية) على لسان أبي بصير عن الصادق عليه السلام، وهذه الرواية تذكر تفاصيل لا تتناسب مع الطباع.

د. لكن هناك روايات أخرى عن أئمة أهل البيت تنفي ذلك وتنكره أشد الإنكار، وتؤكد أن الأنبياء معصومون مطهرون، لا يذنبون ولا يزيغون، وأن أيوب لم تتنن له رائحة، ولا قبحت له صورة، ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح، ولا تدود شيء من جسده، وإنما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره.

هـ. الحكمة في ابتلاء الأنبياء: لئلا يدعوا لهم الربوبية، وليستدلوا بذلك على أن الثواب من الله على ضربين: استحقاق واختصاص، ولئلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه، وليعلموا أنه يسقم من يشاء ويشفي من يشاء، وهو في ذلك عدل حكيم.

١٧. أمر أيوب بضرب الضغث ووفاء النذر وصبره الجميل:

المقطع [١٧] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢١٠»:

١. ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾:

أ. في المجمع: (الضغث ملء الكف من الشجرة والحشيش والشماريخ ونحو ذلك)، وكان عليه السلام قد حلف لئن عوفي أن يجلد امرأته مائة جلدة لأمر أنكره عليها على ما سيأتي من الرواية فلما عافاه الله تعالى أمره أن يأخذ بيده ضغثا بعدد ما حلف عليه من الجلدات فيضربها به ولا يحنث.

ب. وفي سياق الآية تلويح إلى ذلك وإنما طوي ذكر المرأة وسبب الحلف تأدبا ورعاية لجانبه.

٢. ﴿إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً﴾ أي فيما ابتليناه به من المرض وذهاب الأهل والمال، والجملة تعليل لقوله: ﴿وَاذْكُرْ﴾ أو لقوله: ﴿عَبْدَنا﴾ أي لتسميته عبدا وإضافته إليه تعالى، والأول أولى.

٣. ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ مدح له عليه السلام.

١٨ . ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار:

المقطع [١٨] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢١٢»:

١ . ﴿وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ﴾:

أ . مدحهم بتوصيفهم بأن لهم الأيدي والأبصار ويد الإنسان وبصره إنما يمدحان إذا كانا يد إنسان وبصر إنسان واستعملا فيما خلقا له وخدما الإنسان في إنسانيته فتكتسب اليد صالح العمل ويجري منها الخير على الخلق ويميز البصر طرق العافية والسلامة من موارد الهلكة ويصيب الحق ولا يلتبس عليه الباطل.

ب . فيكون كونهم أولي الأيد والأبصار كناية عن قوتهم في الطاعة وإيصال الخير وتبصرهم في إصابة الحق في الاعتقاد والعمل وقد جمع المعنيين في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣] فجعلهم أئمة والأمر والوحي لأبصارهم وفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأيديهم وإليه يئول ما في الرواية من تفسير ذلك بأولي القوة في العبادة والبصر فيها.

٢ . ﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾:

أ . الخالصة وصف قائم مقام موصوفه، والباء للسببية والتقدير بسبب خصلة خالصة، و﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بيان للخصلة والدار هي الدار الآخرة.

ب . والآية أعني قوله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ﴾ إلخ لتعليل ما في الآية السابقة من قوله: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ﴾ أو لقوله: ﴿عِبادَنا﴾ أو لقوله: ﴿وَاذْكُرْ﴾ وأوجه الوجوه أولها، وذلك لأن استغراق الإنسان في ذكرى الدار الآخرة وجوار رب العالمين وركوز همه فيها يلازم كمال معرفته في جنب الله تعالى وإصابة نظره في حق الاعتقاد والتبصر في سلوك سبيل العبودية والتخلص عن الجمود على ظاهر الحياة الدنيا وزينتها كما هو شأن أبنائها قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠]

ج. ومعنى الآية وإنما كانوا أولي الأيدي والأبصار لأنا أخلصناهم بخصلة خالصة غير مشوبة عظيمة الشأن هي ذكرى الدار الآخرة.

د. وقيل: المراد بالدار هي الدنيا والمراد بالآية بقاء ذكرهم الجميل في الألسن ما دامت الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] والوجه السابق أوجه.

٣. ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾:

أ. تقدم أن الاصطفاء يلازم الإسلام التام لله سبحانه، وفي الآية إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]

ب. والأخيار جمع خير مقابل الشر على ما قيل، وقيل: جمع خير بالتشديد أو التخفيف كأموات جمع ميت بالتشديد أو بالتخفيف.

١٩. ذكر إسماعيل واليسع وذي الكفل:

المقطع [١٩] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢١٣»:

١. ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ معناه ظاهر، ذكر سبحانه اسمهما في كلامه وعدهما من الأنبياء وأثنى عليهما وعدهما من الأخيار ([ص: ٤٨]) وعد ذا الكفل من الصابرين ([الأنبياء: ٨٥]) ولهما ذكر في الأخبار.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في البحار، عن الإحتجاج والتوحيد والعيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا عليه السلام فيما احتج به على جاثليق النصارى أن قال عليه السلام: إن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام، مشى على الماء وأحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، فلم يتخذه أمته ربا، الخبر.

ب. وعن قصص الأنبياء: الصدوق عن الدقاق عن الأسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسني قال: كتبت إلى أبي جعفر الثاني، أسأله عن ذي الكفل ما اسمه؟ وهل كان من المرسلين؟ فكتب عليه السلام بعث الله جل ذكره، مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، مرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا،

وإن ذا الكفل منهم، وكان بعد سليمان بن داود، وكان يقضي بين الناس كما كان يقضي داود، ولم يغضب إلا لله عز وجل وكان اسمه عويديا، وهو الذي ذكره الله جلت عظمته في كتابه حيث قال: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾

• أقول: وهناك روايات متفرقة أخر في قصصهما عليه السلام تركنا إيرادها لضعفها وعدم الاعتماد عليها.

٢٠. جزاء المتقين في جنات عدن وما فيها من نعيم:

المقطع [٢٠] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٤٩-٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢١٧»:

١. ﴿هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾:

أ. الإشارة بهذا إلى ما ذكر من قصص الأوابين من الأنبياء الكرام عليه السلام، والمراد بالذكر الشرف والثناء الجميل أي هذا الذي ذكر شرف وذكر جميل وثناء حسن لهم يذكرون به في الدنيا أبدا ولهم حسن مآب من ثواب الآخرة، كذا قالوا.

ب. وعلى هذا فالمراد بالمتقين هم المذكورون من الأنبياء بالخصوص أو عموم أهل التقوى وهم داخلون فيهم ويكون ذكر مآب الطاغين بعد من باب الاستطراد.

ج. والظاهر أن الإشارة بهذا إلى القرآن والمراد بالذكر ما يشتمل عليه من الذكر وفي الكلام عود إلى ما بدئ به في السورة من قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فهو فصل من الكلام يذكر فيه الله سبحانه ما في الدار الآخرة من ثواب المتقين وعقاب الطاغين.

٢. ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ المآب المرجع والتنكير للتفخيم، والمعنى ظاهر.

٣. ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ أي جنات استقرار وخلود وكون الأبواب مفتحة لهم كناية عن أنهم غير ممنوعين عن شيء من النعم الموجودة فيها فهي مهيأة لهم مخلوقة لأجلهم، وقيل: المراد أن أبوابها مفتحة لهم لا تحتاج إلى الوقوف وراءها ودقها، وقيل: المراد أنها تفتح بغير مفتاح وتغلق بغير

مغلاق، والآية وما بعدها بيان لحسن مآبهم.

٤. ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ﴾:

أ. أي حال كونهم جالسين فيها بنحو الاتكاء والاستناد جلسة الأعزة والأشراف.

ب. ﴿يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ﴾ أي يتحكمون فيها بدعوة الفاكهة وهي كثيرة والشراب فإذا دعيت فاكهة أو دعي شراب أجابهم المدعو فأتاهم من غير حاجة إلى من يحمله ويناوله.

٥. ﴿وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ﴾:

أ. الضمير للمتقين وقاصرات الطرف صفة قائمة مقام الموصوف والتقدير وعندهم أزواج قاصرات الطرف والمراد قصور طرفهن على أزواجهن يرضين بهم ولا يرون غيرهم أو هو كناية عن كونهن ذوات غنج ودلال.

ب. والأتراب الأقران أي أنهن أمثال لا يختلفن سنا أو جمالا أو أنهن أمثال لأزواجهن فكلما زادوا نورا وبهاء زدن حسنا وجمالا.

٦. ﴿هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من الجنة ونعيمها، والخطاب للمتقين ففي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب والنكتة فيه إظهار القرب منهم والإشراف عليهم ليكمل نعمهم الصورية بهذه النعمة المعنوية.

٧. ﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ﴾ النفاد الفناء والانقطاع، والآية من تمام الخطاب الذي في الآية السابقة على ما يعطيه السياق.

٢١. عذاب الطاغين في جهنم:

المقطع [٢١] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٥-٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢١٩»:

١. ﴿هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ الإشارة بهذا إلى ما ذكر من مقام المتقين أي هذا ما للمتقين من المآب، ويمكن أن يكون هذا اسم فعل أي خذ هذا، والباقي ظاهر.

٢. ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ الصلي دخول النار ومقاساة حرارتها أو اتباعها والمهاد، على ما

في المجمع،، الفراش الموطأ يقال: مهدت له تمهيدا مثل وطأت له توطئة، والآية وما بعدها تفسير لمآب الطاغين.

٣. ﴿هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ الحميم الحار الشديد الحرارة الغساق، على ما في المجمع،، قيح شديد النتن، وفسر بتفاسير أخر، وقوله: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ بيان لهذا، وقوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ دال على إكراههم وحملهم على ذوقه وتقديم المخبر عنه وجعله اسم إشارة يؤكد ذلك، والمعنى هذا حميم وغساق عليهم أن يذوقوه ليس إلا.

٤. ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ شكل الشيء ما يشابهه وجنسه والأزواج الأنواع والأقسام أي وهذا آخر من جنس الحميم والغساق أنواع مختلفة ليذوقوها.

٢٢. تحاور أهل النار وتخاصمهم وتلاعنهم:

المقطع [٢٢] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٥٩-٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢١٩»:

١. ﴿هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾:

أ. الآيات الثلاث، على ما يعطيه السياق، حكاية ما يجري بين التابعين والمتبوعين من الطاغين في النار من التخاصم والمجاراة.

ب. فقوله: ﴿هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ خطاب يخاطب به المتبوعون يشار به إلى التابعين الذين يدخلون النار مع المتبوعين فوجا، والاقتحام الدخول في الشيء بشدة وصعوبة.

٢. ﴿لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ﴾ جواب المتبوعين لمن يخاطبهم بقوله: ﴿هذا فَوْجٌ﴾ ومرحبا تحية للوارد معناه عرض رحب الدار وسعتها له فقولهم: ﴿لا مَرْحَباً بِهِمْ﴾ معناه نفي الرحب والسعة عنهم، وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ﴾ أي داخلوها ومقاسو حرارتها أو متبعوها تعليل لتحيتهم بنفي التحية.

٣. ﴿قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ نقل كلام التابعين وهم القائلون يردون إلى متبوعيهم نفي التحية ويذمون القرار في النار.

٤. ﴿قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾:

أ. لم يذكر تعالى جواب المتبوعين لقولهم: ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا﴾ وقد ذكره في سورة الصافات فيما حكى من تساؤلهم بقوله: ﴿قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ﴾: [الآية: ٣٠] فقولهم: ﴿رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ كلامهم بعد الانقطاع عن المخاصمة.

ب. وجملة ﴿مَنْ قَدَّمَ﴾ شرط وجزاء، والضعف المثل و﴿عَذاباً ضِعْفاً﴾ أي ذا ضعف ومثل أي ضعفين من العذاب.

٢٣. تحسر أهل النار على فقدان من كانوا يعدونهم أشراراً:

المقطع [٢٣] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٢-٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٢٠»:

١. ﴿وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ﴾ القائلون، على ما يعطيه السياق، مطلق أهل النار، ومرادهم بالرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار المؤمنون وهم في الجنة فيطلبهم أهل النار فلا يجدونهم فيها.

٢. ﴿أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ﴾ أي اتخذناهم سخريا في الدنيا فأخطأنا وقد كانوا ناجين أم عدلت أبصارنا فلا نراهم وهم معنا في النار.

٣. ﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ إشارة إلى ما حكي من تخاصمهم وبيان أن تخاصم أهل النار ثابت واقع لا ريب فيه وهو ظهور ما استقر في نفوسهم في الدنيا من ملكة التنازع والتشاجر.

٢٤. أمر النبي بالإنذار وتقرير التوحيد لله الواحد القهار:

المقطع [٢٤] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [ص: ٦٥-٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٢١»:

١. ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ في الآيتين أمر

النبي ﷺ بإبلاغ أنه منذر وأن الله تعالى واحد في الألوهية فقوله: ﴿إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ﴾ يفيد قصره في كونه منذرا ونفي سائر الأغراض التي ربما تتلبس به الدعوة بين الناس من طلب مال أو جاه كما يشير إليه ما في آخر الآيات من قوله: ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾

٢. ﴿وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ﴾:

أ. إلى آخر الآيتين إبلاغ لتوحيده تعالى بحجة يدل عليها ما أورد من صفاته المدلول عليها بأسمائه.

ب. فقوله: ﴿وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ﴾ نفي لكل إله، والإله هو المعبود بالحق، غيره تعالى وأما ثبوت ألوهيته تعالى فهو مسلم بانتفاء ألوهية غيره إذ لا نزاع بين الإسلام والشرك في أصل ثبوت الإله وإنما النزاع في أن الإله وهو المعبود بالحق هو الله تعالى أو غيره، على أن ما ذكر في الآيتين من الصفات متضمن لإثبات ألوهيته كما أنها حجة على انتفاء ألوهية غيره تعالى.

٣. ﴿الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾:

أ. يدل على توحده تعالى في وجوده وقهره كل شيء وذلك أنه تعالى واحد لا يماثله شيء في وجوده ولا تناهي كماله الذي هو عين وجوده الواجب فهو الغني بذاته وعلى الإطلاق وغيره من شيء فقير يحتاج إليه من كل جهة ليس له من الوجود وآثار الوجود إلا ما أنعم وأفاض فهو سبحانه القاهر لكل شيء على ما يريد وكل شيء مطيع له فيما أراد خاضع له فيما شاء.

ب. وهذا الخضوع الذاتي هو حقيقة العبادة فلو جاز أن يعبد شيء في الوجود عملا بأن يؤتى بعمل يمثل به العبودية والخضوع فهي عبادته سبحانه إذ كل شيء مفروض دونه فهو مقهور خاضع له لا يملك لنفسه ولا لغيره شيء ولا يستقل من الوجود وآثار الوجود بشيء فهو سبحانه الإله المعبود بالحق لا غير.

٤. ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾:

أ. يفيد حجة أخرى على توحده تعالى في الألوهية وذلك أن نظام التدبير الجاري في العالم برمته نظام واحد متصل غير متبعض ولا متجز وهو آية وحدة المدبر، وقد تقدم كرارا أن الخلق والتدبير لا ينفكان فالتدبير خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه والخالق الموجد للسماوات والأرض وما بينهما هو الله سبحانه، حتى عند الخصم، فهو تعالى ربها المدبر لها جميعا فهو وحده الإله الذي يجب أن يقصد بالعبادة لأن العبادة تمثيل عبودية العابد ومملوكيته تجاه مولوية المعبود ومالكيته وتصرفه في العابد بإفاضة النعمة

ودفع النقمة فهو سبحانه الإله في السماوات والأرض وما بينهما لا إله غيره، فافهم ذلك.

ب. ويمكن أن يكون قوله: ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾ بيانا لقوله: ﴿الْقَهَّارُ﴾ أو ﴿الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾

٥. ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾:

أ. يفيد حجة أخرى على توحده تعالى في الألوهية وذلك أنه تعالى عزيز لا يغلبه شيء بإكراهه على ما لم يرد أو بمنعه عما أراد فهو العزيز على الإطلاق وغيره من شيء ذليل عنده قانت له والعبادة إظهار للمذلة ولا يستقيم إلا قبال العزة ولا عزة لغيره تعالى إلا به.

ب. وأيضا غاية العبادة وهي تمثيل العبودية التقرب إلى المعبود ورفع وصمة البعد عن العبد العابد وهو مغفرة الذنب والله سبحانه هو المستقل بالرحمة التي لا تنفد خزائنها وهو الذي يورد عباده العابدين له في الآخرة دار كرامته فهو الغفار الذي يجب أن يعبد طمعا في مغفرته.

ج. ويمكن أن يكون قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ تلويحا إلى وجه الدعوة إلى التوحيد أو وجوب الإيمان به المفهوم بحسب المقام من قوله: ﴿وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ والمعنى أدعوكم إلى توحيده فآمنوا به لأنه العزيز الذي لا يشوبه ذلة الغفار للذنوب وهكذا يجب أن يكون الإله.

٢٥. النبأ العظيم وإعراض المشركين عنه ووحي النذارة:

المقطع [٢٥] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [ص: ٦٧-٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٢٣»:

١. ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾:

أ. مرجع الضمير ما ذكره من حديث الوحدانية في قوله: ﴿وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ﴾

ب. وقيل: الضمير للقرآن فهو النبأ العظيم الذي أعرضوا عنه، وهو أوفق لسياق الآيات السابقة المرتبطة بأمر القرآن، وأوفق أيضا لقوله الآتي: ﴿ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي حتى أخبرني به القرآن، وقيل: المراد به يوم القيامة وهو أبعد الوجوه.

٢. ﴿ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى جماعة الملائكة وكأن المراد

باختصامهم ما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلى آخر الآيات، وكأن المعنى إني ما كنت أعلم اختصام الملإ الأعلى حتى أوحى الله إلي ذلك في كتابه فإنما أنا منذر أتبع الوحي.

٣. ﴿إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تأكيد لقوله: ﴿إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ﴾ وبمنزلة التعليل لقوله: ﴿ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى﴾ والمعنى لم أكن أعلم ذلك لأن علمي ليس من قبل نفسي وإنما هو بالوحي وليس يوحى إلي إلا ما يتعلق بالإنذار.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام: في حديث يذكر فيه المعراج، عن النبي ﷺ: قال تعالى: يا محمد، قلت: لبيك يا رب، قال: فيما اختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: سبحانك لا علم لي إلا ما علمتني، قال: فوضع يده أي يد القدرة بين ثديي، فوجدت بردها بين كتفي، قال: فلم يسألني عما مضى ولا عما بقي إلا علمته، فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: في الكفارات والدرجات والحسنات، الحديث.

ب. وفي المجمع: (روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: قال لي ربي: أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا، قال: اختصموا في الكفارات والدرجات، فأما الكفارات فإسباغ الوضوء في السبرات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وأما الدرجات فإفشاء السلام وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام.

أ. • أقول: ورواه في الخصال، عن النبي ﷺ فجعل ما فسر به الكفارات تفسيرا للدرجات وبالعكس، وروي في الدر المنثور، حديث المجمع بطرق كثيرة عن عدة من الصحابة عن النبي ﷺ على اختلاف ما في الروايات.

ب. وكيفما كان فسياق الآية يأبى الانطباق على مضمون هذه الروايات ولا دليل يدل على كون الروايات في مقام تفسير الآية فلعل الاختصام المذكور فيها غير المذكور في الآية.

٢٦. خلق آدم من طين ونفخ الروح فيه وأمر الملائكة بالسجود:

المقطع [٢٦] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا

مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٢٤»:

١. ﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾:

أ. الذي يعطيه السياق أن الآية وما بعدها ليست تتمة لقول النبي ﷺ: ﴿إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ﴾ والشاهد عليه قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ فهو من كلامه تعالى يشير إلى زمان اختصام الملإ الأعلى والظرف متعلق بما تعلق به قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أو متعلق بمحذوف والتقدير (اذكر إذ قال ربك للملائكة) فإن قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله لهم: ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ متقارنان وقعا في ظرف واحد.

ب. وعلى هذا يؤول معنى قوله: ﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ﴾ إلى نحو من قولنا: اذكر وقتئذ قال ربك كذا وكذا فهو وقت اختصامهم.

ج. وجعل بعضهم قوله: ﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ﴾ مفسرا لقوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ثم أخذ الاختصام بعد تفسيره بالتقاول مجموع قوله تعالى للملائكة ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ﴾، وقوله لآدم وقول آدم لهم، وقوله تعالى لهم: ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً﴾) وقول إبليس وقوله تعالى له.

د. وقال على تقدير كون الاختصام بمعنى المخاصمة ودلالة قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على كون المخاصمة بين الملائكة أنفسهم لا بينهم وبين الله سبحانه أن إخباره تعالى لهم بقوله: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً﴾ كان بتوسط ملك من الملائكة وكذا قوله لآدم ولإبليس فيكون قولهم لربهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها﴾ وغيره قولا منهم للملك المتوسط ويقع الاختصام فيما بينهم أنفسهم.

• وأنت خبير بأن شيئا مما ذكره لا يستفاد من سياق الآيات.

٢. ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾:

أ. البشر الإنسان، قال الراغب: (البشر ظاهر الجلد والأدمة باطنه، كذا قال عامة الأدباء، قال: وعبر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الوبر، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع وثني فقال تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ﴾ وخص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر)

ب. وقد عد في الآية مبدأ خلق الإنسان الطين، وفي سورة الروم التراب وفي سورة الحجر صلصال من حمإ مسنون، وفي سورة الرحمن صلصال كالفخار ولا ضير فإنها أحوال مختلفة لمادته الأصلية التي منها خلق وقد أشير في كل موضع إلى واحدة منها.

٣. ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ تسوية الإنسان تعديل أعضائه بتركيب بعضها على بعض وتتميمها صورة إنسان تام، ونفخ الروح فيه جعله ذا نفس حية إنسانية وإضافة الروح إليه تعالى تشريفية وقوله: ﴿فَقَعُوا﴾ أمر من الوقوع وهو متفرع على التسوية والنفخ.

٢٧. سجود الملائكة واستكبار إبليس وطرده ولعنته:

المقطع [٢٧] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٣-٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٢٥»:

١. ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ظاهر الدلالة على سجود الملائكة له من غير استثناء.

٢. ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ أي استكبر إبليس فلم يسجد له وكان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه في سورة الحجر قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]

٣. ﴿قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ﴾ نسبة خلقه إلى اليد للتشريف بالاختصاص كما قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وتثنية اليد كناية عن الاهتمام التام بخلقه وصنعه فإن الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل فقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَ﴾ كقوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا﴾ [يس: ٧١]:

أ. وقيل: المراد باليد القدرة والتثنية لمجرد التأكيد كقوله: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ الملك: وقد وردت به الرواية.

ب. وقيل: المراد باليدين نعم الدنيا والآخرة، ويمكن أن يحتمل إرادة مبدأي الجسم والروح أو الصورة والمعنى أو صفتي الجلال والجمال من اليدين لكنها معان لا دليل على شيء منها من اللفظ.

٤. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾:

أ. استفهام توبيخ أي أكان عدم سجودك لأنك استكبرت أم كنت من الذين يعلون أي يعلو قدرهم أن يؤمروا بالسجود، ولذا قال بعضهم بالاستفادة من الآية أن العالين قوم من خلقه تعالى مستغرقون في التوجه إلى ربهم لا يشعرون بغيره تعالى.

ب. وقيل: المراد بالعلو الاستكبار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٨٣] والمعنى استكبرت حين أمرت بالسجدة أم كنت من قبل من المستكبرين؟

• ويدفعه أنه لا يلائم مقتضى المقام فإن مقتضاه تعلق الغرض باستعلام أصل استكباره لا تعيين كون استكباره قديما أو حديثا.

ج. وقيل: المراد بالعالين ملائكة السماء فإن المأمورين بالسجود هم ملائكة الأرض.

• ويدفعه ما في الآية من العموم.

٥. ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ تعليل عدم سجوده بما يدعيه من شرافة ذاته وأنه لكون خلقه من نار خير من آدم المخلوق من طين، وفيه تلويح أن الأمر الإلهي إنما يطاع إذا كان حقا لا لذاته، وليس أمره بالسجود له حقا، ويؤول إلى إنكار إطلاق ملكه تعالى وحكمته وهو الأصل الذي ينتهي إليه كل معصية فإن المعصية إنما تقع بالخروج عن حكم عبوديته تعالى ومملوكيته وبالإعراض عن كون تركها أولى من فعلها واقترافها.

٦. ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ الرجم الطرد، ويوم الدين يوم الجزاء.

٧. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ وفي سورة الحجر: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ [الآية: ٣٥] قيل في وجهه: لو كانت اللام للعهد فلا فرق بين التعبيرين، ولو كانت للجنس فكذلك أيضا لأن لعن غيره تعالى من الملائكة والناس عليه إنما يكون طردا له حقيقة وإبعادا من الرحمة إذا كان بأمر الله وبإبعاده من رحمته.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في نهج البلاغة الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرما على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته

المقربين، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه، وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه بأصله، فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وأدرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل، ألا ترون كيف صغره الله بتكبره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحورا، وأعد له في الآخرة سعيرا، الخطبة.

ب. وفي العيون، بإسناده إلى محمد بن عبيدة قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى لإبليس: ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَ﴾ قال: يعني بقدرتي وقوتي.

- أقول: وروي مثله في التوحيد، بإسناده عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام.
- وفي القصة روايات أخر أوردناها في ذيلها من سور البقرة والأعراف والحجر والإسراء فراجع.

٩. عن جوامع الجامع، عن النبي ﷺ: للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم.

- أقول: وروي مثله في الخصال، عن الصادق عليه السلام عن لقمان في وصيته لابنه.
- وروي أيضا من طرق أهل السنة، وفي بعض الروايات: ينازل من فوقه.

٢٨. إبليس وتهديده بإغواء بني آدم إلا المخلصين:

المقطع [٢٨] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧٩ـ٨٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٢٧»:

١. ﴿قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ظاهر تغير الغاية في السؤال والجواب حيث قال: ﴿إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فأجيب بقوله: ﴿إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أن ما أجيب إليه غير ما سأله فهو لا محالة آخر يوم يعصي فيه الناس ربهم وهو قبل يوم البعث، والظاهر أن المراد باليوم الظرف فتفيد إضافته إلى الوقت التأكيد.

٢. ﴿قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ الباء في ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ للقسم أقسم بعزته ليغوينهم أجمعين واستثنى منهم المخلصين وهم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا نصيب فيهم لإبليس ولا لغيره.

٣. ﴿قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

أ. جوابه تعالى لإبليس وهو يتضمن القضاء عليه وعلى من تبعه بالنار.

ب. فقوله: ﴿فَالْحَقُّ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدإ، والفاء لترتيب ما بعده على ما قبله، والمراد بالحق ما يقابل الباطل على ما يؤيده إعادة الحق ثانيا باللام والمراد به ما يقابل الباطل قطعا والتقدير فالحق أقسم به لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم، أو فقولي الحق لأملأن..

٤. ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملة معترضة تشير إلى حتمية القضاء وترد على إبليس ما يلوح إليه قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ إلخ من كون قوله تعالى وهو أمره بالسجود غير حق، وتقديم الحق في ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ وتحليته باللام لإفادة الحصر.

٥. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

أ. متن القضاء الذي قضى به وكأن المراد بقوله: ﴿مِنْكَ﴾ جنس الشياطين حتى يشمل إبليس وذريته وقبيله، وقوله: ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من الناس ذرية آدم.

ب. وقد أشبعنا الكلام في نظائر الآيات من سورة الحجر وفي القصة من سور البقرة والأعراف والإسراء فعليك بالرجوع إليها.

٢٩. النبي لا يسأل أجراً والقرآن ذكر للعالمين:

المقطع [٢٩] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٦-٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٢٨»:

١. ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾:

أ. رجوع إلى ما تقدم في أول السورة وخلال آياتها أن القرآن ذكر وأن ليس النبي ﷺ إلا منذرا لا غير ورد لما رموه بقولهم ﴿امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ﴾

ب. فقوله: ﴿ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي أجرا دنيويا من مال أو جاه، وقوله: ﴿وَما أَنَا مِنَ

ﭐلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي من أهل التكلف وهو التصنع والتحلي بما ليس له.

٢. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ أي القرآن ذكر عام للعالمين من جماعات الناس ومختلف الشعوب والأمم وغيرهم لا يختص بقوم دون قوم حتى يؤخذ على تلاوته مال وعلى تعليمه أجر بل هو للجميع.

٣٠. العلم بنبأ القرآن بعد حين:

المقطع [٣٠] من سورة ص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٢٨»:

أ. أي لتعلمن ما أخبر به القرآن من الوعد والوعيد وظهوره على الأديان وغير ذلك بعد حين أي بعد مرور زمان.

ب. قيل: المراد بعد حين يوم القيامة، وقيل: يوم الموت، وقيل: يوم بدر، ولا يبعد أن يقال: إن نبأه مختلف لا يختص بيوم من هذه الأيام حتى يكون هو المراد بل المراد به المطلق فلكل من أقسام نبئه حينه.

سورة الزمر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤١] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. يظهر من خلال آيات السورة أن المشركين من قومه ﷺ سألوه أن ينصرف عما هو عليه من التوحيد والدعوة إليه والتعرض لآلهتهم، وخوفوه بآلهتهم، فنزلت السورة ـ وهي قرينة سورة ص بوجه ـ وهي تؤكد الأمر بأن يخلص دينه لله سبحانه ولا يعبأ بآلهتهم، وأن يعلمهم أنه مأمور بالتوحيد وإخلاص الدين، الذي تواترت الآيات من طريق الوحي والعقل جميعاً عليه.

ب. ولذلك نراه سبحانه يعطف الكلام عليه في خلال السورة مرة بعد مرة: كقوله في مفتتح السورة: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلا للهِ الدِّينُ الْخالِصُ﴾، ثم يرجع إليه ويقول: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾

ج. ثم يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ إلخ، ثم يقول: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، ثم يقول: ﴿قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ﴾، ثم يقول: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الإشارات.

د. ثم عمم الاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية والألوهية من الوحي ومن طريق البرهان، وقايس بين المؤمنين والمشركين مقايسات لطيفة: فوصف المؤمنين بأجمل أوصافهم وبشرهم بما سيثيبهم في الآخرة مرة بعد مرة، وذكر المشركين وأنذرهم بما سيلحقهم من الخسران وعذاب الآخرة، مضافاً إلى ما يصيبهم في الدنيا من وبال أمرهم، كما أصاب الذين كذبوا من الأمم الدارجة من عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر.

هـ. ومن ثم وصفت السورة يوم البعث وخاصة في مختتمها بأوضح الوصف وأتمه.

و. والسورة مكية لشهادة سياق آياتها بذلك، وكأنها نزلت دفعة واحدة لما بين آياتها من الاتصال.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٠] الآيات العشر المنقولة تجمع الدعوة من طريق الوحي والحجة العقلية، بادئة

بالنبي ﷺ.

٢. الآيات [١١ ـ ٢٠]:

أ. في الآيات نوع رجوع إلى أول الكلام، وأمره ﷺ أن يبلغهم أن الذي يدعوهم إليه من التوحيد وإخلاص الدين لله هو مأمور به كأحدهم، ويزيد أنه مأمور أن يكون أول مسلم لما يدعو إليه، أي يكون بحيث يدعو إلى ما قد أسلم له وآمن به قبل، سواء أجابوا إلى دعوته أو ردوها.

ب. فعليهم أن لا يطمعوا فيه أن يخالف فعله قوله وسيرته دعوته، فإنه مجيب لربه مسلم له متصلب في دينه خائف منه أن يعصيه.

ج. ثم تنذر الكافرين وتبشر المؤمنين بما أعد الله سبحانه لكل من الفريقين من عذاب أو نعمة.

٣. الآيات [٢١ ـ ٣٧] عود إلى بدء من الاحتجاج على ربوبيته تعالى، والقول في اهتداء المهتدين وضلال الضالين، والمقايسة بين الفريقين وما ينتهي إليه عاقبة أمر كل منهما، وفيها معنى هداية القرآن.

٤. الآيات [٣٨ ـ ٥٢] في الآيات كرة أخرى على المشركين بالاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية، وأنه لا يصلح لها شركاؤهم، وأن الشفاعة التي يدعونها لشركائهم لا يملكها إلا الله سبحانه، وفيها أمور أخر متعلقة بالدعوة من موعظة وإنذار وتبشير.

٥. الآيات [٥٣ ـ ٦١] في الآيات أمره ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام واتباع ما أنزل الله، ويحذرهم عما يستعقبه إسرافهم على أنفسهم من الحسرة والندامة يوم لا ينفعهم ذلك، مع استكبارهم في الدنيا على الحق، والفوز والنجاة يومئذ للمتقين، والنار والخسران للكافرين، وفي لسان الآيات من الرأفة والرحمة ما لا يخفى.

٦. الآيات [٦٢ ـ ٧٥]:

أ. فصل من الآيات به تختم السورة، يذكر فيه خلاصة ما تنتجه الحجج المذكورة فيها قبل ذلك.

ب. ثم يؤمر ﷺ أن يخاطب المشركين بأن ما اقترحوا به عليه أن يعبد آلهتهم ليس إلا جهلاً بمقامه تعالى.

ج. ويذكر النبي ﷺ ما أوحي إليه وإلى الذين من قبله: لئن أشرك ليحبطن عمله.

د. ثم يذكر سبحانه أن المشركين ما عرفوه واجب معرفته، وإلا لم يرتابوا في ربوبيته لهم ولا عبدوا

غيره.

هـ. ثم يذكر تعالى نظام الرجوع إليه وهو تدبير جانب المعاد من الخلقة ببيان جامع كاف لا مزيد عليه، ويختم السورة بالحمد.

١. التنزيل والإخلاص والدين الخالص:

المقطع [١] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٣٢»:

١. ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾:

أ. ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبر لمبتدإ محذوف، وهو مصدر بمعنى المفعول فيكون إضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى موصوفها و﴿مِنَ اللهِ﴾ متعلق بتنزيل والمعنى هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم.

ب. وقيل: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ مبتدأ و﴿مِنَ اللهِ﴾ خبره ولعل الأول أقرب إلى الذهن.

٢. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾:

أ. عبر بالإنزال دون التنزيل كما في الآية السابقة لأن القصد إلى بيان كونه بالحق وهو يناسب مجموع ما نزل إليه من ربه.

ب. ﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء فيه للملابسة أي أنزلناه إليك متلبسا بالحق فما فيه من الأمر بعبادة الله وحده حق، وعلى هذا المعنى فرع عليه قوله: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ ﴿الدِّينَ﴾ والمعنى فإذا كان بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين لأن فيه ذلك.

ج. والمراد بالدين، على ما يعطيه السياق، العبادة ويمكن أن يراد به سنة الحياة وهي الطريقة المسلوكة في الحياة في المجتمع الإنساني، ويراد بالعبادة تمثيل العبودية بسلوك الطريق التي شرعها الله سبحانه والمعنى فأظهر العبودية لله في جميع شئون حياتك باتباع ما شرعه لك فيها والحال أنك مخلص له دينك لا تتبع غير ما شرعه لك.

٣. ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾:

أ. إظهار وإعلان لما أضمر وأجمل في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ وتعميم لما خصص في قوله: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ

مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ أي إن الذي أوحيناه إليك من إخلاص الدين لله واجب على كل من سمع هذا النداء، ولكون الجملة نداء مستقلا أظهر اسم الجلالة وكان مقتضى الظاهر أن يضمر ويقال: له الدين الخالص.

ب. ومعنى كون الدين الخالص له أنه لا يقبل العبادة ممن لا يعبده وحده سواء عبده وغيره أو عبد غيره وحده.

٤. أحاديث وآثار: أخرج ابن جرير من طريق جويبر عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ﴾ الآية، قال: أنزلت في ثلاثة أحياء: عامر وكنانة وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان ويقولون: الملائكة بناته فقالوا: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾

• أقول: الآية مطلقة تشمل عامة الوثنيين، وقول: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ قول جميعهم، وكذا القول بالولد ولا تصريح في الآية بالقول بكون الملائكة بنات فالحق أن الخبر من التطبيق.

٢. اتخاذ الأولياء لتقريبهم إلى الله وكذب المشركين:

المقطع [٢] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٣٣»:

١. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾:

أ. تقدم أن الوثنية يرون أن الله سبحانه أجل من أن يحيط به الإدراك الإنساني من عقل أو وهم أو حس فيتنزه تعالى عن أن يقع عليه توجه عبادي منا.

ب. فمن الواجب أن نتقرب إليه بالتقرب إلى مقربيه من خلقه وهم الذين فوض إليهم تدبير شئون العالم فنتخذهم أربابا من دون الله ثم آلهة نعبدهم ونتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند الله ويقربونا إليه زلفى وهؤلاء هم الملائكة والجن وقديسو البشر وهؤلاء هم الأرباب والآلهة بالحقيقة.

ج. أما الأصنام المصنوعة المنصوبة في الهياكل والمعابد فإنما هي تماثيل للأرباب والآلهة وليست في نفسها أربابا ولا آلهة غير أن الجهلة من عامتهم ربما لم يفرقوا بين الأصنام وأرباب الأصنام فعبدوا الأصنام كما يعبد الأرباب والآلهة وكذلك كانت عرب الجاهلية وكذلك الجهلة من عامة الصابئين ربما لم يفرقوا بين أصنام الكواكب والكواكب التي هي أيضا أصنام لأرواحها الموكلة عليها وبين أرواحها التي هي الأرباب

والآلهة بالحقيقة عند خاصتهم.

د. وكيف كان فالأرباب والآلهة هم المعبودون عندهم وهم موجودات ممكنة مخلوقة لله مقربة عنده مفوضة إليهم تدبير أمر العالم لكل بحسب منزلته وأما الله سبحانه فليس له إلا الخلق والإيجاد وهو رب الأرباب وإله الآلهة.

هـ. إذا تذكرت ما مر ظهر أن المراد بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ﴾ اتخاذهم أربابا يدبرون الأمر بأن يسندوا الربوبية وأمر التدبير إليهم لا إلى الله فهم المدبرون للأمر عندهم ويتفرع عليه أن يخضع لهم ويعبدوا لأن العبادة لجلب النفع أو لدفع الضرر أو شكر النعم وكل ذلك إليهم لتصديهم أمر التدبير دون الله سبحانه.

و. فالمراد باتخاذهم أولياء اتخاذهم أربابا، ولذا عقب اتخاذ الأولياء بذكر العبادة ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا﴾ فقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ﴾ مبتدأ خبره ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ﴾ والمراد بهم المشركون القائلون بربوبية الشركاء وألوهيتهم دون الله إلا ما ذهب إليه جهلتهم من كونه تعالى شريكا لهم في المعبودية.

٢. ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ تفسير لمعنى اتخاذ الأولياء من دون الله وهو حكاية لقولهم أو بتقدير القول أي يقولون: ما نعبدهم هؤلاء إلا ليقربونا بسبب عبادتنا لهم إلى الله تقريبا فهم عادلون منه تعالى إلى غيره، وإنما سموا مشركين لأنهم يشركون به تعالى غيره حيث يقولون بكونهم أربابا وآلهة للعالم وكونه تعالى ربا وإلها لأولئك الأرباب والآلهة، وأما الشركة في الخلق والإيجاد فلم يقل به لا مشرك ولا موحد.

٣. ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: ضمير الجمع للمشركين وأوليائهم أي إن الله يحكم بين المشركين وبين أوليائهم فيما هم فيه يختلفون، وقيل: الضميران راجعان إلى المشركين وخصمائهم من أهل الإخلاص في الدين المفهوم من السياق، والمعنى إن الله يحكم بينهم وبين المخلصين للدين.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ الكفار كثير الكفران لنعم الله أو كثير الستر للحق، وفي الجملة إشعار بل دلالة على أن الحكم يوم القيامة على المشركين لا لهم وأنهم مسيرون إلى العذاب، والمراد

بالهداية الإيصال إلى حسن العاقبة.

٣. نفي الولد عن الله وإثبات الوحدانية:

المقطع [٣] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٤-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٣٥»:

١. ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾:

أ. احتجاج على نفي قولهم: إن الله اتخذ ولدا، وقول بعضهم: الملائكة بنات الله، والقول بالولد دائر بين عامة الوثنية على اختلاف مذاهبهم وقد قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود على ما حكاه القرآن عنهم: عزير ابن الله وكأنها بنوة تشريفية.

ب. والبنوة كيفما كانت تقتضي شركة ما بين الابن والأب والولد والوالد فإن كانت بنوة حقيقية وهي اشتقاق شيء من شيء وانفصاله منه اقتضت الشركة في حقيقة الذات والخواص والآثار المنبعثة من الذات كبنوة إنسان لإنسان المقتضية لشركة الابن لأبيه في الإنسانية ولوازمها، وإن كانت بنوة اعتبارية كالبنوة الاجتماعية وهو التبني اقتضت الاشتراك في الشئونات الخاصة بالأب كالسؤدد والملك والشرف والتقدم والوراثة وبعض أحكام النسب، والحجة المسوقة في الآية تدل على استحالة اتخاذ الولد عليه تعالى بكلا المعنيين.

ج. فقوله: ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ شرط صدر بلو الدال على الامتناع للامتناع، وقوله: ﴿لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ أي لاختار لذلك مما يخلق ما يتعلق به مشيئته على ما يفيده السياق وكونه مما يخلق لكون ما عداه سبحانه خلقا له.

٢. ﴿سُبْحانَهُ﴾ تنزيه له سبحانه، وقوله: ﴿هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾:

أ. بيان لاستحالة الشرط وهو إرادة اتخاذ الولد ليترتب عليه استحالة الجزاء وهو اصطفاء ما يشاء مما يخلق وذلك لأنه سبحانه واحد في ذاته المتعالية لا يشاركه فيها شيء ولا يماثله فيها أحد لأدلة التوحيد، وواحد في صفاته الذاتية التي هي عين ذاته كالحياة والعلم والقدرة، وواحد في شئونه التي هي من لوازم

ذاته كالخلق والملك والعزة والكبرياء لا يشاركه فيها أحد.

ب. وهو سبحانه قهار يقهر كل شيء بذاته وصفاته فلا يستقل قبال ذاته ووجوده شيء في ذاته ووجوده ولا يستغني عنه شيء في صفاته وآثار وجوده فالكل أذلاء داخرون بالنسبة إليه مملوكون له فقراء إليه.

ج. فمحصل حجة الآية قياس استثنائي ساذج يستثني فيه نقيض المقدم لينتج نقيض التالي وهو نحو من قولنا: لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى لذلك بعض من يشاء من خلقه لكن إرادته اتخاذ الولد ممتنعة لكونه واحدا قهارا فاصطفاؤه لذلك بعض من يشاء من خلقه ممتنع.

د. وقد أغرب بعضهم في تقريب حجة الآية فقال: حاصل المعنى لو أراد سبحانه اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع أعني الاتخاذ لكن لا يجوز للباري إرادة ممتنعة لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض، وأصل الكلام لو اتخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الألوهية فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لامتنع أن يريده ليكون أبلغ وأبلغ ثم حذف هذا الجواب وجيء بدله لاصطفى تنبيها على أن الممكن هذا لا الأول وأنه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز اتخاذ الولد عليه سبحانه وتعالى شأنه عن ذلك فقد تحقق التلازم وحق نفي اللازم وإثبات الملزوم دون صعوب

- وكأنه مأخوذ من قول الزمخشري في الكشاف، في تفسير الآية حيث قال: يعني لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالا ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولاده جهلا منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة لكنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادا ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته غالين في الكفر) انتهى

- وأنت خبير أن سياق الآية لا يلائم هذا البيان، على أنه لا يدفع قول القائل بالتبني التشريفي كقول اليهود عزير ابن الله فإنهم لا يريدون بالتبني إلا اصطفاء من يشاء من خلقه.

هـ. وهناك بعض تقريبات أخر منهم لا جدوى فيه تركنا إيراده.

٣. ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾:

أ. لا يبعد أن يكون ما فيه من الإشارة إلى الخلق والتدبير بيانا لقهاريته تعالى لكن اتصال الآيتين وارتباطهما مضمونا وانتهاء الثانية إلى قوله: ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ كالصريح في أن ذلك استئناف بيان للاحتجاج على توحيد الربوبية.

ب. فالآية والتي تليها مسوقتان لتوحيد الربوبية وقد جمع فيهما بين الخلق والتدبير لما مر مرارا أن إثبات وحدة الخالق لا يستلزم عند الوثني نفي تعدد الأرباب والآلهة لأنهم لا ينكرون انحصار الخلق والإيجاد فيه تعالى لكنه سبحانه فيما يحتج على توحده في الربوبية والألوهية في كلامه يجمع بين الخلق والتدبير إشارة إلى أن التدبير غير خارج من الخلق بل هو خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه وعند ذلك يتم الاحتجاج على رجوع التدبير إليه تعالى وانحصاره فيه برجوع الخلق إليه.

ج. ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ إشارة إلى الخلقة، وفي قوله: ﴿بِالْحَقِ﴾، والباء للملابسة، إشارة إلى البعث فإن كون الخلقة حقا غير باطل يلازم كونها لغاية تقصدها وتنساق إليها وهي البعث قال تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾، ص:.

٤. ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ قال في المجمع: (التكوير طرح الشيء بعضه على بعض) فالمراد طرح الليل على النهار وطرح النهار على الليل فيكون من الاستعارة بالكناية قريب المعنى من قوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ [الرعد: ٣] والمراد استمرار توالي الليل والنهار بظهور هذا على ذاك ثم ذاك على هذا وهكذا، وهو من التدبير.

٥. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي سخر الشمس والقمر فأجراهما للنظام الجاري في العالم الأرضي إلى أجل مسمى معين لا يتجاوزانه.

٦. ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾:

أ. يمكن أن يكون في ذكر الاسمين إشارة إلى ما يحتج به على توحده تعالى في الربوبية والألوهية فإن العزيز الذي لا يعتريه ذلة إن كان فهو الله وهو المتعين للعبادة لا غيره الذي تغشاه الذلة وتغمره الفاقة وكذا الغفار للذنوب إذا قيس إلى من ليس من شأنه ذلك.

ب. ويمكن أن يكون ذكرهما تحضيضا على التوحيد والإيمان بالله الواحد والمعنى أنبهكم أنه هو

العزيز فآمنوا به واعتزوا بعزته، الغفار فآمنوا به يغفر لكم.

٤. خلق الإنسان من نفس واحدة وخلق الأزواج والظلمات الثلاث:

المقطع [٤] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٣٨»:

١. ﴿خلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾:

أ. الخطاب لعامة البشر، والمراد بالنفس الواحدة، على ما تؤيده نظائره من الآيات، آدم أبو البشر، والمراد بزوجها امرأته التي هي من نوعها وتماثلها في الإنسانية، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي بحسب رتبة الكلام.

ب. والمراد أنه تعالى خلق هذا النوع وكثر أفراده من نفس واحدة وزوجها.

٢. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾:

أ. هي الإبل والبقر والضأن والمعز، وكونها ثمانية أزواج باعتبار انقسامها إلى الذكر والأنثى.

ب. وتسمية خلق الأنعام في الأرض إنزالا لها باعتبار أنه تعالى يسمي ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن إنزالا لها من خزائنه التي هي عنده ومن الغيب إلى الشهادة قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

٣. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾:

أ. بيان لكيفية خلق من تقدم ذكره من البشر والأنعام، وفي الخطاب تغليب أولي العقل على غيرهم، والخلق من بعد الخلق التوالي والتوارد كخلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وهكذا، والظلمات الثلاث هي ظلمة البطن والرحم والمشيمة كما قيل ورواه في المجمع: (عن أبي جعفر عليه السلام.

ب. وقيل: المراد بها ظلمة الصلب والرحم والمشيمة وهو خطأ فإن قوله: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ﴾ صريح في أن المراد بالظلمات الثلاث ما في بطون النساء دون أصلاب الرجال.

٤. ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ أي الذي وصف لكم في الآيتين بالخلق والتدبير هو ربكم دون غيره لأن الرب هو المالك الذي يدبر أمر ما ملكه وإذ كان خالقا لكم ولكل شيء دونكم وللنظام الجاري فيكم فهو

الذي يملككم ويدبر أمركم فهو ربكم لا غير.

٥. ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي على جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة فهو المليك على الإطلاق) وتقديم الظرف يفيد الحصر، والجملة خبر بعد خبر لقوله: ﴿ذٰلِكُمُ اللهُ﴾ كما أن قوله: ﴿لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كذلك، وانحصار الألوهية فيه تعالى فرع انحصار الربوبية فيه لأن الإله إنما يعبد لأنه رب مدبر فيعبد إما خوفا منه أو رجاء فيه أو شكرا له.

٦. ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وهو ربكم الذي خلقكم ودبر أمركم وهو المليك عليكم.

٥. غنى الله عن عباده وكراهيته للكفر ورضاه بالشكر:

المقطع [٥] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٣٩»:

١. ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ﴾:

أ. مسوق لبيان أن الدعوة إلى التوحيد وإخلاص الدين لله سبحانه ليست لحاجة منه تعالى إلى إقبالهم إليه بالانصراف عن عبادة غيره بل لعناية منه تعالى بهم فيدعوهم إلى سعادتهم اعتناء بها كما يعتني برزقهم فيفيض النعم عليهم وكما يعتني بحفظهم فيلهمهم أن يدفعوا الآفات عن أنفسهم.

ب. فقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ الخطاب لعامة المكلفين أي إن تكفروا بالله فلم توحدوه فإنه غني عنكم لذاته لا ينتفع بإيمانكم وطاعتكم ولا يتضرر بكفركم ومعصيتكم فالنفع والضرر إنما يتحققان في مجال الإمكان والحاجة وأما الواجب الغني بذاته فلا يتصور في حقه انتفاع ولا تضرر.

٢. ﴿وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ﴾:

أ. دفع لما ربما يمكن أن يتوهم من قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ إنه إذا لم يتضرر بكفر ولم ينتفع بإيمان فلا موجب له أن يريد منا الإيمان والشكر فدفعه بأن تعلق العناية الإلهية بكم يقتضي أن لا يرضى بكفركم وأنتم عباده.

ب. والمراد بالكفر كفر النعمة الذي هو ترك الشكر بقرينة مقابلة قوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ

لَكُمْ﴾ وبذلك يظهر أن التعبير بقوله: ﴿لِعِبادِهِ﴾ دون أن يقول: لكم للدلالة على علة الحكم أعني سبب عدم الرضا.

ج. والمحصل أنكم عباد مملوكون لله سبحانه منغمرون في نعمه ورابطة المولوية والعبودية وهي نسبة المالكية والمملوكية لا تلائمه أن يكفر العبد بنعمة سيده فينسى ولاية مولاه ويتخذ لنفسه أولياء من دونه ويعصي المولى ويطيع عدوه وهو عبد عليه طابع العبودية لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا.

٣. ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾:

أ. الضمير للشكر نظير قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] والمعنى وإن تشكروا الله بالجري على مقتضى العبودية وإخلاص الدين له يرض الشكر لكم وأنتم عباده، والشكر والكفر المقابل له ينطبقان على الإيمان والكفر المقابل له.

ب. ومما تقدم يظهر أن العباد في قوله: ﴿وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ﴾ عام يشمل الجميع فقول بعضهم: إنه خاص أريد به من عناهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] وهم المخلصون، أو المعصومون على ما فسره الزمخشري، ولازمه أن الله سبحانه رضي الإيمان لمن آمن ورضي الكفر لمن كفر إلا المعصومين فإنه أراد منهم الإيمان، وصانهم عن الكفر سخيف جدا، والسياق يأباه كل الإباء، إذ الكلام مشعر حينئذ برضاه الكفر للكافر فيؤول معنى الكلام إلى نحو من قولنا: إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى للأنبياء مثلا الكفر لرضاه لهم الإيمان وإن تشكروا أنتم يرضه لكم وإن تكفروا يرضه لكم وهذا، كما ترى، معنى رديء ساقط وخاصة من حيث وقوعه في سياق الدعوة.

ج. على أن الأنبياء مثلا داخلون فيمن شكر وقد رضي لهم الشكر والإيمان ولم يرض لهم الكفر فلا موجب لإفرادهم بالذكر وقد ذكر الرضا عمن شكر.

٤. ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أي لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى أي لا يؤاخذ بالذنب إلا من ارتكبه.

٥. ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أي هذا في الدنيا من كفر أو شكر ثم يبعثكم الله فيظهر لكم حقيقة أعمالكم ويحاسبكم على ما في قلوبكم وقد تكرر الكلام

في معاني هذه الجمل فيما تقدم.

٦. وضع هنا مبحثا حول [معنى الرضا والسخط من الله]، خلاصته:

أ. الرضا من المعاني التي يتصف بها أولو الشعور والإرادة، ويقابله السخط، وكلاهما وصفان وجوديان، الرضا يتعلق بالمعاني (الأوصاف والأفعال) دون الذوات، يقال: رضي له كذا، ورضي بكذا، وما يتعلق بالذوات فإنما هو بعناية وما ويؤول إلى المعنى.

ب. الرضا ليس الإرادة بعينها، لأن الإرادة تتعلق بأمر غير واقع، والرضا يتعلق بالأمر بعد وقوعه أو فرض وقوعه، فكون الإنسان راضياً بفعل كذا هو كونه بحيث يلائم ذلك الفعل ولا ينافره، وهو وصف قائم بالراضي دون المرضي.

ج. الرضا لكونه متعلقاً بالأمر بعد وقوعه، كان متحققاً بتحقق المرضي، حادثاً بحدوثه، فيمتنع أن يكون صفة من الصفات القائمة بذاته لتنزهه تعالى عن أن يكون محلاً للحوادث، فما نسب إليه تعالى من الرضا هو صفة فعل قائم بفعله، منتزع عنه، كالرحمة والغضب والإرادة والكراهة.

د. فرضاه تعالى عن أمر من الأمور هو ملائمة فعله تعالى له، وإذ كان فعله قسمين (تكويني وتشريعي)، انقسم الرضا منه أيضاً إلى تكويني وتشريعي، فكل أمر تكويني (أراده الله وأوجده) فهو مرضي له رضا تكوينياً، وكل أمر تشريعي (تعلق به التكليف من اعتقاد أو عمل) فهو مرضي له رضا تشريعياً، بمعنى ملاءمة تشريعه للمأتي به.

هـ. أما ما تعلق به نهي (كالكفر والفسوق) فلا يتعلق بها رضا البتة، لعدم ملاءمة التشريع لها، قال تعالى: ﴿وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]

٦. دعاء الإنسان عند الضر ونسيانه النعمة وشركه بالله:

المقطع [٦] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٤١»:

١. ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾:

أ. الإنابة الرجوع، والتخويل العطية العظيمة على وجه الهبة وهي المنحة، على ما في المجمع.

ب. لما مر في الآية السابقة ذكر من كفر النعمة وأن الله سبحانه على غناه من الناس لا يرضى لهم ذلك نبه في هذه الآية على أن الإنسان كفور بالطبع مع أنه يعرف ربه بالفطرة ولا يلبث عند الاضطرار دون أن يرجع إليه فيسأله كشف ضره كما قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

ج. فقوله: ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ أي إذا أصاب الإنسان ضر من شدة أو مرض أو قحط ونحوه دعا ربه، وهو الله يعترف عند ذلك بربوبيته، راجعا إليه معرضا عمن سواه يسأله كشف الضر عنه.

٢. ﴿ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. أي وإذا أعطاه ربه سبحانه بعد كشف الضر نعمة منه اشتغل به مستغرقا ونسي الضر الذي كان يدعو إليه أي إلى كشفه من قبل إعطاء النعمة.

ب. فما في قوله: ﴿ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾ موصولة والمراد به الضر وضمير ﴿إِلَيْهِ﴾ له وقيل: مصدرية والضمير للرب سبحانه والمعنى نسي دعاءه إلى ربه من قبل الإعطاء، وقيل: موصولة والمراد به الله سبحانه وهو أبعد الوجوه.

٣. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾:

أ. الأنداد الأمثال والمراد بها، على ما قيل، الأصنام وأربابها، واللام في ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ للعاقبة، والمعنى واتخذ الله أمثالا يشاركونه في الربوبية والألوهية على مزعمته لينتهي به ذلك إلى إضلال الناس عن سبيل الله لأن الناس مطبوعون على التقليد يتشبه بعضهم ببعض وفي الفعل دعوة كالقول.

ب. ولا يبعد أن يراد بالأنداد مطلق الأسباب التي يعتمد عليها الإنسان ويطمئن إليها ومن جملتها أرباب الأصنام عند الوثني وذلك لأن الآية تصف الإنسان وهو أعم من المشرك نعم مورد الآية هو الكافر.

٤. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ﴾ أي تمتع تمتعا قليلا لا يدوم لك لأنك من أصحاب النار مصيرك إليها، وهو أمر تهديدي في معنى الإخبار أي إنك إلى النار ولا يدفعها عنك تمتعك بالكفر أياما قلائل.

٧. فضل القنوت في الليل وعدم استواء العالم والجاهل:

المقطع [٧] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٤٢»:

١. ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾:

أ. الآية لا تخلو عن مناسبة واتصال بقوله السابق: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ فإن فحواه أن الكافر والشاكر لا يستويان ولا يختلطان فأوضح ذلك في هذه الآية بأن القانت الذي يخاف العذاب ويرجو رحمة لا يساوي غيره.

ب. فقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أحد شقي الترديد محذوف والتقدير أهذا الذي ذكرناه خير أم من هو قانت؟

ج. والقنوت، على ما ذكره الراغب، لزوم الطاعة مع الخضوع، والآناء جمع أنى وهو الوقت، و﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ أي عذاب الله في الآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقوله: ﴿يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ هو وما قبله يجمعان خوف العذاب ورجاء الرحمة، ولم يقيد الرحمة بالآخرة فإن رحمة الآخرة ربما وسعت الدنيا.

د. والمعنى أهذا الكافر الذي هو من أصحاب النار خير أم من هو لازم للطاعة والخضوع لربه في أوقات الليل إذا جن عليه ساجدا في صلاته تارة قائما فيها أخرى يحذر عذاب الآخرة ويرجو رحمة ربه؟ أي لا يستويان.

٢. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ العلم وعدمه مطلقان لكن المراد بهما بحسب ما ينطبق على مورد الآية العلم بالله وعدمه فإن ذلك هو الذي يكمل به الإنسان وينتفع بحقيقة معنى الكلمة ويتضرر بعدمه، وغيره من العلم كالمال ينتفع به في الحياة الدنيا ويفنى بفنائها.

٣. ﴿إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أي ذوو العقول وهو في مقام التعليل لعدم تساوي الفريقين بأن أحد الفريقين يتذكر حقائق الأمور دون الفريق الآخر فلا يستويان بل يترجح الذين يعلمون على غيرهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، والعلل، بإسناده‌ها عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً﴾، قال: يعني صلاة الليل.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ قال نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولو الألباب.

• أقول: وهذا المعنى مروي بطرق كثيرة عن الباقر والصادق عليه السلام وهو جري وليس من التفسير في شيء.

ج. أخرج ابن سعد في طبقاته وابن مردويه عن ابن عباس: في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً﴾ قال: نزلت في عمار بن ياسر.

• أقول: وروي مثله عن جويبر عن عكرمة، وروي عن جويبر عن ابن عباس أيضا: أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسالم مولى أبي حذيفة، وروي عن أبي نعيم وابن عساكر عن ابن عمر أنه عثمان وقيل غير ذلك، والجميع من التطبيق وليس من النزول بالمعنى المصطلح عليه، والسورة نازلة دفعة.

٨. أمر المؤمنين بالتقوى وبشارة الصابرين بأجر بغير حساب:

المقطع [٨] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٤٣»:

١. ﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ﴾:

أ. الجار والمجرور ﴿فِي هذِهِ الدُّنْيا﴾ متعلق بقوله: ﴿أَحْسَنُوا﴾ فالمراد بالجملة وعد الذين أحسنوا أي لزموا الأعمال الحسنة أن لهم حسنة لا يقدر وصفها بقدر.

ب. وقد أطلق الحسنة فلم يقيدها بدنيا أو آخرة وظاهرها ما يعلم الدنيا فللمؤمنين المحسنين في هذه الدنيا طيب النفس وسلامة الروح وصون النفوس عما يتقلب فيه الكفار من تشوش البال وتقسم القلب وغل الصدر والخضوع للأسباب الظاهرية وفقد من يرجى في كل نائبة وينصر عند طروق الطارقة ويطمأن إليه في كل نازلة وفي الآخرة سعادة دائمة ونعيم مقيم.

ج. وقيل: ﴿فِي هذِهِ الدُّنْيا﴾ متعلق بحسنة، وليس بذاك.

٢. ﴿وَأَرْضُ الله واسِعَةٌ﴾:

أ. حث وترغيب لهم في الهجرة من مكة إذ كان التوقف فيها صعبا على المؤمنين بالنبي ﷺ والمشركون يزيدون كل يوم في التشديد عليهم وفتنتهم، والآية بحسب لفظها عامة.

ب. وقيل: المراد بأرض الله الجنة أي إن الجنة واسعة لا تزاحم فيها فاكتسبوها بالطاعة والعبادة، وهو بعيد.

٣. ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾:

أ. توفية الأجر إعطاؤه تاما كاملا، والسياق يفيد أن القصر في الكلام متوجه إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ فالجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿يُوَفَّى﴾ صفة لمصدر يدل عليه والمعنى لا يعطى الصابرون أجرهم إلا إعطاء بغير حساب، فالصابرون لا يحاسبون على أعمالهم ولا ينشر لهم ديوان ولا يقدر أجرهم بزنة عملهم.

ب. وقد أطلق الصابرون في الآية ولم يقيد بكون الصبر على الطاعة أو عن المعصية أو عند المصيبة وإن كان الذي ينطبق على مورد الآية هو الصبر على مصائب الدنيا وخاصة ما يصيب من جهة أهل الكفر والسوق من آمن بالله وأخلص له دينه واتقاه.

ج. وقيل: ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ حال من ﴿أَجْرَهُمْ﴾ ويفيد كثرة الأجر الذي يوفونه، والوجه السابق أقرب.

٤. أحاديث وآثار: في المجمع: روى العياشي بالإسناد عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين، لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولم ينشر لهم ديوان، ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾

• أقول: وروي ما في معناه في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في حديث.

٩. الأمر بعبادة الله مخلصاً والخوف من عذابه والخسران المبين:

المقطع [٩] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ

الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللهَّ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١١-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٤٦»:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾:

أ. نحو رجوع إلى قوله تعالى في مفتتح السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ بداعي أن يؤيسهم من نفسه، فلا يطمعوا فيه أن يترك دعوتهم ويوافقهم على الإشراك بالله كما يشير إليه أول سورة ص وآيات أخر.

ب. فكأنه يقول: قل لهم إن الذي تلوت عليكم من أمره تعالى بعبادته بإخلاص الدين، وقد وجه به الخطاب إلي، ليس المراد به مجرد دعوتكم إلى ذلك بإقامتي في الخطاب مقام السامع فيكون من قبيل (إياك أعني واسمعي يا جارة) بل أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصا له الدين، ولا ذلك فحسب، بل مأمور بأن أكون أول المسلمين لما ينزل إلي من الوحي فأسلم له أولا ثم أبلغه لغيري، فأنا أخاف ربي وأعبده بالإخلاص آمنتم به أو كفرتم فلا تطمعوا في.

ج. فقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ إشارة إلى أنه ﷺ يشارك غيره في الأمر بدون الإخلاص.

٢. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾:

أ. إشارة إلى أن في الأمر المتوجه إلي زيادة على ما توجه إليكم من التكليف وهو أني أمرت بما أمرت وقد توجه الخطاب إلي قبلكم والغرض منه أن أكون أول من أسلم لهذا الأمر وآمن به.

ب. قيل: اللام في قوله: ﴿لِأَنْ أَكُونَ﴾ للتعليل والمعنى وأمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين، وقيل: اللام زائدة كما تركت اللام في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤]

ج. ومآل الوجهين واحد بحسب المعنى فإن كونه ﷺ أول المسلمين يعطي عنوانا لإسلامه وعنوان الفعل يصح أن يجعل غاية للأمر بالفعل وأن يجعل متعلقا للأمر فيؤمر به يقال: اضربه للتأديب، ويقال: أدبه بالضرب.

د. قال في الكشاف: (وفي معناه أوجه: أن أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها، وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعا ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما استحق به الأولية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب)

هـ. وأنت خبير بأن الأنسب لسياق الآيات هو الوجه الثالث وهو الذي قدمناه ويلزمه سائر الوجوه.

٣. ﴿قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ المراد بمعصية ربه بشهادة السياق مخالفة أمره بعبادته مخلصا له الدين، وباليوم العظيم يوم القيامة والآية كالتوطئة لمضمون الآية التالية.

٤. ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾:

أ. تصريح بأنه ممتثل لأمر ربه مطيع له بعد التكنية عنه في الآية السابقة، وإياس لهم أن يطمعوا فيه أن يخالف أمر ربه.

ب. وتقديم المفعول في قوله: ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر، وقوله: ﴿مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ يؤكد معنى الحصر، وقوله: ﴿فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أمر تهديدي بمعنى أنهم لا ينفعهم ذلك فإنهم مصيبهم وبال إعراضهم عن عبادة الله بالإخلاص كما يشير إليه ذيل الآية ﴿قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ﴾

٥. ﴿قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾:

أ. الخسر والخسران ذهاب رأس المال إما كلا أو بعضا والخسران أبلغ من الخسر، وخسران النفس هو إيرادها مورد الهلكة والشقاء بحيث يبطل منها استعداد الكمال فيفوتها السعادة بحيث لا يطمع فيها وكذا خسارة الأهل.

ب. وفي الآية تعريض للمشركين المخاطبين بقوله: ﴿فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ كأنه يقول: فأيا ما عبدتم فإنكم تخسرون أنفسكم بإيرادها بالكفر مورد الهلكة وأهليكم وهم خاصتكم بحملهم على الكفر والشرك وهي الخسران بالحقيقة.

٦. ﴿أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾:

أ. وذلك لأن الخسران المتعلق بالدنيا، وهو الخسران في مال أو جاه، سريع الزوال منقطع الآخر

بخلاف خسران يوم القيامة الدائم الخالد فإنه لا زوال له ولا انقطاع.

ب. على أن المال أو الجاه إذا زال بالخسران أمكن أن يخلفه آخر مثله أو خير منه بخلاف النفس إذا خسرت.

ج. هذا على تقدير كون المراد بالأهل خاصة الإنسان في الدنيا، وقيل: المراد بالأهل من أعده الله في الجنة للإنسان لو آمن واتقى من أزواج وخدم وغيرهم وهو أوجه وأنسب للمقام فإن النسب وكل رابطة من الروابط الدنيوية الاجتماعية مقطوعة يوم القيامة قال تعالى: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩] إلى غير ذلك من الآيات.

د. ويؤيده أيضا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]

١٠. ظلل النار والخوف والتقوى:

المقطع [١٠] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٤٩»:

١. الظلل جمع ظلة وهي، كما قيل، الستر العالي، والمراد بكونها من فوقهم ومن تحتهم إحاطتها بهم فإن المعهود من النار الجهتان والباقي ظاهر.

١١. اجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله وبشرى المستمعين للقول:

المقطع [١١] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥٠»:

١. ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى﴾:

أ. قال الراغب: (الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع)، والظاهر أن المراد بها في الآية الأوثان وكل معبود طاغ من دون الله.

ب. ولم يقتصر على مجرد اجتناب عبادة الطاغوت بل أضاف إليه قوله: ﴿وَأَنابُوا إِلَى اللهِ﴾ إشارة

إلى أن مجرد النفي لا يجدي شيئا بل الذي ينفع الإنسان مجموع النفي والإثبات، عبادة الله وترك عبادة غيره وهو عبادته مخلصا له الدين.

٢. ﴿لَهُمُ الْبُشْرى﴾ إنشاء بشرى وخبر لقوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا﴾

٣. ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾:

أ. كان مقتضى الظاهر أن يقال: فبشرهم غير أنه قيل: فبشر عباد وأضيف إلى ضمير التكلم لتشريفهم به ولتوصيفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾

ب. والمراد بالقول بقرينة ما ذكر من الاتباع ما له نوع ارتباط ومساس بالعمل فأحسن القول أرشده في إصابة الحق وأنصحه للإنسان، والإنسان إذا كان ممن يحب الحسن وينجذب إلى الجمال كان كلما زاد الحسن زاد انجذابا فإذا وجد قبيحا وحسنا مال إلى الحسن، وإذا وجد حسنا وأحسن قصد ما هو أحسن، وأما لو لم يمل إلى الأحسن وانجمد على الحسن كشف ذلك عن أنه لا ينجذب إليه من حيث حسنه وإلا زاد الانجذاب بزيادة الحسن.

ج. فتوصيفهم باتباع أحسن القول معناه أنهم مطبوعون على طلب الحق وإرادة الرشد وإصابة الواقع فكلما دار الأمر بين الحق والباطل والرشد والغي اتبعوا الحق والرشد وتركوا الباطل والغي وكلما دار الأمر بين الحق والأحق والرشد وما هو أكثر رشدا أخذوا بالأحق الأرشد.

د. فالحق والرشد هو مطلوبهم ولذلك يستمعون القول ولا يردون قولا بمجرد ما قرع سمعهم اتباعا لهوى أنفسهم من غير أن يتدبروا فيه ويفقهوه.

هـ. فقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ مفاده أنهم طالبو الحق والرشد يستمعون القول رجاء أن يجدوا فيه حقا وخوفا أن يفوتهم شيء منه.

و. وقيل: المراد باستماع القول واتباع أحسنه استماع القرآن وغيره واتباع القرآن، وقيل: المراد استماع أوامر الله تعالى واتباع أحسنها كالقصاص والعفو فيتبعون العفو وإبداء الصدقات وإخفائها فيتبعون الإخفاء، والقولان من قبيل التخصيص من غير مخصص.

٤. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ﴾ إشارة إلى أن هذه الصفة هي الهداية الإلهية وهذه الهداية أعني طلب الحق والتهيؤ التام لاتباع الحق أينما وجد هي الهداية الإجمالية وإليها تنتهي كل هداية تفصيلية إلى

المعارف الإلهية.

٥. ﴿وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أي ذوو العقول ويستفاد منه أن العقل هو الذي به الاهتداء إلى الحق وآيته صفة اتباع الحق، وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] أنه يستفاد منه أن العقل ما يتبع به دين الله.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى﴾ روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: أنتم هم ومن أطاع جبارا فقد عبده.

• أقول: وهو من الجري.

ب. وفي الكافي: بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام إن الله تبارك وتعالى، بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾

ج. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان في ثلاثة نفر، كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله، في زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي.

• أقول: ورواه في المجمع: (عن عبد الله بن زيد، عن ابن مردويه عن ابن عمر: أنها نزلت في سعيد بن زيد وأبي ذر وسلمان، وروي أيضا عن جويبر عن جابر بن عبد الله: أنها نزلت في رجل من الأنصار أعتق سبعة مماليك، لما نزل قوله تعالى: ﴿لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ﴾ الآية، والظاهر أن الجميع من تطبيق القصة على الآية.

١٢. استحقاق الكفار للعذاب وعلو منازل المتقين في الغرف:

المقطع [١٢] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ﴾ [الزمر: ١٩-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥١»:

١. ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾:

أ. ثبوت كلمة العذاب وجوب دخول النار بالكفر بقوله عند إهباط آدم إلى الأرض: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩] وما في معناه من الآيات.

ب. ومقتضى السياق أن في الآية إضمارا يدل عليه قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ والتقدير أفمن حقت عليه كلمة العذاب ينجو منه وهو أولى من تقدير قولنا: خير أم من وجبت عليه الجنة.

ج. وقيل: المعنى أفمن وجب عليه وعيده تعالى بالعقاب أفأنت تخلصه من النار فاكتفى بذكر ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ عن ذكر الضمير العائد إلى المبتدإ وجيء بالاستفهام مرتين للتأكيد تنبيها على المعنى.

د. وقيل: التقدير أفأنت تنقذ من في النار منهم فحذف الضمير وهو أردأ الوجوه.

٢. ﴿لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ الغرف جمع غرفة وهي المنزل الرفيع، قيل: وهذا في مقابلة قوله في الكافرين: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾

٣. ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ أي وعدهم الله ذلك وعدا فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله وقوله: ﴿لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ﴾ إخبار عن سنته تعالى في مواعيده وفيه تطييب لنفوسهم.

١٣. إنزال الماء وإخراج الزرع ثم ييسه عبرة لأولي الألباب:

المقطع [١٣] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥٤»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال في المجمع: (الينابيع جمع ينبوع وهو الذي ينبع منه الماء يقال نبع الماء من موضع كذا إذا فار منه، والزرع ما ينبت على غير ساق والشجر ما له ساق وأغصان النبات يعم الجميع، وهاج النبت يهيج هيجا إذا جف وبلغ نهايته في اليبوسة، والحطام فتات التبن والحشيش)

٢. ﴿فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فأدخله في عيون ومجاري في الأرض هي كالعروق في الأبدان تنقل ما تحمله من جانب إلى جانب، والباقي ظاهر والآية، كما ترى، تحتج على توحده تعالى في الربوبية.

١٤. شرح الصدر للإسلام ونور الهداية:

المقطع [١٤] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥٤»:

١. ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾:

أ. لما ذكر في الآية السابقة أن فيما ذكره من إنزال الماء وإنبات النبات ذكرى لأولي الألباب وهم عباده المتقون وقد ذكر قبل أنهم الذين هداهم الله ذكر في هذه الآية أنهم ليسوا كغيرهم من الضالين وأوضح السبب في ذلك وهو أنهم على نور من ربهم يبصرون به الحق وفي قلوبهم لين لا تعصي عن قبول ما يلقى إليهم من أحسن القول.

ب. فقوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ خبره محذوف يدل عليه قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي كالقاسية قلوبهم والاستفهام للإنكار أي لا يستويان.

ج. وشرح الصدر بسطه ليسع ما يلقى إليه من القول وإذ كان ذلك للإسلام وهو التسليم لله فيما أراد وليس إلا الحق كان معناه كون الإنسان بحيث يقبل ما يلقى إليه من القول الحق ولا يرده، وليس قبولا من غير دراية وكيفما كان بل عن بصيرة بالحق وعرفان بالرشد ولذا عقبه بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ فجعله بحسب التمثيل راكب نور يسير عليه ويبصر ما يمر به في ساحة صدره الرحب الوسيع من الحق فيبصره ويميزه من الباطل بخلاف الضال الذي لا في صدره شرح فيسع الحق ولا هو راكب نور من ربه فيبصر الحق ويميزه.

٢. ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾:

أ. تفريع على الجملة السابقة بما يدل على أن القاسية القلوب، وقساوة القلب وصلابته لازمة عدم شرح الصدر وعدم النور، لا يتذكرون بآيات الله فلا يهتدون إلى ما تدل عليه من الحق، ولذا عقبه بقوله: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾

ب. وفي الآية تعريف الهداية بلازمها وهو شرح الصدر وجعله على نور من ربه، وتعريف الضلال بلازمه وهو قساوة القلب من ذكر الله.

ج. وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ﴾ كلام في معنى الهداية

فراجع.

٣. أحاديث وآثار:

أ. عن روضة الواعظين، روي: أن النبي ﷺ قرأ ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ فقال: إن النور إذا وقع في القلب انفسح له وانشرح، قالوا: يا رسول الله فهل لذلك علامة يعرف بها؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود وعن الحكيم الترمذي عن ابن عمر، وعن ابن جرير وغيره عن قتادة.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ﴾ الآية، قال: نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام.

• أقول: ونزول السورة دفعة لا يلائمه كما مر في نظيره.

١٥. القرآن والجلود والقشعريرة والهداية:

المقطع [١٥] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥٥»:

١. ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ﴾:

أ. كالإجمال بعد التفصيل بالنسبة إلى الآية السابقة بالنظر إلى ما يتحصل من الآية في معنى الهداية وإن كانت بيانا لهداية القرآن.

ب. فقوله: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم والحديث هو القول كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]، وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠] فهو أحسن القول لاشتماله على محض الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كلامه المجيد.

٢. ﴿كِتاباً مُتَشابِهاً﴾ أي يشبه بعض أجزائه بعضا وهذا غير التشابه الذي في المتشابه المقابل للمحكم فإنه صفة بعض آيات الكتاب وهذا صفة الجميع.

٣. ﴿مَثانِيَ﴾ جمع مثنية بمعنى المعطوف لانعطاف بعض آياته على بعض ورجوعه إليه بتبين بعضها

ببعض وتفسير بعضها لبعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضا ويناقضه كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]

٤. ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ صفة الكتاب وليس استئنافا، والاقشعرار تقبض الجلد تقبضا شديدا لخشية عارضة عن استماع أمر هائل أو رؤيته، وليس ذلك إلا لأنهم على تبصر من موقف نفوسهم قبال عظمة ربهم فإذا سمعوا كلامه توجهوا إلى ساحة العظمة والكبرياء فغشيت قلوبهم الخشية وأخذت جلودهم في الاقشعرار.

٥. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾:

أ. ﴿تَلِينُ﴾ مضمنة معنى السكون والطمأنينة ولذا عدي بإلى والمعنى ثم تسكن وتطمئن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله لينة تقبله أو تلين له ساكنة إليه.

ب. ولم يذكر القلوب في الجملة السابقة عند ذكر الاقشعرار لأن المراد بالقلوب النفوس ولا اقشعرار لها وإنما لها الخشية.

٦. ﴿ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ﴾:

أ. أي ما يأخذهم من اقشعرار الجلود من القرآن ثم سكون جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله هو هدى الله وهذا تعريف آخر للهداية بلازمها.

ب. ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ أي يهدي بهداه من يشاء من عباده وهو الذي لن يبطل استعداده للاهتداء ولم يشغل بالموانع عنه كالفسق والظلم وفي السياق إشعار بأن الهداية من فضله وليس بموجب فيها مضطر إليها.

ج. وقيل: المشار إليه بقوله: ﴿ذلِكَ هُدَى اللهِ﴾ القرآن وهو كما ترى، وقد استدل بالآيات على أن الهداية من صنع الله لا يشاركه فيها غيره، والحق أنها خالية عن الدلالة على ذلك وإن كان الحق هو ذلك بمعنى كونها لله سبحانه أصالة ولمن اختاره من عباده لذلك تبعا كما يستفاد من مثل قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٧١] وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]

د. فالهداية كلها لله إما بلا واسطة أو بواسطة الهداة المهديين من خلقه وعلى هذا فمن أضله من

خلقه بأن لم يهده بالواسطة ولا بلا واسطة فلا هادي له وذلك قوله في ذيل الآية: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ﴾ وسيأتي الجملة بعد عدة آيات وهي متكررة في كلامه تعالى.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن ابن عباس: قالوا: يا رسول الله لو حدثتنا فنزل: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾

• أقول: وهو من التطبيق.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾ الآية روي عن العباس بن عبد المطلب أن النبي ﷺ قال: إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله، تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها.

١٦. يوم القيامة وعذاب الظالمين وذوقهم ما كسبوا:

المقطع [١٦] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥٧»:

١. ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾:

أ. مقايسة بين أهل العذاب يوم القيامة والآمنين منه والفريقان هما أهل الضلال وأهل الهدى ولذا عقب الآية السابقة بهذه الآية.

ب. والاستفهام للإنكار وخبر ﴿فَمَنْ﴾ محذوف والتقدير كمن هو في أمن منه، ويوم القيامة متعلق بيتقي، والمعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده التي بها كان يتقي المكاره مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يصيبه مكروه، كذا قيل.

ج. وقيل: الاتقاء بوجهه بالمعنى المذكور لا وجه له لأن الوجه ليس مما يتقى به بل المراد الاتقاء بكليته أو بخصوص وجهه سوء عذاب يوم القيامة ويوم القيامة قيد للعذاب والمراد عكس الوجه السابق، والمعنى أفمن يتقي سوء العذاب الذي يوم القيامة في الدنيا بتقوى الله كالمصر على كفره، ولا يخلو من التكلف.

٢. ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ القول لملائكة النار، والظاهر أن الجملة بتقدير قد أو بدونه والأصل وقيل لهم ذوقوا لكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على علة الحكم وهي الظلم.

١٧. تكذيب الأمم السابقة للرسل ونزول العذاب بهم:

المقطع [١٧] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٥ـ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥٨»:

١. ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يحتسبون ففوجئوا وأخذوا على غفلة وهو أشد الأخذ، وفي الآية وما بعدها بيان لما أصاب بعض الكفار من عذاب الخزي ليكون عبرة لغيرهم.

٢. ﴿فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الخزي هو الذل والصغار، وقد أذاقهم الله ذلك في ألوان من العذاب أنزلنا عليهم كالغرق والخسف والصيحة والرجفة والمسخ والقتل.

٣. ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ضربنا لهم من كل نوع من الأمثال شيئا لعلهم يتنبهون ويعتبرون ويتعظون بتذكر ما تتضمنه.

٤. ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ العوج الانحراف والانعطاف، ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ منصوب على المدح بتقدير أمدح أو أخص ونحوه أو حال معتمد على الوصف.

٥. أحاديث وآثار: أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي ﷺ: في قوله: ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ قال: غير مخلوق.

• أقول: الآية تأبى عن الانطباق على الرواية وقد تقدم كلام في معنى الكلام في ذيل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

١٨. مثل الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون والرجل السلم:

المقطع [١٨] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥٨»:

١. ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ﴾:

أ. قال الراغب: (الشكس، بالفتح فالكسر، سيئ الخلق، وقوله: ﴿شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ﴾ أي متشاجرون لشكاسة خلقهم) وفسروا السلم بالخالص الذي لا يشترك فيه كثيرون.

ب. مثل ضربه الله للمشرك الذي يعبد أربابا وآلهة مختلفين فيشتركون فيه وهم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاه عنه الآخر وكل يريد أن يتفرد فيه ويخصه بخدمة نفسه، وللموحد الذي هو خالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدي إلى الحيرة فالمشرك هو الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون والموحد هو الرجل الذي هو سلم لرجل، لا يستويان بل الذي هو سلم لرجل أحسن حالا من صاحبه.

ج. وهذا مثل ساذج ممكن الفهم لعامة الناس لكنه عند المداقة يرجع إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وعاد برهانا على نفي تعدد الأرباب والآلهة.

٢. ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ ثناء لله بما أن عبوديته خير من عبودية من سواه.

٣. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ مزية عبادته على عبادة غيره على ما له من الظهور التام لمن له أدنى بصيرة.

٤. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ﴾ روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن علي أنه قال: أنا ذلك الرجل السلم لرسول الله ﷺ.

• أقول: ورواه أيضا عن العياشي بإسناده عن أبي خالد عن أبي جعفر عليه السلام وهو من الجري والمثل عام.

١٩. حتمية الموت والبعث والاختصام يوم القيامة:

المقطع [١٩] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٥٩»:

١. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾:

أ. الآية الأولى تمهيد لما يذكر في الثانية من اختصامهم يوم القيامة عند ربهم والخطاب في ﴿إِنَّكُمْ﴾ للنبي ﷺ وأمته أو المشركين منهم خاصة والاختصام، كما في المجمع،، رد كل واحد من الاثنين ما أتى به الآخر على وجه الإنكار عليه.

ب. والمعنى: إن عاقبتك وعاقبتهم الموت ثم إنكم جميعا يوم القيامة بعد ما حضرتم عند ربكم تختصمون وقد حكى مما يلقيه النبي ﷺ ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]

ج. والآيتان عامتان بحسب لفظهما لكن الآيات الأربع التالية تؤيد أن المراد بالاختصام ما يقع بين النبي ﷺ وبين الكافرين من أمته يوم القيامة.

٢. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال ابن عمر: كنا نرى أن هذه فينا وفي أهل الكتابين، وقلنا: كيف نختصم نحن ونبينا واحد وكتابنا واحد، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعلمت أنها فينا نزلت، وقال أبو سعيد الخدري: كنا نقول: إن ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا.

• أقول: وروي في الدر المنثور، الحديث الأول بطرق مختلفة عن ابن عمر وفي ألفاظها اختلاف والمعنى واحد، ورواه أيضا عن عدة من أصحاب الجوامع عن إبراهيم النخعي، وروي ما يقرب منه بطريقين عن الزبير بن العوام، وروي الحديث الثاني عن سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدري.

• والأحاديث تعارض ما روي أن الصحابة مجتهدون مأجورون إن أصابوا وإن أخطئوا.

٢٠. أشد الظلم الكذب على الله وتكذيب الصدق:

المقطع [٢٠] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٦٠»:

١. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾:

أ. في الآية وما بعدها مبادرة إلى ذكر ما ينتهي إليه أمر اختصامهم يوم القيامة وتلويح إلى ما هو نتيجة القضاء بينهم كأنه قيل: ونتيجة ما يقضى به بينكم معلومة اليوم وأنه من هو الناجي منكم، ومن هو الهالك؟ فإن القضاء يومئذ يدور مدار الظلم والإحسان ولا أظلم من الكافر والمؤمن متق محسن والظلم إلى النار والإحسان إلى الجنة، هذا ما يعطيه السياق.

ب. فقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ﴾ أي افترى عليه بأن ادعى أن له شركاء والظلم يعظم بعظم من تعلق به وإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم من كل ظلم ومرتكبه أظلم من كل ظالم.

٢. ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ﴾ المراد بالصدق الصادق من النبإ وهو الدين الإلهي الذي جاء به الرسول بقرينة قوله: ﴿إِذْ جاءَهُ﴾

٣. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾:

أ. المثوى اسم مكان بمعنى المنزل والمقام، والاستفهام للتقرير أي إن في جهنم مقام هؤلاء الظالمين لتكبرهم على الحق الموجب لافترائهم على الله وتكذيبهم بصادق النبإ الذي جاء به الرسول.

ب. والآية خاصة بمشركي عهد النبي ﷺ أو بمشركي أمته بحسب السياق وعامة لكل من ابتدع بدعة وترك سنة من سنن الدين.

٢١. جزاء الصادقين والمتقين وتكفير السيئات وإحسان الجزاء:

المقطع [٢١] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٦٠»:

١. ﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ المراد بالمجيء بالصدق الإتيان بالدين الحق والمراد بالتصديق به الإيمان به والذي جاء به النبي ﷺ.

٢. ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لعل الإشارة إلى الذي جاء به بصيغة الجمع لكونه جمعا بحسب المعنى وهو كل نبي جاء بالدين الحق وآمن بما جاء به بل وكل مؤمن آمن بالدين الحق ودعي إليه فإن الدعوة إلى الحق قولا وفعلا من شئون اتباع النبي، قال تعالى: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾:.

٣. ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أ. هذا جزاؤهم عند ربهم وهو أن لهم ما تتعلق به مشيتهم فالمشية هناك هي السبب التام لحصول ما يشاؤه الإنسان أيا ما كان بخلاف ما عليه الأمر في الدنيا فإن حصول شيء من مقاصد الحياة فيها يتوقف، مضافا إلى المشية، على عوامل وأسباب كثيرة منها السعي والعمل المستمد من الاجتماع والتعاون.

ب. فالآية تدل أولا على إقامتهم في دار القرب وجوار رب العالمين، وثانيا أن لهم ما يشاءون فهذان جزاء المتقين وهم المحسنون فإحسانهم هو السبب في إيتائهم الأجر المذكور وهذه هي النكتة في إقامة الظاهر مقام الضمير في قوله: ﴿ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وذلك جزاؤهم.

ج. وتوصيفهم بالإحسان وظاهره العمل الصالح أو الاعتقاد الحق والعمل الحسن جميعا يشهد أن المراد بالتصديق المذكور هو التصديق قولا وفعلا، على أن القرآن لا يسمي تارك بعض ما أنزله الله من حكم مصدقا به.

٤. ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾:

أ. من المعلوم أنه إذا كفر أسوأ أعمالهم كفر ما دون ذلك، والمراد بأسوإ الذي عملوا ما هو كالشرك والكبائر.

ب. قال في المجمع البيان، في الآية: (أي أسقط الله عنهم عقاب الشرك والمعاصي التي فعلوها قبل ذلك بإيمانهم وإحسانهم ورجوعهم إلى الله تعالى) وهو حسن من جهة تعميم الأعمال السيئة، ومن جهة تقييد التكفير بكونه قبل ذلك بالإيمان والإحسان والتوبة فإن الآية تبين أثر تصديق الصدق الذي أتاهم وهو تكفير السيئات بالتصديق والجزاء الحسن في الآخرة.

٥. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. قيل: المراد أنه ينظر إلى أعمالهم فيجازيهم في أحسنها جزاءه اللائق به وفي غير الأحسن يجازيهم جزاء الأحسن فالباء للمقابلة نحو بعت هذا بهذا.

ب. ويمكن أن يقال: إن المراد أنه ينظر إلى أرفع أعمالهم درجة فيترفع درجتهم بحسبه فلا يضيع شيء مما هو آخر ما بلغه عملهم من الكمال لكن في جريان نظير الكلام في تكفير الأسوإ خفاء.

ج. وقيل: صيغة التفضيل في الآية ﴿أَسْوَأَ﴾ و﴿بِأَحْسَنِ﴾ مستعملة في الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضل عليه فإن معصية الله كلها أسوأ وطاعته كلها أحسن.

٦. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قيل: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصدق به علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو المروي عن أئمة الهدى من آل محمد ﷺ.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن أبي هريرة، والظاهر أنه من الجري نظرا إلى قوله

في ذيل الآية ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

• وروي من طرقهم: أن الذي صدق به أبو بكر وهو أيضا من تطبيق الراوي، روي: أن الذي جاء به جبرئيل والذي صدق به محمد ﷺ وهو أيضا تطبيق غير أن السياق يدفعه فإن الآيات مسوقة لوصف النبي ﷺ والمؤمنين وجبرئيل أجنبي عنه لا تعلق للكلام به.

٢٢. كفاية الله لعبده وهداية من يشاء وإضلال من يشاء:

المقطع [٢٢] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٦١»:

١. ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾:

أ. المراد بالذين من دونه آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق، والمراد بالعبد من مدحه الله تعالى في الآيات السابقة ويشمل النبي ﷺ شمولا أوليا.

ب. والاستفهام للتقرير والمعنى هو يكفيهم، وفيه تأمين للنبي ﷺ قبال تخويفهم إياه بآلهتهم وكناية عن وعده بالكفاية كما صرح به في قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]

٢. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾:

أ. جملتان كالمتعاكستين مرسلتان إرسال الضوابط الكلية ولذا جيء فيهما باسم الجلالة وكان من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير.

ب. وفي تعقيب قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ﴾ بقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء المخوفين لا يهتدون بالإيمان أبدا ولن ينجح مسعاهم وأنهم لن ينالوا بغيتهم ولا أمنيتهم من النبي ﷺ فإن الله لن يضله وقد هداه.

٣. ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ﴾:

أ. استفهام للتقرير أي هو كذلك، وهو تعليل ظاهر لقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ فإن عزته وكونه ذا انتقام يقتضيان أن ينتقم ممن جحد الحق وأصر على كفره فيضله ولا هادي يهديه لأنه تعالى عزيز لا يغلبه فيما يريد غالب، وكذا إذا هدى عبدا من عباده لتقواه وإحسانه لم يقدر على إضلاله مضل.

ب. وفي التعليل دلالة على أن الإضلال المنسوب إلى الله تعالى هو ما كان على نحو المجازاة والانتقام دون الضلال الابتدائي وقد مر مرارا.

٢٣. إقرار المشركين بأن الله خالق السماوات والأرض والتوكل عليه:

المقطع [٢٣] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٦٦»:

١. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾:

أ. شروع في إقامة الحجة وقد قدم لها مقدمة تبتني الحجة عليها وهي مسلمة عند الخصم وهي أن خالق العالم هو الله سبحانه فإن الخصم لا نزاع له في أن الخالق هو الله وحده لا شريك له وإنما يدعي لشركائه التدبير دون الخلق.

ب. وإذا كان الخلق إليه تعالى فما في السماوات والأرض من عين ولا أثر إلا وينتهي وجوده إليه تعالى فما يصيب كل شيء من خير أو شر كان وجوده منه تعالى وليس لأحد أن يمسك خيرا يريده تعالى له أو يكشف شرا يريده تعالى له لأنه من الخلق والإيجاد ولا شريك له تعالى في الخلق والإيجاد حتى يزاحمه في خلق شيء أو يمنعه من خلق شيء أو يسبقه إلى خلق شيء والتدبير نظم الأمور وترتيب بعضها على بعض خلق وإيجاد فالله الخالق لكل شيء كاف في تدبير أمر العالم لأنه الخالق لكل شيء وليس وراء الخلق شيء حتى يتوهم استناده إلى غيره فهو الله رب كل شيء وإلهه لا رب سواه ولا إله غيره.

ج. فقوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي أقم الحجة عليهم بانيا لها على هذه المقدمة المسلمة عندهم أن الله خالق كل شيء وقل مفرعا عليه أخبروني عما تدعون من دون الله، والتعبير عن آلهتهم بلفظة (ما) دون (من) ونحوه يفيد تعميم البيان للأصنام وأربابها جميعا فإن الخواص منهم وإن قصروا العبادة على الأرباب من الملائكة وغيرهم واتخذوا الأصنام قبلة وذريعة إلى التوجه إلى أربابها لكن عامتهم ربما أخذوا الأصنام نفسها أربابا وآلهة يعبدونها ونتيجة الحجة عامة تشمل الجميع.

٢. ﴿إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ﴾:

أ. الضر كالمرض والشدة ونحوهما وظاهر مقابلته الرحمة عمومه لكل مصيبة، وإضافة الضر والرحمة إلى ضميره تعالى في ﴿كاشِفاتُ ضُرِّهِ﴾ و﴿مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ﴾ لحفظ النسبة لأن المانع من كشف الضر وإمساك الرحمة هو نسبتهما إليه تعالى.

ب. وتخصيص الضر والرحمة به ﷺ من عموم الحجة له ولغيره لكونه المخاصم الأصيل لهم وقد خوفوه بآلهتهم من دون الله.

ج. وإرجاع ضمير الجمع المؤنث إلى ما يدعونه من دون الله لتغليب جانب غير أولي العقل من الأصنام وهو يؤيد ما قدمناه في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أن التعبير بها لتعميم الحجة للأصنام وأربابها.

٣. ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ أمر بالتوكل عليه تعالى كما يدل عليه قوله بعده: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وهو موضوع موضع نتيجة الحجة كأنه قيل: قل لهم: إني اتخذت الله وكيلا لأن أمر تدبيري إليه كما أن أمر خلقي إليه فهو في معنى قولنا: فقد دلت الحجة على ربوبيته وصدقت ذلك عملا باتخاذه وكيلا في أموري.

٤. ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ تقديم الظرف على متعلقه للدلالة على الحصر أي عليه يتوكلون لا على غيره، وإسناد الفعل إلى الوصف من مادته للدلالة على كون المراد المتوكلين بحقيقة معنى التوكل ففي الجملة ثناء عليه تعالى بأنه الأهل للتوكل عليه يتوكل أهل البصيرة في التوكل فلا لوم علي أن توكلت عليه وقلت: حسبي الله.

٢٤. العمل على المكانة والعذاب المخزي وإنزال الكتاب بالحق:

المقطع [٢٤] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٣٩-٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٦٧»:

١. ﴿قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ﴾ المكانة هي المنزلة والقدر وهي في المعقولات كالمكان في المحسوسات فأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم معناه أمرهم أن يستمروا على الحالة التي هم عليها من الكفر والعناد والصد عن سبيل الله.

٢. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ﴾ الظاهر أن ﴿مَنْ﴾ استفهامية لا موصولة لظهور العلم فيما يتعلق بالجملة لا بالمفرد.

٣. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾:

أ. أي دائم وهو المناسب للحلول، وتفكيك أمر العذابين يشهد أن المراد بالأول عذاب الدنيا وبالثاني عذاب الآخرة، وفي الكلام أشد التهديد.

ب. والمعنى قل مخاطبا للمشركين من قومك: يا قوم اعملوا، مستمرين، على حالتكم التي أنتم عليها من الكفر والعناد إني عامل، كما أومر غير منصرف عنه، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله؟ وهو عذاب الدنيا كما في يوم بدر ويحل عليه ولا يفارقه عذاب دائم وهو عذاب الآخرة.

٤. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾، في مقام التعليل للأمر الذي في الآية السابقة، واللام في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ للتعليل أي لأجل الناس أن تتلوه عليهم وتبلغهم ما فيه، والباء في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ للملابسة أي ملابسا للحق لا يشوبه باطل.

٥. ﴿فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾ أي يتفرع على هذا الإنزال أن من اهتدى فإنما يعود نفعه من سعادة الحياة وثواب الدار الآخرة إلى نفسه، ومن ضل ولم يهتد به فإنما يعود شقاؤه ووباله من عقاب الدار الآخرة إلى نفسه فالله سبحانه أجل من أن ينتفع بهداهم أو يتضرر بضلالهم.

٦. ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾:

أ. أي مفوضا إليه أمرهم قائما بتدبير شئونهم حتى توصل ما فيه من الهدى إلى قلوبهم.

ب. والمعنى إنما أمرناك أن تهددهم بما قلنا لأنا نزلنا عليك الكتاب بالحق لأجل أن تقرأه على الناس لا غير فمن اهتدى منهم فإنما يعود نفعه إلى نفسه ومن ضل ولم يهتد به فإنما يعود ضرره إلى نفسه وما أنت وكيلا من قبلنا عليهم تدبر شئونهم فتوصل الهدى إلى قلوبهم فليس لك من الأمر شيء.

٢٥. توفي الأنفس عند الموت والمنام:

المقطع [٢٥] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٦٨»:

١. ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾:

أ. قال في المجمع: (التوفي قبض الشيء على الإيفاء والإتمام يقال: توفيت حقي من فلان واستوفيته بمعنى)

ب. تقديم المسند إليه في الآية يفيد الحصر أي هو تعالى المتوفي لها لا غير وإذا انضمت الآية إلى مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] أفادت معنى الأصالة والتبعية أي إنه تعالى هو المتوفي بالحقيقة وملك الموت والملائكة الذين هم أعوانه أسباب متوسطة يعملون بأمره.

ج. ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ المراد بالأنفس الأرواح المتعلقة بالأبدان لا مجموع الأرواح والأبدان لأن المجموع غير مقبوض عند الموت وإنما المقبوض هو الروح يقبض من البدن بمعنى قطع تعلقه بالبدن تعلق التصرف والتدبير والمراد بموتها موت أبدانها إما بتقدير المضاف أو بنحو المجاز العقلي، وكذا المراد بمنامها.

٢. ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ معطوف على الأنفس في الجملة السابقة، والظاهر أن المنام اسم زمان وفي منامها متعلق بيتوفى والتقدير ويتوفى الأنفس التي لم تمت في وقت نومها.

٣. ثم فصل تعالى في القول في الأنفس المتوفاة في وقت النوم فقال: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾:

أ. أي فيحفظ النفس التي قضى عليها الموت كما يحفظ النفس التي توفاها حين موتها ولا يردها إلى بدنها، ويرسل النفس الأخرى التي لم يقض عليها الموت إلى بدنها إلى أجل مسمى تنتهي إليه الحياة.

ب. وجعل الأجل المسمى غاية للإرسال دليل على أن المراد بالإرسال جنسه بمعنى أنه يرسل بعض الأنفس إرسالا واحدا وبعضها إرسالا بعد إرسال حتى ينتهي إلى الأجل المسمى.

٤. ويستفاد من الآية:

أ. أولا: أن النفس موجود مغاير للبدن بحيث تفارقه وتستقل عنه وتبقى بحيالها.

ب. وثانيا: أن الموت والنوم كلاهما توف وإن افترقا في أن الموت توف لا إرسال بعده والنوم توف ربما كان بعده إرسال.

٥. ثم تمم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتذكرون أن الله سبحانه هو المدبر لأمرهم وأنهم إليه راجعون سيحاسبهم على ما عملوا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، عن علي عليه السلام في حديث: وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات قال: وأما قوله: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فإن الله تبارك وتعالى يدبر الأمر كيف يشاء، ويوكل من خلقه من يشاء بما يشاء، أما ملك الموت، فإن الله يوكله بخاصته ممن يشاء من خلقه، ويوكل رسله من الملائكة خاصة بمن يشاء من خلقه، وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم، أن يفسره لكل الناس، لأن فيهم القوي والضعيف، ولأن منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله، إلا أن يسهل الله له حمله، وأعانه عليه من خاصة أوليائه، وإنما يكفيك أن تعلم أن الله المحيي المميت، وأنه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه، من ملائكته وغيرهم.

ب. وفي الخصال، عن علي عليه السلام في حديث الأربعمائة: لا ينام المسلم وهو جنب لا ينام إلا على طهور، فإن لم يجد الماء فليتيمم بالصعيد، فإن روح المؤمن ترفع إلى الله تعالى، فيقبلها ويبارك عليها، فإن كان أجلها قد حضر جعلها في كنوز رحمته، وإن لم يكن أجلها قد حضر، بعث بها مع أمنائه من ملائكته فيردونها في جسده.

ج. وفي المجمع روى العياشي بالإسناد عن الحسن بن محبوب عن عمرو بن ثابت عن أبي المقدام عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء، وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشعاع الشمس، فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وإن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح، وهو قوله سبحانه: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ الآية، فمهما رأت في ملكوت السموات فهو مما له تأويل، وما رأت فيما بين السماء والأرض، فهو مما يخيله الشيطان ولا تأويل له.

د. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال: العجب من رؤيا

الرجل، أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال، فيكون رؤياه كأخذ باليد، ويرى الرجل الرؤيا فلا يكون رؤياه شيئا، فقال علي بن أبي طالب: أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين يقول الله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فالله يتوفى الأنفس كلها، فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها، تلقيها الشياطين في الهواء، فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل، فعجب عمر من قوله.

• أقول: تقدم تفصيل الكلام في الرؤيا في سورة يوسف والرجوع إليه يعين في فهم معنى الروايتين، وقد أطلق فيهما السماء على ما اصطلح عليه بعالم المثال الأعظم وما بين السماء والأرض على ما اصطلح عليه بعالم المثال الأصغر فتبصر.

٢٦. نفي الشفاعة عن غير الله وملكيته للشفاعة كلها:

المقطع [٢٦] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٧٠»:

١. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ﴾ ﴿أَمِ﴾ منقطعة أي بل اتخذ المشركون من دون الله شفعاء وهم آلهتهم الذين يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه كما قال في أول السورة: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ وقال: ﴿يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ﴾:.

٢. ﴿قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ﴾:

أ. أمر بأن يرده عليهم بالمناقشة في إطلاق كلامهم فإن من البديهي أن الشفاعة تتوقف على علم في الشفيع يعلم به ما يريد؟ وممن يريد؟ ولمن يريد؟ فلا معنى لشفاعة الجهاد الذي لا شعور له وكذا تتوقف على أن يملك الشفيع الشفاعة ويكون له حق أن يشفع ولا ملك لغير الله إلا أن يملكه الله شيئا ويأذن له في التصرف فيه فقولهم بشفاعة أوليائهم مطلقا الشامل لما لا يملكونه ولا علم لهم بإذنه تعالى لهم فيها تخرص.

ب. فالاستفهام في ﴿أَوَلَوْ كانُوا﴾ للإنكار والمعنى قل لهم هل تتخذونهم شفعاء لكم ولو كانوا لا يملكون من عند أنفسهم شيئا كالملائكة ولا يعقلون شيئا كالأصنام؟ فإنه سفه.

٣. ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. توضيح وتأكيد لما مر من قوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ واللام في ﴿لِلَّهِ﴾ للملك، وقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ في مقام التعليل للجملة السابقة، والمعنى كل شفاعة فإنها مملوكة لله فإنه المالك لكل شيء إلا أن يأذن لأحد في شيء منها فيملكه إياها، وأما استغلال بعض عباده كالملائكة يملك الشفاعة مطلقا كما يقولون فمما لا يكون قال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]

ب. وللآية معنى آخر أدق إذا انضمت إلى مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] وهو أن الشفيع بالحقيقة هو الله سبحانه وغيره من الشفعاء لهم الشفاعة بإذن منه فقد تقدم في بحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب أن الشفاعة ينتهي إلى توسط بعض صفاته تعالى بينه وبين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسط الرحمة والمغفرة بينه وبين عبده المذنب لإنجائه من وبال الذنب وتخليصه من العذاب.

ج. والفرق بين هذا الملك وما في الوجه السابق أن المالك لا يتصف بمملوكه في الوجه السابق كما في ملك زيد للدار بخلاف الملك في هذا الوجه فإن المالك فيه يتصف بمملوكه كملك زيد الشجاع لشجاعته.

٤. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أ. تعليل آخر لكونه يملك الشفاعة جميعا الدال على الحصر وذلك أن الشفاعة إنما يملكها الذي ينتهي إليه أمر المشفوع له إن شاء قبلها وأصلح حال المشفوع له وأما غيره فإنما يملكها إذا رضي بها وأذن فيها والله سبحانه هو الذي يرجع إليه العباد دون الذين يدعون من دون الله فالله هو المالك للشفاعة جميعا فقولهم بكون أوليائهم شفعاء لهم مطلقا ثم عبادتهم لهم كذلك بناء بلا مبني يعتمد عليه.

ب. وقيل: قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تهديد لهم كأنه قيل: ثم إليه ترجعون فتعلمون أنهم لا يشفعون لكم ويخيب سعيكم في عبادتهم.

ج. وقيل: يحتمل أن يكون تنصيصا على مالكية الآخرة التي فيها معظم نفع الشفاعة وإيماء إلى انقطاع الملك الصوري عما سواه تعالى، والوجه ما قدمناه.

٢٧. اشمئزاز قلوب الكافرين عند ذكر الله واستبشارهم عند ذكر آلهتهم:

المقطع [٢٧] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٧١»:

١. ﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾:

أ. المراد من ذكره تعالى وحده جعله مفردا بالذكر من غير ذكر آلهتهم ومن مصاديقه قول لا إله إلا الله، والاشمئزاز الانقباض والنفور عن الشيء.

ب. وإنها ذكر من وصفهم عدم إيمانهم بالآخرة لأن ذلك هو الأصل في اشمئزازهم ولو كانوا مؤمنين بالآخرة وأنهم يرجعون إلى الله فيجازيهم بأعمالهم عبدوه دون أوليائهم ولم يرغبوا عن ذكره وحده.

٢. ﴿وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ المراد بالذين من دونه آلهتهم، والاستبشار سرور القلب بحيث يظهر أثره في الوجه.

٢٨. دعاء الله فاطر السماوات والأرض وعالم الغيب والشهادة:

المقطع [٢٨] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٧١»:

١. لما بلغ الكلام مبلغا لا يرجى معه فيهم خير لنسيانهم أمر الآخرة وإنكارهم الرجوع إليه تعالى حتى كانوا يشمئزون من ذكره تعالى وحده أمره ﷺ أن يذكره تعالى وحده ويذكرهم حكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه في صورة الالتجاء إليه تعالى على ما فيه من الإقرار بالبعث وقد وصف الله تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض أي مخرجها من كتم العدم إلى ساحة الوجود، وعالم الغيب والشهادة فلا يخفى عليه شيء، ولازمه أن يحكم بالحق وينفذ حكمه.

٢٩. افتداء الظالمين بجميع ما في الأرض يوم القيامة وبدو السيئات:

المقطع [٢٩] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان:

١٧/ ٢٧٢»:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾:

أ. المراد بالذين ظلموا هم الذين ظلموا في الدنيا فالفعل يفيد مفاد الوصف، والظالمون هم المنكرون للمعاد كما قال: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥]

ب. والمعنى: ولو أن للظالمين المنكرين للمعاد ضعفي ما في الأرض من أموال وذخائر وكنوز لجعلوه فدية من سوء العذاب.

٢. ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾:

أ. البداء والبدو بمعنى الظهور والحساب والحسبان العد، والاحتساب الاعتداد بالشيء بمعنى البناء على عده شيئا وكثيرا ما يستعمل الحسبان والاحتساب بمعنى الظن كما قيل ومنه قوله: ﴿ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ما لم يكونوا يظنون لكن فرق الراغب بين الحسبان والظن حيث قال: (والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظن لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر)

ب. ومقتضى سياق الآية أن المراد بيان أنهم سيواجهون يوم القيامة أمورا على صفة هي فوق ما تصوروه وأعظم وأهول مما خطر ببالهم لا أنهم يشاهدون أمورا ما كانوا يعتقدونها ويذعنون بها وبالجملة كانوا يسمعون أن لله حسابا ووزنا للأعمال وقضاء ونارا وألوانا من العذاب فيقيسون ما سمعوه، على إنكار منهم له، على ما عهدوه من هذه الأمور في الدنيا فلما شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم مما كان يخطر ببالهم من صفتها فهذه الآية في وصف عذابه نظير قوله في وصف نعيم أهل الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]

ج. وأيضا مقتضى السياق أن البدو المذكور من قبيل الظهور بعد الخفاء والانكشاف بعد الاستتار كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق:.

٣. ﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾ أي ظهر لهم سيئات أعمالهم بعد ما كانت خفية عليهم فهو

كقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]

٤. ﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي ونزل عليهم وأصابهم ما كانوا يستهزءون به في الدنيا إذا سمعوه من أولياء الدين من شدائد يوم القيامة وأهواله وأنواع عذابه.

٣٠. دعاء الإنسان عند الضر ونسيانه عند النعمة:

المقطع [٣٠] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٤٩-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٧٣»:

١. ﴿فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾:

أ. الآية في مقام التعليل البياني لما تقدم من وصف الظالمين ولذا صدرت بالفاء لتتفرع على ما تقدم تفرع البيان على المبين.

ب. فهو تعالى لما ذكر من حالهم أنهم أعرضوا عن كل آية دالة على الحق ولم يصغوا إلى الحجج المقامة عليهم ولم يسمعوا موعظة ولم يعتدوا بعبرة فجحدوا ربوبيته تعالى وأنكروا البعث والحساب وبلغ بهم ذلك أن اشمأزت قلوبهم إذا ذكر الله وحده.

ج. بين أن ذلك مما يستدعيه طبع الإنسان المائل إلى اتباع هوى نفسه والاغترار بما زين له من نعم الدنيا والأسباب الظاهرية الحافة بها فالإنسان حليف النسيان إذا مسه الضر أقبل إلى ربه وأخلص له ودعاه ثم إذا خوله ربه نعمة نسبه إلى علم نفسه وخبرته ونسي ربه وجهل أنها فتنة فتن بها.

د. فقوله: ﴿فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ﴾ أي مرض أو شدة ﴿دَعانا﴾ أي خصنا بالدعاء وانقطع عن غيرنا.

٢. ﴿ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾:

أ. التخويل الإعطاء على نحو الهبة، وتقييد النعمة بقوله: ﴿مِنَّا﴾ للدلالة على كون وصف النعمة محفوظا لها والمعنى خولناه نعمة ظاهرا كونها نعمة.

ب. وضمير ﴿أُوتِيتُهُ﴾ للنعمة بما أنه شيء أو مال والعناية في ذلك بالإشارة إلى أنه لا يعترف بكونها نعمة منا بل يقطعها عنا فيسميها شيئا أو مالا ونحوه ولا يسميها نعمة حتى يضطره ذلك إلى الاعتراف بمنعم والإشارة إليه كما قال: ﴿أُوتِيتُهُ﴾ فصفح عن الفاعل لذلك والتعبيران أعني ﴿نِعْمَةً مِنَّا﴾ ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ﴾ من لطيف تعبير القرآن، وقد وجهوا تذكير الضمير في ﴿أُوتِيتُهُ﴾ بوجوه أخر غير موجهة من أرادها فليرجع إلى المفصلات.

ج. والملائم لسياق الآية أن يكون معنى ﴿عَلى عِلْمٍ﴾ على علم مني أي أوتيت هذا الذي أوتيت على علم مني وخبرة بطرق كسب المعاش واقتناء الثروة وجمع المال.

د. وقيل: المراد إنما أوتيته على علم من الله بخير عندي أستحق به أن يؤتيني النعمة، وقيل: المراد على علم مني برضا الله عني، وأنت خبير بأن ما تقدم من معنى قوله: ﴿ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ﴾ لا يلائم شيئا من القولين.

٣. ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. أي بل النعمة التي خولناه منا فتنة أي ابتلاء وامتحان نمتحنه بذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون بذلك.

ب. وقيل: معناه بل تلك النعمة عذاب لهم، وقيل: المعنى بل هذه المقالة فتنة لهم يعاقبون عليها والوجهان بعيدان سيما الأخير.

٤. ﴿قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾:

أ. ضمير ﴿قَدْ قالَهَا﴾ راجع إلى القول السابق باعتبار أنه مقالة أو كلمة.

ب. والآية رد لقولهم وإثبات لكونها فتنة يمتحنون بها بأنهم لو أوتوها على علم منهم واكتسبوها بحولهم وقوتهم لأغنى عنهم كسبهم ولم يصبهم سيئات ما كسبوا وحفظوها لأنفسهم وتنعموا بها ولم يهلكوا دونها وليس كذلك فهؤلاء الذين قبلهم قالوا هذه المقالة فما أغنى عنهم كسبهم وأصابهم سيئات ما كسبوا.

ج. والظاهر أن الآية تشير بقوله: ﴿قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى قارون وأمثاله وقد حكي عنه قول ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ في قصته من سورة القصص.

٥. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الإشارة بهؤلاء إلى قومه ﷺ والمعنى أن هؤلاء الذين ظلموا من قومك سبيلهم سبيل من قبلهم سيصيبهم سيئات كسبهم ووبالات عملهم وما هم بمعجزين لله.

٦. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾:

أ. جواب آخر عن قول القائل منهم: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ﴾ وقد كان الجواب الأول ﴿قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ جوابا من طريق النقض وهذا جواب من طريق المعارضة بالإشارة إلى دلالة الدليل على أن الله سبحانه هو الذي يبسط الرزق ويقدر.

ب. بيان ذلك: أن سعي الإنسان عن علم وإرادة لتحصيل الرزق ليس سببا تاما موجبا لحصول الرزق وإلا لم يتخلف ومن البين خلافه فكم من طالب رجع آيسا وساع خاب سعيه.

ج. فهناك علل وشرائط زمانية ومكانية وموانع مختلفة باختلاف الظروف خارجة عن حد الإحصاء إذا اجتمعت وتوافقت أنتج ذلك حصول الرزق.

د. وليس اجتماع هذه العلل والشرائط على ما فيها من الاختلاف والتشتت والتفرق من مادة وزمان ومكان ومقتضيات أخر مرتبطة بها مقارنة أو متقدمة وعلل العلل ومقدماتها الذاهبة إلى ما لا يحصى، اجتماعا وتوافقا على سبيل الاتفاق فإن الاتفاق لا يكون دائميا ولا أكثريا وقانون ارتزاق المرتزقين الشامل للموجودات الحية بل المنبسط على أقطار العالم المشهود وأرجائه ثابت محفوظ في نظام جار على ما فيه من السعة والانبساط ولو انقطع لهلكت الأشياء لأول لحظة ومن فورها.

هـ. وهذا النظام الجاري بوحدته وتناسب أجزائه وتلاؤمها يكشف عن وحدانية ناظمه وفردانية مدبره ومديره الخارج عن أجزاء العالم المحفوظة بنفس النظام الباقية به وهو الله عز اسمه.

و. على أن النظام من التدبير والتدبير من الخلق كما مر مرارا فخالق العالم مدبره ومدبره رازقه وهو الله تعالى شأنه.

ز. ويشير إلى هذا البرهان في الآية قوله: ﴿لِمَنْ يَشاءُ﴾ فإنه إذا كان بسط الرزق وقدره بمشيئته تعالى لم يكن بمشيئة الإنسان الذي يتبجح بعلمه وسعيه ولا بمشيئة شيء من العلل والأسباب وإيجابه كما هو ظاهر وليس من قبيل الاتفاق بل هو على نظام جار فهو بمشيئة جاعل النظام ومجريه وهو الله سبحانه.

ح. وقد تقدم كلام في معنى الرزق في ذيل قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧] وسيأتي كلام فيه في تفسير قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾: إن شاء الله تعالى.

٣١. دعوة المسرفين إلى التوبة والمغفرة ورحمة الله الواسعة:

المقطع [٣١] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٧٨»:

١. ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾:

أ. أمره ﷺ أن يدعوهم من قبله وبناديهم بلفظة يا عبادي وفيه تذكير بحجة الله سبحانه على دعوتهم إلى عبادتهم وترغيب لهم إلى استجابة الدعوة أما التذكير بالحجة فلأنه يشير إلى أنهم عباده وهو مولاهم ومن حق المولى على عبده أن يطيعه ويعبده فله أن يدعوه إلى طاعته وعبادته، وأما ترغيبهم إلى استجابة الدعوة فلما فيه من الإضافة إليه تعالى الباعث لهم إلى التمسك بذيل رحمته ومغفرته.

ب. ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الإسراف، على ما ذكره الراغب، تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر، وكان الفعل مضمن معنى الجناية أو ما يقرب منها ولذا عدي بعلى والإسراف على النفس هو التعدي عليها باقتراف الذنب أعم من الشرك وسائر الذنوب الكبيرة والصغيرة على ما يعطيه السياق.

ج. وقال جمع: إن المراد بالعباد المؤمنون وقد غلب استعماله فيهم مضافا إليه تعالى في القرآن فمعنى ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أيها المؤمنون المذنبون.

د. ويدفعه أن قوله: ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ إلى تمام سبع آيات ذو سياق واحد متصل يفصح عن دعوتهم وقوله في ذيل الآيات: ﴿بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ كالصريح أو هو صريح في شمول العباد للمشركين.

هـ. وما ورد في كلامه تعالى من لفظ ﴿عِبادِيَ﴾ والمراد به المؤمنون بضعة عشر موردا جميعها محفوفة بالقرينة وليس بحيث ينصرف عند الإطلاق إلى المؤمنين كما أن الموارد التي أطلق فيها وأريد به الأعم من

المشرك والمؤمن في كلامه كذلك.

و. وبالجملة شمول ﴿عِبادِيَ﴾ في الآية للمشركين لا ينبغي أن يرتاب فيه، والقول بأن المراد به المشركون خاصة نظرا إلى سياق الآيات كما نقل عن ابن عباس أقرب إلى القبول من تخصيصه بالمؤمنين.

٢. ﴿لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ القنوط اليأس، والمراد بالرحمة بقرينة خطاب المذنبين ودعوتهم هو الرحمة المتعلقة بالآخرة دون ما هي أعم الشاملة للدنيا والآخرة ومن المعلوم أن الذي يفتقر إليه المذنبون من شئون رحمة الآخرة بلا واسطة هو المغفرة فالمراد بالرحمة المغفرة ولذا علل النهي عن القنوط من الرحمة بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾

٣. وفي الآية التفات من التكلم إلى الغيبة حيث قيل: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ﴾ ولم يقل: إني أغفر وذلك للإشارة إلى أنه الله الذي له الأسماء الحسنى ومنها أنه غفور رحيم كأنه يقول لا تقنطوا من رحمتي فإني أنا الله أغفر الذنوب جميعا لأن الله هو الغفور الرحيم.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾:

أ. تعليل للنهي عن القنوط وإعلام بأن جميع الذنوب قابلة للمغفرة فالمغفرة عامة لكنها تحتاج إلى سبب مخصص ولا تكون جزافا، والذي عده القرآن سببا للمغفرة أمران: الشفاعة والتوبة لكن ليس المراد في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ المغفرة الحاصلة بالشفاعة لأن الشفاعة لا تنال الشرك بنص القرآن في آيات كثيرة وقد مر أيضا أن قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] ناظر إلى الشفاعة والآية أعني قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ موردها الشرك وسائر الذنوب.

ب. فلا يبقى إلا أن يكون المراد المغفرة الحاصلة بالتوبة وكلامه تعالى صريح في مغفرة الذنوب جميعا حتى الشرك بالتوبة.

ج. على أن الآيات السبع، كما عرفت، كلام واحد ذو سياق واحد متصل ينهى عن القنوط، وهو تمهيد لما يتلوه، ويأمر بالتوبة والإسلام والعمل الصالح وليست الآية الأولى كلاما مستقلا منقطعا عما يتلوه حتى يحتمل عدم تقييد عموم المغفرة فيها بالتوبة وأي سبب آخر مفروض للمغفرة.

د. والآية أعني قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ من معارك الآراء بينهم فقد ذهب قوم إلى تقييد عموم المغفرة فيها بالشرك وسائر الكبائر التي وعد الله عليها النار مع عدم تقييد العموم بالتوبة

فالمغفرة لا تنال إلا الصغائر من الذنوب.

هـ. وذهب آخرون إلى إطلاق المغفرة وعدم تقيدها بالتوبة ولا بسبب آخر من أسباب المغفرة غير أنهم قيدوها بالشرك لصراحة قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ الآية فاستنتجوا عموم المغفرة وإن لم يكن هناك سبب مخصص يرجح المذنب المغفور له على غيره في مغفرته كالتوبة والشفاعة وهي المغفرة الجزافية وقد استدلوا على ذلك بوجوه غير سديدة.

و. وأنت خبير بأن مورد الآية هو الشرك وسائر الذنوب، ومن المعلوم من كلامه تعالى أن الشرك لا يغفر إلا بالتوبة فتقييد إطلاق المغفرة في الآية بالتوبة مما لا مفر منه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ما في القرآن آية أوسع من: ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن جرير عن ابن سيرين عنه عليه السلام، وستأتي إن شاء الله في تفسير سورة الليل الرواية عنه عليه السلام أن قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ أرجى من هذه الآية.

ب. أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله فمن أشرك، فسكت النبي ﷺ ثم قال: إلا من أشرك.

• أقول: في الرواية شيء فقد تقدم أن مورد الآية هو الشرك وأن الآية مقيدة بالتوبة.

ج. أخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم.

• أقول: ما في الحديث من المغفرة لا يأبى التقيد بأسباب المغفرة كالتوبة والشفاعة.

د. وفي الجميع قيل: هذه الآية يعني قوله: ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾، نزلت في وحشي قاتل حمزة، حين أراد أن يسلم وخاف أن لا تقبل توبته، فلما نزلت الآية أسلم ـ فقيل: يا رسول الله هذه له خاصة أم للمسلمين عامة؟ فقال ﷺ: بل للمسلمين عامة.

هـ. وعن كتاب سعد السعود، لابن طاووس نقلا عن تفسير الكلبي: بعث وحشي وجماعة إلى النبي ﷺ، أنه ما يمنعنا من دينك إلا أننا سمعناك تقرأ في كتابك، أن من يدعو مع الله إلها آخر، ويقتل النفس ويزني يلق أثاما ويخلد في العذاب، ونحن قد فعلنا ذلك كله فبعث إليهم بقوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً﴾ فقالوا: نخاف أن لا نعمل صالحا، فبعث إليهم ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ فقالوا نخاف أن لا ندخل في المشية، فبعث إليهم ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ فجاءوا وأسلموا، فقال النبي ﷺ لوحشي قاتل حمزة: غيب وجهك عني فإني لا أستطيع النظر إليك، قال: فلحق بالشام فمات في الخمر.

• أقول: وروي ما يقرب منه في الدر المنثور، بعدة طرق وفي بعضها أن قوله: ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ نزل فيه كما في خبر المجمع، السابق، ويضعفه أن السورة مكية وقد أسلم وحشي بعد الهجرة، على أن ظاهر الخبر عدم تقيد إطلاق المغفرة في الآية بالتوبة وقد عرفت أن السياق يأباه.

• وقوله: فمات في الخمر لعله بفتح الخاء وتشديد الميم موضع من أعراض المدينة ولعله من غلط الناس والصحيح الحمص، ولعل المراد به موته عن شرب الخمر فإنه كان مدمن الخمر وقد جلد في ذلك غير مرة ثم ترك.

• واعلم أن هناك روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليه السلام في تطبيق هذه الآيات على شيعتهم وتطبيق جنب الله عليهم وهي جميعا من الجري دون التفسير ولذا تركنا إيرادها هاهنا.

٣٢. الأمر بالإنابة إلى الله والإسلام له قبل حلول العذاب:

المقطع [٣٢] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٨٠»:

١. ﴿وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿لا تَقْنَطُوا﴾، والإنابة إلى الله الرجوع إليه وهو التوبة، وقوله: ﴿إِلى رَبِّكُمْ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وأنيبوا إليه والوجه فيه الإشارة إلى التعليل فإن الملاك في عبادة الله سبحانه صفة ربوبية.

ب. والمراد بالإسلام التسليم لله والانقياد له فيما يريد، وإنما قال: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ ولم يقل: وآمنوا

به لأن المذكور قبل الآية وبعدها استكبارهم على الحق والمقابل له الإسلام.

٢. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾:

أ. متعلق بقوله: ﴿أَنِيبُوا﴾ و ﴿أَسْلِمُوا﴾ والمراد بالعذاب عذاب الآخرة بقرينة الآيات التالية، ويمكن على بعد أن يراد مطلق العذاب الذي لا تقبل معه التوبة ومنه عذاب الاستئصال قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ﴾

ب. والمراد بقوله: ﴿ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ أن المغفرة لا تدرككم بوجه لعدم تحقق سببها فالتوبة مفروضة العدم والشفاعة لا تشمل الشرك.

٣٣. اتباع أحسن ما أنزل قبل العذاب وتحسر النفس على التفريط:

المقطع [٣٣] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهَّ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَّ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٥-٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٨١»:

١. ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾:

أ. الخطاب عام للمؤمن والكافر كالخطابات السابقة والقرآن قد أنزل إلى الفريقين جميعا.

ب. وفي الآية أمر باتباع أحسن ما أنزل من الله قيل: المراد به اتباع الأحكام من الحلال والحرام دون القصص، وقيل: اتباع ما أمر به ونهي عنه كإتيان الواجب والمستحب واجتناب الحرام والمكروه دون المباح، وقيل: الاتباع في العزائم وهي الواجبات والمحرمات، وقيل: اتباع الناسخ دون المنسوخ، وقيل: ما أنزل هو جنس الكتب السماوية وأحسنها القرآن فاتباع أحسن ما أنزل وهو اتباع القرآن.

ج. والإنصاف أن قوله في الآية السابقة: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ يشمل مضمون كل من هذه الأقوال فحمل قوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ على شيء منها لا يخلو عن تكرار من غير موجب.

د. ولعل المراد من أحسن ما أنزل الخطابات التي تشير إلى طريق استعمال حق العبودية في امتثال الخطابات الإلهية الاعتقادية والعملية وذلك كالخطابات الداعية إلى ذكر الله تعالى بالاستغراق وإلى حبه

وإلى تقواه حق تقاته وإلى إخلاص الدين له فإن اتباع هذه الخطابات يحيي الإنسان حياة طيبة وينفخ فيه روح الإيمان ويصلح أعماله ويدخله في ولاية الله تعالى وهي الكرامة ليست فوقها كرامة.

٢. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أنسب لهذا المعنى فإن الدعوة إلى عمل بالتخويف من مفاجأة الحرمان ومباغتة المانع إنما تكون غالبا فيما يساهل المدعو في أمره ويطيب نفسه بسوف ولعل، وهذا المعنى أمس بإصلاح الباطن منه بإصلاح الظاهر والإتيان بأجساد الأعمال، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]

٣. ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾:

أ. قال في المجمع: (التفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته، وقال: التحسر الاغتمام مما فات وقته لانحساره عنه بما لا يمكن استدراكه)

ب. وقال الراغب: (الجنب الجارحة، قال: ثم يستعار في الناحية التي تليها لعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال)

ج. فجنب الله جانبه وناحيته وهي ما يرجع إليه تعالى مما يجب على العبد أن يعامله ومصداق ذلك أن يعبده وحده ولا يعصيه والتفريط في جنب الله التقصير في ذلك.

٤. ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾:

أ. ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، والساخرين اسم فاعل من سخر بمعنى استهزأ.

ب. ومعنى الآية إنما نخاطبكم بهذا الخطاب حذر أن تقول أو لئلا تقول نفس منكم يا حسرتا على ما قصرت في جانب الله وإني كنت من المستهزءين، وموطن القول يوم القيامة.

٥. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ضمير تقول للنفس، والمراد بالهداية الإرشاد وإراءة الطريق، والمعنى ظاهر وهو قطع للعذر.

٦. ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لو للتمني والكرة الرجعة، والمعنى أو تقول نفس متمنية حين ترى العذاب يوم القيامة: ليت لي رجعة إلى الدنيا فأكون من المحسنين.

٧. ﴿بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾:

أ. رد لها وجواب لخصوص قولها ثانيا: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ومواطن الجواب يوم القيامة كما أن موطن القول ذلك ولسياق الجواب شهادة عليه.

ب. وقد فصل بين قولها وجوابه بقوله: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى﴾ ولم يجب إلا عن قولها: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي﴾

ج. والوجه في الفصل أن الأقوال الثلاثة المنقولة عنها مرتبة على ترتيب صدورها عن المجرمين يوم القيامة فإذا قامت القيامة ورأى المجرمون أن اليوم يوم الجزاء بالأعمال وقد فرطوا فيها وفاتهم وقتها تحسروا على ما فرطوا ونادوا بالحسرة على تفريطهم ﴿يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ﴾ قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]

د. ثم إذا حوسبوا وأمر المتقون بدخول الجنة وقيل: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] تعللوا بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

هـ. ثم إذا أمروا بدخول النار فأوقفوا عليها ثم أدخلوا فيها تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليحسنوا فيها فيسعدوا ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال حاكيا عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]

و. ثم لما نقل الأقوال على ما بينها من الترتيب أخذ في الجواب ولو أخر القول المجاب عنه حتى يتصل بالجواب أو قدم الجواب حتى يتصل به اختل النظم وقد خص قولهم الثاني: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي﴾ بالجواب وأمسك عن جواب قولهم الأول والثالث لأن في الأول حديث استهزائهم بالحق وأهله وفي الثالث تمنيهم للرجوع إلى الدنيا والله سبحانه يزجر هؤلاء يوم القيامة ويمنعهم أن يكلموه ولا يجيب عن كلامهم كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ﴾

٣٤. سواد وجوه الكاذبين على الله ونجاة المتقين:

المقطع [٣٤] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦٠-٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٨٤»:

١. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الكذب على الله هو القول بأن له شريكا وأن له ولدا ومنه البدعة في الدين، وسواد الوجه آية الذلة وهي جزاء تكبرهم ولذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

٢. ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الظاهر أن مفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز وهو الظفر بالمراد، والباء في ﴿بِمَفازَتِهِمْ﴾ للملابسة أو السببية فالفوز الذي يقضيه الله لهم اليوم سبب تنجيتهم.

٣. ﴿لا يَمَسُّهُمُ﴾ بيان لتنجيتهم كأنه قيل: ينجيهم لا يمسهم السوء من خارج ولا هم يحزنون في أنفسهم.

٤. وللآية نظر إلى قوله تعالى في ذيل آيات سورة المؤمنون المنقولة آنفا: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فتدبر ولا تغفل.

٣٥. الله خالق كل شيء ومقاليد السماوات والأرض بيده:

المقطع [٣٥] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢-٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٨٧»:

١. ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾:

أ. هذا هو الذي ذكر اعتراف المشركين به من قبل في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ وبنى عليه استناد الأشياء في تدبيرها إليه.

ب. والجملة في المقام تمهيد لما يذكر بعدها من كون التدبير مستندا إليه لما تقدم مرارا أن الخلق لا ينفك عن التدبير فانتقل في المقام من استناد الخلق إليه إلى اختصاص الملك به وهو قوله: ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن اختصاص الملك به إلى كونه هو الوكيل على كل شيء القائم مقامه في تدبير

أمره.

ج. وقد تقدم في ذيل قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] في الجزء السابع من الكتاب كلام في معنى عموم الخلقة لكل شيء.

٢. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾:

أ. وذلك لأن انتهاء خلق كل شيء وجوده إليه يقتضي أن يكون تعالى هو المالك لكل شيء فلا يملك شيء من الأشياء لا نفسه ولا شيئا مما يترشح من نفسه إلا بتمليك الله تعالى، فهو لفقره مطلقا لا يملك تدبيرا والله المالك لتدبيره.

ب. وأما تمليكه تعالى له نفسه وعمله فهو أيضا نوع من تدبيره تعالى مؤكد لملكه غير ناف ولا مناف من شئون وكالته تعالى عليهم لا تفويض للأمر وإبطال للوكالة فافهم ذلك.

ج. وبالجملة إذ كان كل شيء من الأشياء لا يملك لنفسه شيئا كان سبحانه هو الوكيل عليه القائم مقامه المدبر لأمره والأسباب والمسببات في ذلك سواء فالله سبحانه هو ربها وحده.

د. فقد تبين أن الجملة مسوقة للإشارة إلى توحده في الربوبية وهو المقصود بيانه فقول بعضهم إن ذكر ذلك بعد قوله: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ للدلالة على أنه هو الغني المطلق وأن المنافع والمضار راجعة إلى العباد، أو أن المراد أنه تعالى حفيظ على كل شيء فيكون إشارة إلى أن الأشياء محتاجة إليه في بقائها كما أنها محتاجة إليه في حدوثها، أجنبي عن معنى الآية بالمرة.

٣. ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. المقاليد، كما قيل، بمعنى المفاتيح ولا مفرد له من لفظه.

ب. ومفاتيح السماوات والأرض مفاتيح خزائنها قال تعالى: ﴿وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] وخزائنها غيبها الذي يظهر منه الأشياء والنظام الجاري فيها فتخرج إلى الشهادة قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

ج. وملك مقاليد السماوات والأرض كناية عن ملك خزائنها التي منها وجودات الأشياء وأرزاقها وأعمارها وآجالها وسائر ما يواجهها في مسيرها من حين تبتدئ منه تعالى إلى حين ترجع إليه.

د. وهو أعني قوله: ﴿لَهُ مَقالِيدُ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ولذا جيء

به مفصولا من غير عطف.

٤. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾:

أ. قد تقدم أن قوله: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضِ﴾ ذكر خلاصة ما تفيده الحجج المذكورة في خلال الآيات السابقة، وعليه فقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والمعنى الذي تدل عليه الآيات والحجج المتقدمة أن الله سبحانه خالق فمالك فوكيل على كل شيء أي متوحد في الربوبية والألوهية والذين كفروا بآيات ربهم فلم يوحدوه ولم يعبدوه أولئك هم الخاسرون.

ب. وقد اختلفوا فيما عطف عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فذكروا فيه وجوها مختلفة كثيرة لا جدوى فيها من أرادها فليرجع إلى المطولات.

٣٦. النهي عن عبادة غير الله وتحذير المشركين من حبوط العمل:

المقطع [٣٦] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٨٩»:

١. ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾:

أ. لما أورد سبحانه خلاصة ما تنطق به الحجج المذكورة في السورة من توحده تعالى بالخلق والملك والتدبير ولازم ذلك توحده تعالى في الربوبية والألوهية أمر نبيه ﷺ أن يخاطب المشركين المقترحين عليه أن يعبد آلهتهم أنه لا يبقى مع هذه الحجج الباهرة الظاهرة محل لعبادته غير الله وإجابة اقتراحهم وهل هي إلا الجهل.

ب. فقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ الفاء لتفريع مضمون الجملة على قوله: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى آخر الآيتين، والاستفهام إنكاري، و﴿فَغَيْرَ اللهِ﴾ مفعول ﴿أَعْبُدُ﴾ قدم عليه لتعلق العناية به، و﴿تَأْمُرُونِّي﴾ معترض بين الفعل ومفعوله وأصله تأمرونني أدغمت فيه إحدى النونين في الأخرى.

ج. ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ خطابهم بصفة الجهل للإشارة إلى أن أمرهم إياه بعبادة غير الله واقتراحهم بذلك مع ظهور آيات وحدته في الربوبية والألوهية ليس إلا جهلا منهم.

٢. ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾:

أ. فيه تأييد لمدلول الحجج العقلية المذكورة بالوحي كأنه قيل: لا تعبد غير الله فإنه جهل وكيف يسوغ لك أن تعبده وقد دل الوحي على النهي عنه كما دل العقل على ذلك.

ب. فقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ اللام للقسم، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ بيان لما أوحي إليه، وتقدير الكلام وأقسم لقد أوحي إليك لئن أشركت.، وإلى الذين من قبلك من الأنبياء والرسل لئن أشركتم ليحبطن عملكم ولتكونن من الخاسرين.

ج. وخطاب النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم‌السلام بالنهي عن الشرك وإنذارهم بحبط العمل والدخول في زمرة الخاسرين خطاب وإنذار على حقيقة معناهما كيف؟ وغرض السورة، كما تقدمت الإشارة إليه، بيان أن النبي ﷺ مأمور بالإيمان بما يدعو المشركين إلى الإيمان به مكلف بما يكلفهم ولا يسعه أن يجيبهم إلى ما يقترحون به عليه من عبادة آلهتهم.

د. وأما كون الأنبياء معصومين بعصمة إلهية يمتنع معها صدور المعصية عنهم فلا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم وعدم صحة توجهه إليهم ولو كان كذلك لم تتصور في حقهم معصية كسائر من لا تكليف عليه فلم يكن معنى لعصمتهم.

هـ. على أن العصمة، وهي قوة يمتنع معها صدور المعصية، من شئون مقام العلم، كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣]، لا تنافي ثبوت الاختيار الذي هو من شئون مقام العمل وصحة صدور الفعل والترك عن الجوارح.

و. فمنع العلم القطعي بمفسدة شيء منعا قطعيا عن صدوره عن العالم به كمنع العلم بأثر السم عن شربه لا ينافي كون العالم بذلك مختارا في الفعل لصحة صدوره ولا صدوره عن جوارحه فالعصمة لا تنافي بوجه التكليف.

ز. ومما تقدم يظهر ضعف ما يستفاد من بعضهم أن نهيه ﷺ عن الشرك ونحوه نهي صوري والمراد به نهي أمته فهو من قبيل (إياك أعني واسمعي يا جارة)، ووجه الضعف ظاهر مما تقدم، وأما قولنا كما ورد في بعض الروايات أن هذه الخطابات القرآنية من قبيل (إياك أعني واسمعي يا جارة) فمعناه أن التكليف لما كان من ظاهر أمره أن يتعلق بمن يجوز عليه الطاعة والمعصية فلو تعلق بمن ليس منه إلا الطاعة مع

مشاركة غيره له كان ذلك تكليفا على وجه أبلغ كالكناية التي هي أبلغ من التصريح.

٣. ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ظهر معناه مما تقدم ويمكن أن يكون اللام في الخاسرين مفيدا للعهد، والمعنى ولتكونن من الخاسرين الذين كفروا بآيات الله وأعرضوا عن الحجج الدالة على وحدانيته.

٤. ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾:

أ. إضراب عن النهي المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل فلا تعبد غير الله بل الله فاعبد، وتقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر.

ب. والفاء في ﴿فَاعْبُدْ﴾ زائدة للتأكيد على ما قيل، وقيل: هي فاء الجزاء وقد حذف شرطه والتقدير بل إن كنت عابدا أو عاقلا فاعبد الله.

٥. ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾:

أي وكن بعبادتك له من الذين يشكرونه على نعمه الدالة على توحده في الربوبية والألوهية، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] أن مصداق الشاكرين بحقيقة معنى الكلمة هم المخلصون بفتح اللام فراجع.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فهذه مخاطبة النبي ﷺ والمعنى لأمته، وهو ما قاله الصادق عليه السلام: إن الله عز وجل بعث نبيه بإياك أعني واسمعي يا جارة.

٣٧. عظمة الله وقبضته للأرض وطي السماوات:

المقطع [٣٧] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٩٢»:

١. ﴿وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾:

أ. قدر الشيء هو مقداره وكميته من حجم أو عدد أو وزن وما أشبه ذلك ثم أستعير للمعنويات من المكانة والمنزلة.

ب. فقوله: ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ تمثيل أريد به عدم معرفتهم به تعالى واجب المعرفة إذ لم

يعرفوه من حيث المعاد ورجوع الأشياء إليه كما يدل عليه تعقيب الجملة بقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ إلى آخر السورة حيث ذكر فيه انقطاع كل سبب دونه يوم القيامة، وقبضه الأرض وطيه السماوات ونفخ الصور لإماتة الكل ثم لإحيائهم وإشراق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء وتوفية كل نفس ما عملت وسوق المجرمين إلى النار والمتقين إلى الجنة فمن كان شأنه في الملك والتصرف هذا الشأن وعرف بذلك أوجبت هذه المعرفة الإقبال إليه بعبادته وحده والإعراض عن غيره بالكلية.

ج. لكن المشركين لما لم يؤمنوا بالمعاد ولم يقدروه حق قدره ولم يعرفوه واجب معرفته أعرضوا عن عبادته إلى عبادة من سواه.

٢. ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾:

أ. أي الأرض بما فيها من الأجزاء والأسباب الفعالة بعضها في بعض، والقبضة مصدر بمعنى المقبوضة، والقبض على الشيء وكونه في القبضة كناية عن التسلط التام عليه أو انحصار التسلط عليه في القابض والمراد هاهنا المعنى الثاني كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وغيره من الآيات.

ب. وقد مر مرارا أن معنى انحصار الملك والأمر والحكم والسلطان وغير ذلك يوم القيامة فيه تعالى ظهور ذلك لأهل الجمع يومئذ وإلا فهي له تعالى دائما فمعنى كون الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ظهور ذلك يومئذ للناس لا أصله.

٣. ﴿وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ يمين الشيء يده اليمنى وجانبه القوي ويكنى بها عن القدرة، ويستفاد من السياق أن محصل الجملتين أعني قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ تقطع الأسباب الأرضية والسماوية وسقوطها وظهور أن لا مؤثر في الوجود إلا الله سبحانه.

٤. ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى عما أشركوا غيره في ربوبيته وألوهيته فنسبوا تدبير العالم إلى آلهتهم وعبدوها.

٥. أحاديث وآثار:

أ. عن كتاب التوحيد، بإسناده إلى الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله عز وجل لا يوصف.

ب. قال: وقال زرارة: قال أبو جعفر عليه السلام: إن الله لا يوصف وكيف يوصف وقد قال في كتابه: ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ؟﴾ فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك.

ج. وفيه، بإسناده عن سليمان بن مهران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ قال: ملكه لا يملكها معه أحد، والقبض عن الله تعالى في موضع آخر المنع، والبسط منه الإعطاء والتوسع كما قال عز وجل: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني يعطي ويوسع ويضيق، والقبض منه عز وجل في وجه آخر الأخذ، والأخذ في وجه القبول منه كما قال: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ﴾ أي يقبلها من أهلها ويثيب عليها، قلت: فقوله عز وجل: ﴿وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾؟ قال: اليمين اليد واليد القدرة والقوة، يقول عز وجل: ﴿وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي بقدرته وقوته سبحانه وتعالى عما يشركون.

٣٨. النفخ في الصور وصعقة الموت والبعث والحساب بالحق:

المقطع [٣٨] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨-٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٩٣»:

١. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾:

أ. ظاهر ما ورد في كلامه تعالى في معنى نفخ الصور أن النفخ نفختان نفخة للإماتة ونفخة للإحياء، وهو الذي تدل عليه روايات أئمة أهل البيت عليه السلام وبعض ما ورد من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ وإن كان بعض آخر من رواياتهم لا يخلو عن إبهام ولذا اختار بعضهم أنها ثلاث نفخات نفخة للإماتة ونفخة للإحياء والبعث ونفخة للفزع والصعق وقال بعضهم: إنها أربع نفخات ولكن دون إثبات ذلك من ظواهر الآيات خرط القتاد.

ب. ولعل انحصار النفخ في نفختي الإماتة والإحياء هو الموجب لتفسيرهم الصعق في النفخة

الأولى بالموت مع أن المعروف من معنى الصعق الغشية، قال في الصحاح: يقال: صعق الرجل صعقا وتصاعقا أي غشي عليه وأصعقه غيره، ثم قال: وقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مات) انتهى

٢. ﴿إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾:

أ. استثناء من أهل السماوات والأرض واختلف في من هم؟

• فقيل: هم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل سادة الملائكة فإنهم إنما يموتون بعد ذلك.

• وقيل: هم هؤلاء الأربعة وحملة العرش.

• وقيل: هم رضوان والحور ومالك والزبانية.

• وقيل: وهو أسخف الأقوال: إن المراد بمن شاء الله هو الله سبحانه.

• وأنت خبير بأن شيئا من هذه الأقاويل لا يستند إلى دليل من لفظة الآيات يصح الاستناد إليه.

ب. نعم لو تصور لله سبحانه خلق وراء السماوات والأرض جاز استثناؤهم من أهلهما استثناء منقطعا أو قيل: إن الموت إنما يلحق الأجساد بانقطاع تعلق الأرواح بها وأما الأرواح فإنها لا تموت فالأرواح هم المستثنون استثناء متصلا ويؤيد هذا الوجه بعض الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

٣. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾:

أ. ضمير ﴿فِيهِ﴾ للصور، و﴿أُخْرى﴾ صفة محذوف موصوفها أي نفخة أخرى، وقيام جمع قائم و﴿يَنْظُرُونَ﴾ أي ينتظرون أو من النظر بمعناه المعروف.

ب. والمعنى: ونفخ في الصور نفخة أخرى فإذا هم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ما ذا يفعل بهم أو فإذا هم قائمون ينظرون نظر المبهوت المتحير.

ج. ولا ينافي ما في هذه الآية من كونهم بعد النفخ قياما ينظرون ما في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] أي يسرعون، وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧] فإن فزعهم بالنفخ وإسراعهم في المشي إلى عرصة المحشر وإتيانهم إليها أفواجا كقيامهم ينظرون

حوادث متقارنة لا يدفع بعضها بعضا.

٤. ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إشراق الأرض إضاءتها، والنور معروف المعنى وقد استعمل النور في كلامه تعالى في النور الحسي كثيرا وأطلق أيضا على الإيمان وعلى القرآن بعناية أن كلا منهما يظهر للمتلبس به ما خفي عليه لولاه قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨] وقد اختلفوا في معنى إشراق الأرض بنور ربها:

أ. فقيل: إنها تضيء بنور يخلقه الله بلا واسطة أجسام مضيئة كالشمس والقمر وإضافته إليه تعالى من قبيل روحي و﴿نَاقَةُ اللهِ﴾

• وفيه أنه لا يستند إلى دليل يعتمد عليه.

ب. وقيل: المراد به تجلي الرب تعالى لفصل القضاء كما ورد في بعض الأخبار من طرق أهل السنة.

• وفيه أنه على تقدير صحة الرواية لا يدل على المدعى.

ج. وقيل: المراد به إضاءة الأرض بعدل ربها يوم القيامة لأن نور الأرض بالعدل كما أن نور العلم بالعمل.

• وفيه أن صحة استعارة النور للعدل في نفسه لا تستلزم كون المراد بالنور في الآية هو العدل إلا بدليل يدل عليه ولم يأت به.

د. وفي الكشاف، قد استعار الله عز وجل النور للحق والبرهان في مواضع من التنزيل وهذا من ذاك، والمعنى وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات، وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل، وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه ويحكم بالحق بين أهلها، ولا ترى أزين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه، وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها وإنما يجور فيها غير ربها، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور، وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك كما تقول أظلمت البلاد بجور فلان قال رسول الله ﷺ: الظلم ظلمات يوم القيامة وكما فتح الآية

بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم)

• وفيه:

● أولا: أن قوله إن النور مستعار في مواضع كثيرة من القرآن للحق والقرآن والبرهان فاستعارته للحق والبرهان غير ظاهر في شيء من الآيات.

● وثانيا: أن الحق والعدل مفهومان متغايران وإن كانا ربما يتصادقان وكون النور في الآية مستعارا للحق لا يستلزم كون العدل مرادا به، ولذا لما أراد بيان إرادة العدل من النور ذكر الحق مع العدل ثم استنتج للعدل دون الحق.

٥. ولا يبعد أن يراد، والله أعلم، من إشراق الأرض بنور ربها:

أ. ما هو خاصة يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وبدو الأعمال من خير أو شر أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين، وإشراق الشيء هو ظهوره بالنور ولا ريب أن مظهرها يومئذ هو الله سبحانه إذ الأسباب ساقطة دونه فالأشياء مشرقة بنور مكتسب منه تعالى.

ب. وهذا الإشراق وإن كان عاما لكل شيء يسعه النور لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض وأهله يومئذ من الشأن خصها بالبيان فقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾

ج. وذكره تعالى بعنوان ربوبية الأرض تعريضا للمشركين المنكرين لربوبيته تعالى للأرض وما فيها.

د. والمراد بالأرض مع ذلك الأرض وما فيها وما يتعلق بها كما تقدم أن المراد بالأرض في قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾ ذلك.

٦. ويستفاد ما قدمناه من مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وآيات أخرى كثيرة تدل على ظهور الأعمال وتجسمها وشهادة الأعضاء وغير ذلك.

٧. ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ﴾ قيل: المراد به الحساب وهو كما ترى وقيل: المراد به صحائف الأعمال التي

يحاسب عليها ويقضى بها، وقيل: المراد به اللوح المحفوظ ويؤيده قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]

٨. ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ أما النبيون فليسألوا عن أداء رسالتهم كما يشعر به السياق قال تعالى: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾:، وأما الشهداء وهم شهداء الأعمال فليؤدوا ما تحملوه من الشهادة قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]

٩. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ ضميرا الجمع للناس المعلوم من السياق، والقضاء بينهم هو القضاء فيما اختلفوا فيه الوارد كرارا في كلامه تعالى قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧]

١٠. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ﴾ التوفية الإعطاء بالتمام وقد علقت بنفس ما عملت دون جزائه ويقطع ذلك الريب في كونه قسطا وعدلا من أصله والآية بمنزلة البيان لقوله: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾

١١. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ﴾ أي ليس حكمه بهذا النمط من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء عن جهل منه وحاجة بل لأن يجري حكمه على القسط والعدل فهو أعلم بما يفعلون.

١٢. والآية السابقة تتضمن القضاء والحكم وهذه الآية إجراؤه والآيات اللاحقة تفصيل إجرائه.

١٣. أحاديث وآثار:

أ. روي في الدر المنثور، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ أنهم الشهداء مقلدون بأسيافهم حول عرشه.

- الخبر وظاهره أن النفخة غير نفخة الإماتة وقد تقدم أن الآية ظاهرة في خلافه.

ب. وروي عن أنس عنه ﷺ: أنهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وحملة العرش وأنهم يموتون بعدها الخبر، والآية ظاهرة في خلافه.

ج. وروي عن جابر: استثني موسى لأنه كان صعق قبل، الخبر.

- وفيه أن الصعق سواء أخذ بمعنى الموت أو بمعنى الغشية لا يختص الصعق قبل ذلك بموسى

عليه السلام.

٣٩. سوق الكافرين إلى جهنم زمراً:

المقطع [٣٩] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٩٧»:

١. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ﴾:

أ. السوق بالفتح فالسكون، على ما في المجمع: (الحث على السير، والزمر جمع زمرة وهي، كما في الصحاح، الجماعة من الناس.

ب. والمعنى ﴿وَسِيقَ﴾ وحث على السير ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ جماعة بعد جماعة ﴿حَتَّى إذا جاؤها﴾ بلغوها ﴿فُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ لأجل دخولهم وهي سبعة قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: ٤٤] ﴿وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها﴾ وهم الملائكة الموكلون عليها يقولون لهم تهجينا وإنكارا عليهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ من نوعكم من البشر ﴿يَتْلُونَ﴾ ويقرءون ﴿عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ﴾ من الحجج الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته ﴿قالُوا﴾ بلى قد جاءوا وتلوا ﴿وَلكِنْ﴾ كفرنا وكذبنا و﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ وكلمة العذاب هي قوله تعالى حين أمر آدم بالهبوط: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]

٢. ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ القائل، على ما يفيده السياق، خزنة جهنم، وفي قوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ دلالة على أن هؤلاء الذين كفروا هم المكذبون بآيات الله المعاندون للحق.

٣. في المجمع في قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوابٍ﴾ فيه قولان أحدهما ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، أن جهنم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض، ووضع إحدى يديه على الأخرى فقال: هكذا، وأن الله وضع الجنان على الأرض، ووضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها جهنم، وفوقها لظى، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وفي رواية الكلبي أسفلها الهاوية

وأعلاها جهنم.

٤٠. سوق المتقين إلى الجنة زمراً:

المقطع [٤٠] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣ـ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٩٧»:

١. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها﴾:

أ. لم يذكر في الآية جواب إذا إشارة إلى أنه أمر فوق ما يوصف ووراء ما يقدر بقدر، وقوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ حال أي جاءوها وقد فتحت أبوابها، وقوله: ﴿خَزَنَتُها﴾ هم الملائكة الموكلون عليها.

ب. والمعنى ﴿وَسِيقَ﴾ وحث على السير ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ جماعة بعد جماعة ﴿حَتَّى إِذا جاؤُها وَ﴾ قد ﴿فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها﴾ الموكلون عليها مستقبلين لهم ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أنتم في سلام مطلق لا يلقاكم إلا ما ترضون ﴿طِبْتُمْ﴾ ولعله تعليل لإطلاق السلام ﴿فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾ فيها، وهو أثر طيبهم.

٢. ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾:

أ. القائلون هم المتقون والمراد بالوعد ما تكرر في كلامه تعالى وفيما أوحي إلى سائر الأنبياء من وعد المتقين بالجنة قال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ [آل عمران: ١٥] وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤]، كذا قيل، وقيل: المراد بالوعد الوعد بالبعث والثواب.

ب. ولا يبعد أن يراد بالوعد الوعد بإيراث الجنة كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ـ١١] ويكون قوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ عطف تفسير لقوله: ﴿صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾

٣. ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ المراد بالأرض، على ما قالوا، أرض الجنة وهي التي عليها الاستقرار فيها وقد تقدم في أول سورة المؤمنون أن المراد بوراثتهم الجنة بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت إليهم.

٤. ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ﴾:

أ. بيان لإيراثهم الأرض، وتبديل ضمير الأرض بالجنة للإشارة إلى أنها المراد بالأرض.

ب. وقيل: المراد بالأرض هي أرض الدنيا وهو سخيف إلا أن يوجه بأن الجنة هي عقبى هذه الدار قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢]

ج. والمعنى وقال المتقون بعد دخول الجنة: الحمد لله الذي صدقنا وعده أن سيدخلنا أو أن سيورثنا الجنة نسكن منها حيث نشاء ونختار، فلهم ما يشاءون فيها،

٥. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ أي فنعم الأجر أجر العاملين لله تعالى، وهو على ما يعطيه السياق قول أهل الجنة، واحتمل أن يكون من قوله تعالى.

٦. أحاديث وآثار: في الخصال، عن أبي عبد الله عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، فلا أزال واقفا على الصراط أدعو وأقول: رب سلم شيعتي ومحبي وأنصاري، ومن تولاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش، قد أجيبت دعوتك وشفعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني، وحارب من حاربني بفعل أو قول، في سبعين ألفا من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين، ممن يشهد أن لا إله إلا الله، ولم يكن في قلبه مثقال من بغضنا أهل البيت.

٤١. الملائكة حافون حول العرش يسبحون بحمد ربهم:

المقطع [٤١] من سورة الزمر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٧/ ٢٩٨»:

١. ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾:

أ. الحف الإحداق والإحاطة بالشيء، والعرش هو المقام الذي يصدر منه الفرامين والأوامر الإلهية التي يدبر بها العالم، والملائكة هم المجرون لمشيته العاملون بأمره، ورؤية الملائكة على تلك الحال كناية عن ظهور ذلك وقد طويت السماوات.

ب. والمعنى: وترى يومئذ الملائكة والحال أنهم محدقون بالعرش مطيفون به لإجراء الأمر الصادر منه وهم يسبحون بحمد ربهم.

٢. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾:

أ. احتمل رجوع الضمير إلى الملائكة، ورجوعه إلى الناس والملائكة جميعا، ورجوعه إلى جميع الخلائق، ورجوعه إلى الناس فالقضاء بين أهل الجنة وأهل النار منهم أو بين الأنبياء وأممهم.

ب. ويضعف الاحتمال الأخير أن القضاء بين الناس قد ذكر قبلا في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ فذكر القضاء بينهم ثانيا تكرار من غير موجب.

ج. لكن ظاهر القضاء بين جماعة هو الحكم لبعضهم على بعض لوجود اختلاف ما بينهم ولا تحقق للاختلاف بين الملائكة، وهذا يؤيد أن يكون الضمير لغيرهم والقضاء بين الناس غير أن القضاء كما يطلق على نفس حكم الحاكم يصح إطلاقه على مجموع الحكم ومقدماته وتبعاته من حضور المتخاصمين وطرح الدعوى وشهادة الشهود وحكم الحاكم وإيفاء المحق حقه فمن الممكن أن يكون المراد بالقضاء المذكور أولا نفس الحكم الإلهي وبهذا القضاء المذكور ثانيا هو مجموع ما يجري عليهم من حين يبعثون إلى حين دخول أهل النار النار وأهل الجنة الجنة واستقرارهم فيهما وبذلك يندفع إشكال التكرار من غير موجب.

٣. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾:

أ. كلمة خاتمة للبدء والعود وثناء عام له تعالى أنه لم يفعل ولا يفعل إلا الجميل.

ب. قيل: قائله المتقون وكان حمدهم الأول على دخولهم الجنة والثاني للقضاء بينهم وبين غيرهم بالحق، وقيل: قائله الملائكة ولم ينسب إليهم صريحا لتعظيم أمرهم، وقيل: القائل جميع الخلائق.

ج. ويؤيد الأول قوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] وهو حمد عام خاتم للخلقة كما سمعت.